أبناء السندباد

(قصة الابحار مع العرب فى مراكبهم الشراعية فى البحر الاحمر ، وحول ساحل الجزيرة العربية ، الى زنجبار وتنجانيقا ، وقصة الغوص على اللؤلؤ فى الخليج العربي ، مع وصف لحياة النواخذة – أى ربابنة السفن – والبحارة والتجار فى الكويت)

تأليف

ألن فليرز

ترجمة وتحقيق

د . نايف خرما

مطبعة حكومة الكويت

١٩٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

أبناء السندباد





محتويات الكتاب



قائمة الصور والخرائط

تابع قائمة الصور والخرائط

تقديم

يسرني أن أقدم هذا الكتاب إلى أهل الكويت بخاصة وإلى الشعب العربي بعامة، بعد أن تمت ترجمته بشكل أمين موثق وبدقة متناهية ولغة عربية رفيعة المستوى ولكنها مفهومة للجميع.

الكتاب وثيقة هامة تسجل للكويت في أواخر العقد الثالث من القرن الحالي، وتسجل الكثير من أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ولكنها على وجه الخصوص تسجل فنون الملاحة الكويتية والعربية التي كانت تعتمد على الشراع والتي لم يكتب عنها شيء يذكر منذ أيام ابن ماجد.

ومما يزيد من أهمية الكتاب من هذه الناحية أن مؤلفه قبطان قديم خبير بفنون الملاحة بأشكالها المختلفة، وقد زاد من قيمة ما كتبه دقة الملاحظة الهائلة التي كان يتمتع بها والتي تظهر في كل سطر من سطور الكتاب.

وفوق ذلك كله، فإني أقدم هذا الكتاب للجيل الجديد من أبنائنا، أبناء النفط، الذين لم يقاسوا من شظف العيش شيئاً، لكي يطلعوا على ما فعله الآباء والأجداد من أجلهم وما كان هؤلاء الآباء والأجداد يتحلون به من الرجولة والمروءة والحكمة وقوة الاحتمال، لكي يكونوا مثلاً أعلى ومنارة يهتدون بها ويقتفون أثرها.

والله الموفق.

صباح الأحمد الجابر

نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية

ووزير الإعلام بالنيابة

كلمة المترجم

لا شك أن وزارة الاعلام قد أحسنت صنعا باهتمامها الشديد بالكتاب الذي بين أيدينا ۰ فكتاب « أبناء السندباد » سفر عظيم القيمة حقا ۰ وترجع قيمته وأهميته لأسباب عدة :

أولها : ان الكتاب يكاد يكون الوحيد من نوعه الذي يؤرخ للملاحة والرحلات البحرية الكويتية القديمة ، التى كانت تتم على ظهور المراكب الشراعية العربية ذات الشهرة العريقة ، التي كانت تبنى في الموانىء العربية بوجه عام وفي ميناء الكويت بوجه خاص ۰ وقد حالف الحظ المؤلف ، اذ ادرك تلك الرحلات وهي تؤذن بنهاية ازدهار عهد مجيد في ارتياد الآفاق ، والتطواف في البحار ابتداء من البصرة شمالا وانتهاء بموانىء الخليج المختلفة في بعض الأحيان ، أو امتدادا الى سواحل الجزيرة العربية الجنوبية الى عدن ، ثم الى سواحل افريقيا الشرقية من جهة ، أو الى سواحل شبه القارة الهندية من جهة أخرى ۰

أما السبب الثاني ، الذى يجعل من الكتاب مرجعا لا غنى عنه للباحث في شئون الملاحة والرحلات البحرية العربية بعامة ، والكويتية بخاصة ، فهو أن المؤلف ربما كان افضل من يستطيع الكتابة عن هذه الناحية لأنه مؤهل لذلك تاهيلا كاملا ، فهو معروف بحبه للبحر والملاحة منذ نعومة أظفاره ۰ فقد بدأ بالابحار على متن مركب شراعي مغادر لوطنه استراليا منذ كان في الخامسة عشرة من عمره ۰ وفي عام ۱۹۳٥ كان الن فلييرز (او الشيخ ماجد ، كما كان البحارة العرب يسمونه) يقود المركب الشراعي الشهير « جوزيف كونراد » ، الذي كان آخر مركب شراعي يدور حول راس « هورن » باقصى جنوب القارتين الامريكيتين ۰ كما أنه كان قبطان المركب الشراعي الذى بنى على غرار مركب « ماى فلور » (۱) الذى كان كريستوفر كلومبوس

(۱) « ماي فلور » هو أحد ثلاثة مراكب استخدمها كريستوفر كولومبوس في الرحلة الأولى التي قام بها الى أمريكا عام ۱٤۹۲م ۰

قد سافر عليه الى أمريكا) ، عندما قام برحلته الشهيرة الى أمريكا عام ١٩٥٧ • وكتابات المؤلف عن البحر والملاحة كثيرة ، كان آخرها « القبطان جيمس كوك » • ويمكن اعتبار المؤلف آخر الملاحين العظام الذين عملوا على ظهور المراكب الشراعية وأكثرهم شهرة • ولذلك فهو ، بهذه الخلفية العظيمة ، أفضل من يتناول موضوع الملاحة العربية الكويتية بالبحث والتقصي •

الا ان المؤلف لم يكتف بالبحث والتقصي عن بعد ، بل ربما ترجع قيمة مؤلفه هذا الى انه جاء ثمرة لمعاناة كاملة ، وتجربة شخصية بعض جوانبها مريرة قاسية • فقد أبى الا ان يرى ويراقب بنفسه كل جانب من جوانب تلك الرحلات البحرية ، التي كان يقوم بها الكويتيون (وغيرهم من العرب) ، في أواخر الثلاثينات من القرن الحالي ، والتي انقرضت أو كادت الآن • فهو يمتطي ظهر أحد المراكب الكبيرة ، ويعايش الرحلة والقائمين بها ساعة فساعة منذ اللحظة التى يبحر فيها المركب من ميناء عدن ليطوف في سواحل الجزيرة العربية الجنوبية ، ثم يقفل عائدا الى ساحل افريقيا الشرقي ، فيجوبه كله ، مرفا مرفا الى ان يصل الى زنجبار جنوبا • بل ويابى المؤلف الا ان يرافق المركب في رحلته الشاقة المخيفة الى دلتا نهر الروفيجي ، حيث البعوض والملاريا ، والمخاطر الاخرى ، رغم تخلف « نوخذة » المركب في زنجبار • ثم يعود المؤلف مع المركب في رحلة العودة الى ان يدخل الخليج العربي ، ويصعد فيه الى مسقط والبحرين ، وحتى يلقي مراسيه أخيرا فى موطنه الكويت •

لقد كانت تجربة الكاتب في رحلته هذه تجربة عميقة ، مثيرة ، غنية بالأحداث ، مليئة بالانفعالات والأحاسيس • وبما ان الرحلات البرية (لا البحرية) التي كان الاجانب من غير العرب يقومون بها للجزيرة العربية هي التي كانت حتى وقت قريب تستاثر بالاهتمام ، كتلك الرحلات التي قام بها وكتب عنها بوركارت ، وسير رتشارد بيرتون ، ودوتى وغيرهم ، لهذا يمكننا ان نعتبر جهد مؤلف هذا الكتاب جهدا رائدا فى مجال الرحلات البحرية ، ومن أبرزها ، ان لم يكن أبرزها على الاطلاق •

لقد ادرك المؤلف تلك الحقبة الغاربة من نشاط الملاحة العربية فسجلها احسن تسجيل ، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة ، الا أوفاها حقها من الوصف والدراسة والتحليل • فقد حرص كل الحرص على تدوين الاحداث ، وانطباعاته عن الاشخاص ، ووصف المراكب واجزائها ، وصف الفنان

الخبير ، بل وصف العاشق المتيم بها حبا ، وبذل في ذلك جهدا كبيرا حقا • كما حرص على وصف فنون الملاحة البحرية العربية وصفا تفصيليا دقيقا ، وعلى مقارنتها في كثير من الاحيان بفنون الملاحة الغربية التي يتقنها هو ، وعلى الاعتراف بان الطريقة التي كان « النوخذة » العربي يتعامل فيها مع مركبه كانت تفعل ما لا يمكن ان يفعله هو أو غيره من القباطنة الاوروبيين، بالنسبة لتلك المراكب العربية ، وبالنسبة للمياه التي كان يجوبها • ولعلنا لا نبالغ اذا قلنا ان دقة الكاتب وحرصه الشديد على التاكد من الأشياء والوقائع سواء المحسوسة والملموسة عن الرحلات : أدواتها ، وأماكنها ، ومناحي نشاطها ، وما يحمل المركب ، وما يفرغ او سواها أقول ، لا نبالغ اذا اعتبرنا هذا الجهد الدقيق ، النابع من المعاناة الخصبة العميقة ، يرقى الى مرتبة الأثر الوثائقي ، الذي لا يستغني عنه المؤرخ في تسجيل ناحية هامة من نواحي النشاط الحياتى التجارى للكويتيين بوجه خاص ، وما يتصل بذلك من أسفار ورحلات قريبة (كالغوص على اللؤلؤ) ، او بعيدة كالاتجار بالتمور والسلع الاخرى ، كانت الرئة شبه الوحيدة التي يتنسم منها الكويتيون انفاس الحياة قبل ظهور النفط •

وفوق ذلك ، فان الكتاب لا يخلو من نفس قصصي ، نفس يدعو الى التشويق ، ويشد القارىء اليه شدا قويا • فالكاتب يملك القدرة على سرد الأحداث كانها منظومة في قصة ممتعة ، يتلو بعضها بعضا كانها سيناريو فيلم جميل ، وكثيرا ما ياخذ بمجامع القلوب والألباب •

وقد برزت هذه الناحية الفنية ، أو الطاقة القصصية ، في مقدرة الكاتب على رسم أشخاص الكتاب ، بمن فيهم النوخذة ورفاقه من الآخذين بزمام المركب ، والبحارة ، والطباخ ، والموسيقي ، والمغني ، العاملين على المراكب الكبيرة ، والغواصين على اللؤلؤ في مراكبهم الخاصة ، ومساعديهم، وتجار اللؤلؤ ، والوسطاء الخ الخ ـ فهو يقوم برسم أشخاصهم حتى كانك تراهم أمامك بل وتلمسهم بيديك • لقد كان الكاتب بارعا حقا في رسم لوحات ناطقة لكثير من الشخصيات ، فكانت في واقعيتها ، أحيانا ، أكثر صدقا من الحقيقة • ولعل الانسان لا يلقى هذه المقدرة الا في آثار كبار الأدباء والكتاب ، ولا يتمكن بسهولة من الاهتداء الى لوحة ترسم شخصية كتلك التي رسمها المؤلف للنوخذة « نجدي » : القامة والملامح البدنية ، والخصائص النفسية ، والحركات والتصرفات التي تنسجم مع التكوين البدني والنفسي والانساني الخ • لقد وفق المؤلف في رسم شخصياته ، كما وفق في سرد أحداث رحلته أكبر توفيق ، حتى جعل من كتابه ، وهو من أدب الرحلات ، شيئا آخر ، بحيث أصبح فنا من الفنون ، او نوعا من الأدب

القصصي الرفيع • ولعل شخصية « نجدي » بالذات ستخلد ، كما خلدت شخوص كثيرة في روايات وآثار عالمية ، وذلك لصدق المؤلف وتوفيقه الكبير في رسمها نموذجا ممتازا لوعي العربي الخليجي أو الكويتي ، ولدرايته وحسن تصرفه وتحفزه الدائم ، ناهيك عن كرمه الفطري ، وسماحة اخلاقه ، وطيب سجاياه ، مع توفر الحزم والعزم والرجولة الكاملة الأصيلة •

ولم يقتصر الكاتب ، وأسلوبه الأدبي ومقدرته الفنية على رسم الأشخاص ، بل امتدت الى الأشياء • فقد تحدث عن الموانىء التى تعج بالحياة ، كما تحدث عن الموانىء الفقيرة المهجورة التى تتبعثر فيها الأشياء وينتشر فيها التسول والمرض واللصوصية ، وأتى بمعلومات ، أو قل صور حية ، عن أدق دقائق هذه الموانىء بما فيها ومن فيها ، وبصدق كبير ، حتى كأنه يرسم خريطة نابضة ، تنبض — على الرغم من الكآبة التى تغلفها في كثير من الأحيان — بكثير من الحيوية والجمال •

وليست النواحي الملاحية والبحرية هي أهم ما في الكتاب • بل ربما كان تحليل الكاتب ووصفه للنواحي والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية التي تقوم بين أفراد طاقم المركب من جهة وبين الطبقات الاجتماعية المختلفة في مدينة الكويت نفسها ، نقول ربما كان ذلك يزيد في الأهمية عن النواحي الفنية البحتة التي تدخل في حقل اختصاص المؤلف • فهو يفتش في الرحلات البحرية عند أصولها الاقتصادية وجذورها الاجتماعية ، ويجد وقتا كافيا ليتحدث عن الناس ، والأزياء ، والعادات ، والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية، والسمات الاخلاقية ، كل ذلك من خلال اللمسة الانسانية المعبرة التي تولدها الصلات الانسانية الحميمة ، والتي تعتمد على استقاء المعلومات من مصادرها الحية ، كما وصف كويت نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات كأصدق ما يكون الوصف • ولعمري ، فقد كان لا بد لهذه الفترة أن تسجل ويدقق فيها ، حتى يمكن النظر اليها عند تقييم ما حل بالكويت من تطور ، وما أصابها من تجدد وتقدم بعد اكتشاف النفط • وستبقى صورة كويت ما قبل النفط من اهم الصور وأجدرها بالتسجيل الدقيق ، بل لعلها من اكثرها خلودا وعراقة ، لأنها تاريخ لعهود طويلة ، ومئات من سني العرق والدموع والجهد الأصيل المثابر ، والمقدرة على الصمود للتحدي وقسوة البيئة ، وتحقيق عملية اختراق كبرى ونجاحات اقتصادية جاءت من ركوب البحر وارتياد المجاهل بصبر أخلاقى ، وجلد صوفى ، ومقدرة كبيرة على الابداع والانتاج •

ليس من الممكن إيفاء الكتاب حقه في هذه العجالة ، الا أنه لا بد من ذكر ميزة خاصة يتحلى بها ، ألا وهي الموقف المتعاطف مع الكويت ، المتفهم

لأوضاعها ومشاكلها ، سكانا ومكانا ، أفرادا وجماعات ، نظام حكم ورعية • فلا يجد القاريء في هذا الكتاب شائبة من شوائب تشويه الحقائق أو نشوزا في تفسيرها ، كما يفعل كثير من الغربيين الذين يكتبون عن هذا الجزء من العالم • بل لقد ظل الكاتب في معظم الوقت مخلصا للحقيقة ، معجبا كل الاعجاب بالكويت والكويتيين ، صادقا صدوقا ، متفقا مع وجهة نظر الحكومة في الاصلاح التدريجي البطيء ـ وهي ما اثبتت الأيام صحتها وحكمتها ـ متمنيا للجميع الخير والازدهار • قد يخطيء الكاتب ـ ولعل له بعض العذر ـ عندما يتحدث عن موانيء وأشخاص آخرين غير الكويت والكويتيين لا يستأثرون باعجابه ، ولكنه عندما يتحدث عن الكويت ، ويتطرق الى الكويتيين ، فانه يمحضهم الولاء ، وتنبض سطور كتابه بالتقدير والاعجاب • ويبقى هذا السنن سائدا وهو يجوب الآفاق مع الرحالة الكويتيين من شرق أفريقيا الى جنوب الجزيرة العربية الى موانيء الخليج ، يشاهدهم يبيعون ويشترون ، يغنون ويمرحون ، يأكلون ويشربون ، يعانون ما يعانونه من التعب والشقاء وهم يغوصون الى الأعماق سعيا وراء اللؤلؤ ••••••••
وفي كل ذلك نلمس بين السطور اعجابا لدرجة الدهشة والذهول أحيانا ، كما نلمس فيما بين السطور أشياء أكثر من ذلك وأبلغ •

●

وبعد ، فهذه ترجمة لهذا الأثر النفيس ، موجهة لا للمختصين بأمور الملاحة والتجارة البحرية فحسب ، ولا للدارسين الراغبين في تقصي أوضاع الكويت الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في ما قبل النفط فحسب ، ولا للمهتمين بادب الرحلات أو بالأدب القصصي فحسب ، بل هي موجهة الى القاريء المثقف بوجه خاص ، والقاريء العادي بوجه عام • وهي موجهة بصفة خاصة الى الجيل الجديد والأجيال المقبلة ، من أبناء النفط في الكويت ، الذين لا يعلمون الكثير عما قاساه آباؤهم وأجدادهم من شظف العيش ومشاق الحياة ، سواء في المدينة أو في مواسم الغوص ، أو على متون المراكب الكبيرة ، لعلهم يأخذون من ذلك عبرة ، ويستفيدون موعظة ، ويسيرون على نهج السابقين في سمو الخلق ، وطيب المعاملة ، والصبر على المصاعب ، والمثابرة في الجهد لبلوغ الهدف المنشود ، والتعاون مع بعضهم بعضا ومع حكومتهم الرشيدة في السير بسفينة البلاد الى بر الأمان في هذا البحر المتلاطم من الأوضاع العالمية المضطربة •

وبما أن الترجمة موجهة الى الجميع تقريبا ، فقد حرصنا فيها على أمور ثلاثة : أما الأمر الأول فهو الأمانة التامة في نقل الأفكار والمعاني التي يقصد اليها المؤلف (حتى لو كان فيها بعض الشطط أو الزلل ، أو ما لا يروق

لنا أو يعجبنا) • لقد التزمنا التزاما تاما بالنص الأصلي ، وتركنا للقارىء مهمة اكتشاف الخطأ ، ان وجد ، ولم نعلق على النص الا لتوضيح بعض الأمور أو لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة ، وخاصة الدينية منها ، أو لتحديد بعض المواقع الجغرافية • كما اخترنا من الصور التى حصلنا عليها من المؤلف ما يمكن أن يوضح بعض ما ورد في النص ، وذلك باضافة صورة بصرية الى الصورة المرسومة بالكلمات •

أما الأمر الثاني فهو أننا ، مع حرصنا الشديد على الدقة في نقل الأفكار ، وتفاصيل الوصف للأشياء والأحداث ، لم نحاول أن نستخدم لغة أدبية خاصة يعسر على القارىء العادي أن يفهمها أو يستمتع بها • بل عمدنا الى استعمال لغة عادية ، سليمة بقدر الامكان ، عربية البنية والجرس ، في معظم الأحيان ، وتجنبنا التعابير الفنية الدقيقة المتعلقة بالبحر والملاحة والمراكب الا حيث لم يمكننا تجنبها ، وعندها جعلنا حاشية تشرح معانيها •

أما الأمر الثالث فهو أننا حاولنا ، بقدر استطاعتنا ، الحفاظ على التغيرات التي تطرأ على أسلوب المؤلف ، من الأسلوب الأدبي الرفيع ، الى الأسلوب الفني الدقيق ، الى اسلوب الكلام والخطاب العادي • ولم يكن هذا بالأمر السهل اطلاقا ، خاصة وانا وجدنا في أسلوب الكاتب ميلا الى الاسهاب والتكرار الممل في بعض المواضع • ولكننا لم نحاول أن نتخلص من هذه المميزات وامثالها ، بل أبقينا عليها ، رغم صعوبة ترجمتها ، لكي نكون امينين مع انفسنا ومع المؤلف ، ولكي يتمكن القارىء من اخذ الصورة الحقيقية عن معاني الكتاب ومباني لغته •

وبايجاز ، يمكننا القول اننا لم نحاول أن ننقل معاني الكتاب فقط ، بل حرصنا أيضا على ان ننقل روح المؤلف ، وان ننفذ أيضا الى تلك الدفقة الأدبية الفنية التي امتاز بها كتابه • وزيادة في الأمانة والدقة ، فقد حرصنا على العودة الى بعض المراجع الموثوقة والى المخضرمين من الكويتيين ارباب البحر حتى نتبين بعض معالم ذلك التراث الغابر في بناء السفن ، وعادات البحارة ، وصفات تلك واولئك ••••• الخ حتى أتت الترجمة ، كما نؤمل ونرجو ، جديرة بهذا الأثر ، وفاء لما بذل فيه صاحبه من جهد وما عانى فيه من معاناة ، راجين ان يصل هذا الكتاب الى فؤاد قارئه وعقله وان ينفع الله به ، وان يضاف الى المكتبة العربية سفرا يخلد مرحلة حساسة وهامة سبقت اكتشاف النفط ، ويسجل مناشط حياة الكويتيين بخاصة ، والخليجيين بعامة ، ويؤرخ للأسفار والبحارة والبحار ••••••

وكان في كل ذلك شافيا وافيا كاشفا مبينا كاحسن ما يكون الكشف والابانة •

وقبل أن اختم هذه المقدمة أجد لزاما علي أن أتقدم بالشكر الوافر لعدد من الرجال الأفاضل الذين كانوا وراء هذه الترجمة أو ساعدوا في اتمامها • وياتي في مقدمة هؤلاء سعادة الشيخ جابر العلي الصباح ، وسعادة الاستاذ جاسم المرزوق وزير التجارة ، والسيد محمد الرشيد ، رجل الأعمال ، والنائب بمجلس الأمة ، وهم الذين كانوا وراء الفكرة والذين عهدوا الي القيام بها •

كما اتقدم بجزيل الشكر والامتنان لجميع الاخوان الذين اطلعوا على الترجمة وزودوني بملاحظاتهم القيمة سواء من حيث المحتوى أو من حيث الشكل والأسلوب • وهم كثيرون جدا أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : معالي وزير التربية الدكتور يعقوب الغنيم ، والأخوة أحمد البشر الرومي ، ومحمد أحمد الرشيد ، وسليمان الفهد ، والزملاء والأخوة الدكتور داود عبده ، والدكتور علي سعود عطية ، والدكتور محمد الرميحي ، وقد قام كل من هؤلاء بقراءة النص الكامل والتعليق عليه • كما أشكر الأخين الكريمين الاستاذ عبد الرزاق البصير والدكتور محمد رجائي الدريني اللذين اطلعا على جزء من النص ، وأبديا ملاحظاتهما القيمة على ما قرآه •

وأخيرا وليس آخرا ، فلا بد أن أنوه بما أبداه سعادة الشيخ صباح الاحمد الجابر نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية ووزير الاعلام بالوكالة من عناية واهتمام خاصين بالكتاب وتفضله بتصديره بكلمة تقديم كريمة ، وكذلك فاني أتقدم لسعادته بعظيم الشكر والتقدير على هذه اللفتة الكريمة •

واني اذ ازجي الشكر لجميع هؤلاء على العون الذي قدموه ، فاني اعترف لهم بالفضل على عونهم ، ولكني احتفظ لنفسي بمسئولية أي تقصير يوجد في هذه الترجمة التي بين يدي القارىء •

والله الموفق وهو من وراء القصد •

الدكتور / نايف خرما

جامعة الكويت

الكويت : ابريل (نيسان) ١٩٨١

مقدمة المؤلف

في أواخر عام ١٩٣٠ اضطررت لبيع السفينة « جوزف كونراد » ، التي كانت بحالة جيدة جدا وهي تستخدم كمعهد تعليمي • بعتها لقلة الاهتمام القومي بها أو بأية سفينة مثلها سواء في بريطانيا ، أو في الولايات المتحدة، أو في وطني استراليا • فعقدت العزم على التوجه الى المحيط الهندي ، والابحار مع العرب في مراكبهم • لقد أزعجني التخلي عن سفينتي ، لأنه كان من الواضح أن الحاجة لمثل تلك المراكب لا بد أن تشتد فيما بعد • ولقد اشتدت الحاجة لامثالها بالفعل ، ولكنني ، على ما يبدو ، كنت سابقا لزماني • وقد احتفظت بالسفينة أطول مدة ممكنة ، وأبحرت فيها برحلة حول العالم •

ثم علمت أن العرب وبعض الهنود والصينيين وأهل الملايو ما زالوا يبحرون في مراكب شراعية • وكنت أعرف أن العرب ما زالوا يحتفظون ببعض تفوقهم السابق في الملاحة في المناطق الاستوائية من المحيط الهندي ، ذلك التفوق الذي لم يتغير نسبيا ، ربما لمدة ألفي سنة ، والذي ورثوه مباشرة عن الفينيقيين واستمروا فيه بالرغم من اكتشافات فاسكودي جاما ، وشق قناة السويس ، واستخراج النفط العراقي والايراني وماالى ذلك • يالسحر العودة الى ذلك العالم ! فأنا أعرف أن مغامرات العرب البحرية المشهورة تعود الى فجر التاريخ المعروف • ولقد عرف هؤلاء البحارة الاكفياء فترتين عظيمتين على الاقل : أولاهما تلك الفترة التي ازدهر فيها علم الفلك وعلم الرياضيات اللذان نبعت منهما فكرة الملاحة الفلكية ، وثانيتهما تلك الفترة التي شهدت السيطرة العربية قبل أن يشق البرتغاليون ، في وقت ليس بالبعيد ، الطريق الاوروبي الى مياه آسيا ، حول ذلك الرأس الذي سموه « رأس الرجاء الصالح » • صحيح أن العرب ما عادوا يهيمنون على البحر الآن ، غير أنهم على أية حال ما زالوا موجودين هناك •

ولأن هؤلاء البحارة العظام الساميي الاصل ما زالوا معنا ، فان أحدا لم يعد يهتم بهم كما ينبغي • ولكن الامر كان يختلف بالنسبة لي • فقد كنت أعرف الخلفية اللازمة في هذه الحالة ، وكان لدي الوقت والميل وكل الخبرة

التي يمكن اكتسابها من ركوب السفن الشراعية الاوروبية . كما كنت آمل أن تكون قدرتي على تحمل المشاق ما زالت بخير . ولم يكن هذا يقلقني كثيرا ، ولكنى كنت متسرعا فى الظن بأني على استعداد لاحتمال جميع المصاعب التي يأتي بها البحر ، ما دمت قد بقيت على قيد الحياة بعد تجارب عديدة شملت الالتفاف عدة مرات حول رأس هورن (١) فى فصل الشتاء ، كما شملت رحلة رائدة لصيد الحيتان فى بحر روس فى المنطقة القطبية الشمالية . (ولقد تبين لى فيما بعد أننى كنت متفائلا جدا لاننى عندما أبحرت مع العرب أصبت مرة بالعرج الشديد لمدة ثلاثة أشهر تقريبا ، كما أصبت أيضا بالعمى المؤقت لمدة شهر من تلك الاشهر الثلاثة) .

ولقد وضعت برنامجا لخمس سنوات أكرسها للابحار في المياه الشرقية ، أولا مع العرب ، ثم مع الهنود ، ثم مع الباكستانيين من بحارة شيتا جونج(٢) ونهر براهمابوترا ، وبعد ذلك أنتقل الى مرفأ زمكاسر في جزيرة سيلابس(٣) ، فسنغافورة فمياه أندونيسيا ، ويمكن أن أنتهي بمياه الصين واليابان . لقد كان ذلك كله جديرا بالانجاز وقد عزمت أن أقوم به ، لأنه لم يكن لدى أحد غيرى خطط كهذه . فقد كان السائد عند البحارة الاوروبيين والامريكيين ومعظم الدارسين للعلوم البحرية أن يهملوا انجازات الآخرين ومعلوماتهم اهمالا تاما .

هل قلت انها خطة خمسية ؟ لقد كنت مخطئا ، فقد كان من الممكن أن يستغرق ذلك عشر سنوات . ولكن ما حصل فعلا أنه في عام ١٩٣٨ لم يبق لي غير عامين حافلين بالنشاط فى هذا الميدان . فباستثناء مدة أخرى فى نهر براهمابوترا ، وبعض الوقت في جزر مالديف(٤) كانت هناك تغييرات وشيكة الحدوث أدت الى وضع نهاية سريعة لذلك المجال من النشاط .

لقد كانت خطتى أن أبحر فعلا فى جميع أنواع السفن الاسيوية التى يمكن أن أعثر عليها ، والا أكتفى بمشاهدتها من بعد . فقد أردت أن أرى كيف تجهز بالرجال والقادة ، وكيف يقوم هؤلاء بالملاحة عليها ، وادارة دفتها ،

---

(١) هو الراس الواقع فى اقصى الطرف الجنوبى من امريكا الجنوبية (المترجم) .
(٢) شيتا جونج : مرفأ فى البنغال الشرقية (المترجم) .
(٣) سيلابس (اوسولاويزى) هى احدى جزر اندونيسيا (المترجم) .
(٤) مجموعة من (٣٠٠٠) جزيرة تكون دولة مستقلة فى المحيط الهندى جنوب غرب جزيرة سيلان او سيرالانكا (المترجم) .

وكيف كانوا يقومون بتسيير أمور رحلاتهم وتجارتهم ، وكيف كانوا يصونون تلك السفن ويمولونها ، وكيف كانـوا يستطيعون أن يحافظوا فيهـا على مجموعة من الخدمات الضرورية اللازمة لملاحتهم كما يحتفظون باحتياطي من الضباط والبحارة الاكفياء لخدمتها • أما الاسئلة الاكاديمية عن تطـور أنواع السفن المختلفة وسلالاتها وما الى ذلك ، فلم تكن تهمني ، كما أنها ليست من اختصاصي • فان بالامكان دراسة سلالات المراكب وهي عاطلة عن العمل ملقاة على رمال الشواطيء •

حاولت باديء ذي بدء أن أكتشف ماهو معروف عن الملاحة العربية ، وما هي المعلومات المكتوبة المتوفرة عنها ، غير أني لم أجد من ذلك شيئا يذكر • فلقد علمت أنه ليس في اللغة العربية أية مراجع عنها ، بل ولا اشارة أقدم من تلك الاشارات المحدودة الموجودة في العهد القديم والمكتوبة باللغة العبرية • فقد كان البحارة العرب من النوع المتكتم لأسباب وجيهة ، فقد احتفظوا لأنفسهم بأسرار المهنة التي كانوا قد تعلموها بشق الأنفـس حتى أنهم لم يتركوا أثرا واحدا يوثق به عن السفينة الفينيقية القديمة • أما الرحالة العربي ابن بطوطة في القرن الرابع عشر فقد كان مهتما بالناس وبالجغرافيا أكثر من اهتمامه بالسفن والملاحة ، وقام بمعظم رحلاته برا ، وهذا ينطبق على باقي الرحالة المسلمين المعروفين •

وكل ما توصلت اليه هو أن أحدث مؤرخ أوروبي للملاحة في البحار الآسيوية كان الرحالة ماركوبولو(١) ، الذي شارك في رحلات عدة فـي سفن كبيرة في تلك المياه ، ولكن ماركوبولو لم يكن بحارا • أما ذلك العدد القليل من الاوروبيين المعروفين برحلاتهم في الجزيرة العربية من أمثال : دوتي ، ولورانس ، وستارك ، ونيبور ، وبيرترام توماس ، وبل ، فقد بقوا على البر الذي كان له سحره الخاص عندهم • أما بيرتون فقد كان أحيانا يسافر في بعض المراكب الشراعية التي تقوم برحلات قصيرة ، وكذلك فعل انجرامز وقلة آخرون • ولكنهم كانوا جميعـا رحالـة بـر

---

(١) ماركو بولو (١٢٥٤ ـ ١٣٢٤) هو الرحالة الايطالى الذى سافر برا الى بلاد المشرق حتى وصل الى الصين عن طريق صحراء جوبى الشهيرة (١٢٧١ ـ ١٢٧٤) ، حيث ظل فى خدمة حاكم الصين الشهير كوبلاخان (١٢١٦ ـ ١٢٩٤) سبعة عشر عاما ، عاد بعدها بحرا عن طريق سومطرة الى بلاد فارس (١٢٩٢ ـ ١٢٩٥) ، ومن هناك برا الى بلاده • ويعتبر كتاب رحلاته أقدم اثر سجل فيه رحالة اوروبى مشاهداته الفعلية المباشرة عن بلاد الشرق (المترجم) •

يضطرون أحيانا لركوب المراكب لفترات قصيرة ، للوصول الى بعض الاماكن التى يرغبون في زيارتها ولذلك لم تتح لهم الفرصة الكافية لدراسة هذا النوع من الملاحة البحرية ، حتى لو كانوا يرغبون فى ذلك • وجل ما كان يحدث لهم هو أن يتغير نمط حياتهم الاوروبى ، بسبب أسفارهم، تغيرا مؤقتا ، كما أن الاخلاق العربية الاصيلة ، التى كانت تدفع العربى لتقديم كل ما يستطيع لهم ، جعلتهم لا يشعرون بأكثر من تغير طفيف مؤقت فى نمط حياتهم المألوفة •

بعض المراكب العربية الشراعية تم الاستيلاء عليها ، عندما كانت تتعامل في تجارة الرقيق الممنوعة • ولكن اذا اعتبر التقرير الذى خلفه القبطان كولومب ، قائد السفينة الحربية البريطانية « درياد » ، دليلا على شيء ، فقد علمنا منه شيئا واحدا ، هو أن تلك المراكب كانت مراكب سريعة، ولقد روى سير آرنولد ويلسون فى عام ١٨٧٣ عن قبطان أحد تلك المراكب قوله « اذا ما جعلنا حبة كمثرى حادة من طرفها الرفيع ، وقسمناها طوليا الى نصفين ، فان كلا من النصفين يشبه الى حد بعيد ، المركب العادى شيء ، فقد علمنا منه شيئا واحدا ، هو أن تلك المراكب كانت مراكب سريعة • أن المقدمة يجب أن تغوص فى الماء بعمق ، بينما تطفو المؤخرة برشاقة فوقه ، وهى فى هذا تختلف عن نماذج السفن الاوروبية المعروفة عالميا ، الا أن هذه المراكب سريعة جدا ، فان أسرع السفن الحربية وهى تمخر عباب اليم بقوة الشراع والبخار معا ، لا تكاد تدركها اذا حاولت مطاردتها فى ريح خفيفة • الا أن المركب العربى على وجه العموم يسرب المياه ، واذا لم تكن نسبة كبيرة منها تغرق ، فهذا يعود الى قربها الدائم من الشاطيء ، لا الى قوة هيكلها ، فان قطرها بأية سرعة يمكن أن ينتج عنه تحطيمها »(١) • وهذا الكلام صحيح تماما • اذ أن رسما رديئا لبغلة فى شط العرب يرافق هذا الكلام ، ويرينا مركبا ذا هيكل شبيه ببرميل كبير جدا ، ورشاقة تعادل رشاقة فيل سمين •

لقد سبق أن رأيت مراكب من نوع البغلة والسمبوك فى جيبوتى وعدن، وعرفت عنهما أكثر مما سبق لنا ذكره • فسواء كانت صغيرة أم كبيرة ، فان خطوط هيكلها كانت ممتازة ، وأشكال أجسامها جميلة • فقد كانت رشيقة

---

(١) من كتاب Sir Arnold Wilson : The Persian Gulf (O.U.P.), 1928
أما الدراسة الممتازة بعنوان « الملاحة العربية فى المحيط الهندى » التى قام بها جورج فضلو حورانى فلم تنشرها مطبعة جامعة برنستون حتى عام ١٩٥١ (المؤلف) •
كتاب جورج حورانى تمت ترجمته الى العربية على يد الدكتور السيد يعقوب بكر تحت عنوان « العرب والملاحة فى المحيط الهندى » ونشرته مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة عام ١٩٥٨م (المترجم) •

رشاقة طبيعية ، كما لو كان أولئك الذين بنوها قد تعلموا منذ مدة طويلة كيف يصنعون أفضل شكل من أشكال المراكب السريعة ، ثم احتفظوا بتلك المعرفة لأنفسهم • ان التقارير التى تصف تلك المراكب بأنها ذات مقدمات منخفضة ، ومؤخرات كأكوام القش ، ان دلت على شيء ، فانما تدل على قوة ملاحظة ضعيفة ، لأن انحراف هذه المراكب يتجه نحو مقدمتها • كما أن فى البغلة حصنا في المؤخرة ، مبنيا بشكل مزخرف ، ومقتبسا من مراكب الرواد البرتغاليين • فقد تركت السفن البرتغالية الضخمة أثرا حسنا لدى العرب ، لأنها كانت تقوم برحلات طويلة شاقة ، كما أنها كانت تصلح لحمل المدافع بقوة وثبات أكثر من مراكبهم ، بالاضافة الى أن مؤخراتها كانت مكانا مناسبا للقتال •

ان الفكرة القائلة بأن المراكب العربية تعتمد على شاطيء قريب لانزال الناجين عند غرقها ، هى فكرة أكثر غرابة مما سبق • فان المراكب الجميلة التى رأيتها كانت قد قامت برحلات بحرية طويلة ، بعضها الى ساحل افريقيا الشرقى ، وبعضها الى الساحل الغربى للهند • وقد كانت تقوم برحلاتها بعيدا عن الشواطيء المناسبة •

لقد قام القبطان كولومب وزملاؤه الضباط بمهمة عظيمة فى طرد بعض مراكب تجارة الرقيق من البحر ، ولكن يبدو لى أنهم لم يعرفوا الا النزر اليسير عن تلك المراكب • وقد بدا لى غريبا أيضا أننى ، فى جميع الكتابات التى قرأتها عن المراكب الشراعية الحقيقية والمزعومة ، لم أجد أية اشارة من « خبير » أوروبى أو أمريكى واحد يشير الى أن البحارة العرب (أو الساميين) عرفوا طريقة بناء المراكب الشراعية السريعة ، والابحار عليها منذ قرون طويلة، هذا ان لم يكن قبل عصر المراكب الشراعيةالاوروبية بآلاف السنين • وربما يعود ذلك الى أن المراكب العربية لم تعتبر مراكب صالحة للملاحة فى المياه العميقة ، أو ربما لأنها لم تكن تستطيع منافسة السفن الحديثة المبنية فى العالم الغربى • وقد تسبب هذا فى اهمال دراسة هذه المراكب • وعلى كل حال فان من الواضح ان أحدا لم يهتم بمعرفة الشيء الكثير عنها •

لم يكن العرب يفخرون برحلات قياسية أو بسرعة مراكبهم ، وما الى ذلك ، كما لم يفخر أحد بذلك نيابة عنهم ، فقد كانت جميع المراكب سريعة جدا ، ولم يكن هناك داع للفخر • لقد كانت المنافسة تجرى للاعلان عن السفن الشراعية التجارية

الأوروبية بقصد ترويج التجارة، على غرار مايجرى الآن في شارع ماديسون، ولكن لم يكن في شبه الجزيرة العربية ما يشبه شارع ماديسون (١) .

لقد قام العرب برحلاتهم بهدوء وفاعلية ، وكذلك فعل الهنود وأهل الملايو والصينيون . وعندما كان يحدث أن تؤدى الاضطرابات السياسية وعدم الاستقرار فى التجارة فى المياه الآسيوية البعيدة ، الى جعل الرحلات الى الصين بعيدة المنال بحيث تغدو غير مجزية ، كان لأهل الملايو أرخبيلهم الخاص ، وللعرب والهنود سواحلهم ،بالاضافة الى مياه المحيط الهندى بكاملها ، حيث يمكنهم السفر والتجارة .

ان قدوم البرتغاليين وقيام الرحالة فاسكودى جاما برحلته الرائدة الى موانىء الهند الغنية ، مستعينا بالبحار العربى ابن ماجد ، وكذلك قدوم الهولنديين والفرنسيين والبريطانيين من بعدهم ، أثر فى التجارة الاوروبية ، وعلى الأخص فى احتكارهم للبحر الابيض المتوسط . غير أن الاساطيل الشرقية بقيت مزدهرة ، بطريقتها الخاصة المعروفة ، وعلى رأسها المراكب العربية ، التى كانت تجوب الجزء الغربى من المحيط الهندى ، وتبحر الى ساحل افريقيا الشرقى ، وموانىء الهند الكبيرة ، ولاشك أن الأوروبيين ساهموا فى ذلك بتوفير عدد أكبر من الموانىء وبزيادة حجم التجارة، كما كانوا يقومون بتجارة البهارات والحرير وكنوز الشرق لحسابهم الخاص . الا أن هذه الاشياء ، رغم قيمتها لم تستطع أن تزودهم بشحنات كاملة لمراكبهم ، وبقى اعتماد التجارة على السلع الضرورية للحياة .

وبمرور الوقت قام الأوروبيون بتحديد مداخل الموانىء ، والرؤوس البرية ، وزودوا البحارة الآخرين بالخرائط والخدمات ، وساعدوا على الاستقرار السياسى فى بعض البلدان من آن لآخر . وقد كان هذا الاستقرار السياسى نعمة ، الا أن العربى ، فى الحقيقة ، لم يكن بحاجة لمساعدةالأوروبيين فى فنون الملاحة ، فقد كانت معرفته بالملاحة مبنية على المعاناة الشخصية ، النامية معه منذ كان صغيرا ، كما كان يبحر فى مواسم معينة عندما تكون الرياح الموسمية مؤاتية فقط . وكان علي أن اكتشف هذه الأشياء . فلم تكن

---

(١) شارع ماديسون هو الشارع الذى تقع فيه او قريبا منه معظم مؤسسات الدعاية والاعلان الكبيرة فى نيويورك (المترجم) .

هناك مراجع أو كتب خاصة بالموضوع منذ كتاب « المراحل الملاحية للبحر الاحمر» (١) الذى وضعه الاغريق فى بداية العهد المسيحى ، بعد أن اكتشف فلاح يونانى اسمه«هيبالوس»(٢)ما كان البحارةالشرقيون يعرفونه ويستعملونه لسنوات لا تحصى ، ألا وهو النظام الموسمى للرياح فى شمال المحيط الهندى · ففى ذلك المحيط كان من الممكن الاستفادة من حركة الرياح أو الفصولالموسمية، التى تتناوب بين شمالية شرقية وجنوبية غربية ، لمساعدة السفن فى رحلاتها المكوكية · وربما يجدر بنا أن نستعمل كلمة « فصول » بدل كلمة « رياح »، لأن ما ندعوها بالرياح الموسمية ليست مجرد رياح فى الواقع ، بل هى فصل من فصول السنة تهب خلاله معظم الرياح البحرية من جهة معينة · ولقد قال خلفاء هيبالوس بأن مراكب المياه الاستوائية فى المحيط الهندى كانت تبحر باتجاه الجنوب مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، وفى طريق العودة كانت تتجه شمالا أمام الرياح الجنوبية الغربية ، وكان الكلام نفسه ينطبق على الرحلات التى كان العرب يقومون بها عبر بحر العرب بين الجزيرة العربية وشرق افريقيا والهند ·

لكن حتى الجاهل بأمور البحر يعرف تماما أن المراكب الشرقية لم تكن بحاجة الى رياح تهب من خلفها مباشرة للقيام برحلاتها · وفى الحقيقة أن تلك المراكب لم تكن بحاجة الى ذلك ، اذ أنها كانت مراكب صالحة للابحار فى جميع الظروف المناخية المناسبة ، كما أنها تستطيع الابحار ، وهى أقرب الى اتجاه معاكس للريح ، بصورة أفضل من مثيلاتها من السفن الأوروبية ،فالمراكب الشراعية العربية لم تكن فى رأيى ، تحتاج الى رياح مؤاتية بالمعنى الدقيق · فقد كان العربى ، على ما أعتقد ، يبحر فى الفصل الذى يكون فيه الطقس حسنا ، أى حين تكون الرياح الموسمية الشمالية الشرقية لا الجنوبية الغربية هى التى تهب ، فقد كان فصل الرياح الجنوبية الغربية ذا طقس سيىء ورؤية أسوأ ،والمراكب التى رأيتها لم تكن مجهزة بشكل يجعلها تتحمل كثيرا من الطقس العاصف ·· ولم تكن فى الحقيقة بحاجة الى ذلك لأنه كان باستطاعتها أن تقوم برحلاتها السنوية ذهابا وايابا خلال المدة التى يكون فيهاالطقسجيدا·

---

(١) الكتاب هو : The Periplus of the Erythrean Sea : by a merchant of the First Century, (London : Longmans), 1912.

(٢) ورد اسمه فى الكتاب السابق على انه عرف سر الرياح الموسمية وبالتالى الطريق الى الهند · راجع الكتاب التالى : انور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب ، سلسلة « عالم المعرفة » التى يصدرها المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت ، عدد ١٣ يناير ١٩٧٩ ، صفحة ١٩ (المترجم) ·

لقد درست كتاب « المراحل الملاحية للبحر الاحمر » بالطبع واطلعت على نظرية الاقلاع فى فصل الرياح الموسمية • ولكن بالنسبة لبحار خبير بالمراكب الشراعية مثلى لم تكن لمثل تلك النظرية أية قيمة عملية ، كما أنها لم تكن بأي شكل من الاشكال ضرورية للمراكب العربية •

ولم يكن الامر بالنسبة لى أمرا نظريا بحتا فلقد أبحرت قليلا فـــى المحيط الهندى ، كما أن بحارة أشهر منى مثل جوزف كونراد أبحروا فيه أكثر منى • وكانت احدى الطرق التى كانت تسلكها المراكب الشراعية الكبيرة ذات الأشرعة المربعة الشكل ، المسافرة من موانىء استراليا الجنوبية وهى تحمل القمح الى اوروبا خلال شهور الصيف ، هى الدوران حول رأس ليوين فى الطرف الجنوبى الغربى من استراليا ، ثم مواجهة المنطقة الاستوائيـــة ذات الرياح التجارية الجنوبية الشرقيةفىالمحيط الهندى ، والاتجاه من هناك غربا عندما يتحسن الطقس • وكنت قد سلكت تلك الطريق عام ١٩٢١ فى المركب الانجليزى الكبير ذى الصوارى الاربعة ، والمسمى « بلاندر »ولقد هبت علينا في ذلك الوقت عاصفة غبارية سيئة في مكان ما بالقرب من جزيرة موريشيس• وكان كونراد يقود السفينة «أوتاجو » فى منطقة الرياح التجارية حول جزيرة موريشيس • ولقد علمت أنه كان قد أبحر في اتجاه الشمال حول استراليا، فى رحلة من سيدنى الى جزيرة السكر ، ولكنه لم يكرر المحاولة مرة أخرى • وفى الفترة التى سبقت شق قناة السويس كانت السفن الشراعية الأوروبية الكبيرة تنقل كميات كبيرة من الجوت الهندى والارز البورمى ، وقد بقى لها نصيب صغير من هاتين التجارتين حتى عام ١٩١٤ •

وقد وجدنا نسخة من دليل المحيط الهندى (١) تاليف فندلى (وهو يعتبر افضل مرجع عن المراكب الشراعية) على ظهر السفينة بارما (التى كانت تسمى السهم) عندما اشتريناها عام ١٩٣١ • ووجدنا فيها اشارة صائبة جدا الى موضوع الرياح الموسمية الجنوبية الغربية • يصف فندلى تلك الرياح بأنها « أخطر الرياح التى يمكن ان يواجهها الانسان فى أى مكان فى العالم » • ثم يتابع قوله محذرا « من العنف الشديد والعواصف المدمرة ومن الظواهر الكهربائية المخيفة الكثيرة الحدوث •»

---

(١) عنوان الكتاب « دليل الملاحة فى المحيط الهندى » تاليف الكسندر جورج فندلى •
(A. Findlay : A Directory of the navigation of the Indian Ocean
الطبعة الرابعة سنة ١٨٩٧ • قبل ان يصبح « السهم » مركبا تابعا لشركة النفـط الانجلو امريكية،كان فى الاصل ينقل النفط فى البراميل الى بلدان الشرق الاقصى •

(المؤلف) •

وقد كنت أتساءل : هل يمكن أن يبحر العرب بانتظام فى هذا النوع من الطقس؟ وفى مراكب خشبية صغيرة ذات بناء ضعيف بحسب المقاييس الأوروبية وذات أشرعة ضخمة مثلثة الشكل ، وغير مزودة بأية معدات لتسهيل ادارتها كما هو الحال بالنسبة للأشرعة الأوروبية ؟ لم يكن بمقدورى أن أصدق ذلك وكان هذا هو أحد الجوانب الكثيرة للملاحة العربية التى قصدت دراستها • وكان الواضح انى كلما أسرعت فى الذهاب الى بلاد العرب كان ذلك أفضل وأكثر جدوى •

ولكن مجرد ذهاب الانسان الى الجزيرة العربية لا يعنى أنه يستطيع أن يكتشف الكثير عن تجارة العرب البحرية او عن أى شيء آخر • ولم يكن من المفيد بأى شكل من الأشكال أن أسافر على ظهر سفن بخارية ، وأن أجلس فى الموانىء وأتحدث مع الأوروبيين أو مع عدد قليل من الآسيويين ، الذين ربما تكون لغتهم الانجليزية أفضل من معرفتهم بالملاحة البحرية • بل كان علي أن أبحر فى مراكب عربية ، وأن أبقى على متنها عدة سنوات اذا اقتضى الأمر ، وأن أتعلم لغة البحارة وأن أكسب ثقتهم • ومن المعروف أن بحارة المراكب الشراعية الاوروبيين والامريكيين مجموعة تصطبغ بالصبغة الدولية، يعرفون كيف يتعايشون مع بعضهم بعضا • ولذلك فانى لم أجد أية مشقة فى الابحار مع الفنلنديين والنرويجيين والبرتغاليين والألمان ، وأهل بيرو ، على مراكبهم الشراعية • فقد كان عمل البحارة واضحا ، وكذلك ادارة المراكب •وانت واحد من اثنين ، اما انك تعرف هذه الامور أولا تعرفها • فان كنت تعرفها ، يمكنك أن تنسجم بسهولة مع زملائك البحارة ،مهما كانت جنسياتهم • فهناك لغة مشتركة فى البحر مبنية على اللغة الانجليزية ، وكنت أتوقع ان أجد شيئا شبيها بهذا فى المحيط الهندى أيضا (فقد كانت هناك كثير من اللغات كالسواحلية على الجانب الأفريقى ، والهندوستانية فى المياه الهندية ، ولغة الملايو فى أرخبيل الملايو ، واللغة العربية فى كل مكان ، أو على الأقل بين المسلمين ، ولكن لم يكن باستطاعتى فى ذلك الوقت أن أستخدم أيا من تلك اللغات التى تحتاج الى كثير من الوقت لاتقانها) •

لقد كان هناك عدد من المتشائمين،الذين قالوا أن الجزيرة العربية بلاد خطرة ، وأن حياة الانسان رخيصة فى كثير من أجزائها ، ونصحونى بأن أبدأ رحلتى بالاستعداد لذلك وذلك بالتعرف على الأشخاص ، المناسبين على الاقل، فقد كان للبريطانيين وجود من نوع أو آخر فى جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريبا عن طريق المعتمدين السياسيين • فكان هناك حاكم وعدد من الموظفين فى عدن ، ومستشار للسلطان مقيم فى حضرموت ، وضباط سابقون فى الجيش

الهندى فى مسقط والكويت ، ومعتمد سياسى رفيع الشان فى البحرين • وهكذا ومن خلال هؤلاء ، كان هناك نوع من الاتصال بينى وبين الشيوخ والامراء المقيمين على السواحل ، باستثناء المناطق النائية من اليمن والعربيةالسعودية•

وكنت قد سمعت أيضا من دوايت لونج (Dwight Long) أنه كان قـــد وجد نفسه فى مأزق صعب مرة أو مرتين عندما كان يغادر مركبه الشراعـــى الصغير (Idle Hour) وهوفىالبحرالاحمر ويذهبالى الشاطىء • ولذلك رايت أن من المناسب أن يعلم هؤلاء الموظفون بوجودى • وقد كان من المنتظر على أية حال ان تتسرب اليهم أخبار وجودى وأنا على مقربة منهم ، خاصة أنه كان هناك رجل فرنسى زعموا أنه يهرب الاسلحة الى اليمن فى مركب عربـى ولم أشأ أن يخلطوا بينى وبينه •

وقام صديقى ، أمير البحر ، سيرويليام جودنف (William Goodenough) المتقاعد من الاسطول الملكى ، ورئيس الجمعية الجغرافية الملكية ، التى كنت زميلا فيها ، بالاتصال مع الرسميين بالنيابة عنى • وكان هذا مشهورا بادارته للطرادات الخفيفة فى معركة جتلاند (Jutland) ، كما كان أيضا أحد القلائل الذين شجعونى عند قيامى برحلة المركب « جوزف كونراد »• ولقد كان السير ويليام رجلا هادئا قادرا على انجاز الاعمال التى تطلب منه • ولم يمض وقت طويل حتى كنت قد قابلت المستشار البريطانى لسلطان حضرموت فى المكلا ــ الميناء الكبير فى جنوب الجزيرة العربية ــ وحصلت منه علـــى توصيات مكتوبة باللغة الانجليزية الى الحاكم البريطانى فى عدن ، والـــى المقيمين البريطانيين فى مسقط وفى أماكن أخرى ، وتوصيات باللغة العربية الى عدد من الامراء والسلاطين والشيوخ الموجودين فى المناطق الساحليـــة الواقعة على البحر الاحمر والخليج العربى • كما قام الشيخ حافظ وهبه ، سفير الملك ابن سعود فى لندن حينئذ ، بكتابة فقرة أو فقرتين باللغة العربية فى جواز سفرى •

لقد كانت جميع هذه المستندات ضرورية جدا ، وقد ثبت لى انهـــا وسائل لا تقدر بثمن لاقامة الاتصالات التى احتجت اليها فيما بعد • وبالرغم من ذلك فقد حدث أن وصلت مرة الى جيزان عندما كان الامير نائما ولـــم يجرؤ أحد على ايقاظه ــ وكانت النتيجة أننى وجدت نفسى فى السجن لفترة مؤقتة • وفى مناسبة أخرى كان سلطان « شحر » مهتما جــدا بأمر سلامتى وصحتى أثناء وجودى فى بلاده ، لدرجة أنه تحفظ على فى قصره الضخم ، المحروس حراسة شديدة ، طوال المدة التى كان فيها مركبى راسيا فى مياهه •

وكان هذا رجلا لطيفا ، ذا سوالف حمراء ، غير ميال للمغامرة • وفى سجن جيزان كان الحاكم يؤنسني بارسال الشاى والحلوى ، ولكن كان على أن انتظر طويلا ، وشاركني فى السجن عدد من المجرمين ، الذين كان بعضهم مقيدا بالاصفاد ، وكان منهم من قطعت يده ، وكان هؤلاء من اللصوص الخطرين حسب قول الحاكم • وكانوا جميعا يعتمدون على كرم اقاربهم أو على المارة لعلهم يناولونهم بعض الطعام من خلال القضبان الحديدية •

ولقد أوصلتنى مساعدة السير ويليام الى عائلة الحمد الكويتية فى ميناء عدن ، (١) حيث كان الاخوان الصغيران ، على وعبد الله عبد اللطيف الحمد ، يديران تجارة العائلة فى منطقة ممتدة من جدة ، وهى ميناء مكة ، الى بربرة فى الصومال البريطانى آنذاك ، ومن أديس أبابا فى داخل الحبشة الى المكلا وسحر فى حضرموت • وكان من الواضح أن نفوذهما يصل الى كل ميناء صغير أو كبير على جانبى البحر الاحمر وعلى ساحل أفريقيا ، حتى آخر ما تستطيع المراكب العربية الوصول اليه ، (وهو ما يمكن أن تصل اليه الرياح الموسمية الشمالية) • وبمساعدة الاخوة الآخرين ، والاقارب المباشرين ، كان الاخوان يديران أمور المراكز التجارية العربية فى الهند والعراق وايران وعسير والحجاز ، وكثير من مناطق العربية السعودية • وكانت لهم مصالح فى المراكب الكويتية المشهورة (البوم) التى كانت تسير بانتظام فى المحيط الهندى • كما كانوا يستاجرون سمابك البحر الاحمر وما شابهها لتوزيع السلع من عدن الى جيبوتى وبربرة وأرتريا وعسير وجدة• (٢)

وقد أخبرنى على ونحن نحتسى القهوة فى مكتبه فى عدن ، أن لديه سمبوكا ممتازا يدعى « الشيخ منصور » كان يحمّل بالبضائع فى تلك اللحظة وكان سيتجه الى جيزان فى خلال يوم أو يومين وعرض على أن أسافر عليه وقد وافقت على ذلك بالطبع مع أنه خيل الى أنى رأيتنظرة ذات معنى في عيني عليالسوداوين ، وكأنه كان يستمتع بشيء ما • ولقد أدركت معنى تلك النظرة عندما التحقت « بالشيخ منصور » فى المساء التالى ، وكان التاريخ ٨ نوفمبر ١٩٣٨ • فقد تبين لى أن ذلك السمبوك كان أباس مركب بين ما ينوف عن مائة مركب كانت متجمعة فى ميناء المعلا فى ذلك الحين ، بالرغم من أنه كان يبدو على البعد مركبا صغيرا رشيقا ذا

---

١) عائلة الحمد كانت تتكون من خالد ويوسف واحمد وعلى وعبد الله ، وكان مركز تجارتهم الكويت ، مع فرع فى البصرة ، ووكيل فى بومباى بالهند • وكان كل منهم يختص بفرع من فروع التجارة • وقد توفى منهم احمد وعلى وما زال الباقون على قيد الحياة ، واكبرهم خالد وقد جاوز المائة من العمر (المترجم ، عن احمد البشر الرومى) •

(٢) انظر الملحق رقم (١) بادناه للتعرف على اوصاف هذه المراكب وغيرها (المترجم) •

مقدمة ومؤخرة متشابهتين ، ومنظر بديع يشير الى سهولة انسيابه فوق الماء. وكان طوله ٥٥ قدما وعرضه ١٤ قدما ، وعمق غاطسه ٦½ قدما . ولم يكن له سطح ، ما عدا منصة صغيرة في المقدمة ، وأخرى في الخلف ، تستعملان لتشغيله . وكان يؤمل أن يحميه من البحر حصير من سعف النخل على الجانبين ، مخيط على الالواح العلوية ، وممدود على أعمده خشبية خفيفة ، مثبتة على جذوع من الشجر ذات شعبتين ، يبلغ ارتفاع كل منها حوالى ثلاثة أقدام . وكان للمركب صاريان ، وشراع واحد ، مصنوع من القطن الخفيف ، تشده في الزوايا السفلى قطع من الخيش . ولم يكن في المركب سوى قارب صغير مصنوع من جذع شجرة ، كما لم يكن في أى جزء منه مكان يأوى اليه الانسان . وبدلا من المضخة التى يمكن أن تستعمل لتجفيفه من الماء ، كان هناك عدد من الصبيان يقومون بنزح الماء من جوفه بواسطة صفائح كاز قديمة ، وكانت رائحة ذلك الماء كريهة جدا ، كما كان الهواء المحيط بالمركب محملا بالروائح الكريهة أيضا . وحتى مياه خليج المعلا كانت تبدو وكأنها تتالم ألما شديدا كلما سكب فيها الاولاد صفيحة من ماء المركب القذر الكريه الرائحة .

لقد كان هذا المركب نتاجا واضحا للتفاؤل الكبير والايمان بدوام الطقس الجيد . ولقد كان لذلك الايمان ما يبرره على ما يظهر ، فقد عمر المركب طويلا ، ومع ذلك فقد كان أسوأ مركب رأيته في حياتى من حيث التجهيزات . وكان بحارته أربعة أو خمسة عجائز وتركيا عجوزاً أشيب من بقايا الحرب العالمية الاولى ، ومساعدا وحشى المظهر علاوة على النوخذة. (١) وكان النوخذة يمنيا من « اللحيّة » يبلغ من العمر الخامسة والثلاثين ، نحيفا لكنه قوى البنية ذو وجه لطيف ويدين كأيدى الموسيقيين . وقد رحب بى على ظهر المركب بأدب جم ، ولكن باستغراب واضح ، وكان يبدو أنه قانع بمركبه المثقل بالحمل ، الذى كان في نظرى مركبا صغيرا سيئا للغاية .

أبحرنا على متن « الشيخ منصور » خلال الاسبوعين التاليين ، حول الركن الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية ، عبر مضائق باب المندب الى البحر الاحمر ، متبعين الطريق الداخلى ، أى داخل الصخور المرجانية . وقد اكتشفت بأن ذلك المركب الصغير ، ذا الرائحة النتنة ، الذى كان يقوم برحلته الاعتيادية قريبا من الشاطىء ، ويتاجر بالسلع التى بنى من أجلها ، لم يكن مركبا سيئا على الاطلاق . فقد كنا نرسو ليلا بحماية الصخور المرجانية ، أو الجزر الرملية ، ونبحر نهارا توجهنا المعرفة الشخصية للنوخذة اللطيف

---

(١) النوخذة ، بلغة بحارة الجزيرة العربية ، هو الربان ،(المترجم) .

المعشر • وقد كانت هذه المعرفة كافية ووافية بالغرض ، كما كان ايمانه قويا ووافيا بالغرض أيضا •

وكانت مياه البحر الاحمر تتسرب بكثرة الى المركب فتنزح مرة بعد مرة • وكان الطقس جيدا والرياح مؤاتية ، والبحر خفيف الموج ، وكان غذاؤنا يتألف من السمك الذى كنا نصيده من البحر ، ومن شيء من الأرز والخبز الفطير المخبوز فى الرماد • وكان الوقود أخشابا وحشائش بحر مجففة ، وروث جمال ، وأى شيء آخر يصلح لذلك •

وكنا نغتسل بمياه البحر ، وكان جميع البحارة فى منتهى النظافة ، لأن قوانين الاسلام تقضى بذلك • وكان المرحاض عبارة عن صندوق ، خلع لوحان من قاعه وثبت فى مؤخرة المركب على مستوى السطح ، وبه صفيحة صغيرة قديمة لسحب الماء من البحر ليتطهر به الشخص عند الضرورة ، وكان هذا يحتاج الى مهارة خاصة ، ولم تكن الملابس الاوروبية مناسبة لذلك بأى حال من الاحوال ، وكان الصندوق يستعمل حماما أيضا فلم يكن هناك حمام غيره • واذا لزم الامر كانوا يربطون صندوقا اضافيا على الجانب الآخر • وعلى كل حال فقد كانت ترتيبات المرحاض البسيطة تؤدى وظيفتها بشكل مرض للغاية ، فلم يكن هناك أنابيب أو ما شابهها معرضة للتلف ، وكان الجميع يتوضأون ويؤدون الصلاة نظيفين ، مولين وجوههم شطر مكة ، فى أوقات الصلاة المفروضة يوميا • وكانوا ينظفون أسنانهم بالسواك باهتمام بالغ • أما الاوانى التى كانوا يستعملونها فقد كانت بسيطة للغاية ومصنوعة اما من الخيزران ، أو من عظام بعض الاسماك • وكان الشهر شهر رمضان الذى يمتنعون فيه عن الطعام والشراب من الفجر حتى مغيب الشمس ولم يكونوا بذلك يخسرون الكثير ، اذ لم يكن لديهم وفرة فى الطعام على أية حال •

كنت أحيانا أشعر بمرارة الجوع ، وكنت أقاسي من الزحار (الدوزنطاريا) ، وكانت الليالى باردة والايام طويلة وحارة • ولكننى تعلمت أن أحترم النوخذة وبحارته ، وأن أنظر باعجاب الى «الشيخ منصور»، ذلك المركب الجميل ، ذى الرائحة الفاسدة ، الذى ينفذ الماء الى داخله من جميع جنباته •

عدت الى عدن بعد أسابيع وقد ذبلت ونحل عودى ، ولفحتنى الشمس بوهجها وأنهكت قواى ، وكان ذلك على قارب بخارى قادم من جدة • وقد بدا لى أن على الحمد كان مندهشا قليلا لرؤيتى ، فقد سألنى قائلا : « هل

تمتعت بالرحلة ؟ » فأجبته بانها كانت رحلة رائعة ٠ فنظر الى نظرة فاحصة طويلة ، تركت عندى انطباعا بأننى قد مررت بتجربة معينة ، بل ربما بعدد من التجارب ٠ ثم قال : « حسنا ٠ فالكويتيون مستعدون الآن وسأعمل الترتيبات لك لتقوم بالرحلة الافريقية مع نجدى ، وهو أفضل نوخذة كويتى، على أحسن مركب « بوم » ٠ فلا داعى لرحلات قصيرة أخرى ، ويمكنك أن تبقى مع نجدى ستة أشهر ، ثم تعود الى الكويت ، وتقوم بعدها برحلة الى الهند اذا أردت ذلك ٠ »

كنت قد رأيت بعض مراكب « البوم » رافعة للأعلام الكويتية الحمراء فى الميناء ،(١) وكانت مراكب كبيرة رشيقة مدهونة جيدا بالزيت ، وذات صوار عالية كبيرة ٠ وكان بحارتها يرتدون اغطية رأس نظيفة ، وجلابيب نظيفة ، يضربون بمجاديفهم فى قواربهم الطويلة بطريقة فنية منتظمة ، شبيهة بطريقة البحارة الهنود القدماء ٠ وكنت أشاهد النواخذة، وهم يسيرون بهيبة وجلال مع مساعديهم على مؤخرة السفينة ، بين قرع الطبول وضجيج الاغانى فى الوسط ٠

ها هي ، اذاً ، المراكب العربية الشهيرة ، التي كانت تجوب المحيط الهندى والتى لم تكن تشبه مركب « الشيخ منصور » الحقير فى شىء ٠

وأخيرا ستتاح لى الفرصة ، اذاً ، لأن أعود القهقرى الى أيام الملاحة القديمة ، فأبحر فى مركب ذى قيمة من مراكب الاسطول العربى ، التى تبحر فى المياه العميقة ، والتى تنحدر مباشرة من تلك المراكب التجارية التى كانت تتاجر بالبخور فى الايام الغابرة ٠ ولقد تم لى ذلك بالفعل ، فلقد كان « بوم » نجدى مركبا جيدا ، ورحلته الطويلة لا تغيب عن الذاكرة ، على الرغم من أن اندلاع الحرب العالمية الثانية وضع نهاية لآمالى بالقيام برحلتى الاخرى الى الهند ٠ وقبل نهاية تلك الحرب كانت مشيخة الكويت الغنية بالنفط على نحو اسطورى ، تأخذ شكلها الجديد وتضع نهاية للتقاليد البحرية العربية العظيمة ، وللتجارة العربية البحرية التى استمرت طويلا ٠ وفى اطار الاقتصاد الحديث لتلك الدولة ، لم يعد هناك مكان للبوم ، مركب المياه العميقة ٠

---

(١) كان علم الكويت القديم احمر اللون تتوسطه كلمة « كويت » ٠ وظل كذلك الى ان بدل بعد الاستقلال عام ١٩٦١ بالعلم العربى ذى الالوان الاربعة المعروفة (المترجم)٠

لقد وصلت في الوقت المناسب تماما • ففي نهاية عام ١٩٣٩ ، كما عرفت من أمين سر شيخ الكويت ، كان هناك (١٠٦) من مراكب المحيط تبحر من ميناء الكويت : ثلاثة منها « بغلات » ، والاخرى من نوع « البوم » ، معدل حمولة الواحد منها مائة طن ، ما بين كبير تبلغ حمولته ٣٠٠ طن وصغير لا تتعدى حمولته سبعين طنا • ولم تكن حمولة المراكب تقاس بالوزن، بل بمقدار ماتحمله من جلل التمور العراقية(١)• لقد كانت كلها مصنوعة في الكويت وتتراوح قيمتها بين عشرة واثنى عشر ألف روبية هندية ، وهى العملة التى كانت متداولة آنذاك (وكان هذا يعادل تقريبا ما بين ٣٢٥٠ دولارا و ٣٧٥٠ دولارا) • وكانت المراكب تظل راسية فى ميناء الكويت خلال الاشهر التى تهب فيها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فى المحيط الهندى • ومع بداية هبوب الرياح الشمالية الشرقية تبدأ رحلاتها التجارية الطويلة فتحمل التمور الطازجة من البصرة ، وكانت هذه التمور تعبأ فى جلل، ذات حجم موحد ، أسطوانية ، منبسطة الشكل ثقيلة ، حتى أن حمالا قويا يكاد ينوء بحملها • وكانت هذه التمور المادة الاساسية للتجارة الآسيوية •كان كثير منها ياتى من المزارع القائمة على شط العرب ، والتى تملكها أسر كويتية من التجار مثل عائلة الحمد • وكانت المراكب تحمل شحنات التمور اما الى الموانيء الهندية أو تدور حول سواحل الجزيرة العربية حيث تباع لحساب التجار •

لم أشاهد ولم أسمع عن أى مركب كويتى ينقل التمور الى موانيء شرق افريقيا ، لأن هذه التجارة كانت ، على ما يبدو ، قد انتقلت الى أيدى الاوروبيين • أما تلك المراكب التى كانت تنقل البضائع الى جنوب الجزيرة العربية ، فقد كانت تجعل من عدن محطة ارتكاز لها ، لتخزن فيها التمور غير المباعة ، وتواصل رحلتها الى أفريقيا ببضاعة جديدة ومسافرين أخر • وكانت هذه المراكب تقوم برحلة افريقية واحدة فى العام • وقد قيل لى أن المراكب التى كانت تتاجر على طريق الهند ، وهى الطريق الاقصر والاكثر تنظيما ، كانت تحاول القيام برحلتين سنويا • ومن الهند كانت السفن تجلب مواد بناء السفن ، والليف لصنع الحبال ، وخشب الساج • أما من شرق أفريقيا فكانت تجلب الأعمدة الخشبية (الشندل) من دلتا نهر « الرفيجى » ، التى تقع فيما كان يسمى تنجانيقا آنذاك ، أو من « لامو » فى مستعمرة كينيا •

وكان هناك بالاضافة الى تلك المراكب عدد من المراكب ، يتراوح عددها مابين ١٠٠و١٥٠ مركبا تستخدم للغوص على اللؤلؤ ، تخرج من الكويت في

---

(١) الجلل والجلال جمع جلة وهى القفة الكبيرة التى كانت تحفظ فيها التمور • (المترجم)

ذلك الوقت ، بعضها صغير وبعضها الآخر يصل طوله الى سبعين قدما•وكانت جميعها تسير بالمجداف والشراع معا • وكانت هذه المراكب تقوم بعملها في الغوص على اللؤلؤ في السواحل القريبة من الطرف الشمالي من الخليج، خلال فصل الصيف الحار ، حين كان يتوافر عدد كبير من الغواصين ، وقواربهم العائدة من خدمة مراكب الرحلات الطويلة • كما كانت الكويت تملك ما بين ٥٠ و ٦٠ مركبا صغيرا ، معظمها ذات صار واحد ولكن أغلبها يشبه « البوم » في شكلها • وكانت هذه تقوم بالتجارة المحلية ، كنقل الماء السائغ للشرب من شط العرب ، وكانت هناك مراكب جديدة تبنى على الشاطىء بمعدل اثنين أو ثلاثة في الشهر ، وكانت كبيرة مخصصة للمياه العميقة كما كان هناك على الاقل عدد مماثل يبنى للتجارة الساحلية • ولكن تجارة اللؤلؤ كانت كاسدة بسبب نجاح اليابانيين ، كما علمت ، في انتاج اللؤلؤ الصناعي •

كانت مراكب « البوم » القديمة تباع في موانيء الخليج في قطر وساحل عمان المتصالح ، وكان هؤلاء يستعملونها بشكل رئيسي في تجارتهم مع افريقيا •

أما خارج الخليج فقد كان مرفأ « صور » ، قرب « رأس الحد » ، على خليج عمان ، المنافس الوحيد للكويت • فقد كانت تبنى فيه « البغلات » و « السمابك » الكبيرة ، ولكن لم تكن تبنى فيه أية مراكب من نوع البوم ، كما لم يكن الكويتيون يزورون صور • لذلك لم أذهب الى هناك كما أني لم أستطع الحصول على أية احصائيات عن ذلك المرفأ • لقد شاهدنا مراكب جديدة رائعة ، تصل حمولتها الى ١٥٠ طنا من بناء مرفأ صور • ولقد قدر « نجدي » عدد المراكب التابعة لاسطول المحيط الهندي الخاص بميناء صور بحوالي مائة مركب • ولم يبد لي أنه كان ينظر اليها نظرة اعجاب كبير • ولم أر مطلقا أية سفينة كبيرة من صنع ساحل عمان المتصالح ، ولكني رأيت بعض مراكب البوم الضخمة التي ترفع الاعلام الايرانية من صنع موانيء « قشم » و « بندر لنغه » القديمة •

أما الموانيء العربية الاخرى التي رأيت فيها أساطيل كبيرة من المراكب الشراعية فقد كانت « المكلا » في حضرموت ، و « المعلا » في عدن ، و « الحديدة ومخا واللحية » في اليمن ، و « جيزان » في عسير على البحر الاحمر • وكانت جميع هذه الموانيء تبنى المراكب التي كان معظمها خاصا بالملاحة الساحلية • وقد قدر « نجدي » والنواخذة الآخرون أنه ، في عام

١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ، كان مجموع المراكب العربية الصالحة للملاحة ، يتراوح بين ألفين وألفين وخمسمائة مركب ، تستخدم على الاقل ثلاثين ألف رجل ، ولم يكن فى أى منها محرك ميكانيكى اذ أنه لم تكن هناك حاجـة لمثـل تلك المحركات (١) ٠

لقد قال نجدى أن الله عظيم رحيم ، ورياحه لا تكلف شيئا ، ولذلك فان على المؤمنين أن يفيدوا منها ٠ وكان نجدى بحـارا قانعا بمهنته التـى نشأ عليها ٠

ومع ذلك ففى خلال عشر سنوات ، لم يصنع « بوم » واحـد كبير فى الكويت ، فقد أصبحت مراكب الملاحة العربية غير المساندة نادرة الوجود الا فى ميناء صور٠ واختفت (١٠٦) من مراكب البوم والبغلات الكويتية الشهيرة من على سطح البحر لأن الامارة أصبحت تعوم على « بحر » أخر من النفـط المستخرج بكميات تجارية ، والذى جلب للبلاد ثروة هائلة ، استغلت بحكمة ، ولكنها أنهت ، بالطبع ، جميع طرق الحياة القديمة ، ليس بين النواخـذة والبحارة والغواصين فحسب،بل وبين الناس عامة ٠ ففى فترة وجيزة، بحسب مفهوم العرب للزمن ، اندثرت المدينة القديمة المسورة ، وخلفت وراءهـا مدينة شاسعة ، مكتظة بالسيارات والمبانى الضخمة القبيحة الشكل التى ليست لها صفات مميزة ، ولكنها تفخر أيضا بالمدارس الراقية والمستشفيات والبيوت الحديثة ، وبها ميناء جديد كبير تتجمع فيه السفن الحديثة القادمة من شتى أنحاء العالم ، وتقف على رصيفه لتفرغ ملايين الاشياء ، التى لم يكن قدماء الكويتيين يحلمون بوجودها ٠ ومن خزانات هائلة تقع خارج المدينة ، يتدفق النفط بلا انقطاع فى أنهر غير مرئية ، لكى يملأ خزانات الناقلات الضخمة الجاثمة فى مياه الخليج المجاورة ، وكلما وضع فيها برميل مملوء بالنفـط لنقله الى معامل التكرير فى العالم ، حل محله برميل ثان وثالث ورابع الى ما لا نهاية ، كأنها لا تقنع ولا تشبع حتى تستنزف كل قطرة منه من باطن الامارة والمدينة ، بل ومن النار المتأججة فى جوف الارض ٠ وثمنا لهـذا النفط تدفع الاموال بدون توقف ٠ .وكانت النتيجة أنه ، باستثناء بوابتين

---

(١) لقد كان م٠بس (M. Bess) ، الذى لم يكن عربيا ، يدير شؤون سمبوك اخر او اثنين علاوة على ما ذكر ، فى التجارة القريبة بين المعلا ومرافىء البحر الاحمـر القريبة ٠ (المؤلف)

من بوابات المدينة القديمة (١) سمح لهما بالبقاء قرب فندق ضخم لا تتناغمان معه فى بنيانهما ، فان كل شيء قديم قد تم تدميره ، بما فى ذلك البيوت القديمة ، وحتى الواجهة البحرية الرائعة • واختفت أيضا التجارة البحرية ، العربية بالطبع ، فقد أصبحت قديمة مثل غيرها •

لقد سافرت فى طائرة كوميت نفاثة تابعة للخطوط الجوية الكويتية فى مطلع عام ١٩٦٧ ، من لندن عن طريق روما وبيروت ، الى المطار الضخم الذى كان مكانه ، الى وقت قريب ، صحراء خارج مدينة الكويت (وكان قبطان الكوميت الذى يرتدى الكوفية يعرف عمله جيدا) • وعند وصولي قام بعض الاشخاص،الذين يرتدون الجلاليب الطويلة والعباءات الضخمة ، والكوفيات البيضاء ، التى تلمع فى الليل ، ليحيوني، ورأيت أنف «نجدى» ، النوخذة ، الذى يشبه أنف الصقر ، ومعه بعض أبنائه وابناء أسرة الحمد الشباب، الذين بقيت علىاتصال بهمخلال السنين الطويلة، « وحمد » المساعد المخلص لنجدى • وقد علمت أن « نجدى » أصبح الآن رجلا غنيا من كبار رجال الاعمال ، وله بيت كبير يقع على شارع رئيسي واسع ، وعنده كل ما يتمنى•ولقد حرك ريح الليل كوفيته فقلت له : « الله كريم فان رياحه لا تكلف شيئا » • فأجاب : « الله كريم ! » ، وبعد لحظة اضافكأنما يحدث نفسه : « ولكم اتمنى أحيانا لو أستعمل رياحه كرة أخرى ، فقد كانت حياة طيبة ، لن يعرفها أبنائى ولن يعرفها أبناء الكويت ، فنحن لانستطيع أن نعيدها ثانية • » •

وعلى شاطيء البحر كان يقف على الرمال « بوم » لايعمل فى البحر ، بل يقف هناك شاهداً على أيام الملاحة العظيمة ، التى شاهدها مرفأ الكويت ، والتى ذهبت الى غير رجعة •

ولقد سرنى أنى استطعت أن أذهب فى الوقت المناسب الى تلك المنطقة لاعرف بطريقة مباشرة شيئا عن تلك الأيام العظيمة ، كما سرنى أنى بذلت جهدى لتسجيلها • لقد ترك عيسى القطامى ــ النوخذة العظيم الذى كانيحتضر فى بيته الجديد بينما كنت أحيى « نجدى » ترك كتابا باللغة العربية (٢) شبيها بكتاب « المراحل الملاحية للبحر الاحمر » المشار اليه سابقا ، وكتابه هذا وكتابى هما الاثران الوحيدان الباقيان حتى الآن •

---

(١) الواقع ان البوابات القديمة الاربع قد تمت المحافظة عليها تذكارا للماضى (المترجم)
(٢) عنوان كتاب عيسى القطامى هو : « دليل المحتار فى علم البحار » ، وقد تمت الطبعة الثالثة منه فى مطبعة حكومة الكويت عام ١٩٦٤م •

بحلول عام ١٩٦٠ كانت تجارة العرب القديمة فى المحيط الهندى قد اندثرت تماما • فقد استطاعت « الامم الناشئة » فى أفريقيا الشرقية أن تقوم بما لم يحاول الاوروبيون القيام به ، الا وهو وضع حد نهائى للنفوذ العربى والتجارة العربية • فلقد وصلت حركة الهجرة القديمة الى نهايتها ، وفى كثير من البلدان الجديدة لم يعد العرب والهنود يلقون أى ترحيب ، بل وضعت عليهم قيود كثيرة • ومع ذلك فقد كان من الواضح أنهم كانوا تجارا ورجال أعمال ناجحين ، واصبح الاحساس بأن الدور الآن هو دور الافريقيين ، ولا يسعنا الا أن نتمنى لهم التوفيق أيضا •

حتى فى بعض البلاد العربية لم تعد مراكب البوم الجميلة والبغلات المهيبة والسمابك السريعة تناسب الصورة الحاضرة • وقد تكررت نفس القصة فى الهند والباكستان •

لقد قمت برحلة فيعام ١٩٥٦ فى بغلة مصنوعة فيالهند،وكانت رحلتى بين سيلان ومالى وجزر مالديف ، ولاحظت قوتها وصلابتها • لقد كانتسفينة آسيوية ملائمة للابحار فى مواجهة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية • وبما أنها صنعت فى بلاد غنية بخشب الساج ، وعريقة بالخبرة والمهارة فى بناء السفن ، فقد كانت أقوى من المراكب العربية العادية التى عرفتها • وكان صاريها الرئيسى موضوعا فى قاعدة فولاذية ، وكانت أشرعتها وأدواتها قوية وجيدة وقبطانها ملاحا ماهرا • ولكن احدى القوى الاوروبية كانت تعتقد أنها بحاجة الى جزيرة مرجانية فيجزر المالديف لبناء مطار فيالمحيط الهندى• وكان الثمن الذى طلبه السلطان (بضغط من مجلسه) سفينة قوية مجهزة بمحرك حديث لتحل محل أسطوله المكون من المراكب الشراعية • ولقد كنت فى جزر المالديف فى الوقت المناسب أيضا ، قبل اختفاء آخر مركب شراعى •

وفى سنة ١٩٦٠ كنت فى نهر براهما بوترا، حين كان أسطول رائع من المراكب الشراعية مازال يعمل هناك • وكانت بعض نماذجها تعود الى نماذج سفن مصر القديمة•وكانت أحواض بناء السفن قد بدأت بالفعل ببناء لنشات آلية ضخمة بشعة المنظر، كما كانتالحكومة تقوم بانشاء الطرق ذات الكلفة العالية لتسيير السيارات الكبيرة عليها ، (ولان تشابك الانهر الثلاثة براهما بواترا وماجنا والكانج لم يكن يساعد على تنفيذ فكرة الطرق)• فقد كانت هذه الانهار الكبيرة تنساب فى كثير من الاحيان خلال الاراضى الهندية لخدمة سكان سندرابان وآسام ، علاوة على شرق باكستان•وفي أوقات الاحتكاك بين

هذه الولايات ، كان من الممكن أن يحدث تأخير لايطاق على مراكز الحدود الكثيرة جدا ٠

في أثناء الحرب العالمية الثانية رأيت المراكب البورمية ، التى كانت تنقل الارز فيما مضى ، وهى تتعفن على شواطىء مضيق « بالك » ٠ وفيما بعد رأيت أسطول الملايو الضخم والمراكب المحلية راسية فى مرفأ سنغافورة لا يستفيد منها أحد ، عندما فضل حاكم اندونيسيا الجديدة المجابهة على التجارة ولاحظت أيضا أن اندونيسيا هذه ،التى كانت موطن المراكب الشراعية المعروفة بـ « الماكسر » و « البرو » الجميلة ، قد بنت سفينة فولاذية حديثة تعمل بالمحركات ، لتكون سفينة تدريب للمدرسة العسكرية البحرية ٠ فلم يعد مركب « البرو » القديم يناسب الصورة الجديدة لتلك الارض القديمة الشامخة ٠ وانى لأتساءل فيما اذا كنت وحدى آمل ألا يناسبهم المركب الفولاذى الحديث أيضا ٠

وقد مرت الايام على هذه الشاكلة ، فما أن اتى الوقت الذى عزل فيه ذلك الحاكم أخيرا حتى أصبح نصف أسطول سنغافورة وقد اعتراه الصدأ ، لأن بقاء السفن زمنا طويلا خارج المياه يدمرها ويأتى عليها ٠

وفى هونج كونج أيضا ، أصبحت السفن مجهزة بالمحركات ، وحتى فى مجموعات الجزر البعيدة فى البحار الجنوبية ، فان السفينة الوحيدة غير المزودة بالآلات التى يمكن أن يراها الانسان اليوم هى اليخت الشراعى الذى يجوب العالم من آن لآخر ٠ وعلى طول سواحل بيرو والبرازيل ، وعلى جانبى أمريكا الجنوبية ، أصبحت الطوافة الشراعية المصنوعة من خشب البلسا تعتبر من سقط المتاع ، ولا تصلح لشىء ٠ ولكن هذه الطوافة كانت انتاجا محليا رخيص الثمن ، سهل الصنع ، تمد السكان بأسباب معيشتهم ، اذ كانت تستخدم فى صيد السمك ونقل البضائع ، كما كانت خافته الصوت لطيفة المنظر ٠

ويمكن أن نقول الشىء نفسه عن القارب الشراعي المصنوع من جذوع الشجر ، وقارب صيد السمك السنغالى ومراكب هونج كونج ، ومراكب البرو، والمراكب الشراعية السريعة ، وقوارب براهمابوترا والبغلات والسمابك والبوم٠ فقد أدت جميعها دورها فى التجارة العالمية بكفاءة لبعض الوقت وعلى

مدى واسع • وفى كثير من الاحيان كانت لها مكانتها فى حياة الناس وأحيانا كثيرة فى قلوبهـــــم أيضا •

انى سعيد بمعرفة هذه المراكب ، وبمعرفة العالم الذى خدمتهوالذى كانت مناسبة له فى حينه وانى أعتقد أن العالم لم يصبح أكثر فقرا فحسب ،باختفاء هذه المراكب ، بل لقد فقد شيئا أكبر بكثير من هذه المراكب الجميلة عندما استغنى عنها وطرحها جانبا •

آلان فلييرز

اكسفورد ــ ١٩٦٨

الفصل الأول

شاطئ المعلّا



شــاطىء المعــلا

حول خليج المعلا تنتصب جبال عدن القاحلة الوعرة حارة ومكفهرة كما لو كانت قد صممت ووضعت فيذلك المكانعن عمد لتمنع رياحالمحيط الباردة من الوصول الى مياه الخليج • وعبر الخليج الضحل كانت الرمال تبدو سرابا غريبا كأنها موج يتكسر على أقدام سلسلة الجبال الساحلية ، وكأنما البحر قد ألقى بها هناك وانصرف متخليا الى الابد عن أية محاولة عقيمة لتبريد الصخور الصماء الصلدة وترطيبها،تلك الصخور التي تتكون منها تلك الارض الجرداء القاحلة • وكانت السماء زرقاء صافية ، قاسية فى صفائها ، والشمس حارة محرقة والرمال داكنة قذرة ، ورائحة الشاطىء عفنة نتنة•وكانت الكلاب السائبة تتراكض خارجة من الاكواخ البائسة وهى تنبح ، ولكنها سرعان ما تصل الى حالة من الاعياء الشديد، فتكف عن النباح• كما كانت الماعز تثغو وضروعها المثقلة باللبن مغطاة بأكياس من القماش لكى لا ترضعها صغارها الجائعة ، كما كان الاطفال يصرخون وهم يتراكضون طلبا للاكرامية (البقشيش)، وكأنهم لايعرفون من اللغة كلمة غيرها • وعلى طول الطريق المؤدية الى حى « كريتر » كانت الجمال الداكنة اللون تتهادى شامخة تجر عربات صغيرة ، أو تنتظم فارغة فى قافلة ، يسير بمحاذاتها بدوى يرتدى اسمالا زرقاء بالية ، وهى متجهة الى لحج ،او الى أودية اليمن السحيقة •وعلى جانبي الطريق كانت تقوم تلك البيوت الحجرية المتشابهة التي يسكنها الصوماليون الوافدون من « بربرة » المجاورة ،وكان عددهم فى حى الميناء(١) يزيد عن عدد العرب أنفسهم • كان ذلك فى عام ١٩٣٨ وكانت تحلق فوق رؤوسنا تشكيلة غير منتظمة من قاذفات القنابل تتألف من اثنتي عشرة طائرة قديمة الطراز من ذوات المحركين تذكرنا بان عدن كانت على وشك أن تحتفل بمرور قرن كامل على الاحتلال البريطانى لاراضيها • وعدن هذه التى كانت فيما مضى ملتقى للشرق والغرب ولم تزل مرفأ عربيا ودوليا هاما ، هى الآن (عام ١٩٣٨) قاعدة عسكرية متقدمة للامبراطورية البريطانية ومركز لتزويد السفن البخارية القادمة من الشرق الاقصى وأستراليا بالوقود • وقد كانت تعرف فى سالف الدهر باسم « اليمن السعيد » وكانت مشهورة بمينائها الممتاز ومائها العذب ، كما عرفها ذلك الربان المجهول الذى ألف كتاب«المراحل الملاحية

---

(١) Steamer Point



للبحر الاحمر » فى القرن الاول للميلاد · ولعل التجار العرب والهنود الذين كانوا يجوبون البحار الشرقية قد عرفوها قبل ذلك التاريخ بقرون عديدة · وما زال هذا الميناء في ذلك العام ميناء عربيا ، ومركزا هاما لحماية طرق التجارة الاوروبية (والامريكية) ·

كنت أسير بمحاذاة شاطىء المعلا ، حيث قام أحد التجار فى القرن الثامن برسم خريطة دقيقة للمحيط الهندى على الرمال وبين عليها الموانىء والطرق التجارية التى ظلت غير معروفة لنا مدة تقارب الألف عام ، فعدت بذاكرتى الى تلك الأمجاد القديمة لهذا الميناء العظيم ، أيام ازدهار الملاحة الشرقية· كان سبب وجودى فى ذلك المكان معرفتى أن بقايا من تلك الأمجاد العظيمة مازالت قائمة هناك ، فعدن ليست مكانا يؤمه الناس للنزهة · وقد علمت ان المراكب العربية التى يستخدمونها اليوم تنحدر مباشرة من تلك المراكب القديمة التى كانت تجوب البحار الشرقية ، والتى ربما كانت اقدم مراكب أبحر فيها الانسان · وقد كنت مستعدا للذهــاب الى الجحيم اذا كان ذلك سيمكننى من رؤيتها · ولكنى وجدت أنه لم يكن من الضرورى أن أقترب من الجحيم أكثر من عدن التى كانت قريبة منه على أية حال ، فهنا ، على شاطىء المعلا تتوافر هذه المراكب ، كما يتواجد العرب الذين ما زالوا يبحرون على متونها ·

وعلى امتداد الشاطىء حيث التربة الداكنة الصلبة تستحيل الى طين سبخ كريه الرائحة ، كان اثنا عشر من المراكب الصغيرة بعضها قائم على دعائم خشبيــة وبعضــها الآخر مائل نحو البحر ، بينما بحارتهــا يرتدون « الوزرات » ويقومون باصلاحها ، أو يطلون بأيديهم المجردة جوانبها السفلى بالقار ، وهم يغنون دون انقطاع · وهنا وهناك كانت هياكل جميلة لمراكب لم يكتمل صنعها بعد ، تقف بين أكوام من الأعمدة الخشبية الملتوية المجلوبة من بعض انحاء اليمن ، والجذوع الخشبية المستوردة من ساحل مالابار ، هياكل قام بصنعها نجارون مهرة ، مستخدمين فى عملهم آلتين فقط هما القــدوم والمثقب الهنــدى ، وكــانت المقــدمات المعقوفــة الرشيقة لمــراكب « السمبوك » (١) الجديدة كأنها تنظر بدهشة الى بقايا الخشب الذى صنعت منه · وعلى رمال الشاطىء رأيت زمرة من البحارة الذين يصنعون الأشرعة ، وهم أقرب الى الزنوج منهم الى العــرب ، يجلســون القرفصــاء ويخيطون

← مقدمة مركب السمبوك

---

(١) انظر وصف هذا النوع من المراكب واية مراكب اخرى يرد ذكرها فى هذا الكتاب فى الملحق رقم ١ (المترجم) ·

الأشرعة المثلثة الشكل ، والى جوارهم كان آخرون ينشرون حبالا غليظة مصنوعة من ألياف جوز الهند ، أو يحملون مرساة صدئة الى مياه الجزر ، لتساعد على تعويم مركب صغير عندما يرتفع المد • وكان في مياه الخليج زهاء أربعين من المراكب الصغيرة تتأرجح وهي مربوطة في مراسيها ، بينما كان البحارة يدفعون عددا آخر منها ، وهم يهزجون ويغنون ، الى الرصيف الحجرى لتأخذ دورها في التحميل أو التفريغ • ولم يكن بوسع المرء أن يتفحص هذه المراكب عن كثب بسبب الرائحة العفنة لسمك القرش ، وزيت السمك ، آلتي كانت تنبعث منها • وكانت هذه المجموعة من المراكب واحدة من المجموعات الصغيرة التي تأتي الى « المعلا » من الموانيء القريبة الواقعة على سواحل اليمن ، وعلى سواحل جنوب شبه الجزيرة العربية ، لتحمل فيها البضائع وتوزع على موانيء حضرموت والبحر الأحمر • ووراء هذه كانت ترسو مراكب المياه العميقة : مراكب « البوم » الكبيرة القادمة من الكويت وكذلك مراكب « البغلة » و « السمبوك » ماخرة المحيطات ، قادمة من ميناء صور في عمان ، وهي محملة بتمور البصرة في العراق ، حيث قامت بتفريغ حمولتها وشحن بضائع أخرى لحملها في رحلتها السنوية الى ساحل شرق افريقيا •

وعلى الرغم من أن الميناء الرئيسي اصبحت تستعمله الآن السفن البخارية الكبيرة التي تسير على خطوط منتظمة ، وأن الطائرات الحربية تحوم فوق حي « كريتر » ، الا أن خليج المعلا الواقع بين النقطتين ما زال ميناء عظيما تستخدمه المراكب العربية التقليدية الصغيرة والكبيرة على حد سواء • أما الصغيرة فانها تجلب البضائع ، وتوزعها على الموانيء القريبة ، وأما الكبيرة فانها تحمل البضائع التي خلفتها السفن الاوروبية الكبيرة المنافسة لها ، فهي تجلب التمر من البصرة الى الاسواق المحلية بتكلفة تقل عن أية سفينة بخارية ، كما تنقل الملح الى ممباسا (١) بتكلفة أقل من المراكب الآلية • وهي لا تزال تقوم برحلاتها التجارية المعهودة منذ القدم تبيع وتشترى التمر والملح وسمك القرش المجفف والمنسوجات القطنية الرخيصة اليابانية الصنع ، بدلا من الحرير النادر المصنوع في الصين والملابس الرسمية الفاخرة الهندية الصنع التي كانت تنقلها في الازمنة الغابرة ، كما لا زالت تتاجر بالسمسم والسمن وزيوت الطبخ العربية والبخور والصمغ •

لقد كان لاغاني البحارة وهم يسحبون القوارب الطويلة الى رصيف المعلا ، وقع الموسيقى في أذني وأنا أسير على ذلك الشاطيء الحار ، وكان

---

(١) على ساحل افريقيا الشرقي في جنوب كينيا • انظر الخريطة ، ملحق رقم ٥ للتعرف على جميع اسماء الاماكن التي سترد في النص • (المترجم)

منظر المراكب الكبيرة مصدر بهجة كبيرة لى يشد من عزيمتى فى صباح ذلك اليوم القائظ القاسى ، فقد كنت عازما على أن أجد لى مكانا على متن أحد تلك المراكب قبل غروب شمس ذلك النهار • ومع أن رائحة شاطىء المعلا كانت كريهة ، إلا أنه كان بالنسبة لى شاطئا رومانتيكيا يسترعى الانتباه برصيفه الذى يقابل مكة المكرمة حيث يولى المسلمون وجوههم وهم قائمون للصلاة ، كما يلفت النظر بأسطوله الرائع من المراكب العربية ، فلقد كانت هذه المراكب آخر أسطول فى العالم بأسره تقريبا يستعمل الشراع فقط دون أن تفسده المدنية الحديثة • فمن بين تلك السفن الاوربية الشراعية ذوات الاشرعة المربعة الشكل التى كانت تتاجر بالحبوب المجلوبة من استراليا لم يبق ما يعادل عدد أصابع اليد الواحدة ، كما لم يبق صالحا للاستعمال الا بعض المراكب ذات الشراعين التى تعمل فى البحر الابيض المتوسط ، ومركب أو اثنان من مراكب الصيد البرتغالية ، وثلاثة مراكب تعمل بتجارة السماد فى بيرو ، ومركب ألمانى واحد أو مركبان يعملان فى نقل النيترات من تشيلى — هذه هى تقريبا كل ما تبقى من المراكب الشراعية غير الآلية فى العالم اليوم • أما تلك المراكب البيضاء التى تجوب البحار الجنوبية فقد استخدمت فيها الآلة مكان الشراع منذ زمن بعيد ، وأصبح دخان الديزل المتصاعد منها يلوث جو كثير من الجزر المنتشرة هناك•وأما المراكب الشراعية الصينية فانها ما زالت منهمكة فى تفادى القنابل اليابانية ، كما أن مراكب جزر الهند الشرقية لا تستطيع منافسة السفن التجارية الكبيرة • ثم أن مراكب الهند الشراعية قد اقتصرت رحلاتها على الشواطىء بحسب التعليمات والقوانين البريطانية بعد أنحرمتها السفن البخارية الكبيرة من معظمتجارتها البعيدة المدى • كما أن مراكب الصيد الانجليزية والمراكب البالينية (١) ومراكب تسمانيا الشراعية التى تتاجر بالخشب ، ومراكب بحر البلطيق المختلفة — أصبحت جميعها تعمل بالآلة بدلا من الشراع أو بالاضافة اليه •

ولقد بدا لى ، وأنا أعود بذاكرتى الى السنوات العشرين الماضية من خبرتى فى الملاحة ، أنه لم يبق سوى العرب يستعملون المراكب الشراعية القديمة وهى على حالتها الاصلية ، كما لم يبق غير العرب يقومون برحلاتهم البحرية كما كانوا يفعلون دائما فى مراكب شراعية تسير بقوة الريح دون أن يفيدوا من الآلة ، ولم يبق غير العرب متمسكين بمراكبهم الشراعية — يبحرون بها عباب ذلك البحر الواسع بنفس الطرق والاساليب القديمة • ومثلما ان مراكب الحبوب الفنلندية ومراكب النتيرات الالمانية هى آخر

---

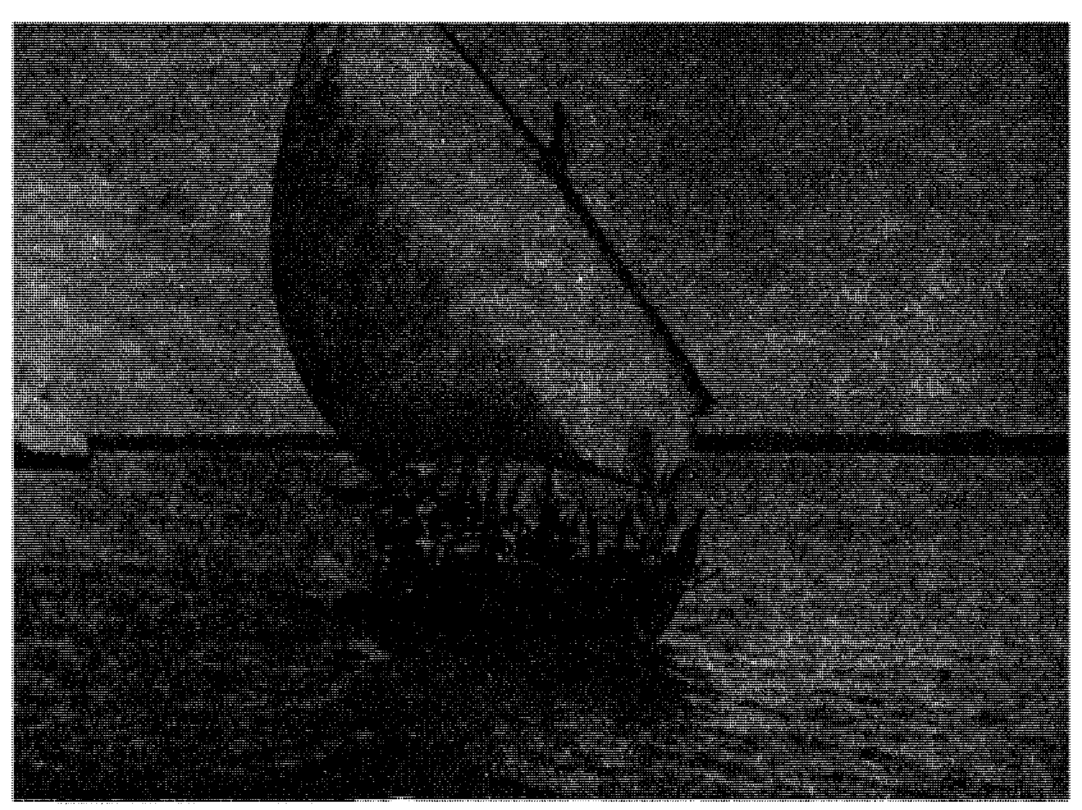
(١) نسبة الى بالي ، وهى احدى جزر اندونيسيا ، وتقع الى الشرق من جاوا • (المترجم)

ما تبقى من السفن الشراعية الاوربية فان المراكب العربية هى آخر ما تبقى من سحر الشرق القديم · وقد أتيحت لى الفرص المتعددة للابحار على متن معظم المراكب الشراعية الأخرى من القوارب الصغيرة المصنوعة من جذوع الشجر المجوفة الى المراكب ذات الصوارى الاربعة ، ومن القوارب التسمانية الصغيرة الى السفن الشراعية الكبيرة · ولكنى لم أكن قد حظيت بركوب أى مركب شراعى عربى · ولما كانت جميع المراكب الاخرى قد انقرضت تقريبا ، فقد كنت سعيدا بأن أتوجــه الى المراكب العربيــة ، وأن أعلم أنها لا زالت باقية · ذلك أنى كنت دائما مهتما بالمراكب العربيــة ، كمــا كنت معجبــا بالانسان العربى لاستقلاله واعتماده على نفسه ، ولاخلاقه الهادئة الرقيقة التى تميزت بها حياته المتكيفة مع بيئته تكيفا تاما · فلقد جاب العــرب البحار والمحيطات ، وأتقنوا فن الملاحة قرونا طويلة حتى قبل أن نسمع نحن بوجود المحيطات · وها هم الآن ما زالوا يسافرون بمراكبهم متبعين نفــس الطرق التجارية ونفس الوسائل التقليدية ، وهذا يعتبر شاهدا على كفاءتهم وروحهم العالية · ولا شك أنى ساكون سعيدا جدا لو أتيحت لى فرصة الابحار معهم فى رحلة الى افريقيا لأتعلم فنونهم البحرية عن كثب ·

كنت قد قمت فعلا من قبل برحلة بحرية على شواطىء البحر الاحمر فى مركب شراعى وكــان المركب من نــوع « الزاروق » يملكه شخص يمنى يدعى أحمد ، وكانت تلك الرحلة أشبه ما تكون برحلة تجريبية · وعندمــا وقفت لألقى نظرة على الشاطىء الزاخر بالحياة والحركة ، شاهدت ذلـــك المركب وهو يتراقص على سطح الماء بعد أن ألقى مراسيه بعيدا فى الخليج ، وهو خال من الحمولة التي كان قد نقلها الى جيزان(١)· ولا شك عندى أن رحلتى على ذلك المــركب كانت بدايــة طيبة · ولكن ما كان يستحوذ على اهتمامى فعلا هو الابحار على واحد من تلك المراكب الكبيرة ، التى كانت تفد من الكويت وصور (٢) وموانىء ايران · فقد كانت هذه المراكب باقية على حالها منذ أيام الفينيقيين ، وهى من أقدم المراكب الشراعية التى نعرفهــا ، وها هى الآن هناك تختال على صفحة الماء فى خليج المعلا تحت اشعة الشمس المحرقة ، وبحارتها يهزجون وهم يفرغون حمولتها من تمور البصرة·وها هى الآن هناك راسية فى ميناء المعلا المزدحم بالمراكب ، تستعد لرحلة ربما كانت الألف أو الخمسة آلاف من رحلاتها التجارية السنوية الى أقصى ما تسمح لها الرياح الموسمية بالوصول اليه من سواحل افريقيا الشرقية · لقد كانت تلك المراكب أسطولا مهيبا جميلا بهياكلها المطلية بالزيت ، اللامعة على ميــاه

---

(١) ميناء فى المملكة العربية السعودية على ساحل البحر الاحمر (المترجم) ·
(٢) ميناء يقع على ساحل عمان الجنوبى · (المترجم)



المركب يمخر عباب اليم

الخليج الزرقاء ، وبصواريها المزدوجة البسيطة العارية من الاشرعة • لقد كان منظرها اخاذا حقا ، وقد تركت أثرا كبيرا فى نفسى وأنا أعود بالذاكرة الى التاريخ العظيم والتقاليد الرائعة التى تكون خلفيتها • أما الآن فقد أصبحت الطائرات تئز فوق رؤوسنا ، والسواح يسرعون بسياراتهم الى منطقتى تانكس والشيخ عثمان ، بينما تقوم السفن التى اقلتهم بملء خزاناتها بالوقود دون أن يكلف أحد ، ما عدا العرب ، نفسه بالقاء نظرة واحدة على تلك المراكب العربية الرائعة • ولكن ها هى ذى المراكب تقف هناك على شاطىء المعلا ، مما يتيح لى أن أتعلم كل ما أستطيع عنها بشكل مباشر ، وهو أمر ما كان أى انسان فى أوربا يستطيع أن يعلمنى اياه •

وهكذا وجدت نفسى أمام فرصة سانحة لكى أتعلم بنفسى الشىء الكثير من تلك المراكب ، وكان ذلك مدعاة سعادة كبيرة لى • فواصلت سيرى بمحاذاة الشاطىء ببطء حتى أستطيع أن أشاهد أكثر ما يمكننى مشاهدته من المراكب هناك • وكانت وجهتى مكتب أصحاب المراكب الكويتية ، خالد عبد اللطيف الحمدواخوانه ، الذين يستوردون التمور العراقية ويملكون مزارع فى العراق فضلا عن أنهم يملكون ، أو يستأجرون ، مراكب شراعية

للمتاجرة مع أفريقيا واليمن واريتريا والسعودية والصومال والهند · وكنت أعلم أنني سأجد في ذلك المكتب تجمعا لنواخذة المراكب الكويتية ، ومراكب صور ، فقد كان من عادتهم المرور على مكاتب التجار صباحا وقد آثرت أن أسير على قدمي رغم حرارة الجو ، لكي أمتع ناظري بالمناظر الجميلة ، بدلا من المرور بها مرور الكرام في سيارة عابرة · فقد كانت الطريق المتعرجة المؤدية الى ميناء عدن تشرف على المناظر البهيجة الخلابة للميناء والبحر ، وكنت لا أكاد الحظ الطريق المعبدة ، أو السيارات الامريكية والبريطانية التي كانت تعبرها بسرعة كبيرة ، فقد كنت مسحورا بالمناظر الجميلة ، وكنت انظر خلفي الى خليج المعلا ، حيث كانت المراكب الشراعية تتهادى على سطح الماء ، وأعود بالفكر الى ذلك التاريخ الطويل من الملاحة البحرية العربية ، فاغبط نفسي لأن الفرصة المرتقبة ستتاح لي أخيرا للابحار على متن واحد من تلك المراكب العظيمة ·

ومع ذلك فقد كنت اعلم أن الرحلة نفسها قد لاتكون كلها متعةخالصة ، لاني كنت عائدا لتوى من رحلتي على متن « الزاروق » الصغير الذى يملكه احمد اليمني ، والذى كان مركبا قميئا يعج بالبراغيث ، ويتاجر مع الموانىء الحارة الواقعة على البحر الاحمر · فقد كانت الرحلة قاسية وبدائية الـــى حد بعيد ، وكان ينقصنا الغذاء الضرورى ، حتى انى ، فى خلال شهر واحد قضيته في تلك الرحلة ، فقدت من وزنى عشرين رطلا ، واصبت بالزحـــار (الدوزنطاريا) والملاريا · ومع ذلك فقد كانت الرحلة تستحق كل هذا العناء· كان اسم ذلك المركب الصغير « الشيخ منصور » ، ولكنه لم يكن يتمتع بـــأى من الصفات التي تؤهله ليحمل اسم « شيخ » ، ولم يكن طوله يتعدى خمسين قدما ، وفيه صاريان صغيران يميلان الى الامام · وكان يبدو كأنه متعطش للماء ، فقد كان الماء يتسرب الى داخله باستمرار ، وكأنه لايستطيع أن يطفو على سطح البحر الا اذا امتلأ جوفه بالماء · ولابد أنه كان مبنيا من فضلات الاخشاب الملقات على أحد الشواطىء ، ثبت بعضها ببعض بمسامير حديدية قديمة صدئة · ومع ذلك فقد كان الهيكل قويا بشكل عام · وكنت قد وجدت هذا المركب في خليج المعلا ،ومن هناك كان آل الحمد يريدون ارساله بشحنة من أرز الهند ،وسكر جاوة ، وبالات القطن اليابانى ، والاقمشة النسائيةالملونة الى أسواق جيزان ، الواقعة على الحدود الجنوبية لمنطقة عسير ، المحاذية للبحر الاحمر · ولم يكن « الشيخ منصور » سوى قارب صغير مكشوف يسير بمساعدة شراع مثلث · وباستثناء مؤخرة صغيرة ، وجزء مرتفع قليلا في المقدمة ، لم يكن لذلك المركب سطح بالمعنى المفهوم للكلمة ·

عندما صعدت الى ظهر « الشيخ منصور » لاول مرة كان بعض البحارة يفرغون الماء الصافي المتجمع فى قاع المركب ، فقد كانوا ينزحونه باستمرار ،

مع أنه كان راسيا فى مياه خليج المعلا الهادئة ، وقد استمروا على ذلك طوال الرحلة الى جيزان • ومما لاشك فيه أن « الشيخ منصور » كان أحقر المراكب الراسية فى الميناء شأنا ، مع أن هذا لم يكن بالطبع ، رأى أحد من بحارتهفيه • فقد كان صغيرا للغاية وعليه حمولة مخيفة تزيد عن طاقته زيادة كبيرة كادت تؤدى به الى الغرق • كما كانت تنبعث منه رائحة فظيعة ، ولم يكنفيهأىمكان للمعيشة أو الراحة ، وحتى الطعام لم يكن متوفرا بكمية كافية • وكانت جوانب سطحه مكسوة بحصير مصنوع من سعف النخل ، وذلك لحمايته من ماء البحر خلالالرحلة • ولكن لو قدر ، وهاج البحر مرة واحدة هياجا كبيرا ، لكـــان فى ذلك خراب المركب وهلاكنا • فلم يكن المركب ، كما قلت ، أكثر من قارب صغير حقير منخفض مدهون باللون الاخضر ، ماعدا المقدمة التى دهنت بالجير الابيض ، وافريز المؤخرة المزخرف بالاشكال الحمراء والزرقاء اللون • ومع ذلك فقد كان يطفو على سطح الماء برشاقة ، كما كانت خطوطه انسيابية جميلة فقد كان بدنه صغيرا وبديعا ، وصاريه الرئيسى المائل يرتفع شامخا فـى الهواء • أما عارضة الصارى (او القَرِيَّة) فكانت تتكون من غصنى شجرة أحدهما مربوطا بالآخر • وكان الشراع الوحيد مكونا من قطعة سيئة الصنع من قماش يابانى رخيص شدت بحبال مجدولة من الياف جوز الهند • وكانت دفته المثبته على محور ارتكاز واحد ، تبدو غير متوازنه تماما ، وتوحـــى بأنها قد تنكسر فى أية لحظة • خلاصة القول أن المركب كان يخشى عليه من الغرق حتى وهو راس فى المياه الهادئة فى خليج المعـــلا •

لقد أبحرت فى ذلك المركب الصغير مسافة ستمائة ميل واستمتعت بكل لحظة قضيتها على ظهره ، وشعرت بالأسف عندما أزف موعد فراقه • فعلى الرغم من أنه كان صغيرا وفقيرا ، كما وصفته ، الا أنه كان مركبا بالمعنى الصحيح ، وكانت الروح المعنوية السائدة على ظهره نادرة فى أيامنا هذه ، ولامثيل لها فى السفن التجارية الحديثة •

كنا قد أبحرنا من المعلا فى ذلك المركب الصغير وسرنا بمحاذاة ساحـل الجزيرة العربية الجنوبى متجهين غربا ، ثم عبرنا باب المندب وسرنا بمحاذاة الساحل اليمنى مارين بموانىء المخا ، والحديدة وكمران ،وتابعنا سيرنا باتجاه جيزان فى الطريق الداخلى الذى يمر بين الجزر المرجانية وكنا نبحر نهارا ونلقى بمراسينا ليلا لأن الطريق كانت محفوفة بالمخاطر • ولقد صادف ابحارنا شهر رمضان ، وكانت مصادفة سيئة ، لان ذلك الشهر يجعل الابحار مع العربفى مراكبهم أمرا شاقا للغاية ، لأن المؤمنين منهم يصومون فى هذا الشهر ، ولا يتناولون طعاما أو شرابا من بزوغ الفجر الى مغيب الشمس • فاذا صـــادف أن كنت مرافقا لهؤلاء المؤمنين فان الذوق السليم يفرض عليك أن تفعـــل

ما يفعلون • لقد كان بحارتنا الثمانية ، تحت قيادة أحمد اليمنى ، يصومون طوال النهار ، حتى اذا ماغابت الشمس أدوا الصلاة ، ثم جلسوا لتناول الطعام المؤلف من الأرز والسمك ، هذا اذا توفر الارز • وكنا قد صدنا بعض السمك ، وكنا نتناول الطعام بأيدينا اليمنى على الطريقة العربية • لقد كانت الحياة شاقة ، ولكنها كانت بسيطة خالية من التعقيد ، فاذا لم يكن الانسان يملك شيئا ، فلن يوجد من يحسده على شيء • ولم يكن فى المركب أية اسرة للنوم • ولكن الهواء كان دافئا وكانت النجوم ترافقنا طوال الطريق وكان الطقس جيدا • ولم يكن هذا المركب يعرف الروتين ، كما لم يكن له جدول محدد ، فلم يكن أحد يهتم باليوم أو التاريخ ، لان الايام لم تكن بالنسبة لهم فترات محددة ، مميزة ، لكى يقوموا بتسميتها وعدها والتحسس عليها عندما تنقضى • الا اننا كنا مهتمين بحركة القمر خلال شهر رمضان لان محاقة كان يعنى بالنسبة لنا انتهاء شهر الصيام • وقد عجبت للسهولة الكبيرة التى تكيفت بها مع البحارة ، وأصبحت مثلهم لاأهتم بالزمن • وقد شعرت بالسعادة فعلا عندما انتابنى ذلك الشعور ، فلماذا يهتم الناس بتحديد الايام ؟ فقد كانت الشمس تشرق وتغيب بارادة الله ، وكانت كل الايام خيرا وبركة • لقد كانت حياة أولئك البحارة بدائية ، ولكنها كانت تبعث فى النفس شعورا غريبا بالراحة والقناعة والاطمئنان •

سمبوك كبير مرفوع على الشاطىء



كان أحمد يبذل قصارى جهده لتسيير السفينة ، والاستفادة من الريح التى كان يسخرها الله له٠ولم يكن يظهر الضيق أو يتذمر عندما كانت الاحوال تسوء ٠ لقد كان البحارة يتمتعون بروح طيبة عالية على الرغم من فقرهم ، وكانوا يعتبرون القبطان والدا لهم ٠ ومع أنه كان فى الثلاثين من عمره ، وكان معظم البحارة رجالا مكتملى الرجولة ، الا انه كان يتصرف كأنه أب للجميع ، وكانت قيادته لهم أبوية ورحيمة ٠

لقد كان يهمنى أن أرى الطـــريقة التـــى يقود بها أحمد مركبه هذا ، لانه لم يكن يعرف أساليب الملاحة الحديثة كما نعرفها نحن ٠ كما أن تلك البحار خطرة للملاحة ٠ وقد تبين لى أن أحمد لم يكن بحاجة الى أساليب الملاحــة الحديثة ، فقد كان يقود مركبه «الشيخ منصور» بمنتهى السهولة٠فعلى الرغم من عدم توافر أى نوع من الاجهزة التي تقيس سرعة الهواء ، وعلى الرغم من أن المرساة لم تكن سوى قطعة من الصخر غرز بها مسمار طويل ، وعلى الرغــم من عدم توافر أى نوع من الادوات أو الاجهزة المساعدة على الملاحة سوى بوصلة قديمة جدا ، ربما يعود تاريخها الى القرن الماضى بحيث لم تعد تصلـــح للعمل ، بل لم يعد بالامكـــان رؤية ما بداخلهـــا ، وعلى الرغم من عـــدم توافر حتى حبل بسيط لاستعماله فى قياس الاعماق ، على الرغم من كل ذلك فقد كان « الشيخ منصور » بطريقة ما ، يشق طريقه على صفحة الماء بسهولة وخفة ويسر ، وكان قد مضى عليه على هذا الحال أكثر من ثلاثين عاما فى بحر من أخطر البحار ملاحة فى العالم ٠ لقد كان المركب عاريا تماما ، فلم يكن له سطح ولم يكن فيه مأوى للبحارة والركاب،ولم يكن مزودا بالخرائط أو بناقوس أو بارومتر أو ساعة أو أى شىء من هذا القبيل ٠ وهل كانت هناك حاجة الى سطح مادام البحر دائم الهدوء ؟ وهل كانت هناك حاجة الى مأوى مادامت السماء لاتمطر أبدا ؟ ومن ذا الذى كان بحاجة الى خرائط ، مادام أحمد يعرف كـــل نتوء أرضى ، وكل صخرة مرجانية أو غير مرجانية ، وكل مكان على الشاطىء بالعين المجردة ، لما له من خبرة طويلة جدا فى تلك البحار ؟ وهل كانت هنـــاك حاجة الى ناقوس أو ساعة مادامت لم تكن هناك ضرورة للاهتمام بالوقت ؟ أو الى البارومتر مادام الطقس فى فصل الشتاء دائم الاعتدال ؟ لم يكن فـــى المركب حتى قماش مشمع لتغطية البضاعة ، التى كانت مكشوفة ومعرضة لكل تقلبات الطقس ٠ ولكن لم تكن هناك حاجة لذلك مادام البحر لايهيج أبدا ، لانه لو فعل ذلك لتعرض المركب بكامله،وبكل مايحمل ، وليس البضاعة وحدها، للغرق ٠ فلم يكن فى المركب حتى مضخة بسيطة ، كما لم يكن هناك أدوات للطبخ سوى صندوق مملوء بالرمل وغير ثلاثة أحجار يشعل عليها أحد الغلمان نار الحطب فى الامسيات ٠ أما المواد والمؤن التى زود بها المركب فى عدن ، فقد كانت تتألف من بعض سعف النخيل القديمة التى كانت تستخرج اليافـــها

كلما دعت الحاجة الى ذلك لاستعمالها لصنع الحبال او الاشرعة أو السلال أو غيرها • وكان الطعام المخصص لاثنى عشر رجلا (فقد كان على المركب بعض المسافرين أيضا) لا يملأ اكثر من نصف صندوق صغير موضوع في المؤخرة • وسرعان مانفدت المؤن ، ليصبح السمك الغذاء الوحيد بعد ذلك • أما مـــاء الشرب فقد كان يحفظ في برميل صدىء ، معرض لاشعة الشمس المحرقـة طوال النهار ، وكان من الطبيعي أن تعشش فيه الحشرات المختلفة • ولم يكن على المركب فانوس ، أو أى مصدر آخر للاضاءة • ولذلك فعندما كانت الشمس تغيب ، كنا نعيش فى ظلام دامس لا يبدده شيء ، ومع ذلك فقد كانت الليالى تمر لطيفة والنجوم متلألئة ، بينما كان القمر الساطع في ليالي رمضان يؤنسنا ويزودنا بحاجتنا من النور •

وكان المركب يهتز ويغوص بصورة مزعجة اذا ماطرأ على البحر أىهياج، كما كان يعج بالجرذان والصراصير وجميع أنواع الحشرات الاخرى • وفى الليل كان البعوض الجائع يأتينا من الجزر الصغيرة التى كنا نرسو بحذائها، ويتمتع بما يمتصه من دمى القوى• وعندما انتزعت سمكة القرش منا سنارتنا الوحيدة التى كنا نصيد بها السمك ، أصبح الطعام نادرا وعشنا ثلاثة أيام على حفنة من التمر الجاف • وكنا نغتسل بماء البحر ، ونأكل بأيدينا وننام فوق البضاعة التي كانت ترتفع عن سطح الماء بمقدار قدم او أقل منه ، وقد حرقتنا أشعة الشمس اللاهبة وشعرنا بالجوع والارهاق ، فاهتزاز مركب صغير في البحر وحركته المستمرة متعبة جدا • ولم أكن أفهم شيئا من كلام البحارة اليمنيين لأنني لم أكن أعرف من العربية الا النزر اليسير •

لقد كانت حياة صعبة ، ولكن هذا لم يخطر على بال أحد غيرى ممـن كانوا على ظهر المركب ، كما أنى كنت أشعر بالسعادة لوجودى هناك ، فقدكان جميع البحارة أصدقاء أوفياء وكانت تروق لى بساطتهم وصدقهم وجهلهم للنفاق والرياء ، كما أعجبتنى فلسفتهم البسيطة فى الحياة الهادئة الوادعة الخالية من القلق • فقد كانوا يصومون ويصلون ويغتسلون بماء البحر ، ويقومون بالاعمال اللازمة ، ويأكلون ما تيسر لهم بسرور وانشراح • ويبدو لي أن تلك البساطة في حياتهم الشاقة قد زودتهم بصفات يحسدون عليها وغالبا ما نفتقدها نحن في حياتنا ، فقد كانت قناعاتهم من صنع أيديهم ، ومتعهم مقتصرة على العالم الخارجي الحقيقي من حولهم • ولقد كان جميع البحارة أحرارا ، على الرغم من أن أحدهم كان عبدا • لقد كانوا بالتأكيد أكثر حرية منا نحن •

مضت الأيام متثاقلة ، يوم ينقضي ويوم يليه ، ونحن متجهون شمالا داخل المنطقة الصخرية الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر • وكانت الريح تهب والمركب يمخر عباب الماء ، والبحارة يصلون ويصومون والجميع مطمئنين ، فقد كان أحمد اليمني يعرف طريقه حق المعرفة : لقد كان خبيرا بتلك المياه ، وكان يعرف مركبه جيدا • كما كان بحارا ممتازا • وقد كان مركبه من نواح عدة أهدأ وآمن مركب ركبته في حياتي • وقد تعلمت كيف أعجب بأحمد وأحترم مقدرته ، وكيف أعجب بالبحارة الآخرين وأحبهـــم فقد كانوا يحبون مركبهم على صغره ، ولا يرون فيه عيبا • وبعد مـــدة تفاعلت خلالها مع الروح السائدة على المركب ، بدأت أشعر بالخجل مـــن نفسي لأني نظرت اليه في البداية نظرة احتقار وبخسته حقه • فقد كان بالفعل مركبا صغيرا صالحا للرحلات التي كان يقوم بها على الرغم من أن حبال شراعه كانت مصنوعة من القش المجدول • وكان يبحر بخفة وبشكل مرض اجمالا ، ولم يسبب لنا أية مشاكل في البحر ، مع أنه تعرض لتيارات مائية قوية مرتين : مرة مقابل « المخا » ومرة أخرى في مضيق باب المندب • ومع أنه كان يحمل ضمن شحنته الكثير من الطعام ، ونحن جياع ، الا أن شيئا من ذلك أو من غيره من البضاعة لم يسرق او يمس ، على الرغم من ان البحارة كانوا فقراء ، وكان أي جزء من تلك البضاعة يعادل ثروة بالنسبة لأي منهم • وفي يوم من الأيام عندما شاهدنا مركبا آخر واقعا في مـــأزق بسبب فقده لدفته ، سارع أحمد لنجدته ، مع ان الريح كانت شديدة في ذلك اليوم ، ومع أن المياه كانت خطرة هناك • وعندما كنا نلتقي ببعض صغار الصيادين كنا نبادلهم السمك بالارز ، ان كان لدينا شيء منه •

وهكذا مرت الايام تترى واحدا تلو الاخر ، فاسترسلت لحانا ، وهزلت بطوننا ، فشددنا الاحزمة ، وتكاثرت الحشرات فى برميل الماء تكاثرا عظيما• وفى مساء اليوم الثامن وصلنا جيزان ، بعد أن اخترقنا الاعشاب البرية النامية في البحر ، وألقينا مراسينا بجانب أحد مراكب الحجاج المتجهة الى جدة •

لقد حدث هذا كله قبل أسابيع قليلة خلت ، وها أنذا أقف الآن في الشارع الموصل الى حي كريتر،لألقي نظرة الى الوراء فأرى«الشيخ منصور»، وقد عاد الى عدن ، نقطة خضراء بعيدة في الميناء المزدحم بالمراكب•لعل الحياة على ظهر ذلك المركب كانت قاسية اذا قيست بأى من معاييرنا الحاضرة ، كما أنى لم تعد بى رغبة للقيام برحلة أخرى فى البحر الاحمر على ظهر مركب صغير كهذا ، اذ لابد من أن تكون أمثال تلك الرحلات متشابهة • ولكنى أحببت العرب ، وكنت أتطلع للسفر على ظهر أحد المراكب الكبيرة فى

رحلة طويلة وفي بحار عميقة لان هذه الرحلات تكون دائما أكثر اثارة • لقد كان ذلك ما يجول في خاطري وأنا أتابع سيري صعدا على طريق كريتر ، وأنا أحس بالسعادة ، وبالراحة أيضا ، لولا أن الطقس كان شديد الحرارة ، وكم كنت أتمنى لو كان أكثر اعتدالا •

في مكتب آل الحمد المعتدل الحرارة ، الذي كان يتألف من بناء كبير من الحجر ، قائم في أحد شوارع معسكر عدن ، وجدت عددا قليلا من نواخذة المراكب الشراعية الكبيرة الراسية في الميناء ، وكان علي عبداللطيف الحمد ثاني أصغر الاخوة من آل الحمد يجلس الى مكتب أنيق نظيف ، والى جانبه خزانة ملفات عصرية وجهاز هاتف على منضدة بقربه ، فقد كان في ذلك الوقت هو المسؤول عن مكتب عدن•وقد كان علي شابا نحيلا طويل القامة يرتدي بدلة حسنة الخياطة ، ويعتمر على رأسه قلنسوة من جلد الغنم وكان المكتب يتألف من غرفة بسيطة تطل على الشارع ، وقد صفت على جوانبها الثلاثة مقاعد خشبية مغطاة بالسجاد والمطارف وكان النواخذة، وهم مجموعة صامته ملتحية ، يفترشون السجاد ، وكانت لحية أحدهم محناة تبرز من وجهه كأنها حشائش البحر الجافة ، وقد ثبت في عمامته عود سواك لاستعماله عند الحاجة ، على ما أعتقد ، في تنظيف أسنانه • وبالفعل لم يخيب الرجل ظني فقد سحب السواك من عمامته ، وبدأ يفرك به أسنانه دون اكتراث • وكان للنواخذة الآخرين شوارب طويلة ، وكانوا يرتدون الدشاديش البيضاء • وباستثناء أحدهم ، الذي كان زنجي اللون والملامح ، فقد كانت ملامح الباقين عربية ، وكان لونهم فاتحا نسبيا ، حتى أنهم لو ارتدوا الملابس الاوربية لبدوا كاليونانيين او البرتغاليين ذوي البشرة السمراء • لقد كانوا مجموعة ملفتة للنظر ، وهم جالسون في ذلك المكتب يداعبون حبات سبحاتهم المصنوعة من الكهرمان ، ولا يتكلمون الا اذا وجه الى أحدهم سؤال معين •

شكرت علي عبد اللطيف على الرحلة التي أتاح لي القيام بها الى جيزان ، فقد كان هو الذي رتبها لي ، وسألته عما اذا كان بامكاني أن أبحر الى زنجبار على متن أحد المراكب الكبيرة • فافترت شفتاه عن ابتسامة أظهرت صفين من الاسنان السليمة يعلوها شارب أسود قصير حسن الترتيب ، وتساءل عما اذا كنت بالفعل راغبا في الذهاب على متن مركب كبير الى افريقيا ، وعما اذا لم يكن ما قاسيته على ظهر « الشيخ منصور » كافيا • وتابع كلامه قائلا اني اذا كنت بالفعل راغبا في مثل تلك الرحلة فقد كنت محظوظا

حقا ، ذلك أن أفضل قبطان كويتي شاب كان موجودا في نفس البناية في ذلك الوقت ، يتناول طعام الغداء في احدى غرف الطابق العلوي ، التي لم أكن قد شاهدتها بعد • واستفسر منى عما اذا كنت أرغب فى مقابلته فأجبت بالايجاب • وهكذا كان أول لقاء لي مع « نجدي » صاحب الأنف الأقنى الذي يشبه منقار الصقر ، وذي العينين الحادتين الثاقبتين كعيني الصقر ، وابن البحار الشرقية المحنك • لقد كان نجدي قبطان أحد المراكب الكبيرة التي تسافر الى زنجبار وساحل ملبار ، كما أنه كان ملك صيد اللؤلؤ في الخليج العربي(١) •

عندما لقيت « نجدي » لاول مرة كان يتناول طعامه من لحم خروف محشو بالارز ، فقد كان رمضان قد انقضى وأصبح الاكل مسموحا به خلال النهار • وقد بدا لى من طريقة أكله النهمة بأنه كان يحاول التعويض عما فاته خلال شهر رمضان • وكان يجلس القرفصاء على سجادة ممدودة فى ظل احدى الشرفات حيث يمكن أن تمر نسمات الهواء الباردة ، ويمضغ بلا مبالاة قطعا كبيرة من لحم الخروف الناضج ويحشو فمه أيضا بحفنات من الارز بسرعة فائقة • وعندما دخلت عليه توقف عن الاكل وهب واقفا • لقد كان رجلا قصير القامة ، ناحل الجسم ، له وجه قاس لم تتمكن هجمات الجدري من تشويهه ، فقد كان وسيما ، على طريقته الخاصة ، ذا وجه بيضاوي وشارب أسود قصير ، حسن الترتيب ، وأنف كأنف الصقر ، وذقن واضحة المعالم تدل على التصميم وقوة الشكيمة • وعلى الرغم من أنه كان معروقا ونحيلا جدا،الا أنه كان بادي القوة والبأس ، كما كان شديد السمرة ، أشد سمرة من سائر القباطنة الكويتيين الذين كانوا في الطابق الأرضي • وكان حسن الهندام بشكل بارز فقد كان يرتدي جلبابا فضفاضا من الحرير الابيض ، ينغلق عند العنق بزرين من الذهب ، كما كان يضع على رأسه كوفية بيضاء موشاة بخيوط من الذهب الباهت يثبتها فى مكانها عقال اسود مصنوع من صوف الغنم ، وهو العقال المستدير الذى يشبه الحبل والذى يعتمره جميع العرب فى الصحراء • أما عباءته المصنوعه من وبر الجمال والمطرزة بالخيوط الذهبية فقد كانت ملقاة على السجادة بجانبه ، كما كانت تبرز من احدى جيوبه سبحة من حب الكهرمان ، وعلى السطح قريبا من طرف السجادة كان هناك نعل جديد مصنوع من الجلد الاحمر والاخضر ، بجانبه عصا من صنع « ملابار » • وقد كانت يداه صغيرتين جميلتين تنتهيان

---

(١) فى الاصل : « الخليج الفارسى » ، وقد عمدنا الى اجراء هذا التغيير كلما ورد التعبير • (المترجم)

بأصابع طويلة دقيقة ، الا أن قسمات وجهه كانت تدل على القوة وحسن الطوية في نفس الوقت • وكانت تبدو على وجهه ، وعليه كله بوجه عام ، سمات المقدرة واليقظة ، وهذه بالطبع صفات حسنة تساعد على قيادة حكيمة منضبطة للسفينة التى يعهد اليه بقيادتها • كما كان يتمتع بثقة كاملة بالنفس ، وهذا بالطبع من سوء حظ من يحاول أن يتحدى قيادته • وكانت له وقفة البحار المتمرس الممتاز ، البحار المعتاد على اهتزاز المركب في البحر ، لا على سطح منزل فى المدينة ، لان وقفته كانت توحى بأنه يتوقع أن يهبط السطح من تحت قدميه فى أية لحظة ، وبأنه فى الوقت ذاته مستعد لذلك ، فيما لو حدث فعلا •

قدمني علي اليه ، وشاركناه في الطعام دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة الى أن انتهى الجميع ، ولم يستغرق ذلك أكثر من خمس دقائق ، كان الخروف بعدها قد اختفى كله تقريبا من على القصعة • وعندها غسلنا أيدينا بالماء الذى أحضره الخادم فى ابريق ، ثم احتسى كل منا ثلاث رشفات من القهوة المرة الثقيلة جدا ، واستنشقنا البخور من مبخرة أحضرها خادم آخر ثم جلسناصامتين بعض الوقت • وقد خيل الى أن هذاهو كل ماسنقوم به ، الا أن عليا أخذ يتحدث مع هذا الشاب الغريب ،الذى فهمت أنه قد مضت عليه أكثر من عشر سنوات وهو يقود المراكب الشراعية الكبيرة الى الهند وسواحل أفريقيا • ولم أفهم بالطبع ما كانا يقولانه لانهما كانا يتكلمان اللغة العربية ، التى لم أكن أفهم منها حينئذ الا النزر اليسير • ولكن عليا كان يتقن اللغة الانجليزية ، وقد أخبرنى فيما بعد بأن كل شىء سيكون على مايرام ، وأن باستطاعتى أن أرافق «نجدى» فى «بومه» • لقد كان اسم نجدى الكامل هو على بن ناصر النجدى(١)

---

(١) على ناصر النجدى من نواخذة الكويت المعروفين • كان يسافر عادة فى البوم الذى يملكه والده • وهو معروف فى الكويت بسمو اخلاقه ، وكرمه المنقطع النظير ، وشهامته ، علاوة على اهتمامه بمظهره الخارجى •

بعد ان ترك السفر فى السنوات الاخيرة ، عينته الحكومة مختارا • ولكنه تابع هوايته فى صيد السمك وهى الهواية التى كان يمارسها عادة فى عطلة نهاية الاسبوع •

وفى شهر مارس (اذار) عام ١٩٧٩ كان يمارس هوايته تلك فى مركبه بعيدا عن الكويت ففاجاته عاصفة قوية وهو فى عرض البحر ، قلبت المركب ، وغرق هو ، مع واحد اخر من زميلين كانا معه •

تزوج نجدى من شما العدسانى التى رزقت منه بجميع اولاده : ابراهيم فعلى فعبدالله • وكان عبدالله يصحب والده فى اسفاره • وبعد موتها منذ بضع سنوات ، تزوج من ابنة التويجرى ، وهى ارملته التى تسكن فى بيته الان • (المترجم عن احمد البشر الرومى) •

وكان بدويا من بدو الكويت • أما مركبه فكان اسمه « فتح الخير » وقد بدا لى بأن هذا الاسم مناسب جدا لاى مركب شراعى يقوم برحلاته البحرية معتمدا على العناية الالهية كالمراكب العربية العادية • ولكني كنت أخشى أن يكون ذلك الاسم هو أفضل ما فى المركب ، وقد تذكرت حينئذ « الشيخ منصور » ، المركب الذى كان يحمل اسما كبيرا ، ولكنه كان أحقر مركب صغير فى خليج المعلا بأسره • وعلى أية حال فلم أكن متأكدا من أن عليا لم يقصد من تلك الرحلة السابقة فى البحر الاحمر أن يختبر صلابة عودى ومدى عمق اهتمامى الحقيقى بالعرب ومراكبهم الشراعية ، كما أنى خشيت فى قرارة نفسى أن يتبين فيما بعد بأن « فتح الخير » ، الذى يحمل هذا الاسم الطنان ، هو أصغر وأحقر واقدم « بوم » كويتى فى الميناء ، ولكنى احتفظت بتلك الوساوس لنفسى ، لانى شعرت بعينى نجدى تحدقان بى ، وقد عزمت عندئذ على السفر على ذلك المركب ، دون تردد ، مهما كانت حاله •

لم يتكلم نجدى الا قليلا اثناء ذلك اللقاء ، مع انى فهمت أنه لا يعير بالا لاهتمام الاوربيين بتأليف الكتب • فقد كان يكفيه كتاب واحد، هو القرآن الكريم ، الذى لم يكن به حاجة الى سواه ــ كما فهمت أيضا أنه عرف أنى بحار عريق وانى قد قدت بنفسى سفنا كبيرة فى رحلات طويلة ، ولذلك ربما أمكنه أن يفيد من خبرتى • أما فيما يتعلق بقضية الكتب ،فقد أخبرنى على بأن نجدى مقتنع تماما بأن عدد الكتب التى ألفها الاوروبيون عن العرب أكثر مما ينبغى ولا حاجة لمزيد منها ، وان كان يرى أن بعض تلك الكتب جيدة ــ وأشار الى بعضها مثل كتب يورنس (أى لورنس) (١) وستارك (أى فريبا ستارك) • (٢) الا أن القارىء العربى لكثير من الكتب الاخرى لايستطيع أن يتعرف من خلالها لا على نفسه ولا على بلاده • وعلى الرغم من أن عليا أخبره بأنى لن أكتب الا عن البحر والمراكب والبحارة ، فانه لم يقتنع بضرورة ذلك أو فائدته • ويبدو أنه لم يؤمن بأن البحر موضوع مناسب

---

(١) لورنس T. E. Lawrence (١٨٨٨ ــ ١٩٣٥) هو ضابط الاستخبارات البريطانى الذى حرض العرب على الثورة ضد الاتراك خلال الحرب العالمية الثانية ، والذى رافق الامير فيصل والامير عبدالله بن الحسين فى حملتهما التى انتهت بتحرير فلسطين وسوريا • وقد سجل احداث تلك الحملة فى كتابه المشهور « اعمدة الحكمة السبعة » (المترجم) •

(٢) فريبا ستارك Freya Stark (١٨٩٣ ــ) ، رحالة ومكتشفة وكاتبة بريطانية عملت مع وزارة الاعلام البريطانية فى الشرق الاوسط (العراق وسوريا بشكل خاص) خلال الحرب العالمية الثانية • من اهم كتبها : « البوابات الجنوبية للجزيرة العربية » و « شتاء فى الجزيرة العربية » و « الشرق هو الغرب » وغيرها • (المترجم) •

للكتابة ، بل كان يعتقد أن من الافضل أن يترك العرب وشأنهم ليقوموا برحلاتهم دون أن يقوم أحد بتسجيلها كما كان الحال معهم لعدة قرون ، وأنه ليس هناك أحد يريد أن يقرأ شيئا عن البحارة ، كما أن من المؤكد أن البحارة أنفسهم لايرغبون في قراءة شيء عن أنفسهم ، فهم جميعا يتمنون لو كانوا يعيشون على البر ويعملون هنا بدلا من عملهم في البحر • أما افضل الكتب بالنسبة لهم فهى تلك التى تضم بين دفتيها معلومات عن المسافات والشواطىء ووصف الموانىء المرغوب فيها،ولاشيءغير ذلك• علىكل حال فان نجدى لم يكنيمانع في وجود بحار آخر على ظهر المركب اذا رضيت بركوبه على حاله التى أجـــده عليها • ولذلك فان بامكاني مرافقته ، وسيكون من نصيبي ستةأقدام منمساحة السدة الخلفية التى يستعملها الضباط ، كما يمكننى أن أشاركهم طعامهم • ولكن أليس من الافضل قبل كل شيء أن ألقى نظرة على المركب كما اقترح نجدي وعلي ؟

لقد راقت لى تلك الفكرة جدا ، خاصة عندما تذكرت «الشيخ منصور» • كان صعودى الى سطح « فتح الخير » يوم الاحد ، وبعد أن القيت عليه نظرة سريعة أدركت في الحال أنه لاداعي للقلق من ناحيته ، فقد كان بوم نجدىمركبا جميلا عريقا يقف هناك منتصبا شامخا ليس هناك مجال للمقارنة بينه وبيـــن « الشيخ منصور » • فقد كان ضخما في غير ثقل ، قويا في غير بطء ، متينا مع انسياب في الخطوط ، وكان يتهادى على مياه خليج المعلا الزرقاء كطير بحرى جميل • وكانت مقدمته التى تشبه منقار الطائر تساعد على تكوين تلك الصورة ، كما كان منخفضا من ناحية المقدمة ، مرتفع المؤخرة مثله فى ذلك مثل باقى المراكب الشراعية العربية• أما مقدمته التى تشق الماء فقد كانـــت مستقيمة ترتفع الى أعلى مكونة نوعا من الدقل المائل الذى يمتد لمسافةعشرين قدما أمام المركب ، وان لم تكن له أية فائدة سوى الرمز فحسب • ومن ، المقدمة المنخفضة كانت خطوط البدن تنساب بشكل جميل الى مؤخرته التى كانــت مرتفعة وواسعة • وقد قدرت حمولته بمائة وخمسين طنا ، مع أن أحدا من العرب الذين سألتهم لم يستطع أن يحددها ، فلم يكونوا يقيسون حمولة مراكبهم بالاطنان بلبمقدار ما تستطيعحمله من جللالتمر البصرى،وقد قدروا أن «فتح الخير » يستطيع حمل ألفين وخمسمائة جلة من التمر • ولما كانت حمولته قد أفرغت ، عندما أعتليته ، فقد كان خفيفا حينئذ، يقف شامخا متعاليا على جميع المراكب الاخرى من نوع السمبوك والزاروق الموجودة فى الخليج•وكان صاريه الرئيسي المصنوع من الخشب يرتفع الى علو تسعين قدما فـــوق ســـطح البحر ، أما القرية الضخمة (١)التى تحملالشراع المثلث الشكل فقد كانت

---

(١) القرية : هى العارضة او عود الشراع الذى يجعل فى عرضه من اعلاه • (المترجم) •

مصنوعة من جذوع ثلاث شجرات ربط طرف كل منها بطرف الاخر بعدة لفات من حبال القنب القوية • وقد كانت تفوح من المركب رائحة زيت السمك الكريهة ، شأنه فى ذلك شأن المراكب الاخرى ، ولكننى كنت آنذاك قد أصبحت متعودا على ذلك • وعلى الرغم من تلك الروائح والروائح الغريبة الاخرى التى كانت تنبعث من المدخل الرئيسى الموصل الى جوف المركب عندما صعدنا الى ظهره فقد أدركت فى الحال أن هذا النوع من المراكب هو الذى طالما حلمت بأن أبحر فيه • فقد كان جو المغامرة الحقيقى يخيم على كل شبر من هيكله الجميل ، كما كانت ألواح السطح المتآكلة نفسها مشحونة بروح المغامرة المتنوعة المثيرة • ياله من مركب عظيم ! ان المرء يتعلم ، بعد عشرين عاما من الخبرة ، كيف يشم رائحة الجو على مركب ما حالما تطؤه قدماه ، ولذلك فقد أدركت بنظرة واحدة أن هذا المركب مركب خيِّر ، حسن القيادة على الرغم من الرائحة الكريهة التى كانت تنبعث منه ، وعلى الرغم من أنه لم يكن أحد على ظهر المركب يعلم بوجهته القادمة • فقد بدا لى بأن هؤلاء العرب ومراكبهم ، التى تبدو عتيقة جدا ، ووضيعة جدا اذا قيست بمقاييس عالمنا المسعور ، هؤلاء يشعرون بنوع من السعادة فى حياتهم لا ندرك نحن مدى الحاجة اليها • لذلك فقد علوت المركب ، تغمرنى السعادة ، وأنا أتلفت حولى بفخر واعتزاز ، لشعورى بأن هذا المركب مركب حقيقى ، وكنت سعيدا بأن تتاح لى فرصة الابحار فيه • وقد وجدت مساحة الاقدام الستة التى خصصت لى فى الجزء الخلفى من المركب كافية وافية ، وكانت تظللها ظلة من قماش قطنى هندى متين – لم يعد بالامكان ثنيه أو طيه بعد ذلك ابدا – ، كما وجدت البحارة الاشداء يؤدون اعمالهم بنشاط ومرح •

ويجب أن اعترف بأنى لم أكن اعرف على وجه اليقين وجهة سفر « فتح الخير » ، ولكن لم يكن هناك داع لاستعجال هذا الامر ، فلم يكن ذلك أمرا ذا بال ، اذ لا بد أنه سيقوم بنفس الرحلات التى يقوم بها غيره من المراكب العربية • وكان حسبى أن هذا النوع من البحارة ومن الرحلات مازال قائما وأن تتاح لى فرصة الاشتراك فى احدى تلك الرحلات ، ومشاهدة ما يحدث فيها عن كثب •

استقبلنا نجدى ونحن نصعد الى ظهر المركب ، وكان يرتدى جلبابا فضفاضا من القطن « دشداشة » ، ويضع على رأسه كوفية بيضاء مطرزة بخيوط ذهبية اللون ، ويلقى على كتفيه بلا اكتراث عباءة بيضاء خفيفة• وكانت هذه العباءة الجميلة مصنوعة من وبر الجمال الابيض ، ومطرزة

من الامام وعلى طول الاكمام وعلى أطرافها بقماش وخيوط مذهبة ، وقد ضمت الى صدره بشرابتين مذهبتين غير محكمتي العقدة • وكانت في يده اليمنى سبحة تتأرجح هنا وهناك وكان يقف بجانبه شقيقه الاصغر عبد الله ، الذى كان ضابطا صغيرا في « البوم » ، وكان هذا جميل المحيا تظهر على وجهه اثار الجدرى ، الذى لا شك أنه كان مرضا شائعا في الكويت • وكان يقف خلفهما « المعلم » أو مساعد القبطان الذى كان يدعى «حمد بن سالم»(١)•وقد كان هذا أطول قامة من الاثنين الاخرين ، ذا عثنون شديد السواد ، منسق بعناية شديدة ، وبطريقة هندسية ، تجعل المرء يتصور كأنه قد قص من مكان ما ، والصق بذقنه •

وقد تبين لى أن هناك حفلة رقص ستقام على شرفنا • فقد كان المركب يرتدى حلة من الزينة فكانت المؤخرة والقسم الرئيسى من سطح المركب مظللتين بمظلات كبيرة ، أما الارضية فقد فرشت بالسجاد العجمى ذى الازهار الحمراء والزرقاء اللون • وكان مقعد القبطان في الخلف مزينا بشكل خاص ومغطى بسجاد سميك وبعدد كبير من الحشايا والوسائد وعلى جانبيه سرجان من سروج الجمال ، كان نجدي يأخذهما معه ليبيعهما الى أحد تجار العاديات الذين يتعاملون مع السواح في زنجبار •

وهنا جلسنا في استرخاء وراحة وقد خلع الضيوف العرب نعالهم ، وجلسوا يدخنون النراجيل الكبيرة المصنوعة من فخار البصرة ، بينما كانت القهوة العربية المرة والشاي شديد الحلاوة يدوران علينا مرة تلو الاخرى ، والطبول تسخن استعدادا للرقص • ثم أتى البحارة بأطباق من الشراب والحلويات والتين والتمر ، وكانت كلها لذيذة الطعم • وكان نجدي يبدو مهيبا وسيدا للموقف كله ، وكان يدخن نارجيلة عالية وهو ينصت بأدب الى حديث علي التاجر ، ويتمتم من آن لآخر قائلا « طيب » أي « حسنا » ، مبديا موافقته التامة على ما يسمع • وكان يتخلل هذه التمتمات بعض النداءات العالية على يوسف (٢) • وكان هذا بحارا قديما ، يرتدى دشداشة طويلة بيضاء ، ويختفي نصف وجهه تقريبا تحت شارب ضخم مخيف من جهة ، وجزء من كوفية تغطي عينه اليسرى كالقناع ، من جهة أخرى • وكان يبدو وكأن يوسف عبد للنوخذة ، ولكن الواقع أنه لم يكن عبدا ، بل ولم يكن هناك قط

---

(١) هو حمد بن سالم العمر ، وكان متزوجا من اخت على النجدى • وقد توفى منذ سنوات (المترجم) •

(٢) هو يوسف الشيرازى ، وهو بحار كان يقوم على خدمة النجدى ، ويشرف على « الدبوسة » وهي مخزن التموين (التى يشار اليها بالقمرة فى نص الكتاب) ، ويسكنها ايضا نساء المسافرين • وقد توفى يوسف هذا منذ زمن طويل • (المترجم عن احمد البشر الرومى) •

أي عبيد على ظهر المركب · وكان عمله أن يقوم بين الفينة والفينة بتجديد التبغ والنار في نارجيلة نجدي ، وأن يشرف على تقديم المرطبات · وقد أعجبني منظر يوسف ، فقد كان يبدو بحارا جيدا ، وانسانا طيب السريرة ·

جلسنا طويلا على المقعد المغطى بالسجاد ، فليس من عادة العرب أن يتعجلوا الأمور · وكنت خلال ذلك أنظر الى ما يحيط بي من مناظر ممتعة ومثيرة ، حيث كان الميناء المزدحم يعج بالمراكب الكبيرة ، التي كان من بينها مراكب من الكويت ومن صور ومن مسقط ومن الساحل المتصالح ، ومن الموانىء الايرانية الصغيرة · وكانت بالقرب منا « بغلة » جميلة من ميناء كونجان الواقع على ساحل ايران الجنوبي · وكانت هذه البغلة سفينة شراعية كبيرة مهيبة ، مبنية على الطراز البرتغالي ، تتميز بمؤخرة منقوشة ذات شرفات أربع · وقد شعرت في تلك اللحظة بالأسف لأني لم أكن سأبحر على ظهرها ، فقد كانت مقدمتها المنخفضة الجميلة طافية على سطح الماء برشاقة ورفق كأنها رأس دلفين ، كما كانت مؤخرتها ذات النوافذ والشرفات يشع منها النور ، كما تفعل صورتها المنعكسة على ماء الخليج الصافي · وقد كانت سمابك جميلة من مدينة صور العمانية ترسو قريبا منها أيضا ، وكان يسمع منها غناء متواصل ووقع أقدام عارية لا ينقطع بينما يقوم البحارة بشحنها بالبضائع ·

كنت أشاهد كل ذلك بسرور واهتمام ، كما كنت انظر الى العدد الكبير من المراكب الأخرى في نفس الوقت الذي كنت أتفحص فيه البحارة السمر الذين يرتدون الوزرات ، والذين قدر لي أن يكونوا رفاق سفري لمدة تصل الى ستة أشهر · كانوا يجلسون في صف طويل مهيب على طول الجانب الأيمن من المركب ، كأنهم مجموعة من الحاشية في مجلس أحد الشيوخ · وخلفي كان الذراع الطويل للدفة المرتفعة يتأرجح بهدوء على سلاسله ، وعجلة القيادة تهتز برفق فتضفي جوا من الحيوية على الهدوء العام الذي كان يلف المراكب الراسية · أما فوق رؤوسنا فقد كانت الصوارى الضخمة المزينة ترتفع مائلة نحو السماء الزرقاء · ومن البحر كانت جبال عدن المقفرة تبدو أفضل منظرا · كما كان خليج المعلا يبدو للناظر وقد اكتسى تلك الحلة التقليدية التي يتخيلها المرء عن « اليمن السعيد » في غابر الايام ، وعن تلك القرية الواقعة على الشاطىء والتى تستخدم سوقا لبيع العطورات القادمة من حضرموت ، والتوابل والأقمشة القادمة من الهند · أما الآن فليس هناك من بخور تفوح رائحته في الخليج ، أما الأقمشة الوحيدة التي شاهدتها فقد كانت مصنوعة في اليابان · الا أن ماء الخليج الذي كان يداعب ألواح خشب الساج ، الذي صنعت منه هذه السفن ، هو نفس الماء ، والسفن الحالية هي نفس السفن القديمة ، كما أن البحارة السمر الحاليين هم نفس البحارة

القدماء ، الذين كانوا يتنقلون على ظهورها ، أو يجلسون القرفصاء على مؤخرتها ، وهم الآن يستخدمون نفس الطرق والأساليب ، ويحملون نفس الآراء وتراودهم نفس الأفكار التي كان يحملها أسلافهم الغابرون منذ قرون طويلة من الزمان ٠

بدأت الموسيقى وأنا شارد الذهن ، وقد أعادني نشازها الى الحاضر بعنف ٠ وعندئذ نهضنا ونزلنا الى السطح الرئيسي عن طريق الدرج المنقوش الواقع في الجانب الايسر من المركب ٠ وقد كان السطح الرئيسي هذا مغطى بالسجاد أيضا ، وكان يوسف يبدي اهتماما خاصا بتفقد هذا السجاد ليرى فيما اذا كان مبسوطا بشكل سليم ، وأن كل شيء على ما يرام ٠ وقد لاحظت أيضا أن الباب الأرضي الرئيسي الضيق الأسفيني الشكل ، الذي ينتصب الصاري الرئيسي من جزئه الأمامي ، هذا الباب قد تحول هو الآخر الى مقعد مريح مغطى بالسجاد والحشايا ، يمكن التمدد والاسترخاء عليه ٠ وهنا جلسنا بينما راح البحارة يؤدون رقصاتهم ٠ وكان الموسيقي رجلا عربيا ضخما ذا عينين ثاقبتين وشارب أسود ضخم ، وكان يعزف على القيثارة التي بدت لي كأنها قد جلبت من أوروبا (والتي عرفت فيما بعد أنها كانت قد اشتريت من البصرة) ٠ وربما كان عزفه جيدا بحسب المفاهيم الموسيقية العربية التي لم تكن لسوء الحظ ، هي نفس مفاهيمي ٠ وقد زاد الطين بله غناؤه المتصل بصوته الأجش المزعج ٠ ومهما كان نوع الغناء الذي كان يؤديه ، فقد كان من الواضح أنه كان مستساغا جدا لدى جمهور المستمعين غيرى ، فقد كان بامكانى الاستغناء عنه كلية ٠ وقد همس علي في أذني قائلا بأن ذلك الشخص كان أحد مشاهير الغناء في الكويت ٠ ولكن ذلك الاعلان عن شهرته لم يغير من الامر شيئا بالنسبة لى ، ولم يجعل غناءه افضل وقعا فى مسامعى ٠ وكل ما تمنيته حينئذ هو ألا يكون هذا المغنى الذى قيل لى أن اسمه اسماعيل(١)، من طاقم المركب الدائم ٠ وقد سرنى أن أرى نفرا من البحارة ومعهم رجل قصير القامة ، كأنه طباخ ، يأتون ، وهم يحملون طبولا صغيرة جدا ، أسطوانية الشكل ، مصنوعة من فخار البصرة ، مشدود على كل منها قطعة من جلد الماعز المسخن ٠ وكان عدد تلك الطبول ستة تقريبا ، كما كانت هناك بعض الدفوف الكبيرة الاخرى٠وقد آخذ البحارة يتناوبون على قرعها،مستخدمين أصابع الابهام والاصابع الامامية الاخرى ، فيصدر عن ذلك ايقاع جميل

(١) الموسيقى اسماعيل ، قطرى الجنسية ، كان ياتى للكويت للعمل كموسيقى على المراكب الكبيرة ٠ (المترجم ـ عن احمد البشر الرومى) ٠

للغاية · وقد أحببت تلك الطبول ، فقد كانت نغمتها خافتة تهدهد السمع، كما كانت تساعد على التخفيف من صخب الموسيقى ، التى كانت تصدر عن قيثارة اسماعيل ·

وكان البحارة من آن لآخر ، يقفون ويرقصون أزواجا ، ويقطع كل اثنين منهم السجادة جيئة وذهابا وهما مصطفان جنبا الى جنب · لم يعجبنى ذلك الرقص وضاع على معناه ــ هذا ان كان له معنى على الاطلاق ــ الا أن الباقين كانوا مستمتعين به كل الاستمتاع · وعلى الرغم من أن متعتهم كانت أكبر من أية متعة أخرى شاهدتها فى أية حفلة رقص أوروبية رسمية ، الا انى اعترف بأنى لم استطع ان أفهم من ذلك الرقص شيئا · صحيح أني فى العادة لا أفهم معنى لرقص الباليه ، ولكنى كنت استطيع فى الماضى أن أفهم كثيرا من رقص أهالي بالى(١)،كما استمتعت مرة بشكل خاص باحتفال الرابع عشر من يوليو فى جزيرة تاهيتى حيث أقيمت مسابقات الرقص المشهورة ، وحتى مواطنو جزر سليمان(٢)استطاعوا أن يعبروا برقصهم عن شيء مفهوم بوجه عام · الا أن هذا الرقص العربى لم يكن له معنى بالنسبة لى ، ولكنى ربما كنت مخطئا ، وربما كان رقص البحارة على ظهر المركب فى ذلك الوقت رديئا · ولكن اذا كان الامر كذلك ، فانى لم أر افضل منه فى أى وقت لاحق ·

وفيما بعد رقص نجدى نفسه · وكانت الرقصات التى أداها ، كسابقاتها ، لامعنى لها بالنسبة لى · وكان يرافقه فى الرقص عبد الله القطامى ، الذى كان شابا ونوخذه « لبوم » كويتى اخر يرسو بمحاذاتنا · وكان الاثنان ، مثلهما فى ذلك مثل البحارة الاخرين ، يرقصان حفاة الاقدام ، ويذرعان السجادة جيئة وذهابا ، بخطوات متناغمة مع موسيقى ذلك الوحش ذى الشارب الضخم · وعلى الرغم من أن حركاتهما كانت أكثر رشاقة من حركات البحارة الاخرين،الا انه لم يكن هناك اختلاف جوهري بينهم· وقد كانت قسمات وجهيهما جدية جدا ، وثيابهما الحريرية تصدر حفيفا لطيفا ، وهما يذرعان السجادة ذهابا وايابا · ويبدو أن جزءا هاما من الاداء كان يتألف من فرقعة الاصابع ، التى كانا يؤديانها فتصدر صوتا عاليا متوائما مع الايقاع الموسيقى · وهكذا كانا يقطعان السجادة جيئة وذهابا ، وأيديهما متشابكة ، بينما كانت أصابع اسماعيل السوداء تعذب أوتار القيثارة ، وصوته الاجش يولول · وكلما أصبحا فى مواجهة اسماعيل المغني ، كانا يتوقفان لحظة ويفرقعان بأصابعهما ، وأحيانا يهزان بطنيهما

---

(١) احدى جزر اندونيسيا (المترجم) ·

(٢) ارخبيل فى غرب المحيط الهادى الى الشرق من غينيا الجديدة (المترجم) ·

وجسميهما حتى الكتفين ، بطريقة تشبه ماتفعله فتيات مراكش أثناء تأديتهن للرقصة الوطنية ، ثم يعودان مرة أخرى للرقص حتى الطرف الآخر من السجادة، وهما منكسا الرأس وأقدامهما السمراء اللون تنزلق عليها ، وكأن على وجهيهما السمراوين قناعا يخفي أية مشاعر يمكن أن يرغبا في التعبير عنها • وعندما أخذت دقات الموسيقى بالاسراع ، وطالت الجلسة ، أصابني الملل ، ووجدت نفسي أشيح ببصري عن الرقص ، وأجيله على صواري المراكب العديدة الراسية حولنا ـ ولكن الرقص بقي مستمرا ، يتوقف الراقصان من آن لآخر ويهزان جسميهما من الكتفين حتى أخمص القدمين بعنف ، ثم يقفزان فجأة في الهواء ويدوران الى الخلف ، ثم يعودان الى نفس الخطوات الراقصة ثانية • لقد كان الاداء كله غريبا بالفعل ، وكنت أعجب لماذا يقوم الراقصون بتلك الحركات • ولكن من المحتمل أن أي نوع آخر من الرقص لم يكن يناسب ذلك النوع من المناخ •

في بعض الاحيان كان البحارة ، في أثناء غنائهم ، لا يستطيعون ضبط أعصابهم عند سماعهم احدى المقطوعات المؤثرة من ذلك المغني الحزين، فينفعلون ويهبون واقفين ، ويكونون صفوفا خلف القبطانين ، ويفرقعون أصابعهم ، ويهزون أجسادهم بعنف شديد ثم يستبد بهم الحماس فيقفزون قفزات عالية في الهواء ، ويستديرون وهم في الهواء ، ثم يعودون الى اماكنهم وهم يضحكون من الاعماق وكأنهم مجموعة من الاطفال الابرياء المرحين • والواقع أن روحا رائعة من المرح كانت تطبع الاداء بأكمله ، ولم يكن بامكان أحد ألا يتأثر بها وينسجم معها ، وعندما كان البحارة جميعا يغنون الاغاني البحرية ، كان غناؤهم لطيفا بالفعل • ولكنني شعرت في تلك الامسية بأن عليّ أن أوطن نفسي على محاولة الاستمتاع بالرحلة القادمة ، بغض النظر عن الموسيقى والغناء •

وخلال ذلك كله ، كان نجار المركب ، وهو شاب صغير السن له شارب أسود قصير ، يملأ الجو بأصوات مطرقته ، هو يعالج أضلاع مركب جديد كان في طور البناء هناك على طول الطرف الايسر من الجزء الامامي من السطح الرئيسي « للبوم » الذي كنا عليه • وقد كان مركبا كبيرا ، يبلغ طوله خمسة وثلاثين قدما على الاقل ، وعرضه باتساع نصف سطح البوم • وقد أخبرني علي همسا بأن هذا المركب يجري صنعه لكي يباع في افريقيا • وقد كان عليّ يهمس بأمور أخرى في أذني ، كلما كانت هناك فسحة من الهدوء ، فقد كان مزاجه منشرحا في ذلك اليوم ، وكان ميالا للحديث مع الآخرين • ولمعرفتي بأن العرب لا يحبون الكلام الكثير ، فقد أصغيت له باهتمام ، الا أن كل ما استطعت معرفته منه ، مع الاسف الشديد ، هو أن اسماعيل ملازم للمركب كأحد

أفراد طاقم البحارة الدائمين • وقد شعرت بالغم الشديد عندما سمعت ذلك • لكني كنت أرجو ألا يستعمل اسماعيل قيثارته ، ونحن في عرض البحر ، والا فاني سأضطر لشراء طبل كبير لامنع صوت عزفه من الوصول الى أذني •

لقد كان مركبنا « فتح الخير » يفضل « الشيخ منصور» من نواح عدة • فقد كان له سطح يمكن للمرء أن يتمشى عليه ، وكانت هذه نعمة كبيرة• صحيح أن البضائع بكافة أنواعها كانت مكدسة عليه ، من أسفله حيث ضلوع الهيكل ، الى أعلاه حيث موقد الطباخ وخزانات الماء الخشبية ، ومع ذلك فقد كان هناك متسع للمشى ولاشياء اخرى • وقد كانت المؤخرة مزدحمة أيضا ، عليها صناديق البحارة جميعها ، وكانت هناك عدة صفوف منها ، موضوعة على الجانبين ، يبرز من بينها ، على الجانب الايسر ، رأس رحوية حديدية ، كأنه ينظر حوله بشيء من الارتباك لوجوده هناك • وقد كان من دواعى فخر « فتح الخير » ان تتوافر عليه عجلة قيادة حقيقية ، مصنوعة من خشب الساج، المحاط باطار من النحاس الاصفر ، وحاملة بوصلة نحاسية رشيقة ،ورافعتان تستعملان فى رفع وانزال قارب النجاة • وفيما عدا ذلك ، فقد كان «البوم» شبيها بالمراكب الاخرى الا انه أكبر منها وينتهى بأطراف مدببة • وقد كان على المركب قمرة كبيرة (دبوسة) كما هو الحال فى أى مركب كبير آخر ، وكانت هذه تشغل معظم مساحة المؤخرة، ولكن جميع الافكار الرومانسية، التى يمكن أن تكون قد استقرت فى ذهنى عن تلك الخلوة التقليدية بالنسبة للمراكب القديمة ، قد تبخرت فى الحال ، عندما هبت على أول نسمة من الروائح المنبعثة من القمرة • فقد تبين لى أنها لم تكن سوى مخزن مظلم كالكهف ، ترتع فيه الصراصير ، وتخوض فيه الرائحة الكريهة للسمك القديم المجفف معركة خاسرة مع الرائحة العامة المسيطرة على الجو ، والمنبعثة من زيت السمك ومن الماء الآسن الراكد فى جوف السفينة • وقد كانت القمرة منخفضة السقف جدا حتى انها لا تسمح لطفل بالوقوف فيها • وخلف هذا المكان ، الذى دعوناه مجازا « بالقمرة » ، وفى نهاية مؤخرة المركب تماما ، كانت تقوم غرفتان أخريان صغيرتان جدا ، تشبهان الزرائب أو صناديق القمامة • وقد قال لى على بمرح ان بامكانى استعمال هاتين الحجرتين الفخمتين ، فانهما مخصصتان لي ، ولكني كنت أشك في ذلك لسببين : أولهما أن كلامه كان مدعاة للشك بموجب مبادىء عامة كنت قد كونتها عن العرب ، فقد كانوا أحيانا يبالغون فى أقوالهم ووعودهم بدافع من عاطفة مؤقتة لا عن نية حقيقية للوفاء بتلك الوعود • ومن الناحية الاخرى فقد كان المكانان موبوءين ، وكنت أفضل الهواء الطلق • فقد كانت كل منهما مملوءة بالمخزون من المواد التى تسيطر عليها رائحة السمك القديم • وقد اتخذت قرارى النهائى ، وعزمت على عدم استخدام هاتين الغرفتين ، حتى عندما

اشار نجدى الى أهمية ذينك المكانين لحل مشاكل الملاحــة ، ولحفــظ أدوات الملاحة المختلفة • فقد كان متحمسا أن أحضر معى الــى المركـــب الميقـــت (الكرونوميتر)(١) والة السدس(٢) اللذين أملكهما • أما أنا فقد كانت لى وجهة نظر أخرى بالنسبة لهذا الامر أيضا • فقد كان من الواضح تماما بأن الاداة التى سأحملها الى داخل المركب لا تستحق أن تغادره ثانية ، والاداتـــان المذكوتان حساستان وغاليتا الثمن • وعلاوة على ذلك ، اذا كان بامكان نجدى أن يبحر بدونهما ، فعلى أن أعرف كيف يفعل ذلك • وقد فهمت من نجدى أن الملاحة لن تكون مشكلة بالنسبة له ، فهو ذاهب الى زنجبارر فقط ، وهو يعرف طريقه الى هناك معرفة تامة •

وعلى الرغم من كل العيوب التى ذكرتها ، فقد أعجبنى « فتح الخير » كل الاعجاب ، وقررت فى الحال أن أسافر عليه مع « نجدى » • ولم تكن هناك ضرورة لكثير من الاجراءات الرسمية ، فقد كان على فقط أن أسجل اسمى لدى مركز الشرطة المحلية فى المعلا ، وأعلمهم عن وجهة سفرى • وفيما عدا ذلك ، لم تكن هناك أية أوراق رسمية ، أو شروط مكتوبة ، أو أى شىء مــن هــــذا القبيل • وقد بدا لى أنك ، اذا أردت أن تبحر مع العرب ، فما عليك الا أن تحضر معك سجادة لتنام عليها ، وتحمل صندوق أمتعتك ، وتصعد بهما على ظهر السفينة ، بعد اجراء الترتيبات الاولية مع النوخذة • اقصد أن هذا ما تفعله اذا كنت عربيا • اما بالنسبة لى ، فلولا مساعدة على عبد اللطيــف ، لما سارت الامور ، كما أعتقد ، بالسهولة التى سارت عليها ، وما كنت لاستطيع أن أبحر مع نجدى دون صعوبات كبيرة ، فلا يزال كثير من العرب من الطراز القديم ، يرتابون فى المسيحى القادم من بلاد كأوروبا ، لم تحسن معاملتهم فى يوم من الايام • ومهما كان الامر،فقد وجدت نفسى وقد رتبت جميع أمورى وما كان على الا أن انتظر ابحار المركب •

عدنا الى الشاطىء في قارب النجاة الطويل • وعلى الطريقة الكويتية التقليدية ، كان عشرون من البحارة الأشداء يقومون بالتجديف بالمجاديــف الطويلة ، وهم يرتدون افضل ملابسهم ويهزجون بقوة وحماس • لقد كان تجديفهم ممتازا ، وكانت أهازيجهم أفضل من أغانيهم ، وعندما لم يكونوا

---

(١) الميقت (Chronometer) الة لقياس الزمن بدقة بالغة (المترجم) •

(٢) السدس (Sextant) الة لقياس ارتفاع الاجرام السماوية من علــى ظهــر السفينة • (المترجم)

يهزجون كانوا يصدرون من أقصى حناجرهم أصواتا عميقة مدمدمة كأنها هدير سرب من الطائرات قاذفات القنابل القادمة من بعيد . وكانوا يجدفون بانتظام كأنهم في احتفال رسمي ، وكانت مؤخرة القارب مفروشة بالسجاد الزاهي الالوان . لقد كان المنظر جميلا مفعما بالحياة ، ونحن نمر من بين المراكب الكبيرة الكثيرة العدد ، الراسية ، التي تنتظر دورها في التفريغ أو الشحن . وقد أعجبني الاسلوب ، وأعجبني الطابع الرسمي الذي كانت مسيرتنا قد اتخذته . وكان من الواضح أن هناك حيوية ونشاطا على المراكب الكبيرة، لا تتوافران على مركب صغير ـ كالشيخ منصور ـ . واستنادا الى القليل من نمط الحياة الذي شاهدته على ظهر « فتح الخير » فقد أصبحت متشوقا للقيام بالرحلة المقبلة أيا كانت وجهة السفر .

لقد فهمت أن مركبنا كان قد انتهى من تفريغ حمولته من تمور البصرة في ميناء بربرة ، وأنه كان الآن يشحن للتجارة مع افريقيا ، ويحمل ببضائع لبيعها في الموانىء الواقعة على شواطىء بنادير وسواحيلي وزنجبار ، أو بعبارة أخرى على سواحل الصومال الايطالي وكينيا وتنجانيقا وزنجبار . وقد ذكر نجدى أسماء عدد من الموانىء التي أعلن ، بشكل غير واضح تماما ، أن في نيته ، بمشيئة الله ، أن يسافر اليها ، اذا كانت الاحوال الجوية مؤاتية ، وكانت بالنسبة لي أسماء رومانتيكية موسيقية الجرس مثل حيفون، وعبية وعثليت وماركا وموقاديشو وكيسيمايو ومالندي وميكنداني ، وكلواكسنجي وغيرها كثير مما لم أسمع به من قبل (١) أما عن العدد الصحيح للاماكن التي سيزورها المركب فعلا ـ هذا اذا كان سيزور أيا منها على الاطلاق ـ فلم يكن أحد يعلم شيئا ، وذلك راجع الى أن « فتح الخير » ، كأمثاله من المراكب ، كان مسافرا في رحلة تجارية على حسابه الخاص، لا في رحلة منظمة بموجب جدول وبرنامج محددين ، كما يحصل عندما تكون الشحنة خاصة بأحد التجار . فقد كان ما يحمله معروضا للبيع ، ويمكن بيعه فعلا في افضل الاسواق . وكان يوسق بالملح والارز والسكر والحليب المعلب والذرة الهندية الرخيصة ومواد غذائية اخرى ، كما كان من المتوقع أن يكون جاهزا للاقلاع في غضون أيام قلائل . وعندها سيبحر الى شواطىء حضرموت لاتمام الحمولة بالتبغ والسمن والعسل وكلب البحر المجفف ، وربما ـ كما قيل لي ـ لحمل بعض الركاب المتجهين الى مقاديشو وممباسا . وقد كان من المؤكد انه سيزور موانىء المكلا و شحر ، وربما أيضا موانىء حامي وسيحوت شرقا . وكان كل شيء يتوقف على مشيئة الله ، والله طبعا يعلم عن رحلة نجدى القادمة أكثر مما يعلم نجدى نفسه أو أى انسان آخر على سطح المركب . ومهما يكن من أمر

---

(١) انظر مواقع هذه الاماكن والاماكن الاخرى على الخريطة ، ملحق رقم ٥ (المترجم)

فمن المتوقع أن يصل فى النهاية ، بمشيئة الله ، الى زنجبار ومن هناك يعود بطريقة ما الى الخليج العربى • وربما ذهب الى مكان ما فى مدغشقر أو جزر سيشل ، بل ربما سافر الى ملابار ، حيث يمكنه أن يحمل الخشب لبيعه فى البحرين والبصرة • وباختصار فان وجهة السفر لم تكن محددة تماما ، وكان هذا مدعاة سرور بالنسبة لى • فقد كان على المركب أن يتجه الى حيث يمكن الحصول على ربح وفير ، وأن يعود فى النهاية ، بطريقة أو بأخرى ، سالما الى مينائه الاصلى فى الكويت • وربما استغرقت الرحلة ستة أشهر أو تزيد ، ولم يكن ذلك بالامر الذى يشغل البال •

وطالما أن الامر ليس بذى أهمية بالنسبة للعرب ، فانه لم يكن مهما بالنسبة لى أيضا ، فقد رغبت فى ذلك النوع من الرحلات • وبما انى لم أكن قد سافرت فى السابق الى الساحل الشرقى لافريقيا ، فقد سرنى أن يكون هناك احتمال بأن يقوم المركب بالوصول اليه ، وأتمكن أنا من رؤيته • وكنت لاأزال ضعيفا بعض الضعف من جراء مرض الزحار ، الذى أصابنى خلال رحلتى فى البحر الاحمر ، ولكنى كنت آمل ، بعدأن انتهيت من رحلتى على متن « الشيخ منصور » ، أن تكون الحياة على ظهر « فتح الخير » مرفهة نسبيا • فقد كانت خزانات الماء الخشبية أفضل بكثير من برميل أحمد المعدنى الصدىء • ومع أن القمرة كانت تعج بالصراصير ، فلم يكن هناك مايدل على وجود الحشرات بكثرة مزعجة على ظهر « فتح الخير » • وباختصار ، فقد كان هذا المركب وافيا بالغرض بوجه عام •

وأخيرا جاء اليوم الذى سنقلع فيه فعلا ، بعد أن كان ذلك قد أعلن وتأجل ثلاث مرات فى السابق • وكان صندوق أمتعتى المعدنى بين صناديق البحارة الخشبية على مؤخرة المركب ، وكنت جاهزا للصعود الى ظهره للسفر • وقد فعلت ذلك عشية السفر ، وأوصلنى اليه قارب النجاة من رصيف الميناء فى عدن • وكان فى القارب نجدى وزميله وصديقه الحميم ، النوخذة عبد الله القطامى ، الذى كان قد شاركه الرقص يوم الاحد الماضى • وفى منتصف الطريق ، ونحن نعبر الميناء ، أعلن الاثنان أنهما لن يبحرا على مركبيهما الآن • فقد قال نجدى بشكل عابر جدا ، وكأن الامر كان عاديا بالنسبة للقبطان العربى ، انه سيذهب هو وعبد الله القطامى الى المكلا فى أحد المراكب البخارية الصغيرة التى يملكها ــ مستر بسى ــ ، بينما يقوم المعلم بقيادة المركب الكبير • وقد ظننت فى البداية بأن هذا ترتيب غريب من نوعه ، ولكنى فهمت فيما بعد بأنه كان عاديا جدا • فقد كانت كثير من المراكب قد سبقتنا الى المكلا ، وقد كانت الطريقة الوحيدة التى يمكن أن

يسلكها نجدي وعبد الله القطامي للوصول قبلها هي تلك الطريقة الملتوية ، وذلك بأن يستخدما مركبا بخاريا سريعا • وكان من الواضح أن هناك منافسة شديدة على الحمولة والركاب من موانىء حضرموت • وقد كان على النوخذة، بالاضافة الى عمله فى قيادة المركب ، أن يكون وكيلا له أيضا ، وأن يحصل على الحمولة والركاب أيضا • وواقع الامر أن قيادة المركب فى رحلة بسيطة نسبيا كالسفرة من عدن الى المكلا كانت مسألة ميسرة ، يمكن أن يقوم بها الضابط أو نائب القبطان بسهولة • ويبدو أن هذه المهمة كانت المهمة الرئيسية للضابط أو وكيل القبطان ، ولا شك بأن حمدا بن سالم كان قادرا على قيادة « فتح الخير » في رحلة كهذه الى المكلا (أو الى اي مكان آخر بالفعل) ، كما أن أحد عبيد القطامى المحررين كان سيقوم بقيادة مركب عبد الله فى نفس الرحلة •

بعد أن وصل نجدى وعبد الله القطامى سالمين الى المركب البخارى الذى لم أكن أحسدهما على ما فيه من رفاهيه ، اتجه قاربنا الصغير الى حيث يقف « فتح الخير » صورة جميلة لروعة المركب الشراعي وجلاله تحت نجوم السماء المتلألئة • لقد كان منظره جميلا ورومانسيا بشكل لا يمكن تصديقه ، وكان رشيقا وعميقا ومثقلا بالبضائع • وقد كان بامكاني مشاهدة خيالات صواريه ، التي يغلفها الظلام ، وهي مشرئبة نحو النجوم • وقد أضاف قرع الطبول الكبيرة والصغيرة ، ووقع أقدام الراقصين ، الى الجو نوعا من النغم الغريب • وكانت الأنوار مضاءة على سطح المركب ، عندما صعدت اليه ، وسمعت البحارة يغنون بصوت خافت ، وهم يعدون الشراع الرئيسي للاقلاع ، وكانوا يؤدون أعمالهم وهم حفاة الاقدام ، وقد رفعت جلاليبهم وربطت عند الخواصر ، وأزيحت كوفياتهم الى خلف رؤوسهم • وكانوا يقومون بالأعمال الكثيرة المتنوعة اللازمة لاعداد المركب للابحار بسرعة وانتظام • وكان كل هذا مختلفا عما عهدته على ظهر « الشيخ منصور » • فقد كان ذلك دائما مستعدا للسفر وهو كما خلقه الله ، ولم يكن اعداده للابحار يستغرق اكثر من خمس دقائق • أما على هذا المركب الكبير فقد كان الاستعداد للابحار يتطلب الكثير من الاعمال • فقد كانت هناك معدات بحرية يجب أن تجهز وتوضع في مكانها الصحيح ، وكان هناك زورق النجاة الصغير الذي يجب أن يرفع ويوضع على حوامله ، كما كان هناك القارب الطويل الذي يجب أن يرفع ويوضع على الجانب الأيمن من السطح الرئيسي • وكانت هناك مرساة يجب أن ترفع كليا ، وأخرى ترفع الى منتصف المسافة • ثم كان هناك الشراع الرئيسي الذي يجب أن يطوى على طول العارضة (القرية) الضخمة • وبعد كل هذا كانت هناك العارضة نفسها • فبعد أن يلف حولها الشراع باحكام ، يجب أن ترفع الى رأس

الصاري بخفة ، وخطوة خطوة · وقد استغرقت هذه العملية الاخيرة أكثر من ساعة على الرغم من أن مجموعة كاملة من البحارة كانت قد أتت من مركب القطامي للمساعدة ، وعلى الرغم من أن أكثر من أربعين بحارا كانوا يتصببون عرقا وهم يشدون حبال الشراع · لقد كان عملا شاقا ، بل كاد يكون وحشيا · وكان البحارة يتوقفون من آن لآخر ، لكي يرقصوا ويغنوا ، ضاربين الارض ضربات منتظمة منسقة بأقدامهم الحافية ، ومصفقين بأيديهم الضخمة بحيث كان صوت تصفيقهم يسمع في جميع أرجاء الميناء ، بينما كان عريف الملاحين (المقدمي) يدق طبلا هنديا · لقد كان هذا الرقص أفضل بكثير من أداء يوم الأحد ، وكان يعمل كدواء مقو للبحارة ، يجدد نشاطهم لمتابعة أداء مهامهم الشاقة · فلم يكونوا يقومون بأي عمل من غير مقدمة راقصة ، كما أنهم كانوا دائما يهزجون بشكل موسيقي وهم يعملون ·

في مؤخرة المركب كان يقف حمد « المعلم » منتصب القامة ، مهيب الطلعة ، يرتدي جلبابا وعباءة ، ورأسه الكبير ملفوف بالكوفية ، بحيث لم يكن يظهر من وجهه غير عينيه وأنفه الكبير · قلما قابلت حامدا هذا من قبل ، فقد كان قليل الكلام في حضرة نجدي ، ولكنه الآن كان يصدر الاوامر من آن لآخر ، بكل هدوء ورزانة ، بينما كان العمل مستمرا · لقد كان منظره أخاذا ، وهو يقف في مؤخرة المركب ، حافي القدمين ، بعباءته الموشاة بخيوط الذهب ، كما وقف منذ أقدم العهود آلاف غيره من ربابنة المراكب الشراعية العربية من البوم والبغلات وغيرها ، المنطلقة من اليمن السعيد في رحلات متجهة الى سوفالا وأوفير وزنجبار ، بافريقيا الشرقية · حياني حمد بهدوء ، وأنا أصعد الى المركب ، وأشار الي بأن آخذ مكاني على السدة في الخلف ، وأرسل يوسف الشيرازي لكي يضع أمتعتي في المكان المناسب · ولكني لم أكن مهتما بتنظيم أمتعتي ، كما أنه كان على يوسف الشيرازي أن يؤدي مهام أخرى · لقد كنت راغبا فقط في استجلاء روعة المنظر · فقد كان القمر ساطعا وكان بحارة المراكب الاخرى المشحونة ، الراسية في الميناء ، يدقون الطبول ويعزفون على آلاتهم الموسيقية الوترية ، وقد جعل كل ذلك من المنظر بأكمله منظرا مثيرا للمشاعر حقا · حتى تلال عدن المحترقة السوداء اكتست ، تحت نور القمر ، مسحة من الليونة ، بحيث أصبحت الخلفية كلها من ميناء وجبال خلفية مثالية لاقلاع المراكب الكبيرة ، المتجهة الى زنجبار · وعندما رفعت القرية حاملة الشراع

الى أعلى ، بدا كأن صوارى المركب الشامخة تعانق النجوم المتدلية من السماء· وكانت الدفة تهتز برفق على محورها ، وكان وهج مصباح زيتى ينبعث من

حامل البوصلة • لقد كان كل شيء جاهزا للاستعمال عندما يصل المـــــد المؤاتي •

خرجنا من خليج المعلا مع أنفاس الهواء الباردة القادمة من البر قبل الساعة الثالثة صباحا • وما أن انبلج الصبح ، حتى كنا قد أصبحنا خارج ميناء عدن • وكان بوم القطامي يسير خلفنا بينما كانت أمامنـــا بغلـــة فارسية • وكان قائد الدفة (السلوني) يجلس قبالة عجلة القيادة ، متربعا على مقعده ، وممسكا بالعجلة بواسطة مقبضين ، واحد من كل ناحية ، بينما كان حمد بن سالم يراقب ذلك بانتباه وحذر كاملين ، وهو يجلس القرفصاء على السدة الواقعة خلفه •

الفصل الثاني

على ظهر المركب «فتح الخير»

على ظهر المركب « فتح الخير »

أبحرنا من عدن في الاسبوع الاول من شهر ديسمبر ، حين كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية تهب برفق ، وهي الرياح التي ستدفعنا الى افريقيا ، وتستمر عادة في الهبوب حتى أواخر مارس أو أوائل ابريل ، عندما نكون قد وصلنا اما الى زنجبار أو تنجانيقا أو سواحل افريقيا البرتغالية الشرقية ، وذلك بحسب الجهة التي نقصدها ٠ ومن هناك نبدأ رحلة العودة الى الوطن مع بداية هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، وما كان علينا أن ننتظر ذلك الانقلاب في اتجاه الريح لكي نقلع ، بل يجب أن نبدأ الرحلة باتجاه الشمال في فترة الانتقال ٠

أما الآن ، فقد كانت الرياح الشمالية الشرقية تهب بعكس اتجاهنا ، ولذلك كان علينا أن نكافح لكي نقطع مسافة الخمسمائة ميل الأولى من الرحلة ، وبعد ذلك تصبح الملاحة سهلة ميسورة ٠ أما انا شخصيا ، فلم أكن اهتم بالرياح المعاكسة لنا ، أو بالمدة التي تستغرقها الرحلة حتى نصل الى أول ميناء ، لانه تبين لى فى الحال بأن الحياة على مركب كبيركهذا ستكون ممتعة جدا ، وأن هناك أمورا كثيرة يمكن أن أتعلمها ٠ ولذلك فقد وطدت مقامي هناك على الأقدام الستة من السدة التي خصصت لي على ميمنة المؤخرة ، وبدأت أتعلم كل ما أستطيع تعلمه ٠

كان موقعي على السدة موقعاً ممتازاً ، أمام النوخذة ٠ وكان عرض السدة قدمين ونصف القدم ، أي أنها لم تكن ضيقة ٠ كما أنه كان لدي سجادة أنام عليها ٠ ولم يكن على المركب من الأفاريز ما يمنعنا من الانزلاق عن ظهره ، فيما لو اهتز اهتزازا شديدا ، وهو أمر لم يحدث الا نادراً ٠ ومهما يكن من أمر فلم يحدث أن سقطت عن ظهر المركب مرة واحدة في أية مرحلة من مراحل السفر ، مع أني كنت آوي الى مكاني المذكور كل ليلة مدة ستة أشهر كاملة ٠ وكان قائد الدفة يجلس متربعا على مقعده بجانبي ، ويقود المركب وهو جالس ٠ وكان باستطاعتي أن أنظر الى البوصلة القريبة لأتحقق من أن المركب يسير في الاتجاه الصحيح ، كما ان نظرة الى أعلى كانت تريني الوضع واضحا بالنسبة للأشرعة ٠ خلاصة القول ، أن موضعي على ظهر المركب كان ممتازا ، لأنه كان يمكنني من مراقبة كل ما يجري عليه ، فيما عدا ما يدور تحت مؤخرته ٠ فقد كنت أستطيع رؤية الطباخ وهو جالس الى موقده في المقدمة ، والنجار وهو يعمل في مركبه ، وصهاريج

المياه العذبة ، والقارب الطويل المثبت على الجانب الأيمن من المركب ، وكذلك الباب المؤدى الى جوف المركب • وكان مقعدى هذا مظللا بمظلة تقيه بعض حرارة الشمس ووهجها ، مع أن حمداً كان دائما يعارض نشر المظلة أكثر مما ينبغي ، لأنه كان يؤثر البقاء في الهواء الطلق ، حيث يمكنه أن يشعر بهبوب الرياح واتجاهاتها بشكل أفضل • ولكن ذلك ، لسوء الحظ ، كان يعرضنا للمزيد من أشعة الشمس الحارة •

لم تكن حرارة الشمس مزعجة ونحن في عرض البحر ، فبعد أن غادرنا عدن غدا الجو لطيفا • وقد كرست الأيام الاولى من الرحلة لأتعلم أقصى ما أستطيع أن أتعلمه • فعلى الرغم من أني كنت قد قضيت شهرا في البحر الأحمر ، الا أني وجدت أن هذه الرحلة كانت نوعا جديدا وغريبا من الملاحة • فقد كانت الحياة على المركب تسير هنيئة هادئة ، وكنا نسير ببطء بعكس اتجاه الريح يوما بعد يوم ، كما أن حمدا بن سالم وعبدالله النجدى والآخرين أخذوا يتعودون على وجودي بينهم • أما أنا فقد سكنت الى حياة المركب دون صعوبة تذكر ، فلم يكن هناك عمليا شيء محدد أقوم به ، اذ لم تكن هناك حاجة الى علوم الملاحة • وكما كان الحال عليه على متن « الشيخ منصور » ، لم يكن على ظهر مركبنا أيضا النظام اليومي الرتيب المعروف على ظهر السفن الأوروبية • فلم نكن نحفظ سجلات ظاهرة ، كما أنه لم يكن لدينا مفكرة ندون فيها الأحداث اليومية ، ولم نكن نقرع الأجراس ، أو نطلب عقد الاجتماعات ، أو نقوم بأية تدريبات على المركب • كما أنه لم يكن هناك نظام رسمي لمناوبة الحراسة على سطح المركب ، أو ترتيب واضح للدخول الى جوف المركب • اذ كيف يمكن ان يكون هناك شيء من هذا ، ولم يكن للمركب « جوف » يأوى اليه البحارة ؟ فقد كانوا جميعا يعيشون على سطح المركب ، وبذلك كانوا دائما رهن الاشارة•أما الزمن فلم يكن له أى حساب ، بل انه كان أقل أهمية مما كان عليه الحال وأنا على ظهر « الشيخ منصور » وهو يبحر بنا فى البحر الاحمر ، فذلك المركب كان على الأقل يقوم بعدة رحلات فى العام الواحد ، أما مركبنا الكبير فقد فهمت أنه يقوم برحلة سنوية واحدة فقط • وعندما يكون الامر كذلك ، وتكون السنة بأكملها لا أهمية لها ، فما أهمية الأشهر والأيام ؟ لقد وجدت ذلك الوضع الذى لاحساب للوقت فيه،وتلك الحياة الهادئة التى لايعكر صفوها معكر وضعا لطيفا ، وقد بدأت استمرىء تلك الحياة ، وأتخلى عن اهتمامى السابق بالزمن والتاريخ، بينما شغلت نفسى بالعناية بصحة البحارة، وبتعلم ما يمكنني تعلمه ، فقد كانت معي بعض الأدوية والضمادات البسيطة ، وكان بعض البحارة قد تقرحت أرجلهم •

النجدى ←



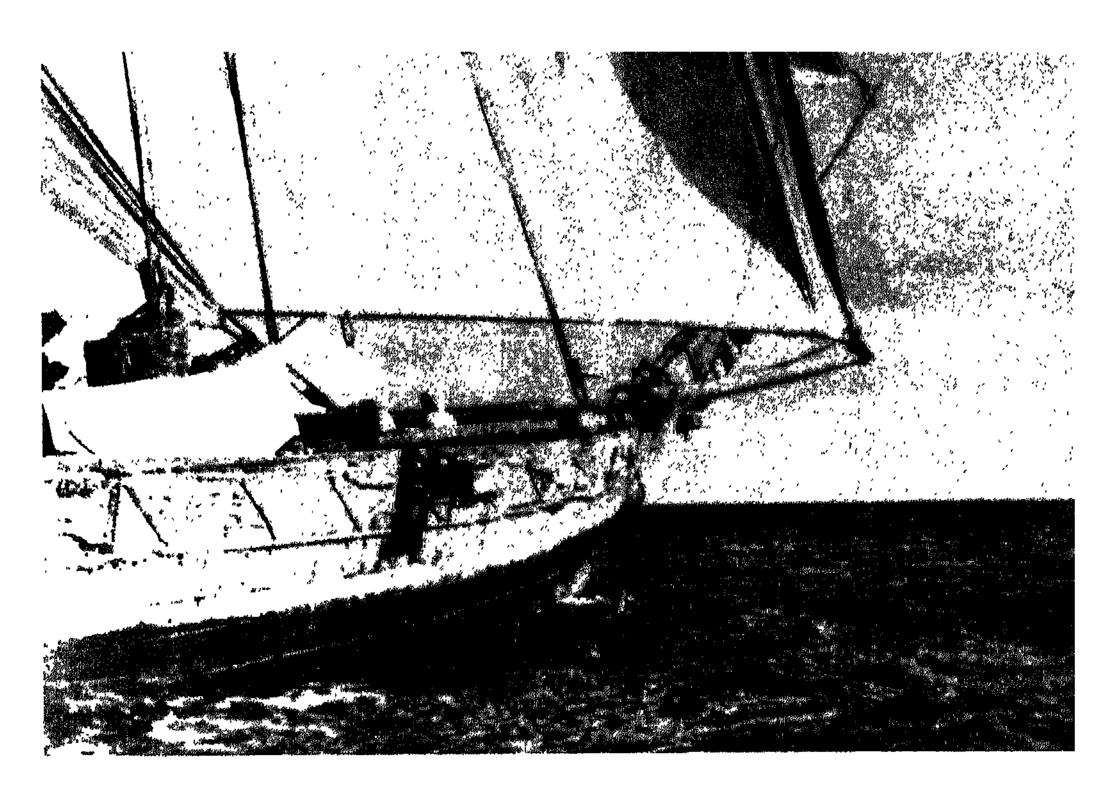
وعلاوة على هذا العمل العلاجي ، فقد تعلمت كل ما أستطيع من الأسماء العربية التي تطلق على الأشرعة والمعدات الاخرى ، بالاضافة الى الأوامر التي تستخدم في المناورات البحرية المختلفة • ولم تكن محاولة تعلم اللغة العربية بهذه الطريقة سهلة ، فقد كانت معي بعض الكتب العربية ، ولكنها كانت اما باللهجة السورية أو المصرية ، وقلما كانت هاتان اللهجتان تتفقان مع لهجة البحارة • وكنت قد حفظت عن ظهر قلب جميع الدروس التي تلقيتها على يدي شيخ عدني ضعيف البصر ، ولكني وجدت أن أكثر التعابير التى تعلمتها منه فائدة لى هى طريقة السؤال عن اسم الشىء باللغة العربية : « شنو هذا ؟ » • فكنت ألاحق الجميع ، حمداً بن سالم ، وعبد الله النجدي ، ويوسف الشيرازي ، وعرفاء البحارة وغيرهم ، وألحف عليهم بذلك السؤال لدرجة جعلتهم يقرفون منه ومني قرفا شديدا ، ولكنهم كانوا دائما يزودونني ببعض الاجابات ، وان كانت تلك الاجابات ، للأسف ، كثيرا ما تختلف من شخص لآخر ، وكثيرا ما تنقصها الدقة أو يجانبها الصواب • لقد كان تعلم اللغة العربية أمرا شاقا ، زاده ألثك العرب صعوبة • ولكن سرعان ما وصلت مرحلة تمكنني من التفاهم مع البحارة ومن أن أتعلم منهم شيئا ما على الأقل • فقد اكتشفت ، لحسن الحظ ، أن التعابير البحرية ، كما هو الحال في معظم اللغات الأخرى ، أسهل في العادة من اللغة المستعملة على اليابسة • أما اللهجة العربية اليمنية التي كنت قد اكتسبتها وأنا على ظهر «زاروق» أحمد الصغير ، فقد كانت عديمة الفائدة • فقد اكتشفت ، بعد ستة أشهر قضيتها على ظهر « فتح الخير » ، أن بعض الكلمات التي كنت أستخدمها طوال الوقت كان يحسبها الكويتيون كلمات انجليزية ، فقد أخذوا تلك العبارات التي كنت أعتقد أنها عربية ، أخذوها عني ، واستخدموها على أنها تعابير انجليزية •

كان البحارة يستخدمون كلمات كثيرة من اللغات السواحلية والهندوستانية والفارسية ، وكانت كلها أسهل من اللغات العربية ، كما أن لغتهم اليومية كانت تحتوى على كلمات محرفة بشكل غريب • فعندما كانوا مثلا يريدون أن يعبروا عن أنهم في عجلة من أمرهم ، كانوا يصرخون بأعلى صوتهم قائلين « فول سبيت » ، وهو تعبير اعتقد انه يعني " Full speed ahead " باللغة الانكليزية ، ويستعمل للأمر بقيادة السفينة بأقصى سرعة الى الامام • كما كانوا يشيرون الى « بومهم » ، الذي كانوا يتصورون أنه سريع جدا ، بقولهم « فسميل » ، ويقصدون تشبيهه بمراكب البريد السريعة " Fast mail liners " التي تعمل في الخليج العربي • وكان عبدالله النجدي يرغب في تعلم اللغة الانجليزية ، فأخذت أتبادل معه الدروس مرتين يوميا ، مرة أنا أعلمه الانجليزية ، ومرة يقوم هو بتعليمى اللغة العربية • ان عمليتى التعلم والتعليم لم تكونا

سهلتين بأي حال من الاحوال · فبعد مضي أسبوع ، قررت أن تعليمه الانكليزية أشق علي من أن أتعلم منه العربية ، لأني عندما كنت أسأله بلغتي العربية البحرية عن اسم هذا الشيء أو ذاك ، كان يجيبني بلغته الانكليزية غير البحرية ، وكانت تمر بضعة أيام أحيانا قبل أن أدرك أنه كان يتخيل أنه يتكلم الانجليزية · لقد قررت أن من الافضل أن أتعلم اللغة كما يتعلمها الأطفال ، أي عن طريق استعمال اللغة نفسها ، لا عن طريق الترجمة · فلم يكن هناك أحد على ظهر المركب يتكلم الانجليزية غيري ، وعندما غادرنا المركب بعد انتهاء الرحلة ، كان عبد الله قد تعلم ما لا يزيد عن عشرين كلمة ، كما كان باستطاعته أن يعد الى السبعة · أما يوسف الشيرازي ، فلم يكن يعرف من اللغة الانجليزية الا شتيمة تعنى « لعنة الله عليك أيها المتسول الحقير » ، قال انهم كانوا يوجهونها اليه عندما كان في الهند ·

لقد كان تعلم اللغة العربية عملية بطيئة ، ولكنه مع ذلك شغل كل وقتي · كما أني أصبحت على علاقة صداقة مع عبد الله والنجار والعجوز يوسف الشيرازي ، ولكن وقتا طويلا انقضى قبل أن أتعرف الى أسماء البحارة جميعا وأميز بينهم · ففي الايام الاولى من الرحلة ، بدا لي أن نصف البحارة على الأقل كانت أسماؤهم « محمداً » ، والنصف الآخر «عبد الله» ، مع أني علمت فيما بعد أن خمسة فقط كان اسم كل منهم«محمداً» وثلاثة يحملون اسم «عبد الله» ، من بين سبعة وعشرين بحارا · وكانت المشكلة في بادىء الأمر أني كنت أسمع عددا كبيرا من الأسماء ، وكأنها « محمد » ، وذلك لأن أذني لم تكن قد تدربت على تمييز الفروق بينها ، وأمثال ذلك : « حامد وأحمد » وحتى « حمود ومحمود » · فقد كانت جميع هذه الأسماء تبدو متشابهة ، عندما يصيح بها العرب من أول المركب الى آخره بطريقتهم الخاصة · فعندما كانوا ينادون الاسم «محمد» مثلا قلما كانوا يجهرون بصوت الميم في أول الكلمة ، ولذلك فقد كان الاسم يبدو وكأنه « حمد » ، وكان هذا الأمر مربكا للغاية · فعندما كنت أريد أحد البحارة ، ولم يكن يوسف الشيرازي موجودا ، كنت أصيح مناديا « محمد » فقط ، وكان عدد منهم دائما يرد على النداء ، وقد يبلغ العدد نصف دستة ، وقد يكون بينهم جميع مَنْ أسماؤهم « عبد الله » ·

لقد كانت الحياة على ظهر المركب بدائية ساذجة ، ولكن هذا المركب الكبير كان يبدو كأنه قصر منيف بالمقارنة « بالشيخ منصور » · فقد كانت من مميزاته الحسنة أن الفرد يستطيع أن يمارس رياضة المشي على ظهره ، وان كان العرب لا يفعلون ذلك مطلقا · بل انهم كانوا ينظرون الي شزرا ، وأنا أتمشى جيئة وذهابا · وعندما رآني حمد أفعل ذلك للمرة الثالثة ، خاطبني قائلا : « يظهر أنك لا تحب مركبنا أيها النصراني ! » وعندما أجبته



مقدمة بوم

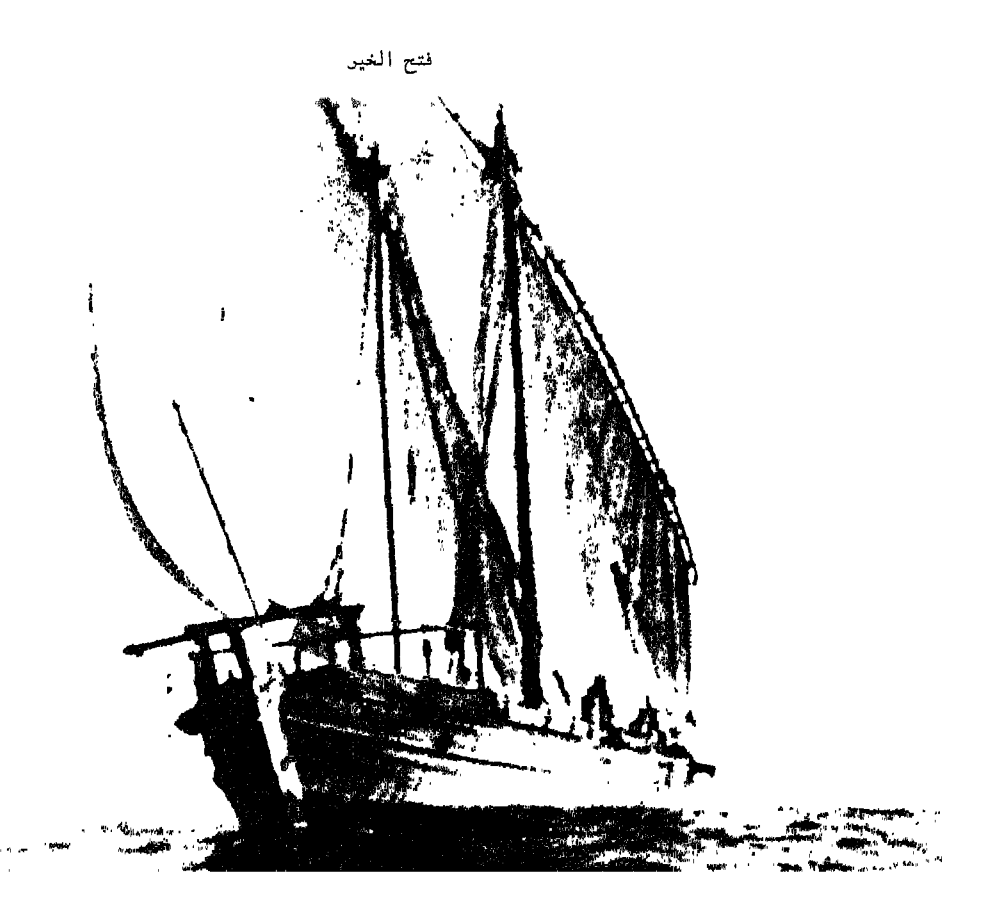
بما استطعت جمع شتاته من لغتي العربية قائلا « بل على العكس ، فاني أحب المركب بالفعل ، يا معلم حمد • لماذا تعتقد أني لست سعيدا هنا ؟ » ، قال : « لأنك تمشي كالأسد الهصور ، وتخطر بقوة كحيوان محبوس في قفص • ولو كنت سعيدا أيها النصراني ، لكان قد استقر بك الأمر وهدأت » •

لقد كان من العبث أن أناقشه وأفهمه بأني أتريض ، فلم يسمعوا بكلمة « رياضة » على الاطلاق • وفي الواقع أني لم أجد في أي من الكتب العربية التي كنت أستخدمها كلمة مرادفة للكلمة الانجليزية ، ولذلك فقد تخليت عن المحاولة ، وجلست • وكنت أحيانا أساعد البحارة في عملهم الشاق ، عند رفع الشراع الرئيسى أو رفع العارضة ، بعد أن يكونوا قد أنزلوها لسبب أو لآخر • ولكن هذا النوع من الرياضة كان أكثر من أن أحتمله في تلك البحار الساخنة ، كما أن سرعتهم في العمل كانت مهلكة • وفي بعض الأحيان الاخرى ، كنت أعاون في صنع الأشرعة أو اصلاحها • ولكنهم كانوا يقولون بأني كنت أخيط الأطراف أفضل من اللازم ، فأجعل الأشرعة أقوى من المطلوب أيضا • فقد كانوا هم يخيطونها خياطة سيئة عن

حمد ، ويباعدون ما بين الغرزة والأخرى · وفي بعض الاحيان كنا نجدل الحبال من ألياف جوز الهند المتوافرة لدينا ·

تابعنا سيرنا باتجاه المكلا · وفي البداية كان المركب يساير الريح فيتجه مسافة باتجاه ساحل الصومال البريطاني ، بل ان حمداً أشار في أحد الايام الى اليابسة التي تقع عليها مدينة « بربرة » · ولكننا اتجهنا بعد ذلك الى الشرق ، بحذاء ساحل الجزيرة العربية الجنوبي ، قريبا من البر · وقد كان هذا أفضل ، في رأي حمد ، الذي كان يعرف المنطقة معرفة جيدة ، فقد كانت هذه رحلته الخامسة والعشرين في تلك البحار ، لأنه اذا ابتعد عن البر ودخل خليج عدن ، فانه يلقى هناك ريحا قوية تدفعه باتجاه الغرب ، أما اذا بقي قريبا من الساحل فيمكن تجنبها ، بل ان بامكانه ، اذا حالفه الحظ ، أن يقابل ريحا مضادة تهب باتجاه الشرق · لقد كان حمد يعرف كل فنون التجارة البحرية · فقد كنا في أمان ما دمنا قريبين من الشاطىء ، لأن ذلك الشاطىء خال من الاخطار نسبيا · وهكذا تابعنا سيرنا بشكل هادىء وممتع ، وكانت السماء زرقاء صافية والنسيم عليلا ، ومع أن تقدمنا لم يكن بالمستوى المطلوب ، الا أن أحدا لم يبد كبير اهتمام بذلك · كما أني شخصيا لم

فتح الخير



أكترث ، لذلك فقد كانت الحياة ناعمة هادئة ، اذ كان من أهم الامور التي تميز ذلك المركب العربي الكبير ، روح الهدوء والطمأنينة التي كانت تلف المركب ومن عليه ٠

كنا نعدل اتجاه المركب مرتين يوميا ، ونأكل عادة ثلاث مرات يوميا ، ونؤدي (أو بالاحرى يؤدي العرب)الصلوات الخمس المفروضة في مواقيتها ، وفيما عدا ذلك ، كان كل منا يهتم بأموره الخاصة ٠ وكنا ندور بالمركب حول نفسه عند تغيير الاتجاه ، بدلا من تغيير الاتجاه دفعة واحدة ، لأن سحب الشراع المثلث الشكل الى الخلف ، عندما تكون الريح شديدة ، عملية خطرة ؛ فقد كان الصاري الرئيسي ثابتا وقويا بذاته ، وأسـوة بجميـع المراكب العربية الاخرى ، لم يكن فى مركبنا نظام الحبال الثابتة ، بل كان كل ما يدعم الشراع الرئيسي ويثبته في مكانه عبارة عن بعض الحبـال المتحركة ، التي تشد دائما بعكس اتجاه الريح ، ثم ترخى في أثناء تغيير اتجاه المركب ٠ أما حبال الشراع الرئيسية التي كانت تمتد الى مؤخـرة المركب فقد كانت وظيفتها أن تكون سندا خلفيا للاشرعة ٠ وهكذا فقد كنا نغير اتجاه المركب ، بأن نطلق له العنان عندما تكون الريح خلف الشراع ، ونلف العارضة الضخمة عندما تكون الرياح ساكنة تماما ٠ لقد كنت أبدي اهتماما شديدا وأراقب تلك العملية بكل دقة كلما كانوا يقومون بها ، لأنها كانت عملية شاقة ومعقدة ٠ وكان عليهم أن يؤدوا تلك العمليـة بمنتهـى العناية والحرص ، كلما كانت الريح ــ مهما كانت ضعيفة ــ تهب عليهم ، خوفا من أن يمتلىء الشراع بالهواء وينطلق المركب بعكس ما يريدون ٠٠ ولكني اكتشفت أن مركبنا كان مركبا مطواعا ، سهل القيادة جدا على الرغم من ضخامة الشراع الرئيسى وثقله ، وأن بحارتنا كانوا يتقنون عملهم اتقانا تامـا ٠

لم يمض وقت طويل على ابحارنا ، حتى اكتشفت أننى لم أكن الدخيل الوحيد على ظهر المركب ، فما أن غادرنا الميناء وأصبحنا فى وسط البحر حتى برز رجلان غامضان من مكان مجهول ٠ أما أين كانا مختبئين ومن أين جاءا فلم أكن أدرى ، كما أنى لم أسأل ، لأن أسئلة من هذا النوع لم يكن مرغوبا فيها ٠ وبالنسبة لى ، كان الرجلان غريبين ومختلفين ، وكـان من الواضح أنهما ينتميان الى قبيلة تختلف قطعا عن القبيلة التى ينتمى اليها الكويتيون ٠ فكان أحدهما يبدو كأنه من مدينة صور ، أما الآخر فلم أستطع تحديد أصله ٠ كما كان بصحبتهما صبى صغير ، خيل الى أنه كان يقوم على خدمة أحدهما ٠ لقد كانا ثنائيا غريبا حقا ، ولكنى كنت الوحيد الذى استغرب ظهورهما المفاجىء ، على ما يبدو ، لأن الآخرين لم يعيروا

ذلك أى اهتمام ، وكأنه أمر عادى جدا . وكنت قد حزمت أمرى من قبل وقررت ألا أبدى دهشتى أو استغرابى لأي حدث يقع على ظهر المركب ، وكنت أتساءل في نفسي عمن سيظهر فجأة أيضا بعد ذينك الرجلين الملتحيين المتلفعين اللذين برزا فجأة فى اليوم الثانى من ابحارنا ، ولكن أحدا غيرهما لم يظهر بعد ذلك .

كان أحدهما صغير الجسم ، ذا وجه يدل على الخبث ، ولحية كاملة ، وكان يبدو شيطانا صغيرا ذكيا تشع من مآقى عينيه الصغيرتين علامات المكر والدهاء . وكان يحمل معه صندوقا فضيا من الكحل ، الذى كان يطلى به جفونه مرتين فى اليوم ، كما كان فى ثنايا عمامته الحمراء سواك ينظف به أسنانه قبل كل صلاة . وكانت لحيته مصبوغة فى بعض أجزائها بالحناء ، كما رأيته يصبغ بالحناء أيضا أظافر قدميه ويديه وأخمصىقدميهالمتشققتين. وكان يبلغ من العمر خمسين عاما على وجه التقريب . وكان كل ما استطعت معرفته عنه فى ذلك الوقت أنه تاجر . أما المواد التى كان يتاجر بها ، فلم أستطع معرفتها عندئذ ، ولكنى عرفت فيما بعد أنه كان يتاجر بالحشيش والخردوات ، وأنه كان من نوع المغامر المستعد لكل طارىء ، وكأنه سندباد عصرى يحمل صرته على كتفه . وكان اسمه « سعيد الصورى » ، مع أنه لم يكن من مدينة صور بالذات ، بل من مكان آخر أبعد منها على شاطىء عمان .

أما الرجل الآخر فقد كان أصغر سنا بكثير ، فقد اعتلى مؤخرة المركب بخطا ثابتة مهيبة ، وعيناه الجميلتان تدلان على أنه محارب من محاربي الصحراء الاشداء . فحيا حمداً ولم يعرني أي اهتمام ، ثم بدأ يخبىء سيفا طويلا ، وترسا جلديا ، وخنجرا مزخرفا ، في الفراغ الواقع خلف صندوق أمتعتي . وقد سببت لي تلك المعدات الحربية شيئا من الارتباك وأردت أن اسأله عن معناها وسبب حمله لها . ولكني أحجمت عن السؤال ، وأقنعت نفسي بأني سأكتشف بمرور الزمن الهدف من وجودها ، ان كان لها هدف ، كما تولد لدي احساس داخلي بأني اذا بقيت على ظهر ذلك المركب مدة كافية من الزمن فلا بد أن اكتشف وأتعلم أمورا كثيرة . وكان ذلك الرجل يرتدي جلبابا أصفر ، أقصر من ذلك الذي يرتديه الكويتيون ، لا ياقة له ، مطرزا بقليل من الخيوط الحمراء من أعلاه حيث ينطبق عند العنق . كما أنه كان يتمنطق بخنجر فضي ، مربوط على خاصرته بحزام موشى بلون الذهب ، وفي هذا الحزام أيضا حافظة نقود من الفضة . وكان يضع على رأسه عمامة ذات لون أصفر باهت ، كبيرة الحجم جدا ، غير محكمة الربط ، مثبتة في

مكانها بعقال خفيف أسود اللون · وكان مسواك يتدلى من طرف عمامته ، وقد بدا لي أن هذا المسواك والاسلحة التي ذكرتها كانت كل ما لدى ذلك الرجل من متاع الدنيا ·

هذا وقد استقر الرجلان على ظهر المركب كأنهما كانا يعيشان عليه طوال حياتهما ، ومنذ ذلك الحين أصبحا كأنهما جزء من الأشياء الثابتة فيه · وكانا يشتركان فى الطعام العام المخصص للضباط على مؤخرة المركب ، كما أنهما كانا يساعدان في الأعمال الخفيفة ، عندما كانت الحاجة تدعو الى جهد الجميع ، كما كان يحدث عند تغيير اتجاه المركب · لقد كانا رجلين غريبين حقا · وقد كان الصبي الذي يرافقهما مثيرا للاهتمام أيضا ، وكان اكثر صراحة وكلاما منهما · فقد كان اسمه محمدا ، وكان صبيا مرحا يبلغ من العمر ثماني سنوات تقريبا · وكان دائما يرتدي نفس الجلباب الرث ، ونفس العمامة المهلهلة ، ولم يكن يملك شيئا من متاع الدنيا ، بل انه لم يكن يملك سواكا · وقد اخبرني أنه يخدم سعيدا مقابل سفره الى أفريقيا ، ومقابل الطعام الذي يتناوله — وقد استغرقني الحصول على هذه المعلومات حوالى أسبوع كامل — أما الطعام ، فقد كان مما على المركب ، يقدم له في مقابل خدمات متنوعة يقدمها للضباط والبحارة على السواء ·

ففي الموانىء كان الصبي خادما لسعيد ، أما على ظهر المركب فقد كان يعمل كخادم للنوخذة وللبحارة · ولم يكن يعرف اسم أبيه ، أو المكان الذي ولد فيه سوى أنه مكان ما على ساحل خليج عمان · وقد مضت عليه بضع سنوات وهو يتنقل من مركب الى آخر ، فقد بدأ ذلك منذ كان في الثالثة من العمر ، لأن الأولاد من مناطق صور وعمان والساحل المتصالح يبدأون بامتهان أعمال البحر ، وهم في سن مبكرة جدا ، بل أبكر مما يمكن تصديقه · أما قبل الثالثة ، فانه لا يستطيع أن يتذكر سوى أنه كان دائم التسكع على الشاطىء · وقد يبدو من الصعب تصديق هذا الكلام ، ولكنني تأكدت من احتمال صحته · واذا كان الامر كذلك ، فلا بد أن محمدا هذا كان صلب العود ، فقد كان صبيا نحيلا ذا فم ضخم وعينين كبيرتين ضاحكتين ، ومزاج مرح جدا · وكان قد وصل الى عدن كواحد من البحارة العاملين على بغلة صورية ، وهناك قابل سعيدا (الذي كان يبحث عن صبي مثله بالضبط) ، فترك البغلة بدون استئذان ، وتبعه · وها هو معنا مسافر الى افريقيا ، كأنه مسافر في نزهة بحرية لا تستغرق نصف يوم · وقد أخبرني أنه كان قد زار زنجبار من قبل ، وأنه في هذه المرة ينوي الاستقرار هناك ، لأنه يعتقد أنها مكان أفضل من الجزيرة العربية ·

لم يكن محمد قد دخل المدرسة قط ، ولذلك فهو لا يعـرف القـراءة أو الكتابة ، وكان على ظهر المركب يهتم بنارجيلة سعيد ، ويقوم على خدمة البحارة فيجلب لهم ما يطلبونه من صناديق أمتعتهم ويحمل الابريق ليصب منه الماء على آيدى البحارة لتنظيف أيديهم وأفواههم قبل الطعام وبعده ، كما أنه كان ينام وقد كور نفسه كالقطة خلف أحد أكياس الأرز تحـت مؤخرة المركب ، وكانت تبدو عليه السعادة التامة • أما كيف كان يخدم سعيدا على البر ، فأمر لم أعرفه الا فيما بعد •

لقد كان مركبنا مركبا غريبا وغير عادي • فقد اختفت تلك الشحنات القديمة المثيرة من الطيب واللبان ، التي كانت تنقلها المراكب العربية في الأيام الخوالي ، وحلت محلها شحنات الملح والأرز والسـكر والقهـوة ، والمنسوجات القطنية ، وبعض التمور القديمة • وكنا سنكمل حمولتنا من موانيء حضرموت ، باضافة الدهن والسمك المجفف ، وربما بعـض نـوى الفاكهة الصالحة للطبخ ، وذلك لبيعها في كينيا • بالاضافة الى ذلك فقد كان لكل من النوخذة ، وحمد وعبد الله الشقيق الأصغر للنوخذة ، وعريف البحارة ، وقائدي الدفة والطباخ ، وكل من البحارة الآخريـن ، بضاعتـه الخاصة به • فقد كان من الواضح أنه كان مسموحا لكل فرد من أفراد طاقم المركب أن يحمل معه صندوقا واحدا من البضائع ، كما كان على النوخذة أن يسلفهم مبلغا كافيا من المال ـ ما بين عشر روبيات وعشرين روبية ـ لشراء تلك البضائع من ميناء عدن • وكانوا يحتفظون بصناديق بضائعهم منظمة في صفين كاملين على جانبي مؤخرة المركب ، وكانـوا يحبـون أن يتفرج بعضهم على بضائع البعض الآخر ، ويفعلون ذلك كلما توافر الوقت الخالي من العمل • وكان بعضهم يشتركون معا في شراء زجاجات كبيرة من العطر الفرنسي الرخيص ، ويقضون الأوقات الطويلة هناك على مؤخـرة المركب وهم يخلطون بعضها ببعض ثم يصبونها في أحقاق صغيرة الحجـم لبيعها على هذا الشكل • والحقيقة أن أشياء عجيبة غريبة كانت تحدث على مؤخرة مركبنا ، التي كانت تبدو أحيانا أشبه بالمخزن منها بجزء من المركب• فقد كانت هناك بضائع منوعة أخرى كالعمائم المختلفة ذات الألوان الزاهية ، بل أن عددا من البحارة كان قد اشترى بعض البضائع الكمالية كالقواريـر حافظة الحرارة (الترموسات) اليابانية الصنع ، الرخيصة الثمن ، والمصابيح التي تعمل على البطاريات وآلات الحلاقة • وخلاصة القول أن البضائـع كانت تحتوي على كل ما يمكن للبحارة أن يبيعوه الـى الصوماليين علـى شواطيء بنادير أو السواحليين فى زنجبار • وقد خامرنى شك فيما اذاكانوا سيدفعون أية رسوم جمركية على البضائع ، ومع ذلك فقد تمنيـت لهـم التوفيق • فقد كان معظمهم متزوجين ، وأرباب اسر خلفوها وراءهم فـي

الكويت ، ولم يكن نصيبهم من أرباح المركب كبيرا ، فلا يمكن لانسان أن يجمع ثروة كبيرة من بيع الملح ·

وبالاضافة الى الشحنة التي كانت على ظهر المركب ، وبضائع البحارة والرجلين الغامضين اللذين ركبا معنا ، فقد كان من المتوقع أن ينضم الينا عدد من الركاب ايضا · وقد تساءلت عن عددهم ، على الرغم من أني لم اكن أتوقع جوابا دقيقا ، ولكني كنت آمل أن آخذ فكرة عامة فقط · فأجابني حمد ان عددهم سيكون كبيرا جدا ، وان ذلك يتوقف على مدى نجاح نجدي في مهمته التي ذهب فيها الى المكلا ، فقد كان نجدي هناك منذ اسبوع ، وربما يكون قد تمكن من جمع مائة أو أكثر · وعندما سألت حمداً باستغراب ودهشة كبيرين ان كان جادا في كلامه عن هذا العدد ، لأنه ليس هناك مكان على ظهر المركب يتسع حتى لجزء من ذلك العدد ، أجاب انه يرجو أن تركب معه قبيلة كاملة · ولكني عندما نظرت حولي بدهشة ، لم أستطع بكل ما أوتيت من قوة الخيال ، أن أجد مكانا يمكن أن يتسع لقبيلة كاملة ، فلم يكن هناك أي مأوى لشخص اضافي واحد في أي مكان · فمؤخرة المركب كانت موسوقة بالصناديق ، والسطح الرئيسي بالقوارب على الجانبين ، والمخزن بالبضاعة التي نحملها · صحيح أن البحارة قادرون على النوم في مكان ضيق للغاية ، فقد كانوا جميعهم يتكورون ويتكومون حول موقد الطباخ وحول قاعدة الصاري الرئيسي ، في مساحة لا تتسع الا بصعوبة كبيرة لستة من الخراف · أما التفكير في قبيلة كاملة ، فقد كان ضربا من المستحيل · اما حمد ، فانه لم يقدم لي أي تفسير آخر لما قاله ، بل انه كان في الواقع ينظر الى النقاش في الموضوع وكأنه لغو من القول لا طائل تحته ، لأن العرب كانوا يؤمنون دائما بعدم التفكير في المستقبل ، بل بترك مشاكله تحل نفسها بنفسها · وكل ما أضافه حمد الى كلامه هو أن الله دائما رحيم كريم ، وان كان قد ترك لي مهمة تفسير تلك العبارة · فلم أفهم ما اذا كان يعنى ان رحمة الله ستتكفل بتأمين القبيلة التى تمناها حمد، أو أن تلك القبيلة في حالة توافرها ستحتاج الى رحمة الله لتبقى على قيد الحياة على ظهر ذلك المركب · ولما لم يثر الموضوع مرة ثانية لبضعة أيام تالية ، فقد تولد لدى « انطباع » بأن قصة القبيلة هذه ضرب من المبالغة المعروفة عن العرب · ولكنى كنت مخطئا فى ذلك كل الخطأ ·

طوال هذا الوقت كان النجار لا يكف عن الطرق ، وهو منهمك في صنع مركبه الجديدوكان هذا النجارشابا نشطا ماهرا فى عمله ، وكانت مهمته الأساسية ، على ما يبدو تنحصر في صنع المراكب · فلم يكن يقوم

بأي عمل له علاقة بمركبنا من صيانة أو اصلاح وما الى ذلك(١) ، ولم يكن المركب بحاجة الى شيء من ذلك على كل حال ، فقد كان مركبا جديدا ومتينا نسبيا ، وكان الخشب الذي صنع منه في حالة جيدة • ولا شك أنه كان مركبا قويا ، تشده من الداخل أضلاع كافية ـ معظمها أغصان شجر معقوفة وهي في حالتها الطبيعية ـ ، مرصوصة بعضها بجانب بعض بشكل يمنع تسرب الماء الى الداخل ، حتى لو لم تغط بالالواح اللازمة • وفي هذا طبعا مبالغة كبيرة ، ولكن ما أريد أن أقوله هو ان العربي عندما يصنع مركبه ، يزوده بأكبر عدد ممكن من الاضلاع ويرصها واحدا بجانب الآخر بشكل متين جدا • الا أن عيبه الأساسي يكمن في طريقة التثبيت ، فهو لا يستعمل لذلك سوى بعض المسامير الطويلة المصنوعة من الحديد المطاوع •

لم يكن النجار يكف عن الطرق والعمل طوال النهار ، من مطلع الشمس الى ما بعد المغيب • وكانت لديه كمية وافرة من أغصان الشجر الطبيعية لاستعمالها كضلوع ، وقد كانت الطاقة التي يتمتع بها طاقة جبارة ، بينما كانت أدواته قليلة وبسيطة للغاية • وقد كان هذا النجار يبني المركب دون الاعتماد على أي تصميم سوى ما في داخل رأسه • فاذا أردت أن يصنع لك مركبا ، فما عليك الا أن تخبره بنوع ذلك المركب ومقدار حمولته من جلل التمر ، فهو لا يعرف أية قياسات أو معايير أخرى • وعندما تخبره بأنك تريد أن يكون المركب من نوع السمبوك أو البلم أو الجلبوت أو الشوعي ومقدار حمولته ، فانه يبدأ العمل في الحال ودون اي تأخير • فقد كانت الأنواع كلها متشابهة الى حد كبير بينما كانت فروق بسيطة في هيكل المركب هي التي تميز نوعا عن الآخر ، ولم يكن الاختلاف يزيد عما نلحظه في تلك القوارب التي نصنعها في أحواض بناء السفن عندنا • فقد كانت جميع تلك المراكب تتمتع بنفس الصفات الملاحية تقريبا • أما الجلبوت فقد كانت مقدمته مستقيمة ، بينما البلم له مؤخرة مزدوجة • اما مراكب السمبوك والشوعي فهي مراكب صغيرة رشيقة متشابهة جدا ، سوى أن عمود المقدمة في السمبوك يختلف عن مثيله في الشوعي • لقد كان النجار قادرا على صنع أي من تلك المراكب ، كما كان بأمكانه أن يبني لك بوما اذا شئت • ولكن البوم في العادة لا يبنى بحمولة أقل من أربعمائة أو خمسمائة جلة من التمر ، بينما كان المركب الذي يقوم بصنعه ـ وهو من نوع الجلبوت ذي المقدمة المستقيمة ـ لا يستطيع ان يحمل اكثر من مائة وخمسين جلة •

---

(١) كانت المهمة الاساسية للنجار هي اصلاح اي خراب يطرأ على المركب في الحالات الطارئة (المترجم)

أما الادوات التي كان يستعملها أكثر من غيرها ، فقد كانت تتكون من القدوم والمثقب الهندي ، ولم يكن لديه ملزمة سوى قدميه الحافيتين ، ولعله كان يضطر الى ترك مهنة صنع السفن لو أجبر على ارتداء الحذاء · كما كان لديه أيضا بعض المناشير الصغيرة ، ونوع بسيط من مسحاج المسح (فأرة النجار) · وكان قد أتم بناء أحد القوارب التى على ظهر المركب فى وقت سابق من الرحلة ، وهو في طريقه من البصرة الى المكلا ، مرورا بمسقط ، وكان معروضا للبيع ، بل اني فهمت أن جميع القوارب التي كانت على ظهر المركب كانت للبيع أيضا · فلم يكن العرب يتورعون عن بيع أي شيء اذا توفرت الفرصة المناسبة · فقد قال حمد مثلا انه يسره أن يتخلص من « فتح الخير » نفسه في زنجبار أو أي مكان آخر يمكن أن يباع فيه بربح مجز ، لأن بامكانهم عندئذ أن يعودوا الى الكويت على ظهر مراكب كويتية أخرى دون أن يتكلفوا في ذلك مالا كثيرا · ويبدو أن أي مركب كويتي كان على استعداد لأن يحمل على ظهره أي بحار ، أو حتى أية أطقم كاملة من مراكب أخرى يجري بيعها أو تتحطم في البحر · وقد كان من الواضح لدي ، حتى في أوائل هذه الرحلة ، أن الكويتيين كانوا يوفرون على أنفسهم عناء مشاكل كثيرة ، يشكو منها الاوروبيون من ملاكين للسفن ، وقباطنة لها ، ولكن كانت لديهم ، في مقابل ذلك ، مشاكلهم الخاصة ·

كان لدينا في تلك المرحلة من الرحلة اربعة قوارب ، وسنكون محظوظين بحسب قول حمد ، لو عدنا بواحد منها ·

في كثير من الايام عندما كانت الريح تهب بلطف ، كنا نجد أنفسنا بحذاء بعض المراكب الاخرى ، المتجهة الى افريقيا ، والتي كانت قد أبحرت من المكلا في نفس اليوم الذي أبحرنا فيه · والعرب يحبون أن يبحروا كل مركبين أو ثلاثة معا ، ما أمكنهم ذلك ، وخاصة على طول سواحلهم · وكانوا يفعلون ذلك حبا في الرفقة من ناحية ، ورغبة في السلامة من ناحية أخرى · وفي معظم الوقت كنا نبحر برفقة بوم القطامي الصغير وبغلة فارسية أخرى · وعندما يكون البحر هادئا ، كان باستطاعتنا أن نسمع بوضوح أصوات طرقات نجاريهم ، الذين كانوا أيضا منهمكين ببناء المراكب لبيعها في افريقيا · وقد فهمت أن عملية بناء المراكب الصغيرة على المراكب الكبيرة عملية قديمة جدا · وقد كان الكويتيون مشهورين بأنهم صانعو مراكب مهرة ، وكان بامكانهم أن يأخذوا المراكب الجديدة الى أماكن بعيدة مثل « لامو » ، ويبيعوها هناك بسعر يقل عن سعر مثيلاتها من المراكب التي

يصنعها العرب المقيمون هناك أو السواحليون أو « الباجون » • أما المبلغ الذي كنا سنطلبه ثمنا للمركب الجديد فهو ألف شلن ، كما يمكن أن يباع القارب بثلاثمائة •

كان النجار الشخص الوحيد على ظهر المركب الذي لا يفتأ يعمل طيلة النهار ، ولكن الطباخ كان يقوم بعمل شاق ايضا • أما حمد ، نائب النوخذة ، فقد كان يقضى معظم وقته متكئا على السدة الخلفية ، وان كان نادرا ما يستلقي عليها • فقد كان يقضي معظم النهار جالسا هناك ، محني الظهر ، يرقب أو يقرأ القرآن • أما في المساء فقد كان يلتف بعباءته ويجلس القرفصاء ، تاركا أنفه الكبير معرضا للهواء ليعرف اتجاه الريح • ولا شك أنه كان بحارا ممتازا خبيرا بسلوك الريح • فقد كنت اعتقد أني قد تعلمت الكثير عن قيادة المراكب في الاحوال المختلفة ، من هدوء الريح الى اشتدادها ، بعد كل تلك الرحلات على السفن التي كانت تنقل الحبوب ، وبعد قيادتي للسفينة « جوزف كونراد » في بحر السولو(١) ، الا أن خبرة حمد كانت تبدأ من حيث انتهيت • ففي الظروف التي لم أكن أستطيع أن أتنبأ فيها بهبوب أية نسمة من الهواء ، أو بالاتجاه الذي ستأتي منه الهبة التالية، كان بامكان حمد أن يسير المركب بشكل حسن • فقد كان استاذا بالفعل فى هذه النوع من الملاحة ، ولم تكن تأخذه رحمة فى نفسه أو فى بحارته ، وكان يفيد من كل هبة من الريح، ومن كل تغيير مهما كان طفيفا ، في اتجاهها ، ويتجاوب مع ذلك تجاوبا كاملا • لقد أثبت حمد أنه بحار رائع ، ومع أني لم أكن في البداية أقدر بعض حركاته حق قدرها (بل اني لم أكن أفهم بعضها أبدا) الا أني تعلمت فيما بعد أن أحترم الرجل ، وأن أشهد أنه من خيرة البحارة الذين عرفتهم •

وهكذا مضينا في سيرنا بهدوء ، أحيانا مع نسمات الهواء اللطيف ، وأحيانا أخرى بدونها ، ممتعين أنظارنا بالمناظر الخلابة للشواطىء الجنوبية لشبه الجزيرة العربية • وكان دائما على مرأى منا « بوم » القطامي والبغلة الفارسية وهما المركبان اللذان كنا نسافر برفقتهما • وكانت الحياة على ظهرهما تسير رتيبة ، على غرار الحياة على ظهر مركبنا ، وكان يتسنى لنا ، مرة في اليوم على الاقل ، أن نقترب من بعضنا اقترابا كبيرا ، بحيث لا تفصل بيننا أكثر من بضع ياردات ، ولمدة نستطيع أن نتجاذب خلالها أطراف الحديث • وكان

---

(١) (Sulu Sea) غرب جزر الفلبين (المترجم) •

الربابنة والضباط وبقية البحارة في أثناء ذلك يتحادثون بهدوء ، وكثيراً ما كان بعضهم يستعير أدوات البعض الآخر . وكنا نسمع مؤذنيهم وهم يؤذنون للصلاة يوما بعد يوم ، وكأن هناك سباقا بين المؤذنين الثلاثة . فقد كان مؤذننا بحارا يدعى « سلطان » ، كان أبوه فيما مضى عبدا في الكويت . وكان هذا مايكاد يتبين أول خيوط الفجر وهي تنير الأفق الشرقي ، حتى يصعد الى مكان مرتفع في المركب ، ويبدأ الأذان بصوت عال ، واضعا يده اليمنى على أذنه اليمنى ، وسبابته على خده الأيسر ، وكان يفعل ذلك دائما وان كنت لم أكتشف أبدا سببا لذلك أو تأثير ذلك على الأذان . ولأذان الفجر هذا ، كان دائما يضيف كلاما يعني أن الصلاة خير من النوم ، وان كنت أشك في أن البحارة كانوا يوافقونه ، على ذلك ، فهم قلما كانوا ينالون قسطا وافرا من النوم،اذ لم يكن هناك مكان مناسب لنومهم،أو أسرة،أو فرش أيا كان نوعها ، ولذلك فقد كانوا يتكورون ويتكومون على ظهر المركب ، وكان يبدو لي أن باستطاعتهم أن يناموا أنى يشاؤون . وكانوا يفعلون ذلك كلما وجدوا أن ليس لديهم من عمل أو واجب يؤدونه ، الا أنهم كانوا يخضعون لنظام عمل رتيب لم يكن يترك لهم وقتا كافيا للراحة . وكانوا ينامون بكامل ملابسهم ، وعمائمهم على مقربة منهم بحيث يهبون واقفين متأهبين للعمل ، وكأنهم في ميدان سباق وقد آذنت اشارة البدء بالجري .

كانوا يبدأون يومهم بالوضوء والصلاة ، ولم تكن صلاة الفجر جماعة، بل كان كل منهم يصلى كما يحلو له ، بعد أن يكون قد غسل يديه ووجهه وقدميه بماء البحر . وفى صلاتهم كانوا دائما يولون وجوههم شطر مكة ، ويفرشون الوزرة أو الكوفية على الارض أمامهم ــ فلم يكن فقرهم يساعدهم على امتلاك حصيرة أو سجادة خاصة للصلاة ــ ويقفون دقيقة صامتين خاشعين متناسين كل هموم الدنيا ومشاكلها ، ثم يبدأون القيام بسائر حركات الصلاة وشعائرها بشكل بسيط ومتناسق وكان أمرا ممتعا لى أن أراقب التغيرات التى كانت تطرأ على وجوههم . فقد كانت الملامح القاسية تخشع وتلين ، ويخبو البريق الذى يشع فى العادة من العيون المتغطرسة ، ويتلاشى كل ما يمكن أن يكون هناك من الصلف والعجرفة والغرور . فلم يكن هناك أى رياء أو نفاق فى تلك الوجوه القوية المتجهة الى مكة ، وكان من الواضح أن دينهم كان بالنسبة لهم أمرا جوهريا وحقيقة حية ، فلم تكن صلاتهم مجرد أدعية تتلى وتراتيل تردد ، بل كانت وسيلة للاتصال الحقيقى باله يؤمنون بوجوده ايمانا قويا . فلم يكن احد منهم يصلى على عجل ، بل كانوا دائما يقضون بضع لحظات فى بداية الصلاة فى خشوع وتأمل وصمت يخلصون خلالها من التفكير بأمور الدنيا ، وكنت أرقبهم وأنا أغبطهم على ذلك ، لأنى لم أكن أستطيع أن أتخلص من التفكير فى الامور الدنيوية بتلك

السهولة • وكان بعضهم يؤدون صلاتهم على سطح خزانات الماء ، والبعض الآخر على ظهر الابواب الموصلة الى جوف المركب ، بينما كان البعض الآخر يفعل ذلك في القوارب وهي محمولة على مساندها •

كان جاسم الطاهي ، الجدى المزاج ، دائما يصلي على رأس السلوقية في مقدمة المركب فيقف هناك صورة لانسان نحيل مضطرب في ثياب خشنة رثة ، ويؤدى صلاته على عجل خوفا من احتراق الخبز على النار ، لانه يقع في ورطة لو حصل ذلك ، وكثيرا ما كان جاسم يواجه المشاكل • أما حمد بن سالم فقد كان دائما يؤم في صلاته كلا من مديرى الدفة وعبد الله شقيق النوخذة ، وذلك على مؤخرة المركب ، وكان المسافران سعيد وعبدالله في العادة يشاركان في تلك الصلاة • وقد كان حمد أتقى رجل على ظهر المركب ، وأقوى ايمانا من سائر بحارته وركابه ، وكانت تلك الصفة المميزة شيئا هاما ، كما فهمت • فمن الافضل أن يكون على ظهر المركب انسان معروف بتقاه وورعه الحقيقيين، وأفضل من ذلك أن يكون هذا الانسان هو قائد ذلك المركب • ولا أعنى بهذا أن حمدا كان القائد الفعلى للمركب، فقد كان أهدأ وألطف من أن يكون كذلك ، بل كان لا يعدو أن يكون بديلا مؤقتا فقط « لنجدى » الحازم العنيف •

بعد انقضاء الصلاة ، كنا نتناول طعام الافطار ، وكانت هذه الوجبة لا تتغير أبدا ، ولا تزيد عن كسرة من الخبز الفطير ، يضيفون اليه شيئا من السمسم في المناسبات الكبرى والاعياد ، فيصبح طعمه مستساغا وهو خارج لتوه من الفرن ، ورطبا غير مستساغ اذا كان من خبز اليوم السابق• وكانوا يسمونه « خبزا » وكنا نتمكن من ازدراده بمساعدة الشاي الشديد الحلاوة الذي كنا نشربه في أكواب صغيرة جدا (استكانات) • وقد كان هذا هو كل ما نتناوله في الصباح ، وكان الجميع بلا استثناء يتناولون نفس الوجبة التي لم تكن لها طقوس خاصة ولم يكن يمد لها السماط • وكان بحار صغير الجسم يدعى « قدرفي »(1) هو الذي يحضر الشاي في ابريق من الصفيح ، ويصبه بدون أية مراسم في الأكواب الصغيرة التي كانت تحفظ في صندوق بسيط تحت مقعد قائد الدفة ، كما كان يوسف الشيرازي هو الذي يوزع كسرات الخبز • وكان كل شيء ينتهي في دقيقة أو اثنتين ، كما

---

(1) ليست هذه اللفظة من الاسماء المعروفة فى بلدان الخليج العربى ، ولم نستطع الاهتداء الى لفظة مقاربة لها مستعملة فعلا • ويبدو ان المؤلف قد اخطا فى نطقها خطا بالغا بحيث ابتعد بها عن الاصل (المترجم) •

كان البحارة الصغار يصبون الشاي للبحارة الكبار · وقد كان على المركب بحاران لا يزيد عمر أحدهما على ثمانية عشر عاما ، وكان متوسط أعمار البحارة يبلغ ، بحسب تقديري ، حوالى ثلاثة وعشرين عاما ، ولكن كان من الصعب اجراء التقدير السليم ، لأن كثيرا من البحارة ، كانوا يبدون أكبر من اعمارهم الحقيقية · وعندما ينتهي طعام الافطار كانوا يؤدون أية أعمال يرونها ضرورية ، وكان هناك عمل للجميع مدة اربع ساعات أو خمس في الصباح الباكر · فكان اول ما يفعلونه هو أن يجففوا قاع المركب اذا كان ذلك ضروريا · ولما كان المركب جديدا نسبيا ، ولا يسمح لكثير من الماء بالتسرب الى الداخل ، فقد كانوا يقومون بهذا العمل كل ثلاثة أيام · اما الماء الذي كانوا ينزحونه من القاع ، فقد كانت رائحته كريهة جدا ، تفوح منه رائحة التمر الفاسد وزيت السمك ، وروائح أشياء أخرى لا أعرفها ، تشمئز منها النفوس وتعافها الى أبعد الحدود · وكان الرجال يقفون في صفين ممتدين من القاع حتى جانب المركب ، صف يرفع الدلاء الملآنة ، وصف يسترجعها بعد تفريغ مائها في البحر ·

وبعد أن ينتهي البحارة من نزح الماء ، ينصرفون الى الأعمال الاخرى التي لم يكن من بينها أية أعمال لها علاقة بتنظيف المركب · ففي بعض الاحيان ، كان واحد أو اثنان من صغار البحارة يساعدان جاسما في نشر الحطب ، أو هرس القمح ليصنع منه الخبز في اليوم التالي ، بينما يقوم آخرون بصنع الحبال من مواد هندية خاصة بذلك ، أو يعملون في رتق الأشرعة · وكانت عملية صنع الحبال أكثر اعمالهم انتظاما ، فكانوا يجلسون في ظل الشراع ، في مجموعات كبيرة ، يجدلون الحبال ، ويتحادثون بهدوء ، وكانوا يتمتعون بعملهم هذا ، وينسجم بعضهم مع البعض الآخر انسجاما كبيرا ، بحيث تعذر علي ، لمدة شهور طويلة ، أن اكتشف من منهم كان العريف ، بل اني كنت اعتقد في بادىء الامر أنه لم يكن بينهم من هو مسؤول عنهم ، فلم يكن يسمع أي صياح ، أو أوامر تعطى بصوت جهوري ، أو مناكفة أو ملاحقة شديدة للعمل · فقد كان اولئك البحارة العرب قد تعلموا ، منذ أمد طويل ، كيف يعملون معا للصالح العام ، بكل هدوء وسكينة ، ولذلك فقد كانت جميع الأعمال تتم بهدوء وانسجام ويسر ، حتى انى امضيت ثلاثة أشهر على ظهر المركب قبل أن أعرف المسؤول أو عريف البحارة · ثم اكتشفت انه كان هناك عريفان ، عريف لكل نوبة حراسة · ولم أكن في السابق أعلم بوجود نوبات حراسة أصلا ، لأنه لا يوجد ما نسميه « باطن السفينة » ، يستريح فيه بعض البحارة من نوبة الحراسة ، فكيف يمكنني أن أعرف ان كانت هناك نوبات حراسة ، خاصة وان جميع البحارة كانوا يتعاونون على القيام بأي عمل ؟ كما لم يكن هناك ضبط للوقت ،

ونظام محدد للعمل ، فلم يكن أحد على ظهر المركب يعرف اليوم الذي نكون فيه • وكثير منهم لم يكن يعرف السنة التي نحن فيها ، ولكنهم جميعا يعرفون ان شهر رمضان قد ولى ، وقد شكرت الله على ذلك شكرا جزيلا ، فقد كان قضاء شهر رمضان بين مسلمين أتقياء محنة كبرى بالنسبة لي •

لقد كان الجميع يعملون منذ الانتهاء من وجبة الافطار حتى موعد الغداء ، ولم يكونوا يتوقفون عن العمل الا اذا كان ذلك ضروريا لوضع الشراع في الوضع المناسب • وكنا في العادة نبحر ونحن ننشر الشراع الرئيسي المثلث الشكل ، ولكن حمدا كان أحيانا ينشر الشراع المزيني(١) أيضا اذا كانت الريح تهب باعتدال • وكان هذا الشراع أصغر بكثير من الشراع الرئيسي ، وكانت له من المساوىء ما جعلني لا أرى له أية فائدة على الاطلاق • وفي أحد الاوقات ، عندما كانت الريح خفيفة بالفعل ، أخبرني حامد أن بامكاننا أن ننشر شراعين آخرين ، وذلك بان ننصب عمود تطويل خفيفا على مقدمة المركب ، وننشر عليه شراعا ، وبأن ننصب صاري القارب الطويل امام عجلة القيادة وننشر عليه شراعه الرئيسي ايضا • وقد رأينا البغلة الفارسية تفعل ذلك في أحد الأيام بالفعل ، وكانت تسير سيرا حسنا • وقد لاحظت فيما بعد أن بامكان العرب والفرس أن ينشروا شراعا خامسا ، بأن يرفعوا نوعا من الشراع الخفيف على قمة صاري الشراع الرئيسي ، ولكننا لم نفعل ذلك على مركبنا قط •

كنا أحيانا نتناول وجبة الغداء ما بين الساعة العاشرة والنصف والحادية عشرة صباحا • ولم يكن الوقت محددا بالضبط ، فقد كان كل شيء يتوقف على مزاج النوخذة ، وعلى الرغم من وجود ساعة على ظهر المركب ، الا أنها كانت ساعة سويسرية عتيقة جدا ، من أرخص الاصناف ، كبيرة الحجم وعاطلة عن العمل • وكانت تحفظ في الدرج الكائن في مقعد قائد الدفة • ومن آن لآخر ، كان قائد الدفة ، كائنا من كان ، يخرج تلك الساعة من مخبئها ، فيجدها عادة متوقفة ، فيهزها بعنف واشمئزاز ، وينظر فيها نظرة طويلة ثم يعلن الوقت • وكانت تلك الساعة ، اذا هزت هزا عنيفا ،

---

(١) يبدو ان المؤلف قد اطلق هذا الاسم خطأ على شراع الصارى الثانى الذى يسمى « القلمى » باللهجة الكويتية بينما الشراع المزينى هو شراع القارب الطويل الذى يحمل على المركب • وكان هذا الشراع ينصب أحيانا على صارى المركب ويضاف الى الأشرعة الاخرى المنشورة على المركب • (المترجم — عن أحمد البشر الرومى)

تعمل لمدة دقيقتين أو ثلاث دقائق ، وكان صوت دورانها يشبه صوت آلـة جهنمية · وكانت وجبة الغداء تتألف دائما من الارز المسـلوق ، الممـزوج ببعض البهارات ، والمدهون بالسمن ، مع شيء من السـمك الطـازج او المجفف ، المطبوخ في البهار الهندي الغريب الطعم (الكاري) ، وتمد على الحصير على مؤخرة السفينة ، وتؤكل بموجب قواعد متعارف عليها · فقد كنا نجلس حول الحصير ونأكل بأيدينا ، ولكن بطريقة وأسلوب معروفين · فلم يكن من اللائق أن نستعمل سوى أصابع اليد اليمنى ، وهذه يجب ألا تلمس الشفتين · فكان على الواحد منا أولا أن يتناول لقمة من السمك ، أو ما يوجد بديلا عنه ، ثم يجمع ما يستطيع من الأرز باستعمال أطـراف الأصابع بكل عناية ــ ، أو على الاقل هذا ما كان العرب يفعلونه ، فقـد كنت أنا دائما شديد الحرص عند أكل الأرز ــ ، ثم يجعل من ذلك كله كرة منتظمة باستعمال الأصابع والابهام فقط ، ثم يقذف بها بدفعة سريعة من الابهام الى داخل الفم · وقد كان بامكان العرب أن يأكلوا بهذه الطريقـة دون أن يسقطوا حبة واحدة من الأرز ، ودون أن يتركوا على أصابعهم أثرا لذلك، ودون أن يلمسوا شفاههم بأصابعهم·وقد استغرق اتقانى لطريقةالأكل هذه فترة طويلة من الزمن ، وان كنت لم أصبح خبيرا جيدا بها على أية حال ، ولكني كنت أبذل جهدي ، فقد كانت آداب المائدة عندهم لائقة جدا ، ولم أشأ أن أظهر بمظهر الانسان الساذج أو الفظ · وعندما كنت لا أتقن طريقة الأكل ، لم يكونوا يسخرون مني ، وكان كل منا يأكل بعناية من الجزء الذي يواجهه على الطبق · وقد كانت بالفعل طريقة حسنة للأكل ، اذا ما تعود الانسان عليها ، كما أن الامتناع عن الكلام في اثناء تناول الطعـام له فضائله ، فلم تكن الثرثرة على الطعام تعتبر لائقة ، بل كان عليك أن تأكل حتى تشبع ، ثم تنسحب بهدوء · فلم يكن أحدينبس ببنت شفة أثناء تناول الطعام ·

وكانت تنصب ثلاث موائد للأكل ، ولكنها كلها كانت تتكون من نفس الطعام ونفس الكمية · فكانت هناك مائدتان على السطح الرئيسي يشترك فيهما البحارة والعريفان · أما حمد وشقيق النوخذة (الذي كان يعمل أحيانا كمدير للدفة ، ولكنه في غالب الأحيان لم يكن يقوم بأي عمل) وقائد الدفة ، وخليل النجار ، وكذلك المسافران الغريبان ، فقد كانوا جميعـا يأكلون على المؤخرة · وكان الصبي محمد يحمل الماء الذي نغسل به أيدينا وأفواهنا ، وكان الأكل يتم في سكون تام على جميع الموائد ، بما يتناسب مع مثل هذه المناسبة الهامة · ولم نكن نضيع كثيرا من الوقت في الأكل ، فقد كانت العملية كلها ، منذ مد السماط الى طيه ، لا تستغرق اكثر من خمس دقائق ، كما لما تكن هناك أطباق تحتاج الى غسل · وكان سماطنا

يمد خلف شراع الغلمي على مؤخرة المركب في المساحة الفارغة بين صفوف الصناديق • أما أسمطة البحارة فكانت تمد حيث يريدون ، واذا لم يشبع أحد منهم ، يمكنه الذهاب الى المائدة الأخرى ليكمل وجبته ، فقد كان الطعام وفيرا • وقد بدا لي أن التغذية الوحيدة في تلك الأكوام من الأرز كانت تكمن في السمن الذي كان يصب عليها ، وكان هذا يتألف من زبدة الماعز المصفاة المجلوبة من حضرموت • ومع أنه كان ذا رائحة زنخة ، الا أنه كان يعوض عن قلة الفيتامينات في الطعام ، ويقي من مرض الأسقربوط ، فقد كان السمك قليلا جدا •

وعندما كنا نفرغ من الطعام ، كان جميع البحارة يستريحون بعض الوقت ، فيعمد أولئك المدمنون على النارجيلة الى تدخينها ، ولم تكن النارجيلة سوى اناء من فخار البصرة به ثقب لادخال قصبة التدخين الجوفاء فيه • أما الطباق فقد كان يفرش فوق جمرات مأخوذة من موقد جاسم ، وموضوعة على علبة صغيرة من الصفيح ، وكان البحارة يستمتعون استمتاعا كبيرا بتلك النراجيل مع أن الطباق كان من نوع رديء جدا • كما كان طعم القصبة المحترقة كفيلا بأن ينفرني منها ، ان لم يمرضني بالفعل • وقد كان معظم البحارة يدخنون تلك النراجيل ، الا ان قلائل جدا هم الذين كانوا يملكونها ، ولذلك فقد كانت دائما تمرر من واحد الى آخر ما دام الجمر مشتعلا ، وكانت قصبة التدخين تنتقل من فم الى آخر لتفي بحاجة أكبر عدد ممكن • وعلى الرغم من أن هذه العملية لم تكن صحية ، الا أنهم لم يكونوا يبالون بذلك •

حتى اذا ما فرغوا من تدخين النراجيل ، ولم تكن هناك أية نسمة من لريح ، خلد الجميع الى النوم في ظل الشراع على سطح المركب • وكان حمد قلما ينام وحتى اذا نام بقيت احدى عينيه مفتوحة ، وهو مكور على المقعد القائم خلف قائد الدفة ، وبجانبه دوارة تدل على اتجاه الريح ، تتألف من طائر منحوت من الخشب ، في ذنبه ريش يهتز عند هبوب أضعف نسمة من الهواء ، فيتحرك الطير • وحالما تصدر أية حركة من ذلك الريش كان حمد يصحو • لقد كان من الواضح أن بامكان العرب أن يناموا نوما عميقا مع بقائهم متيقظين في نفس الوقت ، وكنت أحسدهم على ذلك • لم يكن البحارة ينامون اكثر من ساعة بعد وجبة الغداء ، وعندما كانوا يستيقظون يكون وقت صلاة الظهر قد حان • فتبدأ الفروض المعروفة ، من وضوء كامل بالماء المسحوب من البحر ، وصلاة باتجاه مكة ، وترتيل رائع للقرآن الكريم لم أمل من سماعه رغم تكراره مئات المرات • وعند الانتهاء

من الصلاة التي لم تكن تستغرق وقتا طويلا ، كان البحارة عادة يعودون للعمل ثانية ، ولكنهم لم يكونوا يعملون في فترة العصر بنفس الجدية والعناء كما كانوا يفعلون في فترة الصباح • أما اذا لم يكن هناك عمل عاجل يتوجب عليهم القيام به ، فانهم لا يكونون متحمسين للقيام بأي عمل • ففي بعض الاحيان ، عندما كانت الحرارة تشتد ، أو عندما كان عليهم أن يغيروا اتجاه السفن مرة تلو المرة ، لم يكونوا يؤدون أي عمل حتى الساعة الرابعة تقريبا ، وعندها يعملون مدة ساعة أو قرابة ذلك • أما اذا كان الشراع الرئيسي قد تمزق ، وعليهم انزاله واصلاحه ونشره ثانية ، فقد كانوا يعملون بجد طوال النهار • وكان النجار هو الوحيد الذي لا يتوقف عن العمل طيلة النهار سواء أكان المركب راسيا في الميناء ، أم مبحرا في وسط البحر • ولم يكن أحد يتقيد بيوم الجمعة كعطلة أسبوعية ونحن في البحر ، فلم تكن هناك بالفعل أية عطلة اسبوعية ما دمنا على ظهر المركب •

وعند العصر كان « سلطان » المؤذن يؤذن لصلاة العصر كالعادة ، وكانت هذه الصلاة دائما فردية لا جماعية • وعند مغيب الشمس ، حالما يختفي آخر شعاع من اشعتها في مياه البحر ، كان يؤذن للصلاة ثانية • وكانت هـذه الصلاة ، مع صلاة الفجر ، أهم الصلوات جميعا • فقد كانت الصلاة الرابعة تستغرق حوالى عشر دقائق ، وأحيانا أكثر من ذلك ، عندما كان حمد يؤدي بعض الركعات الاضافية) السنّة) • وعند الانتهاء من هذه الصلاة ، كنا نتناول وجبة العشاء التي كانت تتكون من الأرز والسمن في الغالب ، وفي أحيان قليلة من الأرز و « الدال » ، وهو نوع من الحبوب الهندية الصغيرة التي كانت تطبخ مع البهارات أو الفلفل الحار ، وكان البحارة مولعين بهذا الفلفل المطبوخ ، يأكلونه ، اذا توافر ، مع أي شيء • وكانت وجبة العشاء هذه تنتهي بسرعة كبيرة ، وقبل أن يختفي آخر شعاع من أشعة الشفق ، وكان هذا ايذانا بانتهاء النهار • فكان كل من البحارة عندئذ يأتي الى المؤخرة ، حيث يجلس حمد ، ويحييه ومن حوله ، متمنيا لهم ليلة سعيدة • وكان حمد يجيب كلا منهم باسمه ، وعندها ينصرفون عائدين الى السطح الرئيسي • وبعد ذلك يجتمع افراد نوبتي الحراسة الليليتين ، ويلتفون حول قاعـدة صاري شراع الغلمي ، على مؤخرة المركب ، ويأخذون بالحديث الهادىء ، بينما تنتقل النارجيلة من فم الى آخر •

وهكذا كان الليل يدركنا ، ونحن ننساب في نور القمر يخيم علينا السكون والصمت ، في مركب كأنه ملاك السلام الصامت ، تنعكس صورته ، برغم العتمة ، على صفحة الماء الفضية ، بينما البحارة المتلفعون بجلابيبهم

وعمائمهم ينفثون دخان النرجيلة على مؤخرة المركب ، وقائد الدفة الملتف بكوفيته ، وقدماه الحافيتان مطويتان تحت جلبابه ، يجلس أمام الدفة وكأنه ابو الهول ، ويحاول أن يقود المركب في الطريق الصحيح ، بينما يجلس حمد خلفه يرقب كل شيء بصمت . ولم نكن نوقد أية مصابيح ، ما عدا ذلك المصباح الخافت النور الذي ينير البوصلة ، وعلى الرغم من وجود عدد من المصابيح في المركب ، فقد كانت كلها مهملة ، لم يستعمل أي منها خلال الأشهر الستة التي قضيتها على ظهر المركب . ولم أكن أفهم لذلك سببا ، خاصة أن بعض ناقلات النفط المحملة والآتية من البحرين وعبدان كانت تمر قريبة جدا منا . وفي مثل هذه الحالات كان حمد دائما ينتظر من تلك السفن أن تغير اتجاهها ، ولم يفكر مرة واحدة ، على ما يبدو ، أن ينير مصابيحه . وكان يتذرع بالقول بأن الناقلات كانت لديها اساليب وقاية جيدة ، وان الله رؤوف بالعباد . وفي العادة ، كانت الرؤية جيدة دائما ، ويبدو أن حمداً كان يعتقد بأن الله سيحفظ المراكب العربية ، اما السفن البخارية فعليها أن تحافظ على نفسها ، وهذا ما كان يحصل بالفعل على أية حال .

مرت الأيام على ظهر مركبنا الكبير في أثناء الرحلة من عدن الى المكلا بكل يسر وأمان وجمال ، وقد وجدت أن من السهل أن أتعود على عدم الشعور بالوقت ، ونسيان كل ما يمت بصلة الى العالم المعاصر . وقد كان القرآن هو الكتاب الوحيد الموجود على ظهر المركب ، والذي كثيرا ما كان حمد ، وعبد الله أخو النوخذة ، والمسافران يقرآون فيه . وعندما كان حمد يصل في قراءته الى جزء جميل ، كان أحيانا يدعو جماعة صغيرة من البحارة ليجلسوا حوله ، ويستمعوا اليه يتلو عليهم بعض الآيات بصوته الجهوري ، ويرتلها ترتيلا جميلا . وكثيرا ما كانوا يتدارسون معنى ما يسمعون ، ويستغرقهم ذلك الساعات الطوال . وقد كان من الواضح انهم قانعون راضون تماما بهذا الكتاب ، ولا يملون من قراءته أبدا . وفي بعض الأحيان كان بعضهم يرتل القرآن الذي يحفظونه عن ظهر قلب . وفيما عدا ذلك ، فقد كانت الجماعة من النوع الصامت ، وكانوا دائما هادئين ، حتى اذا توفر عمل يقومون به ، فانهم يؤدونه وهم يهزجون بدون انقطاع . ففي بعض الأحيان كانت تمر ساعات طوال لا يسمع فيها صوت على ظهر المركب. لقد كان هذا نوعا جديدا من الملاحة بالنسبة لي . وقد ادهشتني بساطة النظام المتبع على المركب ، وهو نظام لا يحتاج الى مجهود كبير ، كما أعجبني جدا ذلك التناغم والوفاق والسعادة الدائمة التي كانوا يعملون في ظلها . وربما كان ذلك راجعا الى أنهم كانوا فقراء لا يملكون سوى القليل من الملبس ، وبعض البضائع التي كانوا سيتاجرون بها ، ولا شيء غير

ذلك ، أي أنهم في واقع الأمر لم يكونوا يملكون شيئا • وقد بدأت بعد فترة من الزمن أتساءل عما اذا لم تكن فكرة جيدة الا يمتلك المرء شيئا من حطام الدنيا على الاطلاق •

الا أن هذه الحياة السعيدة المثيرة توقفت فجأة في أحد الايام ، بعد أن كان قد مضى أسبوع على وجودنا في البحر ، وبعد أن كان قد استقر بي المقام • فقد وقع حادث لم أعلم له تفصيلا في وقته ، ولا أعلم ذلك الآن • ولكنه ، على كل حال ، حدث لي • وأعتقد أن شيئا ما قد سقط من عل وصدمني • أما كيف ولماذا ومن أين انفلت ذلك الشيء ، فليس لدى أدنى فكرة عن ذلك ، كما أن سؤالي عن ذلك فيما بعد ، لم يوضح الأمر • فلم يكن السؤال على ظهر المركب مستحبا ، ولم تكن الاجابة تكشف عن أية اسرار • فقد سألت مرة واجابني حمد بأن الله كان بي رؤوفا • وقد قدرت أن معنى تلك الاجابة اما أن الحادث كان من الممكن أن يكون أسوأ ، أو أنه لا يريد ان يبدو ناكرا لجميل الله العلي القدير لتوجيهه ضربة للكافر واعطاء عبرة للمؤمنين على ظهر المركب • ولكنني متأكد أن التفسير الاول هو التفسير الصحيح فلم يكن حمد ضيق الافق أو شديد التزمت • ومهما يكن من أمر ، فقد وقع الحادث ، ولا أذكر شيئا عنه ، سوى أنه أفقدني البصر لمدة اسبوع كامل ، وأصابني بالعرج لبضعة شهور • فما شعرت الا وقد دب صداع مخيف في رأسي ، وأني قد فقدت البصر • ولم أعد أرى شيئا أو أميز الليل من النهار • وليست لدى فكرة عن نوع الحوادث التي يمكن أن تسبب هذه الأعراض ، فقد كانت هذه أول تجربة لي من نوعها ، وكانت مزعجة للغاية • نقد وجدت نفسي مستلقيا في مكان ما داخل المركب على نوع من الخيش وتحت رأسي حقيبة هي بمثابة الوسادة • واذكر أني لم أصدق في البداية أني قد أصبت بالعمى ، بل حسبت أن الظلمة المحيطة بي كانت ظلمة جوف السفينة ، وكانت رأسي تؤلمني وعيناي تنبضان بالألم ، وكنت استطيع أن أسمع الجرذان السمينة تتراكض من حولي ، والصراصير تزحف مسرعة وتتطاير ، كما أن أصوات صرير المركب كانت تبدو لي في ذلك المكان غريبة وهادرة كالرعد • ولكن ما أزعجني فعلا خوفي من أن يكون العمى دائما ، لأني كنت أعرف خطر التهابات العيون في حياة العرب ، فقد كان العمى ونصف العمى شائعا بينهم ، لا ينظرون اليه كعاهة خطيرة ، ولكن ذلك كان بالنسبة لي عاهة كاملة • فاذا كنت أعمى ، فلا معنى لبقائي في المركب ، ولن يكون بوسعي أن ألاحظ ما لا أستطيع رؤيته •

لقد كان الألم شديدا جدا لدرجة أني لا بد أن أكون قد مررت بفترات من الهذيان والغياب التام عن الوعي ، فباستطاعتي أن أتذكر الآن أني كنت

أمر بفترات من الألم المتواصل تعقبها كوابيس مخيفة · ولكن الفكرة التي كانت تؤرقني ، وأنا في حالات الوعي ، أني ربما اضطررت الى التخلي عن مواصلة الرحلة ، وكان هذا أصعب علي من الخوف من العمى الدائم الذي كان يمكنني اعتباره ضربة من ضربات الحظ السيء · ولكنني كنت أفكر أيضا فيما اذا كان من المنطق أن أستمر طوال تلك المدة الطويلة أمارس نوعا من الحياة التي تكون المخاطر فيها كبيرة الى هذا الحد · فقد كنت اعتقد أني قد أصبحت متعودا على مشاق الحياة البحرية ، بعد أن عملت صيادا للحيتان في المنطقة القطبية الجنوبية ، وبعد أن درت مرة أو اثنتين حول رأس هورن (في جنوب أمريكا الجنوبية) · ولكن تبين لي أني كنت مخطئا في ذلك ·

لقد اتضح لي أني كنت في القمرة الكبيرة ، ذلك المكان الكريه المخيف· فقد كانت الرائحة كريهة ، حتى بعد أن أمضيت في نفس المكان بضعة أيام ، ولم يكن الهواء يتجدد ، بينما كانت الجرذان تجري هنا وهناك وأحيانا أسمع صوت عراكها · أما الصراصير السمينة ، الدهنية الملمس ، فقد كانت تتساقط علي من السقف وتجري على وجهي وتعبث بجسدي كله · وكان الجو حارا والهواء عفنا مخيفا · وكانت الرائحة العفنة ، المنبعثة من أشياء مخيفة لا حصر لها ، تملأ الهواء الساخن ، بينما تطلع روائح أخرى ، لا تقل قرفا ، من السمك المتعفن الفظيع ، وزيت السمك ، والماء الآسن المتجمع في جوف المركب · وكنت أرقد على قطعة من الخيش ملقاة فوق بعض البالات ، تحيط بها رزم غامضة المحتوى من كل ناحية تحتك بي فتغيظني بينما المركب يسير الهويني · ومن حين لآخر ، كنت أحاول أن أتحرك ، ولكن الألم كان يمزقني ، فلم أكن متعودا على الألم ، ولذلك لم يكن باستطاعتي ان أصبر على تجربة غير مفهومة ولا معنى لها · ولم تكن هنالك طريقة للتخلص من الألم في عيني ، وكنت أشعر وكان رأسي قد شق بمحراث ، بل كنت أحيانا أتمنى لو كان الأمر كذلك فحسب · فقد كنت أحس كأن عيني قد اجتثتا من محاجرهما ، وقلبتا على الجمر ، ثم اعيدتا الى مكانيهما · كما اني كنت أشعر كأن جسمي قد انتابته حمى خبيثة · وهكذا مرت الايام ثقيلة مخيفة ، تنتابني خلالها تلك الروائح الرهيبة دون انقطاع ، وعيناي لا تستطيعان الابصار ، والهواء ساكن مخنوق ، والحر على أسوأ ما يكون ·

لا أدري كم من الزمن مر علي وأنا في تلك الحجرة ، وقد قدرت أن يكون قد مر أسبوع على الأقل · فقد كنت أعرف تاريخ آخر شيء كتبته في مفكرتي اليومية ، ولكني لا أعرف التاريخ الذي شفيت فيه ، كما لم يكن

أحد على ظهر المركب يعرف تاريخا ولا يوما ، فلم يكن أحد يسمي الأيام بأسمائها ، بل كانوا يتركونها تمر بسلام ، دون أن يعيروها أي اهتمام • ومع أن حمداً قد خمن التاريخ الا ان تخمينه كان خاطئا ، ولم أكتشف أنا التاريخ الا بعد وصولي الى المكلا ، فقد كانت الأيام تمر ، يوم يعقبه يوم ، ولم يكن باستطاعتي أن أميز واحدا من الآخر • وكانت أصوات البحارة وهم يعملون في تغيير اتجاه المركب تصل الي في بعض الأحيان وأنا راقد في مكاني • فقد كانت تتناهى لي من بعيد ، وكأني في حلم ، وقع الأقدام المسرعة فوق رأسي ، وصوت الشراع وهو ينشر أو يطوى ، وصيحات البحارة وهم منهمكون في عملهم • وفي احدى المرات تمكنت من سماع أصوات أهازيجهم العميقة وهي تتردد مدة ساعة تقريبا • وأحيانا كنت أسمع صوت ماء البحر وهو يقاوم مرور المركب فيه ، بينما كان المركب في بعض الأحيان يقف ساكنا بلا حراك ، فأنا ما كنت أحس بأية حركة حيث أرقد ، سوى بقبقة خفيفة ناتجة عن ملامسة ماء البحر لهيكل المركب • وفي تلك الفترات كان كل شيء ساكنا تماما ، كان البحارة قد هجروا المركب وتركوني عليه وحيدا ــ وحيدا مع الجرذان ، والروائح المخيفة ، والصراصير والحشرات البائسة الاخرى المتراكضة من حولي • لقد مرت بي أيام عصيبة حقا •

ولكن الأيام كانت تمر ، وأخذ الألم ، حتى الذي في عيني ، يخف تدريجيا • وقد أحسست براحة هائلة ، وأنا اشعر أخيرا بأن عيني تحاولان الانفتاح ، وبأن باستطاعتي أن انظر من حولي الى ذلك الوكر ، الكريه الرائحة الذي سلخت فيه أياما ، لا يعلم عددها الا الله • ومع أني لم أكن بعد قادرا على الرؤية الكاملة أو الصحيحة ، فقد كنت أنظر حولي بحنان وعاطفة جياشة حتى الى تلك الصناديق العفنة ، والى السمك المجفف الفظيع الذي كان يحيط بي ، وأعجب كل العجب أين كانت كل تلك الجرذان تتراكض • وقد استطعت أن أشاهد أضخم صراصير رأيتها في حياتي وهي تتراكض ــ عفوا فأنا لا أقصد ذلك تماما ، فلم يكن بامكان مثل تلك الحشرات السمينة الكسولة أن تتحرك بأية سرعة تشبه الركض ، بل كانت تتجول في المكان بكل لكاعة وبطء وكأنه ملكها الخاص •

ثم ••• كان هناك يوسف العجوز ، يوسف الشيرازي ، يوسف ذلك النذل العجوز ، الذي تبينت أنه كان يعنى بشأني خلال تلك المحنة ، يوسف الأشيب ، يوسف الشرير التائب الذي كان ، على ما يبدو ، يقوم بوظائف عديدة فيعمل دليلا ، وأمينا للمخزن ، ومضيفا ، وخادما خاصا للنوخذة • فاذا صادف أن احتجت اليه وطلبته ، لم أجده ، اما اذا لم أكن بحاجة اليه ،

فهو دائما هناك ، واذا حدث أن غفوت ، وجدته يصيح في اذني بالطبع ·
اذا ها هو هناك ، ذلك الاحمق العجوز الكثير الخطأ ، الحسن النية ، استطيع أن أراه أخيرا ، وهو مقرفص على كعبي قدميه اللذين أصبحا كالقرون صلابة ، متعب بلا شك ، الا أنه متيقظ وحزين · ها هو يوسف اذاً ، يوسف بقدميه المتحجرتين الممدوتين على وسادتي ، كائنة ما كانت ، ينظر الي بعينيه الكليلتين · والحق يقال ، أن يوسف قد عني بي عناية جيدة خلال تلك الأيام العصيبة ، وأصبحت أنظر اليه الآن بشيء من الحب · وقد كنت قد أحسست منذ البداية بنوع من الميل نحو هذا العجوز ذي الوجه اللطيف ، مع أنه لم يفعل شيئا يخطب به ودي · فقد كان عجوزا هادىء الطباع ، ينتمي الى أسرة شيرازية فقيرة تعيش في الكويت ، أي أنه كان من أصل ايراني ، الا انه ترعرع في الجزيرة العربية ، حيث كان أبواه قد هربا من ايران سخطا على بعض الأوامر الملكية · وقد كان من الواضح أن يوسف قد أصيب بالارتباك عندما طلب منه أن يقوم بمهمة العناية بأوروبي مصاب ، ولكن لا شك أنه قد بذل كل ما يستطيع · فقد كان يأتيني ثلاث مرات في اليوم ، ويقدم لي ما لذ وطاب من الطعام ـ مما لم ارغب فيه ـ مثل عصعص سمين لخروف مذبوح في بربرة منذ مدة طويلة ، وأطباق مرق الدال المملوء بالفلفل الحار ومخلل الليمون ، ومثل أكوام الأرز المسلوق المغطى بالدهن الكويتي · وقد كنت اطلب منه أن يحتفظ ببعض تلك الأشياء لنفسه ، ولكنه كان دائما يأبى علي ذلك · وكنت أتحدث معه أحيانا ، على صعوبة الحديث بلغة عربية ركيكة لا أعرف سواها وتبعد كل البعد عن أية لهجة عربية ، كما أن اللغات الفارسية والسواحلية والهندية ، التى كان يمكن أن يتكلم بها يوسف ، لم تكن ذات نفع بالنسبة لي · ومع كل ذلك فقد ثبت أنه كان انسانا عظيما ، وقد سرني جدا أن أتمكن من رؤيته ثانية ·

وحالما تأكدت أن باستطاعتي الابصار ثانية همست ليوسف طالبا منه أن يبعد بي عن ذلك المكان ، ويأخذني الى سطح المركب ، حيث يمكنني التمتع بالهواء النقي · الا أن يوسف أجاب بأن المكان الذي كنت فيه جيد · فكان يقول « هنا طيب ، هنا طيب » وقد استطعت أن أفهم ذلك منه ·

ولكن المكان لم يكن كذلك بالنسبة لي · وبعد فترة تمكنت من تسلق السلم العامودي والصعود الى سطح السفينة ، بمساعدة يوسف ، وزايد البحار الزنجي صاحب المنكبين العريضين جدا والجسم الرياضي الجميل الذي يحسده عليه أي رياضي ، وحمد بن سالم ، وسعيد التاجر المكحل العينين الذي شبهته سابقا بالسندباد · يا الهي ! ما أطيب الهواء عندما

أستنشقه لأول مرة بعد تلك الايام الكئيبة ! كانت عيناي لا تزالان غائمتين، كما أن رأسي كانت تدور ، الا أن الهواء كان رائعا ٠ وكنت أحس بشكل غامض بهيئة الشراع المنشور فوق رأسي ، فقد كانت هناك ريح مؤاتية ، وكان لأصوات المركب وهو يشق عباب الماء وقع الموسيقى في أذني ٠ وقد استيقنت أني سأبصر ثانية ، وأن بامكاني أن أبقى في المركب ٠ وقد بدا لى سطح المركب ، المغطى بجميع انواع الاقذار ، نظيفا وجميلا وخاليا من الاوساخ ، وفي ظل الشراع ، بدا لي البحارة السمر كانهم آلهة في مقتبل العمر يرتدون الجلابيب ٠

مضت مدة طويلة قبل أن أستعيد قوتي ، وأتمكن من المشي بشكل طبيعي مرة ثانية ، وكنت خلال تلك الايام الرهيبة التي أمضيتها في القمرة قد فقدت ثلاثين رطلا من وزني ٠ على أية حال ، فقد انتهى هذا كله الآن ٠ لقد رحت أفكر ، وأقول في نفسي اني ، ما دمت قد أصبت بهذا الحادث الخطير في الأسبوع الاول من الرحلة ، فقد نلت ، بموجب قانون المعدلات أو قانون الاحتمالات ، نصيبي من مصائب الرحلة ٠ وقد حصل هذا بالفعل ٠ فبعد الذي أصابني هنا ، لم أصب بالملاريا حتى في دلتا الروفيجي ، كما أن جسمي استطاع أن يعيش ويترعرع على الماء المجلوب من مستنقعات كينيا الآسنة ٠ لقد كان الجميع ، من حمد بن سالم حتى أصغر بحار ، في منتهى الطيبة معي في أثناء مرضي ٠ وقد كنت أشعر بالحرج ، وأنا أعرج ، وأتنقل بصعوبة حتى بعد أن زال عني العمى ٠ ولكن البحارة ، على ما يبدو ، لم يكن يهمهم أن يفرض كسيح عليهم ، فقد كانوا جميعا يمدون لي يد المساعدة ، اذا احتجت اليها ، وكان يوسف العجوز دائما على أهبة الاستعداد للمساعدة ٠ وقد كنت أستلقي على سجادة في مكاني المعهود على السدة وكان البحارة عندما يصعدون الى مؤخرة المركب صباحا ومساء ليؤدوا التحية ، يضيفون بضع كلمات تفيد أن الله كان رحيما بي في أثناء مرضي ، وقد كانت تلك الكلمات عبارات مواساة صادقة صادرة من القلب ، وكنت أشعر بالراحة عند سماعها ٠ وقد تمكنت بمساعدة الشمس والهواء ، أن أستعيد صحتي تدريجيا ، وان لم أستطع أن أسترد كثيرا من وزني الذي فقدته الا بعد مدة طويلة ٠ لقد كانت تجربة مثيرة ، وبخاصة عندما أنظر اليها الآن بعد الخلاص منها ، ولكنني أكره أن أمر بها ثانية ٠

عندما تمكنت بعد مرضي من الصعود الى سطح المركب ثانية ، وجدت أن المركب كان على مقربة من « رأس الكلب » ، قريبا جدا من شاطىء حضرموت ، وكنا نسير بالقرب من بعض الجزر غير المستوية ، التي كانت

قمة احداها مغطاة تماما بذرق الطيور البحرية · لقد كنا قريبين جدا من الشاطىء لدرجة أن حمداً اضطر لايقاف المركب والرسو ، عندما تغير اتجاه المد ، حيث بقينا بدون حراك بقية ذلك اليوم ، ولم يكن يسمع نفس أو حركة ، وخلفنا ، على مسافة منا ، كان بوم القطامي يرسو أيضا ، وقد لف شراعه الكبير حول العارضة التى كانت ــ كما هو الحال فى مركبنا ــ تمتد متعارضة مع الصاري الرئيسي · الا أني لم أستطع رؤية البغلة الفارسية · وعندما استفسرت عن ذلك من حمد ، كان جوابه الوحيد ان الله رؤوف رحيم · لقد كنت أنظر الى الخلف ، بينما كان هو ينظر الى الامام ، وقد فهمت من ذلك موقع البغلة ، فقد كانت أخف منا حملا ، ولذلك لا بد انها قد سبقتنا ·

في صباح اليوم التالي ، ومع أول نسمة من الهواء ، عاودنا سيرنا الهادىء باتجاه المكلا ، ولم نكن ، طوال بقية الرحلة الى المكلا ، نبعد اكثر من مرمى الحجر عن شاطىء حضرموت · وعلى الرغم من أن الشمس كانت تحرق ذلك الشاطىء ، وانه كان خاليا من الحياة النباتية ، الا أنه كان شاطئا لا يعوزه الجمال ، بل كان أحيانا يبدو في غاية الروعة عند الفجر ، وعند الشفق · ولم نكن نبعد عن الشاطىء الا عندما يشتد الهواء قليلا ، ولكنا كنا نعود بسرعة ونتابع سيرنا بمحاذاة الشاطىء · وفي بعض الاحيان ، عندما كانت الريح تموت ويكون المد غير مؤات ، كنا ننزل المرساة ونتوقف بضع ساعات من غير أن ننزل الشراع · وقد كانت الظروف حسنة بوجه الاجمال ، فيما عدا الريح المقابلة لنا التي لم تكن تكف عن الهبوب ، وكان حمد يقود المركب بعكس الريح ، مستفيدا من اتجاه الريح التي تهب على البر ، ولا شك أنه كان حكيما في ذلك ، لأنه لو كان قد أبعد المركب عن البر ، وأخرجه الى خليج عدن لكنا خسرنا اكثر مما كسبنا · فقد كان اتجاه الريح هناك دائما الى الغرب ، بسبب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية · وقد كان واضحا أن حمداً يعرف تلك المياه ، ويعرف كيف يتصرف فيها ·

وقد حدث أن غيرنا اتجاهنا مرة ، وهي المرة الوحيدة التي رأيت فيها البوم الكبير يغير اتجاهه كلية ، بحيث تصبح مقدمته بعكس الريح تماما · ولم يكن حمد ليفعل ذلك أبدا ، لو لم يكن المد قد هجم عليه بشكل مفاجىء دافعا المركب نحو الشاطىء ، الذي كان يبرز منه لسان طويل ضحل كأنه بقايا مصب نهر جاف · لقد كنا قريبين جدا من ذلك الشاطىء ، وكان المركب متوجها نحوه ، ولم يكن هناك الوقت أو المساحة اللازمان لادارة المركب بالطريقة العادية ، لأننا لو كنا استغنينا عن الريح ، لكنا حتما قد اتجهنا الى الشاطىء · وقد كنت سعيدا بعودتي الى ظهر المركب ثانية ،

واستعادتي لبصري ، لكي أرى كيف سيعمل حمد على تغيير اتجاهه في مثل هذا الموقف • وقد تصرف هذا بهدوء (وان لم يكن دائما يحافظ على هدوئه) ، فأصدر أمرا بصوت خافت ، كرره مدير الدفة بصوت عال • وفي الحال كان جميع البحارة في مراكزهم ، وكان كل منهم يعرف مركزه عند ادارة المركب ، وكذلك عند تغيير اتجاهه • ثم أنزل شراع الغلمي بسرعة ، وبعد ذلك ، وباشارة من رأس حمد ، الذي كان يقف في أحد القوارب ، أديرت الدفة بهدوء • وفي ذلك الوقت ، كنا قد اصبحنا على وشك الاصطدام بالشاطيء ، فقد أصبحنا في الماء الضحل جدا ، نستطيع أن نرى رمل القاع الذي لا يكاد يفصله شيء عن أسفل المركب • الا أن المركب استجاب للدفة استجابة ممتازة ، وأثبت الشراع الكبير المثلث الشكل انه شراع ممتاز • فقد استدار المركب على عقبيه وابتعد عن الشاطيء ، على الرغم من أن الشراع الكبير كان مواجها للهواء المضاد •

لقد كانت لحظة حرجة بالفعل ، لأنه لو أمتلأ الشراع بالهواء المضاد ، لكانت في ذلك نهاية المركب ، ولكن ذلك لم يحصل ، فقد استجاب المركب استجابة طيبة ، واستدار بكل رشاقة ، على الرغم من أن التعامل مع الشراع الرئيسي الذي قلب اتجاهه ، وتغيير اتجاه العارضة من الوضع الأفقي الى الوضع العمودي ، مع توافر كل ذلك الضغط من الريح التي تحاول أن تكسره ، من العمليات المتناهية في الصعوبة • فقد كان الشراع الرئيسي ، مثله في ذلك مثل جميع الاشرعة العربية الأخرى لا تتصل به معدات وحبال ثابتة ، ولذلك فقد كان يلتف كما اتفق على شكل طيات ضخمة ، على المساحة الواقعة بين العارضة والصاري ، ويحاول جاهدا أن تعلق اطرافه بالحبال والبكرات والمعدات الأخرى عند نشره • ولذلك فقد كان البحارة يجدون صعوبة كبيرة في نشره من ذلك الوضع غير المناسب • وعندما كانوا يفعلون ذلك ، كانوا يواصلون الغناء والهزج بشكل وحشي وبدون توقف ، بينما الشراع يرتفع ، والصاري يصر ، والعارضة تتمايل ، وأصوات الأمواج القريبة المتصلة تنذر بشر مستطير • وقد خشيت أن تنكسر العارضة ، لأن ضغط الريح كان كله مسلطا عليها ، بسبب وضع الشراع في الخلف ، كما كان من الممكن أن يسقط الصاري بكل سهولة • لقد كانت عملية ملاحية في غاية التعقيد والخطورة ، ولم يكن باستطاعة أي شيء ، سوى القوة البشرية المجردة ، أن تضع ذلك الشراع الرئيسي تحت سيطرة الانسان مرة ثانية • فقد كان الشراع مكونا من قطعة من القماش القطني القوي ، يبلغ ارتفاعها ١٣٠ قدما ، وطول جزئها الأمامي أكثر من ٩٠ قدما ، وعرضها من الأسفل مائة قدم ، أي أن مساحة الشراع كانت تزيد عن ستة آلاف قدم مربع • لقد كان شراعا هائلا • كيف لا ، وهو الشراع الوحيد

الذي ينتظر منه أن يسير مركبا حمولته تزيد عن مائة وخمسين طنا • وقد كنت سعيدا في تلك اللحظة الحرجة بأن يكون لدينا ذلك العدد الهائل من البحارة ، فقد كنا بحاجة لكل فرد منهم • فلم يكن باستطاعة اي شيء مقاومة تلك القطعة الجبارة الهائجة من القماش ووضعها تحت السيطرة مرة ثانية ، الا تلك القوة العارمة الجامحة التي واجهها بها البحارة • ومما زاد الأمر صعوبة أن ذلك كان يجب أن يتم بمنتهى الحرص والهدوء ، لئلا ينشق الشراع من أماكن الوصل الضعيفة ، فيضطر البحارة لترك المركب في ذلك الموقف الخطر من غير شراع صالح للعمل(١) •

لقد كان عملا ممتازا ، وقد سرني أن أشهده ، ولكنني لم أعد أستغرب لماذا لم نغير اتجاهنا مرة اخرى • فقد بدأت أتفهم عزوف العرب عن ادارة المركب بعكس اتجاه الريح ، كما بدأت اعتقد ان الشراع المثلث لا يصلح الا للرياح الخفيفة ، وهي الطريقة التي كان العرب يستعملونه بها ، لأن المراكب التي تسير بمثل هذا الشراع لا تستطيع أن تمخر في البحار ، الا اذا كانت الرياح من نوع هذه الرياح الموسمية(٢) •

وصلنا المكلا في ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي ، وقد مضى علينا بموجب أدق حساباتي ، اثنا عشر يوما في البحر ، وكنت خلال تلك الفترة قد طاب لي المقام على ظهر المركب ، وكان هذا من حسن حظي ، لأننا لم نستمتع ثانية برحلة هادئة كهذه لمدة أشهر تالية • وكان نجدي أول من رآينا ، فقد كان ينتظرنا على الرصيف ، وبصحبته أشرس مجموعة من العرب الذين رأيتهم في حياتي •

---

(١) يبدو من هذا الكلام كأنه ليس في المركب غير شراع واحد ، بينما الواقع أن بكل مركب ثلاثة اشرعة للصارى الكبير : شراع كبير يطلق عليه باللهجة الكويتية اسم « العود » ، واخر متوسط يسمى « الغديرة » ، وثالث صغير ويطلق عليه اسم « التركيت » • هذا علاوة عن شراعين للصارى الصغير أيضا • (المترجم ــ عن احمد البشر الرومي) •

(٢) لقد اعترف المؤلف نفسه في بداية هذا الكتاب بان الشراع المثلث صالح لجميع الرياح ، وعلى الاخص باتجاه عين الريح (المترجم) •

الفصل الثالث

على ساحل حضرموت

على ساحل حضرموت

تبدو المكلا لأول وهلة مكانا رومانسيا رائعا ، وهي — بعد عدن التي طبعها البريطانيون بطابعهم ، والأماكن الواقعة على البحر الاحمر التي ليس فيها شيء من الجمال — تعطي صورة كاملة عما يتوقع المرء من المرفأ العربي أن يكون الى الحد الذي يصعب تصديقه • ولكن ما أن ينـزل المـرء الـى الشاطىء ، حتى تنقلب الصورة ويبدو المرفأ أسوأ مما كان الانسان يتصوره • وبلدة المكلا اليوم ، كما كانت دائما ، هي المرفأ الرئيسي في حضرموت ، وهي ملتقى التجار من أماكن عدة ، وهي المكان الذي يبدأ الحضرمي الجوال رحلته منه قاصدا جاوا والهند وافريقيا ، وهي المكان الذي اليه يعود فـي خاتمة المطاف • وقد كان الحضرمي دائما كثير التجوال ، يغادر بلاده القاحلة ويطرف في أرجاء المعمورة ليحصل على قليل من المال ، ثم يقفل عائدا الى بلده لينفقه فيها • وما كان سبب ذهابنا الى حضرموت الا جمع اكبر عـدد ممكن من هؤلاء الجوالة واخذهم ركابا على مركبنا ، لأن بعضهم ما زال يبحر على متن المراكب الشراعية الى افريقيا والهند ، مع أن معظمهم أصبح في هذه الايام يفضل السفر على سطح احدى السفن البخارية الى جاوا وجزر الهند الشرقية ، وخاصة في السفن الهولندية التي كانت تمر بالمكلا بانتظام لتحمل هؤلاء الركاب •

ومرفأ المكلا مكان ممتع بمبانيه البيضاء التي تبدو كأنها تصارع بوجل لتحتفظ بموطىء قدم فيما بين جبال حضرموت العظيمة والبحـر • وحـول الواجهة البحرية للخليج الصغير المكشوف تتكدس الأبنية قوية وعالية وبادية الازدهار ، تبرز من بينها مآذن المساجد هنا وهناك • الا أن الأبنية التـي تبتعد عن الميناء مسافة ليست بالطويلة ، تبدو داكنة ومتهدمة وهي تقاوم الزوال من على سفوح جبال حضرموت الشديدة الانحدار • انها تلك الجبال الـتي تلفت النظـر أكثـر من البلـدة نفسـها ، تلك الجبـال العابسـة بحصـونها ذات البـروج البيضـاء الـتي لـم تعـد تستعمل الآن • وربمـا كـان السبب الاسـاسي لوجـود المرفأ في ذلك المكان هو امكانية الدفاع عنه عن طريق الحصون الجبلية اذا ما هوجم من الخلف • فالجبل يشرف من عل على البلدة ، كأنما تراوده فكرة دفعها دفعة واحدة الى البحر ، وهو مايستطيع أن يفعله ، لو هز كتفيه هزة خفيفة • فانه بحجمه الهائل

وقربه المخيف من المباني ـ يبدو لأول وهلة كأنه يهدد ما تحته من البيوت، خاصة وأن كتل الصخر الهائلة موجودة في الأودية وكأنها تنتظر الأمر بالتدحرج . ويستطيع المرء فعلا أن يرى هنا وهناك أماكن انزلاق بعض تلك الصخور ، وأن يتصور ما حدث للمباني التي صادف أن كانت في طريقها . وفي الواقع أني لو كنت أسكن المكلا ، لكنت ارتعدت فرقا من رؤية الأمطار الغزيرة .

والميناء نفسه مكان ممتع . كما أن الخليج نفسه هادىء ما دامت الريح تهب من الشمال الشرقي . أما الرياح الجنوبية الغربية ، فانها تهب على الخليج مباشرة ، وعندها يتعذر الاحتماء فيه . وعندما وصلنا ، كان هناك ما يقارب عشرين مركبا عربيا واقفا ازاء المرسى ، كما كان غيرها على الشاطىء . وفي مكان صغير محمي يقع في شرق المدينة ، كان على الشاطىء حوض لبناء السفن . وهنا وجدنا بعض الصناع يبنون سمبوكين كبيرين من ذوات المؤخرات المربعة الجميلة . ومن الواضح أن صانع المراكب الحضرمي يحب أن يزين مراكبه ، فقد كانت مؤخرات بعض السمابك الواقعة على الشاطىء أو في المرسى محفورة ومزخرفة بالألوان . وكانت الزخرفة في العادة تتألف من عدة صفوف من الأشكال الهندسية ، كالمثلثات والنجوم والأهلّة المرسومة بالألوان الزرقاء والحمراء والخضراء ، والمزدانة بآيات مناسبة من القرآن الكريم محفورة على جانبي المؤخرة . وفي كثير من تلك المراكب كنا نرى صفين من النوافذ المزينة ، محفورة ومدهونة بالطلاء على جانبي المركب ، صفا على كل جانب . ولكي تبدو كأنها نوافذ حقيقية ، فقد رسمت عليها ستائر نصف مفتوحة أيضا ، وكان هذا التصميم شائعا جدا . وفي بعض المراكب كان هناك صفان من النوافذ مرسومان على المؤخرة ، بالاضافة الى الجانبين . كما كان كثير منها أيضا قد طليت مؤخرته كلها بالألوان الزاهية من مستوى سطح الماء حتى سطح المركب . وقد كان أثر تلك الزخارف كبيرا في بعض الأحيان ، خاصة عندما تنعكس صور تلك المؤخرات الجميلة وتتلألأ على سطح الماء الأزرق . كما كانت هياكل المراكب ، المغمورة بالماء ، والحديثة الطلاء بالجير الابيض ، تسطع ، وأجسامها غير المزخرفة ، تلمع من كثرة الدهن الذي يكسوها . وعلى وجه الاجمال ، كان منظر المراكب جميلا . كما كانت هناك أيضا بعض السمابك العدنية القديمة وهي تحمل العلم الايطالي ، ويقودها بحارة صوماليون ضخام الأجسام يصحبهم عدد من الفتيان .

لقد كان في أولئك البحارة الصوماليين جفاء وغلظة لا تجدهما لدى العرب ، وكان الجميع يحاولون تجنبهم . حتى أولئك الرجال ، الذين كانوا

يتنقلون في الميناء بقواربهم الصغيرة يبيعون الفاكهة والتمر للمراكب ، كانوا يخشون الاقتراب من سمابك الصوماليين • وكان هؤلاء طوال القامة جدا تغطي رؤوسهم جدائل من الشعر المحنّى ، ويرتدون وزرات طويلة جدا ، ويلقون على اكتافهم قطعا غير مخاطة من الخام عندما كانوا ينزلون الى البر • وهناك كانوا يختالون في مشيتهم ، مزهوين بأنفسهم الى حد كبير ، كأنهم سعداء قانعون بنصيبهم من الحياة •

وفي الميناء كانت هناك أنواع غريبة أخرى من المراكب تضم ، فيما تضم ، بعض المراكب الصغيرة الآتية من سيحوت ، ومن مرافىء أخرى على ساحل المهرة • وكانت هذه المراكب واطئة ، طويلة ، مقدماتهـــا مائلـــة ومنخفضة جدا ، وصواريها تميل اكثر من اي صارية رأيتها من قبل • وقد أخبرني حمد بأن تلك المراكب سريعة جدا ، ومع أن أكبرها لا يزيد طوله عن الاربعين قدما ، الا أنها كانت تسافر الى زنجبار • وقد كانت هناك مراكب أخرى ، يقودها رجال متجهمون يرتدون القمصان الغامقة ، ويضعون على رؤوسهم العمامات الصورية الكبيرة • وكانت لتلك المراكب مقدمات مستقيمة ، ومؤخرات على شكل أكباش ، وصوار عامودية عالية • وقـد أخبرني حمد بأن هذه المراكب هي من نوع « البدن » • وعلى الرغم من كونها صغيرة جدا ، لا تبدو صالحة للسفر في البحر ، الا أنها ، بحسب قول حمد ، كانت تسافر الى زنجبار أيضا •

لقد كان الميناء طيلة الوقت جميلا ومسليا • ولكني بدأت ، بعد مضي بضعة أيام ، أتساءل ما الذي أتى بنا الى هنا • ففي اليوم الأول ، جلب نجدي معه حفنة من البدو الغلاظ ، ذوي الوجوه القاسية ، كانوا يرتدون الملابس السوداء ، وقد طلوا أجسادهم وأيديهم وأرجلهم باللون الأزرق القاتم ، ليحميهم ، من الحرارة والبرودة على حد سواء • وقد كـان هـذا الاعتقاد يمنحهم شيئا من الشعور بالراحة ، لأنهم في واقع الأمر لم يكونوا يرتدون من الملابس الا النزر اليسير • وكان كل من هؤلاء الرجال مسلحا بخنجر كبير معكوف ، في غمد من الفضة ، مربوط حول وسطه دون السرة • وفي نفس الحزام الذي ثبت فيه الخنجر ، كان الرجل على ما يظهر ، يحمل بقية أمتعته الدنيوية • فعلى جانب الخنجر الكبير ، كان هناك أيضا ما أرجح أنه سكين آخر ــ أصغر حجما ، لعله يستعمل للقضاء على الضحية نهائيا بعد طعنها بالخنجر ، أو لأعمال أخرى ، كصنع قصبة للعزف عليها مثلا ــ ، وفي مكان آخر من الحزام كانت هناك جيب للنقود والطباق • وكان هؤلاء البدو يسيرون عراة الرؤوس ، وشعر رؤوسهم طويل ومدهون بكثير من الزبد ،

كما انهم كانوا حفاة الاقدام أيضا ٠ أما أجسامهم ، فقد كانت نحيلة ومعروقة ولكنها نشطة ، خفيفة الحركة ، وكانوا دائما متيقظين ، وعيونهم شديدة الملاحظة ٠ وعندما صعدوا الى ظهر المركب مع نجدي ، الذي كان يختلف عنهم اختلافا يدعو للعجب (مع أنه كان متحدرا من نفس القبائل البدوية التي تعيش في صحراء نجد) أخذوا يتراكضون هنا وهناك على سطح المركب كالأطفال ٠ وقد لاحظت أنهم كانوا يتفرجون على المركب ، كما لاحظت أنهم كانوا معجبين جدا به ، وكأنهم على ظهر سفينة بخارية عابرة للمحيطات ٠ وقد كان هؤلاء ، على ما يبدو ، هم الركاب الذين يريد نجدي أن يصحبهم معه ٠ وكان بينهم رجل ضئيل الحجم ، جميل الطلعة ، قال حمد انه زعيم قبيلة من قبائل الداخل ٠ وقد سمعتهم يقولون ، بطريقة عابرة جدا ، ان هذا الزعيم كان ينظر في أمر الهجرة مع قبيلته الى أفريقيا ، ولكني ما زلت لا أصدق أننا يمكن أن نحمل قبيلة كاملة على مركبنا ٠ وكان هذا الزعيم يصعد الى ظهر المركب عدة مرات ، وفي كل مرة كان يدور هنا وهناك ، ويتفحص كل شيء ، ويبدو أنه هو والآخرون قد أعجبوا بسعة المركب ، ولم يكونوا يعيرون الأمور الأخرى ، كالتجهيزات وتخصيص الاماكن وغير ذلك ، أي اهتمام ٠ فقد كان كل ما يهمهم هو الحجم ، وكان حجم المركب بالنسبة لهم كبيرا جدا ٠

ولكن ما أدهشني وحيرني جدا هو ذلك الوقت الذي كانوا جميعا يقضونه في القمرة الكبيرة الفظيعة ، لأنهم لم يكونوا ينسون أن يمعنوا النظر فيها ، حتى لو لم يتفقدوا أي مكان آخر في المركب ، بينما كان يوسف الشيرازي يتغنى بمزاياها العظيمة ٠ وكانوا ينزلون اليها من الباب الكائن على الجزء الايسر من السطح ، ثم ما يلبثون أن يخرجوا منها وهم يدندنون بكلمة « طيب » التي كانت تعني ، على ما يبدو ، أن المكان حسن جدا ٠ وعندما كنت أسأل يوسف العجوز ، عما يجدونه حسنا في ذلك المكان ، وماذا يريد البدو منه ، وعما اذا كانوا سيشحنون بعض البضاعة فيه ، كان يوسف لا يجيب الا بكلمات عن رحمة الله التي وسعت كل شيء — وهي كلمات لم أفهم مناسبتها للمقام حينئذ ٠ وان كنت عرفت ذلك فيما بعد ٠ فقد تبين لي اننا سنحصل بالتأكيد على « حمولة » من نوع ما ، تملأ تلك القمرة ، وان رحمة الله كلها ستكون ضرورية للتخفيف من أوضاع تلك الحمولة ٠ وفي احدى المرات التقطت اشارة سريعة من يوسف تنم عن نوع الحمولة ، ولو كنت أعرف مزيدا من اللغة العربية لفهمت السر ٠ فقد ذكر شيئا عن « بنت » أو « بنات » ٠ وقد عجبت لذلك جدا ٠ ماذا يعني يا ترى ؟ هل يمكن أن يقصد أننا سنحمل على المركب بنات ! نساء ! (فحتى في استراليا ، كلمة « بنت » تعني « فتاة ») ٠ ولكني كذبت ما سمعت ٠ فمن المؤكد أن المراكب

العربية لا تحمل النساء أبدا ، لأن العرب المهاجرين الى بلدان أخرى لا يصحبون نساءهم معهم ، وقد أكدت ذلك جميع الكتب التي كنت قد قرأتها عنهم • ولكني ، عندما حاولت الاستفسار عن ذلك من يوسف ، لم أنل منه سوى تكرار لايمانه برحمة الله الواسعة • أما حمد ، فلم يحر جوابا على استفساري ، حتى عندما كان البحارة ينظفون القمرة الكبيرة • ولا أقصد أن أقول طبعا بأن القمرة كانت تنظف بالفعل • بل كل ما في الامر أن بعض ما فيها من متاع كان يرفع منها ، ويلقى به في القمرة الصغيرة الاخرى الواقعة خلفها ، وبهذا انتهت عملية التنظيف • وعندما انتهى تفريغ القمرة جزئيا بهذا الشكل ، أصبحت هناك ساحة في وسط القمرة لا تزيد عن ثمانين قدما مربعا •

وفي اثناء ذلك كله ، كان نجدي لا يأتي الى المركب الا لحضور الولائم ، التي كانت تقام واحدة منها كل يومين • ولم نكن نحن نعمل شيئا ، سوى المشاركة في تلك الولائم ، والانتظار في المركب الواقف في المرسى ، فلم يكن شيء جديد يحدث عليه • وقد راقت لي تلك الحياة الهانئة ، كما لا بد أن تروق لأي انسان اخر ليس لديه أية مهمة ينتظر منه أن يقوم بها • فعند ظهيرة كل يوم كان يقدم لنا خروف مطبوخ نتغداه ، فنجعل من تلك المناسبة وليمة • وكان اعداد ذلك أمرا سهلا • فقد كان عبد الله ، أخو النوخذة ، ينزل الى البر في الليلة السابقة ليشتري خروفا صوماليا سمينا ، أو معزاة حضرمية هزيلة ، تمضي الليلة وهي تثغو على رأس السلوقية في مقدمة المركب ، ثم تذبح في فجر اليوم التالي • والظاهر أن الجميع كانوا خبراء في أعمال الجزارة ، فقد كانوا يقطعون عنق الخروف بكفاءة وحماس ، ثم يسلخونه ويضعونه كاملا في القدر • وكان القدر شبيها بتلك الآنية الضخمة المستديرة السوداء ، التي صورتها الحكايات والأساطير آنية تستعمل لسلق المبشرين في مجاهل افريقيا ، وفي الجزر النائية الواقعة في البحار الجنوبية • وفي هذا القدر ، الذي يغلي ماؤه على نار الحطب التي يشعلها جاسم ، كان يلقى بالذبيحة كما هي ، فيما عدا بعض القطع التي تعتبر من أطايب اللحم ، والتي كانت تؤخذ منها وتوزع على آنية صغيرة أخرى ، توضع على مواقد صغيرة • وفي مثل هذه المناسبات كان باستطاعة جاسم أن ينظم خمس مواقد في داخل صندوقه الصغير ، بل كان باستطاعته أن يصنع الأعاجيب لاعداد الوليمة ، وقد كانت العناصر الرئيسية التي تتكون منها الوليمة واحدة دائما ، وهي الأرز ولحم الماعز أو الغنم • وكان الأرز يطيَّب أحيانا بالزبيب ، كما كان لحم الفراخ يقدم أحيانا لفتح الشهية • وكان البطيخ يقدم فاكهة بعد الاكل ، لأنه كان متوافرا بكثرة في المكلا ، وكان العرب يحبونه حبا جما • وعندما يصبح كل شيء جاهزا ، كان

يوسف يحضر بضع سجادات عجمية من مكان ما في أسفل المركب ، ويبسطها على مؤخرة المركب بأكملها ، ثم يضع في وسطها سماطا صوماليا من الحصير المزخرف ، ثم يأتي مديرو الدفة باللحم والأرز والأطايب المتنوعة • وفي أثناء ذلك يتوافد الأغراب على ظهر المركب زمرا زمرا •

كان نجدي يقيم الولائم العامرة ، بل كان ، في نظري ، مسرفا في كرمه • لقد كان جميع النواخذة الموجودين في الميناء بأكمله ، وجميع موظفي الميناء ، وجميع سماسرة الركاب ونصف زبائنهم ، ومجموعة من الصوريين والمهرة ، وأحد الأشراف اليمنيين ، الذي كان يفكر في السفر الى الكونغو ليجمع بعض ماله من ديون هناك ، وكتبة الجمارك والتجار — لقد كان جميع هؤلاء يتكدسون على ظهر المركب ، حتى يصبح المكان كأنه نادى الروتاري(١) • وكانت الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يجلس جميعهم فيها حول أطباق الطعام أن يجلسوا بانحراف ، كشرائح السردين المعلبة ، بحيث يكون الكتف الأيمن لكل منهم مواجها للطعام ، واليد اليمنى تعمل عملها في الطعام ، فلم يكن هناك متسع لأي منهم لأن يجلس متربعا وينال شيئا من الطعام • أما الجزء المفضل من الذبيحة في مثل تلك الولائم ، فقد كـان الرأس دائما ، وكان هذا يوضع على طبق الأرز القريب من نجدي • وقبل أن توشك الوليمة على الانتهاء ، كان نجدي يمد يده بغير اكتراث ، فيتناول الرأس ، ويعمل كلتا يديه في الجمجمة ، فينتزع العينين واللسان ، ثم يدقها على سطح السفينة فيكسرها ليخرج المخ منها ، ثم يقوم بتوزيعه قطعا على ضيوف الشرف • وعندها تكون يد نجدي اليمنى قد غطيت بالسمن والارز ، بينما تبدو أيدي الجميع بلا استثناء وكأنهم يعملون في مطحنة للأرز — ففي مثل هذه الولائم لم يكونوا يتقيدون بجميع قواعد الاكل التي كانت تحكم سلوكنا أثناء تناول وجباتنا اليومية العادية • وقد كنت دائما أحزن لمرأى الشاة ، فقد كان رأسها يبدو مسالما ونظرتها حزينة • وليس هذا بمستغرب ، فقد كانت تلك العينان تؤديان وظيفتهما قبل ساعات ، كما كانت الشاة تثغو حتى فجر ذلك اليوم • أما الآن ، فها هو نجدي يحطم تلك الرأس على سطح السفينة لكي ينزع المخ من داخلها •

---

(١) الروتارى : منظمة عالمية للاندية المتخصصة لرجال الاعمال واصحاب المهن الراقية • تأسست بمدينة شيكاغو ، بالولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٠٥ ، وتهدف ، بحسب دستورها ، الى خدمة المجتمع ، وتنمية العلاقات الودية بين أعضائها على المستويين المحلي والعالمي (المترجم) •

وبعد الوليمة ، كنا نتناول القهوة ثم ننام • وبعد النوم ، يحين موعد صلاة الظهر (١) ، يتبعها عزف من اسماعيل الموسيقى علـى قيثارته اللعينة ، يقضي على كل ما كنا ننعم به من الهدوء والسكينة • لقد كان عزفا نشازا لم تكف ستة أشهر لكي أتعود عليه ، فلم يكن فيه ، من وجهة نظري ، ما يحببه الي • فان بامكان المرء أن يتعود على قرب الاسكتلنديين ومزاميـــر السياميين ، وأجراس أهل بالي وجاوا • وحتى السواحليون ، عندما يقرعون طبولهم ، فانهم يصدرون نوعا من الايقاع الموسيقي ، كما أن مزامير البدو كانت نغماتها مقبولة الى حد ما • الا أن عزف اسماعيل على قيثارته كان يمزق آذان البشر • فاذا ما شجعه أحد ، كان اسماعيل ينطلق بالغناء ، وكان هذا شر المصائب • فقد كانت أغانيه طويلة رتيبة حزينة بغيضة ، يشدو بها بشكل غير طبيعي ، وبصوت قبيح الى أبعد الحدود • ومع كل ذلك فقد كان الجميع يقولون باصرار ان اسماعيل كان موسيقيا معروفا في الكويت ، وأنه من أفضل مزايا المركب • وقد علمت أن نجدي كان قد بذل جهدا كبيـرا للغاية لاقناع اسماعيل على ركوب البحر على ظهر « فتح الخير » ، وأنه اشترى له القيثارة بنفسه •• ومنحه امتيازات خاصة على المركب • وسرعان ما لاحظت فعلا بأنه كان يعفى من العمل بقية اليوم ، كما كان يجمـــع الاكراميات من اعلى الضيوف شأنا ، بل انه كان يضيف الى قصائده التي يغنيها بعض الأبيات التي تهدف الى ذلك ، مع أن معظم أغانيه كانت تدور حول الحب ، كما كنت أقدّر مما استطيع فهمه منها ، كما كانت مملوءة بالاشارة الى النساء ، والى العيون المفعمة بالعاطفة ، التي في طرفها حور • ولم نكن نرى النساء طبعا ، بل نسمع عنهن في الاغاني فقط • أما الاغاني فلا أعتقد أنها كانت دائما ذات مستوى أخلاقي رفيع • وقد كنت ، فـي كثير من المناسبات ، آسف لأني لم آكن اتقن اللغة العربية • ولا بـد أن اسماعيل كان يضمن أغانيه بعض الامور التي تجذب المستمعين أليه ، والا فكيف يمكنهم أن يتحملوا تلك الانغام الفظيعة ، وذلك الاداء البغيض ؟ ولم يحصل اسماعيل مني على أية اكرامية جزاء على موسيقاه الرائعة ، وان كان قد اشار مرارا الى رغبته في امتلاك ساعة يد ذهبية • ولكني كنت ، كلما امكنني ذلك ، أعطيه بعض المال ليكف عن الغناء ، الا أن ذلك المال كان يضيع هدرا ، وأعتقد أن عملي ذاك لم يكن لائقا ، فليس من المعقول أن أطلب منه التوقف عن العزف والغناء ، بينما كان الجميع يستمتعون بانشاده • ولكنه كان يبالغ في الامر أحيانا ، فيمتد عزفه وغناؤه الى الهزيع الاخير من الليل ، وكانت الطبول تصاحب القيثارة في بعض الاحيان ، وكان هذا أفضل ، لأن دوي الطبول كان يطغى على الموسيقى الفظيعة • وغالبا ما كان

---

(١) هكذا في الاصل ، ولعلها صلاة العصر (المترجم) •

الرجال يرقصون ، ولكنه كان نفس الرقص الرتيب الممل ، الذي لا يزيد عن المشي ذهابا وايابا والقفز وهز الاكتاف وفرقعة الاصابع ، الذي كنت قد شاهدته في خليج المعلا للمرة الاولى · كما لم يشترك في الرقص على ظهر المركب أية فتيات ، لأن الفتيات لم يكن يغادرن اليابسة ·

طال بنا المقام في المكلا وأمتد أياما بعد أيام ، دون أن يحدث شيء · ففي اليوم الاول لوصولنا ، كنا قد أنزلنا بعض البضائع للسلطان · وفي كل يوم بعد ذلك كان بعض البدو الغامضون يتجولون على سطح المركب ، ويختمون جولتهم بأن يدلفوا الى داخل القمرة الكبيرة ، ثم يغادرونها وهم يهمهمون بكلمة « طيب » · وكنت دائما اعجب ما هو الطيب في ذلك المكان يا ترى ؟ ولماذا هذه الزيارات والجولات ؟ وكنت أعلم طبعا أن لا فائدة من السؤال ، ولذلك فقد كانت الطريقة الوحيدة أن اصبر وانتظر لأرى ما سيحدث ·

كانت المراكب الكبيرة من نوع « البوم » تصل قادمة من الكويت أو من موانيء كنجان وبندر لنغه بايران ، ثم تغادر المكان ، الا نحن فقد كنا باقين هناك · ولم نكن نرى نجدي الا لماما ، وفي الولائم فقط ، فقد كان أمر الحصول على الركاب ، على ما يبدو ، عملية شاقة · ولم يكن يزور المركب الا نادرا · وكلما أتى كانت تقام الولائم ، ويكون بصحبته خمسون رجلا على الاقل · وكان بحارتنا يستغلون المناسبات للتجارة ، فكانوا يضيفون الى بضائعهم هنا كميات كبيرة من مراوح القش ، ومن السلال التي كان بعضها جميل الصنع · وكانوا يشترون هذه البضائع بالجملة ، وبأسعار رخيصة طبعا · وكان يوسف يقول أن تلك السلال من الاشياء التي يرغب فيها الاوروبيون في ممباسا وزنجبار ، كما شحن المركب كمية من حجارة الرحى والهاونات والمدقات ، وهي أدوات يستعملها الحضارمة لطحن القمح لصنع الخبز منه · وكانت هذه الاشياء ، بالاضافة الى بعض الطباق الحضرمي ، وبعض السمن المعلب في صفائح الكاز الفارغه ، وبعض سمك القرش المملح ، هي كل ما شحنه من المكلا ، ولم يزد وزنها جميعا عن خمسة أطنان ·

وقد قام البحارة أيضا بملء المركب بالماء العذب ، وفعلوا ذلك بواسطة القرب الجلدية ، التي كانت على قارب النجاة الطويل ، الذي كانوا يأخذونه

الى واد يقع في الطرف الغربي من المدينة • وكانوا يفعلون ذلك فجـر كل صباح • وهناك كانوا يجرون القارب الى البر ، ويسيرون على أقدامهم الى أن يصلوا الى بركة في احدى الواحات المعروفة ، التي تبعد حوالي ميل واحد عن بوابة المكلا الغربية • وقد استغرقت العملية ثلاثة أيـام ، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة • فقد كان الماء الذي يحصلون عليه بهذه الطريقة بلا مقابل ، وكنت ارجو أن يكون مستساغاً ، فقد كان علي أن اشرب منه فيما بعد • وكان البحارة ، في اثناء القيام بهذا العمل ، يقضون الصباح عملا وغناء ، وينامون القيلولة • وفي معظم الاحيان لم يكونـوا يبالون بأن ينزلوا الى البر ، لأنهم لم يكونوا يملكون مالا • وكان اسماعيل أحيانا يختفي هو وقيثارته لكي يزعج الناس في مكان آخر ، وفي مثل تلك المناسبات القليلة كنت أحس بالراحة والسعادة •

ومرت الايام على هذه الشاكلة ، وكانت المراكب المختلفة كالسمبوك والمراكب الصومالية والأبوام الفارسية تأتي وتروح ، ونحن في مكاننا • وذات يوم ، وصل مركب هندي من نوع « الكوتيّ » (Kotia) محملا بشحنة من القرميد ، قادما من منجالور • وكان هذا المركب قريب الشبـه مـن « البغلة » العربية سوى أن معداته كانت أثقل ، وصنعه أثقل ، وعدد بحارته أقل لم يزيدوا عن ثمانية رجال ، بينما يكون عدد بحارة مركب عربي من نفس الحجم عشرين رجلا • وكان ذلك المركب يرفع علما كبيرا من الحرير الأرجواني اللون مع خطين أفقيين أبيضي اللون ، وقد رسا بقرب بغلـة فارسية تدعى « أمل الرحمة » • وكانت معظم المراكب العربية تحمل أسماء دينية لطيفة كهذا الاسم ، ولكنني كثيرا ما كنت اعتلي احد تلك المراكب ، وأسأل عن اسمه فلا أجد أحدا يعرفه ، وحتى النوخذة كان يفتش عنه ليجده في سجل المركب ، كما لم تكن هناك أية اسماء تكتب على هيكل المركب • وقد فهمت فيما بعد أن هناك سببا وجيها لذلك • فعندما كان المركب مثـلا يحمل شحنة من أعمدة المانجروف من دلتا الروفيجي ، أو عندما كان ينسل من موقاديشو حاملا بضعة آلاف من الليرات ، في مثل هذه الحالات لم يكن العربي يحب أن يسهل التعرف على مركبه ، وكان يعرف أن جميع المراكب تبـدو لعـين الاوروبي واحـدة • وكانوا في أثنـاء كلامهم يتحدثون عن المراكب باسم نواخذتها • فقد كان مركبنا مثلا مركب نجدي ، ونادرا ما كان بحارته يشيرون اليه باسم « فتح الخير » كما أنه كان للمركب اسـمان آخران ، كما كانت العادة بالنسبة للمراكب الاخرى ، فالعربي بطبعـه يكره التسمية الرسمية • وكان الحال نفسه ينطبق على المراكب الاخرى • فقد كان لبوم عبد الله القطامي الصغير اسمان آخران أيضا ، ولكن كل من له علاقة بالبحر كان يعرفه باسم « بوم عبد الله القطامي » • كما أن بوم

غانم بن عثمان المسمى « مرسى الباز » كان يعرف باسم بوم غانم بن عثمان ، وهلم جرا · ولكن هذا كان ينطبق على المركب في حالة واحدة فقط ، هي أن يكون قبطانها هو مالكها ولو اسميا ·

وخلال ذلك كله ، بقيت على ظهر المركب ، لأني لم أكن استطيع المشي · وقد كان ظهر المركب بالنسبة لي ممتعا دائما ، وأنا أجلس هناك على سدة النوخذة خلف الدفة أراقب كل ما يجري حولي · وقد كان هناك الكثير مما يستحق المراقبة ، وان لم يكن على مركبنا ، فعلى المراكب الاخرى التي تحيط بنا · وكانت المراكب تاتي وتروح بمعدل أربعة أو خمسة كل يوم ، حاملة شحنات من البضائع من عدن وسيحوت وساحل المهرة ، فتفرغها ، وتحمل بدلا منها البضائع الاخرى لشحنها الى الصومال واليمن وارتريا · وكانت معظم المراكب الراسية في الميناء ، شأنها في ذلك شأن جميع المراكب العربية الاخرى التي رأيتها في كل مكان آخر ، تنتظر في المرسى لا تعمل شيئا ، بينما يكون ربابنتها على البر يحاولون أن يحصلوا على أجرة شحن البضائع التي نقلوها ، أو يعملون على تأمين بضائع أخرى لنقلها الى أماكن أخرى · ولم يكن نصيبنا نحن من الانتظار قصيرا ، بل كنت احيانا اشعر بالتعب من طول الانتظار · ومع ذلك فقد كان مما يطمئنني أننا لن نذهب الى أي مكان دون أن نمكث فيه اسبوعا على الاقل ، وربما شهرا ، وهذا يتيح لي فرصة مناسبة للتفرج على الموانيء التي نزورها ، وجمع بعض المعلومات عنها ·

حل عيد الميلاد ومركبنا لا يزال راسيا في ميناء المكلا ، وفي اليوم الذي قدرت أن تاريخه الخامس والعشرون من ديسمبر (كانون اول) ، تمكنت أخيرا من النزول الى الشاطيء · وقد نزلت في قارب صغير سريع مع عبد الله ، الاخ الأصغر لنجدي ، والراكب سعيد الذي كان منطلقا في مهمة غامضة ، والذي كان يبدو أكثر دهاء وخبثا من أي وقت مضى ، وتوقفنا عند الفرضة الحجرية الصغيرة ، فترجلنا هناك · وسرعان ما اختفى سعيد ولم استطع أن أعثر له على أثر ، وكان زميله عبد الله قد غادر المركب في اليوم الاول لوصولنا بسرعة فائقة ، حتى أني لم أره عندما رحل · مشينا أنا وشقيق نجدي ببطء على الطريق الذي يمر بحوض بناء السفن ، بأكوامه المكدسة من الاخشاب الصالحة لصنع باطن المركب ، الآتية من اليمن ، وبالالواح الآتية من ملابار ، حيث شاهدنا مركبا جديدا من نوع السمبوك يجري بناؤه تحت ستار من الحصير لحمايته من الشمس ، وكان الطريق نفسه يؤدي الى السوق الذي يكون في العادة أكثر أجزاء المدينة العربية اثارة وامتاعا · وكان عبد الله قد أخبرني أن سوق المكلا سوق جيد ،

وأنه كان في نيته البحث عن بعض البضائع التي يمكن أن تباع على ساحل بنادير(١) · الا اننا لم نستطع الوصول الى السوق ، لان ساقي خذلتني ، ولم استطع مواصلة السير ، مما اضطرنا الى الجلوس بعض الوقت في مقهى قريب من حوض بناء السفن ، نراقب المنظر من حولنا ، والناس يمرون من أمامنا ، ونحن نحتسي لبن الماعز الحار المطيب بحب الهال ، الذي كان مذاقه مستساغا ·

كان المنظر ممتعا بالفعل · فقد كانت شوارع المكلا تعج بالاغراب الوافدين من كل حدب وصوب ، الذين يرتدون ملابس شرقية زاهية من كل نوع ولون · فكان هناك التجار الهنود المتجولون بسراويلهم الفضفاضة الشفافة وقبعاتهم الصغيرة السوداء ، واليمنيون بوزراتهم وعمائمهم الضخمة · كما كان باستطاعتنا أن نرى البدو بملابسهم السوداء واجسادهم المطلية باللون البني ، وهم يسوقون جمالهم الضخمة ، تتهادى حاملة الطيب والبضائع المختلفة ، والبحارة والربابنة الايرانيين ، والصوماليين ، والكويتيين ، والصوريين ، والباطنيين(٢) والاجناس الاخرى من الناس المهجنين الذين تجري في عروقهم دماء من جميع انحاء الشرق ، فهم اما أنصاف ماليزيين ، أو أنصاف أتراك ، أو أنصاف افريقيين ، أو أنصاف مصريين ، أو أنصاف بلوشيين ، أو أنصاف باليينيين(٣) · فقد كان الحضرمي يسافر الى بلاد بعيدة ، ويتزوج من أي مكان ، ثم يعود معه بالذكور من ذريته الى وطنه ، ولذلك فان دماء الشرق الاقصى بأسره تنبض في عروق هؤلاء الناس الذين نراهم في شوارع المكلا · وقد كان أكثر هؤلاء وقعا على نفسي أولئك البدو الأقحاح ، ذوو الدماء العربية الصافية ، الذين كانوا دائما يسيرون بقامات منتصبة ، ورؤوس مرفوعة ، لا تعرف الخوف ، على الرغم من هزالهم وجوعهم وفقرهم ، ورؤوسهم مطلية بالزيت ، وأجسامهم نصف عارية · وكان كثير منهم يتمنطقون بالخنجر الحضرمي ، وبعضهم يحمل البنادق القديمة والطبنجات المختلفة ، الا أن هذه العادة كادت تنقرض الان ، ولم تعد شائعة كما كانت قبل أن يفرض البريطانيون الهدنة بين القبائل المتحاربة ، منذ فترة قصيرة ·

جلسنا في المقهى مبتهجين ، ومن آن الى اخر كان عبد الله يطلب جمرات جديدة للنارجيلة التي كان يدخنها ، بينما كان الناس يمرون من

(١) على ساحل الصومال الشرقي (المترجم)
(٢) نسبة الى ساحل باطنة بجنوب عمان (المترجم)
(٣) نسبة الى جزيرة بالي الواقعة في ارخبيل الملايو (المترجم)



امامنا ومن حولنا ٠ فقد كان المقهى مكانا بدائيا مكشوفا معظمه في الشارع نفسه لا على جانبه ٠ وكان يتألف من كوخ ذي جدران ثلاثة وسقف من الحصير ، تنتشر على أرضه الترابية مقاعد عديدة ، يجلس عليها أعراب من جميع الاعمار ٠ وكان هؤلاء يجلسون في جماعات صغيرة ويتحادثون في أمور جدية ، فكان منظرهم رومانسيا وهم ينفثون دخان النارجيلة أو يرشفون الشاي الاسود من الاكواب الصغيرة ، ومن آن لآخر كان ربان كويتي أو فارسي يدخل المقهى الذي كان مخصصا للربابنة وحدهم ٠ ومما يجدر ذكره هنا أن المقاهي في المرافىء العربية كانت موزعة توزيعا دقيقا ، كل منها لفئة معينة من الناس ، فقد كانت أندية وأمكنة للتجمع والمقايضات حيث تتم معظم المعاملات التجارية ٠ وقد قيض لي أن أرى عددا كبيرا من هذه المؤسسات المثيرة للاهتمام قبل انتهاء رحلتى على المركب « فتح الخير ٠

وكنت على وشك الانتهاء من احتساء الكوب الثالث من حليب الماعز المعطر عندما دخل مستر انجرامز ، المستشار البريطاني المقيم في حضرموت وسألني لماذا لم أزرهم في دارهم حتى ذلك الوقت ٠ ولم يضع كثيرا من الوقت ، بل أخذني معه في السيارة بدون تأخير ٠ لقد كنت أظن أن اليوم كان يوم عيد الميلاد ، وهو يوم عطلة يتصرف فيه الانسان على هواه ٠ ولذلك لم يكن في نيتي أن أتطفل على أسرة انجرامز في مثل ذلك اليوم ٠ كما أنها كانت المرة الاولى التي استطيع أن أنزل فيها الى الشاطىء وأسير على قدمي ، ولذلك لم ارغب في الذهاب اليهم وأنا أعرج ، عاجز ، لا حول لي ولا قوة ٠ ولكني كنت سعيدا جدا عندما قاموا هم باصطحابي معهم ٠ وقد اكتشفت أن اليوم لم يكن يوم عيد الميلاد بل اليوم السابق له ٠ وأني قد أخطأت يوما واحدا في حسابي ٠

لم تمض ساعة من الزمن ، حتى كنت قد استقررت في دار المستشار ، وهي بناء أبيض جميل كان فيما مضى ملكا لأحد أغنياء العرب ، وقد مكثت هناك بضعة أيام ، وكان المقام طيبا ، وكنت سعيدا بأن أحصل على وجبة طعام جيدة ٠ وكنت أسكن في غرفة تخص احدى زوجات المالك السابق ٠ وكنت استطيع من هناك أن ألقي نظرة على الحديقة التي كان يتدرب فيها أفراد الشرطة الجدد صباحا ، ثم أمد بصري الى قصر السلطان حيث كانت الفرق الموسيقية تصدح بالموسيقى ٠ كما كانت الاصوات الصادرة عن الميناء تصلنى من خلال النافذة المفتوحة ، وكنت استطيع سماع أهازيج البحارة وهم يقودون القوارب الطويلة الى حيث الماء العذب ٠ بل كان باستطاعتي أن أراقبهم وهم يملأون قربهم بالماء ، تلك القرب السوداء ، المبتلة ، التي تهتز

كأنها حيوانات غريبة حية ولكن بلا رؤوس ، كما كنت أرقب بوابة المكلا الغربية التي كانت أمواج الناس الداخلة اليها والخارجة منها لا تنقطع أبدا ٠

في ذلك الوقت ، كان مستر انجرامز يقوم بتنفيذ مشروع شامل للطرق لأول مرة في تاريخ حضرموت ، فكان يبني طرق السيارات المعبدة الى « شبام » والى الاماكن الهامة الاخرى في البلاد ٠ ولكن هذا المشروع لم يعجب الجميع ٠ فهو ، مثلا ، لم يعجب البدو الذين كانوا يعيشون على نقل البضائع على ظهور جمالهم ، كما لم يعجب تلك القبائل التى كانت الطرق تمر في أراضيها ٠ فكان البدو ، الذين كانوا متعودين على القيام بعمل ما ضد ما لا يعجبهم ، يخربون تلك الطرق المفتوحة حديثا ٠ وفي مثل هذه المناسبات ، كان مستر انجرامز يتصرف بحكمة وتعقل ، فبدلا من أن يرسل حملات تأديبية ضد أولئك البدو ، كان يذهب اليهم بنفسه ، ويقابل الساخطين منهم ، ويحادثهم وسرعان ما يتم توظيفهم في الشرطة المحلية الموكل بها حماية الطرق ٠ وهؤلاء هم المخلوقات الوحشية الشكل التي كنت أراها تتدرب في ساحة دار المستشارية ٠

ذهبت مع مستر انجرامز وأسرته في جولة على امتداد الشاطىء الواسع

المكلا : البوابة الغربية





المكلا : دار المعتمد البريطاني

الى الغرب من مدينة « المكلا » . ورأيت الجمال وهي تتهادى على امتداد ذلك الشاطىء برزانتها وهدوئها ، والحمير ترزح تحت أحمالها الثقيلة . وكان موقف الجمال بقرب البوابة الغربية مزدحما مملوءا بالحياة والحركة دون انقطاع . فالى هنا تأتى الجمال من داخل البلاد تحمل أثقالها ، وهنا تبرك وتنتظر الحمولة الجديدة . وكثيرا ما كان البدو يأتون ويتكلمون معنا ونحن نقوم بتلك الجولات ، كما كنا كثيرا ما نرى النساء وهن يعنين بالغنم والماشية ويجمعن الحطب للوقود . وعلى الرغم من أني لم أر الكثير من حضرموت ، فقد كان جل اهتمامي منصبا على المراكب ، فقد لاحظت أن معظم حضرموت تتمتع بجمال طبيعي أخاذ . وفي أحد الايام سرنا في الشارع الجديد الذي يقطع التلال الحجرية ، وراقبنا الشمس ، وهي تغيب وراء تلك التلال المتصلة التي لم تمسسها يد البشر ، وكأنها قرص من الجمال الاحمر ، يغمق لونه تدريجيا ، ثم يختفي مخلفا وراءه الظلمة تكسو المنظر كله . ولكن سرعان ما تظهر النجوم في السماء ، فيسبغ نورها على الليل هدوءا ، وعلى المناظر القاسية شيئا من الرقة والسكينة . وكان البدو ، الذين يمرون بنا وهم يسوقون جمالهم ، يهزجون بتلك الاغاني الجميلة المتناهية في القدم ، بينما كانت أمواج البحر تتدحرج واحدة بعد الاخرى

الى داخل « خليج المكلا » ، وكأنها تترنم باحدى أغاني الاطفال الرقيقة التي يحب الاطفال سماعها قبل النوم (١) ٠

تعشينا في احدى الامسيات مع السلطان في قصره ، في حجرة يسمع منها صوت البحر ٠ وكانت طريقة الخدمة ، والملابس ، والاطباق كلها أوربية اكثر منها عربية ، بل ان السلطان نفسه كان أقرب الى الهنود منـه الـى العرب ٠ وكان في العقد الخامس من العمر ، ولكنه كان يبدو متعبا ، مما يجعله يبدو اكبر سنا مما هو فعلا ٠ وقد جلس على كرسي أوروبي على رأس مائدة كبيرة ، مرتديا طربوشا ومعطفا هنديا طويلا ملتصقا بجسمه ، وجلسنا نحن أيضا وقد أكلنا وأكلنا كما لم نأكل من قبل ٠ وكان ابن السلطان ، ولي عهد سلطنة حضرموت ، يجلس سعيدا على الطرف الآخر مـن المائـدة وهو يبتسم ، لأنه كان في ذلك اليوم قد تزوج ثانية من احدى زوجاتـه الأثيرات ، التي كان قد اضطر قبل مدة الى تطليقها لأسباب سياسية ٠ أما الآن فيبدو أن تلك الأسباب ، كائنة ما كانت ، لم تعد قائمة ، ولذلك فان الأمير لم يضع وقتا ، على ما يبدو ، في اعادة زوجته اليه ٠

وفي وقت متأخر من تلك الليلة ، أتى شقيق نجدي الى دار المستشار ، ليعلمني بأن البوم أصبح مستعدا للسفر ، وربما أقلع عند الفجر ، وليسألني اذا كنت راغبا في السفر على المركب ، أم أنني أفضل ركوب الجمل ومصاحبة نجدي في سفرته الى ميناء « شحر » ٠ وقد أجبته بأني أكره الجمال كرها جما ، لأن لها رائحة كريهة ، كما أصاب عند ركوبها بدوار كدوار البحر ٠ ولذلك فقد رافقت عبد الله الى المركب بعد أن أمضيت مع اسرة انجرامز أياما سعيدة ، شكرت لهم أن أتاحوا لي فرصة قضائها معهم ٠ وغادرت المكلا بعد أن قويت ساقي ، واشتد عودي وتحسنت صحتي وتزودت بالزاد الكافي لكي يمنع عني مرض الأسقربوط لستة أشهر قادمة ٠

صعدت الى ظهر السفينة عند منتصف الليل فوجدت المؤخرة والسطح الرئيسي مزدحمين بالركاب ازدحاما هائلا لدرجة تكاد لا تترك موطئا لقدم ٠ وقد كان هناك اشباح سوداء لرجال يرتدون الجلاليب والعمائم ويتحادثون همسا ٠ وأينما توجهت كنت أرى أشكالا آدمية متمـددة علـى الحصـير ومستغرقة في النوم ٠ لقد غير مجيء هؤلاء القوم وجه المركب تغييرا كليا ، فقد أصبح يعج بالحياة لدرجة لم أعرف معها أين يمكنني أن أنام ٠ الا أنني

(١) ينصح القارىء الذى له اهتمام خاص بحضرموت بمراجعة كتاب فريبا ستارك : « الابواب الجنوبية للجزيرة العربية » حيث يجد وصفا ممتعا شاملا لتلك البلاد (المؤلف)

وجدت أن مكاني على السدة نفسه ما زال محفوظا لي ، وأن صندوق أمتعتي كان تحته • وهناك استلقيت لأنام بضع ساعات ، وأكون جاهزا لأرقب اقلاع المركب في الصباح • وقد همس عبد الله في اذني ، بأن عددا قليلا من الركاب قد صعدوا على ظهر المركب • وقد سألت باستغراب : « عدد قليل ؟ يبدو أنهم يزيدون عن المائة » ، فأجاب : « نعم عدد قليل ، فلم يمكن الحصول على أكثر من ذلك ، لأن التقارير الواردة عن الركود الاقتصادي على ساحل بنادير وفي زنجبار وكينيا جعلت الكثيرين يلازمون بيوتهم بدلا من السفر • ولكن هذا لا يهم ، فان نجدي سيسبقهم الى بلدة « شحر » الواقعة على الساحل الى الشرق من المكلا ، حيث يأمل أن يحصل على مزيد من الركاب » • وعندما استغربت ذلك ، وسألت ان كان هناك مكان للمزيد ، لم يجب عبدالله ، بل ارتسمت على شفتيه ابتسامة • وقد اضطررت أن أسير فوق ستة من البدو ، وواحد من الأشراف ، وشيخ حضرمي آخر ، قبل أن أصل الى المكان الذي أنام فيه ، كما أني لم أتمكن من الوصول الى صندوق أمتعتي بسبب ذلك العدد الهائل المتكوم حوله • ومع ذلك فاننا على ما يبدو ، لم نكن قد حملنا الا الشحنة الاولى من الركاب •

لقد بدأت أتساءل عن هذه الرحلة الى أفريقيا • صحيح أن المسافة ليست بعيدة ، من الشواطىء الجنوبية لشبه الجزيرة العربية ، عبر خليج عدن ، ثم جنوبا مع الرياح الموسمية الى موقاديشو في الصومال ، فقد أخبرني عبد الله بأن المراكب الكويتية كانت تقطع المسافة من المكلا الى زنجبار في أقل من ثمانية أيام • ولكن لا يبدو ، كما تبين لي ، أننا ذاهبون مباشرة الى موقاديشو أو ممباسا أو زنجبار ، بل مسافرون في رحلة تجارية ، والله وحده يعلم متى يمكن أن نتخلص من هؤلاء الركاب • كان كثيرون منهم يشخرون أثناء نومهم ، كما كانوا يحتلون هم وأمتعتهم معظم سطح المركب ، بل أني استطعت أن أرى ، على ضوء القمر الساطع ، أن كمية الأمتعة على المركب قد بلغت حدا كبيرا ، حتى أن بعضها كان مربوطا بالأفاريز من الخارج • ولا بد أننا قد أخذنا معنا أحد التجار المعروفين ، فقد كان مربوطا على الجزء الأيسر من المؤخرة ، أمام صندوق المرحاض

لقد اضطررت للسكوت مؤقتا عن السؤال عن هذا الموضوع • ولكني اكتشفت ذلك السر في وقت لاحق •

كان اقلاعنا من المكلا مع أول خيوط الفجر ، قبل أن تشرق الشمس ، وخرجنا من الخليج بمساعدة ريح خفيفة مؤاتية ، وبصحبة البغلة الفارسية والبوم الصغير الذي كان يملكه عبد الله القطامي • وكان موقفنا على المرسى في مكان مزدحم ، تحيط بنا المراكب من جميع الاتجاهات ، فيما عدا الجهة الامامية ، حيث كان هناك طريق ضيق محصور بين الحاجز الصخري من جهة والقارب الصغير الذي كان المصباح الاعصاري فيه مشتعلا ليدل على موقع الميناء ، الذي لم يكن فيه أي نور آخر • وكنت مهتما بأن أرى كيف سيتمكن حمد بن سالم من اخراج المركب من مكانه المزدحم ، الا أنه قام بتلك العملية بكل سهولة • فكان أول شيء فعله ، كما هي العادة في المراسي ، أنه رفع الشراع الرئيسي على عارضته بخطوات سريعة خفيفة ، بحيث أن جذبة خفيفة يمكنها أن تنزل الشراع كله مفتوحا وخفاقا في مهب الريح • ثم رفع المرساة الرئيسية ، وفي نفس الوقت رمى حبلا لسمبوك واقف خلفنا فبقي المركب مربوطا بمرساة واحدة • وبعد قليل هبت نسمة من الهواء لا تكاد تحرك سطح الماء في الخليج ، وما ان وصلت النسمة الينا حتى أصدر حمد أمرا بصوت عال ، وفي الحال أسقط الشراع ، فامتلأ بالهواء ، وتخلصنا من المرساة ، وأفلت السمبوك الحبل ، فانطلق مركبنا منسابا بهدوء في طريقه على سطح الماء • وعندما نظرت الى الخلف ، حيث كنا نقف بين المركب الهندي والبغلة العمانية ، وجدت أن المساحة التي كنا نحتلها هناك كانت صغيرة جدا لدرجة جعلتني لا أستطيع التعرف على المكان الذي كنا فيه قبل لحظات •

لا شك أن حمداً بحسب اعتقادي ، قد تدبر الامر بشكل رائع ، وأن البحارة كانوا يؤدون مهامهم تأدية تامة • ولم تكن العملية سهلة بوجود جمهور من البدو على سطح المركب وجماعة أبناء السندباد على المؤخرة • الا أني لاحظت ان البحارة لم يكونوا يعيرون هؤلاء جميعا أي انتباه ، عندما كان الأمر يتعلق بالعمليات الملاحية ، بل كانوا يطرحون أرضا أي انسان يعترض سبيلهم ، ولذلك فقد تعلم الركاب بسرعة كيف يهربون الى الجانب الآخر من سطح المركب ، عندما كان البحارة يندفعون نحوهم وهم يهزجون ، فلم يكن هؤلاء البحارة يقومون بأي عمل من أعمالهم بهدوء دون غناء ، بل كانوا يندفعون الى العمل ، وهم يغنون بحماس ، ويجاهدون الى أن يتموا ذلك العمل • وقد كان هذا هو أسلوب نجدي في العمل • وكان البحارة يمارسونه حتى في أثناء غيابه عن المركب •

وهكذا أقلعنا من خليج المكلا في ذلك الصباح البهيج ، وكانت الشمس تشرق على البلدة فتضفي عليها جمالا وروعة . وقد هدأت الامور على ظهر المركب فيما بعد وكان باستطاعتنا أن نرى المكلا طيلة النهار . لقد كان من الصعب مغادرة ذلك المكان ، وقد لاحظت أن البدو كانوا يودعونه بنظرات حزينة ، وكان بعض هؤلاء يعزفون ألحانا حزينة على مزاميرهم ، بينما كان البعض الآخر يشعر بدوار البحر ، على الرغم من انعدام الموج تقريبا . وكان غير هؤلاء وأولئك يتدافعون على سطح المركب ، يجمعون أمتعتهم القليلة ، ويخرجون منها أواني الطبخ ، فقد كان هؤلاء يجلبون طعامهم معهم . أما التجار المسافرون على المؤخرة ، فكانوا يتناولون طعامهم مع البحارة . وكان بعض التجار خشنين صلاب العود ، بينما كان بعض البدو أصلب منهم عودا ، وأشد بأسا . ولم تكن عصبة الركاب كلها من النوع الذي يسر ، بل أن انطباعاتي الاولى عنهم كانت سيئة . وقد أخذت اتساءل اكثر عن تلك الرحلة الى افريقيا ، وعندما استفسرت من حمد عن المدة التي سيقضيها هؤلاء القوم على ظهر المركب ، أجاب بأنهم لن يبقوا ، بمشيئة الله ، على المركب اكثر من عشرة أيام ، فقد كان معظمهم مسافرين الى مقاديشو ليعملوا مع الايطاليين هناك وفي داخل الصومال . وقد تساءلت عما اذا كان لديهم جوازات سفر ، أو تصاريح من القنصل الايطالي ، أو ما شابه ذلك . فأجاب حمد بأن ليس لديهم شيء من ذلك على الاطلاق ، فقد كانت عملية انتقال الناس من الجزيرة العربية الى الساحل الافريقي مستمرة منذ فجر التاريخ ، ولم يستطع حتى الاوربيون الحمقى ايقافها . وقد فهمت أن بعض التجار كانوا يحملون أوراقا تثبت هوياتهم ، كما انه كان من المفروض ان تكون لدى المركب قائمة بأسماء الركاب . وربما كان هذا صحيحا ، ولكن اذا كان ذلك كذلك ، فلا بد أنهم قد ألقو بتلك القائمة في عرض البحر ، لأني لم أتمكن من رؤيتها قط ، كما أني أعلم بأنها لم تكن على ظهر المركب ، عندما وصلنا الى « حيفون » ، وهو أول ميناء صومالي توقفنا فيه .

كانت الريح ساكنة طوال ذلك اليوم ، ولم نحرز تقدما كبيرا ، ولكن المسافة من المكلا الى « شحر » قصيرة ، وقد وصلنا الى ذلك الميناء السبئي في صباح اليوم التالي ، والبغلة أمامنا تنساب برشاقة وجمال ، وبوم القطامي خلفنا . وقد استغرقت الرحلة بين الميناءين أربعا وعشرين ساعة . وفي ميناء « شحر » ، وجدنا أنفسنا بين تسعة مراكب أخرى راسية هناك : سبعة منها كويتية ، واثنان فارسيان ، وكانت جميعها مسافرة الى زنجبار . ولم يكن الميناء في « شحر » سوى مرفأ مفتوح معرض لتيارات الهواء ، تهتز المراكب داخله اكثر من اهتزازها في عرض البحر . ولذلك فقد اصيب البدو الذين على مركبنا بدوار البحر ، وأصبح السطح الرئيسي كأنه مستشفى للمجانين .

كان الرسو على شاطىء « شحر » صعبا وخطرا ٠ فقد كان الموج عاليا ولم نستطع الاستفادة من القارب الطويل ٠ وقد عمل مدير الدفة على ارسائها خارج نطاق الموج الساحلي ، وكان على البحارة أن يرفعوا أطراف دشاديشهم على اكتافهم ٠ ويخوضوا الماء المرتفع ليصلوا الى الشاطىء ٠ وقد حملني زيد ، العبد الكويتي المحرر ، على ظهره الضخم ـ ولا أنسى أن أذكر أن زيدا هذا كان طيبا جدا معي في اثناء مرضي وفقدان بصري ـ ٠ ولكننا قبل أن نصل الى البر بسلام ، هجمت علينا موجة عاتية فطرحت زيدا أرضا ، والقت بي معه أيضا ٠ وقد أصيبت ركبتي من جراء هذا الحادث ونهضت ، أسب وأشتم ، وأنا مبتل حتى العظم ٠ فقد شتمت ملكة سبأ لاختيارها ذلك المكان لتقام عليه مدينة « شحر » (هذا اذا كان ذلك صحيحا ، فأنا أشك في الامر) ٠ وكان جميد قد أخبرني بأن الملكة الاسطورية قد بنت أسطولها الحربي في هذا الميناء ، لكي تقوم بمحاربة بعض الاعداء ، ولكني أشك في ذلك أيضا ٠ اما الآن والألم ينبض في ركبتي ، فقد تذكرت فقط أن ملكة سبأ لم تكن الا امرأة ، وأن سخفها هو الذي جعلها تختار هذا المكان السخيف لتبني فيه سفنها ، حيث لا يتوافر الخشب لبنائها ، ولا المكان المناسب لتدشينها وانزالها الى البحر بعد الفراغ من بنائها ٠ فلم تكن مدينة شحر ، في نظري سوى قطعة مسورة من الرمل تواجه بحر العرب ، وكنت اتساءل ان كان هناك أي سبب أو عذر لوجودها أصلا ٠ وكانت تمتد مسافة ميل تقريبا على الشاطىء ، ولكن لم يكن في أي جزء منها مكان مناسب للرسو والنزول الى البر ٠ وكانت المدينة نفسها حقيرة فقيرة ، شوارعها غير معبدة ، وكثير من أبنيتها اما آيلة للسقوط أو غير مكتملة البناء ٠ ولم يكن فيها من البناء ما هو في حالة جيدة سوى قصر السلطان المؤلف من بناء أبيض ضخم ، والسور المحصن الذي يحيط بها ٠ أما سوقها ، فقد كان صغيرا ، ليس فيه ما يستحق الشراء ٠

وكان صيد السمك ، على ما يبدو ، المهنة الوحيدة الشائعة هناك ٠ وقد لاحظت أن الصيادين كانوا لا يزالون يستخدمون القوارب القديمة ذاتها ، التي كانت الواحها تخاط بعضها مع بعض بخيوط من الألياف ، ولا يستعمل فيها أي شيء آخر لتثبيتها معا ٠ وكان بعضها صغير الحجم ، بينما كان البعض الآخر الذي يستعمل في نقل البضائع من السفن ، أكثر حجما ، وكان للقوارب الصغيرة أشرعة ، بينما كانت المجاذيف تستعمل في الكبيرة ٠ وكانت تلك القوارب الجميلة الشكل مقدماتها شبيهة بمؤخراتها ، وانحناءاتها لطيفة ، كما كانت مزخرفة بخطوط بيضاء وشكل هندسي أسود وآخر أخضر على المقدمة والمؤخرة ٠ وكان بعضها يوجه بمجاذيف قصيرة والبعض الآخر بواسطة السكان ، الذي كان يوازن بحيث يبقى كله تحت سطح الماء

باستمرار ، ويحرك عن طريق قطعة من الحبل تتصل بأصبع قائد الدفة ، فاذا أراد هذا تغيير اتجاه القارب كان عليه فقط أن يحرك قدمه حركة خفيفة . وقد كانت القوارب الصغيرة التي يستخدمها الصيادون تستخدم شراعا مربعا واحدا ، وكانت تنساب بيسر ولطف اذا توفرت أقل نسمة من الهواء . وكان السمك اللذيذ الممتاز متوافرا بكميات هائلة على ذلك الساحل ، فقد كان الصيادون طوال النهار منهمكين في انزال صيدهم السمين الى الشاطيء ، كما كان السمك رخيصا جدا ، فلم يكن ثمن حمولة قارب كاملة يزيد عن دريهمات قليلة . وكانت عملية تجفيف السمك الصغير لاستخدامه علفا للجمال تجرى في كل مكان تقريبا على طول الشاطيء . ولم الاحظ وصول أي شيء الى ذلك المكان سوى السمك والتمور ، وقد شاهدت احد المراكب الفارسية وهو ينزل حمولته من التمر في المرسى . ولم يكن في شحر سوى سوق فقيرة ، وعدد من المساجد البسيطة ، وبعض الابنية الآيلة للسقوط ، وقصر السلطان وجمال وحمير وماعز ودجاج ، وبعض صغار التجار ، وعدد قليل جدا من الجنود ، وعدد من البدو ، ومقهى واحد أو اثنين وكثير من السمك ـ وكان هذا كل ما فيها . وفيما عدا بعض الأبنية الحقيرة الشأن ، فقد كانت المدينة باقية على حالها ، كما خلقها الله ، وكنت أتساءل عما اذا كان فيها شيء يستحق أن يبنى حوله ذلك السور الكبير . وقد مللت النظر الى المدينة بسرعة وقفلت عائدا الى المركب .

طال بنا المقام في « شحر » ، يوم يروح ويوم يأتي ، ولم نر أثرا لنجدي . ولم يكن شيء يجري على ظهر المركب سوى أن البدو جعلوا منه مستشفى للمجانين . ولم تحمل أو تنزل أية بضاعة . ولا بد أن نجدي كان قد وصل من رحلته على ظهر الجمال . الا أننا علمنا أنه يبحث عن مزيد من الركاب الذين لم أدر أين سنضعهم ، فقد كان لدينا حتى الان ما يزيد عن الخمسين ، مع أن بعضهم ، على ما يبدو ، كانوا سيغادرون المركب في ميناء « شحر » بعد أن يقوموا بتوديع أبناء عشيرتهم .

وفي اليوم الثالث ، عند مطلع الفجر ، برز جندي ضخم ، آتيا في واحد من تلك القوارب التي ذكرتها آنفا ، وأخذ يسأل عني . يا ستار ! ماذا في الأمر هذه المرة ؟ خير ! فقد كان « النائب » يطلب مني أن أصحبه الى قصره . ولم أستطع أن أفهم وظيفة النائب على وجه التحديد ، سوى أنه كان يعيش في القصر وأنه كان أشبه ما يكون برئيس بلدية المدينة . فقد كانوا جميعا متشابهين : السلاطين والأمراء والنواب والشيوخ ، وان اختلفت الالقاب . وعلى أية حال ، فان عليك ، اذا دعاك النائب ، أن تلبي الدعوة . وقد كنت سعيدا ومستعدا للذهاب على الرغم من أن ساقي كانت

تؤلمني آلما شديدا عندما أقوم بأية حركة ، فقد كانت الضجة والفوضى قـد ضربت أطنابها على ظهر المركب ، وكان بعض الركاب من الحضارمة قـد بدأوا يتشاجرون باستمرار • ولذلك فقد كانت فكرة قضاء يوم مع النائب في قصره الابيض المنيف فكرة حسنة ، فلم أتردد ، بل رافقت الجندي ، على أن أعود في مساء اليوم ذاته • ولكن أسبوعا كاملا انقضى قبل أن أعـود بالفعل ••

كان النائب نفسه ينتظرنى على الشاطىء فى سيارة عتيقة ، امتطيناها متجهين الى القصر • وكان نائب مدينة شحر هذا رجلا قصيرا نحيلا ذا لحية حمراء بلون النار ، كماكان رجلا لطيفا ، حسن المعشر ، لبقا ومهذبا جدا ، يرتدى ملابس زاهية الالوان تتألف من عمامة ذات لون أخضر فاقع ، ووزرة مخططة باللونين الاخضر والاحمر ، فوقها سترة قديمة ، وحول وسطه كان يرتدي زنارا سميكا من القماش يتدلى منه خنجر ذو مقبض عاجـي وجرابفضى • وكان المقبض العاجى مطعما بالذهب ، وكان يرتدى نعلين بسيطين من الجلد الملون ، ويمضغ باستمرار شيئا يشبه السعوط • وعلـى الرغم من أني لم أستطعالتحادث معه (فقد كانت المفردات الفعلية التي أعرفها من العربية تتعلق بالملاحة ومأخوذة من البحارة أنفسهم) ، الا أن الامور سارت بيننا على مايرام • فقد جعلنى أشعر بالراحة فى قصره الذى كان يتألف من بناء كبير جميل ، يشرف على المدينة وعلى البحر ، وعلى بعض الاثار الجميلة التى كانت قائمة فى الفناء • ومنذ أن وصلت الى القصر لم أبرحه الا فترات قصيرة جدا • وكان دخولنا القصر من بوابة ، اصطف على جانبها بعض الجنود البدو فى جلسة مريحة وبنادقهم بجانبهم ، كما كانت هناك بعض البنادق الاخرى والسيوف الكبيرة معلقة على الجدران • وكان بعض أهل المدينة يجلسون القرفصاء خارج البوابة ، وقد وقـف هؤلاء لتحيتنا عند دخولنا • ثم صعدنا عددا كبيرا من الادراج حتى وصلنا الى الغرفة المخصصة لي • وكانت غرفة مؤثثة بأريكة ، وعدد من الكراسـي المريحة ، وطاولة ، وسرير كبير ، كما كانت الارض مغطاة بالسجاد ، أما الجدران البيضاء فقد كانت عارية الا من تقويم مصري — روزنامة — ، يرجع تاريخه الى ثلاث سنوات خلت •

كان الطعام ممتازا فى القصر ، فقد كنا دائما نفطر دجاجا وعجة وبيضا مقليا بالسمن ، وخبزا فطيرا مقليا بشيء لا يعلمه الا الله ، ونشرب القهوة بدون حليب • وعند الظهر كنا نتناول غداء فاخرا يتألف عادة من خروف مسلوق ، وموز طازج وأناناس معلب مستورد من الملايو • وفـي المساء كنا نتعشى السمك والارز • وكان هذا النظام أكلنا اليومي الـذي

لا يتغير ، سوى أننا كنا أحيانا نأكل السمك ظهرا ولحم الغنم مساء · وبعد كل وجبة ، كانت تحضّر للنائب العناصر التي تتألف منها المادة التي يمضغها ، وتجلب له · فكان يمزج أوراقا خضراء بنوع من الليمون الحامض وأشياء أخرى تتألف منها الخلطة ، ثم يبدأ بمضغها بصوت عال وبانتظام مدة من الزمن ، ومن آن لآخر يبصق بعض ما في فمه في مبصقة موضوعة على الطاولة · وفى أقات العصر كنا نتجول قليلا حول المدينة وخارجها ، فنصل الى واحة يقوم فيها ثور صغير يسحب الماء من ساقية فى دلو من الجلد · وفى احدى المرات ، زرنا مضربا لخيام البدو حيث يكثر الاطفال الصغار والكلاب النابحة · وكان هذا يستغرق عشر دقائق على الاكثر · وقد رأيت كل ما يستحق الرؤية في شحر في تلك الجولات · أما بقية اليوم فقد كنت أقضيه فى قصر النائب أتفرج على العالم الخارجى · ولكنى سرعان ما بدأت أشك ـ على الرغم من لطف النائب العجوز وحسن وفادته ـ بأن حالى هذا فى الداخل أسوأ من بقائى فى الخارج انظر الى مافى الداخل · ولكن مادمت ضيف النائب ، فلم يكن باستطاعتى أن أرحل ·

لقد افتقدت المركب ، وافتقدت العجوز يوسف الشيرازى ، وزيدا العبد المعتق وعبدالله ، شقيق نجدى ، والشيخ الصامت حمدا بن سالم وجاسما الطباخ الصغير الحزين · لقد افتقدت هؤلاء · وبقية الملاحين · فقد تعودت عليهم وأصبحت أحبهم ، وكنت أود أن أعرف ما الذى كان يجرى على ظهر المركب فى غيابى ، بل ربما تيسر لى أن أعرف سر القمرة الكبيرة ، لو كنت بقيت هناك · لقد شعرت بالملل فى القصر ، فلم يكن هناك شيء أقرأه · كما أني لم أحضر معي شيئا ، لأني لم أكن أتوقع أن أمكث طويلا هناك · وحتى فى المركب لم يكن معى كتب كثيرة ، فلم أشأ أن أحمل معى ما يشتت انتباهى ويبعدنى عن المراقبة الممتعة لكل مايجرى هناك · ولذلك لم يكن معى سوى خمسة كتب ، واحد منها فقط ديوان شعر ، أما الاربعة الاخرى فكانت جميعها تتعلق بالجزيرة العربية ·

فى اليوم الرابع أو الخامس ، أى بعد وصولنا الى شحر بعشرة أيام تقريبا ـ اذ لم أكن متأكدا من التواريخ ، ولم يكن أحد غيرى يهتم بها أيضا ـ اتى عبد الله الى القصر ليعلمنى بأن نجدى قادم تلك الليلة ، وأن المركب سيقلع قبل مطلع الصبح · وقد أضاف أن من المحتمل أن يعرج المركب على مرفأ أو مرفأين آخرين على ذلك الساحل قبل أن يقفل عائدا باتجاه أفريقيا ، وذكر أسماء مدن الحامى ، وسيحوت · غادرنا القصر فى الساعة الرابعة بعد الظهر ، وركبنا سيارة النائب القديمة : النائب وعبد الله وأنا متجهين صوب الشاطىء · وقد أحببت النائب العجوز مع أنى لم أتبادل كلمة

أطفال رضع يصرخون وأطفال أكبر منهم يتصايحون ، وجميعهم من البدو الذين كانوا ينظرون الى فوق بغباء وبلاهة وهم متلفعون بأسمالهم السوداء ٠

في ذلك الوقت ، وقد غربت الشمس ، وفي نور الشفق الذي لا يدوم طويلا ، والبحارة يؤدون صلاتهم بين الفوضى الضاربة أطنابها على مؤخرة المركب ، كانت عملية تحميل الركاب تسير على قدم وساق ، وقد استمر ذلك فترة طويلة خلال الليل ٠ وكان النور الضعيف المنبعث من المصباح الاعصاري يولد ظلالا غريبة ، وهو يشع على ذلك الجيش الجرار من البدو الرحل ، وهم يتسلقون جانبي المركب ويلقون بأنفسهم على ظهره ٠ ولم يكن هناك حتى سلم من الحبال متدل من جانب المركب ليساعدهم على التسلق ، كما لم يكن هناك من يعدهم أو يدقق في هوياتهم ٠ فكان كل منهم يحاول التسلق من على جانب المركب بأفضل طريقة يعرفها ، وقبل أن يصل الى السطح ، يقذف بأمتعته ـ ان كان لديه شيء منها ـ ثم يجلس حيث يجدها قد استقرت ٠ وكانت هذه هي الطريقة التي يستخدمها كل منهم لتأمين مكان له ٠ فعندما كان أحدهم يلقي بربطة أمتعته على السطح ، كان من تكاد تسقط عليه تلك الأمتعة يبعد عنها ليتجنبها ، وبذلك يفسح مجالا لغيره لاحتلال مكانه ٠ أما من لم تكن لديه أية أمتعة ، فلم يكن له مكان في المحاولة الاولى ٠ وسرعان ما كان هناك صف طويل منهم يجلسون على العارضة الرئيسية ، الا أن حمداً وعبد الله طرداهم من هناك ، فقد كان على السطح ، في رأيهما متسع للجميع ٠ وقد ملأوا الفراغ الموجود تحت طرف المؤخرة ، وتكوموا في المركب الجديد الذي كان البحار يبنيه ، بأن حشروا أنفسهم بين أضلاعه وبين حافة المركب وأصطفوا على الجزء الامامي من المؤخرة ، وكانوا يجلسون في كل مكان : على الرحوية ، وعلى رأس السلوقية ، وعلى صناديق البحارة ٠ وكان اولئك الذين يتمتعون بخبرة سابقة ، يذهبون فورا ليحتلوا الفراغ الكائن تحت طرف المؤخرة ، على الجزء الأمامي من الباب الخارجي للقمرة الكبيرة ٠ أما اولئك الذين كانوا يقومون بالرحلة الاولى ـ وهؤلاء كانوا ، على ما يبدو ، يكونون الاغلبية العظمى ـ فقد كانوا يتجولون هنا وهناك كالغنم لا يعرفون كيف يتدبرون أمورهم ٠ وكان صندوق يتبع صندوقا الى مؤخرة المركب ، وبالة تلحق بها بالة ، وحزمة من الفراش تتلوها حزمة ، حتى أصبح هناك ستة صفوف من الصناديق على كل جانب تتكدس فوقها الصفائح والبالات والفراش ٠ ولم أكن أتصور كيف يمكن بأي شكل من الاشكال التخلص من تلك الفوضى ! وقد استمر المد الهائل من البشر يصعدون ، موجة تلو الموجة ، الى ظهر المركب وكأن الأمر لا نهاية له ٠ وكان البشر من كل جنس وسن ولون ومهنة ٠ فقد كان بينهم الرجال المتقدمون في السن والمكفوفون والعرج ، ومن يلفون

أطرافهم باللفائف ومن يرتدون الملابس البيضاء ، ومـن يرتـدون الملابس السوداء ، والاطفال والصبية والتجار كما كان بينهم سائقو الجمال وهم يحملون عصيهم ، وأحد الشرفاء مع حاشيته ، ورجال تبدو عليهم سـيماء التوحش والاستعداد لعمل أي شيء ، وآخرون تبدو عليهم الدماثة واللطف٠ وكان بينهم البدناء ، كما كان بينهم النحيلون المعروقون ٠ ولم يتوقف ذلك الموج العارم من البشر ، بل كانت موجة تتدفق على المركب ، تتلوها موجة ، حتى خشيت أن يغمروه بشكل كامل ، وأصبحت أشعر بالازدحام حتى على الأقدام الستة المخصصة لي على السدة أياها ، وأخذت أتساءل ـ ليس للمرة الأولى ولا الاخيرة ـ عما سيحدث في تلك الرحلة الغريبة التي ورطـت نفسي فيها ٠

ولكن ما هذا ؟ لقد كان شيء غريب يحدث حتى في ذلك الجو غير العادي ٠ فقد لاحظت أنهم كانوا يواصلون حمل رزم طويلة غريبة ملفوفة بالسواد ، وينقلونها واحدة بعد الاخرى ، بشيء من العناية ، الى حيـث تختفي في الحال في الظلام المخيم تحت المؤخرة ، وكان من الواضح أن تلك الرزم كانت تخزن في القمرة الكبيرة ٠ وبعد الرزمة الخامسة او السادسة ، ثار اهتمامي بالفعل ، فقد كانت احدى تلك الرزم تتحرك ، فاستفسرت عن معنى ذلك من يوسف العجوز ، الذي كان يشتم ويجري هنا وهناك ، يحاول أن يحافظ على النظام ، ويفسح طريقا لتلك الرزم ، ويتأكد أنها تصل الى مقرها بسلام ٠ ولكن يوسف لم يسمعني ٠ فكررت السؤال مستفسرا عن تلك الرزم التي كان يعمل على ايصالها الى القمرة الكبيرة بتلك العناية الكبيرة ؟ فأجاب وهو يجري « بنات » ٠ ماذا بحق السماء ! نساء ! لا بد أنهم قد نقلوا حوالى خمس عشرة من تلك الرزم ٠ اذاً هذا هو سر تنظيف القمرة من الأمتعة ! مسكينات هؤلاء الفتيات ! لقد كن ، كبقية الفتيات ، صغيرات الحجم ، فقد رأيت فيما بعد واحدة منهن تسقط من اللفة التـي كانت فيها ٠ وفي الحال هبت واقفة وجرت برشاقة وهي تمسك بالحجاب أمام عينيها ، الى الباب الذي كان يؤدي الى السجن ٠ لقد كانت ذكرياتي عن ذلك المكان البغيض الذي أمضيت فيه أسبوعا حية ماثلة أمام عيني ٠ لذلك فقد أصبت بصدمة كبيرة عند رؤيتي أولئك النسوة وهن يكدسـن فيه ٠ فكيف يمكن لخمس عشرة فتاة أو امرأة أن يبقين على قيد الحيـاة خلال الرحلة وهن محبوسات في ذلك الوكر القذر الكريه ! اذاً هذا هو سر انشراح البدو وهم يأتون الى ذلك الجحيم ويتفحصونه ويخرجون منه وهم يهمهمون بكلمة « طيب » ! فهو المكان المخصص لشحن نسائهم ! ولم أكن أفهم أبدا ما الذي كان طيبا أو حسنا في ذلك المكان ، سوى أنه مكان مناسب لعزل الجنسين عن بعضهما ، فلا يمكن ، حتى لأولئك البدو ، أن يعتبـروا

المكان سكنا جيدا • ولكن يبدو أن الذكور والاناث في الجزيرة العربية يجب أن يفصلا عن بعضهما بأي ثمن ، حتى ولو مات بعضهم ثمنا لذلك ، وقد مات البعض منهن فعلا ، على ظهر « فتح الخير » قبل أن تأتي الرحلة الى نهايتها •

وقبل منتصف الليل بقليل ، وبعد أن تمكن آخر الركاب من الصعود الى ظهر المركب برزت فجأة فوق افريز المركب كوفية ، كان من الواضح أنها لا تخص أحدا من البدو • فقد كانت كوفية بيضاء موشاة بالذهب ، مثبتة على الرأس بعقال من الحرير الأسود • وكانت احدى ثنياتها ملفوفة حول وجه لابسها ، عندما تخطى الحاجز وصعد الى السطح ، ملقيا بعصاه ونعليه أمامه • ولكن حتى لو لم يظهر من ذلك الرجل سوى أنفه الأقنى الكبير الذي يشبه أنف الصقر ، لعرف جميع البحارة أنه نجدي • اذا هاهو نجدي ، عائدا من رحلته الصحراوية التي قطعها على ظهر البعير ، نجدي الذي استطاع سوق ذلك القطيع الهائل من البشر بأية وسيلة ، حسنة كانت أم سيئة ، من مكان لا يعلمه الا الله • ها هو يعود الى مركبه العظيم الآن ليقوده ، والجميع على ظهره ، الى بلاد لا يعلمها الا الله •

وقد صعد الى ظهر المركب بهدوء ، وألقى نظرة على أسطحته المزدحمة ، ثم صعد الى المؤخرة وهو يمشي على ظهور الصناديق ، فلم يكن أمامه طريق غيرها • وقد أتى معه شيخ معطر معمم يرتدي الملابس الحريرية ، مكث فترة متربعا على السدة الخلفية وهو يهمس في أذنه بحديث طويل • وأخيرا قام الرجل المعطر وألقى تحية الوداع قائلا « بأمان الله » بصوت خافت ، ثم غادرنا نازلا من جانب المركب الى القارب الذي كان قد أتى فيه • وبقي نجدي جالسا هناك على المؤخرة ، يرقب الطقس مركزا عينيه السوداوين وتفكيره على الريح والبحر • وكان يبدو متعبا ، وكأنه آت من سفرة بعيدة ، الا أنه كان متيقظا • لقد كان الشراع معدا للابحار من قبل • وكان كل شيء جاهزا للرحيل • وقبل الساعة الرابعة صباحا هبت نسمة خفيفة من الهواء ، ساعدتنا على الاقلاع ، فانساب المركب مظلما خلال الليل ، صامتا كأنه الشبح ، وصاريه الكبير واقف ، كأنه لا يسنده شيء ، في ذلك البحر الخضم من البشر النائمين على غير هدى في ظل الشراع • وكانت النساء في القمرة الكبيرة صامتات ، ولم تكن حركة واحدة تبدر من أحد • وعندما أنزل الشراع وامتلأ بالهواء ، تحركت الدفة بهدوء ، وبدأنا الاقلاع على بركة الله •

الفصل الرابع

حمولة من البدو



حمولة من البدو

لم نذهب الى « حامي » كما لم نذهب الى « سيحوت » ، فقد كان نجدي قد جاب المنطقة كلها على ظهر بعيره حتى وصل الى سيحوت ، وقرر ان لا فائدة ترجى من زيارتنا لذينك المرفأين · ولا بد ان رحلة نجدي تلك على ظهر جمله كانت رحلة هائلة ، فسيحوت تبعد عن شحر اكثر من مائة ميل · ولم أستطع أن أقطع بأنه كان راضيا عن رحلته ، وغالب الظن أنه لم يكن ، فلم تكن علامات الرضا بادية عليه · الا أن الحكم على ذلك ليس سهلا ، فلم يكن يبدو على نجدي الرضا بأي شيء أو عن أي شيء · ولكنه كان يشكو من عدم توافر العدد الكافي من الركاب ، وأنه كان باستطاعة المركب أن يحمل مائة زيادة على ما فيه · في بادىء الامر لم أصدق ذلك ، ولكني ، بعد أن رأيت الركاب يستقرون على ظهر المركب ، أقررت بأن ذلك ممكن ، فقد كان هناك متسع للمزيد فعلا · فالمسافر العربي يشغل حيزا صغيرا جدا ، ولا يطلب أكثر من مكان يلقي بنفسه فيه · وكان « فتح الخير » مركبا كبيرا ، يبلغ عرضه ٢٩ قدما ، وطول سطحه الرئيسي من باب القمرة الكبيرة الى رأس السلوقية حوالى ٧٠ قدما · كما يبلغ اكبر عرض لسطح المؤخرة ٢٦ قدما بينما يبلغ طوله ٢٧ قدما · وهكذا كانت المساحة التي يمكن الاستفادة منها من السطح الرئيسي تبلغ حوالى (١٩٠٠) قدما مربعا ، كما تبلغ تلك المساحة على المؤخرة حوالى ٣٠٠ قدم مربع فاذا قدرنا أن كل مسافر كان يحتاج الى حوالى اثني عشر قدما مربعا — أي ٦ أقدام × قدمين ، — وهي مساحة تزيد عن حاجة كل منهم ، فان مساحة السطح كله يمكن أن تتسع لأكثر من (١٨٠) راكبا ، يضاف الى ذلك بضعة عشر راكبا يمكن ايواؤهم في القمرة الرئيسية · كما كان هناك القارب الطويل ، والمركب الذي يجري بناؤه ، ومساحة أخرى تحت رأس السلوقية في المقدمة — وهكذا يتبين أن باستطاعة المركب ، في حالة الضرورة ، أن يحمل عددا يصل الى (٢٥٠) راكبا عربيا · ولكن لو حصل ذلك ، لكرهت أن أكون من أولئك الركاب على ظهر المركب ·

كان القارب الطويل والمركب الجديد يحتلان شيئا من الحيز المتوفر على السطح الرئيسي ، ولكن العرب كانوا ينامون تحتهما وحولهما وفيهما وفوقهما

ـ فلم يكونوا يتركون أي فراغ دون أن يستفيدوا منه ـ كما كانوا ينامون على الصناديق ، وعلى الرزم وعلى أي شيء آخر ٠ وكان العربي ينام دائما على جنبه ، ولا يطلب حيزا يمكنه من الحركة لتغيير وضعه ٠ ولم يكن أحد يحمل أمتعة بالمعنى الدقيق ، فيما عدا التجار بالاضافة الى شيخين كانا مسافرين الى مدينة « لامو » في كينيا ، سعيا وراء اكتساب الخبرة فى الامور التجارية ٠ أما البدو فقد كانت أمتعتهم تتألف من صندوق خشبي واحد لكل أربعين منهم ، بالاضافة الى بالة من روث الماشية المجفف لاستعماله وقودا لنار الطبخ ٠

لم استطع أن أكتشف أبدا العدد الصحيح للركاب في تلك المرحلة من الرحلة ، مع اني كنت أحاول كل يوم ان أحصيهم عددا ٠ فقد كان هذا سرا من اسرار المركب ، مثله في ذلك مثل اى شيء آخر يتعلق به ٠ فلم يكن العرب أبدا يتطوعون لاعطاء أية معلومات ٠ ومع أن نجدي وحمدا ابن سالم كانا أحيانا يطلبان مني أن أدلهما على محتويات بعض أوراق المركب ، وأن أفحص وأترجم بعضها ـ وقد أصبح هذا يحدث في وقت لاحق، عندما زادت معرفتي باللغة العربية ـ فاني لم أستطع أن أعرف شيئا بهذه الطريقة ٠ كما اني لم أتمكن من معرفة اي شيء عن طريق السؤال ٠ ولم يكن على المركب قائمة بالركاب القادمين من « شحر » ، كما أن الفرق بين احصاءاتي اليومية كان يصل الى عشرين ٠ ولم أستطع بالطبع أن أعد النساء والأطفال القابعين تحت المؤخرة ، فقد كان محظورا على أي كان أن يقترب من ذلك المكان ، فيما عدا العجوز يوسف الشيرازي ٠ وقد لاحظت أن عبد الله الصوري ، وسعيدا ، وهما الراكبان اللذان رافقانا من عدن ، ما زالا معنا ، مع ان عبد الله كان قد اختفى في كل من المكلا ، وشحر ٠ ويبدو أننا قد أركبنا معنا أيضا عددا آخر من أمثال عبد الله وسعيد ، كذلك الراكب الصوري الضخم المسمى « ماجد » ـ وكانوا يلفظون هذا الاسم « مايد » ـ ، وكانت المؤخرة ، تحت سدة الضباط من الناحية اليسرى ، مملوءة ببضائعهم ٠ وقد أصبح لدينا الآن حوالى أربعين شخصا على المؤخرة وحدها ، وأصبح في تأدية الصلاة مشقة كبيرة ، فلم يكن هناك مكان يقوم فيه كل هذا الحشد الهائل بالركوع والسجود ٠

كان بين ركاب المكلا تاجر كفيف عجوز من مكان ما في داخل حضرموت ، حيث كان قد استقر به المقام ردحا من الزمن ، ولكنه كان مسافرا الآن ، وقد بلغ من العمر الخامسة والستين ، ليسوى أمور أخ له

النجدى يحصى المسافرين ←



متوف ومدفون فى مكان ما من الكونجو · لقد كان رجلا عجوزا مهيبا ذا وجه نحيف وسيم ، وكان معه خادم يقوده خمس مرات في اليوم الى مؤخرة المركب لكي يتوضأ ويؤدي الصلاة التي كان في أثنائها يرتل القرآن بصوت ضعيف متهدج · وكان حمد ونجدي وسائر الباقين في غاية اللطف والكرم مع ذلك العجوز المحترم ، مع أنهم قلما كانوا يراعون شعور الآخرين · وأنى لهم ذلك فى ذلك الخضم الهائل من البشر ، وفى مثل تلك الحياة ! وكان ذلك الرجل العجوز يؤم الجماعة في الصلاة ، وهو واقف أمام صف طويل من ذلك الحشد العجيب موليا وجهه النحيل الحزين الفاقد البصر شطر مكة · لقد كان وجهه معبرا ومؤثرا جدا · فعندما لم يكن الرجل يؤدي فروض الصلاة ، كان يجلس عند قاعدة الشراع المزيني ويغرق في الفكر والتأمل ، ويداه مشبوكتان أمامه ، غير مكترث بالحياة الزاخرة حوله · وكان دائما يرتدي جلبابا ناصع البياض ، وعمامة بيضاء طويلة يلفها حول جبهتـــه العالية · ولكني لم أستطع أن أفهم كيف كان يحتفظ بنظافته الى ذلك الحد في كل ذلك الزحام وكل تلك الفوضى · فلم يكن قد مضى على ابحارنا من « شحر » يوم واحد ، حتى أصبح سطح المركب الرئيسي مستنقعا من القذارة لا يمكن تنظيفه أبدا ، ما دام الركاب عليه ، لأنه لم يكن بامكان أحــــد الوصول اليه ليقوم بتلك العملية · كما أني لم أستطع أن أفهم كيف كان بحارتنا يعيشون في خلال تلك الفترة الرهيبة ، التي امتدت الى ســـــتة أسابيع · ولكن ما أن غادر آخر راكب المركب في ممباسا ، بعد بضعـــة أسابيع ، حتى ظهر البحارة ، من مكان ما وبشكل ما ، والتعب والارهـــاق والهزال تبدو واضحة عليهم · ويبدو أنهم كانوا ينامون متكومين فـــوق المراسي ، والحبال ، وعلى سطح الموقد ·

في اليوم الاول من رحلتنا الى أفريقيا ، كنا نبحر بمحاذاة ساحل حضرموت ، وبعكس الريح التي كانت تهب باتجاه رأس عسير(1) · ومع اننا كنا في منتصف شهر يناير (كانون الثاني) ، أي في الوقت الـــذي ينتظر أن تكون الرياح الموسمية الشمالية الشرقية تهب فيه بشكل منتظم ، الا أن الريح كانت متقلبة ، تهب في الغالب من الشرق بدلا من الشــــمال الشرقي · وقد قام نجدي بتغيير اتجاه المركب بضع مرات ، ونحن بمحاذاة الساحل ، حتى لا نبتعد كثيرا عنه ، وهي نفس الطريقة التي كان حمـــد قد اتبعها ونحن قادمون من عدن الى المكلا ، لأننا لو ابتعدنا كثيـــرا عـــن

---

(1) راس عسير يقع على القرن الافريقى فى الصومال ، مقابل الجزيرة العربية ، ويطلق عليه الاوروبيون اسم (Cape Guardafui) انظر الخريطة ، ملحـق رقـم ٥ (المترجم) ·

الساحل ، لأصبحنا في مهب الريح الشرقية واتجهنا غربا ، وخسرنا بسبب ذلك كثيرا من الوقت وطالت بنا الرحلة • أما قريبا من الشاطىء فقد كان التيار المعاكس يساعدنا على التقدم ببطء • وقد مررنا بقرب مرفأ « الحامي » ، الذي كان عبارة عن قرية صغيرة ، بدت لي شيئا مختلفا مثيرا للاهتمام حتى أني أسفت لأننا لم نتوقف فيها • فقد كانت ثلاثة مراكب من نوع « السمبوك » راسية هناك ، ولكني لم أر أي « بوم » كبير • وكان « بوم » القطامي و « البغلة » الفارسية قد سبقانا • ولذلك كنا وحدنا ، فقد كان « بوم » القطامي متجها الى ممباسا مباشرة •

كان ساحل حضرموت بالقرب من « الحامي » ، وعلى امتداده حتى « رأس شارما » جميلا جدا ، وكنا نرى في الافق البعيد الصخور الشاهقة المستوية السطح تقف شامخة على جانبي الوادي ، ومن هناك تمتد باتجاه البحر تلال صغيرة يتماوج عليها الضياء والظلال ، فتبدو كأنها قطعة من القماش المظلل • ومن آن لآخر كنا نرى احدى القرى الصغيرة اللطيفة ، جميلة ساكنة ، أو هكذا كانت تبدو من بعيد •

واصل نجدي سيره بمحاذاة الساحل ، وقد عقد العزم على أن يصبح مواجها لتلك الريح التي تهب من ناحية الشواطىء العربية باتجاه قارة افريقيا بأكملها ، قبل أن يغير اتجاهه وييمم وجهه شطر « حيفون » • وكان هدفه السليم هو أن يبحر بعكس اتجاه الريح أطول مسافة ممكنة ، ثم ينقلب ، مستخدما الريح الشرقية ، ليسير بخط مستقيم باتجاه الأنوار المنبعثة من « رأس عسير » ، الذي يجب أن يصل اليه بموجب تخمين دقيق ، لأنه لم يكن يعرف شيئا من علم الملاحة ، كما أني لم أحضر معي أية أجهزة ملاحية • ولم تكن المسافة بعيدة ، على كل حال ، كما ان نجدي كان دائما يسافر الى افريقيا بنفس الطريقة • وعندما يخبرك ربان أحد المراكب العربية أنه يعرف المياه والطرق البحرية معرفة جيدة ، فانه يعني ما يقول تماما • فهو لا يتكلم عن معرفة نظرية بكيفية القيام برحلة بحرية بمراقبة النجوم ، أو بمساعدة المعلومات المتوفرة عن الريح والطقس ، أو بالاستعانة بأحدث الخرائط البحرية ، وأجهزة قياس الاعماق ، وأجهزة قياس السرعة ، وبقية القائمة الطويلة من الاجهزة الملاحية المعروفة • فقد كان نجدى يسيّر مركبه مستعينا فقط بمعرفته بالأوضاع المحلية ، فقد كانت السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية (وكذلك سواحل الخليج العربي ، وبلوخستان ، وغربي الهند) كتابا مفتوحا بالنسبة له • وها هو يستخدم معرفته تلك الآن ويستفيد منها استفادة كاملة ، مع أني يجب أن أذكر هنا أني كنت أحيانا لا أفهم معنى لحركاته القصيرة في تغيير اتجاه



تجهيز جانبي المركب

المركب . فلو كان على أنا أن أخرج مركبا من هناك ، لكانت تحويلاتي لاتجاه المركب طويلة ، على افتراض أن الرياح الموسمية ستكون أفضل ونحن بعيدون عن البر ، وتساعدنا على السير بشكل أفضل . ولكن ذلك لو حدث ، لكان خطأ كبيرا . لقد كان نجدي يعرف الرياح والمياه التي يتعامل معها معرفة تامة .

وأخيرا وصلنا الى نقطة انطلاق الريح من « رأس شارما » ، ثم انثنينا بشكل مفاجيء مبتعدين عن الساحل ، ومتجهين صوب افريقيا ، على خط يمر شمال جزيرة سوقطرة ، ولا يبعد عن رأس عسير أكثر من عشرة أميال . وكنت مهتما بمعرفة الطريقة التي سيرسم نجدي بها خطة سيره . وقد قام بذلك بشكل سليم بمساعدة رسم البوصلة الموجودة على طرف خريطة حديثة نسبيا . ولكنه لم يكن معه مسطرة لرسم الخطوط المتوازية ، فاستخدم قضيبا مستقيما من سعف النخل بالاضافة الى ابهاميه ، وكانت طريقته فعالة على الرغم من أنها قد لا تنال موافقة الهيئة التجارية العالمية . ولكن ثقته العمياء بالبوصلة ، التي كان يصر دائما على صحة

دلالاتها ، بغض النظر عن المكان الذي يكون فيه المركب ، أو كمية الحديد التي يمكن أن تكون ملقاة حول صندوق البوصلة ، تلك الثقة كان يمكن أن تقود الى تدمير المركب لو كانت الظروف غير تلك التي كنا نواجهها . فبالنسبة له ، كانت البوصلة صادقة دائما . ألم يشترها ويدفع ثمنها ؟ ولكني عرفت المزيد عن أساليب نجدي الملاحية فيما بعد .

أصيب أكثر من مائة من ركابنا بالدوار ، وأصبح المركب بسببهم في حالة يرثى لها . فلم يكن البدو يحرصون على الذهاب الى جانب المركب ليفرغوا ما في جوفهم في البحر ، بل ان بعضهم كان ، عندما يجلس على افريز المركب ، يتقيأ في داخله ، ولم يفلح كل الصراخ الذي ينهاهم عن ذلك بتغيير موقفهم . وربما رأوا أن البحر نظيف جدا بالنسبة لسطح المركب ، فلم يريدوا أن يوسخوه ، وفضلوا التقيؤ على المركب . أما المسافرون الذين كانت لديهم خبرة أكبر ، فقد كانوا يستخدمون كثيرا من الوسائل الغريبة ليبعدوا الدوار عن انفسهم . فكانوا يصلّون كثيرا بخشوع وتقى ، كما كان آخرون يضعون ليمونا أخضر أمام أنوفهم ويشمونه باستمرار ، ويحشون أنوفهم وآذانهم بقطع من الورق . وكان منظر بعضهم مضحكا وكميات الورق الكبيرة بارزة من أنوفهم ، بينما أطرافها مربوطة بخيوط حول أعناقهم . ولكن جميع هذه الطرق لم تفد في كثير أو قليل ، ومعظمهم كانوا يصابون بالدوار في نهاية الامر . الا انهم كانوا يقومون بعمل حكيم ، فلم يكونوا ينقطعون عن الأكل أبدا . لقد كانت حركة المركب معقولة ، كما كان الطقس ممتازا . وكان البحر خفيف الموج ، وكان النسيم لطيفا يساعد على الابحار ، ويغدو معتدلا عندما كنا نسير بعكسه ، وما كان على المركب الا أن يسير باتجاه الريح فينساب بخفة باتجاه رأس عسير . لقد كانت الظروف المناخية ممتازة ، وكان ذلك من حسن حظنا ، بعد ان اصبح معنا ذلك الخليط العجيب من البشر على ظهر المركب .

أما الظروف الفعلية للحياة على ظهر المركب ، فقد كانت سيئة جدا خلال هذا الجزء من الرحلة ، الا أني أشك في أن هذا ماكان يشعر به العرب نحوها . فعلى أقصى المؤخرة كان ركاب الدرجة الاولى وهم : التجار السندباديون سعيد وعبد الله وماجد ، والشريف القادم من المكلا والمسافر الى افريقيا ليجمع بعض الأتاوات المستحقة ، والشيخ العجوز الكفيف ، والشيخان الصغيران ، وكثير غيرهم . وكان هؤلاء يأكلون مما يقدمه المركب من طعام ، ويدفعون مقابل تلك الخدمة روبية واحدة زيادة عن أجرة السفر من المكلا أو شحر الى اي مرفأ في افريقيا . ثماني روبيات

بدون طعام ، وتسعة مع الطعام ، واثنتي عشرة روبية للنساء • وقد أوضح نجدي سبب تقاضيه أجرا عاليا عن النساء ، بأنه لم يكن راغبا في أخذهن معه ــ فلم يكن على مركب القطامي سوى ثلاث نساء من بين مائة وخمسين راكبا ــ ولذلك طلب الأجور العالية ، فقد كان من الضروري عزلهن عن الرجال وايواؤهن ، وكثيرا ما يكنّ سببا للمشاكل ، ولذلك فقد كان من الافضل الا يحمل أحدا منهن معه ، ولكنه كان مضطرا لاخذ بعضهن على هذه الرحلة • أما الأجرة فقد كانت واحدة سواء أكان الركاب مسافرين الى مقاديشو أو لامو أو ممباسا • كما كانت العادة أن تدفع تلك الاجرة مقدما ، وان لم يكن ذلك دائما ضروريا ، فركاب الدرجة الاولى ، الذين كان من بينهم ، على ما يبدو ، بعض أصدقاء نجدي القدامى ، لم يكونوا يدفعون الاجرة مقدما ، بل ان بعضهم لم يدفع أجرة قط •

وكان على الجزء الأمامي من المؤخرة عدد من الحضارمة المولدين الذين كانوا في الغالب يبدون نصف ماليزيين ، وكان بعضهم يبدو عليهم اللؤم ، وكثيرا ما كانت المشاجرات تقوم في هذا الجزء • وهنا أيضا كان يركب الشيخان الشابان اللذان كانا مسافرين لكي يكتسبا بعض الخبرة في الاعمال التجارية • أما أكبرهما فكان يبلغ حوالى الثانية والعشرين من العمر ، وهو مولود في صورابايا(١) بحسب قوله ، ويتكلم الماليزية بالاضافة الى قليل من الهولندية ، كما يتكلم لغة خاصة به • وكان شابا وسيما ، يؤدي من الصلوات أكثر من أي راكب آخر على ظهر المركب ، فقد كان يستمر في الصلاة طويلا ، بعد أن ينتهي جميع الآخرين منها ، وهو راكع على ركبتيه في وسط ذلك الخضم الهائل من البشر ، ويداه على صدره ، وتعبير من الخشوع والاستغراق ظاهر على وجهه • وعندما كان يصاب بالدوار كان يصلى أكثر من العادة • وكان معه أخوه الذى كان يبلغ حوالى الثامنة عشرة من العمر ، ولم يكن هذا مسلما متحمسا لاسلامه كأخيه ، كما كان معه بعض الخدم وماليزى مولّد كان أكثر الركاب سببا في القرف وأكثرهم ازعاجا بلا استثناء • وقد كان مع هذا المولد ــ نصفه حضرمي ونصفه الآخر ماليزي ــ جراموفون عتيق وعدد من الاسطوانات الفظيعة ، بعضها من دمشق وبعضها الآخر من القاهرة ، وكلما كانت الأصوات على المركب تهدأ ــ وكان هذا نادرا ما يحصل ــ كان هذا يبدأ بتشغيل الاسطوانات ويزعج الدنيا ، علاوة على انه كان أيضا يغني بصوت أسوأ بكثير من صوت اسماعيل ، موسيقينا العظيم ، الذي كان يصاب بالقرف ويضطر الى السكوت وهو يشعر بالألم •

---

(١) مدينة فى جزيرة جاوا ، باندونيسيا (المترجم)

وفي خلال الليل ، كان بعض الركاب غريبو الأطوار يأتون أيضا الى المؤخرة ، ويتمددون بطريقة خطرة على حواف الصناديق ، او في أي مكان آخر يجدونه مناسبا • أما على السطح الرئيسي ، فقد كان هناك حوالى أربعين مسافرا يجلسون تحت حافة المؤخرة البارزة ، وقد قسموا أنفسهم الى زمر •• كانت احداها تتكون من أولئك الآتين من قرية قريبة من « شبام » ، في الجزء الداخلي من حضرموت ، كما كانت زمرة أخرى تتكون من شباب قادمين من ميناء صور • ولست أدري كيف تمكن هؤلاء من الوصول الى شحر ، ولكن من المحتمل أنهم أبحروا على الشواطىء في بعض المراكب الصورية أو المهرية الصغيرة ، فعندما يبدأ العربي بالتجوال ، يصعب التخمين أين سينتهي به المطاف • ومثال ذلك الشريف العجوز الراكب على المؤخرة • فقد كان هذا عاملا في مصنع للسيارات بمدينة ديترويت (بالولايات المتحدة الامريكية) ، كما أنه أمضى ثماني سنوات داخل غرف الآلات فى السفن التجارية عابرة المحيطات • وكانت معرفته باللغة الانكليزية قليلة جدا بالنسبة لشخص مثله خدم مدة طويلة تحت العلم البريطاني ، ولكنه كان كثيرا ما يخاطبني بلغة غريبة ، لم تكن اللغة العربية ، ولو أني لم أكن متأكدا من ذلك ، لأن عبد الله هو الذي قال ذلك ، واضاف أنها لم تكن لغة سواحليه أو فارسية أو هندوستانية أو أية لغة أخرى مستعملة في الهند • كما أن من المؤكد أنها لم تكن تشبه اللغة الانكليزية في شيء ، ولم تكن من اللغات الأوربية التي يمكن أن أتعرف عليها • وقد مضى وقت طويل قبل أن أكتشف أنه كان في الواقع يتكلم لغة بولونية مكسرة ، كان قد تعلمها في مدينتي بافالو وديترويت وهو يحسب أنها لغة انكليزية • فقد كان يعيش في حي « هامترانك » وهو ضاحية من ضواحي ديترويت يقطنها البولنديون ، ولا بد أن زملاءه في العمل كانوا من البولنديين •

لقد كان الشيخ الصغير السن ، الذي كان يصلي كثيرا ، شابا شهما شجاعا ، وكان عادة يقرأ لأتباعه كل يوم شيئا من القرآن الكريم ، وأحيانا من كتب غيره • وكان يقرأ بصوت جهوري ، حتى أثناء اصابته بدوار البحر ــ وهذا يتطلب شجاعة بدون شك ــ • لقد كان هذا أحب الركاب جميعا الي ، وقد احببت أخاه أيضا •

كان البدو على السطح الرئيسي يعيشون حياة من الفوضى التامة • وكان هناك صراخ وشجار دائم على ذلك السطح • الا أنى لاحظت أن البدو لم يكونوا هم البادئين بالشجار ، مع أنهم كانوا يستمرون فيه ، بل كان البادئون بذلك هم المولدين الذين كان أسوأهم على الاطلاق رجلا نصف صومالي ومعه ثلاثة أطفال : صبي صغير مزعج للغاية اسمه عبد الله ، وصبي

آخر أصغر سنا وأسوأ طبعا وسلوكا ، وبنت صغيرة ، ذات وجه يدل على السلاطة ، مطلي باللون الأسود تحت العينين وعلى عرض الجبهة بشكل لا معنى له • وكانت هذه الفتاة السليطة ترافق أباها الضخم طوال النهار ، فاذا جن الليل اختفت في القمرة الكبيرة • وكانت تقرص وتخمش جميع الأولاد الاخرين الأصغر منها سنا عندما لا يكون أباؤهم منتبهين ، ولكنها كانت تزعق بأعلى صوتها اذا مسها أي انسان • لقد جعلت من حياة الاطفال الأخرين جحيما لا يطاق ، ولكن ثلاثة من الاولاد الصغار الذين تبلغ أعمارهم حوالي الرابعة ، تجمعوا عليها وجلدوها ، وكانت تستحق ذلك بالتأكيد • كان لها حوالي سبع سنوات من العمر ، وكانت ترتدي فستانا وسروالا طويلين ، الا ان وجهها الشيطاني لم يكن يغطيه الا بعض الطلاء • وليتها كانت تتحجب، وتسد فمها ، هي وبقية أفراد أسرتها ، فربما كان ذلك قد جلب شيئا من الهدوء وراحة البال للركاب • فقد كان أبوها يقضي النهار بطوله وهو ينادي ابنه الاكبر ، عبد الله ، بأعلى صوته ، ويطلب منه أن يقوم بعمل ما ، هذا اذا لم يكن مشتركا في شجار مع بعض الركاب الآخرين ـ • لقد كان عالي الصوت ، مزعجا ، كثير الشجار مناكفا ، ولم يكف عن مناداة ابنه عبد الله بأعلى صوته • وكان دائما يشكو من أنه لا يتوافر له الحيز الكافي لقدر الطبخ ، ولا يتوافر له الماء الكافي من المركب • كما كان اطفاله في شجار دائم • وكان معه جميع أمتعته المنزلية ، لأنه كان مهاجرا للاقامة في موقاديشو ، وكانت أمتعته كلها محفوظة في أحد الصناديق • كما كان معه رأسان من الماعز يقفان طيلة الرحلة مربوطين الى الطرف الامامي من خزان الماء ، وكانا أفضل أفراد تلك الاسرة سلوكا ، وأكثرهم هدوءا •

ولم يكن هذا المخلوق المزعج وأسرته النمط السائد على المركب ، بل كان العكس هو الصحيح • فقد كان معظم ركابنا أناسا هادئين ، مهذبين ، لم يستغرقهم الاستقرار على ظهر المركب سوى القليل من الوقت ، ينصرف كل منهم بعده الى الاهتمام بأموره الخاصة ، يجلس وينام ويتحادث مع الآخرين ويطبخ طعامه القليل دون أن يزعج أحدا أو يعطل عمل البحارة • وكان زعيم البدو رجلا عربيا ضئيل الحجم ، نحيل الجسم ، حليق الوجه ، جذابا يدعى « عودة » ، يرافقه ابنه البالغ من العمر حوالى ثلاث سنوات • وقد أحببت « عودة » وأحببت الصبي الذي كان يبدي اهتماما وسرورا بالمركب وبكل ما يجري على سطحه ، وكانت له حظوة خاصة عند البحارة • فقد كان هذا الصبي ، الذي كان له بطن كبير بارز ، وتسريحة شعر خاصة فقد كان شعر رأسه محلوقا بالموس من الجانبين متروكا في الوسط لينمو كأنه صف من أشجار النخيل الواقفة على شاطىء البحر ـ كان هذا الصبي يجد متعة ما بعدها متعة في أن يتبع البحارة وهم يقومون

بأعمالهم ، وأن يتظاهر بأنه يشد الحبال ويرفعها معهم ، وأن يغني ما يغنون ٠ وكان الحماس والاهتمام يبلغان به أحيانا مبلغا كبيرا ، بحيث يأخذ بالجري هنا وهناك بمفرده ويشد الحبال كالبحارة بيديه الصغيرتين ، ويغني بحماس أغاني البحارة على طريقته الخاصة ٠ كما كانت له هواية أخرى هي صيد السمك ، مع أني لم أره يصيد شيئا قط ٠ ولا ريب أنه كان طفلا قويا ، صلب العود ، وكانت تلك الفتاة المزعجة تتجنب قرصه عندما تقع عليه وحيدا ٠ وقد جربت ذلك مرة واحدة كانت نتيجتها وبالا عليها ، فقد انصرفت هاربة وهي تزعق وتعول بعد أن نالت صفعة مدوية على وجهها ٠ لقد كانت تلك الفتاة وكأنها قد خلقت برغبة مشبوبة للانتقام لبنات جنسها من رجال المسلمين ، ومع أن انتقامها كان يقتصر على الضربات الخبيثة ، والرفس بالأرجل ، والقرص والخمش ، وان الرجال الوحيدين الذين كان بامكانها ان تهاجمهم كانوا من الاطفال الاصغر سنا ، الا انها كانت مثابرة على الوصول الى هدفها بعناد وخبث كبيرين وبقوة وطاقة لا تنتهيان ٠ الا أن ذلك الصبي البدوي الصغير كان ندا كاملا لها ٠ ولم يكن هذا يرتدي سوى وزرة صغيرة سميكة سوداء ٠ وكان أبوه يدهن شعر رأسه القاسي جدا بالزبد ، أو يجدد طلاء بطنه الأزرق ٠ لقد كانا زوجا طيبا من الناس ، وكانا منسجمين ، أحدهما مع الآخر ٠

البومات على الشاطىء



وكان على المركب عدد كبير من الاطفال ، بعضهم مسافرون وحدهم ، على ما يبدو ، لأني لم ألاحظ أن أحدا كان يعني بأمورهم ، ولكن معظمهم كانوا ينتمون الى أسر ، وكانوا كلهم ، ولو اسميا ، تحت رعاية رجال بالغين ٠ وقد اكتشفت فيما بعد أن بعض هؤلاء الصبية كانوا يرافقون المتسولين الى أفريقيا ، على أن يقوموا هم بما يلزم من الاعمال ، بينما يقوم الرجال بالتسول ٠ وكان على المركب رجل كفيف سيء الخلق يصحب ولدين لا يزيد عمر أي منهما عن ثمانية أو تسعة أعوام ، وكان الاتفاق بينهم ، على ما يبدو ، أن يقوم الولدان على خدمة الرجل ، مقابل أن يزودهما هو بالملابس والطعام ويدفع عنهما أجرة السفر الى افريقيا ذهابا وايابا ٠ وبما أنه لم يكن من ركاب الدرجة الاولى ، فقد كان عليه أن يتكفل بأمر طعامه بنفسه ٠ وقد اتضح بعد مرور بضعة أيام أنه لم يكن يطعم الطفلين شيئا على الاطلاق ٠ لقد كان رجلا مكتئبا ، وكان يلعب على مزماره المحطم أنغاما حزينة طيلة اليوم ، وكانت هذه ، على ما يبدو ، طريقته في التسول ، لأنه كان يطلب مني احسانا بصوت ذليل بائس كلما مررت بقربه ٠ وقد تمكن الطفلان ، اللذان يبدو أنهما يسافران الى أفريقيا للمرة الاولى ، من تحمل معاملته السيئة بضعة أيام ، ولكن المسألة وصلت في النهاية الى مسامع نجدي ، الذي تصرف ازاءها التصرف السليم في الحال ، فقد كان هو القاضي وهو هيئة المحلفين ، وعليه ان يبت في كل ما ينشأ من النزاعات على ظهر المركب ٠

فعلاوة على تسيير المركب والوصول بالركاب بأمان الى حيث يريدون، كان نجدي مسؤولا عنهم مسؤولية كاملة ، وكان يحكمهم بيد من حديد : كان يحكم في نزاعاتهم ، ويؤمهم في الصلاة ، ويسكنهم ويهدئهم عند الضرورة ، ويرعى جميع شؤونهم ، عدا ما يتعلق منها بالامور الطبية والعلاجية ، فلم يكن على المركب أدوية أو ضمادات من أي نوع ٠

وكلما كان الركاب يحتاجون شيئا من نجدي ، كانوا يأتون الى طرف المؤخرة ، ويرفعون رؤوسهم وينادون نجدي باسمه المجرد : « يا نجدي » ، ثم يبدأون في الحال بسرد مظالمهم ٠ لقد كانت حياة ديمقراطية حرة ــ صحيح أن نجدي كان ملكا ، الا أن أفراد رعيته لم يكونوا من الجبناء ٠ فقد كان كل من هؤلاء ملكا أيضا ، ولم يكن يساعد نجدي على حكم رعيته وحفظ النظام بينهم ، الا ما يتمتع به من مقدرة وصفات طبيعية خاصة ٠ فكان يضبطهم بقوة شخصيته ، ولم يكن يصرخ قط ٠ فقد كان قائدا لهم لأنه كان القائد الطبيعي ، لا لأي سبب آخر ٠ لم تكن الحياة على ظهر مركبنا مع هؤلاء الركاب نزهة ممتعة ، ولولا نجدي ، لكان المركب مستشفى للمجانين ٠

ولولا المحافظة على القاعدة الاولى من قواعد المركب ، لما كان بامكان أحد أن يتحمل تلك الحياة . وكانت القاعدة الاولى تقول بكل بساطة ووضوح : انه مهما حدث وتحت أية ظروف ، فالراكب دائما على خطأ . وكان هذا مبدأ شاملا وفعالا جدا ، أعجبني كثيرا . فعلى الرغم من صعوبات الحياة ومشاقها على ظهر المركب ، كانت الفرصة التي أتيحت لي لمراقبة كيفية تطبيق هذا المبدأ السليم والعملي لتنظيم سلوك الركاب في البحر ، فرصة عظيمة عوضتني عن شهر من مرض الزحار . ففي جميع المنازعات التي كانت أحيانا تقوم بين البحارة والركاب ، كان الراكب هو الذي يعطل العمل وعليه أن يبتعد عن طريق البحارة . وربما كان هذا يبدو وضعا قاسيا بالنسبة للركاب . ألم يدفع هؤلاء أجور سفرهم ؟ ولكن الشرط كان واضحا فقد دفع الراكب بعض المال لقاء شيء واحد ، هو ان تتاح له فرصة الركوب على المركب كما هو ، وعليه أن يقبل به على حاله . وليس له أي رأي في ادارة المركب ، كما لا يسمح له بتسبيب أي ازعاج أو ارباك للعمل . فقد كانت الطريقة الوحيدة لادارة ذلك المركب ، بشراعه الضخم الثقيل — بل ان الطريقة الوحيدة لادارة وتسيير أي مركب شراعي من أي نوع ، وحتى لتسيير وادارة أي مركب تجاري — هي أن تتوافر لدى القيادة الكفاءة والاتقان واليقظة والقدرة ، فليس هناك أي مجال لتدليل الركاب . وهؤلاء كانوا على السطح ، لأنه لم يكن هناك مكان آخر يذهبون اليه ، وما داموا جميعا على ذلك السطح ، فلا بد أن يعترض بعضهم سبيل البحارة في بعض الاحيان . وهم في المركب ، في الأساس ، لأن المركب بحاجة الى ذلك الدخل الذي يكسبه منهم . ولذلك فقد كان مجرد السماح لهم بركوب المركب أول امتيازاتهم وآخرها . وما أن يصبحوا على ظهر المركب حتى يعتبروا أثقالا حية تساعد على توازن المركب ، بل ربما أسوأ من ذلك ، لأن المركب كان محملا بشحنة ثقيلة ، ولا يحتاج الى ثقل آخر يوازنه . ففي نظر أهل المركب كان هؤلاء الركاب مصدر ازعاج رديء كثير الصخب ينبغي التخلص منه في أسرع وقت ممكن ، وكان عليهم أن يفهموا هذا ، وقد فهموه فعلا وبسرعة . فاذا لم يعجبهم الحال على المركب ، فلديهم الجمال يمتطون ظهورها ، ويتنقلون عليها . ولهذا كله كان الوضع بالنسبة للركاب مقبولا ومحتملا جدا .

كان اليوم الذي شكا فيه الصبيان من سوء معاملة الرجل الضرير نموذجا لجميع الايام الاخرى . ففي كل يوم ، كان على نجدي أن يصدر أحكامه العادلة في جميع أنواع النزاعات التي كانت تنشأ على المركب ، فيما عدا ما يختص منها بالنساء . على كل حال ، فقد كانت هؤلاء محجوزات في أماكنهن ، ومنسيات تماما ، ولا يسمح لهن حتى باستنشاق نسمة من الهواء على السطح . وربما كان هذا شاقا عليهن ،ولكنه أمر لا يمكن تجنبه في

عالم كهذا ، بل ربما كان هذا أفضل ما يمكن أن يحصل لهن ٠ وكما قال نجدي ، فربما لن يمكثن في ذلك المكان مدة تزيد عن الشهرين (وكانت هذه المدة في الاصل ، وحسب الوعد الاول ، اسبوعا فقط) ٠ في هذا اليوم ، يوم المنازعات ، كان كل شيء عاديا : فقد كانت مجموعة من البدو تنظف وزراتها الزرقاء من القمل على سطح القارب الطويل ، كما كانت عنزتا الصومالي تثغوان في مكانهما بجانب صهريج الماء ، والصومالي يصرخ بأعلى صوته على مجموعة من الماليزيين المولدين ذوي الاسنان البارزة تحت حافة المؤخرة ٠ وكانت تلك الفتاة الشريرة تدور هنا وهناك تبحث عن الفرصة المناسبة لتنفث سمومها على أحد أبناء الجنس الاخر ، كما كان « عودة » الزعيم البدوي يلعب مع ابنه الصغير ، والعمال البدو والحضارمة يتحادثون ، أو يجلسون ، أو ينامون ، أو يطبخون ، أو يأكلون ، أو يصلون ، أو يقرأون القرآن ، أو يدهنون شعور بعضهم بعضا بالزيت ، أو يمسكون بتلابيب قطع من سمك القرش المجفف القاسي كحجر الصوان ، يقضمونها وهم يبدون الاستحسان بطعمها ٠ لقد كان كل شيء طبيعيا ٠ وفجأة ، مزق هذا المنظر الجميل الهادىء نسبيا صراخ عال جدا ، تبعته اللعنات والشتائم المخيفة باللغة العربية التي يمكن أن تفزع الجمال ٠ وقد كانت مثل هذه الاحداث كثيرة الوقوع لدرجة أنها لم تكن تثير كثيرا من الاهتمام ، لأن الصومالي المولد كان يثير مثلها عشر مرات كل يوم ٠ ولكن الشيء الغريب في هذا الحادث أنه لم يكن من فعل الصومالي ذاك ٠

وفي لحظة من اللحظات ، خفت حدة الاصوات قليلا ، واتضح أن النزاع كان مصدره تحت افريز المؤخرة ٠ ولم تمض مدة طويلة حتى انتشر الصراخ والشغب الى سطح المركب الرئيسي ، حيث أخذت القدور وأطباق الارز تندلق في كل اتجاه ، وانطلقت احدى العنزتين تجري وتثغو ، بينما هربت تلك الفتاة الماكرة ، التي بدا عليها الخوف لأول مرة ، واختفت في القمرة الكبيرة ٠ وقد بدا أن العناصر الرئيسية ، المشتركة في ذلك الشجار ، الذي كان يمتد ويتسع في كل لحظة ، تتألف من المتسول الضرير ، والصبيين الصغيرين اللذين يرافقانه ، وماليزي مولد من ذوي الاسنان البارزة ، ورجل عجوز يرتدي نصف وزرة ، وصائغ عربي عريض المنكبين من موقاديشو ٠ وعلى الرغم من صعوبة فهم ما يجري بشكل واضح ، فقد استطعت أن أفهم أن الشحاذ الكفيف كان يحاول مهاجمة الولدين اللذين كانا يصرخان ويتشاجران ، بينما كان الماليزي ذو الاسنان البارزة والصائغ يتشاجران على من منهما سيقوم بمنع الضرير من مهاجمة الولدين ٠ أما الرجل العجوز فقد وجد نفسه في وسط المعمعة ولم يدر كيف يخرج منها ٠ وقد اشترك أناس آخرون في العراك ، وأخذ البحارة يتراكضون لكبح جماحهم وايقاف الشجار ، ولكنهم وجدوا صعوبة كبيرة في ذلك ، لأن الحركة على السطح الرئيسي

كانت صعبة جدا حتى في الاحوال العادية ، فكيف والحال على ما هو عليه الآن ، ومؤخرة السطح الرئيسي بأكملها ، من مؤخرة القارب الطويل على ميمنة المركب حتى مقدمة المركب الجديد الصنع ، تموج بالبدو وهم يصرخون ويتراكضون ·

في هذه اللحظة ، رأيت « نجدي » ـ الذي كان متكئا على السدة الخلفية يتلو شيئا من القرآن للتاجرين الصوريين ـ يهب واقفا على قدميه بسرعة وخفة لم أشهدهما من قبل ، ويلتقط عصا مما تساق بها الجمال ، ويقفز من فوق افريز المؤخرة المنخفضة ، فاذا هو كالسهم على السطح الرئيسي للمركب ، ثم يشق طريقه بالعصا ، التي كان يحملها كمذراة الحنطة ، والتي كانت الشيء الوحيد الصامت بين الغوغاء ، حتى يصل الى المتخاصمين الذين كان عددهم قد بلغ العشرين على الأقل ، بينما كان البحارة يصارعون الأمواج البشرية للوصول اليه من جهة مقدمة المركب ونجدته · ولكن نجدي لم يكن بحاجة الى مساعدتهم ، فقد كان يؤدي العمل بمفرده بشكل ممتاز · لقد استطاع في مثل لمح البصر ان يوقف القتال ـ وان كان الهياج قد استمر طيلة النهار ـ · فقد كان قد أمسك باحدى يديه بذلك الرجل الضرير من مؤخرة عنقه ، كما أمسك بالماليزي ذي الاسنان البارزة وبالرجل العجوز باليد الاخرى ، بينما كان الولدان قد أصبحا تحت قدميه · وبعد ذلك وصل البحارة اليه ، وسيق المتخاصمون وتبعهم آخرون الى مؤخرة المركب ، حيث عقدت جلسة فورية للتحقيق في الأمر واصدار الحكم المناسب بشأنه · وكانت المحكمة تتألف من نجدي وحده ، وكان الانسان الوحيد ، عدا المتخاصمين ، الذي جرؤ على فتح فمه هو ذلك « السيد » أو الشريف الحضرمي · فقد كان هذا الشخص ، نظرا لانتسابه الى النبي (صلعم) الحق في الكلام ، وكثيرا ما كان يتدخل لفض بعض النزاعات التي كانت تنشأ على المركب ، وان لم يكن دائما موفقا في ذلك · وقد بدأ المتخاصمون الآن في الصياح في وقت واحد معا ، بالاضافة الى حوالي خمسين من الركاب الآخرين الذين صعدوا الى المؤخرة ، واستمروا في ذلك الى أن عمل نجدي على تهدئتهم ، وطرد الركاب الآخرين من المؤخرة الى أماكنهم الأصلية · وقد تبين ، بعد أن أخذ التحقيق مجراه ردحا من الزمن ، أن الرجل الضرير كان قد استأجر الولدين ليساعداه في أثناء رحلته الى افريقيا وفي أي بلدان أخرى يزورها ، مقابل أن يقدم هو لهما المأكل والملبس ويدفع عنهما أجرة السفر · ولكنه ما أن وصل بهما الى ميناء شحر ، حيث كان يدعي أنه والدهما ، وما أن أطمأن الى وصولهما سالمين الى ظهر المركب ، حتى تنكر لهما وتناسى ما اتفقا عليه ورفض امدادهما بالطعام · وكان من الطبيعي أن يشمئز الولدان من عمله هذا وأن يتركا خدمته ، فقد رفضا أن يعدا طعامه أو يعنيا به ، أو حتى أن يهدياه للسير والتحرك على ظهر المركب ·

وقد ادعيا أنهما غير ملزمين بخدمة الرجل الضرير ما دام هو قد تنصل من واجباته نحوهما ، ولم يقدم لهما الطعام ، مما كلفهما أشد العناء للبقاء على قيد الحياة على ظهر ذلك المركب المزدحم بالناس الجياع · ولذلك فقد قررا أن يعرضا خدماتهما على الصائغ الموقاديشي ، الذي كان عربيا كريما عطوفا يدعى « عشوان » · ولكن هذا لم يكن بحاجة اليهما ، فقد كانت معه أسرته الخاصة · ولما اشتد بهما اليأس بعد أن عاشا بدون طعام ثلاثة أيام كاملة ، قاما هذا الصباح بالتمرد والعصيان وحاولا الاغارة على طعام مخدومهم الأصلي · ولكن هذا أمسكهما متلبسين بالجرم المشهود ــ فقد كان حاد السمع ومتيقظا ، على الرغم من عاهته ــ وأخذ يضربهما ، الا أن الصائغ تدخل لمنعه من ذلك ، وسرعان ما عم الشجار والهياج ، وانتشر كالهشيم بين تلك الجموع ·

لقد استغرق اكتشاف هذه الحقائق البسيطة نصف الصباح · (وكانت هناك مناوشات أخرى عديدة ، وان لم تكن أي منها خطيرة ، قامت بين مؤيدي الماليزي وآخرين معارضين لهم) · · لم يلق الرجل الضرير التأييد من أحد ، فقد كان من الواضح أنه كان مخطئا في تصرفه · وفي نهاية الجلسة حكم نجدي عليه بالتقيد بشروط الاتفاقية وتقديم الطعام الكافي للولدين · وعندما اعترض هذا بأن الولدين كسولان لا يصلحان لشيء ، وأنهما هما اللذان فرضا نفسيهما عليه ، سأله نجدي لماذا ، اذا ، تظاهر بأنه كان والدهما ؟ ألم يفعل ذلك لكي يتمكن من تسفيرهما معه على المركب ؟ ولكن الشحاذ أجاب بأن ذلك كان بدافع العطف والشفقة عليهما · الا أن نجدي تساءل عما اذا لم يكن ذلك العطف هو الذي سيدفع بهما الى التسول للرجل الضرير في شوارع ممباسا ودار السلام وأي مكان آخر يذهبان اليه معه ؟ وقد أقر الرجل الضرير بذلك فهو يكره أن يرى أطفالا عاطلين عن العمل · فقد كان هذان الولدان ، بحسب قوله ، مشردين بلا مأوى أو أصدقاء على شواطىء ميناء شحر ، فصادقهما ، ولكنهما ، مكافأة له على هذا الكرم ، ينقلبان عليه الآن ويرفضان العمل ويتهمانه بعدم تقديم الطعام لهما · وعند سؤاله عما اذا كان الواقع أنه منع عنهما الطعام بالفعل ، أجاب بالايجاب فقد كان الطعام معه قليلا · ولكن الصائغ سرعان ما قدم الصندوق الذي كان الضرير يحفظ فيه طعامه من السمك المجفف الوفير ، كما أبرز نصف كيس من الارز · لقد كان من الواضح أن قضية الرجل الكفيف قضية خاسرة · وقد أفهمه نجدي بأنه اذا لم يعمل على اطعام الولدين ، فانهما سيأكلان من طعام المركب ، وعندها سيحجز هو على ظهر المركب ولا يسمح له بالنزول الى أن يسدد ثمن طعامهما · عندها تظاهر الشحاذ بالفقر وأخذ يتوسل الى نجدي ، ولكن الجميع كانوا يعلمون أنه من أغنى الرجال على ظهر المركب · وقد جعل نجدي الولدين يعتذران له لعدم محافظتهما على

الهدوء والنظام ، كما جعلهما يعدان بأن يخدما الرجل الضرير بكل اخلاص ، ما دام يقدم لهما المأكل والملبس . وبعد شيء من الاحتجاج ، وافق الصبيان على طلبه ، وانتهت القضية .

وما أن وصل الأمر الى هذا ، حتى كانت مشكلة اخرى قد بدأت بالظهور في وسط المركب ، حيث كان الصومالي المولد السليط اللسان يصيح قائلا أن شخصا ما قد استغل فرصة النزاع الذي قام وسرق الحليب من عنزتيه وقد كان ادعاؤه صحيحا .

لقد عجبت بأن أحدا على ظهر المركب لم يلحظ أن الولدين كانا يتضوران من الجوع ، على الرغم من الازدحام الشديد وكثرة الناس ، وبأنهما لم يلقيا أحدا يهتم بهما أو يمد لهما يد المساعدة ، كما أني لم أرهما من قبل . ربما كان السبب أن الانسان لا يستطيع أن يلحظ حاجة غيره ، اذا كان الجميع جياعا . ولكن سرعان ما هب الجميع لتقديم العون عندما لفت انتباههم الى الأمر . ومنذ ذلك الحين كان الصائغ حريصا على أن ينال ذانك الصبيان كفايتهما من الطعام ، كما كان نجدي دائم المراقبة لذلك الضرير الشرير .

لقد كان نجدي دائم اليقظة والمراقبة لأشياء كثيرة . فمنذ اللحظة التي كان يطأ فيها ظهر المركب الى اللحظة التي يغادره فيها ، كان سيد الموقف كله . فقد كان يعرف كل ما يدور حوله ، وكان معظمه يدور بتوجيه منه . ولم يكن يبدو عليه في أي وقت من الأوقات أنه مستغرق في نوم عميق . وحالما كان نجدي يعتلي ظهر المركب ، كان حمد بن سالم يتعطل عن العمل ، وعند ذاك تصبح قيادة المركب في يدي نجدي ، ولم يكن يسمح لأحد بمشاركته في مسؤليته . فلم يكن حمد يرقى الى درجة مساعد ربان . لقد كان ربانا احتياطيا ، وضابطا يهتم بشؤون المركب وهو راس في الميناء ، ويبحر بالمركب عندما لا يكون نجدي فيه . أما عندما يكون نجدي موجودا ، فقد كان حمد يقوم بمسك الحسابات ، ولا شيء غير ذلك . ولم يكن أحد يتفوه بكلمة الا لتكرار ما يقوله النوخذة ، وقلما كان أحد يسمع ما يقال ، لا بسبب تلك الضجة المستمرة التي كانت تصدر عن الركاب الموجودين على السطح فحسب ، بل أيضا لأن البحارة كانوا دائما ، عندما يقومون بأي عمل ، يغنون ويهزجون بصوت عال جدا وبقوة وحماس كبيرين ، حتى أنهم لم يكن بامكانهم أن يسمعوا أوامر النوخذة .

وقد اقترحت عدة مرات على نجدي أن يستعمل صفارة يستطيع

بواسطتها أن يسمع الجميع من خلال ذلك الضجيج الهائل ، بل اني اشتريت له واحدة بالفعل ، ولكنه لم يستعملها اطلاقا ، لأنها ، بحسب رأيه ، غير لائقة . فقد كان يحب ابقاء القديم على قدمه ، ويكره التغيير . وقد كان يخيل الي أحيانا أن اهمال الأوامر ـ لعدم سماعها ـ يمكن أن يشكل خطرا على المركب ومعداته ، لأنه عندما يمسك عشرون من البحارة الأقوياء بطرف حبل ويشدونه وينجرفون معه ، فمن المحتمل أن يتسببوا في شيء من الخراب والتلف ، اذا لم يوقف شدهم في الوقت المناسب . ولكنهم لم يكونوا يكترثون لما كانوا يقومون به من عمل ، فقد كانوا يندفعون الى العمل اندفاعا كبيرا وينتظرون الأوامر التي لم يكن باستطاعتهم أن يسمعوها ، كما لم يكونوا يتوقفون عن الغناء والأهازيج ما داموا يعملون . فما يكادون يسمعون أمرا ، حتى لو كان همسا ، حتى يهبوا وقوفا ويبدأوا بالغناء . ولم يكونوا يكفون عن الغناء أبدا ، وكانوا يغنون وهم يتراكضون الى العمل ، سواء أكانوا يجرون على السطح ، أو فوق القوارب ، ولا يهمهم اذا اصطدموا بالركاب وألقوا بهم أرضا . لقد كانوا يغنون ويهزجون ما داموا يقومون بأي عمل ، وعندما يكون العمل كثيرا بالفعل ـ كرفع العارضة الرئيسية مثلا ـ كانوا أحيانا يتوقفون عن العمل ليؤدوا شيئا من الرقص .

كثيرا ما كنت أتساءل عن أولئك النسوة المحبوسات في القمـــرة الكبيرة . فلم يحدث الا مرة واحدة أن ظهرت احداهن على سطح المركب ، وكانت صغيرة الحجم نحيلة العود مجللة بالسواد ، وكان ذلك في فجر يومنا الاول على ظهر المركب ، لتقوم بأداء الصلاة الى جوار زوجها . أما ما الذي حدا بها لكي تفعل شيئا مستهجنا من هذا القبيل فلم اعرفه أبدا ، وقـد سمح لها بأداء صلاة قصيرة ، قبل أن تؤمر بالعودة ثانية الى مقرها . ولكن الزوج نبه بأن عليه أن يشدد قبضته على نسائه ، كما كان نجدي ينظـر الى تلك الحادثة على أنها غير لائقة على الاطلاق . وقد سمعته عدة مرات يتحادث مع « السيد » عن الجرأة المزعجة لنساء هذه الايام ، كما يدل على ذلك هذا الحادث وأمثاله . فقد كان لنجدي أراؤه الثابتة عن مكانة المرأة ، وكثيرا ما كان يفصح عن تلك الآراء ، فكان يمتدح ذلك النظام الذي يبقي النساء في عزلة تامة ، وينظر الى طرق الحياة الاوروبية بكثيـــر مـــن الازدراء .

وكنت أتساءل أيضا كيف يمكن للنساء أن يكبحن غريـــزة حـــب الاستطلاع عندما كان شجار أو أي شيء آخر مثير للاهتمام يحدث على سطح المركب ، فلم يكن باستطاعتهن أن يرين شيئا من داخل السجن الذي كن فيه . وقد اكتشفت أنهن كن يبعثن بتلك الفتاة الشريرة وبفتيات صغيرات

أخريات الى سطح المركب ، ليرين ويسمعن ثم يعدن بالأخبار اليهن • وبهذه الطريقة كن يعرفن معظم ما يجري على ظهر المركب •

كان ابحارنا في الليل ممتازا باتجاه رأس عسير ، وكان نور القمر يسطع على الشراع المنتفخ بالهواء ، كما كانت الأصوات الصادرة عن المركب ، فيما عدا شخير البدو ، لطيفة الوقع على الأذن • وكان جميع الركاب يتمددون على سطح المركب ، بعضهم ملفوف ببعض الخيش المتوفر بين البضاعة ، والبعض الآخر لا يلبسون سوى الأسمال البالية ويغطون أجسامهم بالوشم الأزرق ، وآخرون يتلحفون بالبطانيات • وكان لدى بعض التجار فراش مزخرف كان خدمهم يفرشونه لهم كل مساء على ستة أقدام من المؤخرة ، وكان الفراش زاهي الألوان يمد على سجاد ثمين وتعلوه الوسائد الجميلة • وكنت أستلقي على ميمنة السدة المائلة في الخلف على سجادة تركية أعطانيها نجدي ، وكنت قانعا وسعيدا ، مع أن النوم كان يجافيني في بعض الأحيان • ولكني ، في غبش الفجر ، عندما كان المؤذنون كأنهم يتبارون في رفع أصواتهم ، وعندما تكون الفرش والسجاجيد مبللة بالندى ، وليس هناك أي أمل بفطور يزيد عن الخبز الفطير ، وعندما كان البدو والمولدون يغتسلون بماء البحر والأطفال يزعقون — في مثل ذلك الوقت ، كنت أتساءل لماذا أتيت أصلا وماذا كنت أفعل هناك •

ومرت الأيام ، واحدها يعقب الآخر ، وأنا مسحور بالرحلة حتى أني نسيت المشاكل البسيطة التي كانت تحدث من آن الى آخر ، ونسيت آثار الحمى التي لازمتني منذ كنا على ساحل حضرموت ، كما نسيت العرج الذي كان يجعل من مشيتي وحركتي عملية مؤلمة • وسار المركب يتهادى باتجاه الجنوب ، في ذلك الجو من الضجة والازعاج اللذين سببهما أولئك البدو الذين حملناهم معنا لايصالهم الى افريقيا • وكان هبوب الرياح الموسمية جيدا ، وسيرنا مطردا ، وان لم يكن دائما ممتعا •

الفصل الخامس

اسماعيل ينقذ طفلا

اسماعيل ينقذ طفلا

في صباح اليوم الخامس لمغادرتنا ميناء شحر ، كان المركب يسير قريبا جدا من قاعدة اللسان الجبلي الصخري الممتد الى البحر عند « راس حيفون » • وكان نجدي يقود المركب بخط مستقيم متجنبا المنحنى ، وكنا قريبين جدا من البر ، فقد كانت الاحوال الجوية مؤاتية جدا • فالنسيم كان معتدلا ومنعشا ، يهب من الشمال الشرقي ، كما كان البحر هادئا • في هذا المكان يدفع التيار المراكب باتجاه البر ، ولذلك فهو ليس بالمكان الذي يستهان به ، الا أن نجدي كان يعرف ما يفعل • فالطرف الشرقي من اللسان لم يكن خطرا ، وقد كنا نتجنب المنحنى ، لا لنكسب الوقت ، فهذا لم تكن له أهمية بالنسبة لنجدي ، ولكن لكي نتمكن من الاتجاه الى المرسى في مدينة حيفون ، حالما يصل المركب الى نقطة مقابلة للطرف الجنوبي من اللسان • لقد كان المكان جميلا ، وصخوره الصفراء الهائلة تقف شاهقة فوق المركب الذي كان ينساب بهدوء ورشاقة على أمواج البحر الزرقاء • وكان من الواضح اننا ، ان لم نكن قريبين جدا من ذلك الطرف الجنوبي ، فان علينا أن نكافح ونشقى لكي نصل الى المرسى المختبيء خلفه •

أما على ظهر المركب ، فقد كان كل شيء يسير كالمعتاد ، الا أن هدوءا غير عادي كان يخيم عليه ، ولم تكن هناك مشادات كبيرة كما كان الحال طوال الرحلة ، فقد كان الصومالي المولد ، والد الفتاة الشريرة السليطة اللسان والولد الشقي عبد الله ، نائما ، وهذا كان بحد ذاته كافيا لتخفيف الضجة على ظهر المركب الى النصف • وكانت مجموعة الماليزيين المولدين — اذا صح أنهم كذلك — مستلقين في ظل الشراع المزيني بكل ارتياح واطمئنان ، على الرغم من الضجة التي كانت تصدر عن سبعة واربعين من البدو الذين كانوا يجلسون حولهم وهم منسجمون في الغناء ، وكل منهم يضع احدى يديه على أذنه وهو يغني ، وان كنت اتمنى لو كان كل منهم يضع كلتا يديه على كلتا اذنيه كما كنت افعل أنا ، ويحشو كلتا أذنيه أيضا بقطع من القطن • ولم ينقطع خليل النجار عن الطرق والعمل في مركبه الجديد ، وكان من حين لآخر يقوم بتحريك أحد البدو النيام عن موضعه ليتمكن من الوصول الى لوح جديد من الخشب • أما جاسم ، طباخنا الصغير ، فقد كان يقوم بغسل لحم الماشية والارز بالماء المستقى من البحر ، فيما يقوم مساعداه ، عبد الوهاب ومشاري ، بجرش القمح لاعداد الخبز

الفطير • وكان عدد من البحارة ، ومعهم عبد الله شقيق النوخذة ، يقعون كالقرود على جلة كبيرة من التمر العراقي ، الذي كان قد أصبح كتلة لزجة متماسكة كأنها قد وطأتها أقدام الجمال قبل سنوات عديدة • وكان عبد الله وبقية البحارة هؤلاء يختارون أقوى حبات التمر ، ويخرجون النواة من كل منها بأسنانهم ، ثم يعيدون صفها بشيء من الترتيب والنظام في صناديق صغيرة من الكرتون كتب عليها : « تمور نظيفة طازجة ، من انتاج العراق » • وكانت هذه التمور تقايض ببضائع أخرى في حيفون مع الصوماليين ، الذين يقبلون أكلها ، دون سواهم •

وعلى المؤخرة كان الركاب الصوريون يجلسون في حلقة بينما « سعيد » يقوم بفحص البضائع الممنوعة التي كان ، على ما يبدو ، يجهزها للانزال الى البر ، فقد كان هذا مهربا ، وسرعان ما ينهمك في العمل • أما « ماجد » الضخم اللئيم ، فقد كان يرتدي قميصا بنيا طويلا ، ويتفحص تلك الخردوات باهتمام ، ويقترح ، بصوت عال ، افضل الطرق لتهريبها ، بينما كان عبد الله يرتل القرآن لنفسه بصوت خفيض • وكان نجدي ـ الذي لم يكن خلال الرحلة قد ترك موضوعا الا ناقشه : من انتشار الاسلام في اليابان ، الى العصر الذهبي للعلوم في الجزيرة العربية ، الى قوانين التملك في حضرموت ، الى أفضل الطرق للقيام برحلة بحرية على مركب شراعي من « ماندلاي » الى « كوتش »(1) في شهر يونيو (حزيران) ـ كان نجدي هذا صامتا الآن ، وهو ينفث الدخان من نارجيلته بهدوء • وحتى اسماعيل ، ذلك المغني العظيم والموسيقي ، عازف القيثارة الشهير ، كان قد نحى موسيقاه جانبا ، وأخذ الآن يتفحص محتويات صندوقه ، الذي كان يتحلق حوله عدد من الحضارمة المولدين ، هو يحاول أن يبيعهم بعض المعاطف اليابانية الرديئة ، وهم يتفحصونها بدقة ولكنهم لا يشترون شيئا منها • أما يوسف الشيرازي ، الذي كانت عيناه تؤلمانه منذ مدة طويلة ، فقد كان يحميهما بشكل جزئي باحدى طيات كوفيته البيضاء ، بينما انهمك في عمل غامض لم استطع فهم طبيعته • وقد كنت أرقبه باهتمام ، وأنا مدرك الى حد ما لكل ما يدور حولي ، بينما كان الاطفال يتراكضون على جانبي المركب وهم يلعبون مرحين ، وفي مقدمتهم ابن « عودة » الصغير •

وفجأة سمعت صوت ارتطام جسم بالماء ، تبعته صرخة فزع صادرة عن طفل • فاندفع بعض البدو الى جانب المركب ، وأخذوا يصرخون قائلين :

---

(1) ماندلاى : مدينة فى داخل بورما ، تقع على نهر سيتانج ، شمال العاصمة رانجون • اما كوتش : فهو خليج وشبه جزيرة يقعان على الساحل الغربى للهند (المترجم) •

« طفل سقط في الماء » وهم يشيرون الى البحر • هببت واقفا في الحال ، ونظرت ، فرأيت الطفل يستغيث ، وجلبابه الابيض طاف على سطح الماء حوله ، وهو يبتعد عنا ، أو ، على الأصح ، ونحن نبتعد عنه • وعلى الفور ، وقبل أن استجمع أفكاري ، قفز اثنان ، أحدهما يرتدي اللون الابيض ، والآخر اللون البني ، من المؤخرة الى السطح ، ثم ألقيا بنفسيهما من جانب المركب الى البحر ، في محاولة لانقاذ الطفل • وقد فعلا ذلك بسرعة البرق حتى أني لم أتمكن من التعرف عليهما في البداية • ولكني ، بعد لحظات ، تبينت أن أحدهما كان اسماعيل الموسيقي ، وهو الذي قفز أولا ، ثم عبدالله ، ذلك الانسان الذي يتسم بالغموض •

لقد كان عملا جريئا حقا • فقد كنا نسير بسرعة خمس عقد ، وكان البحر زاخرا بسمك القرش ، كما كان الولد قد سقط بسرعة من جهة المؤخرة • وكنا نسير تحت الصخور الشاهقة ، وبمحاذاة الشاطىء تماما بحيث كنا في خطر ، وكانت الريح ، التي كان الشراع الكبير ممتلئا بها ، تهب من خلفنا • ولم يكن المركب معدا لمثل هذه الحالات الطارئة ، فلم تكن هناك أحزمة أو عوامات للنجاة أو أية معدات أخرى يمكن استعمالها للانقاذ • وكان قارب النجاة الوحيد ، لحسن الحظ ، واقفا على ركائزه ، ولكنه كان موثقا اليها باحكام شديد • كما كان المركب في وضع سيء ، فقد كنا قريبين من الصخور الشاهقة حتى أننا كنا نسمع صوت الامواج ونراها وهي تتكسر على ذلك الشاطىء الصخري الشديد الوعورة • فاذا جعلنا الريح تهب على الجزء الامامي من الشراع فقط ، فان في ذلك خطر الاندفاع نحو الصخور • أما اذا أوقفنا المركب فجأة وتركناه يهتز بفعل الريح، التى تهب على الجزء الامامي السفلي من الشراع من الناحية اليسرى ، بعد أن يكون قد فقد سرعته ، فان في ذلك خطرا مماثلا ، اذ من المؤكد أن التيار سيدفعه بسهولة نحو الشاطىء •

وقفت أتساءل عما سيفعله نجدي ، فقد كان عليه أن يستعيد ثلاثة أشخاص بدلا من شخص واحد ، ولم أكن أرى أن باستطاعته القيام بأية حركة لا تعرض المركب للخطر الشديد • ولكنه أثبت ، في مثل هذه الظروف ، أنه بحار ماهر شديد اليقظة ، وكان دائما أسرع مني في معرفة ما يجب عمله • فدون أن تبدو عليه أية علامات للاضطراب ، ودون أن يتحرك من سدته ، أصدر أمرا قصيرا حازما حالت سرعة اصداره دون أن أفهمه • الا أن البحارة أدركوه في الحال ، فقد كانوا دائما بحارة أكفياء ، ولكنهم في الحالات الطارئة كانوا يعملون كالجن • وتنفيذا لأمر نجدي ، أنزلوا العارضة الرئيسية الى منتصف الصاري ، وأدار قائد الدفة دفته

دورة كبيرة بسرعة فائقة ، فأصبح المركب يقف عرضيا بمواجهة الريح ، بحيث تهب على الجزء الامامي من الشراع ، وتكون مؤخرة المركب باتجاه البحر ، وبهذا تساعده حركته الى الخلف بالابتعاد عن الصخور ، بدلا من الاقتراب منها · وقد تمت تلك العملية بذكاء ورشاقة ، الا أن موقف المركب ظل حرجا ، فقد كان بيننا وبين الدمار الكامل ما لا يزيد عن خمسين ياردة · وكان الامر يتوقف على أي من القوتين سيكون لها التأثير الاكبر على المركب : حركته الخلفية التي لم تكن ذات شأن ، بعد أن أصبح نصف الشراع عديم الفائدة ، أم التيار · فقد كانت حركته الخلفية تبعده عن الصخور ، بينما التيار يدفعه اليها ، ولم يكن بوسع نجدي أن يساعد أيا من القوتين المتصارعتين ، بل لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا سوى أن ينتظر البحارين اللذين قفزا الى البحر ، ويعيدهما الى ظهر المركب بطريقة أو بأخرى · الا أنه لم يكن يخامره هو أو بحارته أي شك في النتيجة النهائية · فقد اندفع البحارة الى مؤخرة المركب وبدأوا بفك وثاق قارب النجاة · وكما كان الامر على سائر المراكب العربية الاخرى ، لم يكن على ظهر مركبنا أي شيء جاهزا للاستعمال الفوري ، فقد كانت سياسة العرب أن يواجهوا الحالات الطارئة عند بروزها ، لا أن يعدوا لها مسبقا · وقد كنت ميالا للسخرية منهم ، الا أني تعلمت درسا قيما من هذه الحالة الطارئة · فقد كان هؤلاء البحارة الاشاوس يعملون في مواجهتها بكفاءة لا تقل عما يتمتع به أي بحارة آخرين في أي مكان آخر في العالم · لقد قاموا بفك ذلك القارب وانزاله الى الماء بسرعة لا تقل عن سرعة البحارة العاملين على أية سفينة بخارية جديدة في انزال مركب للنجاة جاهز للاستعمال مسبقا · وكانوا يعملون جميعا ، ويهزجون جميعا ، ويغنون جميعا !! نعم ، يغنون ، حتى في مواجهة هذه الورطة ، والمركب لا يبعد عن الكارثة أكثر من خمس دقائق ، والطفل يغرق ، والبحاران يكافحان للبقاء على قيد الحياة في بحار تعج بسمك القرش · لقد كان من الواضح أيضا أن أحدا لم يضطرب ، أو يصرخ ، فيما عدا الركاب من البدو · وكان البحارة يعملون بشكل رائع بقيادة نجدي ومساعدة حمد بن سالم · وفي هذه الاثناء ، كان اسماعيل وعبد الله قد ابتعدا كثيرا عن المركب ، حتى لم نعد نستطيع أن نرى سوى نقطتين صغيرتين على سطح ذلك البحر الازرق الشاسع ، ولكن كان بامكاننا أن نرى أن اسماعيل ممسك بالطفل ، وأن عبد الله كان يساعد في حمله وتعويمه ·

وما أن وصل القارب الى الماء ، حتى انطلق بعبد الله شقيق نجدي وهو ممسك بذراع الدفة ، وبالعجوز يوسف الشيرازى وبعريف البحارة وهما يجدفان · وكان هذان يضربان المجدافين بقوة وعزيمة ، ولكن بغير

ذعر أو اضطراب • وكان القارب صغيرا لا يزيد طوله عن ستة عشر قدما ، وبدا لنا كأنه نقطة في ذلك المحيط الشاسع • ولكن البحر كان هادئا وخاليا من الأمواج تقريبا • وكان الخطر الكبير يأتي من سمك القرش بالاضافة الى الصخور • وكان من الواضح تماما أن التيار كان يدفع المركب ببطء في اتجاه الصخور الشاهقة ، التي بدت الآن وكأنها أصبحت فوق الصواري مباشرة ، فعندما كان المركب يهتز ، لم نكن نرى السماء ، بل كنا نشاهد تلك الصخور المخيفة فوق رؤوسنا •

ثم شاهدنا القارب يصل الى الثلاثة الذين كانوا يصارعون البحر ، فينتشل بحارته الطفل أولا ثم الاثنين الاخرين : اسماعيل ، وعبد الله ، ذلك الانسان الغامض ، ويرفعونهم الى داخل القارب • بينما كان نجدي يقف قرب ركائز القارب على ميسرة مؤخرة المركب وهو يرقب كل شيء ، ويقدر فرص النجاة بالنسبة لمركبه ، ويشتم الصبي البدوي والبدو جميعا ، بل وجميع الركاب الآخرين ، ومن آن لآخر يلتفت الى قائد الدفة ويأمره بادارتها قليلا ذات اليمين أو ذات الشمال • ها هو القارب يبدأ الآن بالعودة الى المركب ببطء شديد ، على الرغم من أن بحارته كانوا يبذلون كل جهدهم (فقد كانت المجاديف قصيرة ، غير فعالة) • وربما كان يبدو لنا أنه يسير ببطء ، نظرا للخطر الداهم الذي كان ينتظر المركب • ولكي يزيد الطين بلة ، لم يعد البدو يستطيعون ضبط اعصابهم ، فبدأوا يتدفقون على مؤخرة المركب ، وكلهم شوق لمعرفة ما يجري في الناحية الاخرى • ومع أنه لم يبق الان سوى أن يصل القارب ، فيرفع هو وركابه الى ظهر المركب بسلام ، ثم يتخلص المركب من قبضة الريح مرة أخرى وينطلق ، الا أن البدو ــ مثلهم في ذلك مثل أي ركاب آخرين في أي مكان اخر فى العالم يجدون انفسهم فى مثل هذه الظروف ، وقد كانوا حتى الان لا حول لهم ولا قوة ، ولا يستطيعون تقديم أية مساعدة ــ بدأوا الآن يهللون ويتراكضون ويندفعون ويصيحون بأعلى أصواتهم •

الا أن نجدي تصدى لهم وهو يصيح فيهم قائلا بالعربية (أوهذا ما أفترض أنه قاله فعلا) « أبعدوا عن مؤخرة المركب ، يا حثالة البشر ! » •

ولكن البدو ، كعادتهم ، لم يتوقفوا عن الصعود الى المؤخرة ، وكان أولئك الذين في المقدمة يدفعهم أولئك الواقفون خلفهم • وعندها تقدم كل من نجدي وحمد بن سالم ، وكل منهما يرفع عصا طويلة في يده ، يتبعهما ويسندهما ماجد الصوري ، وسعيد المهرب ، من الخلف • ولم يضع نجدي لحظة من الوقت ، بل بدأ في الحال يشق طريقه بالعصا في وسط البدو ،

وأخذ يدفعهم من فوق المؤخرة لكي يفسح مكانا لقارب النجاة ويتمكن من رفعه مع ركابه الى ظهر المركب بسلام ، ولكي يستطيع العناية بالطفل ، اذا لزم الامر ، في الحال ، ودون تعريض حياته لخطر آخر · الا أن جماهير البدو كانت ما تزال تندفع من الخلف ، كما أخذت صخور راس حيفون تردد الصرخات الصادرة عن الركاب الهائجين صيحة صيحة ، وأصبح المنظر على سطح المركب أشبه ما يكون بمستشفى للمجانين · وفي اثناء ذلك كله كان القارب يواصل تقدمه نحونا ، ومركبنا يواصل انحرافه نحو الشاطيء ، كما لم يتوقف البدو عن التدفق على مؤخرة المركب من أي طريق ، فقد كان بعضهم يحاول صعود المؤخرة عن طريق مقدمة القارب الطويل ، أو بالقفز فوق الآخرين أو بالقفز من المركب الجديد الذي كان النجار يقوم بصنعه · ولم استطع أن أفهم ما الذي كانوا يأملون أن يروه ، أو يفعلوه ، أو يجنوه من فعلتهم هذه · ولكن محاولاتهم جميعها باءت بالفشل ، فلم يتوقف نجدي ، الذي لم يكن رجل كلام في الحالات الطارئة ، عن الضرب بعصاه يمينا وشمالا ، وخلفه كان يقف نائبه الكفء حمد بن سالم يفعل مثله ، ولا يملان من ذلك ابدا ، الى أن اقتنع البدو المنفعلون أخيرا الا فائدة ترجى من اعتلاء المؤخرة ، وان فكرة اعتلائها لم تكن فكرة صائبة أبدا ·

وفي اثناء ذلك كله كان البحارة ، الذين كانوا يهتمون بأمر الشراع في مقدمة المركب ، يحاولون جاهدين الوصول الى المؤخرة مرة ثانية ، الا أن ذلك الحشد الهائل من البشر الهائجين والمتدفقين باتجاه المؤخرة كان يحول بينهم وبينها · وعندما لاحظ عبد الله بن سالم ، عريف البحارة الثاني ، أن الامور يمكن أن تبلغ مرحلة اليأس ، بدأ يتسلق حبال الشراع مستخدما يديه وقدميه حتى يصل الى رأس الصاري ، ومن هناك ينتقل الى العارضة ويجرى على طولها ، ثم يقذف بنفسه الى مؤخرة المركب بواسطة حبل يؤدي اليها ، وبذلك يصل الى بغيته من فوق رؤوس البدو الهائجين · وقد كان هذا عملا بهلوانيا جبارا ، حتى بالنسبة للقرود · الا أنني سرعان ما لاحظت أن بقية البحارة قد حذوا حذوه وتبعوه واحدا بعد الآخر · وعلى الرغم من صعوبة تأدية مثل هذه الحركة ، بحيث أنها تفوق معظم الحركات العادية التي يقوم بها البهلوانات المحترفون ، الا أن جميع البحارة قاموا بها بسرعة وسهولة تدعوان للاعجاب والدهشة الشديدين · وهكذا كانوا يصلون ، واحدا بعد الآخر ، ويكونون سدا منيعا وراء ظهر نجدي · وفي لحظة ، تغير الموقف كليا ، وأصبح من الممكن السيطرة عليه ، وشرع البدو يتراجعون أمام البحارة ، عائدين الى قواعدهم على السطح · لقد كان الموقف غريبا جدا ، كما تتابعت الاحداث بسرعة مذهلة ، حتى انها بدت جميعها لي في وقت حدوثها كأنها حلم ذو مشاهد عجيبة ، دائمة التغيير

والتشكل . وكنت أنا انظر الى ذلك المشهد بعيني كأني أسمع عقلي يقول : « هذا خيال ! هذا لا يحدث فعلا ! هذا لا يمكن أن يحدث أبدا ! » فقد كان اندفاع البدو بهذا الشكل عملا لا معنى له ، وكان انقاذ الطفل عملا لا معنى له ، كما كانت شجاعة اسماعيل الموسيقي لا تدل على ذكاء واضح بأي شكل من الاشكال ، كما أنها كانت ، بالنسبة لي على الاقل ، غير متوقعة على الاطلاق . وربما كان سبب ذلك أن كرهي لموسيقى الرجل قد انعكس كرها للرجل نفسه . ولكنني ، بعد هذا العمل البطولي ، بدأت أحاول الصبر على موسيقاه ، كما بدأت أشعر نحوه بحب عظيم ، فقد كان ، رغم كل شيء ، رجلا طيبا .

وما ان وصل القارب الى جانب المركب ، حتى هدأت الضجة هدوءا كاملا ، وصمتت الاصوات فجأة كما بدأت . فرفع القارب الى سطح المركب بدون هياج أو اضطراب سوى صوت البحارة وهم يهزجون ، وأنزل الطفل منه ، وأدير المركب باتجاه هبوب الريح ، فعاود سيره في الطريق السليم ، بعد أن كان قد انحرف حتى أصبح على بعد ثلاثين ياردة فقط من مكان تكسر الامواج على الشاطىء ، تحت تلك الصخور الشاهقة . وقد ترك اسماعيل الموسيقي وعبد الله الرجل الغامض ليعنى كل منهما بنفسه ، فلم يلتفت اليهما أحد : لا نجدي ، ولا حمد ، ولا أي من البدو الآخرين . أما الطفل فقد صفعه نجدي ، وقال له انه اذا سقط مرة أخرى فلن ينقذه أحد . ولم يكن يبدو عليه تأثر كبير مما جرى له ، سوى ما أصابه من البلل ، وسوى شعوره بشيء من الخوف . فانطلق يجري وهو يبتسم ، بينما عاد نجدي ـ الذي كان عنيفا عندما يثور ، قاسيا دائما ـ عاد الى مقعده ، وعيناه تلمعان ، وأنفه الأقنى مرفوع عاليا يستنشق الهواء ، دون أن ينظر الى الصخور ، أو يتكلم مع اسماعيل أو عبد الله ، كما أنه ترك أمر تسيير المركب ثانية الى حمد بن سالم . فقد انتهت الحالة الطارئة . ولكن هجوم البدو على المؤخرة كان عملا غير لائق ، وكان نجدي يكره الاعمال غير اللائقة .

وهكذا عاودنا الابحار بعد أن كنا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك . وفي المساء ، عندما حان وقت القاء تحية المساء بعد الصلاة الرابعة ، تقدم « عودة » زعيم البدو الى نجدي ، وقال له بايجاز : « نشكرك يا نجدي على انقاذ الطفل » . فرد نجدي على التحية بوقار وهدوء ، ولم يشر أحد ، لا عندئذ ، ولا بعد ذلك ، الى مسألة تدفق البدو على المؤخرة وطردهم من هناك بالعصي ، كما لم يزج أحد الشكر لعبد الله أو لاسماعيل . فما ان عاد

هذان الى المركب حتى استأنف اسماعيل عمله وكأن شيئا لم يكن ، سوى أنه قام بعصر قميصه المبتل بالماء من الاسفل • أما عبد الله ، ذلك الانسان الغامض ، فقد ازداد غموضا ، ووسامة ، ونحولا أكثر من أي وقت مضى ، ولم يقم بأي عمل سوى تبديل قميصه البني والعودة الى تلاوة القرآن • ولكني ، بعد ما حصل ، اصبحت انظر الى هذين الرجلين نظرة مختلفة عن ذي قبل • فقد أصبحت أميل الى اسماعيل وعبد الله ، بل وسامحت اسماعيل على موسيقاه الفظيعة ، كما سامحت عبد الله على غموضه وعلى أية أعمال شائنة يمكن أن ترتبط بذلك الغموض •

عندما وصلنا الى الطرف الجنوبي من الرأس ، غيرنا اتجاهنا وقصدنا حيفون ، وهو أول ميناء سنتوقف فيه في قارة افريقيا • ولم تمض سوى ساعات قلائل حتى كنا قد رسونا هناك • لقد كانت الرحلة حتى الآن ممتعة للغاية ، وان كانت صعبة في بعض الاحيان ، كما كانت الظروف الملاحيـة مؤاتية جدا • وقد انطبعت في ذاكرتي صور لا تمحى عن السفر على ظهر مركب كبير ، كصورة القمر المنعكسة على الشراع ، وصوت الامواج الخفيفة وهي تلامس المقدمة المنخفضة ثم ترتد بهدوء ، وصورة قائد الدفة المتعب والنعاس يداعب جفنيه ، وخلفه صورة نجدي ذي العينين البراقتين أبدا ، نجدي المتيقظ طوال الوقت ، نجدي ذلك الاعصار الصغير الهادىء ، نجدي ربان السفن وقائد الرجال ، بالاضافة الى صورة النور الخافت المنبعث من صندوق البوصلة وهو يسقط على أجسام التجار وهم نيام ، بينما يتقلب سعيد المهرب في نومه ويهمهم ، كأنه يحلم بجاريـة جميلـة في « عصب » النائية(١) أو في الحدود الشمالية لبلوخستان •

وهكذا وصلنا الى حيفون ، التى كان الايطاليون يطلقون عليها اسـم « دانتى » • ومهما كان اسم المكان ، فهو مكان كريه ، ليس سوى مصنع للملح تحيط به الرمال ، مع أنه كان فى الماضى سوقا مشهورة ، يرجع تردد التجـار الشرقيين عليها الى عدة قرون ماضية • ويقع ميناء حيفون على خليج محمى ، يتكون من أقصى الطرف الجنوبى من ذلك اللسان الصخرى المسمى « رأس حيفون » • وكان الميناء فى وقت من الاوقات يدعى « أوبون » ، وتحت هذا الاسم يشير اليه ذلك المؤلف المجهول للدليل البحـرى المسمى : « المراحـل

---

(١) عصب : ميناء صغير على ساحل اريتيريا الشرقى ، الى الشمال من باب المنـدب مباشرة • (المترجم) •

الملاحية للبحر الاحمر » (١) (الذى يفترض أنه كتب حوالى عام ٦٠ بعد الميلاد ، بعد مدة قصيرة من اكتشاف « هيبا لوس » لما يعرفه العرب مـــن قبل عن الرياح الموسمية) ويتحدث عنه وعن أهميته التجارية حديثا سنورد طرفا منه بعد قليل ٠ الا أن هناك شكا كبيرا فى مدى معرفة مؤلف هذا الكتاب أو جامعه لبعض الاماكن التى يصفها على الساحل الافريقى ، لان تقديراته للمسافات مربكة جدا ، ووصفه لتلك الاماكن غامض لدرجة كبيرة ، حتى أن المرء يشك فيما اذا كان قد زار تلك الاماكن فعلا ٠ ففى الفقرة الثـالثة عشرة من كتابه الموجز جدا (فهو دليل يغطى البحر الاحمر بأكمله ، كمـــا يغطى خلجان عدن ، وعمان وكوتش ــ فى غرب الهند ــ وبحر العرب،والساحل الشرقى لافريقيا ، والساحل الغربى للهند ، وهو يصف كل هذه الاماكن فى ست وستين فقرة فقط ، ليست بينها فقرة واحدة طويلة) ، في تلك الفقرة يقول كاتب ذلك الدليل :

«وبعد أن تقطع مسافة طولها أربعمائة «ستاديوم» (٢) فى البحر،بمحاذاة رأس يدفعك التيار نحوه أيضا ، تجد ميناء تجاريا يدعى « أوبون » تورد اليه البضائع التى ورد ذكرها سابقا ٠ ومن أهم منتوجاته القرفة ، والرقيق الممتازون الذين أصبحوا يؤخذون الى مصر بأعداد متزيدة ٠ وكذلك كميات كبيرة من أصداف السلاحف التى لا تفوقها فى الجودة أية أصداف أخرى » ٠

ويتابع مؤلف الكتاب كلامه قائلا :

« وتبدأ الرحلة من مصر الى جميع هذه المراكز التجارية النائية حوالى شهر يوليو (تموز) من كل عام ٠ وفى العادة ، تحمل المراكب بالبضائع من الاماكن الواقعة على هذا البحر مثل « أرياكا وباريجازا » ، بينما تجلب لها منتوجات وحاصلات البلدان الاخرى كالحنطة والارز والزبدة المصفاة ، وزيت السمسم والاقمشة القطنية والاحزمـــة والعســل المستخرج من قصب يدعى « سكارى » ٠ وبعض الناس يقومون برحلات خاصة الى هذه الاسواق ، بينما البعض الاخر يتقايضون البضائع فيها وهم مبحرون بحــذاء الســاحل الى أماكن أخرى »٠

---

(١) العبارات التى ستذكر فيما بعدوالمقتبسة عن هذا الكتاب ماخوذة من ترجمة ولفردسكوف وطبع لونجمانز عام ١٩١٢ (المؤلف)

(٢) الستاديوم (Stadium) وحـدة اغريقيـة قديمـة للطـول تعـادل حوالـى (٦٠٧) اقدام انكليزية (المترجم)

ومما يثير الانتباه أن هذه البضائع المذكورة فى عام (٦٠) بعـــد الميلاد هى بالضبط البضائع التى كنا نحملها على مركبنا الى ميناء « دانتى » أو « أوبون » أو « حيفون » فى عام ١٩٣٩ بعد الميلاد ٠ ومع أن « حيفون » فى هذه الايام لم تعد مثل « أوبون » ، المركز التجارى المزدهر فى يـوم من الايام ، ومع أنه أصبح من الصعب الآن بيع جميع هذه البضائع ، الا أن تجار مركبنا ، أحفاد السندباد القديم ، كانوا يبذلـون جهدهم لبـيع ما لديهم من البضـائع ٠ وكانت هنـاك فروق أخـرى بيننا وبين أولئك التجار البحريين الذين يصفهم الدليل المذكور أعلاه ٠ فقد كانت أحزمتنا (وأعتقد أن كاتب ذلك الكتاب القديم يعنى بها قطع القماش الطويلة التى يحب الصوماليون أن يلفوها حول خصورهم ، لا أحزمة أو مشدات النساء) من صنع اليابان ٠ كما لم يكن « العسل المستخرج من القصب المسمى سكارى » الا سكرا جاويا عاديا آتيا من جزر الهند الشرقية الهولندية ، ومحملا من ميناء عدن ٠ وكان معظم السمن الذى نحمله محفوظا فى صفائح كاز فارغة ٠ كما أننا لم نكن نقــوم « برحلة خاصة الى تلك المدن التجارية » لأنها لم تعد تجارية تعج بالاسواق كما كانت فى الســابق ، بل كنا كالآخريــن الذين يتقايضون بضائعهم وهم مسافرون الى أماكن أخرى ٠ ولم نر شيئا من الترفة أو أصداف السلاحف ، بل كان كل ما أخذناه من حيفون هو سمك القرش الميت منذ زمن طويل ٠ أما « الرقيق الممتاز » ، فكل ما استطعت أن أعرفه عنهم أنهم لا يمكن أن يكونوا من نفس القبيلة التى ينتمى اليها الصوماليون الحاليون ٠ فنادرا ما يكون الصومالى عبدا ، واذا حدث أن أصبح عبدا ، فلن يكون من النوع الممتاز أبدا٠

أعتقد أن اقامتنا فى ميناء حيفون كانت مثالا لما تقوم به معظم المراكب الشراعية فى هذه الايام ٠ وقد صادفت بضع مفاجآت ، ولكن لم تكن أى منها مفاجأة سارة جدا ٠ فعندما كنت أفكر بهذه الرحلة التجارية قبل أن تبدأ ، تصورت‌أننا سنمر بعدد من الموانىء اللطيفة‌الواقعة على‌الانهار داخل أفريقيا، أو على خلجان رومانسية جميلة ، وأننا سنمكث فى كل منها الى أن يتقايض تجار المركب بضائعهم ٠ ولكن يبدو أنى كنت أحلم بهذه الاشياء ، دون أن أعلم شيئا عن الساحل الصومالى ٠ وهانحن نصل الان الى أولى المحطـــات ، فنجد المكان لا يزيد عن كونه نصف دائرة من الرمل الاغبر ، ونجد الشاطىء وقد غطاه روث الاغنام وأحشاء السمك ، بينما يقف فى وســط المنظــر كله مصنع حديث جدا للملح ، تخرج منه الــدلاء المملوءة ، واحدا بعد الآخــر ، على حزام آلى طويل جدا ، الى أن تصل الى مرسى مقابل للشاطىء ٠ ونجد على يمين هذا المصنع أكواخا سكنية للايطاليين ، وبيتا لسكنى المعتمد يرفرف عليه العلم الايطالى ٠ كما نرى على يساره قرية صومالية حقيرة ممتدة على الشاطىء الحار ، يبدو عليها الفقر والقذارة ولا تستحق الوصف ، بل تعطيك

فكرة واضحة عن عبث المحاولة للحصول على أسباب العيش الكريم في مثل هذا المكان ٠

وعندما وصلنا الى الخليج رسا مركبنا مع اثنين من المراكب الكويتية، وآخرين من المراكب الفارسية ، بينما كانت الريح الآتية من البر تهب علينا فتحمل جميع الروائح القذرة المنبعثة من السطح الرئيسي للمركب الى المؤخرة ، حيث أعيش ، فتجعل الحياة على ظهر المركب جحيما لا يطاق ٠ وقد أقمنا هناك أسبوعين لم يحدث خلالهما الا الشيء القليل ، وخلال الايام القليلة الاولى لم يحدث شيء على الاطلاق ٠ وكان أول من استقبلنا فريق مكون من اثنين من الايطاليين ، وممرض صومالي ، وعدد من الجنود ٠ وبما أن الايطاليين كانوا قد تعلموا من خبرتهم الطويلة أهمية احصاء المسافرين ، فقد بدأ الموظفان الايطاليان في الحال باعداد أشمل قائمة ممكنة لركاب المركب ٠ وقد حاولا أن يتما تلك القائمة يوما بعد يوم ، ولكن دون جدوى ٠ بل ان العملية كانت مهزلة بالفعل ٠ فقد كان التاجر الصوري ، وسائر الركاب الغامضين الآخرين ، قد اختفوا من على جوانب المركب ، ونحن في طريقنا الى المرسى ٠ ولم يستطع ذانك الموظفان الانتهاء من القائمة بعد أربعة أيام كاملة ٠ بل انها لم تكمل قط ٠ أما الممرض الصومالي ، الذي كانت مظاهر الكآبة واضحة على محياه ، فقد مر على جميع الركاب واحدا واحدا ، وهو يخدش ذراع كل منهم بأداة من الفولاذ الحاد ، ثم يضع عليها نوعا من اللقاح المضاد لمرض الجدري ٠ ولم أكن ألوم الايطاليين كثيرا لعدم ترحيبهم ، كما ينبغي ، بالمراكب العربية التي تتردد على الميناء ، ولكنهم ، أولا وآخرا ، هم المسؤولون عن المكان ، بعد أن استولوا عليه واحتلوه منذ فترة قصيرة ، بينما التجارة العربية معه قديمة جدا ٠ كما أن العرب يجلبون معهم البضائع ويبيعونها لأصحاب المتاجر العربية ليبيعها هؤلاء بدورهم الى الصوماليين ٠ فهم لا ينافسون الايطاليين في تجارتهم ، بل ولا يستطيعون ذلك حتى لو أرادوا ، وهم لا يريدون ذلك بالفعل ٠ وقد لاحظت هناك ، وفي كل مكان آخر ، أننا كنا نتاجر مع العرب فقط ، تماما كما لاحظت فيما بعد أن أصحاب المراكب الهندية الآتية من كوتش وبمباي لم يكونوا يتعاملون الا مع أبناء جلدتهم ، ولم يكونوا يجلبون البضائع الا لهم ٠

ومرت الأيام ، والمركب يهتز بنا ، في خليج حيفون وسط عالم من القذارة والسخام المتطاير من المواقد ، بينما كان البدو يصيدون السمك ، ويتصارعون ويتصايحون ٠ وفيما عدا ذلك ، لم يحدث شيء يذكر ٠ وفيما عدا طاقم المركب ، لم يسمح لأحد بالنزول ، وبدأت أتساءل ما الذي أتى بنا الى هنا ٠ وبما أني كنت أوروبيا ، فقد كنت مشكوكا في أمري ٠ أما سبب الشك فلم أستطع أن أعرف عنه الشيء الكثير ٠

ولكن يبدو أن الايطاليين كانوا يرتابون بأني عميل بريطاني ، أو أني أسعى الى القيام بعمل تخريبي من نوع ما ، فربما كنت ذاهبا لاثـارة الفتن في الحبشة ، أو لاشاعة الفوضى والتذمر بين الصوماليين ، الذين لا يكفون عن التذمر بطبيعتهم ٠ وقد كنت ميالا للسخرية من هذا الشك ، الا أن نجدي ، كان منزعجا جدا ٠ فواقع الامر بالنسبة له ، أني اذا كنت موضع شك ، فالمركب وربانه موضع شك أيضا ، وهذا أمر يضر بالتجارة ضررا بالغا ٠ ولكن من المعروف ان للايطاليين أنفسهم ــ أو كان لهم على الاقل ــ بعض العملاء في العراق واليمن وأماكن أخرى ، عملاء لم يكن أحد منهـم يشجع الناس على قبول هذا العالم الرائع كما هو والعيش فيه بسلام ، وربما كان استخدامهم هم للخونة ، مروجي الآراء الهدامة ، هو الذي كان يجعلهم يشكون في أمري ٠ وقد أضاف نجدي الى ذلك قوله انهم بطبيعتهم دائمو الشك ٠ فقد كانوا يرفضون أن يصدقوا مثلا أن لورنس قد مات فعلا ٠ وكانوا يشكون في جميع البريطانيين وحتى في معظم العرب ٠ أما فكـرة حسباني لورنس عن طريق الخطأ ، فانها فكرة ــ رغم اعتزازي بها ــ لم تنطل على أحد ، حتى على البدو الذين كانوا معنا ٠ فقد كان لورنس رجلا قصير القامة ، صغير الجسم ، شديد البياض ، بينما كنت ابلغ من الطول ستة أقدام ، ومن الوزن مائة وستين رطلا انجليزيا ، حتى بعد مضي شهرين على ابحاري مع العرب ٠ وكان لورنس قد لقي حتفه فعلا ، كما يعـرف العالم بأسره ، ولم يكن هناك أي غموض في طريقة موته ٠

ومهما يكن من أمر ، فهذا هو ما حدث ، ووجدت نفسي سجينا على ظهر المركب ، بعد أن قام الممرض الصومالي بتطعيمي ضد الجدري ٠ ولم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئا سوى أن أنتظر على ظهر المركب ٠ وكانت مراكب أخرى من نوع « البوم » تأتي ، ومراكب من نوع السمبوك تقـف راسية وكأنها مهجورة ٠ ولم تكن هذه الطريقة العربية في التجارة البحرية تدل على الاهتمام الشديد ٠ فقد كنا نقف هناك يوما بعد يـوم ، دون أن يحدث شيء ، أو بكلام آخر ، دون أن يحدث شيء بالنسبة لتجارة المركب ٠ أما سعيد وماجد وبقية المهربين، ــ الذين ظهروا ثانية على المركب بعد أن انتهى احصاء الركاب ، (وبعد أن اختفوا خلال تلك المدة في مراكب اخرى تم تفتيشها واحصاء ركابها دون أن يلاحظ ذلك أحد) ــ فقد بدأوا عملياتهم بدون تأخير ، كما حذا حذوهم حمد بن سالم ، وعبد الله النجدي ، وسائر البحارة الآخرين تقريبا ، وبدأت البضائع الممنوعة من الخردوات والاقمشة الزاهية الألوان والزجاجات الصغيرة من العطور تأخذ طريقها الـى ذلـك الشاطىء المغطى بروث الحيوانات ٠ وفي معظم الاحيان ، كان الصوماليون هم الذين يأتون الينا ليأخذوا البضاعة ٠ وكانوا يأتون ليـلا في قوارب

صغيرة مصنوعة من جذوع الاشجار ، أو ينسلون بجانب المركب في قوارب صيدهم ، ويتناولون رزمة من القماش من المركب ، سرعان ما يخفونها تحت صيدهم من السمك ، ويتابعون سيرهم وكأن شيئا لم يكن . لقد كانوا في غاية الذكاء والمكر . وكان من بين الاشخاص الذين يتاجرون معنا بشكل منتظم اولئك الرحالة ذوو الشعور المسبلة على جانبي الوجه ، أحفاد السندباد ، الذين كانوا يبحرون على المراكب العمانية القادمة من صور ، والذين لم يكن معهم مال يشترون به البضاعة ، فيأخذونها نسيئة . وكان هؤلاء يشترون كميات كبيرة من البضائع لم أكن متأكدا ماذا يفعلون بها كلها ، وان كنت أعتقد أنهم كانوا في كثير من الاحيان يبيعونها ثانية في الموانىء الصغيرة الواقعة على ساحل أفريقيا ما بين حيفون وموقاديشو .

وسرعان ما أصبحت أجد متعة وتسلية في كل ما يحدث على ظهر « ذ ح النعير » ، فقد كانت المناظر تتغير وتبعد ذهني عن الوضع السيء جدا الذي كنا فيه . فلم أعر اهتماما كبيرا لقضية منعي من النزول الى البر ، فحتى في مكان سيء مثل حيفون ، لم يكن يمر يوم على ظهر المركب شبيه بسابقه . بل اني ، بعد مرور بضعة أيام ، أصبحت أرى شيئا من الجمال في حيفون نفسها ، فقد كانت التلال الكلسية المحيطة بالميناء تبدو جميلة جدا في المساء عند مغيب الشمس ، وفي الفجر عند بدء طلوعها .

كنت لا أزال أشكو من العرج الشديد بحيث لم يكن بامكاني السير على قدمي الا بضع خطوات ولكنني كنت سعيدا على ظهر المركب . فقد اعتدت على تناول أصناف الطعام نفسها كل يوم . واذا كان الماء سيئا ، فلا بد أني قد اكتسبت بمرور الوقت مناعة ضد ما يمكن أن يصيبني منه . واذا كان مقدرا لي أن يصيبني البدو بالعدوى من مرض معين ، فقد كانت هذه مجازفة لا بد أن أقوم بها . وقد بدأت بالفعل أعراض المراحل الاولى من نوع خفيف من الجذام تظهر على بعضهم .

كنت أعجب دائما من اذعان البدو وتقبلهم بصمت واستسلام لكل ما يحدث لهم ، سواء أكان متوقعا أو مخططا له ، أم لم يكن . فقد قيل لهم مثلا عندما اعتلوا ظهر المركب في ميناء شحر بأن الرحلة كلها لن تستغرق أكثر من عشرة أيام ، ولكن ها قد مضت ثلاثة أسابيع ولما نغادر ميناء حيفون . ولم يكن يبدو أنهم يكترثون لذلك ، بل اني أشك فيما اذا كانوا يشعرون فعلا بمرور الايام ، لأن رحمة الله كانت بالنسبة لهم واسعة . فلم يكونوا يستبقون المشاكل أبدا . كما أني أتساءل كيف كانوا يدبرون أمر طعامهم . ولكني لاحظت أن بامكانهم العيش على القليل القليل منه ، وكان السمك وفيرا .

وقد كان باستطاعتهم أن يحصلوا على قطعة من الخبز مما يصنــــع فـــي المركب ، ولكن معظمهم كانوا يفضلون أن يصنعوا خبزهم بأنفسهم ، وكانوا يخبزونه على نار الحطب ، ويبقى كثير من الرماد عالقا به ٠

كانت أيامنا تبدأ قبل الفجر بكثير ، فقد كان المؤذنون يبدأون أذانهم قبل مدة من ظهور أي أثر للضياء في الأفق الشرقي ٠ وكان ذلك الشيخ الذي رافقنا من ميناء شحر ، والذي كان قد عزل بحارنا « سلطان » من مهنـــة الأذان الرتيبة ، كان يصر على الأذان عدة مرات اضافية خلال النهـــار ، وكان توقيته مخالفا للواقع ، حتى بالنسبة للعرب ٠ صحيـــح أنه ليس لدى العربي أفكار محددة جدا عن الوقت ، الا أن أوقات الدعوة للصلاة كانت محددة بشكل معقول : فكان هناك الأذان الاول عند الفجر ، عندما تبدو أول ملامح الضياء فى السماء ٠ وكان الأذان الثانى عند الظهر أو بعد منتصف النهار بقليل ، والثالث عند العصر ، أي عندما يخف وهج الشمس ، ويتحول لونها من الحمرة الى البياض ، وتطول ظلال الاشياء ٠ وكان الأذان الرابع عند مغيب الشمس تماما ٠ اما الخامس ، أو أذان العشاء ، فقد كان فـــي أي وقت مابين مغيب الشمس والفجر(١) ، ولكنهم كانوا يؤذنون لصلاة العشاء بعد ساعتين تقريبا من آذان المغرب ، وذلك حرصا على راحـــة الركـــاب والبحارة ٠ لقد كان شيخنا الشحري هذا مخلوقا حقيرا ليس فيه شيء من صفات رجل الدين ، وكان يستمتع استمتاعا كبيرا بأدائه الأذان ، حتى أنه كان يؤذن للظهر ثلاث مرات أو أربعا فى اليوم نفسه ، وينام بين كل آذان وآخر ، ثم يصحو دون أي ادراك للوقت ، بل ربما لم يكن يدرك أننا ما زلنا فى نفس اليوم ٠ وقد أزعجنا بأذانه هذا ازعاجا كبيرا ، حتى أن نجدى ــ الذي لم يكن يحب أن يضطر لاتخاذ اجراءات حازمة ضد أي انسان أو أي شيء ــ اضطر في نهاية الأمر أن يعلق جرس المركب على عمود مواجه لمقعد قائد الدفة ، وأن يطلب من هذا أن يقرع الجرس كلما حان الوقت الصحيح للأذان ٠ وكان هذا الجرس حريا أن يكون معلقا فى عنق احدى الأبقار ، لا على متن أحد المراكب ، وكان قد اشتري من أحد أسواق الخردة في مدينة بومباي في الهند ، كغيره من الآلات والمعدات الملاحية التي كانـــت تلـــزم للمراكب العربية ٠ وقد أدى هذا النظام الجديد وظيفته بشكل سليم بضعة أيام ، الا أن مديري الدفة بدأوا ينسون قرع الجرس ، وسرعان ما عاد كل شيء الى سابق عهده ، وبعد مدة قصيرة اختفى الجرس في جوف المركـــب مرة ثانية ٠

---

(١) هذا الكلام غير صحيح طبعا ، فهناك وقت محدد تماما لآذان العشاء ، وهو ما يشير اليه المؤلف فى القسم الثانى من هذه الجملة (المترجم) ٠

وهكذا كانت الأيام تمر على البدو في هذا المرسى الجار ، وهم يؤدون الصلاة ، ويطبخون ، ويتناولون طعامهم ، وينامون ، ويصيدون السمك ، وينظفونه ، ويتفرجون على ما يجري على ظهور المراكب الاخرى ، ويتشاجرون ، ويتصايحون ، وينظفون وزراتهم وقمصانهم من القمل العالق بها • أما ركاب الدرجة الاولى ، على المؤخرة ، فقد كانوا منهمكين كل الانهماك في عمليات التهريب •

في صباح أحد الايام وقفت أرقب ما يجرى على سطح المركب • وكان المنظر عاديا شبيها بما يمكن أن أشهده كل صباح • فعلى الجزء الايسر من السطح ــ على رأس السلوقية ، الذى كان فى الواقع مكانا يعمل عليه البحارة عند رفع المرساة أو انزالها ، وعند تغيير اتجاه المركب ــ كان جاسم الطباخ وأحد المسافرين يقومان بذبح وسلخ عنزة صومالية كبيرة ، كانت مربوطة هناك بحبل طوال الليلة السابقة • وعلى الناحية الاخرى من رأس السلوقية ، كان ثلاثة من البحارة ينظفون السمك الذي كان قد اصطاده ، في الليلة الفائتة ، حسن ، مدير الدفة ، ومحمد أميري ، النائمان الآن ــ بعد تعب الليلة السابقة ــ وهما يشخران ، قرب الموقد ، بينما كان البدو لا ينقطعون عن الحركة من حولهما • ولم تكن عملية تنظيف السمك هذه عملية صحية أبدا • فلم يكن الوقت يهدر في تقشير السمك أو غسله ، بل كان يشق بضربة قوية من الفاس ، وتنزع عظام العمود الفقري بسكين صدئة ، ثم يملح اللحم بملح خشن قذر ممزوج بكل ما يمكن أن يتطاير من السطح في ذلك الوقت ، ثم يدوسه البحارة بأقدامهم • وكان السطح قذرا للغاية وملطخا بالدماء ، والملح خشنا وغير نظيف • وقد جعلني هذا المنظر أزهد في السمك وأعف عن أكله منذ تلك اللحظة • (وواقع الأمر أن أية زيارة أقوم بها للجزء الامامي من المركب ، كانت كفيلة باقناعي بالامتناع عن أكل أي طعام يصنع على ظهره امتناعا تاما) • وبعد أن يشق السمك ويملح كان يعلق على الحبال ليجف في الشمس •

وفي أثناء ذلك ، كانت عملية تقطيع العنزة قد أتت الى نهايتها ، وكان جاسم وزميله البدوي يكومان العنزة المذبوحة في القدر الضخم • وكان يراقبهما غلام بدوي ذو شعر طويل ، وملامح لطيفة ناعمة ، ولولا استقامة جسمه النحيل ، لحسبه المرء فتاة • وكان يلبس سوارا فضيا في معصم يده اليمنى ، كما كان خنجر يتدلى من طيات وزرته • لقد كان غلاما لطيفا ، وكان هو وعودة ، ذلك الزعيم العجوز أهدأ راكبين على ظهر المركب • وقد كنت أتساءل ما الذي أتى بذلك الغلام الى مثل هذه الرحلة الطويلة المتجهة الى زنجبار • وقد سألته مرة ، ولكنه لم يكن يعرف الجواب • بل لم يكن

يعلم حتى وجهة سفر المركب ، فقد كان فتى خجولا وكتوما جدا • وقد تصورت أن مجاعة يمكن أن تكون قد حلت بقبيلته ، بحيث لم يعد هناك من الطعام ما يكفي للصغار ، وربما سمع الكبار يتحدثون عن فرص أفضل متوافرة في أفريقيا ، فأتى • فقد كان من أقصى داخل حضرموت ، بحذاء الصحراء الكبرى • وعندما سألته عما اذا كان سيعود الى وطنه ، أجاب أن ذلك مؤكد بمشيئة الله • فقد كان يأمل أن يقضي ثلاث سنوات أو أربعا فقط في أفريقيا • وقد كنت أتساءل أين سيسمح له بالنزول الى البر ، وكيف تمكن من دفع أجرة سفره • فقد كانت حتى الروبيات القليلة ثروة بالنسبة لانسان مثله • وقد أخبرني بأنه هو وبعض الفتيان الآخرين من قبيلته قد حملوا بعض البخور على جمالهم من حدود الصحراء الى المكلا ، حيث تمكنوا من بيع الجمال وما عليها من الحمولة ، وبذلك حصلوا على بعض المال اللازم للسفر •

وهناك ، بالقرب من الموقد الذي تسيطر عليه الفوضى والدخان ، كان جاسم ، ــ والحزن والسواد باديان على محياه اكثر من أي وقت مضى ــ يقعي على فتحة السطح الامامية ، ويحرك لحم العنزة التي في داخل القدر بقطعة من الحطب • وكان غطاء الفتحة نفسه يبدو منظرا مخيفا ، وهو مغطى بقطع من أحشاء العنزة ، وحراشف السمك ، وتحيط به أدوات الطبخ ، والحطب ، وبذور التمر ، وكسرات الخبز • فقد كان عبد الله النجدي وزمرته ، بغض النظر عن كل ما يجرى حولهم ، يواصلون تعبئة العلب الصغيرة « بأجود أنواع التمور البصرية » ! ولعمري ، اذا كانت هذه هي أجود أنواع التمور الآتية من البصرة ، فلا بد أن تمور البصرة سيئة للغاية ، ولا أبغي شيئا منها • ولكن الواقع أن هذه العبارة المكتوبة على كل صندوق كانت مجرد افتراء على الحقيقة • فقد كانت هذه التمور قديمة جدا ، وكان العرب يرغبون في بيعها الى الصوماليين ، الذين لم يكونوا يميزون الغث من السمين • ولذلك كانت توضع في تلك الصناديق التي كتبت عليها تلك العبارة للمساعدة على بيعها والتخلص منها • وقد كان لدينا ستون جلة كبيرة من هذه التمور ، شحنت من مخازن أحد تجار عدن حيث كانت مخزونة سنوات عديدة تنتظر السوق المناسبة • وقد كانت هذه هي الفرصة الوحيدة لبيع تلك التمور ، فاذا لم نتمكن من بيعها للصوماليين، فليس هناك مصير آخر لها سوى قاع البحر ، لأننا لن نتمكن من بيعها لغيرهم •

تحت مؤخرة المركب الجديد على سطح « فتح الخير » ، كانت فتاة صغيرة مستغرقة في النوم • وكانت هذه مخلوقا صغيرا بدينا ، ترتدي

ثوبا ملونا طويلا ، وعلى رأسها غطاء أسود ، كما كانت يداها المكتنزتان ووجهها المستدير مزينة بخطوط كثيرة سوداء أو بلون الحناء ، ومن أذنيها تتدلى حلى فضية ، تكاد تبلغ العشر فى كل أذن ، تسمع لها جلجلة أثناء المشى • أمثال هذه الفتاة لم يكن يظهرن على السطح الا خلال النهار • أما فى الليل فلم يكن يسمح لأي أنثى سوى القطة بالتجول خارج حدود القمرة الكبيرة • وعلى الالواح الخشنة فى قاع ذلك المركب ، كان يستلقى عدد من البدو وقد وضعوا بعض طيات زنانيرهم الطويلة فوق رؤوسهم لحمايتها من الشمس • فلم يكن البدو يلبسون شيئا ، لا كوفية ولا عمامة ، على رؤوسهم • وكان غيرهم يقعون حيث يجدون متسعا على السطح الرئيسى ، ويعدون طعامهم على نار صغيرة أو يقلون السمك ، أو يسلقون الارز ، أو يخبزون الخبز • بينما كان آخرون يتناولون طعامهم ، وآخرون يعدون القهوة فى أوان نحاسية ذات ميازيب طويلة ، مصممة بشكل يجعلها تستخلص أكبر كمية من الحرارة من أقل كمية من الفحم المشتعل • وكانت جماعة أخرى من البدو تشرب القهوة • ويبدو أنه كلما كانت القهوة سيئة ، أصبحت طريقة تقديمها رسمية ومعقدة • فقد كان بعض البدو يدورون بفناجين القهوة الرديئة وفى كل منها كمية صغيرة جدا ، وكأنهم يقدمون ترياق الآلهة ، فهم ينحنون ويتكتكون بالفناجين الخزفية على ميزاب القدر وكأنهم رؤساء الندل فى فندق ريتز الفخم بلندن • وكان بعضهم يلبون نداء الطبيعة فى صناديق صغيرة مصفوفة على جانبى المركب ، بينما كان آخر ينظف قدرا ، دون اهتمام كبير ، وولدان صغيران يتشاجران دون أن يفصل بينهما أحد ، فلم يكن أحدهما يؤذى الآخر ، كما لم يكونا يؤذيان أحدا • وفى أماكن أخرى على السطح كان البدو يدهنون أجسامهم بالزيت ، أو يطلى أحدهم شعر الاخر بالزبد • وعلى المؤخرة ، كان تاجر صورى يلف عددا من الوزرات الجديدة حول وسطه ، واثنتين أخريين حول فخذيه قبل أن ينزل الى الشاطىء ، فقد كانت أسعار الوزرات العدنية جيدة فى هذا المكان ، ويمكن بيعها للتجار العرب المقيمين هناك • وبالقرب منه كان طفل حضرمى ، يطل شىء من الخبث من عينيه ، يلتهم طبقا من الارز كالذئب وكأنه يخاف أن ينتزعه أحد منه • وكانت هناك مشادة قائمة بالقرب من صهاريج الماء •

أما يوسف الشيرازى فقد كان متربعا على صندوق بجوارى ، منهمكا فى عمل ما ، حتى أنه لم يرفع رأسه ليستفهم عن سبب الضجة القائمة • فأخذت أرقب ما يصنع ، ووجدت أنه ما زال منهمكا في نفس العمل الغامض الذى لاحظت أنه كان يقوم به ، ونحن نبحر مقابل راس حيفون • فقد كان يصنع دواء ، كان يبدو لى كأنه شراب من اعداد السحرة • فقد كان معه عدد من الصرر الصغيرة ، فى داخلها بذور وأشياء أخرى ، كما كانت بعض

الاعشاب مربوطةفى أطراف كوفيات قديمة · وكان يلقى قطعا معوجة من الحشائش ، وأجزاء مختلفة من أوراق الشجر ، وبعض البذور القديمة المجففة ، وبعض قطع من لحاء الشجر ، وقطعا كانت تبدو لى كأنها الخيوط ـ كان يلقى كل هذه الاشياء فى اناء ، ثم يأخذ بدقها وطحنها ومزجها معا بكل همة ونشاط· وعندما سألته عن فائدة ذلكالخليط العجيب وطريقة استخدامه لم يجب سوى أنه دواء · وأشار الى عينيه ، اللتين كانتا تسيلان ، وأضاف قائلا انه سيكون دواء شافيا باذن الله ، وأن ما يصنعه ليس مرهما بل سائلا للشرب · وكان يمزج المواد فى قعر اناء عراقى ، ويحركها بطرف خنجر من خناجر البدو · وقد كنت أتمنى لو أمكننى تقديم المساعدة بالنسبة لعينيه ، ولكن لم يكن ذلك بمقدوري · فقد كان مرضهما قديما ، يعود عهده الى أيام الغوص ، بحسب قوله · فقد كان غواصا كويتيا على اللؤلؤ سنوات طويلة ، وهو يشكر الله الآن لخلاصه من تلك الحياة ، فقد كانت حياة صعبة ، وكانت تؤذي العينين والرئتين ، بالاضافة الى المعدة طبعا · كان يقول ذلك وهو لا يتوقف عن مزج المواد وتحريكها بشكل منتظم · لقد كان أعجب دواء رأيته في حياتي ·

وقد علمت فيما بعد أن الدواء كان وصفة لزيادة ادرار الحليب من أثداء البدويات حديثات الولادة · وكان يوسف يريد الحليب البشرى ليغسل عينيه به ، فهو يعتقد أنه سيكون مفيدا لهما · وكان هذا الدواء من أسرار الحريم التي تعلمها يوسف وهو في الكويت ، وسيستخدم ليزيد من كمية الحليب في ثديي احدى الأمهات البدويات الموجودات في القمرة الكبيرة ، وهي امرأة ناضجة وافقت على التعاون مع يوسف ومساعدته في شفاء عينيه ·

وكان يرسو خلفنا أربعة عشر سمبوكا ، معظمها من ساحل المهرة ومن الموانىء الصغيرة بالقرب من صور ، ليس عليها أي نشاط سوى رقص البحارة وغنائهم وهم يجلبون ماء الشرب اليها · وكان الماء هذا رديئا ، مجلوبا من بئر ماؤها آسن · وربما كان الرقص والغناء والضجة التي يقيمونها ضرورية لطرد الجن من داخل ذلك الماء ·

مرت الأيام ونحن راسون في ميناء حيفون ، وازدادت قذارة السطح الذي لم يكن ينظف قط ، حتى أنه أصبح كالمستنقع ، وصرت أخشى من مجرد الوصول اليه · وكانت الشمس تسطع ، والبدو يتصايحون ، والسمك يزداد نتنا ، الا أننا لم نقم بأي عمل تجاري بالنسبة لحمولتنا · وقد بدأت أعتقد أننا قد وصلنا الى هنا خطأ · فاذا كان الأمر كذلك ، فقد كنت أتمنى

أن يصحح ذلك الخطأ ونرحل ، فلم يكن ميناء حيفون بالميناء المثالي لرسونا ، وبقائي محبوسا على المركب مع جيش من البدو لم يكن بالأمر السار على الاطلاق ·

وفي أثناء وجودنا في ميناء حيفون ، أتيحت لي فرص عديدة لفحص وزيارة البغلة الفارسية الجميلة التي كانت راسية بجوارنا ، لأن أمر منعي من مغادرة المركب لم يكن ينطبق على زياراتي للمراكب الاخرى الراسية في الميناء · وقد كانت هذه هي نفس البغلة التي أبحرت معنا من عدن ومن المكلا · وكان اسمها « أمل الرحمة » (وهو اسم كان يتغير أحيانا ، كما كنا نغير اسم مركبنا أيضا) ، وكان ربانها ، سليمان رضوان بن سعيد ، رجلا فارسيا منفيا عن بلده الى الكويت ، وكان عدد بحارتها ثلاثة وثلاثين ، وحمولتها ثلاثة آلاف جلة من التمر ، أي حوالى مائتي طن ، وكانت مركبا جميلا · وقد دهشت لعدم وجود أي مسافرين على ظهرها ، على الرغم من كونها أكبر ، وأوسع أسطحة من مركبنا · وقد فسر نجدي ذلك بأن المسافرين كانوا يفضلون البوم على البغلة ، لأن البغلة كانت في طريقها الى الانقراض ، فقد كانت أقل احتمالا للبحر من البوم ، كما كانت مؤخرتها ، رغم جمالها وزخرفتها ، غير مأمونة في بحر هائج · ولكن ربما كان أحد الاسباب أيضا ما علمته من البعض ، من أن سليمان بن سعيد كان رجلا سيء السمعة · وكان هذا رجلا صغير القامة ، ذا عينين شديدتي البريق ، احداهما قريبة من الاخرى ، في وجه جاف قاس كالجلد ، تحيط بذقنه لحية تساعد على اظهاره بمظهر شيطاني · ومع أنه كان فارسيا ، الا أنه كان يرتدي الملابس الكويتية دائما ، من الدشداشة الطويلة البيضاء ، الى الكوفية والعقال · بينما كان غيره من الفرس يعتمرون عمائم كبيرة يثبتونها حول رؤوسهم ، ويلفونها بطريقة هندسية جميلة مميزة عن غيرهم · الا أن سليمان على ما يبدو ، لم يعد فخورا بقوميته بسبب نفيه عن بلاده ·

وعلى هذه البغلة ، كان مع النوخذة ، اثنان من أبنائه ، يبلغ عمر أحدهما الثامنة وثانيهما الثانية عشرة ، وكانا طفلين مرحين ، يهللان ويطبلان كلما رأياني لكي أقوم بتصويرهما · وقد فهمت أنهما كانا يتدربان ، أما على ماذا يتدربان وماذا يتعلمان ، فهذا أمر متروك لهما ، ولكن كان من الواضح أنهما قد تعلما كثيرا من اللعب والعبث ·

كانت البغلة « أمل الرحمة » قد وصلت الى حيفون قبلنا بأسبوع ، وأقام سليمان وليمة في اليوم الثاني لوصولنا ، كنت أحد المدعوين اليها ·

وكان الطعام يتألف من المواد العادية : العنزة المعروفة والأرز ، وقد قدم على المؤخرة ، تحت مظلة تقي من الشمس • وكان الطعام على الاقل أفضل من السمك الذي كنا نأكله ، كما أثارت البغلة انتباهي الى حد كبير • فقد كانت أكبر البغلات الباقية ، وأجملها من جهات عدة • فقد كانت دائمـــا تثيرني ، كلما جلست على ذلك المقعد القائم خلف الدفة ، في ذلك المكان المرتفع من المؤخرة التي ترتفع من السطح بانحدار شديد ، وكلما نظرت من هناك الى تلك الخطوط الانسيابية الجميلة لأسطحها العتيقة ، من الألواح البالية على مؤخرتها الى قرنها المعوج في مقدمتها المنخفضة • ومــع أنــي شاهدت هذه البغلة عدة مرات فيما بعد ، كما أني اعتليت ظهرها مرات لا تحصى ، فقد كنت أغادرها دائما وأنا أتمنى لو استطعت البقاء • فقد كان منظرها جميلا من الخارج ، كما كانت جميلة من الداخل • وكانت جنبات مؤخرتها ذات النوافذ تتحلى بجمال خاص • وكان الجزء البيضاوي مـــن هيكلها المصنوع من خشب الساج القديم مزخرفا بنماذج معقدة ، محفورة عليه ، كما كانت مقدمتها المعقوفة تسبح في الماء برشاقة وخفة وكأنها صدر أوزة جميلة • وكان حجمها كبيرا بالنسبة للمراكب العربية • وكان هيكلها المصنوع من خشب الساج ، المطلي بالزيت ، يطفو على سطح الماء برشاقة وقوة وجمال ، وكان كل ما فيها يدل على قوة احتمالها للبحر ، على الرغم مما قاله نجدي عن ضعف مؤخرتها • فقد كان من الغريب أن تعيش كل هذه المدة ، اذا كان ما قاله نجدي عن ضعف مؤخرتها صحيحا ، فقد كانت تعود الى عهد تجارة الرقيق ، ولا يقل عمرها عن خمسين عاما • وككل المراكب العربية الأخرى ، كان كل خط من خطوطها ينساب ، ويتصل بشكل منسجم تماما مع بقية أجزاء جسمها الجميل ، هذا على الرغم من أنها كانت قــد بنيت على شواطىء صور ، على أيدي نجارين لا يعلمون شيئا حتى عــن أبسط أنواع الرسوم الهندسية • فقد بنيت اعتمادا على النظــر وحــده ، فخرجت جميلة رائعة ، مع أنها لم تكن الا مجموعة من قطع الساج غيـــر المتوائمة ، مثبت بعضها ببعض بمسامير من الحديد الضعيف ، ومع أنــك كنت تستطيع أن ترى بعض الالواح السيئة التركيب وقد انفتلت ونتأت هنا وهناك ، والصدأ يقطر من كل جزء من اجزائها ، وقطع القطن تبرز مـــن جنباتها • وكانت الممرات الجانبية محفوفة بأفاريز مشبكة كأنها نوافذ غرف الحريم ، كما كانت النوافذ الخمس على جانبي المؤخرة مزودة بقضبان من الحديد ، وكان المصراع الخشبي لاحدى النوافذ يتأرجح فتبدو عليه النقوش الجميلة من النجوم والأهلة •

فاذا ما تركنا شكلها الخارجي ووطئنا سطحها ، فاننا نعود خمســـة قرون الى الوراء ، فقد كان سطحها كبقية جسمها ، من فنون القـــرون

الوسطى • وقد كان هذا السطح شبيها بسطح مركبنا في كل دقائقه ، بما فيه ذلك النجار الذي يقوم بصنع مركبه الصغير • فقد كان فيها رأس سلوقية منخفض ، كما كان الحال على مركبنا • كما كانت فيها نفس الدعامات الضخمة التي تربط بها الحبال والكابلات ، والموقد نفسه مع طباخه الملطخ بالسخام ، وصهاريج الماء الخشبية نفسها ، واحد منها على كل جانب • وكذلك كان الجذع الضخم لذلك الصاري المائل الذي ينتصب من الجزء الامامي من الفتحة الرئيسية الطويلة (المؤدية الى جوف المركب) ، الا أن صواري البغلة كانت أعلى من صوارينا • أما سطحها الرئيسي فقد كان مصنوعا من ألواح خشبية بالية لا تقوى على مقاومة الماء ومنعه من التسرب الى الداخل ، كما كانت جوانبها الثقيلة قد زيد ارتفاعها باضافة ألواح خفيفة بارتفاع قدمين ، تمتد من الامام الى الخلف•وكان على السطح الرئيسي مسامير ذات حلقات ، قادرة على حمل مرساة سفينة بخارية كبيرة ، ورحوية ضخمة على المؤخرة تبدو كأنها مأخوذة من سفينة نلسون البحرية « النصر »(١) • وقد كانت أكثر تعقيدا وزخرفة من مركبنا ، حتى تبدو كأنها من صنع عصر أكثر ازدهارا ، فقد كان عليها من الزخارف والحفر كل ما يتسع هيكلها له ، وكان هذا واضحا تماما حول المؤخرة • وكان الطرف الداخلي للمؤخرة منخفضا حتى أنه لم يكن بالامكان المشي تحته بانتصاب • الا أن سطح تلك المؤخرة كان مرتفعا ، وكان سطح الجزء الخلفي من القمرة الرئيسية الواسعة يزيد ارتفاعه عن سبعة أقدام (وكانت هذه هي المرة الاولى التي أرى فيها هذا الاتساع والارتفاع على المؤخرة في أي مركب عربي) • أما الطرف الداخلي للمؤخرة ، الذي كان يشرف على السطح الرئيسي ، فقد كانت نماذج لطيفة متداخلة محفورة عليه ، ومزينة بآيات من القرآن الكريم • أما سدة الضباط في المؤخرة فلم تكن كما هو الحال على مركبنا ، بناء ساذجا خشنا من الخشب غير المصقول ، بل كانت قطعة جميلة صقيلة حسنة البناء من الخشب الجيد ، يحيط بها حاجز من خشب الساج المحفور ذو ارتفاع يسمح للمرء بالقفز من فوقه ، ولكنه يمنع النائم من التدحرج والسقوط في البحر في حالة هياجه وارتفاع أمواجه ، أو السقوط الى داخل المركب • ولم يكن هذا الاحتياط متوفرا على مركبنا • أما مؤخرة البغلة فقد كانت تختلف تماما عن مؤخرة مركبنا ، مع أنها شبيهة بها من حيث الاشياء الاساسية : الرحوية الصغيرة ، وصفوف الصناديق التي لا غنى عنها ، والصاري المزيني المحلق فوقنا ، وصندوق

---

(١) نلسون هو القائد البحرى الانكليزى الشهير (١٧٥٨ ـ ١٨٠٥) الذى استطاع الانتصار على نابليون بونابرت فى معركة الطرف الاغر الشهيرة (١٨٠٥) وهى المعركة التى قتل فيها نلسون نفسه أيضا • أما السفينة « النصر » فقد كانت سفينة قيادته (المترجم) •

البوصلة ، والدفة ، وكرسي مدير الدفة • ولكنها كانت تختلف بأنها كانت توحي بالقدم وجلاله ، وجاذبيته الشديدة ، التي يصعب على الانسان أن يسبر غورها • كما كانت كأنها تشدو بأغنية الرحلات الرومانسية التي لا حصر لها • لقد كان باستطاعتي أن أسمع تلك الاغنية تنبعث من كل لوح بال من ألواح سطحها العتيقة ، وكانت تلك الاغنية تثير مشاعري دائما •

لقد كانت تلك المؤخرة وتلك البغلة بأكملها تلف ذراعيها حول أي بحار يعتلي سطحها فاذا به يهيم بها حبا ، على الرغم من انفلات الحشوة من بين الالواح العتيقة المثقبة ، وعلى الرغم من أن ربع ماء البحر كان يتسرب الى داخلها ، وأن رائحة زيت السمك العفنة كانت تنبعث منها باستمرار • وعندما كنت أقف على مؤخرة هذه البغلة ، كان ذهني يسرح ويعود بي الى أيام القراصنة والرقيق وجميع الاشياء القديمة العهد ، وكنت أرى ثانية جميع تلك المراكب المدهشة التي كنت أراها قبل أن أنخرط في عالم الملاحة ، عندما كان البحر كله جمالا خلابا ، والمراكب كلها أفلاكا تقوم بمغامرات عظيمة • لكم كانت الحقيقة مختلفة عن هذه التصورات ! ومع ذلك فقد كان من السهل علي ، وأنا أقف على ظهر مركب شراعي عربي قديم ، يرسو في هذا المكان الخانق ، على بعد مئات الاميال من أي مكان مأهول على ذلك الساحل المهجور ـ أقول ، كان من السهل علي أن أحلم ثانية بالبحر الرومانسي الذي لم يوجد أبدا ، وأنا أعلم تماما ما هو البحر الموجود فعلا • ولكن هل كان حلمي كله خيالا ؟ ألم تكن القراصنة والرقيق ، والمال والذهب ، والغناء والمرح ، والنساء والخمر كلها موجودة ؟ الغريب في الأمر ، أنها كلها كانت موجودة فعلا : القراصنة والرقيق (السواحليون من زنجبار الى موزامبيق) والراقصات الفاتنات والحريم المرافقات للركاب، والرقيق من العذارى الجميلات لتجار صور وعمان ومن كان يستطيع شراءهن من الناس الآخرين ، والأغاني الشبيهة بأغاني اسماعيل وأمثاله • وبدلا من خمر « الروم » ، كان هنالك العرق المصنوع من تمور نهر دجلة ، الا أني لم أر سليمان يذوق شيئا منه قط ، فقد كان مسلما متمسكا بتعاليم دينه • بلى ، بلى ! لا شك أن القراصنة والعبيد كانوا يخطرون على ظهر مركب كهذا • لا ، بل ها هم يسيرون على ظهره الآن ! فهناك على السطح الرئيسى ، وبعد الانتهاء من تناول الطعام ، كان العبيد المعتقون منذ فترة وجيزة فقط ، يهزجون ويرقصون بمرح وسرور ، وعلى المؤخرة كان يقف سليمان سعيد ، الذي كان على وشك أن يصبح نوعا من القرصان ، فقد كان يخطط لسرقة شحنة من البضائع من خليج حيفون ، وأعتقد أنه كان يريد من نجدي أن يساعده في ذلك •

الفصل السادس

أبناء السندباد

ابنـــاء الســندباد

كانت أمور كثيرة غامضة تحدث على سطح البغلة ، فقد وجدناهـا نصف فارغة عندما وصلنا الميناء ، وعجبت أين أفرغت حمولتها ، لأن مــن المؤكد أنها لم تبع فى حيفون ، بل لا بد أنهم قد تخلصوا منها فى مكـــان آخر في الصومال · وفي الليالي المظلمة من تلك المدة التي قضيناها راسين في الميناء ، كنت أرى بعض الزوارق الصومالية الصغيرة وهي تنسل بصمت على سطح الماء ، الى أن تصل الى حيث تقف بغلة سليمان الكبيرة ، حيث تفرغ حمولتها الثقيلة ثم تعود فارغة · ترى ما الذي كانت تلك القوارب تنقله الى البغلة خلسة ؟ فلم يكن أي منها يأتي الينا ، كما لـم يكـن بحارتها يهزجون كالعادة ، بل كانت تنسل خلسة وفي صمت تام ، ومن غير أية مصابيح · وقد بدأت ، بعد خمس ليال من المراقبة ، أتساءل عما كان يجري ، وعما كانوا ينقلونه خلسة الى البغلة ؟ وفكرت في الامر مليا ، وخطرت لي أشياء كثيرة ، من الجلود الى العاج · فقد كانت التجارة القديمة بجلود النمور والاسود قد نظمت في هذه الانحاء ، ووضعت تحت اشراف الحكومة ورقابتها · علاوة على ذلك ، فلا بد أن كميات الجلود التي تمــلأ تلك القوارب مرات عديدة كانت تأتي من عدة آلاف من تلك الحيوانـــات بعد قتلها ، لذلك فقد كان هذا الاستنتاج غير مقبول · فاذا لم تكن تلك الشحنات من الجلود ، فماذا ، اذاً ، تكون ؟ لعلها كانت تتألف من العاج ، فقد كان العاج سلعة تستحق التهريب ، رغم خطورة ذلك · ولم أكن استبعد شيئا ، فقد كان العربي أو الفارسي ، الذي يجوب تلك الارجاء من افريقيا على ظهر مركبه الشراعي ، مستعدا لأن يتاجر بأي شيء ، سواء أكانـــت التجارة مشروعة أم غير مشروعة ، ما دام فيها بعض الربح من الروبيات التي كان بحاجة ماسة اليها ·

وتتابعت الليالي ، والقوارب تجيء وتروح والعمليـة مســتمرة لا تتوقف · وقال لي يوسف ، عندما استفسرت منه ، ان بحارتها كانوا مــن الصيادين · أما سائر البحارة الآخرين على مركبنا ، فقد كانوا يتظاهرون بأنهم لا يرون شيئا · وكان سليمان نفسه كثيرا ما يأتي الى مركبنا فــي الصباح الباكر ، ويصحب نجدي معه الى الشاطىء ·

وفي احدى الليالي ، توقفت القوارب عن المجيء الى البغلة ، التــي

كانت عندئذ قد أصبحت غاطسة في الماء ، بفعل حمولتها الثقيلة ، وكان البحارة يطوون شراعها الرئيسي استعدادا للاقلاع في صباح اليوم التالي والابحار ، بحسب قول يوسف ، الى زنجبار مباشرة • ولكن يظهر أن شيئا لم يكن في الحسبان قد حصل في ذلك الصباح ، فبدلا من أن تقلع البغلة ، رأيت قاربا مملوءاً برجال الشرطة الايطاليين يأتي اليها ، ويصعد هؤلاء الى ظهرها ويعتقلون ربانها سليمان بن سعيد •

وحتى بعد أن جرى هذا ، لم أستطع أن أفهم شيئا مما يجري من البحارة المتكتمين • الا أني لاحظت أنهم كانوا منزعجين مما يحدث ، فقد أخذوا يتراكضون هنا وهناك ، ولم تمض خمس دقائق حتى كانت الخردوات وسائر البضائع الفردية الاخرى جميعها قد اختفت عن العيان ، بعد أن كانت ــ بعد عملية التفتيش الاولية السريعة ــ قد تركت مكشوفة في الصناديق أو ملفوفة في حزم منثورة على جميع أنحاء المؤخرة • كما سارع يوسف الشيرازي الى الاختفاء في القمرة الكبيرة ، وكلي استغراب مما يمكن أن يفعله هناك • ولكني سمعت أصوات تدافع وصراخ كثير ، وفهمت فيما بعد بأنه كان يرتب جلوس النساء على حصرهن بشكل دقيق بحيث يخفين الفتحة الصغيرة في ارضية القمرة ، التي تؤدي الى قاع المركب مباشرة • أما ما الذي كانوا يخبئونه هناك ، فلم أستطع معرفته ، وان كان بامكاني أن أخمن ، فلعل جزءاً منه على الاقل يتكون من رزم من أوراق النقد الايطالية (الليرات) •

الا أن كل هذا الجهد الذي بذله بحارتنا لم يكن ضروريا ، لأن الايطاليين لم يقتربوا منا أو يضايقونا • فقد رأيناهم يبتعدون عنا في قاربهم ، ومعهم سليمان جالسا بين اثنين من الصوماليين الضخام الجثة ، والحسرة بادية على وجهه بوضوح • وما أن انصرف الايطاليون ، حتى هرع نجدي الى الشاطىء مصطحبا معه جميع أعوانه ومساعديه كالمعلم حمد بن سالم ، والمهربين الصوريين سعيد وماجد ، وذلك السيد (الشريف) الحضرمي ، ورجلا آخر ذا لحية حمراء كان بارزا بين ركاب الدرجة الاولى، وأحد الركاب الآخرين المسمى « أبو علي » ، الذي كان عادة كثير الصخب في مثل هذه المناسبات • وانطلق هؤلاء جميعا في القارب الطويل ، وبحارتنا يهزجون ، بينما كنا نرى حارسا صوماليا يقف على ظهر البغلة • ولكن ، على الرغم من اعتقال صاحبنا سليمان بتهمة خطيرة في ذلك الصباح ، فان حمداً وسعيدا وماجدا وسائر الاخرين لم يتوقف أي منهم عن التهريب • فعندما اندفعوا جميعا الى القارب الطويل ، كان كل منهم يخفي تحت ملابسه ، عددا من الوزرات ، وأحزمة النقود ، والعمائم ، ملفوفة على

خصورهم وأفخاذهم وركبهم ، كما كانت جيوبهم محشوة كالعادة بالزجاجات الصغيرة من العطر المخلوط ٠

ولكن ما هي المشكلة ، ولماذا اعتقل سليمان ؟ وماذا كان يفعل ؟ لقد كنت مصمما على اكتشاف السر ٠ لذلك تناولت منظاري المكبر ، ووجهته الى البغلة طيلة النهار ، فقد فشلت في الوصول الى شيء عن طريـــق بحارتنا ٠ وكان كل ما حصلت عليه منهم : بعض الابتسامات ، وهز الكتفين، وعبارات بهيجة تدل على ايمانهم العميق برحمة الله الواسعة ـ كان هذا كل شيء ، اذ لم تكن هناك فائدة من توجيه الاسئلة اليهم ٠ ولذلك فقـد تابعت مراقبتي للبغلة الساعات الطوال ، ولكن ما أن انقضى النهار حتـى كنت قد اكتشفت السر ٠ فقد عرفت أن الايطاليين قد اكتشفوا على ظهر البغلة شحنة كاملة من الملح المسروق من الشاطىء ، تحت سمعهم وبصرهم ، تبلغ حوالى مائتى طن ٠ وقد أصبت بخيبة أمل عندما علمت بطبيعة الشحنة غير الرومانسية ، ولكن عوض عن ذلك اعجابي بالجرأة التي تحلت بها تلك العملية ـ فلم تكن سرقة مائتي طن كاملة بالشيء اليسير ! وقد كان شعوري الاول ينطوي على الاسف لأن سليمان فشل في الاقلاع بتلك الشحنة ، لأن سرقة كل تلك الكمية الضخمة من الملح كانت تدل على الاستهتار بالسلطات٠ ولكن يبدو أن حرص سليمان الشديد على مغادرة الميناء بسرعة هو الذي أدى به الى ذلك المصير ٠ فقد طلع بقاربه الى الشاطىء ليتأكد من أن آخر شحنة من الملح قد حملت ، فاذا بأحد موظفي الجمارك موجود بالصدفـة علـى الشاطىء يتنسم شيئا من الهواء الطلق (أو لعله يبحث عن احدى الفتيات الصوماليات الجميلات) ، فيرى النوخذة ويقتفي أثره ، ويقود ذلك الـى اكتشاف السرقة بكل سهولة ٠ فقد ألقى القبض على الصوماليين وهـــم يقومون بالجرم المشهود ، كما ألقي القبض على سليمان معهم ٠ ولم يجده الصراخ والاحتجاج شيئا ٠ ومما زاد الطين بلة أنهم أمسكوا به وهو يحمل كمية من الليرات الايطالية ، التي كان سيدفعها ثمنا للملح المهرب ٠ ولم تكن هذه الليرات مشتراة من أحد البنوك الايطالية بموجب الانظمة المعمول بها ، بل كانت مشتراة من السوق السوداء في عدن ، ولذلك فهي أموال مهربة ٠ وقد كان من الواضح أن ضررا كبيرا سينزل بسليمان ، فقد كان الايطاليون يتشددون بالنسبة للعملة المهربة أكثر من تشددهم بالنسبة لسرقة الملح٠ لقد كان الوضع بالغ السوء ٠

ولم تطل حيرتنا بالنسبة لمصير سليمان المحزن ، وكنت اتصور مصيرا اسوأ ٠ فقد صودرت النقود الايطالية التي كانت معه ، كما أعيد الملح الى الشاطىء ٠ (وقد استغرق ذلك ثلاثة أيام من الجهد والعـرق ٠ اسـتخدم

فيها أربعة قوارب أو خمسة ، وكان على سليمان أن يدفع غرامة قدرها ألف روبية بالتمام والكمال . لقد كان العقاب صارما ، فمبلغ ألف روبية يعد ثروة كبيرة في المشرق . وكان سليمان قد اقترض الليرات الايطالية من مركبنا ، وان كنت لا أعرف من الذي أقرضه اياها . وقد تبخرت هذه النقود ، كما كان على سليمان ان يدفع ألف روبية لم يكن معه شيء منها . وفى هذه الحالة الطارئة وصل مبعوث من الشاطيء الى مركبنا . وقد سرني جدا أن أرى الاستجابة الفورية لجميع من كانوا على ظهر المركب . فقد هبوا جميعا ، نجدي نفسه ، وحمد بن سالم ، وعبدالله أخو نجدي ، وسعيد وماجد والركاب الآخرون ، وقائدو الدفة ، وعريف البحارة ، وخليل النجار ، وحتى جاسم الطباخ ـ هبوا جمعيا لنجدة سليمان ، فأنبرى كل منهم بفتح صندوقه المصفوف على المؤخرة ، والبحث فى أبعد زواياه ومخابئه ، حتى أتوا بكل ما كان معهم من الروبيات . ولم يكن مع بعضهم أكثر من روبيتين ، ومع آخرين أكثر من أربع روبيات أو خمس . وقدم حمد بن سالم اربعمائة روبية ، ولكن بعض هذه كان ملكا للمركب . ولم تمض عشرون دقيقة حتى كانت ستمائة روبية قد تجمعت ، بعد أن ألقى بها أصحابها بلا اكتراث ، على كوفية منشورة قرب الرحوية . وعندما استنجدوا بي ، بصفتي واحدا من الملاحين على المركب ، دفعت المبلغ المتبقي بحيث يصبح المجموع ألف روبية كاملة . وسرعان ما انطلق الرسول عائدا بالمبلغ وهو مغتبط ، ولكنه قلق على سليمان الذي يجب عليه أن يخرجه من السجن . فقد كان سجنا سيئا ، بحسب قوله ، وباستطاعتي أن أصدق ذلك ، رغم أني لم أره قط . وقد أطلق سراح سليمان تلك الليلة وأقلع صباح اليوم التالي . لقد غادر حيفون أكثر تعاسة مما مضى ، ولكني أشك في أنه قد استفاد من الدرس ، فلم أكن أعلم شيئا عن الخطوة التالية التى سيقوم بها ليعوض خسارته ، ولكنه لا بد من أن يفعل شيئا . وقد سمعنا بعد ذلك بمدة طويلة أنه كان يدبر أمرا ما هناك في الجنوب ، في قنال مدغشقر .

كان اليوم الذي أقلعت فيه بغلة سليمان يوما هادئا ، يهب فيه النسيم العليل من البر . ولم ترفع البغلة علما أو يهتف بحارتها فرحا وسرورا ، بل قام هؤلاء بتحريكها الى الوضع المناسب للاقلاع ، ورفعوا قمة الشراع المثلث ، وأفلتوها من المرساة ، فاستدارت على عقبيها وانطلقت راحلة . لقد كانت صورة رائعة من الرشاقة والجمال ، وهي تدور بمؤخرتها المحفورة ذات الممرات الى شاطيء حيفون الرملي . وعلى الرغم من أنها غادرت الميناء بدون الحمولة التي أتت من أجلها ، وأن ربانها اثبت فشله الذريع في السرقة تحت سمع المسؤولين وبصرهم ، فقد كان منظر البغلة رومانسيا يدل على روح المغامرة ، والريح تملأ شراعها الضخم في صبيحة ذلك اليوم . لقد

الآتين من خليج عمان أو الخليج العربي ، بل وحتى في البحارة انفسهم ، وكل منهم يحمل صندوق بضاعته ، ولديه الاستعداد للقيام بأية مغامـــرة تأتي بالربح • بل يبدو ان السندباد القديم نفسه كان تاجرا اكثر منه ملاحا ، ولكن المهنتين متلازمتان في الجزيرة العربية • فقد كان كبير مهربينـا ، سعيد الصوري ، سندبادا بحق ، هذا اذا كان هناك سندباد أصلا • وكذلك كان نجدي ، وحمد بن سالم ، وعبد الله الانسان الغامض ، وعبدالله شقيق نجدي وأبو علي الحضرمي ، وسليمان سعيد الفارسي وغيرهم •

مددت بصري نحو سعيد ، ذلك العجوز الماكر الذابل ، وهو يعد نفسه للنزول الى الشاطىء ، وعدت بالفكر الى السندباد القديم ، وتخيلت كم من المرات كان يفعل نفس ما يفعله سعيد وهو يزمع النزول الى الشاطىء • فقد كان سعيد ذاهبا باحدى مهام التهريب وكان أمرا ممتعا حقا أن يرقبه المرء ، ويرى كيف يجهز نفسه لذلك • وكان أول ما فعله أن لف ست أحزمة للنقود حول خصره ، ثـــم غطى هـــذه الاحزمة بثـلاث وزرات مـــن النوع الجيد ، أضاف اليها بعد ذلك وزرتين من النوع الرديء • ثم القى علـــى ظهره العاري قماش ثلاث عمائم مزركشة من ذات الشراشيب • وعندما انتهى من ذلك ، لف مزيدا من الوزرات والعمائم حول فخذيه ، أربعا حـول كـل فخذ ، أضاف اليها اثنتين حول ركبتيه • ثم ارتدى جلبابا جديدا فـــوق ذلك كله ، وأتبعه بجلباب أخر قديم ملأ جيوبه بزجاجات العطر • وبعد ذلك لف عمامة جديدة على رأسه بكل عناية ، ثم وضع فوقها عمامته القديمة ، بعد أن لف رزمة من الحشيش في احدى زواياها • فأصبح مظهره ، بعد أن ارتدى ذلك كله ، مظهر رجل بدين ، مع أنه في الواقع رجل نحيف جدا • وفي الختام حشا في جيوبه بعض السبحات التي صنعت حباتها من الكهرمان الالماني الصناعي ، ونادى غلامه محمدا ، وأخذ يجهزه بنفس الطريقة • وكان محمد هذا يبتسم بسرور خلال العملية ، وهو يلبس أربع وزرات وثماني عمائم وقميصين وثلاثة أحزمة للنقود • وربما كانتابتسامته ترجع الى سروره بارتداء كل تلك الملابس الجميلة في مثل هذه الفرصة الفريدة ، فلم يكن سيده سعيد يكسوه كساء جيدا ، الا عندما تكون هناك عمليـــة قذرة من هذا النوع على الشاطىء • وكان محمد يدرك دوره ادراكا تاما ، فلم يكد يرتدي تلك الملابس حتى سارع بالنزول الى القارب الطويل الذي كان طافيا قرب المركب ، وجلس في المقدمة بعيدا عن التجار الذين كانوا يجلسون في الخلف • فلم يكن يناسبه أن ينزل الى البر معهم • ولذلك فقد كان أول من يقفز الى الشاطىء ، ويجري الى حيث رتب له أن يتخلص من عبئه ، وبعد ساعة أو اثنتين يعود الى المركب ليمضى سحابة يومه يلعب ويسبح مع ابن عودة وبقية الاطفال • لقد كان محمد صبيا ذكيـــا ، وكان أفضل المهربين على ظهر المركب •

وفي أثناء ذلك ، كان حمد بن سالم ، وعبد الله النجدي ، وأبو علي ، وعدد آخر من الصوريين الغريبي الهيئة من سمبوك مجاور — كانوا جميعا يعدون أنفسهم للنزول للبر بنفس الطريقة • وعندما نزل هؤلاء جميعا الى القارب الطويل ، كان بحوزتهم ما قيمته عدة مئات من الروبيات من البضائع المختلفة • أما البحارة فلم يكن لديهم كثير من البضائع ، ولذلك فقد كانوا يحتفظون بها لبيعها في أسواق افضل في الجنوب • وربما كان الشخصان الوحيدان اللذان لم يشتركا في عملية التهريب ، كما لاحظت ، هما النجار والطباخ ، فقد كان كل منهما دائم الانهماك في عمله ، بحيث لم تكن الفرصة تتاح لهما للقيام بأي عمل آخر •

لقد كان هذا كله عملا غير مشروع وينبغي أن يشجب شجبا كاملا ، ولكنه كان يثير اهتمامي • فقد كان العرب يتصرفون أثناء قيامهم بعملهم هذا كأنهم يؤدون لعبة مسلية • فكانوا يغادرون المركب وهم يخفون البضائع المهربة تحت ملابسهم كأنهم تلاميذ ، فرحون ، لا يحملون هماً • وكان هذا النوع من العمل يملأ حياتهم كلها • وكان سعيد ، زعيم المهربين وغداً ، عديم الضمير بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى ، ولكنه لم يكن يتظاهر بأنه انسان آخر ، يتحلى بصفات أخرى • كما كان مثلا أعلى للانسان المسيء دون أية تحفظات ، حتى أني كنت أعجب به ، ولو من أجل صراحته وعدم محاولته اخفاء سوئه ونذالته • وكنت دائما أراقبه وأنا شديد التلهف على معرفة ما يدبر من أمور • لقد كان رجلا واقعيا جدا ، وسيئا جدا ، ولم يكن سوءه تظاهرا ، بل حقيقة واقعة ، وان كان يقوم بعمليات التهريب كأنها لعبة مسلية • أما ازدراؤه الواضح لعالمنا المحكوم بالقوانين والانظمة وعدم اكتراثه به ، فاني أعترف أني لا أستطيع أن ألومه على ذلك ، فنحن الاوروبيين ، لم نحاول أن نيسر الحياة بالنسبة للعرب ، بل ان كثيرا مما نقوم به ليس له معنى بالنسبة لهم • فقد كانوا مثلا يأتون الى هذا الساحل الافريقي ليقوموا ببعض العمليات التجارية ، وكانوا يقومون بها فعلا سواء رضي الاوروبيون بذلك أم لم يرضوا ، ولم يكن بامكان الايطاليين أو سواهم وضع حد لهذه التجارة • كما كانت لهم فلسفتهم الخاصة في الحياة ، وما دام ما يقومون به يتمشى مع فلسفتهم ومعاييرهم الخاصة ، فليس باستطاعتي أن أعيب عليهم ذلك •

كان سعيد مهربا ، وبموجب المعايير الاوروبية ، رجلا شريرا • اما ماجد فقد كان ، بموجب أية مقاييس ، أكثر سوءاً منه • ومع ذلك فقد وجدت نفسي أزداد كل يوم ميلا نحو هذا المجرم العجوز الدائم المرح • فاذا كان الانسان سيئا أو شريرا ، فلا أقل من أن يكون صريحا ومعترفا بذلك •

أما عبد الله ، ذلك الانسان الغامض ، فلا بد أنه كان خطرا على المجتمع أينما حل • فقد كانت أكثر نشاطاته براءة قيامه بجمع بعض التبرعات لاحدى الطوائف الدينية ، وكان هذا النشاط مكروها من الايطاليين والبريطانيين على السواء ، لأنه كان عبئا على الثروة الافريقية ولا يخدم هدفا مفيدا • وقد كان من الواضح أن عبد الله كان عميلا من نوع ما ، ومع ذلك فقد كنت أستلطفه أيضا مع أني قلما تحادثت معه ، فلم يكن مستعدا أن يشاركك في أية أفكار لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم(١) •

بامكاني طبعا المضي في تعداد « المجرمين » الآخرين • لنأخذ « نجدي » نفسه مثلا • فلو أمكن اثبات المخالفات والآثام المختلفة التي يقوم بها ، لكان عليه أن يقضي سنوات طويلة في أحد السجون الايطالية ، ومع ذلك فكلي رجاء ألا يضطر لدخول أي منها • فقد كان نجدي مهربا أيضا من النوع المغامر ، الذي يعتلي ظهر مركبه ، ويتجول من ميناء الى آخر سعيا وراء الرزق ، ولا يتورع عن القيام بأي عمل لا يخالف معتقداته الدينية ، بل كان مستعدا للقيام بأي عمل تجاري يمكن أن يدر عليه ربحا ، وما العيب في ذلك ؟ ألم تتطور تجارتنا البحرية وتنمو بنفس الطريقة تقريبا ؟ ألم تكن هذه الصفات ، التي يتحلى بها نجدي وأمثاله ، هي الصفات الحميدة التي نسبغها على روادنا الأوائل ؟ لقد قام مغامرونا بالتجوال في جميع أنحاء المعمورة على ظهور مراكبهم الصغيرة ، ففتحوا لنا الطرق البحرية ، وأرسوا لنا أسس الامبراطوريات • الا أن « نجدي » المسكين لم يكن يحاول الا أن يضع الاسس التي تؤمن له سبل العيش الكريم ، كما لم يكن لدى أي من زملائه العرب الآخرين أي اهتمام بانشاء الامبراطوريات • لذلك فان ذلك النظام المعقد وغير العملي ، من الأنظمة الصارمة المتزمتة ، التي نهدف بواسطتها الى السيطرة على هذا العالم ، ذلك النظام كان نكتة ثقيلة بالنسبة لنجدي وسعيد وأمثالهما •

اذا كان العرب ينظرون بازدراء الى عالمنا المحكوم بالانظمة والقوانين ، فلست أجد في نفسي القدرة على لومهم • فهم ، بموجب مفاهيمهم ومقاييسهم وفلسفتهم في الحياة ، لا يرتكبون جرما ، وهم ، لذلك مستعدون لتحمل مسؤوليات أعمالهم بأنفسهم ولا يلجأون لقنصل يقوم بمساعدتهم ، لأنه ليس لهم أية قناصل في أفريقيا بأسرها • وما هم الا بحارة مغامرون متجولون ، يبذلون جهدهم لكي يحصلوا على قوتهم ،

---

(١) الجملة فى الاصل هى : « أية افكار لم يعبر عنها النبى فى القرآن الكريم » ، وقد قمنا بتغييرها لما فيها من مساس بالعقيدة الاسلامية (المترجم) •

ويجدون في ذلك مشقة كبيرة . وهم يحتقرون كل ما يمت الى الايطاليين بصلة ، لأن هؤلاء ينشرون الدعايات الطيبة عن أنفسهم بين العرب في بلادهم ، فاذا ما أتى العرب الى الصومال ، ساموهم سوء العذاب . ولذلك ، يقول العرب بأن أولئك ، الذين لا يسمحون بالتجارة مع مستعمراتهم ، ينبغي أن ينسحبوا من ميادين الدعاية بكل هدوء .

وكثيرا ما كنت أتحادث مع سندبادنا سعيد ، خلال تلك الليالي الطويلة التي كنت فيها محجوزا على ظهر المركب ، فقد كان سعيد قد وطىء شظية من الصخر في مكان ما على الشاطىء فالتهبت قدمه ، وكنت أعالجها له ، وكان ممتنا لذلك . وبهذه الطريقة توطدت الصداقة بيننا ، وبدأ يحدثني عن حياته . وقد مر وقت طويل قبل أن أجعله يبدأ الكلام ، ولكنه كان يصمت بعد فترة قصيرة ، فلم يكن سعيد من النوع الذي يميل للحديث ، ربما خوفا من كشف بعض أسرار المهنة . بل كان كتوما ، قليل الكلام ، مثل سائر العرب الآخرين . وفي احدى الليالي حدثني عن شبابه ، عندما كان يسافر الى افريقيا مع فيصل ، والده ، الذي كان يتاجر بالرقيق . وكان الأسف يبدو على سعيد لأن تلك الايام قد ولت الى غير رجعة ، لأنه كان يعتقد بأن تجارة الرقيق عمل عادي كغيره من انواع التجارة ، ولا يفهم لماذا أتى البريطانيون ووضعوا حدا لها . وكان كثيرا ما يتنهد حسرة على مضي تلك الايام التى كانت فيها تلك التجارة المربحة مزدهرة . فقد كان أبوه يتاجر بالرقيق ما بين ساحل أفريقيا الشرقى وخليج عمان ، وعادة كان ينزل شحنته في ميناء صور(١) . وكانت تجارته مزدهرة ، وربحه وفيرا ، كما كان له عدة زوجات وعدد كبير من الابناء (وكان سعيد الابن الرابع من الزوجة السابعة) . أما سعيد فقد بدأ التجارة وهو في سن مبكرة جدا ، فلم يكن يحب أن يبقى في بيته عندما كان يرى البغلات الكبيرة تقلع من الميناء . وعندما كان في السادسة من عمره (هذا ما قاله سعيد ، وان كانت الازمنة والسنوات بالنسبة له شيئا غير واضح تماما) رافق والده في احدى رحلاته الى مكان يدعى باجامويو ، يقع على ساحل افريقيا الشرقي ، مقابل جزيرة زنجبار . وقد قادتهم تلك الرحلة الى الكونغو .

وفي رحلات أخرى ، كانوا يذهبون الى الحبشة ، من ميناء عصب ، ومن مكان آخر بالقرب من جيبوتي ، ولكن هذه الرحلات كانت مقصورة على

(١) ينبغى عدم قبول هذا الكلام على علاته ، كان تجارة الرقيق كانت ظاهرة عامة عند العرب ، وهى الفكرة التى روج لها كثيرون من كتاب الغرب المغرضون . وهذا لا يعنى ان العرب لم يتاجروا بالرقيق أبدا ، ولكن اظهارهم على شكل التجار الرئيسيين للرقيق فيه كثير من التجنى (المترجم) .

الى أنواع أخرى من التجارة ، الى أن أصبحوا يتاجرون بالرقيق من الفتيات البلوشيات من بلوخستان ، ويأتون بهن الى عمان ، الا أن القدر كان لهم بالمرصاد • فقد بدأ الأسطول البريطاني يمنعهم من مزاولة تجارة الرقيق ، وكان عليهم أن يتحولوا الى تجارة أخرى • ثم توفي الأب ، وبدأ سعيد في التجوال ، فأخذ يسافر الى أماكن مختلفة ، يبيع ويشتري ، وكان يفعل ذلك دائما وهو يعتلي ظهور المراكب الشراعية التي يحمل بضاعته عليها أيضا •. وكان يهرب البضائع ، ويتاجر بالبضائع الممنوعة ويتاجر بالأسلحة ، ولكنه لم يكن يسرق قط • وقال أنه كان موفقا في عمله خلال الحرب العالمية الاولى ، من عام ١٩١٤ الى عام ١٩١٨ ، فقد كان يعمل بتجارة الاسلحة في مسقط في ذلك الوقت ، وكانت تجارة رابحة • فقد كان ينقل الأسلحة عبر الخليج العربي ويبيعها للبدو الذين كانوا يشترونها لحساب الاتراك ، ليتمكن هؤلاء من استعمالها في حربهم ضد العرب الذين كان لورنس يقودهم(١) • وعندما تجرأت على القول ان ذلك العمل لم يكن عملا وطنيا ، فقد كان العرب يحاربون من أجل استقلالهم ووحدتهم ، لم يفهم سعيد قصدي ، فقد كان الربح هو هدفه الاول والاخير ولم يكن يخجل من أن يقول ذلك • فلو لم يقم هو بتجارة الاسلحة ، لقام بها غيره ، لأنها كانت تجارة مربحة ، وكانت أثمان الاسلحة تأتي من الكفرة ويحق لكل مؤمن أن يأخذها منهم دون أن يشعر بأية غضاضة • وفيما بعد ، كان ينقل الاسلحة الى أفغانستان ، وكانت أرباح هذه التجارة أفضل من سابقتها • وكان من الواضح أن سعيدا يحب تجارة الاسلحة ، لا لأنها وفيرة الربح فحسب ، بل أيضا لأن فيها بعض المخاطرة • فقد كان سعيد يستمتع بالقيام بمهمة متقنة للتهريب أو الاتجار بالاسلحة ، ومن المؤكد أن عنده الاستعداد والقدرة على القيام بأي من العملين • وقد سألته عن حال تجارة الاسلحة الآن ، وعما اذا لم يعد هناك من يرغب في شرائها ، فأجاب : « ها أنت تراني هنا ، وليس معي أية أسلحة » • وقد استخلصت من ذلك أن تجارة السلاح كاسدة في هذه الايام •

كان المهرب العجوز يحني شعر لحيته ليكسبها اللون الاحمر ، وهو

(١) ان القول بان لورنس كان يقود العرب غير صحيح ، فقد كان واحدا من رجال المخابرات البريطانية الذين ساعدوا على اقناع العرب بالثورة على الاتراك مقابل نيلهم استقلالهم بعد الحرب ، وهو ما لم يحصل طبعا • أما الثورة العربية فقد كانت بقيادة العرب أنفسهم وبخاصة فيصل بن الحسين وأخيه عبدالله (المترجم) •

يجلس القرفصاء على سدة البحارة في ذلك البوم الرومانسي ، وبين الفينة والاخرى ينادي محمدا ليحضر له بعض جمرات الفحم لنارجيلته . وكانت بغلة سليمان واقفة خلفنا ، تتمايل وهي مربوطة الى مراسيها (فقد جرى هذا الحديث قبل أن تضبط البغلة متلبسة بسرقة الملح) ، وكنت أجيل البصر بين هيكلها المظلم وبين وجه سعيد العجوز الجالس بقربي ، وأتخيل كم من المغامرات المثيرة لا يزال حدوثها ممكنا في هذا العالم الذي يبدو عليه الهدوء والرتابة . فهناك ، تحت سماء افريقيا ، وفي ذلك المرسى المنعزل الهادىء ، كان هذا المهرب يحدثني عن الرقيق وتجارته التي ما زالت مستمرة ــ فقد قال أن بعض أقاربه ما زالوا يمارسونها في مكان ما من عمان ــ ، ووجدت نفسي أميل اليه وأستلطفه ، وبموجب قوله ، فان كثيرا من الدعاية البريطانية المعادية للرق مبالغ فيها ، فلم تكن الاوضاع العامة على ظهر ناقلات الرقيق ، كالبغلة الفارسية التي كانت تقف خلفنا ، أسوأ مما هي على ظهر مركبنا المكتظ بالمسافرين . فمن الخطأ النظر الى هذه المراكب ، وما يجري فيها من وجهة النظر الاوروبية فقط . وقد كانت حالة وأوضاع الافريقيين ، الذين كانوا يحملون الى الجزيرة العربية ، دائما أفضل منها في بلادهم . وسألني اذا لم أكن قد لاحظت ذلك على ظهر البوم نفسه . نعم ، فان نصف رجالها تقريبا هم من أحفاد اولئك الرقيق الافريقيين ، كما أن الدم الافريقي يجري في عروق ما لا يقل عن ثلث سكان عمان ، وكان هؤلاء يعيشون عيشة طيبة مريحة .

عندما مضى علينا عشرة أيام في ميناء حيفون ، أعلن أننا سنغادرها في الغد ، ولكن عشرين يوما مرت ونحن نسمع نفس الاعلان من آن لآخر حتى أني لم أعد أكترث به . وكنا قد ملأنا المركب بماء الشرب ، ولست أدري لماذا لم نملأه بماء البحر ، فقد كان ماء حيفون مالحا لدرجة أني لم أتمكن من شربه . وبعنا أحد القوارب الى بعض الصيادين الصوماليين بمبلغ مائة روبية ، كما حاولنا بيع التمور الفاسدة المحملة من عدن ، ولكن النجاح لم يحالفنا ، لأن طبيب الميناء الايطالي رفض السماح بانزالها من المركب . وقايضنا بعض ما معنا من الارز والسكر بشيء من السمك المجفف من النوع الجيد . وكان هذا هو كل ما فعلناه في حيفون بشأن التجارة الرسمية العادية . وفيما عدا ذلك ، وفيما عدا بعض الحشيش والخردوات والاشياء الاخرى التى هربها أحفاد السندباد من التجار ، لم نخلف شيئا وراءنا في حيفون .

لم نخلف شيئا سوى جثة فتاة قضت نحبها في القمرة الكبيرة . وكانت هذه فتاة صغيرة لا يزيد عمرها عن الخامسة عشرة ، الا أنها كانت ،

بالمقاييس العربية ، امرأة مكتملة النضج ، وكانت مسافرة الى زنجبار لكي تتزوج • ففي صباح أحد الايام أتاني يوسف الشيرازي بهدوء حيث كنت جالسا على المؤخرة أرقب مركبا صغيرا قادما من الباطنة ، وقال لي باللغة العربية : « تعال أيها النصراني وانظر ، فقد ماتت احدى النساء » • وقد قال ذلك بهدوء وبصوت خافت جدا ، حتى أني لم أفهم في الحال فحوى رسالته • وبدأت أسأله : « ماذا تقول ؟ امرأة ميتة ؟ كيف ، ومم ؟ » ولكن يوسف لم يكن يستطيع الاجابة عن جميع تلك الاسئلة ، وكل ما كان يعرفه هو أن امرأة شابة قد ماتت ، وأنها موجودة في القمرة الكبيرة الآن • فهل أذهب معه ؟ لقد كان ايمان العربي بمقدرتي الطبية الفائقة — لأني كنت استطيع فقط أن أضمد بعض الجراح والالتهابات بضماد نظيف فيكتب لها الشفاء — وما رافقها من ثقة أمر يدعو للرثاء • فها نحن نواجه بحالة وفاة ، ومع ذلك فهم يعتقدون أن بامكاني أن افعل شيئا بشأنها •

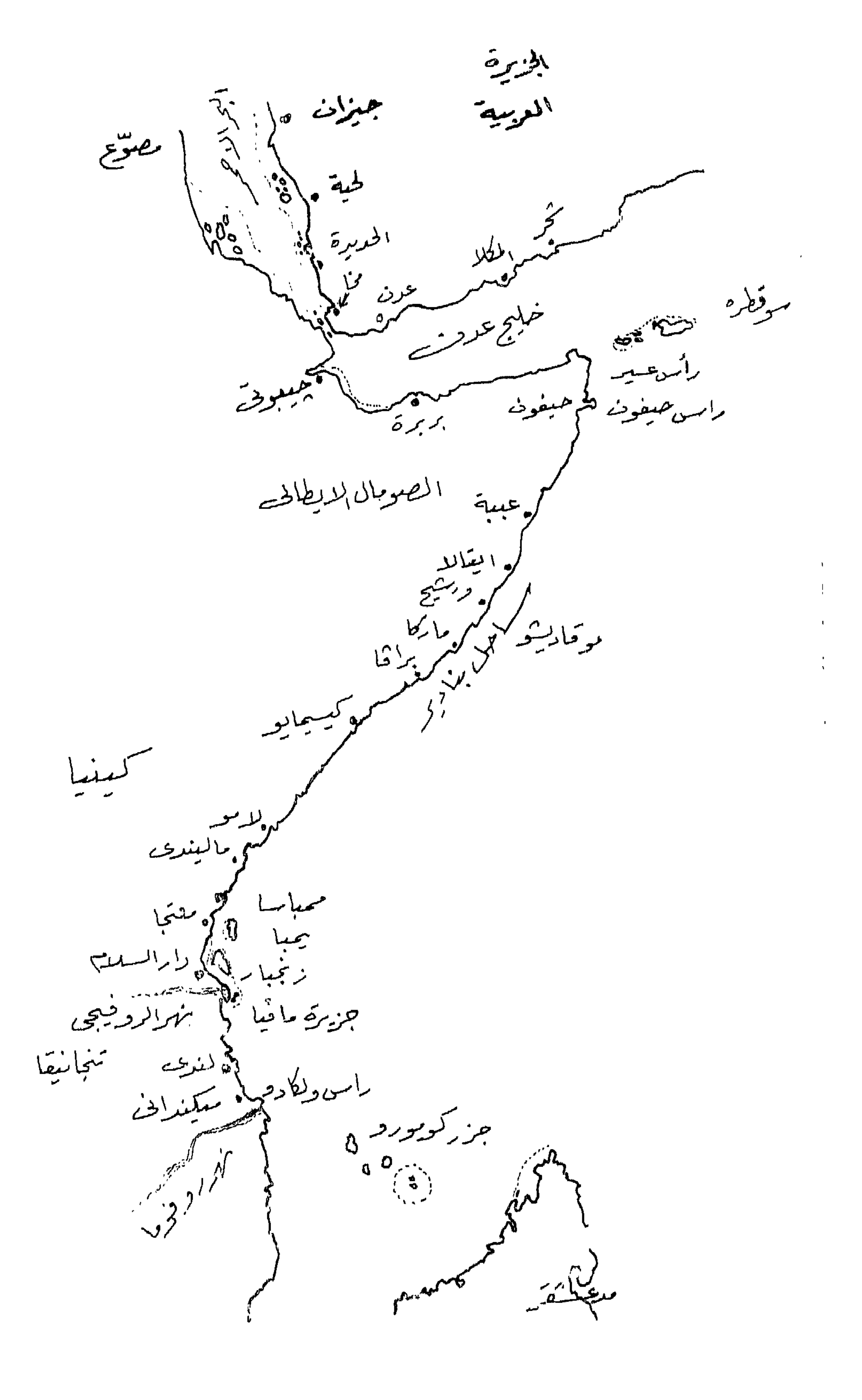
وكان نجدي على البر ، وكذلك حمد بن سالم وعبد الله النجدي وسعيد وماجد وذلك « السيد » القادم من المكلا • وقد سألت يوسف اذا كان واثقا من أن الفتاة قد ماتت فعلا ، فأجاب بالايجاب ، بطريقة لا تدع مجالا للشك • اذاً ، لم يكن باستطاعتي أن أفعل شيئا • لقد كنت ارتعد خوفا ، عندما أسمع بحدوث وفاة أو مرض خطير على ظهر المركب ، وكنت أخشى من الأوبئة والامراض المعدية الخطيرة ، لأنه لو حدث شيء من ذلك ، لأصبح الوضع بالنسبة لنا جميعا خطيرا جدا • ولكن يوسف قال ان الفتاة لم تكن مريضة • بل ماتت فجأة وبدون سبب ظاهر • كيف حدث ذلك ؟ هل قتلها أحد ؟ الا أن يوسف لم يستطع الاجابة لأنه لم يكن يعلم ، وكل ما يعلمه أنها تناولت شيئا من الخبز مع كأس من الشاي المحلى ، ثم سقطت على ظهرها وفاضت روحها ، دون أن تتفوه بكلمة واحدة • ومع أنه كان هناك عند حدوث ذلك ، الا أنه لم يلاحظه ، فقد كان منهمكا في عمل ما ، ولم يكن يعير النساء أي اهتمام ، الا أن احدى النساء الاكبر سنا رأت الفتاة تسقط على ظهرها ، وعندها لاحظوا انها قد فارقت الحياة •

وقد طلبت منه أن يرسل قاربا في الحال لاستدعاء الطبيب ومعه نجدي ، فلم أكن مستعدا للنزول الى القمرة قبل أن يصل نجدي ، لانني لا أستطيع القيام بشيء ، اذا كانت الفتاة قد فارقت الحياة فعلا • وحتى لو كانت مريضة مرضا شديدا ، لم يكن باستطاعتي القيام بشيء ، ولكنني كنت مستعدا للمحاولة • ولم يكن أحد غيرها مريضا ، بموجب ما قاله يوسف ، فقد كان جميع النساء في تلك القمرة في صحة جيدة حتى ذلك الوقت •

وصل نجدي بعد ساعة تقريبا ومعه ممرض صومالي ، ونزلنا جميعا الى القمرة • ومع اننا لم نخبر أحدا ، الا أن خبر الوفاة شاع بين ركاب المركب ، وللمرة الاولى كان كل شيء ساكنا تماما على ظهر المركب •

كان المنظر في القمرة الكبيرة لا ينسى ، فلم أكن قد ذهبت الى هناك منذ صعود النساء الى ظهر المركب ، كما لم يكن أي رجل قد اقترب من المكان ، باستثناء يوسف • وقد مضى على حجز أولئك النسوة هناك حوالى شهر • وقد لاحظت أن المكان كان قد نظم بعض الشيء ، فنقلت المواد المخزونة ومعدات المركب الى اقصى جنبات الغرفة ، كما كان الجدار الواقي، القائم بعرض الجزء الامامي من الغرفة ، قد أحكم تثبيته • وكانت الغرفة شديدة الظلام عندما دخلناها ، حتى أننا لم نتمكن من رؤية شيء ، على الرغم من أن الباب كان مفتوحا ، فقد كان هذا صغيرا جدا لا يسمح لكثير من النور بالدخول • ومن خلال الكوة الصغيرة المفتوحة على ميمنة المركب كان ينفذ الى الغرفة شعاع من ضوء الشمس ، سرعان ما يتلاشى بين أكوام المحالات والحبال وصفائح السمن الفارغة المكدسة في ذلك الركن • وبعد لحظات تمكنت من الرؤية ، فرأيت مجموعة النساء التي كانت تتألف من اثنتي عشرة أمرأة أو تزيد ، وهن مجللات بالسواد ومكومات على الحصر أو البسط البدوية ، ولم يكن يبدو منهن الا عيونهن ، تلك العيون التي كانت ترقب حركاتنا ، والتي كنت أشعر بوقعها علي • وفي تلك الظلمة الداكنة ، لم استطع في بادىء الامر أن أرى الموضع الذي كانت الفتاة المتوفاة فيه ، ثم تبينت انها كانت ممددة على الارض في وسط الغرفة ، وكان وجهها مكشوفا ، ما دامت قد فارقت الحياة الآن • وكم كانت دهشتي ، عندما نظرت الى ذلك الوجه ، فوجدته وجها جميلا ، فقد كان شيئا مروعا أن أقع على وجه بهذا الجمال في مكان لم أكن أتوقع أن أجد فيه شيئا جميلا • وعلى الرغم من أني كنت قد أمضيت مع العرب مدة طويلة ، الا أن هذه كانت المرة الاولى التي أرى فيها وجه فتاة صغيرة السن في سن الزواج ، ولم أكن أتصور أن من الممكن أن يكن بمثل هذا الجمال •

كان المركب يهتز وهو مربوط بحباله الى المرسى ، وكان النور الذهبي الداخل من الكوة الجانبية ، يهتز أيضا ، فينتشر عبر تلك الظلمة الكئيبة ، فيصل الى وجه الفتاة • يا للفتاة المسكينة ! حتى في حياتها لم يكن مكانها في ذلك المكان الرهيب في أسفل المركب ، بين ذلك الجمهور من النسوة اللواتي كن يكبرنها سنا ، واللواتي كن يتجمعن الآن بعيدا عنها ، وكلهن شك وريبة ، كأنهن قطيع من الحيوان ، ينظرن الينا ويراقبننا نحن لا هي • كان ينبغي ألا تكون هذه الفتاة هناك في الاصل ، في ذلك السجن



ساحل افريقيا الشرقي مبين عليه الأماكن التي مر بها البوم الكويتي .

الرهيب المتنقل ، لكي تنقل الى حريم أحد الرجال في زنجبار ، وتزف الى رجل لم تره في حياتها قط ، في جزيرة نائية عن أهلها وبلدها • لقد كانت بشرتها كالعاج ، وتقاطيع وجهها صغيرة لطيفة ، ومنظر وجهها الجانبي لطيفا ، وجميلا جدا • كما كان فمها الصغير حازما حسن التكوين ، وشعرها الاسود غزيرا جميلا • وكانت عيناها مغمضتين كأنها في نوم عميق • وكان ثوبها مصنوعا من الحرير الاسود المطرز بخيوط من الذهب ، لا بد أنه كان ثوب زفافها ، وكانت يداها متشابكتين فوق ثديين صغيرين حسني التكوين • وعندما كان الضوء يتحرك مبتعدا عنها ويتركها في ظلام دامس ، لم أكن استطيع أن أرفع عيني عن ذلك الوجه الميت • أما النساء الأخريات ، فما زلن متجمعات هناك ، دون أن ينبسن ببنت شفة • وبعد قليل تحركت احداهن ، وكانت ترتدي البرقع الذي تظهر منه عيناها ، بدلا من الحجاب الكامل الذي ترتديه حريم المدينة ، واقتربت من الممرض الصومالي ، وحدقت فيه ، ثم حدقت في ، وسألتنا قائلة : « ما سبب موتها ؟ » •

وقد خيل الي أن السبب هو مجرد وجودها هناك ، فمثل هذا الجمال لا يستطيع أن يعيش في ذلك الجو المعتم الكئيب المخيف • ومع ذلك فقد قالوا أنها كانت دائما فتاة سعيدة مرحة • وأنها كانت معتادة على تحمل الصعاب ــ فقد كانت من مكان ما في داخل الجزيرة العربية ، بجوار الربع الخالي ــ ولذلك لم تجد تلك القمرة سيئة جدا كما وجدتها أنا ، ولكن لا بد أنها كانت تفتقد الهواء الطلق • أما أنها كانت ذاهبة بعيدا عن أهلها وذويها لكي تتزوج من رجل لم تره قط ، فلم يكن بالامر الذي يقلقها ، فقد كان هذا قدر المرأة في الجزيرة العربية • لقد كانت رائحة المكان النتنة تصيب المرء بالدوار : من أبخرة السمن الرديء وسائر المواد الغامضة المخزونة في المركب ، الى رائحة المركب نفسه المنبعثة من الماء الآسن في قاعه ، ومن زيت السمك الى الرائحة الكريهة المنبعثة من البشر المكدسين بعضهم الى جانب بعض • وقد جاهدت لكي أتمالك نفسي وأبقى هناك تلك المدة القصيرة ، على الرغم من أن الفتحة العلوية والكوتين الجانبيتين كانت كلها مفتوحة ، والمركب واقفا في مرساه • ولكن هذه الفتاة المسكينة قد أمضت ها هنا شهرا كاملا ، فلا عجب ان كانت قد ماتت ، فلم يكن بامكانها أن تبقى على قيد الحياة في مكان كهذا •

لم يستطع الممرض الصومالى تحديد سبب للوفاة سوى السكتة القلبية • ولكن نجدي بادره قائلا : « جميع القلوب تسكت عند الوفاة • أليس لديك سبب آخر غير هذا ؟ » الا أن الصومالي لم يعرف سببا اخر ، كما لم أعرف أنا يضا •

لقد بدا نجدي واجما وخائفا بعض الشيء في حضرة الموت ، كما ألقى نظرة من الاحتقار والاشمئزاز على أولئك النسوة الواقفات هناك . وقد اكتشفت فيما بعد أنه كان يشك في ان احدى تلك النساء قد دست السم للفتاة فقتلتها ، فقد كان بينهن امرأة من نفس الحريم مرسلة من زنجبار لتصحب هذه الفتاة الجميلة ، ومن المحتمل ألا ترغب امرأة تقدم بها السن في رؤية كل هذا الجمال يدخل حريم سيدها . لقد كان كل ذلك غريبا وغير معقول بالنسبة لي ، كمعظم الامور الاخرى التي كانت تحدث على ظهر ذلك المركب . أما نجدي فقد شعر بشيء من الارتياح لأن سبب الوفاة لم يكن الجدري أو مرضا خطيرا آخر ، فلم يكن في حالة وفاة ناتجة عن سكتة قلبية ما يقلق ، ولم يكن من واجبه أن يبحث عن سبب آخر لتلك الوفاة .

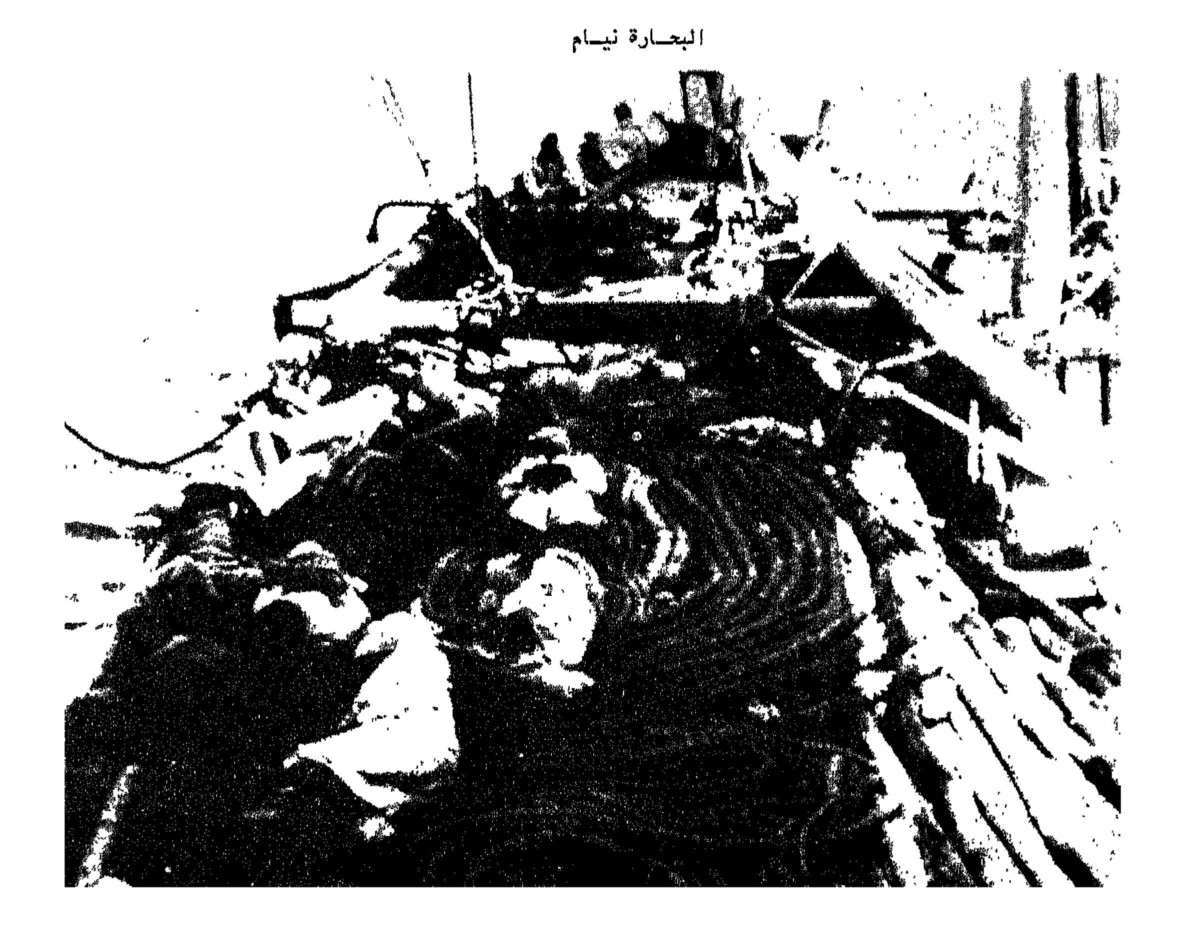
وقد تم دفن الفتاة عصر ذلك اليوم . بعد أن أنزلوها الى الشاطىء على مؤخرة المركب الطويل . ولم يكن نجدي موجودا ، فتولى المهمة حمد بن سالم ، الذي ، حتى في ذلك الموكب الجنائزي ، لم يتوقف عن عمليات التهريب . ولم يكن حمد الوحيد الذي استغل الفرصة فلف عددا من أحزمة النقود والوزرات الاضافية حول خاصرته وركبتيه قبل أن ينزل الى القارب، بل حذا حذوه سعيد وماجد والآخرون الذين كانوا على ظهر المركب عندئذ ، بل وحتى الصبي محمد ، الذي لم يكن يبتسم الآن ، كان يرتدي جلبابا وعمامة جديدين ويجلس في مقدمة القارب ، وكان جثمان الفتاة الصغير مغطى بحجاب أسود وملفوفا بحصير من سعف النخيل . وكان يتمدد هناك في وسط قارب يعج بالحياة ، فقد كان المركب مزدحما بالركاب البدو ينشدون نشيدا جنائزيا هادئا ، والبحارة يجذفون . وهكذا انطلق القارب ، ولم أستطع الذهاب الى الجنازة ، فقد كانت جنازة تخص المسلمين ولم يكن لي مكان بينهم . ولكني حزنت على الفتاة حزنا عميقا ، وبقيت فترة من الزمن أفكر فيها ، وفي اليوم التالي كان قد نسي أمرها ، على ما يبدو . وعند توقفنا في الميناء التالي سمعت نجدي ينكر تماما أن وفاة قد حدثت على ظهر المركب .

وبعد بضعة أيام غادرنا ميناء حيفون . وعند خروجنا من الميناء ، مررنا بسفينة بخارية ألمانية تحمل شحنة من الملح ، كما أقلعت معنا أربعة مراكب عربية أخرى . وكانت الريح خفيفة ، ومررنا بمركب « بوم » قادم الى الميناء مزدحم بالركاب بشكل يفوق أى مركب آخر رأيته في حياتي، حتى بين المراكب العربية . وكان مركبا صغيرا هرما ، يبدو هيكله المصنوع من الساج كأنه لم يعرف الزيت منذ مدة طويلة جدا ، كما كان شراعه ممزقا ،

وصاريه مشقوقا فى مكانين مختلفين ، وحباله مزدانة بأشرطة من القماش بلون علم ايرلندا · ولكنه كان يبحر بثقة وقوة عندما رأيناه تحت شمس الصباح وشراعه ممتلىء بالريح الخفيفة ، وعلم ساحل عمان الاحمر والابيض يرفرف على ساريته الخلفية · وقد كانت أسطحته مزدحمة بالركاب ازدحاما كبيرا ، حتى بدا لى كأن الشراع الذى كان ينزل شيئا فشيئا ربما قضى على مائة من الركاب خنقا ، وحتى أن البحارة كانوا يقومون بأعمالهم وهم يقفزون من فوق أكتاف المسافرين · ولم يكن طول ذلك المركب يزيد عن ستين قدما ، فقد كان مركبا صغيرا جدا ، ومع ذلك فقد كان على متنه ما لا يقل عن مائتى راكب ، تسعون بالمائة منهم رجال ضخام الجسم ، ذوو لحى طويلة · وكان بعضهم يتدلون من فوق الافاريز على الجانبين ، ويتدافعون ، وكلهم يرتدون القمصان البنية الطويلة والعمائم الملفوفة على الرأس لفا غير محكم· وعندما مر المركب بنا ، تبادل نجدى التحية مع ربانه ، وكان رجلا عجوزا ذا لحية طويلة بيضاء ، قال أنه غادر صور قبل واحد وعشرين يوما ، ولم تصادفه طوال الرحلة الا الرياح الخفيفة ·

لقد كان منظر ذلك البوم الصغير منظرا غير عادى ، فقد كان مكتظا جدا حتى أن أربعة رجال كانوا يجلسون على سدة النوخذة التى لم تكن تتسع

البحارة نيام





دعـــاء الشكر

الا له ، بينما كان ستة آخرون يجلسون على الافريز الخلفى • وكان بعض الرجـــال يجلسون على عارضـــة الشراع المزينى ، وغيرهم على أقصى طرف المقدمة • وكان عدد منهم يتعلق بكل قسم من الافريز على الجانبين ، كما كانت الاسطحة مكتظة جدا حتى أنه كان من المستحيل أن يتمكن أحد من النوم عليها • وكانت تتدلى من الناحية الخارجية من الافاريز الجانبية صرر ورزم ، فيهـــا أمتعة الركاب ، تدل على الفقر المدقع • أما فى المقدمة فكان عدد من البحارة يقرعون الطبول الهندية • ولم أكن أتصور كيف يمكن أن تسمح سلطات أى ميناء بسفر مثل هذا المركب ، وعليه كل هؤلاء المسافرين • وقد سألت نجدى عـــن الســـبب الـــذى يدفـــع كل هـــؤلاء العـــرب على مغـــادرة بـــلادهم معـــا على متن مركب بمثل هذه التعاسة ، فأجاب بأن هناك خلافا بين الشـــارقة ودبى الامارتين المتجاورتين على الساحل المتصالح ، وان الخلاف سياسى يمكن أن يؤدى الى حرب أهلية • وقد أراد منى أن أستنتج أن هؤلاء القوم الآتين من دبي ، هاربون خوفا من الحرب • الا أن حمداً بن سالم قال أن هناك مجاعة فى دبى وما حولها ، وأن الساحل المتصالح بأسره يشكو من الفقر المدقع الذى يدفع المرء للهجرة منه بكل سرور ،حتى على ظهر مركب صغير لا يزيد طوله عن ستين قدما ، ويحمل ما يزيد عن مائتين من البشر • أما يوسف الشيرازى،

فكان يعتقد أن الرحلة من دبى الى زنجبار ما هى الا نزهة قصيرة ، ولذلك فقد أتى جميع أولئك الركاب ليستمتعوا بها ٠

تابعنا سيرنا ببطء بمحاذاة ساحل الصومال الذى لم يكن سوى خط متصل من الرمل لا حياة فيه ، وكان الابحار سهلا ، والاحوال الجوية مؤاتية جدا ، حتى أن السفرة كانت تشبه السير على الاقدام فى شارع ممهد ٠ ولم تكن هناك أية حاجة لفنون الملاحة ، فقد كنا نبحر بيسر وسهولة أمام الرياح الشمالية الشرقية ، بحيث تكون أفريقيا دائما على يدنا اليمنى ٠ وفى البداية كانت الريح هادئة ، الا أنها ازدادت نشاطا فيما بعد ، بحيث أصبح بامكاننا أن نقطع تسع عقد بحرية فى اليوم ٠ ولم تكن هناك وسيلة لقياس السرعة ، فلم يكن على ظهر المركب أبسط جهاز لذلك النوع من القياس ، ولكنى استطعت أن آخذ فكرة جيدة عن ذلك بملاحظة المرات التى كنا نتعامد فيها مع نقاط مختلفة على الساحل (١) ٠ وكنا فى خلال النهار ، نبحر قريبين جدا من الساحل ، الذى كان رتيبا ليس فيه ما يدعو لاثارة الانتباه ٠ أما فى الليل فقد كنا نبتعد عنه قليلا ، فقد كان من الواضح أن نجدى كان يخشى أن يبتعد المركب، بحيث يصبح البر بعيدا عن مرمى البصر ٠

طفل نائم



عندما كانت الريح تشتد قليلا ، كان البدو يصابون بدوار البحر ، وتتأزم الامور على المركب • فكانوا يشمون الليمون ويحشون آذانهم وأنوفهم بقطع من الورق ، ولكن دون جدوى • وكانوا فى مرضهم مزعجين عنيفين ، يملأون المركب بأصواتهم وصراخهم ، بينما كان البحارة يسخرون منهم طوال الوقت • وقد بدأت الريح تشتد فى اليوم الثانى لاقلاعنا ، حتى أصبحت شديدة فعلا لدرجة أنه لم يعد بامكاننا ابقاء الشراع الكبير منشورا • فقد بدأت نقاط الاتصال بين أجزاء الشراع تتقطع ، وأصبح من الواضح أن مركب البوم لا يستطيع تحمل الريح القوية • ولم تكن الريح قوية بالمعنى الصحيح ، فلم تكن تزيد عن ريح موسمية مؤاتية ومناسبة جدا لتسيير أي مركب من مراكب الحبوب التي ركبتها ، أو لتسيير أي مركب شراعي أوروبي حسن الصيانة • الا أن البوم بدأ يظهر نقاط ضعفه • فقد بدأ الصاري يتحرك من مكانه قليلا ، ويهتز اهتزازا عنيفا بفعل الريح ، كما أخذت حبال الشراع المزيني ترتخي ، ونقاط الاتصال في الشراع الرئيسي تتشقق تشققا كبيرا ، حتى أن نجدي أمر ، عصر ذلك اليوم ، بانزاله وطيه • وكانت الطريقة الوحيدة لتصغير مساحة ذلك الشراع هي أن يبدل ، وذلك بانزال الشراع الكبير ، وقص جزء من كل طرف من طرفي العارضة الطويلة ، وتركيب شراع رئيسي أصغر على العارضة القصيرة • وهذا ما فعله البحارة الآن ، وكان عملا يتطلب جهدا جبارا واستغرقهم ذلك حوالى ساعتين • وفي خلال المدة التي كان فيها الشراع غير منشور ، كان المركب يرتفع وينخفض ويتمايل ويهتز ، ولكن بشكل معتدل • ومع أنه كان بدون شراع منشور يدفعه الريح ، فقد سرني أن ألاحظ أنه كان يتابع سيره ببطء، وأنه كان من الممكن السيطرة عليه وقيادته •• وعندما نشر الشراع الذي كان أصغر من السابق بعدة وصلات من القماش ، وأكثر انخفاضا منه ، انشق هو الآخر عند عدد من نقاط الوصل ، وكان عليهم أن ينزلوه ثانية ويقوموا باصلاحه • وكانوا يفعلون ذلك بأن يجلسوا عليه جميعا ويخيطوه بابرهم البدائية المعكوفة •

وقد أصبح هذا العمل عملا يوميا ، كلما اشتدت الريح ، ومع ذلك لم يكن يخطر على بال نجدي أبدا أن بامكانه أن يصنع شراعا أفضل • وعندما تجرأت واقترحت القيام ببعض التعديلات البسيطة ، التي يمكن أن توفر عليهم كثيرا من ذلك الجهد ، وتساعدهم على قطع المسافات بسرعة أكبر ، أجاب بأن الله كريم ، وأن الريح ستخف ، وان الشراع مناسب • الا أن

---

(١) أى عندما يكون الخط الواصل من نقطة معينة على الساحل عموديا مع الخط الوهمى الواصل بين مقدمة المركب ومؤخرته (المترجم) •

حمداً بن سالم اعترف بأنهم يحبون أن تكون أشرعتهم هكذا مخاطة خياطة ضعيفة ، لانها بهذا الشكل تتشقق دائما عند نقاط الوصل عندما تشتد الرياح • ليس هذا فحسب ، بل لو كان الشراع أقوى مما هو عليه ، لحمل معه الصاري كله عند أول هبة قوية من الريح ، وقد كان من الافضل طبعا أن نخسر شراعا ضعيفا من أن نخسر صارياً جيدا • وقد وجدت شيئا من المنطق في كلامه ، الا أن الاصلاح المستمر ، غير الفعال ، لنقاط الوصل الضعيفة ، والرفع المتواصل للعارضة الثقيلة جدا كانا يتطلبان مجهودات لا داعي لها • ولكن هذه الفكرة لم تخطر الا على بالي أنا • أما بالنسبة للبحارة العرب ، فلم يكن هناك ، من حيث المبدأ ، حاجة للقيام بأي عمل ، الا عندما يصبح ذلك العمل ضروريا جدا ، لحكمة لا يعلمها الا الله •

وكنا ، في هذه المرحلة من الرحلة ، كثيرا ما نرى مراكب اخرى وقد انهمك بحارتها مثلنا في اصلاح اشرعتهم ، بل اننا رأينا في احدى المرات جلبوتا من صور وقد فقد صاريه كلية • ومرة أخرى شاهدنا مركبا عليه مصباح مشتعل ، وكان هذا منظرا غير عادي بالمرة • بل أن الواقع أن ثلاثة مصابيح اعصارية كانت مضاءة على سطحه الرئيسي ، لمساعدة بحارته على اصلاح الشراع الممزق •

كان المركب أحيانا يهتز اهتزازا شديدا اثناء سيره ، ولكنه كان أيضا يتابع ابحاره بشكل جيد ، ولا يسمح لكثير من الماء بالدخول الى جوفه • ولقد أدهشني ان العرب لم يكونوا يهتمون بربط أي شيء باحكام ، أو بالتحسب للطوارىء • فقد كانوا يتركون الاحداث حتى تبدأ قبل أن يفعلوا شيئا ازاءها • ومثال ذلك ، أنهم لم يفكروا بربط تلك الصفوف الطويلة من الصناديق ، ومن أمتعة الركاب ، التي كانت مكدسة على مؤخرة المركب طوال الرحلة ، مع أنه كان من الواضح تماما أن حركة المركب لا بد أن تحرك بعضها عن مكانها • وقد حصلت على بعض الحبال ، وربطت صندوق أمتعتي ربطا محكما ، حتى لا يؤذي أحدا اذا تحرك من مكانه ، ومع أن العرب رأوني أقوم بذلك ، الا انهم لم يفعلوا شيئا لتثبيت الصناديق الاخرى • وربما كان نجدي يعتقد أنه لا مجال لتلك الصناديق بأن تتحرك من مكانها ، مع ذلك الحشد الهائل من البشر المكدسين فيما بينها • ولكنها تحركت بالفعل • ففي منتصف الليل ، دفعت موجة كبيرة المركب من وسطه ، فاهتز اهتزازا شديدا ، واذا بجميع الصناديق على الجانب الايمن من المؤخرة تنجرف الى الجانب الآخر • وفي الحال قامت القيامة ، واصبحت تسمع الصراخ والعويل والزعيق والنحيب • فقد كانت الصناديق تتدحرج فتحدث جلجلة عالية والصفائح تتدحرج محدثة قعقعات أعلى ، وأخذ ركاب الدرجة الاولى يلقون بأنفسهم على السطح الرئيسي ، كما أخذ البدو

يصيحون ويعولون · وكان من الممكن أن يقع حادث أليم ، ولكن الله سلم ، ولم يصب أحد بسوء · وسرعان ما قام البحارة الحفاة ، وهم يهزجون ، باعادة الصناديق الى أماكنها السابقة وربطها معا · ولكنهم لم ينجزوا عملهم ، فلم يربطوا الا تلك الصناديق التي كانت قد تحركت من مكانها ، أما الباقي فقد تركوها على ما كانت عليه ·

وما كاد البحارة ينتهون من هذا العمل ويخلدوا الى الراحة ، حتى اهتز المركب من جديد هزة قوية ، واذا بالمركب الجديد ، الذي لم يكن قد أسند جيدا او ثبت بطريقة أو بأخرى ، يسقط على اثني عشر من البدو ، الذين كانوا نائمين تحته · وهنا كان صراخ وزعيق حقيقيان ، فقد حط المركب الجديد على أحد البدو بكل ثقله ، وبشكل منعه من الحركة ، مما جعل ذلك البدوي يزأر بأعلى صوته · وقد تمكن البحارة من ازاحة المركب في الوقت المناسب ، ومن اخراج ذلك البدوي من تحته · وقد تبين أنه لم يصب حتى برضوض ، وعندما فتشت عنه في الصباح لم أعثر له على أثر · وحتى لو عثرت عليه فلم يكن يقبل أي علاج طبي ، فقد كان البدو يحتقرون ذلك احتقارا شديدا(١) ·

وحوالى هذا الوقت بدأ نجدي يشكو من ألم في ظهره · فقد كان يشعر بألم شديد جدا في مؤخر عنقه ، وتحت لوحي الكتفين ، ولم يكن ذلك بمستغرب ، فقد كان دائما ينام تحت الندى ، وكان يصر على ازالة المظلة الواقية من الشمس قبل المساء بساعات · وكان يقول أن عليه التخلص من تلك المظلة ليلا ، لأنها كانت تحجب عنه رؤية الشراع ، وتحسسه للريح واتجاهاتها · وعندما طلب مني أن أخلصه من الألم ، حاولت ذلك باستعمال بعض المراهم ، فارتاح بعض الشيء · الا أنه نام تحت الندى مرة ثانية ، فعاوده الألم بشكل أسوأ من ذي قبل · وعندها صب جام غضبه على جميع أدوية النصارى ، واستدعى مسلما صالحا من صور من السطح الرئيسي ، كان يعيش قريبا من بداية المؤخرة · وقد أدى هذا عمله بأسلوب عظيم ، وأخذت أرقب ما يقوم به بكل اهتمام · فقام أولا بخلع ملابس نجدي كلها ، ما عدا وزرة هندية على جزئه الاسفل ، وبطحه على السطح ، ثم صب السمن الحار على ظهره ، وبعد ذلك بدأ عمله الجدي بالفعل · فقد أخذ

---

(١) على الرغم من ان الكاتب يكرر قوله الذى يشير الى تخلف البدو تخلفا شديدا يتمثل فى روح التواكل وانعدام الضبط والتخطيط ، الا أنه ، مع ذلك ، لا ينسى أن يشيد ، فى أكثر من مناسبة ، بروح المغامرة ، والشجاعة ، والبساطة ، والشهامة التى يتحلون بها (المترجم) ·

يدق ظهر نجدي ويلكمه ويضربه ويعصره ويقرصه ويجلده الى أن كاد حتى نجدي القوي ، الصلب العود ، يصيح مستغيثا • وكان يقبض على ما يملأ يديه من لحم نجدي القليل ، ويجذبه حتى يكاد يخلعه عن العظم ، فيجفل نجدي جفلا شديدا ، ثم يدلك ذلك اللحم بالسمن الحار ، بينما نجـــدي يتلوى من الألم • كما كان يدق على العمود الفقري ، ويسدد له اللكمة بعد الاخرى ، حتى أن نجدي كان مرغما على رفع جسمه قليلا ، معتمدا علـــى يديه الممسكتين بسطح المركب بقوة • يالله ! كيف كان ذلك العمـــاني يعمل ! لقد واصل تدليكه العنيف لظهر نجدي مدة ساعتين كاملتين ، قام نجدي بعدهما وهو يقول أنه شفي تماما ، وارتدى جلبابه وعاد ، وهو لا يكاد يقوى على المشي ، الى مقعده • الا أني تجرأت على القول أن العلاج كان قاسيا وعنيفا لدرجة أنست نجدي ما كان يحس به من ألم ، وان عليه الآن أن يشفى من العلاج علاوة على المرض • ولكنه سخر مــن قولـــي ، وأجاب بأن الطب العربي كان أفضل من الطب الاوروبي • وربما كـــان مصيبا في هذه الحالة • فقد كان استعمال السمن الحار ، والتدليك الكامل للاجزاء المصابة طريقتين ممتازتين للعلاج ، الا أن نجدي عاد يشكو من الالم نفسه بعد مرور يومين على ذلك •

أثناء رسونا في حيفون ، كنا قد أركبنا بعض المسافرين الغامضين ، وجميعهم من صور ، وكان هؤلاء يبرزون من مخابيء مختلفة بعد أن أصبح المركب في عرض البحر • وكان أحد هؤلاء رجلا ضريرا مع ابنه الصغير ، وبصحبتهما خادم أعور • وكان هذا لا يرى جيدا بعينه السليمة ، كما كان عليه أن يجر الضرير ويهديه سواء السبيل • وكان هؤلاء من مسقط ، ووجهتهم زنجبار ، لكي يزوروا بعض أقاربهم هناك • كما ركب معنا رجل من صور يتكلم الانكليزية ، ويقــول أن عنده عملا تجاريـــا يقـــوم به في موقاديشو • وقد أخذ مكانه بين ركاب الدرجة الاولى ، وكان يأكل من طعام المركب • وسرعان ما اكتشفت أن تجارته لم تكن أيضـــا ســـوى التهريب ، وكان يحمل بضاعته معه ملفوفة في رزم ، كما كان يشترك في المشاورات والمداولات اليومية التي كان حمد بن سالم وسعيد يقودانها • وكان هؤلاء كثيرا ما يعدون مبالغ ضخمة من الليرات الايطالية الورقية ، ويربطونها في زوايا الوزرات والعمائم ، ويخبئونها • وقد كانوا دائما يفعلون ذلك على مرأى ومسمع من الجميع ، فلم يكونوا يخشون أن يقوم أحد بسرقتها •

لقد كرهت الراكب العماني الجديد كرها شديدا ، وظل واحدا من العرب الذين لم أستطع أن أستسيغهم • وكان يتكلم بصوت حاد كأنه ينتحب، كما كان يعرف من اللغة الانجليزية ما يكفي لان يجعله مصدرا للازعاج



رجل الدين



فتاة بدوية

الكبير (فلم يكن يعرف من تلك اللغةما يساعده على الفهم أو التعبير السليمين ، ولذلك فقد كان يفهم كل ما يسمعه فهما خاطئا ، ولكنه يعتقد فى الوقت نفسه أنه يتقن اللغة اتقانا تاما ، وأنه لا يحتاج الى تعلم المزيد منها) ، وكان دائما ينادينى بعبارة « صديقى العزيز جدا » · ولكنى لم أكن صديقه أبدا ، وان كنت مرغما على تحمله · وقد فهمت منه أن والده أحد تجار مدينة صور ، وأنه يملك بغلتين يسافر بهما الى الهند للتجارة ، احداهما يقودها هو ـ أى صاحبنا المدعو محمدا ـ والاخرى يقودها شقيقه· أما فى هذه السنة ، فقد أخرج والده أحد المركبين من الخدمة الفعلية لقدمه ، ولذلك فقد بعث بمحمد الى الساحل الافريقي ليستكشف مجالات العمل والرزق هناك · هذه هى قصة حياتى كما رواها هو · أما نجدى ، الذى لم يكن يحبه أيضا ، فقد كانت عنده رواية أخرى فقد أخبرنى أن محمدا كان نوخذة سيئا ، ولذلك فقد طرده أبوه من بيته ، وانه يقوم برحلة خاصة يهرب فيها بعض البضائع لحسابه الخاص · ولست أدرى أى الروايتين أصدق ، الا أن شعورى الشخصى يدفعنى لتصديق الرواية الثانية · وينبغى القول هنا أن محمدا العمانى هذا لم يكن مكسبا كبيرا لمركبنا ، وكانت محاولتى فهم ما يقول باللغة الانكليزية أكثر صعوبة ، وأقل فائدة ، من

متابعتى لما يقوله أى انسان اخر باللغة العربية ، على الرغم من أنى لم أكن قد تعلمت الكثير من تلك اللغة الصعبة ٠

وفى أحد أيام الجمعة كنا نبحر قبالة مكان يدعى عبيه ٠ ولما كان يوم الجمعة يوم العطلة عند المسلمين ، فلم يكن أحد يقوم بعمل غير ضروري ، أو يبحث عن عمل ضروري ، وتمكن البحارة جميعا من النظر مليا الى معالم البلدة ٠ وكان كل ما استطعنا رؤيته عبارة عن محطة لاسلكى ، وبيت المقيم (الحاكم) والعلم يرفرف عليه ، وما عدا ذلك كان رملا فى رمل ٠ وتبعد عبية هذه عن حيفون حوالى ٣٥٠ ميلا ، وعن موقاديشو حوالى ٢٦٠ ميلا ٠ وبما أننا لم يمض علينا فى البحر سوى يومين منذ مغادرتنا حيفون ، فقد كان سيرنا مرضيا جدا ٠ ومقابل هذه البلدة ، وفى أثناء ابحارنا على امتداد هذا الساحل ، كنا نصيد كميات كبيرة من السمك المختلف الانواع كالبينيت، والبكورة ، وذلك السمك ذى الرؤوس الشبيهة برؤوس الثيران ، الذى كان البحارة يدعونه بالدلفين ٠ كما أننا شاهدنا كثيرا من السمك الطائر الذى كان كثير منه يتطاير فوق جانبى المركب ، فيمسك به البدو فى الحال، ولا يتركون مجالا حتى لقطة المركب أن تمسك به ٠ وكانت تلك القطة الصغيرة البائسة من نتاج قط عمانى وقطة سائبة فى بربرة ، وكانت تعيش عيشة بائسة على ظهر المركب ٠ فقد كانت مهمتها الرئيسية أن تبقى الجرذان والحشرات داخل القمرة الكبيرة ، ولكن ذلك المكان كان قابضا للنفس ، حتى أن القطة نفسها كانت تعافه وتحتقره ٠

وكنا نصيد السمك باسلوب بسيط ، هو أن نجر عددا من الشصوص خلفنا ، ولم تكن هذه تقل عن سبعة ، بعضها مربوط بالقارب ، وبعضها بركائزه ، وغيرها بجانبى المؤخرة ، أو بأى شيء آخر فى المؤخرة يمكن أن تربط به ٠ وكنا فى البداية نستعمل السمك الطائر الصغير طعما ، نغرز فيه شصوصا كبيرة ، الا أننا بعد أن بدأنا نصيد السمك الكبير ، بدأ البحارة يستخدمون قطعا من الجلد الابيض يقطعونه من بطون السمك ، ويبدو أن هذا اللحم كان طعما مفضلا ٠ فقد كنا ، فى بعض الايام ، نصيد عشرين أو ثلاثين سمكة كبيرة ، هذا اذا كانت الظروف الجوية مؤاتية ، والمركب يسير بالسرعة المطلوبة ٠ وكنا أحيانا نشوى سمكة على فحم الحطب ، وكان طعمها رائعا اذا قيس بما كنا نتناوله من الطعام اليومى ٠

مررنا ببعض المراكز الايطالية الاخرى مثل أمليت (أوايتالا) وورشيخ ، وكان منظرهما من البحر بائسا ٠ فلم يكن يميزهما عن الرمل

المحيط بهما سوى علم ايطالى يرفرف على أحد الاكواخ ، الا أن فى ورشيخ منزلا عربيا أو منزلين • ولم نتوقف فى هذه المحطات ، فقد قال نجدى أن ذلك مضيعة للوقت ، ويبدو أنه كان على حق •

وطوال هذه المدة كانت الاوساخ والقاذورات تتراكم على سطح المركب بشكل متواصل ، حتى أصبح ذلك المكان موبأة حقيقية ، وكنت أعجب كيف يمكن أن يبقى انسان على قيد الحياة فى مثل هذا المحيط • وقد كنت ألازم مكانى المحدد على السدة الخلفية ، خلف التجار وسائر ركاب الدرجة الاولى ، وكنت أحمد الله أن الريح تهب من خلفنا ، وتبعد عنى الروائح النتنة المنبعثة من السطح الرئيسى • وفى خلال هذه الرحلة ، وجدت أن صعوبات الحياة كانت تزداد بدلا من أن تتناقص ، الا أن هؤلاء العرب كانوا مجموعة طيبة محببة الى النفس ، فيما عدا عددا قليلا منهم • أما أولئك الذين لم أكن أحبهم فلم يكونوا عربا ــ وكان من بينهم ذلك الصومالى المولد كثير المشاكسة ، وذلك الانسان المزعج الذى نصفه ماليزى ونصفه الاخر حضرمى ، صاحب الجراموفون المخيف ، وتلك البنت الحقيرة ذات الوجه اللئيم ، واللسان السليط ، التى ما فتئت تجرى هنا وهناك وتزعج الاولاد الصغار طيلة النهار •

وعلى الرغم من أن طاقة العرب على تحمل القذارة كانت تفوق طاقتي بوجه عام ، ومع أنهم كانوا يخلقون في البحر متاعب لم أحلم بها من قبل ، الا أنهم كانوا رجالا بمعنى الكلمة • ففي وسط كل تلك الضجة وتلك القاذورات والاوساخ ، كان البدوي الملتحي المهيب القادم من الصحراء يحافظ على الآداب الصغيرة التي كانت تحكم حياته ، كالقاء التحية ، والاحترام المتبادل ، واتباع الاصول المرعية أثناء تناول الطعام على الحصير ، والمحافظة على التقاليد المعروفة أثناء تقديم تلك القهوة المخيفة • وعلى الرغم من أن الازعاجات ظلت مستمرة من ضيق أماكن الاقامة ، الى اكتظاظ المركب ، الى الطعام البائس ، الى التعرض الدائم لعناصر الطبيعة القاسية كالشمس المحرقة طوال النهار ، والندى الكثيف طوال الليل ــ على الرغم من ذلك كله فقد كانت متعتي في مرافقة الرحلة تفوق ذلك كله ، ولم تكن تلك الرحلة في أي وقت من الاوقات رتيبة مملة • بل أني كنت أحيانا أتمنى أن تصبح كذلك ، على الاقل لأحصل على شيء من الهدوء والراحة • ولكن ذلك لم يحصل •

وعندما أخذنا نقترب من موقاديشو ، أخذ الركاب ، الذين كانوا ينوون النزول الى البر هناك ، يأخذون زينتهم ويرتدون الملابس النظيفة •

فقد بدأ سعيد وماجد وعبد الله ، ذلك الانسان الغامض ، والآخرون يخرجون الكحل والحناء ، ويصبغون به لحاهم وراحات أيديهم وأخمص أقدامهم ، وكان أمهرهم في ذلك السيد (الشريف) الآتي من المكلا ، ومساعده القوي أبا علي · وقد قام واحد من مديري الدفة بحلاقة شعر رأس نجدي بالموسى ، لأنه ، بوصفه النوخذة ، لم يكن يحلق شعره بنفسه ، كما قام آخر بحلاقة شعر حمد بن سالم · وقد كان سعيد المهرب مسرفا في استعمال الحناء ، وفي تكحيل عينيه ، وعندما كان يرتدي ملابسه الكاملة استعدادا للنزول الى البر ، كان يبدو كأنه نسخة خيالية مخيفة من أحد أفراد جوقة المنشدين الصغار ، مضافا اليه لحية طويلة · ولا شك أنه كان يشعر بالارتياح والرضا عن نفسه · وكان البحارة جميعا يحلقون شعور رؤوسهم ولحاهم بالموسى ، ولا يتركون الا شواربهم ، على عادة الكويتيين والايرانيين ·

وعند غروب شمس اليوم الخامس ، لاحت لنا أنوار موقاديشو · ولم تكن الرؤية جيدة ، وتابعنا سيرنا مع هبوب الريح القوية الى حد ما · وبعد مدة طويلة من حلول الظلام ، اتجهنا نحو المدينة ، التي كانت أنوارها كثيرة ومتلألئة · وقد بدت لنا موقاديشو من البحر خلال الليل مكانا مثيرا للاهتمام ·

الفصل السابع

مشاكل في مقاديشو

مشاكل في مقاديشو

موقاديشو ، رغم كثرة الاسماء المختلفة الاخرى التي تطلق عليه ، لا يعدو أن يكون ميناء متواضعا ، على الساحل الشمالى الشرقي من قـــارة أفريقيا ، المواجه للمحيط الهندي • وليس في الميناء سوى حاجز واحد واق من الامواج ، يكون حوضا للصنادل التي تستعمل لتحميل البضائع وتفريغها، ومرسى للمراكب المحلية أيضا •

وصلنا الميناء مساء السبت ، وكانت الريح تعصف بقوة وعنف طوال الليل • ولما كان دخول الحوض المحمي من الريح صعبا في الظلام ، فقــد أضطر نجدي للتوقف خارج الحاجز الحجري ، تاركا المركب يتأرجح ارتفاعا وانخفاضا في الهواء الطلق قريبا من ذلك الحاجز ، مع احتمال الاصطدام به في أي وقت • ولم أستطع أن ألوم نجدي لعدم دخوله الى ذلك الميـنـــاء الضيق المكتظ بالمراكب في ظلام الليل ، فقد كانت الرؤية صعبة جدا ، وكان من الممكن أن يصطدم المركب بالصخور بكل سهولة • ولذلك فقد كانــت فرصة الدخول الى ذلك الحوض بسلام ضئيلة جدا ، ولم أستغرب ألا يخطر ببال نجدي أن يقوم بتلك المحاولة •

وقد أخذت شدة الريح تزداد خلال الليل ، كما أخذ البحر بالارتفاع حتى أصبح الموج يتخطى الحاجز الحجري ، وأصبح موقفنا ، ونحن في البحر المكشوف ، موقفا لا نحسد عليه • وفي البداية كنا نقف هناك معتمدين على مرساتين ، ثم على ثلاث ، ولكن ما أن طلع الصبح حتى كنا نقف علـــى خمس • وقد علمت أن المراكب العربية كانت تزود في العادة بعدد كبير من المراسي ، لأن معظم الموانيء التي كانت ترسو فيها كانت سيئة • أما بالنسبة لي ، فقد كانت هذه هي المرة الاولى التي أرى فيها مركبا يقف على خمس مراس • ولكن العدد وحده لم يكن ليضمن سلامة المركب ، نظرا الـى أن الحبال ، التي كانت تلك المراسي مربوطة بها ، لم تكن من الطول بحيث تسمح للمركب بشيء من حرية الحركة الضرورية ، ولذلك فقد كنت أرقب الوضع ، وكلي خوف من أن يفلت المركب من مراسيه • ولم أكن أشعر بذلك الخوف وحدي ، بل كان يشاركني فيه نجدي وحمد بن سالم ، اللذان لـم يغمض لهما جفن طوال تلك الليلة • وفي الصباح ، قبل طلوع الشمس ، عندما لاحظت أن المركب قد انجرف قليلا ، وأصبح قريبا جدا من الصخور ،

بحيث أصبحت تشكل خطرا عليه ، حشوت أثمن ما أملك في جيوبي ، وأعددت نفسي للقفز من على ظهر المركب والنجاة بنفسي سباحة اذا اقتضى الأمر . فقد كانت تلك الصخور ، القابعة تحت مؤخرة المركب ، مدببة قبيحة المنظر كأنها فاغرة أفواهها لابتلاعنا ، ولم يكن بيننا وبينها أكثر من دقيقة من الزمن لو ارتخت حبال المراسي قليلا ، ولم تكن تلك الحبال سوى ألياف جوز الهند المجدولة ، والمصنوعة على ظهر المركب نفسه ، ولذلك فلم تكن من المتانة والقوة بحيث تستطيع تحمل ذلك الضغط الهائل كله .

ومع ذلك ، فقد صمدت تلك الحبال ، وتمكنا من قضاء تلك الليلة بسلام . وعندما بزغ الفجر ، كان البحر لا يزال يواصل الارتفاع ، على الرغم من أن الريح بدأت تهدأ قليلا . ومع أن المركب ظل طوال النهار يتأرجح بشكل عنيف ، الا أننا لم نكن في خطر حقيقي . وعند عصر ذلك النهار ، استطعنا أن نرفع مرساتين ونظل مربوطين بثلاث فقط . وكانت هذه المراسي تدلى الى البحر من عدة أماكن على جانبي مقدمة المركب ، وعلى الرغم من كثرتها فلم تكن تتشابك ويعلق بعضها ببعض ، لأن الحبال التي كانت تربط بها كانت قصيرة ومشدودة ، كما أن الريح كانت دائمة الهبوب بقوة بحيث تتغلب على قوة المد . وفي العادة كانت هناك ثلاث مراس جاهزة للاستعمال على مقدمة مركبنا « فتح الخير » ، واثنان احتياطيان في مكان ما على السطح ، يسهل الوصول اليهما رغم كونهما ، في أغلب الاحيان ، ملقاتين تحت حطب الوقود وتحت البحارة النيام ، كما كانت هناك مرساة كبيرة في المؤخرة . ولما كان المركب يقف ، وقد أنزلت أشرعته ، ومدت عارضته الكبيرة على طول المركب ، فلم يكن فيه شيء يقف في وجه الريح ، سوى مؤخرته العالية ، خاصة وأن صواريه كانت عارية ، ولا يمسكها عدد كاف من الحبال الثابتة .

ومع طلوع النهار ، وعلى الرغم من رداءة الطقس ، خرج الينا قارب صغير يخص أحد المراكب العمانية الراسية فى الميناء،وكان ربان المركب على متن القارب . وحالما وصل الينا أخبرنا بأن السلطات الايطالية لا تسمح للمركاب العرب بالنزول الى البر . وقد كانت هذه الأخبار ضربة لنا . فها نحن نجد مركبنا ، وعليه أكثر من مائة من الركاب المسافرين الى هذا المكان ، يصل المدينة بعد طول السفر والعناء ، فنفاجأ بأن الركاب غير قادرين على مغادرة المركب . الا أن « نجدي » ، الذي لم يكن يؤمن بالحلول الوسطى للمشاكل التي تواجهه ، أحتفظ بذلك الخبر لنفسه ، ولم يعلم الركاب ، الذين كانوا يجهزون أنفسهم لمغادرة المركب ، على الرغم من ان كثيرين منهم كانوا يشكون ثانية من دوار البحر ، بسبب العنف الذي كان

يهتز به المركب ، وهو راس في ذلك المكان ـ فقد كان الوضع هنا أسوأ مما كان عليه ونحن نمخر عباب اليم · نزل نجدي الى البر بصحبة الربان العماني ، متحديا جميع قوانين الميناء ، على ما أعتقد ، وقد لاحظت فيما بعد أن عبد الله الغامض قد اختفى أيضا ، مع أني لم أره يغادر المركب ، كما لاحظت اختفاء عدد آخر من العمانيين بمن فيهم ماجد ، وسعيد المهرب ، بالاضافة الى ذلك الرجل الضرير القادم من حيفون · أما الفتى الصغير محمد ، فقد اختفى أيضا ، كما كان يفعل في جميع المناسبات المشابهة ، والغريب في الامر أني لم أتمكن من رؤية أي من هؤلاء يغادر المركب ، رغم يقظتي وحرصي الشديد على اكتشاف طريقة اختفائهم ·

لم يكن هناك داع للعجلة ، فان أحدا من ضباط المرفأ لم يأت الينا · فبقينا هناك على ظهر المركب ، نهتز ونتأرجح طيلة النهار ، حتى أصبحت الحياة جحيما لا يطاق · فقد كانت الامواج تصطدم بجنبات المركب ، فينتشر رذاذها المتطاير على المركب ، ويغطي السطح الرئيسي كله · كما كانت الرياح الموسمية تهب علينا قوية وباردة ، في ذلك المكان المكشوف ، على الرغم من أنه يقع على خط الاستواء مباشرة · وعلاوة على ذلك ، كان ماء الشرب ، الذي جلبناه معنا من عدن ، قد نفد كله · كما لم يبق لدينا الا النزر اليسير من الطعام ، حتى أننا اضطررنا لأكل السمك الذي كنا قد اصطدناه في اليوم السابق ، مع أنه كان قد بدأ بالانتفاخ والفساد · وقد زاد الطين بلة أن ذلك الرجل الصومالي المولد ، الذي رافقنا من ميناء شحر ، لم ينقطع عن الصراخ والشجار طوال النهار ، وهو يقوم بتجميع أمتعته استعدادا للنزول الى البر · وكنا عندما نرسو في أي مكان ، نترك الدفة تتأرجح بحرية تامة ، كما فعلنا هنا أيضا ، فكانت الريح تضربها بشدة ، فتصطفق ذات اليمين وذات الشمال بعنف كبير ، حتى خشيت أن أراها تنفصل عن المركب كليا · ولم يكن الانزعاج باديا على أحد غيري ، الا أن جاسما ، ذلك الطاهي المسكين ، أمضى يوما في غاية التعاسة ، وهو يحاول طبخ الطعام على موقده ، فقد كانت الريح تعصف بالوقود المؤلف من الخشب والعوسج فتذروه وتقذف بالدخان الى خارج الموقد ، فيغمر جاسما كما يغمر المركب بأكمله ·

ولما كان المركب واقفا ، ومقدمته بعكس اتجاه الريح ، التي كانت تهب بقوة وعنف ، فقد كانت أشياء مختلفة تتطاير علينا من كل حدب وصوب : غبار وقاذورات وشظايا منوعة وغيرها · لقد كان ذلك النهار فظيعا بالفعل · وقد بدأت أتساءل ، حتى قبل أن ينقضي ذلك النهار ، عما اذا كان بامكاني أن أتحمل أكثر مما تحملت · ومع ذلك كله ، فقد كان

البدو ، والركاب الآخرون القادمون من حضرموت ، ينتهزون الفرصة التي لا يقاسون فيها من دوار البحر ، فيرفعون عقيرتهم بالتهليل والتكبير ويشكرون الله على وصولهم بالسلامة ، هذا مع العلم أنهم ما زالوا في خطر ، كما أنهم لم يغادروا المركب بعد ·

وقبل حلول الظلام ، عاد نجدي على متن زورق آلي ، كان قد استأجره لكي يقطر المركب ويسحبه الى داخل الحوض · وقد كان من المفروض أن تكون هذه العملية عملية بسيطة ، الا أنها انقلبت الى مهزلة · ففي ذلك الوقت الذي وصل فيه نجدي مع الزورق ، لم يكن على ظهر المركب الا أخوه عبد الله ليتولى القيادة ، فقد كان حمد بن سالم قد اختفى (واعتقد أنه كان قد ذهب مع بضاعته في قارب صيد صومالي) ، كما أن نجدي لم يغادر الزورق · ومع أننا كنا ننتظر الزورق طوال النهار ، الا ان العرب ، كعادتهم ، لم يعدوا الاشياء اللازمة لذلك ، حتى أن الحبل اللازم للقطر لم يكن جاهزا · ولذلك بقي الزورق يهتز بعنف ويدق جانب المركب بشدة بانتظار الحبل المطلوب ، بينما كان نجدي يصيح بأعلى صوته ، والركاب يزعقون ، والبحارة وعريفهم يركضون هنا وهناك وهم يهزجون · أما حسن ، مدير الدفة الذي أرسل ليربط سلاسل الدفة ، فقد أعجبه منظر الزورق وهو يخبط جانب المركب حتى أنه نسي ما ذهب من أجله ، ولم يكن هناك من يجبره على أن يفعل ذلك ، ولذلك فقد بدأنا السير وراء الزورق وليس هناك الا سلسلة واحدة مربوطة بالدفة ، مما اضطرنا الى التوقف الى أن تربط السلسلة الاخرى · أما خليفة ، مدير الدفة الآخر ، فكان ، كلما سمع أمرا يصدر بصوت عال ، يهمهم قائلا « ان شاء الله » ، حتى شعرت أنني على وشك أن أكيل له الشتائم ، لتلك الاتكالية والاعتماد الكامل على العناية الآلهية · وكان يصر على الجلوس على الكرسي المقابل لعجلة القيادة، على الرغم من أنه ، وهو في ذلك الوضع ، لم يكن يستطع الرؤية الجيدة من فوق رؤوس الركاب المحتشدين على المؤخرة وعلى السطح الرئيسي بأكمله · وعندما اقترحت عليه أن يقف لكي يتمكن من الرؤية بوضوح ، اعتبر ذلك اهانة بالغة ·

وعندما كان نجدي يصيح من مكانه في الزورق : « الى اليمين ، الى اليمين » وهو يلوح بذراعيه بعنف ، كان أخوه عبد الله يكرر الامر صائحا « الى اليمين ، الى اليمين » ، وهو يقف على السدة في نهاية المؤخرة · الا أن خليفة كان يتمتم قائلا « ان شاء الله » ثم يدير العجلة بسرعة وعنف في الاتجاه المعاكس ، مما يجعل المركب يميل وينحرف انحرافا مخيفا ، فيتجه نحو الماء الضحل ، بينما يحاول الزورق ، وكأنه يلهث ويزفر ، أن يظل

متشبثا بنا • أما الركاب فلم يكونوا ينقطعون عن الكلام ، الذي كان يبدو كأنه طنين النحل المتصل ، كما كان الاولاد يتراكضون في كل مكان ، بينما أفلتت احدى عنزتي الصومالي ، وبدأت تقضم الحبال في الحال • وفي خضم تلك الفوضى العارمة أفلت حبل غليظ يستعمل لدفع أكبر المراسي حجما ، ويتصل بالرحوية القائمة على المؤخرة ، فأصاب أحد البحارة ، المسمى سلطانا ، في رأسه ، وشج جمجمته ، فتدفق الدم منها حتى وصل الى مجرى الماء على سطح المركب • وعندما أتوا به الي ، عجبت كيف كان لا يزال في وعيه التام ، فقد كانت الضربة كفيلة بكسر جمجمة رجل آخر أصغر منه حجما ، وأطرى منه عودا ، وقد أثرت الضربة حتى في سلطان نفسه فأحزنته وتركته هادئا مهموما • وقد قمت بتنظيف الجرح ، وأوقفت النزيف ، وربطت الرأس بسرعة وبشكل مؤقت ، وأنا آمل الا تكون الاصابة خطيرة حقا ، وعاد الرجل الى عمله ، وكأن شيئا لم يكن • وقد كان من نتيجة انفلات ذلك الحبل أن أخذت الرحوية بالدوران السريع ، فانفلتت منها القضبان الحديدية ، وتبعثرت بقوة وسرعة قاتلتين في جميع الاتجاهات • ولم أستطع أن أتصور كيف تمكن الركاب ، الذين كانوا يحتشدون حول الرحوية ، من تفادي الاصطدام بتلك القضبان • أما من ناحيتي ، فقد بلغ بي الامر أني لم أعد اهتم حتى لو أصيب أحد بتلك القضبان فعلا •

وأخيرا رفعت المراسي ، وتابع الزورق سيره ، وهو يجرنا بعيدا عن الصخور • بينما أخذ نجدي يصيح ثانية ، فيردد عبد الله صياحه ، كما واصل الركاب زعيقهم ، والسيد صلاته ، والماعز ثغاءها • أما القطة ، التي كانت منذهلة حزينة ، فقد ابتعدت عن طريق الاقدام الحافية المتراكضة هنا وهناك ، واختبأت خلف علبة من علب الدهن •

لم تكن المسافة بعيدة بين المكان المكشوف ، المحفوف بالمخاطر ، الذي كنا نرسو فيه ، وبين باطن الحوض الآمن ، الواقع خلف الحاجز الحجري • وكان العرب ، على متن المراكب الاثني عشر أو الاربعة عشر القابعة في الحوض ، يرقبوننا باهتمام كبير ، سرعان ما انقلب الى فزع ، عندما رأوا مركبنا يتجه اليهم مباشرة ، دون أن يتمكن الزورق الصغير من توجيهنا الوجهة الصحيحة • فقد كانت الريح ما تزال تهب بقوة وكان « فتح الخير » مركبا كبيرا ، كما كان الزورق الذي يقطرنا صغيرا جدا ، والطريقة التي تدار بها العملية لا تدل على شيء من الخبرة • ولم يطل الامر كثيرا ، فسرعان ما تخلى الزورق عن الصراع ، وتركنا في مواجهة تلك الصفوف من المراكب الراسية • ولكي يحاول بحارتنا ايقاف المركب ، قذف

عريفهم بثلاث من مراسيه دفعة واحدة ، الا أن اثنتين منها لم تكونا ، لسوء حظنا ، متصلتين بحبالهما • أما الزورق ، فقد تركنا وانطلق لا يلوى على شيء ، آخذا نجدي معه • وهكذا أصبح المركب بلا قيادة ، في أثناء النكبة التي حلت بنا في الحال ، بسبب تلك العملية غير الموفقة • وما حدث هو أن المرساة الوحيدة التى كانت ما تزال متصلة بحبالها ، لم تستطع أن توقف تقدم المركب فتابع هذا سيره ، بلا توجيه أو قيادة ، في اتجاه ذلك الصف من المراكب الراسية • وكان أول ما أصطدم به جلبوتا بحرانيا صغيرا ، من النوع الذي كان يستخدم في السابق للغوص على اللؤلؤ ، فأصابه بضربة مؤلمة في وسطه ، سمع لها دوي هائل ، وجعلت أخشاب الجلبوت تصر وتئن من هول الصدمة ، وحطمت جزءا من جانبه الايسر • ولم يكتف مركبنا بذلك ، بل ثنى بصدمة أخرى لسمبوك عماني من صور ، كان محملا بالابقار المحجوزة في حظائر صغيرة فوق البضاعة • وقد أصيبت تلك الابقار بالفزع ، وحاولت أن تنطلق من عقالها ، كما اشتبكت عارضتنا المزينية بحبال الصاري الرئيسي في السمبوك ، فانجرف الجزء البارز من عارضتنا وسقط على احدى الابقار • وكان صياح الركاب يشق عنان السماء ، وهم يتراكضون هنا وهناك ، كما كان العريف وبحارته يعملون بشكل جنوني ، لكي ينزلوا القارب الطويل من جانب المركب الى الماء ــ وهو ما كان ينبغي أن يفعلوه قبل عدة ساعات ــ لتحمل عليه الحبال اللازمة لربط المركب بالشاطىء ، بينما كان جميع من على الشاطىء يرقبون ما يحدث باهتمام بالغ • ولكن مركبنا لم ينته من مهمته بعد ، فقد تابع هجومه على المراكب المحتشدة في الميناء ، حتى انتهى أخيرا الى الاصطدام جانبيا بمركب من الباطنة محمل بالسمك والمسافرين •

لقد كانت عملية سيئة للغاية • وعندما عاد نجدي أخيرا الى المركب ، كان في حالة مخيفة من الغضب والهياج • ويبدو أنه لم يكن مهتما بالدمار ، الذي سببه المركب ، بقدر اهتمامه بأن مثل هذا الحادث ، الذي يدل على جهل بأساليب الملاحة ، يضر بسمعته ضررا بالغا •

والواقع انه لم ينجم شيء خطير عن تلك العملية السيئة ، فيما عدا الخراب الذي أصاب المركب البحراني ، وخسارة جزء من العارضة المزينية ، وانشجاج رأس البحار « سلطان » • فقد تمكن بحارتنا ، المتعودون على الغوص من انتشال المرساتين ، اللتين كانتا قد أفلتتا من حبالهما وسقطتا في البحر ، من غير صعوبة تذكر • وما كاد الليل ينتصف ، حتى كان المركب قد رسا وربطت حباله بالشاطىء ، وكانت الابقار على المركب الآخر تنام نوما عميقا ، وأصبح كل شيء هادئا مرة أخرى ، الا من مؤتمر كان نجدي

يعقده مع العمانيين (الصوريين) والفرس في نفس الموضع الذي كـان مخصصا لنومي • وقد امتد هذا المؤتمر حتى الهزيع الاخير من الليل • ولم أكن عندئذ مهتما بمعرفة موضوع البحث ، فقد كنت أشعر بالاعياء الشديد ، بعد أحداث ذلك النهار الطويل ، والليلة التي سبقته • ولكن لم يكن من الصعب علي أن أخمن ما كان البحث يدور حوله ، فلا بد أنه كان يتعلـق بمشكلة انزال الركاب ، وبالقيود المفروضة على البحارة ، وبسوء تصرف موظفي الميناء من الايطاليين • وقد تمكنت ، وأنا أنصت الى الاحاديث التي كانت تدور ، من سماع اشارات عديدة الى الروبيات والليرات الايطالية ، وعبارات لا تسر عن الايطاليين • أما الطريقة التي كان أولئك الرجـال الملثمون المعممون يتآمرون للتغلب بها على قيود المرفأ ، فلم أعلم عنهـا شيئا ، ولكنني عرفت فيما بعد بأنها كانت طريقة ناجعة •

وكان نجدي هو الذي يترأس الاجتماع ، كما كان سيترأس اجتماعات أخرى مشابهة خلال مكوثنا في الميناء • فقد كانت له خبرة سابقة بهـذا المكان ، نظرا الى أنه كان قد أبحر على متن مركبنا هذا نفسـه الـى موقاديشو في العام السابق ، وهو في طريق عودته الى الوطن ، حاملا شحنة من البضاعة ، ومن المسافرين القادمين من الجنوب •

وفي الصباح ، بعد أن كان جزء كبير من البضاعة ، التي كانت محملة على المركب في أماكن غير ظاهرة للعيان ، قد وصل الى أيدي الصوماليين وغيرهم من البحارة المحليين ، وصل عدد من موظفي الميناء ، ولكنهم لـم يهتموا حتى باعتلاء ظهر المركب ، بل صاحوا من بعيد بأن سلطات الميناء لن تسمح لأحد بالنزول ، ثم غادرونا وقفلوا عائدين • وقد وقع هذا الخبـر على أسماع ركابنا وقع الصاعقة • فكيف لا يسمح لهم بالنزول بعد هـذه الرحلة الطويلة الشاقة ، التي امتدت بضعة أيام طوال ، وبعد أن دفع كل منهم ما يستحق عليه من أجرة السفر ؟ أما البدو الذين كانت هذه رحلتهم الاولى ، فقد أصيبوا بالذهول • وأما الحضارمة الذين كانوا قد سـافروا من قبل ، فقد استشاطوا غضبا • بل أن بعضهم أخذوا يتدفقون نحو مؤخرة المركب ، ويصيحون في وجه نجدي ، الا أن هذا لم يبال بهم وأجابهم بـأن الامر لم يكن من صنع يده ، بل ان الايطاليين هم المسؤولون عن المشكلة ، ثم ما لبث أن غادر المركب ، ولكن لم يطل الامر بهم حتى هدأوا جميعا ، وأخذوا يتمتمون بأن الله رؤوف رحيم ، وأنه لا بد أن يغـيـر الايطـاليـون رأيهم ويتراجعوا عن منعهم من النزول ، فيسمحون لبعضهم على الاقـل بمغـادرة المركب • وعلى الرغم من أن الامر كان بالغ الخطورة والاهمية بالنسبة لهم جميعا ، حتى أن بعض البدو كانوا قد ارتدوا ملابس جديدة اشتروها

لهذه المناسبة خاصة من تلك الدريهمات القليلة التي استطاعوا توفيرها من كدهم وعرق جبينهم في حضرموت ، الا أن تسليم معظمهم وقبولهم بالأمر الواقع السيء كان أمرا يدعو للاعجاب الشديد • وقد كان هناك بعض الشواذ طبعا ، وكان هؤلاء مشاكسين بطبعهم ، وكان من هؤلاء ذلك الصومالي المولد الذى لم يكف عن الصراخ والعويل قط ، وعدد آخر من الحضارمة الذين كانوا يزمجرون قائلين بأن الايطاليين كانوا دائما يرحبون بتشغيلهم في انشاء الطريق المؤدي الى عصب وفي مشاريع مختلفة أخرى • أما بالنسبة للباقين ، فقد كانوا يأملون اما أن تسوى أمورهم وينزلوا الى موقاديشو ، أو أن يتمكنوا بمشيئة الله من الوصول الى أماكن اخرى مثل لامو وومومباسا وزنجبار • وكان طعام بعضهم قد بدأ ينفد ، خاصة أنه لم يكن هناك مجال للصيد ، والمركب في داخل الميناء • وفي خلال النهار ، وصل « بوم » صغير من « الباطنة » ، وهو البوم الذي كان معنا في ميناء « حيفون » ، وكان على ظهره مائتان من الركاب ، انضموا بالطبع الى قائمة غير المرغوب فيهم من ركاب المراكب الاخرى •

من الممكن القول ، دفاعا عن الايطاليين ، أنهم يجدون صعوبة كبيرة في دخول الجزيرة العربية ، فهم لا يجدون تشجيعا من أحد ، فيما عدا بعض أجزاء اليمن • علاوة على ذلك ، يجب الاعتراف بأن الناظر الى أكثر من نصف المسافرين على مركبنا يحكم فى الحال بأنهم غير مرغوب فيهم فى أى مكان • فالايطاليون الذين ينفقون الاموال فى افريقيا الشرقية الواقعة تحت سيطرتهم فى محاولة يائسة لاسترداد بعضها ، وينفقون اموالا اكثر فى الحبشة ، مستعمرتهم الجديدة ، ينظرون شزرا الى أولئك المغامرين القادمين من الجزيرة العربية ، الذين لا هم لهم الا الحصول على بعض المال واخراجه من تلك البلاد ، بدلا من المساهمة فى تنمية الثروة القومية • ولذلك يجب الا يلام الايطاليون اذا لم يعتبروا العربى العادى أفضل أنواع المهاجرين • فعلى الرغم مما كان عملاء الدعاية الايطاليون يقولونه فى أماكن أخرى ، كان واضحا تماما فى موقاديشو أنهم كانوا ينظرون الى العرب نظرتهم الى مجموعة قذرة ، لئيمة ، مفككة ، من الناس ، تتصف بالجشع والتعصب والمشاكسة ، وعدم الانضباط وقلة المهارة فى العمل • لقد كان العرب ، باختصار ذلك النوع من المهاجرين غير المرغوب فيهممن أى وجه منالوجوه• بل كان الايطاليون يتهمون العرب بأن لهم علاقة بكل تجارة محرمة ، وبأنهم غير قادرين على انتاج شيء على الاطلاق سوى المؤامرات والتهريب • كما كانوا يخشون أن يقوم العرب بزرع بذور الشقاق بين الصوماليين والاحباش من جهة ، والايطاليين من جهة أخرى • وباختصار ، لم يكن الايطاليون يرحبون بالعرب ، سواء كانوا مهاجرين أم تجارا أم أصحاب سفن تجارية ،

ولم يكونوا يستخدمون بعضهم الا للقيام بالاعمال الوضيعة كشق الطـــرق وما شابه ذلك من المشاريع ٠

أما العرب فقد كانوا بدورهم يكرهون الايطاليين ، اذ لم يكن بامكانهم أن يحترموا ذلك الاوروبى الذى كان يتصف بجميع صفاتهم السيئة ، ولكنه لا يتحلى بأى من فضائلهم ٠ والواقع أن الموظفين الصغار ، الذين كان العرب يحتكون بهم ، كانوا فى معظم الحالات لا يقلون صخبا وسرعة غضب وجشعا، بل وقلة أمانة ، عن أى عمانى مهرب ، أو كويتى حصيف ٠ كما أن بعضهم كان عرضة للرشوة ، ولذلك لم يكن العرب يحترمون أيا منهم ٠ كما كان الصوماليون يكرهونهم ، ولم يكن أحد يستطيع أن يسامحهم لما فعلوه فـــى الحبشه ٠ لقد كان العرب يحترمون الانجليز ، لانهم كانوا يستطيعون القيام ببعض الاعمال التى لايمكنهم هم القيام بها ، ويحترمون الالمان لكفاءتهم ودقتهم فى العمل ، ولكنهم كانوا يسخرون من الايطاليين الذين يحتكون معهم فى بلاد الصومال ٠

ان الناظر الى مقاديشيو الآن يرى فيها الطابع الايطالى غالبـــا علـــى الطابع العربى ، على الرغم من أنها كانت مستوطنة عربية عـــدة قـــرون ، ومازال فيها حى عربى وجالية عربية كبيرة جدا ٠ كما يستطيع المرء أن يرى نسخا من صور السنيور موسوليني ، حامي حمى الاسلام ــ كما يدعى الايطاليون ، وان كان هذا الكلام لا ينطلى على أحد من المسلمين ــ تزيـــن الاعمدة والابنية فى كل مكان ٠ كما أن من المفارقات التى يشاهدها الزائر فى وسط المدينة ذلك المسجد الضخم ، البديع الهندسة ، والذى تلفت زخارفه الرائعة الانظار ، وهو يشرف على حانة تقع فى الزاوية المقابلة ، كما يشرف على دار ضخمة للسينما ٠

لقد حسبت فى بادىء الامر أن كل ما سأتمكن من مشاهدته فى مقاديشو لن يزيد عما أراه وأنا على ظهر المركب القابع هناك ، بين المـــراكب الاخرى المحتشدة فى الميناء ، فقد كان الحظر الذى فرض على الركاب ينطبق علىّ أيضا ، مما اضطرنى للبقاء حيث أنا ٠ ولكنى لم أبال كثيرا، فقد كان الوضع أكثر متعة مما كان الحال عليه فى ميناء حيفون ٠ ففى كل صباح كان القارب الحكومى يزورنا ، وفى بعض الاحيان يصعد بعض الموظفين الى ظهر المركب ليقوموا ببعض مهام التفتيش ، وان كانوا دائما يؤدون هـــذا العمل وهم يشعرون بالقرف والاشمئزاز ، ولم أكن ألومهم على ذلك ، فقد كانت الاحوال على ظهر المركب تدعو للرثاء فعلا ٠ وفى صباح أحد الايام، قام أولئك الموظفون بصف جميع الركاب الذين استطاعوا جمعهم ، ودققوا

فى هوياتهم وأعدادهم تدقيقا كاملا • وقد لاحظت عندئذ أن العمانيين ، وعددا آخر ، قد اختفوا ، وأن أعدادنا قد تناقصت بشكل ملحوظ • وللمرة الاولى تمكنت من مشاهدة احصاء دقيق لاولئك الذين كانوا يقصـــدون موقاديشو ، وكانوا يتألفون من ثلاثة وسبعين رجلا وخمس نساء وطفلين رضيعين • ولم يكن هؤلاء بالطبع هم جميع الركاب الذين نحملهم معنا ، بل كان هناك ثلاثون آخرون يقصدون ممباسا وزنجبار ، بالاضافة الى العمانيين القادمين من صور ، وبقية « التجار » •

وقد قام طبيب الميناء بفحص جميع الركاب بعناية تامة ، فكشف فحصه عن بعض الحالات المرضية السيئة ، التى لم أكن أعرفها من قبل • فقد كان أحد الاولاد الصغار مصابا بكساح الاطفال ، كما كانت فتاة صغيرة أخرى من الاسرة نفسها تفقد بصرها تدريجيا • وعندما رأيت هاتيـــــن الحالتين ، تمنيت من صميم قلبى لو خفف هؤلاء العرب من اعتمادهم على رحمة الله وحدها ، وأظهروا استعدادا أكبر للاستفادة من نعمة العلم الحديث ، وآمنت بأنهم لو فعلوا ذلك لاستطاعوا تجنب كثير من البؤس والمصائب ، التى تحل بهم فى الجزيرة العربية • ولقد كانت أسباب هذين المرضين واضحة تماما ، فقد كان نقص التغذية الحاد سبب حالة الصبى ، أما الفتاة فقد كان نوع من الامراض الزهرية السبب فى اصابتها بالعمى • وقد أنزل الطفلان كلاهما الى الشاطىء ، وأرجو أن يكون الطبيب قد تمكن من مساعدتهما •

وأخيرا سمح لبعض الركاب بمغادرة المركب والنزول الى البر ، ولكن هذا اقتصر على أولئك الذين استطاعوا أن يثبتوا بأنهم كانوا مقيمين فى الصومال الايطالى من قبل • وقد شعرت بالارتياح الشديد عندما علمت أن الصومالي والد الفتاة المزعجة كان واحدا منهم ، وقد رأيته يغـــادر المركـــب وهو يصيح ويصرخ كعادته تتبعه أسرته وعنزتاه ، وعلى كتفه جميــــــع أمتعته • وكانت تلك البنت الشنيعة ترتدى ثوبا طويلا يصل الى قدميها ، يتألف من اللونين الاحمر والاصفر ، كما كان وجهها ويداها وقدماهـــا مصبوغة باللونين الاحمر والاسود ، وشعرها مطليا بكمية من الدهن • أما ذراعاها ، فقد كان على كل منهما ست أساور مـــن الفضة عند الـــرسغ ، واثنتان أخريان فوق المرفق • بينما كانت تطوق عنقها بعدد من الآيــــات القرآنية محفوظة فى علب فضية صغيرة • كما كان على كل كاحـــل مـــن كاحليها خلخال ثقيل من الفضة • ولم تكف الناس شرها حتى وهى تغادر المركب ، بل قامت برفس ابن عودة البدوى فى طريقها ، بينما كان والدها يصرخ من الزورق ، طالبا منها النزول بسرعة • أما الأم التى كانت ملفعة

بالسواد من قمة رأسها الى أخمص قدميها ، وكانت قد ظهرت على سطح المركب لاول مرة ، فقد ساهمت هي الاخرى ببعض الصياح ، وعبارات السباب . واما ابنهما الصغير عبد الله،الذى لم يبخل على الركاب بالازعاج وقلب حياتهم الى جحيم طوال الرحلة ، فقد كان يجلس فى القارب وهو يرتدى وزرة جديدة وطاقية نظيفة ، ويبتسم ملء شدقيه . لقد كانوا يؤلفون أسرة فظيعة أتمنى الا أراها مرة أخرى . وبمغادرتهم للمركب خفت الضجة الى النصف على الاقل ، وبدا المركب لاول مرة وقد لفه الهدوء والسكينة .

لقد اختفى عدد من الركاب ، وان كان نجدي حريصا ألا يسمح لأحد ممن كانت اسماؤهم مسجلة في القائمة التي أعدها الايطاليون في « حيفون » بمغادرة المركب . ولكنه كان يسمح للصوريين (العمانيين) والحضارمة كبار السن بالذهاب والعودة كما يشاؤون . وقد شرح لى يوسف سبب ذلك . ويتلخص في أن هؤلاء الرجال كانوا كثيري التجوال والسفر ، ولا نية لهم بالبقاء في مرقاديشو — أو في أي مكان آخر بعيدا عن موطنهم في الجزيرة العربية ، ولذلك من الممكن الوثوق بتصرفهم ، والاعتماد عليهم بالعودة الى المركب قبل ابحاره ، وبألا يتخلفوا عنه فيوقعوه في مأزق لا داعي لها . أما الآخرون من البدو ، والحضارمة ، والركاب القادمين من « شحر » فقد كانوا مهاجرين لا هم لهم سوى النزول والبقاء هناك . فاذا نزلوا الى الشاطىء قد لا يعودون منه . وبما أن السلطات تقوم باحصائهم قبل سفر المركب ، فلم يكن نجدي يجازف بالسماح لهم بالنزول . وهكذا كانوا يبقون على ظهر المركب ، يطبخون ويصلون ويتحادثون كعادتهم ، وهم ينظرون الى تلك الارض الموعودة على مقربة منهم ، ويتحسرون لعدم تمكنهم من النزول اليها .

وكان يبدو لي أن العمانيين القادمين من صور كان يسمح لهم بالنزول الى البر في موقاديشو بشيء من التساهل أكثر من غيرهم ، ربما لأن من الممكن الوثوق بمغادرتهم المدينة — فقد كانت زنجبار هي قبلة معظمهم ، حيث كانوا يجعلون من المدينة مركزهم الرئيسي — ، وربما أيضا لأنه لم يكن من السهل التمييز بين العماني المسافر والعماني البحار ، فقد كانوا جميعا يرتدون ملابس متشابهة ، ويربون لحى متشابهة . كماكان يسمح للبحارة بالنزول الى المدينة نهارا ، والذهاب الى الاسواق أو المساجد طالما أنهم يعودون الى مراكبهم قبل حلول الظلام . لقد كان بامكان الايطاليين ورجال الشرطة الصوماليين أن يميزوا بين ركابنا وبحارتنا بسهولة ، لأن منظر الكويتي وملابسه تختلف عن غيره من العرب . ومع أنه كان من

الممكن أن يبدو الكويتي كاليوغسلافي أو الاسباني أو اليوناني ، اذا ما ارتدى الملابس الاوروبية ، الا أن العمانيين كانوا مميزين ولا يمكن أن يبدوا كأي قوم آخرين ٠ فقد كانوا جميعا يرتدون القفاطين الخارجية ، البنية اللون ، المتشابهة بكل دقائقها ، حتى في التطريز القليل حول العنق ، وكانوا جميعهم يطلقون لحاهم المحناة ويحنون أظافر أيديهم وأرجلهم ، ويثبت كل منهم عمامته الضخمة على رأسه بعقال فاتح اللون ، يتدلى من أحد اطرافه سواك الاسنان المعروف ٠ كما كانت وجوههم مختلفة عن غيرهم ومميزة جدا ٠

أما مراكبهم فقد كانت مثلهم ذات مزايا خاصة بها ٠ فقد كانوا يحبون تزيين تلك المراكب باللونين الازرق والابيض ، مما يذكرني بالفنلنديين وملاحي الاقطار الاسكندنافية الاخرى ، كما كانوا يفضلون السمبوك ذا المؤخرة الكبيرة المربعة الشكل ، والبغلة ذات الاشكال الزخرفية المحفورة في الخشب ٠ وفي خلال وجودنا في مقاديشو ، مر بها أكثر من خمسمائة أو ستمائة من أهالي صور ومن العمانيين الآخرين ٠ وكانت بعض المراكب ، التي أتوا على ظهرها ، صغيرة وبالية لدرجة لا تكاد تصدق ، مع أن أسوأها كانت آتية من الموانيء الصغيرة ، الواقعة على ساحل المهرة ، وساحل عمان المتصالح ، لا من ميناء صور نفسه ٠ وقد أخبرني نجدي بأن تلك المراكب كانت في الأصل تستعمل للغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي ، ولما كانت صناعة اللؤلؤ في كساد ، بسبب منافسة اللؤلؤ الياباني الصناعي الرخيص الثمن ، فقد اضطرت تلك المراكب الى التحول من صيد اللؤلؤ الى السفر الى أفريقيا ، أو الى أي مكان آخر يستطيع الركاب أن يجدوا عملا فيه ٠ وقد لاحظت في ميناء موقاديشو مراكب قادمة من سيحوت والمكلا وصور والكويت ومسقط وحيفون ومصوع والبحرين وايران ٠ ولم يكن طول بعضها يزيد عن ثلاثين قدما ، ومع ذلك فقد كانت تقوم برحلات طويلة ٠ وكانت اغرب المراكب تلك الآتية من شاطيء المهرة ، ذات المؤخرات المستقيمة ، التي لا ترتفع بانحنائة من الوسط ، والصواري العالية التي تقف عمودية بدون أي ميل ، والأشرعة المفردة الضخمة ٠ وكانت هذه المراكب دائما مزدحمة بالركاب الى حد يجعل الحياة على ظهرها جحيما لا يطاق ٠ فعلى الرغم من أني وجدت الحياة على ظهر « فتح الخير » صعبة جدا ، خاصة عندما كان معنا ركاب كثيرون ، الا أني أشك بامكانية تحملي رحلة بحرية طويلة على ظهر أحد تلك المراكب الصغيرة ، الغاصة بالبضائع والناس ٠ وقد كان البحارة على متن السمابك والبغلات الصورية في معظمهم من السود ، أحفاد العبيد ، بل أن بعضهم كانوا لا يزالون عبيدا بالفعل ٠ وكان هؤلاء يرقصون ويهزجون ويصفقون بأيديهم الخشنة طوال

النهار • وكثيرا ما كنا نقيم الولائم على ظهر مركبنا ، الا انى لم أحضر وليمة واحدة تقام على ظهر مركب صورى • وعندما كنت أنا ونجدى نقوم بزيارتهم فى مراكبهم ، كانوا يقدمون القهوة العربية التى كانت دائما سيئة جدا ، بالاضافة الى نوع من الحلوى الشديدة الحلاوة ، التى كان افضل أنواعها يأتى من مسقط وزنجبار • لقد كنت آتمنى لو بقيت تلك الحلوى ، فى موطنها الأصلى ، اذ انها لم ترق لى قط ، على الرغم مما كان نجدى يكيله لها من المديح ، ومن قوله أن لها قوة منشطة لا تجارى •

ومرت الايام علينا فى موقاديشو لطيفة خفيفة الظل ، وكنت سعيدا على الأقل لأنى لم أكن فى حيفون ، ولان ذلك الصومالى المشاكس ، كثير الصراخ ، كان قد انصرف ، وانصرف معه صراخه وازعاجه ، كما أصبح بامكانى الآن أن أمشى دون صعوبة كبيرة أو ألم شديد ، وان لم يكن لذلك فائدة ، ما دمت محروما من مغادرة المركب • فقد كان الموظفون الايطاليون الصغار يترددون على دون انقطاع ويواصلون استجوابى ، لأنهم كانوا ، على ما يبدو ، يرتابون فى أمرى ، وفيما أتيت اليه ، ويحسبون أن غرضي من تلك السفرة واحد من تلك الاغراض السيئة التي لم تخطر لي على بال • وكان هذا يقلق « نجدي » بالطبع ، فقد كانت أسئلتهم هي هي دائما ، كما لم يكن يبدو عليهم الاقتناع بأي من اجاباتي المتشابهة • فقد كانوا يسألونني مثلا عن سبب سفري الى الصومال ، على متن مركب عربي ، رغم توافر السفن البخارية الحديثة ، وعندما كنت أجيب بأني كنت مسافرا مع العرب ، لاني أحب أن أقوم بمثل تلك الرحلات ، وأنه لم يكن يهمني المكان الذي تسافر اليه تلك المراكب ، كانوا يعربون بصراحة عن عدم تصديقهم • وفي أحد الايام كان أحد الموظفين الايطاليين شديدي التزمت يحقق معي ، عندما اهتدى بالصدفة الى مفكرة قديمة لي يرجع عهدها الى أيام رحلتى على متن « الشيخ منصور » الى جيزان ، فتمسك بها وكأنه وجد كنزا ثمينا • وكان فى تلك المفكرة بعض الرسوم التخطيطية ، أحدها رسم للساحل الذي تقع عليه مدينة جيزان ، والآخر مخطط للترتيبات الصحية الموجودة على ظهر سمبوك من تلك السمابك ، التي يسافر عليها الحجاج • وقد قام الموظف الايطالي بقطع تلك الرسوم من المفكرة ، وأخذها معه الى الشاطىء ، ولم أدر ماذا كان يتوقع أن يكتشف فيها ، ولكنه على كل حال لم يعدها الىّ قط • لقد كانت تلك الايام غير مناسبة لسفر الاوروبيين وتجولهم في انحاء المعمورة ، وكان العرب يلاحظون تلك الحركات والتصرفات التي كانت تصدر عن الايطاليين ، ويسخرون منها • وقد سمح لي فيما بعد أن أنزل وأتجول في المدينة نهارا ، الا أن « نجدي » كان يقسم أغلظ الايمان بأن سبعة من الشرطة السرية كانوا في أثري بشكل دائم •



وقد أشعرني ذلك بأهميتي ، الا أني كنت أشك في ذلك ، كما أنه لم يكن بامكانهم أن يلاحظوا شيئا غريبا في تصرفاتي • لقد أعجبتني موقاديشو ، فقد كانت مدينة نظيفة ، منظمة ، جميلة ، ومزدهرة •

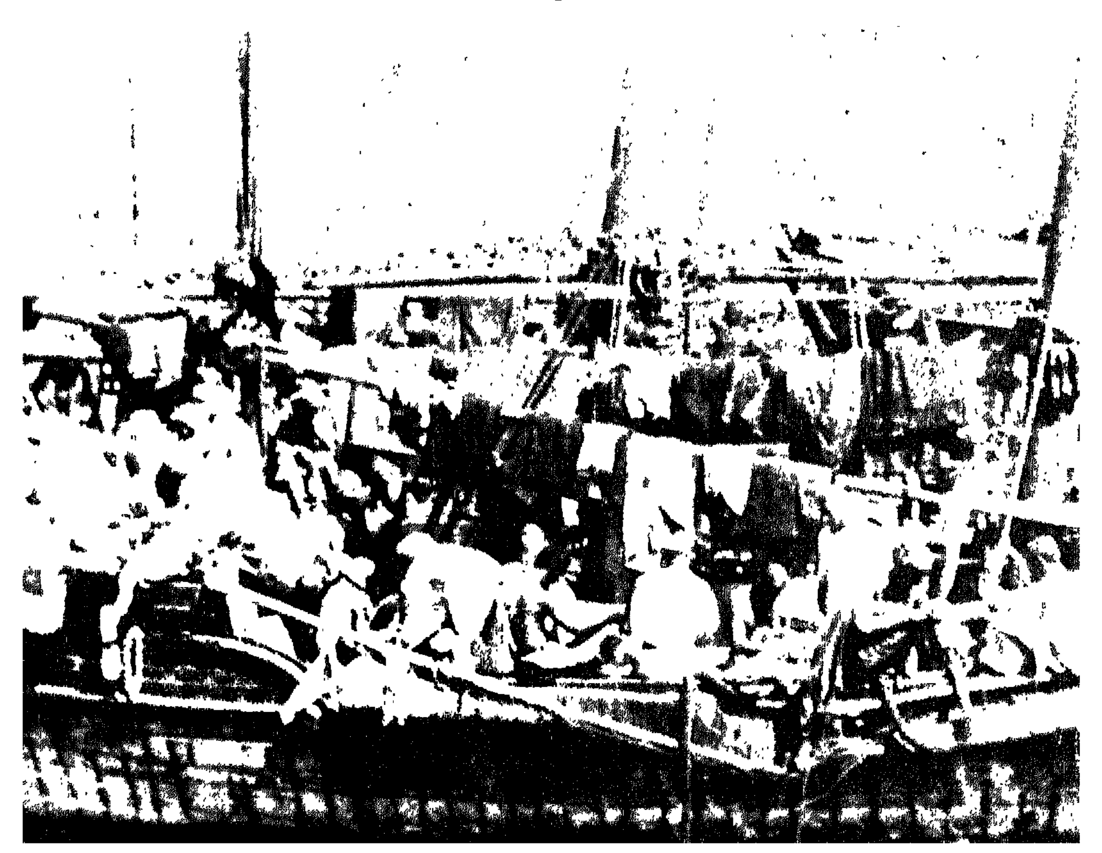
وفي احدى جولاته التفتيشية الاخرى على ظهر المركب ، اكتشف الموظف نفسه صرة من البضائع اليابانية في صندوق اسماعيل الموسيقي ، فأخذها معه وهو مزهو بانتصاره العظيم • ولو كان يدري حقيقة الامر ، لما تولاه ذلك الشعور بالنصر • فقد كانت تلك الصرة حصيلة ما اتفق الجميع على التضحية به لكي يعثر عليه ذلك الموظف الغبي ، فيشعر بأنه أنجز شيئا هاما ، لأنه لو لم يجد شيئا على الاطلاق فسيظل في ريبة من أمرنا • ولم تكن تلك البضاعة التي اكتشفها الا جزءا يسيرا جدا من البضائع الحقيقية ، التي كان بعضها قد أنزل الى البر خلسة وجرى التصرف بها من قبل ، بينما أخفي الجزء الآخر تحت قاعدة القمرة الكبيرة ، في ذلك المكان الرهيب من المركب الذي لم يكن أحد من الاوروبيين يجرؤ على النزول اليه • وعندما حمل الموظف تلك الرزمة من البضاعة لنقلها الى البر ، أخذ اسماعيل يحتج بصوت عال جدا ، بل انه بالغ في ذلك لدرجة اني حسبته جادا في تصرفه ، وتابع التمثيلية الهزلية بأن نزل الى الشاطىء ، وذهب الى مكتب الجمرك ليطالب برد الرزمة على أساس انها كانت مرسلة الى ممباسا ، لا الى موقاديشو • ولا شك أنه قد أصيب بالدهشة فيما بعد ، عندما ردت اليه البضاعة قبل اقلاع المركب بساعات قلائل •

وهكذا لبثنا في ميناء موقاديشو يوما بعد يوم ، رغم أني لم أدر لبقائنا سببا سوى بصيص من الامل بالتخلص من عدد آخر من الركاب ، ربما يصل الى المائة • وكان سعيد وماجد وبقية الزمرة قد ظهروا ثانية ، كعادتهم ، بعد أن سمح للمركب بدخول الميناء ، وتم تدقيق اوراق الركاب واحصائهم ، وبدأوا في الحال يمارسون عمليات التهريب • وكانت الظروف هنا مؤاتية جدا لمثل هذا العمل ، فقد كان المركب يقف بحذاء الرصيف تحيط به المراكب من كل جانب ، كما كان هناك اتصال مع الشاطىء ، بواسطة القارب الطويل طوال النهار • وعلى الرغم من أنه كان عليهم أن يمروا من بوابة ، يقوم عدد من الحراس الايطاليين والصوماليين بحراستها حراسة يقظة ، لأنها كانت الطريق الوحيد من الرصيف الى المدينة ، الا أن جماعتنا كانوا كلما نزلوا الى البر يخفون تحت ملابسهم أعدادا كبيرة من الوزرات ، وأحزمة النقود ، والعطور ، والسجائر العدنية ، والعمائم الجديدة ، وأنواعا أخرى من البضائع •

← المهربان ماجد وسعيد

وكما كان الحال في حيفون ، فقد، كان من الممتع أن يرقبهم المرء وهم يعدون أنفسهم للنزول الى البر · فقد كانت قطعة من قماش الشراع معلقة بعرض الجزء الخلفي من المؤخرة ، وكان الهدف الظاهر منها منع الاقذار المتطايرة من السطح الرئيسي من الوصول الى المؤخرة ، أما الغرض الحقيقي منها فقد كان التغطية على تلك المؤتمرات التي كانت تنعقد ليلا ، الا أن جماعة المهربين كانت تستفيد منها أيضا كستار ممتاز يخفي استعدادهم للنزول الى البر · وقد كان سعيد هنا أكثر دقة في استعداداته مما كان يفعله في حيفون · فكان دائما يرتدي ثلاثة أثواب ، وثماني وزرات على الاقل ، ويربط مزيدا من الوزرات حول ركبته · وبغض النظر عن المكان الذي كان يتخلص فيه من تلك البضاعة على البر ، فقد كان دائما يحتفظ بثوب قديم وعمامة عتيقة يعود الى المركب وهو يرتديهما · وكان أحيانا يقوم بست رحلات كل يوم ، يستخدم فيها القارب الطويل المحمل بما هب ودب من البضائع والخردوات ، وكان مساعده محمد يجلس دائما في المقدمة، ولم يحدث مرة واحدة أن عبر كلاهما البوابة معا ، بل كان كل منهما يذهب الى السوق بمفرده ، وسرعان ما يعود وهو يرتدي الثوب المهلهل والعمامة القديمة · ولم استطع أن أفهم بسهولة كيف يواصل هذان القيام بتلك

الركاب في موقاديشو



الرحلات دون أن يثيرا الشك في أمرهما . الا أن يوسف الذي كان يقـوم بأعمال مشابهة ، أفهمني بأن القضية كلها كانت تتوقف على دفع الرشوة المناسبة .

ولكن لم تكن هذه هي القصة باكملها ، فقد كان سعيد يقع أحيانا في أيدي واحد من حراس البوابة يشك في أمره ، فيطلب منه خلع ملابسه ، ويصادر جميع البضائع التي يحملها ، ويضربه أيضا . وفي مثل هذه الحالات كان سعيد يعود الى المركب فورا ، وهو قلق ولكنه غير تائب ، بل ولم يكن ذلك يمنعه من أن يحمل نفسه بالبضائع في الحال مرة أخرى . وكان يقول ان الايطاليين لم يكونوا قادرين على تمييز عماني من آخر ، وكان هـذا صحيحا ، أما الصوماليون فقد كانت « أمورهم مدبرة » ، ولذلك لم يكونوا يشكون به ويزمرته . وكان أمره ينكشف أحيانا مرتين في اليوم الواحد ، ولم يكن يبالي بذلك ، ما دام قد استطاع تهريب الشحنات الاربع الاخرى ، التي كانت تدر عليه ربحا كافيا .

لقد كانت جميع تلك البضائع تذهب الى السوق المحلية . فقد أخبرني يوسف أن كل تاجر هناك تقريبا كان مستعدا لعقد أية صفقة ، وأن كـل بائع متجول في السوق كان مستعدا لشراء جميع البضائع المهربة التي يمكنه الحصول عليها . فقد كانت الرسوم الجمركية عالية جدا والصوماليون فـي فقر مدقع ، كما كانت القيود التي كان الايطاليون مرغمين على فرضهـا على التجارة ، بأمر من حكومتهم ، تجعل من التجارة الشرعية العادية أمرا مستحيلا .

كانت عمليات التهريب تتم على نطاق واسع في موقاديشو ، ولم تكن تقتصر على الخردوات ، فقد لاحظت أن بعض السجادات العجمية التي كانت تنزل الى الشاطىء لم تكن تعود منه . وكان جميع من على ظهر المركـب يقومون بنوع من التهريب ، باستثناء الطباخ والنجار والركاب البدو ، الذين لم يكن لديهم المال الكافي للقيام بمثل هذا العمل ، وكذلك كان الحال على ظهر المراكب الاخرى . ولكن الامور زادت عن حدهـا ، وأخـذ التجـار ، الذين كانوا مرغمين على المتاجرة بالبضائع المشتراة بالطريقة الشرعية ، يحتجون على عمليات التهريب ، مما حدا بالايطاليين بعد أسبوع أو اسبوعين أن يصروا على تفتيش كل عربي يدخـل من البوابة ، ولكن هذا لـم يكن اجراء كافيـا لمنع عمليات التهريب ، فقد كانت هناك طرق ووسائل أخرى للقيام بها . ولم تمض علينا خمسة أيام فى مقاديشو حتى أتانى محمـد العماني ، وأخبرني انه قد انتهى من تهريب بضاعته كلها ، الا أنه كـان

يتذمر ويشكو من أنهم قبضوا عليه مرتين متلبسا بالجرم المشهود ، وكان واضحا من كلامه أنه كان يشعر بالظلم الشديد حتى لو لم يقبض عليه سوى مرة واحدة ٠

أما الناحية الاقتصادية التي كانت عمليات التهريب تتم على أساسها ، فقد كانت ـ حسبما استطعت أن أعلم ـ كما يلي : بعد أن يقضي واحد من أولئك الرحالة المغامرين ، مثل صاحبنا سعيد ، سنة أو سنتين عاطلا عن العمل لا يفعل شيئا سوى التمتع بنسائه في بلده الاصلي ، « صور » ، يحزم أمره ويتجه الى عدن أو مسقط ، وغالبا ما تكون أولاهما ٠ وهناك يشتري سلعا بمبلغ ثلاثمائة او اربعمائة روبية ، يحصل عليها نسيئة في الغالب ٠ وكان من الطبيعي أن يفعل سندبادنا هذا العمل بالنسيئة ٠ ونظرا لعدم توفر النظام المصرفي ، فهو يعتبر النسيئة طريقة لكسب الرزق باستعمال أموال الآخرين ٠ وكان يوزع ذلك المبلغ بعناية كبيرة على تلك السلع التي يعرف أنها تعجب الصوماليين والسواحليين ، كالوزرات ذات الالوان الزاهية ، والعمائم وغيرها من أغطية الرأس ، والأحزمة وما شابهها ٠ وكان يفضل تلك الخردوات لان لها سوقا دائما ، ولأن من السهل حملها وتهريبها ٠ ثم يركب أحد المراكب العربية ، على أن يدفع الاجرة فيما بعد ، ان كان ذلك ممكنا ، وان كان كثير من الربابنة الكويتيين يرفضون أخذ هذا النوع من الركاب ، لانهم كانوا ينافسون تجارة المركب من ناحية ، كما أنهم كانوا كثيرا ما يقصرون عن دفع أجرة السفر من ناحية أخرى ، ولذلك فلم يكونوا من النوع المرغوب فيه ٠ وعندما يجد سندبادنا مركبا يقبل ربانه أن يأخذه معه ، يتجه الى أفريقيا ، قانعا بالامكنة التي يتوقف المركب فيها ، وقائما بعمله التجاري ، حيثما وكلما أمكنه ذلك ٠ فقد كانت بضائعه معه وكان يأكل مما يقدمه المركب من الطعام ، وكان يعرف طريقه جيدا ٠ فقد كان قد سافر الى تلك الاماكن من قبل ، ولم يكن اسمه يدون في قائمة الركاب أو في أي ورقة رسمية من أوراق المركب ، ولم يكن يحمل جواز سفر ، كما لم يكن يرغب في أن يتعرف عليه أحد ، أو في اثبات وجوده في أي سجل ، كل ذلك لكي يجعل من عمله التجاري عملية سهلة ٠ وفي كل ميناء يرسو فيه المركب ، كان يعتبر واحدا من البحارة ، فلم يكن الاوروبيون يميزون عمانيا عن الآخر ، كما لم يكن هو يخشى أن يشي به أحد من جماعته ٠ وبما أنه كان يمر بجميع الموانىء مرورا ، ولا ينزل رسميا الى البر في أي منها ، بل ولم يكن له أي وجود رسمي على الاطلاق ، فلم يكن يطلب منه أن يقدم أمتعته للتفتيش او ان يثبت وجوده في أي مركز رسمي ٠ الا أنه كان يقوم ببيع بضاعته عن طريق التهريب بشكل منظم دقيق في كل من تلك الموانىء ٠ فهو يعرف جميع التجار ويعرف لمن يبيع سلعه ، بل انه كان يبيع بعضها بالعمولة ، ويقوم



رفع العارضة

أحيانا بنقل البريد والرسائل خلسة ، فهو دائما مستعد للقيام بأي عمل تجارى ، وهو أهل لذلك تماما · وكانت رحلته تستغرق حوالى ثمانية أشهر أو تسعة كل سنة ، يحصل خلالها من البضاعة التي كلفته أربعمائة روبية ، على ربح صاف يقدر بألف روبية · وهذا عمل جيد ، الا أن عليه أن يتحمل بعض الخسائر أحيانا · فاذا كان يشتري بالدين ، فان عليه أن يبيع بالدين أيضا · وعندما كانت الاموال النقدية تتوافر لديه ، كان ينفقها بكرم وسخاء ، وكثيرا ما كان يبددها بغير حساب · ولذلك فان من المشكوك فيه أن يكون ربحه الصافي وفيرا على الرغم من نسبته العالية · فلو كان يوفق في تجارته كما ينبغي ، لأمكنه بعد بضع سفرات من هذا النوع أن يتقاعد ويبقى على البر ، الا أن أحفاد السندباد هؤلاء لا يفعلون ذلك أبدا ، أو على الاقل لا اعتقد أن أمثال « سعيد » يفعلون ذلك · وقد كان على أي من هؤلاء أن يسلف الآخرين ، ولا بد أنه كان يخسر بعض المال بسبب ذلك أيضا ، ولذلك فانني أشك في أنه كان يربح الكثير ، فقد لاحظت أن كثيرا من وقت هؤلاء كان يضيع في محاولة جمع الديون المستحقة لهم من رحلات سابقة · وكان من الواضح أن التهريب ، مثله في ذلك مثل باقي الاعمال التجارية العربية ، كان يعتمد على أساس الدين ·

حتى نجدي نفسه كان له قسط وافر من عمليات التهريب ، وكـــان يهرب أحجبة النساء المصنوعة في الهند • وبما أنه نوخذة كويتي ، فلم يكن ينزل الى مستوى التهريب الفعلي ، بأن يقوم بحمل السلع الى الشاطىء بنفسه ، فقد كان العمانيون الصوريون يقومون بهذا العمل نيابة عنه • ولعل هذا هو سبب كثرة الصوريين بين ركاب الدرجة الاولى على ظهر « فتح الخير » ، وان لم تكن أسماؤهم تظهر على قوائم الركاب التي يحصيهـــا الايطاليون • ففي كل صباح ، بعد أن تؤدى صلاة الفجر ، ويتناول الجميع طعام الفطور من الخبز ، كان يعقد اجتماع في المؤخـــرة يحضره دائمـــا الصوريون أنفسهم ، ويهدف الى نفس الغرض دائما • فقد كانوا يتحادثون ويدخنون ، ويتصايحون قليلا ، ثم يغادرون المركب محملين بنفس الأنواع من البضائع • وفي كل صباح تقريبا ، لا بد من أن يكون هناك خلاف على أمر ، يكون في العادة متعلقا بما حصلوا عليه من بيعهم البضائع في اليوم السابق • ولم يكن جميع هؤلاء العمانيين بحارة ، بل كان كثيـــر منهـــم يساعدون في أي عمل يطلب منهم ، وهم يسافرون على متن المراكب الصغيرة كالجلبوت والسمبوك والبغلة ، ويرتزقون مما يستطيعون الحصول عليه في رحلاتهم السنوية هذه الى افريقيا • ولم يكن معهم من المال ما يساعدهم على شراء البضائع وبيعها لحسابهم الخاص ، ولذلك كانوا مستعدين للعمل مع الكويتيين على أساس العمولة • الا أن يوسف الشيرازي العجوز كـــان يكرههم ويقول دائما انهم ليسوا أهلا للثقة ، ولذلك فقد كان يقوم بانزال بضاعته الى البر وتسويقها بنفسه ، كما كان يفعل بقية البحارة ، الا عددا قليلا يظلون على مؤخرة المركب ويعنون بالأشرعة • لقد كان هؤلاء العمانيون مجموعة قذرة ، يرتدون عمائم قذرة جدا ، وجلابيب بنية اللون ، كانت تبدو كأنها لم تغسل منذ أنشئت مدينة صور ، كما أن كثيرا منهم كانـــت عيونهم ملتهبة ، وكان العمى الجزئي منتشرا بينهم •

وبين هؤلاء المهربين الصوريين كان ماجد ، ذو الوجه الذي تبـــدو عليه آثار الجدري ، شخصا بارزا وان لم يكن محترما ، وكان هو المهرب الرئيسي لنجدي • وكان هذا قد اشترى رزمة كبيرة من أحجبة النســـاء الملونة من أحد أسواق بومباي (في الهند) في رحلة سابقة • وقد كانت أشكالها غريبة وألوانها السائدة هي الاحمر والاسود • ومع أنها لم تكـــن جذابة في نظري ، ومع أني لم استطع ان أفهم كيف يمكن أن يقوم أحـــد بارتدائها ، الا أنها كانت ، على ما يبدو ، تعجب النساء الصوماليـــات ، وتباع بأسعار جيدة في السوق • وكان نجدي يحمل معه مئات منها • وكانت الطريقة التي يتبعها ماجد لتهريب هذه الاحجبة هي أن يدس أكبر عدد منها في داخل حاشية جلبابه العريضة ، وأن يلف ثلاثا أو أربعا منها داخـــل عمامته ، وأن يحشو جيوب سترته الواسعة بدستة أو اثنتين منهـــا ، وأن

يربط عشرين او ثلاثين أخرى في حزام ذي ثلاث طبقات أعاره اياه نجدي •
وبعد أن يحمل نفسه بكل هذه البضاعة ، كان ماجد ينزل الى البر كل صباح ، وينزلق خارجا من البوابة • ولم يحدث أن قبض عليه مرة واحدة ، فقد كان يخرج من البوابة كطلقة المسدس ، وسرعان ما تراه قد وصل الشارع ، يسير فيه وهو واثق من نفسه ، مزهوا بها ، وينطلق كالسهم الى حيث يريد • ولست ادري كيف كان يستطيع أن يسير حافي القدمين على أسفلت الشارع ، في ذلك الحر الصادر عن شمس المنطقة الاستوائية ، ولكنه كان يفعل ذلك وكأنه شيء طبيعي • ولم أعرف المكان الذي كان ماجد يذهب اليه عندما يصل السوق ، كما أني لم أكن ابالي ، فلم يكن الامر يعنيني ، ولكنه لم يكن يتأخر في التخلص من أحماله والعودة الى المركب • بل انه كان في بعض الايام يهرب دفعتين من البضائع ، الا انه في العادة كان يكتفي بدفعة واحدة ، وربما كان هذا سبب عدم الارتياب فيه أو القبض عليه • ولا شك أنه كان رجلا يستوقف النظر ، حتى بين زملائه من العمانيين ، بوجهه الناحل ، وشكله الوسيم الرائع ، على الرغم من آثار الجدري على وجهه • وقد كان من السهل أن يتذكره المرء ، اذا حدث أن جذب الانتباه ولو مرة واحدة • الا أنه كان يبدو بالنسبة للايطاليين كأي نوخذة عماني آخر ، ولذلك كانوا يسمحون له بالمرور في كل مرة • ولكني واثق أنهم كانوا يستطيعون تمييزه بعد أن يعبر البوابة أول مرة ، الا أنه كان يعرف جيدا كيف يتصرف ، وقد استطعت أن أسمع نجدي يقول في اليوم الثالث لوصولنا الى موقاديشو أنه لم ير انسانا يستطيع أن يصرف له البضاعة بمثل تلك الكفاءة •

الا أن « نجدي » بدأ ، في اليوم الثامن ، يتساءل متى سيتسلم الدفعة الاولى من ثمن الأحجبة • فقد كان ماجد يتجاهل هذا الجانب من العملية حتى الآن ، وكل ما كان يفعله هو أن ينزل البضاعة الى السوق ، ويعود دون أن يأتي معه بأية نقود • وقد كان لديه دائما تفسير مقنع لعودته خالي الوفاض • ولكن بمضي الوقت لم تعد تلك التفسيرات قادرة على اخفاء حقيقة الامر ، وهي أن ماجدا لن يأتي بأية نقود على الاطلاق •

وكانت جميع الاحجبة قد أنزلت الى السوق الآن ، وأصبح من الواضح أن بضعة ألوف من الليرات قد طارت في الهواء • وعندها بدأت المشاكل • وذهب عبد الله ، شقيق نجدي ، الى السوق ليحقق في الامر ، وعندما عاد أخبر أخاه بأن التاجر الذي كان يشتري البضاعة من ماجد قد دفع ثمنها جميعا ، الا أن ماجدا انكر ذلك بشدة وعنف ، واعتبره اهانة كبيرة له • ولكن مشادة كبيرة جدا استمرت حتى ساعة متأخرة من الليل • وما كان

يؤلم نجدي انه أئتمن ماجدا على بضاعته وماله ، وما دام هذا مسلما فلم يكن ينتظر منه أن يخون الامانة قط • ولكن ماجدا ، على اسلامه ـ لم يعد شيئا من النقود • وحوالى منتصف الليل ، عندما بلغت المشادة والصراخ أوجهما ، أمر ماجد بمغادرة المركب في الحال ، ففعل ، وهو لا ينقطع عن الصراخ • الا أنه عاد في الصباح ، بكل وقاحة ، ليأخذ أمتعته ، التي كانت تتألف من صندوق معدني صغير ، قديم ، محطم ، وقطعة من بطانية ملفوفة بحصيرة سواحلية • وقد غادر المركب ثانية ، وهو يحمل متاعه ، ويواصل الصياح والادعاء بالبراءة التامة أمام الجمع المحتشد من المراكب الاخرى ، واستقل قاربا تابعا لاحدى البغلات القريبة التي استطاع أن يلجأ اليها •

ولم يذهب ماجد وحده ، بل غادر المركب معه بقية المهربين العمانيين وهم ، سعيد وزمرته ، والصبي محمد ، وحملوا معهم كل ما يملكون • وقد طردوا جميعا لأنهم تظاهروا بالفقر ، وامتنعوا عن دفع أجور سفرهم ، بعد ان مضى عليهم شهران وهم يأكلون من طعام المركب ، وبعد أن سافروا معنا مسافة ألفي ميل • وقد جن جنون نجدي من موقفهم هذا ، وأمر بتنظيف المركب من العمانيين جميعا • ويجب أن أعترف بأنه ، اذا كان نجدي قد خسر بالفعل أجور سفر هؤلاء جميعا ، فلا بد أن يكون هناك خطأ في الاسلوب الذي يتبعه نجدي في ممارسة أعماله التجارية ، او على الاقل في التعامل مع العمانيين من أهل صور • فقد كان مع سعيد مبلغ كبير من الليرات الايطالية ، رآه الجميع وهو يعدها ، كما كان معه عندما غادر المركب كثير من البضائع • أما لماذا لم يصادر نجدي بعض ما يملكه سعيد مثلا ، أو لماذا لم يشبعه ضربا الى أن يدفع ما عليه من المال ، فهذا ما لم استطع فهمه • وكل ما أعلمه أن هذا النوع من الاجراء المباشر لم يكن أسلوب نجدي في التصرف •

وعندما فاتحت يوسف الشيرازي في الامر ، قال انه يكفي أن يفقد العربي سمعته الطيبة ، وأن تصبح أمانته موضع الشك ، وأضاف أن جميع من على الشاطىء سيعلمون بأن سعيدا وماجدا قد خانا الامانة ، وأن سمعتهما ستصبح سيئة جدا ، الا انه اعترف أن تلك السمعة لم تكن حسنة في يوم من الايام • وقد خيل الي أن الاثنين قد تمكنا من التملص من الدفع بسهولة كبيرة ، ودون أن يصابا بأي ضرر ، بعد عملية نصب واحتيال واضحة كل الوضوح ، وأنه ما كان ينبغي أن يسمح لهما بذلك • وقد اكتشفت فيما بعد أن محمدا الذي كان دائما يدعوني بصديقه العزيز جدا ، كان من نفس النوع ايضا • فقد كان أيضا ينزل بضائع الكويتيين الى

البن ، ولكنه لا يعود بالمال ، الا أنهم واصلوا الوثوق به مؤقتا ، وبقي في مرقاديشو ليجمع المال بعد أن وعد بدفع المبلغ المستحق عليه اما في مومباسا أو في زنجبار . وقد التقينا به مرة أخرى بالفعل ، الا أننا لم نر أثرا للنقود .

لقد كانت تجارة خاسرة في نظري . فاذا أخذنا بالاعتبار الخسائر التي منينا بها في ميناء حيفون ، وعدم تمكننا من التخلص من التمور الفاسدة ، واضطرارنا لمبادلة الارز العدني بسمك حيفون ، واضاعة الوقت في محاولتنا التخلص من الركاب ، ثم الخسارة التي أصابتنا على أيدي المهربين العمانيين ، لا أستطيع أن أفهم كيف كانت الرحلة مربحة جدا ، كما سمعت . صحيح أن بقاء البدو وغيرهم من الركاب على ظهر المركب لم يكن يكلفنا شيئا غير الازعاج ، كما أن من الممكن ، على الرغم من خسارة نجدي لثمن الاحجبة النسائية ، أن بقية أعمال التهريب كانت مرضية .

لقد افتقدت ماجدا العجوز ، الذي كان شخصية رائعة مميزة ، على الرغم من كونه نصابا كبيرا ، وقد سمعت منه كثيرا من القصص والحكايات الممتعة عن بلده صور . ولو كانت معرفتي باللغة العربية أفضل مما كانت عليه ، لعرفت منه الكثير عن تلك المدينة ، ولكني ، بمعرفتي السطحية بتلك اللغة ، لم أعرف الا بعض الامور عنه شخصيا . فقد كان هو ايضا نوخذة في يوم من الايام ، الا ان سمعته السيئة بالنسبة لمعاملاته التجارية أفقدته المركب تلو الآخر ، الى أن توقف الجميع عن تسليمه مراكبهم ، فاضطر أن يصبح سندبادا متجولا من مكان الى آخر على طول الشاطيء يحاول تحصيل قوته بذكائه ودهائه ، لا بعرق جبينه . فلم يكن يملك شيئا من المال ، ولن يملك منه شيئا أبدا ، الا أنه كان يعرف طريقه على طول الساحل الشرقي لافريقيا ، والساحل الغربي للهند ، كما كان باستطاعته أن يعمل مرشدا على نهر الروفيجي ، وفي جزيرة كومورو ، وعلى ساحل مدغشقر وفي خليج كرتش . وكان معه آلتان لقياس الارتفاع ، كلاهما ملتويتان لا يوثق بهما ، وليس في أي منهما مكان مخصص للعين ، كما كان معه خريطة للمحيط الهندي يرجع تاريخها الى عام ١٧٤٦ . وقد حاولت مرارا أن احصل على هذه الخريطة الاثرية منه ، ولكني لم اوفق في ذلك رغم أني عرضت عليه ثلاث خرائط جديدة بدلا منها . وقد كانت خريطته القديمة مزينة بالخط العربي ، ومبينا عليها العلامات الفارقة ، والمسافات والمعلومات الاخرى التي كانت لها أهمية بالنسبة للبحار العربي . وكان ماجد يتكلم السواحلية والفارسية والهندوستانية وعدة لهجات هندية أخرى ، وشيئا من الصومالية بالاضافة الى لغته العربية ، كما كان بامكانه أن يسب

ويشتم باللغة الانكليزية بشكل جيد ، الا أنه لم يكن يعرف معنى ما يقول . لقد افتقدت ماجدا العجوز ، فقد كان صديقا جيدا . وكنت أعتني بقدميه المتقرحتين ، وأعطيه الحبوب الطبية لعلاج الامساك المزمن الذي كان يقاسي منه . وقد تناسى طبعا ان يعيد لي العلبة الكبيرة التي كنت أحفظ فيها تلك الحبوب ، كما احتفظ بمحتوياتها ، ولكن لعله اعتبر ذلك هدية مني . وكان كثيرا ما يحادثني باطناب في مواضيع دينية لم أكن أفهم منها حرفا واحدا ، ولم يكن مطلوبا مني على كل حال الا أن أهمس بكلمة « طيب » كلما توقف لالتقاط أنفاسه ، وقلما كان يفعل ذلك ، وكلما سمع تلك الكلمة كان يبتسم ويأخذ نفسا طويلا ثم يتابع الحديث . فقد كنا منسجمين تمام الانسجام ، وعندما غادرنا الى غير رجعة ، شعرت بخسارة كبيرة للمركب ، ولكن لعلي كنت الوحيد الذي خامرني ذلك الشعور .

ولم تكن مشاكل نجدي في موقاديشو قد انتهت بعد . فقد كان بعض الركاب لا يزالون يعتبرونه مسؤولا عن جلبهم الى موقاديشو ، وعدم تمكنه من انزالهم الى البر . وقد حدث مرتين أن قابلته وفود غاضبة من الحضارمة المولدين ، محتجين على الوضع الذي هم فيه . الا أن هذا الامر لم يكن يزعجه كثيرا ، فلم يكن بامكانه أن يفعل شيئا ، ولم يكن هو السبب في ذلك الوضع . ولو علم أنه سيواجه صعوبة في انزال الركاب الى البر ، لما قبل أن يسافروا معه أصلا . وعلاوة على ذلك فلم تكن المشكلة حادة جدا ، فكما كان يقول ، بامكان هؤلاء الركاب أن ينزلوا في كينيا أو زنجبار . فما الفرق بين أي من هذين البلدين وبين موقاديشو بالنسبة لهم ؟

ثم حدث شيء لم يسبق له مثيل ! فقد تمردت النساء ! وكانت عدة اسابيع قد مضت وأولئك النساء التعيسات مسجونات في القمرة الكبيرة . فقد كنا في شهر فبراير ، وكان النساء هناك منذ شهر ديسمبر ، وقد تعجبت لماذا لم يتمردن من قبل . ولم يكن أي منا يشاهد واحدة منهن قط ، وكانت الايام تمر دون أن يفكر بهن أحد ، الا اذا توفيت احداهن مثلا . وكان يوسف هو الوحيد الذي كان ينزل الى ذلك المكان الجهنمي المظلم ، ويخرج منه محملا ببعض ما هو مخزون فيه ، وكنت الاحظ أحيانا شيئا من القلق في عينيه . أما بالنسبة للنساء ، فقد كانت أجور سفرهن مدفوعة ، وها هن قابعات هناك . فلم يكن الايطاليون يرغبون في نزولهن الى موقاديشو أو الى أي مكان آخر ، ولم يكن بامكاننا أن نفعل شيئا لهن سوى الانتظار وسوى أن نأخذهن معنا الى كينيا . وقد كان من المفروض أن تستسلم النسوة لمصيرهن، ولا شك أن معظمهن كن مستسلمات فعلا ، ومع ذلك فقد قمن بتمرد في أحد الايام ، وكان هذا أمرا لم يسمع به من قبل .

وقد اخترن الوقت المناسب للقيام بثورتهن · ففى ذلك اليوم كنا نقيم وليمة على ظهر المركب بمناسبة عيد الاضحى المبارك ، وكان طعامنا يتألف من خروفين كاملين ، كما أن جزءا من مؤخرة المركب كانقدجرى تنظيفه · وعندما انتهت الوليمة ، جلس نجدى على بعض الوسائد المصفوفة حول المقعد الطويل ، وعليه سيماء الهيبة والوقار ، وأنفه الاقنىشامخ فى الهواء ، جلس يتجاذب أطراف الحديث الجاد بهدوء مع عدد من الربابنة الفرس والعمانيين القادمين من مراكب أخرى ، وعدد من أقارب أصحاب المراكب الذين كانوا مدعوين للوليمة · ولاول مرة كان اسماعيل يعزف لحنا هادئا على قيثارته دون أن يغنى ، كما كانت النارجيلة تنتقل من فم الى آخر ، وكان الجميع يشعرون بالهناء والسعادة ، بعد أن امتلأت بطونهم بالأرز واللحم · بينما كان البدو وبقية الركاب نائمين على السطح الرئيسى وعلى الصناديق· لقد كان نجدى فى أوج تألقه وانبساطه ·

وفجأة ، ودون سابق انذار ، فتح باب القمرة الكبيرة الضخم بعنف محدثا دويا هائلا ، وانطلقت النسوة منه الى الخارج · يامصيبة المصائب ! ماهذا الذى نراه !! لقد كان نجدى يواجه أعتى الصعوبات والمشاكل دون أن يطرف له جفن · الا أنه أمام هذا الجلل أرتج عليه ، وفزع لحظة حتى كادت قصبة النارجيلة تسقط من يده ، ولكنه سرعان ماتمالك نفسه ، وجلس هادئا يحدق فيما يجرى أمامه · أما الآخرون فقد أصيبوا بصدمة ، واختل توازنهم لحظات ، ثم أخذوا ينظرون الى الحادث بوقار وبرود · وقد خرجت من الباب أولا تلك المرأة البدوية الضخمة ، التى كانت قد زودت يوسف بالحليب اللازم ليغمس فيه عينيه المريضتين ، ثم تبعتها بقية النسوة ، وكانوا كلهن من العجائز المتقدمات بالسن · وفى الحال بدأت البدوية تصيح بأعلى صوتها ، ولم تتوقف قط ، بل تابعت الصراخ دون أن تلتقط انفاسها ، ولم تفه بكلمة لطيفة واحدة · فقد كانت تسأل أسئلة بصوت عال جدا ، ولاتنتظر لتسمع الاجابة · وكانت تجدف وتشتم وتلعن وتزعق الى أن امتلأ الميناء كله بالناس ، وجميعهم ينظرون الى نجدى ، الذى لا بد أنه كان يشعر بالحرج والانزعاج ، على الرغم من أنه حافظ على صمته التام ، وظل ينظر الى المشهد بوقاره وهيبته المعتادة · ولايمكننى أن أعيد هنا ما كانت المرأة تقوله، ولكن خلاصة كلامها كانت واضحة · فقد كانت قد حجزت مكانا لها على ظهر المركب للسفر الى موقاديشو · وهاهى فى موقاديشو · فما الذى ، بحق السماء ، كان يبقيها على ظهر المركب ؟ من غير نجدى ؟ وكان هذا ، وكثير كثير غيره هو الذي كانت تصيح به،يتخلله طبعا الكثير من السباب الفاحش· وقد كانت بقية النسوة يقفن حول البدوية ، ويبدين موافقتهن ، على الرغم من صعوبة النفاذ الى وجوههن من خلال تلك الاحجبة السميكة ، لرؤية

مشاعرهن الحقيقية • لقد كن جميعا من البدو اللواتى يرتدين البرقع الذى يلبس فى الصحراء ، وكانت عيونهن تقدح شررا ، وبين الفينة والفينة كان ثلاث أو اربع منهن يشتركن مع الاولى فى ذلك الموشح الفظيع •

وبعد ربع ساعة من هذه الثورة العارمة ، اضطرت المرأة القائدة الى التوقف قليلا لالتقاط أنفاسها المبهورة ، وعندها تمتم نجدى قائلا : — طيب — وقد فهمت من ذلك ، أو افترضت أنه يعنى ، موافقته على كل ماقالته المرأة • الا أن هذا لم يهدىء من سورة غضبها ، بل أخذت تكيل له الشتائم بقوة وعنف أكثر من السابق ، حتى أنه بدا لى كأن واحدة أو اثنتين من تلك النسوة ربما لجأت الى العنف • ولكنى كنت مخطئا فى ذلك • فقد أسأت فهم النساء العربيات ، كما أسأت تقدير الرجال العرب ، فلم يظهر هناك أى أثر للعنف على الاطلاق • بل انه عندما وصلت الامور الى الحد الذى تقوم عنده أية امرأة عادية من نساء البلدان الباردة بقذف كل ما يقع تحت يدها ، توقف كل شىء فجأة • فقد قالت النساء مايردن قوله ، وكان هذا ، على مايبدو ، كل مايردن أن يفعلن • فقد كن بحاجة الى الطعام ، وكن يردن معرفة التاريخ الذى سيقلع فيه المركب ، كما كن يرغبن فى معرفة المكان الذى يمكن انزالهن فيه • وقد أجاب نجدى بصوت هادىء عميق أن الطعام سيوفر لهن فى الحال ، وأنه سيقلع في صباح اليوم التالي وأنهن سينزلن الى البر في ميناء لامو وهى المحطة التالية ، فان لم يتيسر ذلك ، فـان من المؤكد أنه يمكن انزالهن فى مومباسا • وقد أضاف الى ذلك قائلا انه يتعهد بأن يوصلهن الى هناك فى مدة لاتزيد عن أسبوعين •

لقد اهتز نجدى اهتزازا شديدا لهذا الحادث الذى لم يحدث مثله من قبل ، حتى أنه اقلع بالفعل فى صباح اليوم التالى ، مع أنه لم يكن ينوى أن يفعل ذلك من قبل • ولكن الظرف لم يكن ظرفا عاديا •

الفصل الثامن

زيارة ميناء لامو

زيارة ميناء لامو

لقد سبق رحيلنا من موقاديشو حادث سبب لنا كثيرا من الفزع • فبعد أن كان موظفو الميناء الايطاليون قد سمحوا لنا بالرحيل ، شوهدوا وهم يعودون الى المركب فجأة بعد فترة قصيرة جدا من استرجاعنا العملات الايطالية ، وعودة الركاب غير المسجلين من مركب فارسى يرسو بجوارنا • وكان هذا أمرا خطيرا ، لان النتيجة ستكون وبالا علينا ، لو امسكوا بنا ونحن نحاول تهريب العملة الايطالية الى خارج المستعمرة • ولذلك فقد كان نجدى يرقب الحراس الصوماليين والموظفين الايطاليين ، وهم يصعدون الى المركب ثانية ، وقلبه مملوء بالفزع ، الا أنه لم يبد شيئا من ذلك ، بل حياهم بهدوء ووقار تامين • ولابد أنه قد شعر بمنتهى الراحة ، عندما اكتشف أنهم كانوا قادمين فقط للبحث عن عربي من برافا ، يبدو أنه سمح له خطأ بمغادرة البلاد • وقد عثروا على ضالتهم ، وساقوا الرجل معهم الى الشاطىء ، الا أن وقتا طويلا مضى على ذلك ، قبل أن يجرؤ نجدى على استعادة الليرات الايطالية من جرة السمن ، التى كانت قد القيت فيها على عجل ، وخزنت بالطريقة المناسبة تحت القمرة الكبيرة • أما ركابنا المهربون ، فقد كانوا في مرح وحبور ، لأننا لم نكن قد أبحرنا بعد ، وكان بامكانهم دائما أن يتظاهروا بأنهم زوار من مراكب أخرى • وما داموا جميعهم قد دخلوا البلاد بطريقة غير شرعية ، ودون أي سجل يدل على ذلك ، فقد كان من العبث أن يضيع الموظفون وقتهم ليسمحوا لهم رسميا بمغادرة البلاد • وقد كان العرب دائما يعمدون الى تخفيف العبء الملقى على كاهل موظفي الموانيء الاوروبيين ، بابعاد مثل هذه المشاكل المزعجة عنهم • ويجب أن اعترف بأن هذا النظام كان يعمل بشكل ممتاز ، فلم يكن لدى أي من ركابنا المهربين أية وثيقة تدل على هويته ، وما فتئوا يجوبون المحيط الهندي طولا وعرضا ، وهم على هذه الحال منذ سنوات طويلة ، وقد خيل الي بأن من العار أن يعترض أحد سبيلهم أو يوقف تجوالهم الآن •

غادرنا الميناء قبل طلوع النهار ، والقمر الكامل في آخر مراحل المغيب ، خلف ابراج كتدرائية موقاديشو • وعندما طلع النهار ، ونحن في عرض البحر كانت السماء مغطاة بالغيوم ، وكان البحر عاليا ، رغم أن الريح لم تكن قوية • وقد أصيب الركاب من البدو بدوار البحر مرة ثانية ، وكانت التعاسة بادية على وجوههم ، الا أنهم كانوا ، على ما يبدو ، قد نسوا خيبة

أملهم لعدم السماح لهم بالنزول في موقاديشو ، وأصبحوا الآن يتطلعون شوقا للنزول الى البر في المحطة التالية التي سيقف فيها المركب ، بغض النظر عن ماهية تلك المحطة ٠

وقد خرجنا من الميناء مع سمبوك صغير لا يستحق الوصف لما كان عليه من وضاعة وفقر حال لدرجة لا يمكن تصورها ٠ فقد كان يبدو أنه لم يزيت منذ أن بني ، بل وربما لم يسحب الى الشاطيء مرة واحدة لتنظيفه من الاقذار العالقة به ٠ أما اجزاؤه الخلفية فقد كانت مجموعة مضطربة بائسة من خشب الزان الملتوي ، والمثبت بعضه ببعض بشكل سيء للغاية ٠ وأما أسفله ، فقد كان مغطى بالطحالب والحشائش المترعرعة عليه ٠ وكانت صواريه متشققة ، ومدعمة بالحديد في عدة أماكن منها ، كما كانت حباله الرئيسية ، المصنوعة من القش المجدول ، تتألف من قطعة واحدة طويلة رثة ٠ أما الشراع ، الذي كان المركب ينشره ، فقد كان قديما وباليا ورثا لدرجة جعلتني أشعر بأن مجرد نشره يمكن أن يودي به كلية بتمزيقه اربا اربا ٠ كما كانت البكرات القليلة المتوافرة عليه قديمة ومحطمة ، وجوانبه العالية تبدو وكأنها يمكن أن تتهدم وتسقط الى الداخل في أية لحظة ٠ وكان طوله حوالى ستين قدما ، بسطح واحد متصل فيما عدا سدة صغيرة مثبتة على الجزء الخلفي من المؤخرة فوق عجلة القيادة ٠ كما كانت الرائحة النتنة ، المنبعثة من زيت السمك ، ومن السمك المتعفن المكدس في مخزنها ، رائحة كريهة للغاية ٠ أما البحارة فكانوا مجموعة من الرجال القذرين ، الذين يرتدون الوزرات الملطخة بالزيت ٠ بينما كان الركاب يتكومون باسمالهم البالية على السطح ، حول قاعدة الشراع المزيني ، وكان عدد هؤلاء حوالى عشرين شخصا ، كما كان على السمبوك بعض النسوة أيضا ، وكانت الترتيبات المعدة لهؤلاء بدائية للغاية ٠ فلم يكن على ذلك المركب أية قمرة في المؤخرة ، أو أي مكان مقفل يمكن فصله عن بقية أجزاء المركب ٠ ولذلك فقد كان النسوة يعشن في ملجأ مؤقت ، ان أمكن اعطاؤه هذا الوصف ، مبني حول صندوق المرحاض الخاص بهن ، وكان هذا يبرز الى خارج المركب من جهة الجانب الايسر ، ولكنه كان مغطى بقطعة من الخيش القديم ٠ أما سور ذلك الملجأ الذي كان النسوة يعشن في داخله ، فقد كان مصنوعا من الحصير ، تساعده هنا وهناك قطع من القماش المشمع الممزقة ، وكان هذا كفيلا بابقاء النسوة بعيدا عن الانظار ٠ ولم تكن مساحة تلك الخيمة بكاملها تزيد عن عشرة أقدام مربعة من ذلك السطح غير المستوي ٠ الا أن يوسف قال لي أن خمس نساء على الاقل كن مكدسات في تلك المساحة الصغيرة ، وأنهن ما زلن في ذلك المكان منذ ركبن المركب في ميناء صور ، وأنهن متجهات الى زنجبار ٠ أما مكان الطبخ ومعداته ، فلم تكن تزيد عن صندوق رملي مكسر مع بضعة حجارة ، أي أنها كانت أكثر

بدائية من موقد « الشيخ منصور » • واما القارب الطويل على ظهر المركب فلم تكن قوته وتماسكه تعادلان ما تتمتع به آلة الاكورديون الموسيقية من القوة والمتانة •

لقد عجبت لا لمقدرة ذلك المركب على الابحار من صور الى موقاديشو فحسب ، بل أيضا للسماح له بالابحار على الاطلاق • الا أني رأيت فيما بعد مراكب أسوأ حالا بكثير (وكنت أعجب كيف تستطيع السفر) ، لأنه مهما كانت ظروف الملاحة ، التي كان العرب يبحرون فيها خلال رحلاتهم الصيفية الى أفريقيا ، مؤاتية بل ومثالية ، ومهما بلغ صفاء البحر وهدوءه في الايام العادية ، الا أن من الممكن أن تغرق بعض المراكب أحيانا في تلك المياه • فعندما كنا راسين في ميناء موقاديشو ، كان هبوب الريح يشتد في بعض الايام ، ويرتفع البحر خارج الميناء بشكل أعتقد أنه يمكن أن يولد المتاعب لمراكب بالية كذلك السمبوك العماني • ولكني ، احقاقا للحق ، يجب أن أضيف هنا أن معظم المراكب التي كنت أراها قادمة من ميناء صور العماني كانت بحالة جيدة ، بل ان بعضها كان رائعا •

تابعنا ابحارنا على امتداد الساحل ، ومررنا قريبا من موانىء « ماركا » و « برافا » ، ولكنا لم نتوقف في أي منهما ، فقد كان نجدي قانعا بما استطاع أن يناله من الايطاليين ، وكان يعتبر أن خروجه من موقاديشو ، بكمية من العملة الايطالية — لم أعلم كميتها ولكن لا بد أنها كانت كمية كبيرة — ، وبعدد من الركاب المهربين ، كان كافيا ، ولذلك فلم يكن من الحكمة أن يزور موانىء ايطالية أخرى ، خاصة أنه لم يكن هناك مجال للاتجار معها • وهكذا تابعنا سيرنا بهدوء وأمان باتجاه الجنوب الغربي ، وعلى يميننا تمتد صحراء الصومال المقفرة ، بينما كانت الرياح الموسمية تهب بلطف • وقد عبرنا ميناء « ماركا » قبل الظهر ، كما شاهدنا أنوار « برافا » بعد الغروب بقليل ، وكان القمر بدرا ينير طريقنا والرياح أشد قليلا من ذي قبل •

كانت الامسية جميلة ، والمركب يخيم عليه الهدوء التام ، والقمر المنير يرسل أشعته الفضية من خلفنا ، فيرسم ظلالا جميلة للصواري والحبال على الشراع ، كما كان اهتزاز المركب ايقاعيا هادئا • وعلى مؤخرة المركب ، كان الاطفال والتجار في سبات عميق ، بينما كان البحارة يتكومون في القارب الطويل ، وقد غطوا رؤوسهم ، ولكنهم متحفزون للعمل في أية لحظة • أما في نهاية المؤخرة تماما ، حيث كانت تقوم دكة الضباط ،فقد كان نجدي يجلس في مكانه المعتاد ، وقد لف رأسه بكوفيته ، وجسمه

بعباءته ، وهو يدخن النارجيلة ، ويشترك فى حديث جدى هامس مع «السيد» القادم من المكلا ، ومع التاجر ابي علي ، بينما كان عبد الله ، ذلك الانسان الغامض ، يستمع • وكان عبد الله هذا هو العماني الوحيد الذي ظل على ظهر المركب ، من بين جميع أولئك الركاب الاوائل الذين رافقونا منـــذ بداية الرحلة ، ولم أدر سببا لذلك • فربما لم يسمع بهجـرة الركـــاب العمانيين من على ظهر المركب فى ميناء موقاديشو الا فى وقت متأخر جدا لم يتح له الذهاب معهم ، بل ربما كان لديه سبب غامض جعله لا يكترث لذهابهم • أما ذلك « السيد » المكــلاوى فقد كان قــد نزل الى البر فـــى موقاديشو مرتديا ملابس العمانيين ، وذلك فى اليوم العاشر على رسونا هناك ، ولم يعد الى المركب الا بعد أن كانت السلطات قد سمحت لنـــــا بالابحار ومغادرة الميناء •

وصلتنى بعض كلمات نجدى ، وأنا متكىء على سجادتى أحلم أحلاما لطيفة ، وأراقب حركة المركب • لقد كان موضوع حديثه نفس الموضـــوع القديم ، وينحصر معظمه فى أوضاع اليابان ، وفى عيوب الاوروبيين • وحسبما فهمت من كلامه ، كان نجدى يعتقد بأن عالمنا قد بلغ حدا كبيرا من السوء والفساد ، وكان أمله يتركز فى انتشار الاسلام فى اليابان • لقــد كانت آراء نجدى مزعجة وغير مطمئنة ، الا أنه كان من الممتع أن يستمــع الانسان الى الطريقة التى يعرض فيها آراءه تلك ، الا أنه كان من المؤسف أن يكون نجدى يتحدث لغة عربية ممتازة بالمقارنة بالبحارة ، حتى أنى كنت أجد صعوبة كبيرة فى متابعة كلامه وفهمه ، وكثيرا ما كان أسبوع كامل يمر على قبل أن أفهم احدى النقاط التى كان يثيرها • لقد كان الالمـام الجيد باللغة العربية يتطلب دراسة جدية لمدة لا تقل عن ثلاث سنوات كاملة، بينما كانت الفرصـــة التى أتيحت لى لاتعلم ما أستطيع تعلمه من اللغـــة العربية لا تزيد عن ثلاثة أشهر • وقد تابع نجدى حديثه الهادىء ، بينمـــا كان الآخـــرون يرددون كلمة « طيب » بشـــكل متواصل ، وحوله الصـــارى الرئيسى يصر ، والشراع ممتلىء بالهواء ، وفوقنا القمر يرسل أشعته على الكون كله • وكنت وأنا أستمع الى نجدى ، وأنظر الى ما حولى ، أتساءل عما اذا كنا نحن الاوروبيين ، رغم تبجحنا بمـــا وصلنـــا اليه من التقـــدم والتطور ، ورغم احتقارنا لمثل هذا المركب المتواضع ، قـــد سبقنا كثيرا أمثال نجدى ، من البحارة العرب الواضحى الرؤية ، الذين كانوا يجوبون البحار الشرقية • وقد ظلت هذه الفكرة تؤرقنى ، بينما تابعت الاستماع الى نجدى وهو يواصل حديثه الهادىء المطمئن ، وحفيف المياه حول المركب يبعث فى النفس الراحة والسكينة •

وفى اليوم الثانى على ابحارنا زادت قوة الريح بعض الشىء ، وفى

هذا اليوم مررنا بجثة رجل عائمة على سطح الماء ، ووجهها الى أسفل ، وهى ملفوفة بحصير من سعف النخل ، تحيط بها الاسماك • وقد شاهدتها بعد وجبة الافطار ، أي عند القيلولة • فبينما كنت انظر الى البحر من أحد جوانب المركب الذى كان يحيط به الزبد ، اذا بها تبرز أمامى • لم ألفت انتباه أحد الى ذلك سوى يوسف ، الذى أفاد بأنها لا بد أن تكون جثة أحد الركاب المتوفين ، ألقى بها من أحد مراكب « الباطنة » المكتظة بالركاب ، لتجد مثواها الاخير فى البحر • وأضاف بأن ذلك أمر عادى مألوف لا يثير الاهتمام ، لان كثيرا من الركاب كانوا يلقون حتفهم • فالبوم الصغير مثلا، الذى رأيناه فى ميناء حيفون فى موقاديشو ، لا بد أن يموت عشرة من ركابه على الاقل قبل أن يصل الى زنجبار • وكانت معظم تلك الوفيات طبيعية • أما اذا انتشر الجدرى على ظهر أحد المراكب ، فانه يقضى على عدد أكبر بكثير • الا أن هذا المرض لم يعد شائعا هذه الأيام ، مع أنه كان كثير الانتشار فى الماضى • وكان قد انتشر قبل عدة سنوات فى مدينة الكويت فقضى على الالوف من سكانها •

وكان هذا آخر عهدنا بتلك الجثة ، التى كانت تطفو وتغطس بين الاسماك المحيطة بها فى البحر ، دون أن يلحظها أحد من ركابنا •

وقد أخبرنى يوسف أيضا ، بغير مبالاة ، أن « بوما » صغيرا آخر ، من أقدم المراكب العاملة ، يحمل على متنه ستين راكبا ، كان فى أحد الايام العاصفة قد جنح الى الشاطىء ، فى نقطة تقع شمال مدينة « ورشيخ » ، وذلك أثناء وجودنا فى موقاديشو ، فلم ينج الا عدد قليل من ركابه• ولم يكن يبدو على يوسف كثير من التأثر ، وهو يروى هذا الخبر الهام والخطير، فقد كانت هذه عادة العرب عند اعلانهم مثل هذه الانباء • وعندما سألت يوسف : « أليس تحطم مركب مكتظ بالركاب أمرا خطيرا ؟ » أجاب بالنفى اذا كان الامر يتعلق بأحد مراكب « الباطنة » ، فلم تكن تلك المراكب صالحة للابحار أصلا ، ولذلك فلم يكن أحد يهتم كثيرا بما يحصل لمركب صغير ، فاذا أراد الله جل جلاله أن يغرق أحدها فلا بد أنه يفعل ذلك لحكمة لا يعلمها الا هو ، ولذلك فقد كانت مثل هذه الامور متوقعة الحدوث • ويجب أن أضيف هنا بأن ذلك لم يدهشنى •

كانت الرحلة من موقاديشو الى « لامو » خالية من الاحداث المثيرة • ولم أكن متأكدا من أننا ذاهبون الى لامو ، الى أن بلغنا قبالة ذلك الميناء فى مساء اليوم الثالث ، وكانت الظروف مؤاتية ، فدخلنا اليه • فلم يكن نجدى قد ذكر أننا ذاهبون الى ذلك الميناء بالتأكيد ، الى أن أصبحنا هناك ،

على الرغم من أنى رأيته فى اليوم السابق يتفحص خريطة لما كان يعتقد أنه ميناء «لامو» • الا أن الواقع أن تلك الخريطة كانت لميناء آخر هو «دارنفورد»، وعندما بينت له ذلك لم يبد عليه الارتياح ، بل علق على كلامى قائلا ان الخرائط جميعا لا فائدة منها على كل حال ، وأنه يعرف طريقه جيدا • وكنت قد لاحظت أن طبيعة الشاطىء الافريقى قد تغيرت بعض الشىء جنوب ميناء « كيسيمايو » ، فقد طرأ عليها بعض التحسن ، بحيث أصبحنا نرى بعض الاشجار على طول الشاطىء للمرة الاولى منذ عدة أسابيع •

هدأت الريح فى صباح ذلك اليوم ، ولكن ذلك لحسن الحظ لم يستمر طويلا ، لانه عندما كانت الريح تهدأ ، كانت حرارة الجو ترتفع كثيرا ، وكانت الروائح الكريهة المنبعثة من السطح الرئيسى ومن البئر الواقع خلف الصارى الرئيسى ، والذى كان ينزح منه ماء البحر الآسن ـ كانت تلك الروائح تظل معلقة فى جو المركب بدلا من آن تبددها الريح ، فتجعل الحياة جحيما لا يطاق • فعلى الرغم من قضائى عدة شهور على سطح المركب ، فانى لم أستطع قط أن أتعود على رائحة الماء الآسن • لقد أمضيت وقتا طويلا شاقا فى البحر • فقد عملت على ظهر مراكب صيد الحيتان ، وفى مراكب نقل الحبوب التى كان ماء البحر يتسرب اليها باستمرار ، الا أن رائحة الحيتان النتنة ، ورائحة الحبوب المتعفنة بسبب ماء البحر ، كانت عطرا لطيفا بالمقارنة برائحة ماء البحر الآسن ورائحة البدو المسافرين على ظهر أحد المراكب العربية •

وعند العصر ، هبت ريح شمالية شرقية خفيفة ، أخذت تزداد شدة • وعندها تمكنا من تغيير اتجاهنا والتقدم نحو شاطىء لامو الرملى ، وكان ابحارنا فى المساء ، فى ظروف ملاحية ممتازة • ولكن دخولنا الى ذلك الممر المائى ، الذى يوصل بسهولة ويسر الى بلدة لامو اللطيفة ، كان مثيرا للسخرية ومماثلا لما حصل لنا عندما قطرنا القارب الى داخل ميناء مقاديشو • فقد كان عبد الله ، أخو نجدى ، يتولى قيادة الدفة ، وهو يسترق « نفسا » من نارجيلته ، كلما واتته الفرصة المناسبة ، دون أن يقف على قدميه ، لكى يتمكن من الرؤية الجيدة • وصادف أن كان المؤذنون يتبارون أكثر من أى وقت مضى ، فى دعوة الناس لصلاة المغرب • وسرعان ما امتلأت مؤخرة المركب بالمصلين ، فلم يعد بامكان قائد الدفة أن يرى شيئا على الاطلاق ، كلما قام المصلون من سجودهم منتصبين ، وهم يتمتمون بصلواتهم ، ويعتمرون عمائمهم ، ولم يكن بامكان البحارة أن يسمعوا الأوامر بأى حال من الاحوال • وهكذا دخلنا الميناء من الجانب الصعب ، وكان احتمال تعرضنا للخطر كبيرا ، فقد كان الاهتمام فى وقت الصلاة ينصب

على الاتجاه الصحيح للقبلة أكثر مما يتركز على الملاحة السليمة • ولكن نجدى كان يعرف الميناء معرفة جيدة • وهكذا تمكنا من الرسو قبالة لامو فى ماء يبلغ عمقه ثلاث قامات ، فى الوقت الذى كان فيه القمر يبزغ ناشرا أشعته الفضية على تلك الارض المنخفضة •

لقد كانت قيادة نجدى للمركب الى داخل ميناء لامو من أكثر أحداث الرحلة كلها امتاعا ودلالة على الخبرة والقدرة ، فقد كانت مزيجا من الصلاة ، والوضوء ، والاوامر الى قائد الدفة ، وابتهاج الركاب ، وقيام البحارة بواجباتهم المعروفة استعدادا للوصول •

كان المدخل الى ميناء لامو مبينا بوضوح عن طريق العلامات الخاصة بذلك • وكان هذا المدخل عبارة عن ذراع بحرى يمتد بين لامو وبين جزر « ماندا » ، كما كان الميناء نفسه مملوءا بالاماكن الضحلة ، ولذلك فان المركب الذى لا تحسن ادارته سرعان ما يجد نفسه مرتطما بالارض • أما نجدى ، فلم يكن يعير العلامات الخاصة أى اهتمام ، لانه كان يعرف طريقه، وكان يعتمد على النظر وعلى خبرته السابقة • وقد لاحظت أن جميع الربابنة العرب كانوا يفعلون ذلك حتى فى أسوأ الظروف والاماكن مثل نهر الروفيجي (وهذه أفضل طريقة للملاحة في مثل هذا النهر) • وكان احد العوامل التي عقّدت الموقف أننا وصلنا الى أصعب أجزاء ذلك المدخل المتعرج فى الوقت الذى كانت الشمس تميل فيه الى الغروب ، ولم يكن بالامكان تأخير الصلاة مهما كانت الظروف ، فبدأ المؤذنون يؤذنون للصلاة فى الحال ، وأحدث هذا ضجة كبيرة ، الا أن ذلك لم يكن الا البداية فقط • فقدبدأ الجميع فى الحال يستعدون للصلاة بالوضوء الذى بدونه لا يمكن لمؤمن أن يؤدى الصلاة فأضاف هذا ضجة الى ضجة • وزاد الطين بلة أن حمدا بن سالم تقدم الى مكانه المعروف في المقدمة ، ووقف موليا وجهه شطر المسجد الحرام يؤم المصلين ، ويرتل القرآن بصوته الموسيقي الجميل ، وقد طرح جميع امور الدنيا وراء ظهره • وكان يقف خلفه ذلك الشيخ الضرير ، وسط صف طويل لا يقل عدد أفراده عن خمسة عشر شخصا يضم بعض البحارة ، وقواد الدفة ، والبدو والماليزيين • ووراء هذا كان صف آخر يملأ جميع الفراغ الموجود بين صناديق الامتعة • بينما كان آخرون يقفون على الصناديق ، وفي القوارب وعلى خزانات الماء وفي كل مكان آخر • ولأننا كنا على وشك الوصول بسلام الى ميناء في كينيا ــ بحسب ظنهم ــ فقد كانت صلاة الركاب اطول ، وأعلى صوتا ، وأشمل من المعتاد ، وانضم اليها عدد كبير من أولئك الركاب الذين كانوا في العادة يؤدون صلاتهم على انفراد • وبما أن من الضروري أن يكون أمام كل من المصلين مسافة

للركوع والسجود بحيث تمس جبهته الارض ، فقد احتلت الصلاة مساحة كبيرة من سطح المركب ٠

ما كاد المركب يدور ويضبط اتجاهه للدخول الى المدخل المؤدي للميناء ، حتى أصدر نجدي أمرا سريعا جدا لأخيه ، ثم أدار ظهره قبل أن يرى ان الامر قد تم تنفيذه ، فقد كان عليه أن ينزل من فوق سدته الى سدة صغيرة على الجانب الايمن من المؤخرة ، حيث يوجد وعاء مملوء بماء الاغتسال ، وذلك لكي يتوضأ استعدادا للصلاة ٠ وعندما فعل ذلك ، لم يعد بالطبع يستطيع أن يرى الى أين يتجه المركب ٠ ولكن لم يبد عليه الانزعاج لهذا الامر ، فقد كان يعرف أن أخاه عبد الله كان قد زار ميناء لامو سابقا ، وان كانت تلك هي الزيارة الوحيدة ، ولذلك فهو يعرف طريقه أيضا ٠ (وكان عبد الله قد أخبرني مرة أنه لا ينسى شيئا يراه ولو مرة واحدة فقط ، وكان هذا أمرا مطمئنا ، وان لم استطع دائما أن أشاركه الرأي) ٠ وبين الفينة والاخرى كان نجدي ، وهو يغسل وجهه بماء البحر ، يرفع رأسه الاسود ، الذي أزيح عنه الغطاء بشكل جزئي (فلم يكن نجدي يكشف رأسه كله قط) ، ويصيح بأمر جديد لا يسمعه ، بالطبع ، أحد ٠ فيضطر لاصداره مرة أخرى بصوت أعلى ، وعندما يجد أن أحدا لم يسمعه هذه المرة ايضا ، كان يصعد من مكان وضوئه ويصيح بالامر مرة أخرى بأعلى صوته ، وأخيرا كان عبد الله يستجيب قائلا « ان شاء الله » كالعادة ، ويطيع الامر بقليل من الاكتراث ، وعندها كان المركب ، الذي كان مطواعا جدا لدفته ، ينحرف بالشكل المطلوب في اللحظة الاخيرة ٠

وبينما كانت كلمات « آمين » تصدر بنغمة قوية من المصلين ردا على دعوات حمد في صلاته ، كانت مستنقعات شجر المانجروف تظهر قريبة جدا من المركب ، منذرة بالخطر من الناحية اليسرى ، فيما كانت حفرة في الرمل ترى على الجانب المحمي من الريح ، وسمبوكان عمانيان من ميناء صور يبحران أمامنا وتصدر عن ركابهما نفس التراتيل القرآنية التي كانت تسمع على مركبنا ٠ لقد كان المنظر بدائيا جميلا ، وكان ميناء لامو من النوع الذي كنت أحلم به عندما سمعت لأول مرة عن هذه الرحلة الى سواحل أفريقيا ٠ ثم بدأ الظلام يخيم بسرعة ، كما هو الحال عادة في مثل هذه المناطق الاستوائية ، ولكن ليس قبل أن تبرز قرية « شيلا » الرومانسية ، بمساجدها الخربة وأبنيتها المتهدمة ، على يسارنا ، ونتمكن من رؤية ذلك الميناء الذي كان ، في يوم من الايام الغابرة ، مرفأ هاما ، الا أن الدهر أخنى عليه بكلكله ، فتركه خرابا يبابا ٠ ومع ذلك فقد كان منظر القرية رومانسيا ، وهي تبدو لنا في بقايا النور المنبعث من الشمس الغاربة ،

والمراكب العربية الكبيرة تمر بحذائها ، وأسطحها مكتظة بالأجساد البشرية المكتسية بالجلاليب الداكنة اللون ، وهي ترتل الآيات القرآنية أثناء صلاة المغرب . لقد كان المنظر رومانسيا في نظر أي انسان ، رغم أننا كدنا عدة مرات نلمس بعض الزوايا الخطرة في الممر ، ورغم أني لم أعجب بقيادة عبد الله للمركب ، أو موقفه من المهمة التي كانت موكلة اليه . فقد كان المنظر التالي هو المنظر المألوف خلال تأدية عبد الله لمهمته هذه :

نجدي يصيح بأعلى صوته : الى اليسار ! قليلا الى اليسار !

ولكن عبد الله لا يحير جوابا .

ويسمع حمد وهو يؤم المصلين يردد : أشهد ألا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم يقرأ الفاتحة ، فنسمع جميع المصلين يرددون : آمين .

نجدي يصيح ثانية : الى اليسار ! الى اليسار !

ومرة ثانية لا يسمع جواب من عبد الله ، الذي ينحني ليلتقط نفسا سريعا من النارجيلة التي تركها يوسف هناك ، والجمرات لا تزال مشتعلة عليها . وأخيرا يرفع عبد الله بصره ، فيدرك أن أخاه الواقف في القارب المعتمد على دعاميته ، يصيح بأمر موجه اليه فيجيب . « انشاء الله » ويدير الدفة يمينا أو يسارا ، فى الاتجاه الصحيح عادة ، وفى الاتجاه الخطأ فى أحيان قليلة .

وهكذا كان المركب ينجرف ، والصلاة مستمرة ، والظلمة تدلهم ، فتغطي مستنقعات المانجروف ، ذات اللون الاخضر الداكن في جزيرة « ماندا » على ميمنة المركب ، بينما تظهر أضواء « لامو » من خلف جزيرة أخرى تعترض الطريق في ذلك الممر المائي . وهنا أصبحت الملاحة صعبة ، وقيادة المركب عملية دقيقة ، فقد كان عليه أن يقوم ببعض الانحرافات والدورات الصعبة . ورغم أن « نجدى » كان مشغولا بصلاته التى يجب أن يؤديها فى الوقت القصير الممتد ما بين مغيب الشمس واختفاء ضوء النهار ، خاصة أنه لم يكن هناك شفق فى هذا المكان ــ فقد ألقى نظرة عامة سريعة على المركب ليحدد موقفه ، وما لبث أن صاح بأخيه ، آمرا اياه أن يقف على قدميه بدلا من الجلوس أمام عجلة القيادة . ومع أن ذلك لم يعجب عبدالله ، الا أنه اطاع الامر . وبما أننا أصبحنا على بعد ميل تقريبا من مكان رسونا ، فقد كان على البحارة أن يرخوا حبل الشراع ، وينزلوا العارضة قليلا الى وسط المركب ، ولم يتوان هؤلاء عن تنفيذ الامر ، وهم يهرولون ويهزجون كعادتهم دائما .

وعندها تحول المركب الى فوضى عارمة من الاقدام المتراكـــة ، والاجساد التي تؤدي الصلاة ، والركاب من البدو الذين كانوا يهربون من طريق البحارة بهلع شديد ، لأنهم ان لم يفعلوا ذلك ، وجـدوا انفسـهم مطروحين أرضا ، والاقدام تدوس بطونهم ورؤوسهم • وعندما بدأوا يرخون حبل الشراع الرئيسي ، ارتخى أكثر من اللازم ، بل وانفلت ، وكان عليهم أن يعيدوا تثبيته مرة ثانية • وعلى الرغم من أن الريح كانت مؤاتيـة ، وسير المركب جيدا ، بحيث أصبحنا على بعد ميل واحد تقريبا من المرسى ، فان أحدا لم يكن قد أهتم بالتأكد من أن الحبال الاخرى كانت طرقها سالكة ، أو أن الانشوطات قد فكت من لفات الحبال حول عمود الصاري ، حيـث يوجد الجزءان الرئيسيان اللذان يستعملان لرفع العارضة وخفضها • أما عريف البحارة ، الذي لم يكن قد انتهى من صلاته بعد ، فلم يكن قد تفقد المراسي • ولكن كان أمام المركب مسافة كافية • فأصدر نجدي أمره بانزال الشراع كالعادة ، بحيث يصل الى المرسى والصواري عارية من أشرعتها • وفي الحال اندفع البحارة الى أطراف الحبال ، غير مبالين بالبدو والاطفال والماعز ، وحتى بجاسم الطباخ ، وكان هؤلاء يفرون من أمامهـم بسـرعة البرق • وبينما كان الجميع يهزجون أو يصيحون ، كان يوسف الشيرازى ، وصقر بن حمود ، وسلطان المؤذن ، ومعهم آخرون يصارعون الانشوطات ، ولفات الحبال على الصاري • وفي آخر لحظة ، وقبل أن يصبح الوقـت متأخرا وخطرا ، أفلتت الحبال ببطء ، فبدأت العارضة تنزل وهى تصر صريرا عاليا ، بينما غطى الشراع الهابط المركب بأكمله ، بما في ذلك البدو وهم لا يزالون يؤدون صلاتهم ، وتابع المركب سيره بهدوء باتجاه المكان المحدد لرسوه •

وعندها سمع صوت نجدي وهو يصيح : « أنزلوا المراسي » • وفي الحال ألقي باحدى المراسي التي كانت ، لحسن الحظ ، مربوطة بحبل • ثـم بدأ البـدو المذعورون يبرزون من تحت الشراع بالعشرات ، بينمـا أخذ المصلون على المؤخرة يختمون صلواتهم ، والبحارة يلفون الشراع والجميع يلقون تحية المساء ، بعضهم على بعض وهكذا هدأت تلك الضجة ، التي كانت قد انطلقت ، بسرعة كبيرة • أما عبد الله ، فبعد أن انتهـى عمله على عجلة القيادة ، استأنف تدخينه للنارجيلة ، وأخذ ينفث دخانهـا بهدوء ومتعة واضحة ، بينما طلب نجدي ، الذي كان يجلس القرفصاء خلفه ، انزال القارب الطويل ، كما طلب تزويده بنارجيلة جديدة • وهكذا ارخى الليل سدوله على المركب الذى أصبح كل شيء فيه هادئا الآن • لقد وصلنا الى المرسى •

مكثنا في « لامو » أسبوعا هادئا ، زارنا خلاله تاجر هندي ، أتى ليتفرج

على المركب الذي صنعه النجار ، بغية شرائه . فطلب نجدي ألف شلن ثمنا له ، وان كان مستعدا لبيعه بسبعمائة ، الا أن الهندي وجد فيه عيوبا كثيرة وعرض شراءه بستمائة ، ثم ذهب ولم يعد . وبعد ذلك ببضعة أيام ، أبحرنا نحن أيضا .

« لامو » بلدة جميلة ، تبدو من الميناء مجموعة من البيوت البيضاء الجميلة ، لكل منها شرفات رحبة مقوسة تعلوها سطوح حمراء ، تقوم بين الاشجار على سفح تلة ترتفع ارتفاعا تدريجيا من البحر . وعلى كل جانب من جوانب البلدة تقوم أكواخ السواحليين ، كما تقوم أكوام من خشب المانجروف المختلطة بأشجار النخيل . وعلى طول الشاطىء تنعكس على سطح الماء الهادىء أشكال القوارب الصغيرة من « لامو » و « باجون » ، وهي قوارب مسطحة سريعة قوية ، بالاضافة الى عدد من المراكب العمانية والباطنية والبومات والسمابك والبغلات الصغيرة التى كانت قد وصلت لتوها من البحر .

أما في الداخل ، فان منظر البلدة وما يحيط بها أجمل من منظرها كما يرى من البحر . فطرقها الضيقة تمور بالحياة والحركة ، كما هو الحال في البلدان العربية الاخرى ، والمكان بمجمله مكان ساحر فعلا . وعلى الرغم من أن « لامو » هي ميناء كينيا الشمالي الشرقي ، وهي مستعمرة بريطانية على ساحل افريقيا الشرقي ، الا أن البلدة عربية خالصة . فالمباني والخلفية ، واللغة في الغالب ، والعادات كلها ، عربية ، ونصف الاكشاك في السوق يديرها العرب الحضارمة . أما شوارع البلدة ، فهي أضيق ما رأيت في حياتي ، حتى أنها تكاد لا تسمح لحمار محمل بالماء بالعبور . كما أن البيوت العربية الشامخة ، ذات السطوح المستوية ، يميل أحدها نحو الآخر ، ونوافذها العليا مشرعة ، كأنها ترحب بالزائرين . وكثير منها يحتوي على أبواب محفورة ومداخل مزخرفة بشكل جميل .

وهنا وهناك في بلدة « لامو » ، لا يزال بوسع المرء أن يعثر على بعض كنوز الماضي الغابر ، على صورة قطعة أثرية من الفخار الصيني أو الفارسي ، أو قطعة هندية من الخشب المحفور الرائع أو قطعة سلاح فولاذي من صنع دمشق . فما زالت لامو غير مطروقة كثيرا ، ولم تفسدها يد المدنية . وكنت أرى في بعض الاحيان احدى نساء الحريم ، تمر مسرعة في أحد الأزقة ، وهي ملفعة بالسواد ووجهها مغطى بالحجاب ، ولكن السواد والحجاب لم يكونا من السماكة بحيث تحجبان كل ما تتمتع به من رشاقة وجمال . فقد كان جمال بعض أولئك النسوة أخاذا ، وكان كثير منهن

يضعن في آذانهن وعلى ثيابهن أقراطا من الدولارات الامريكية الذهبية القديمة • فقد كان باستطاعة المرء ، عندما كنا هناك ، أن يشتري الدولارات الامريكية من على شاطيء « لامو » • وكان الذهب الامريكي قد وصل الى هناك قبل نصف قرن مضى ، عندما كانت التجارة الامريكية في السفن الشراعية هامة في ذلك الجزء من الساحل ، كما كانت الولايات المتحدة الامريكية من أوائل الدول لتي عينت قنصلا لها لدى سلطان زنجبار •

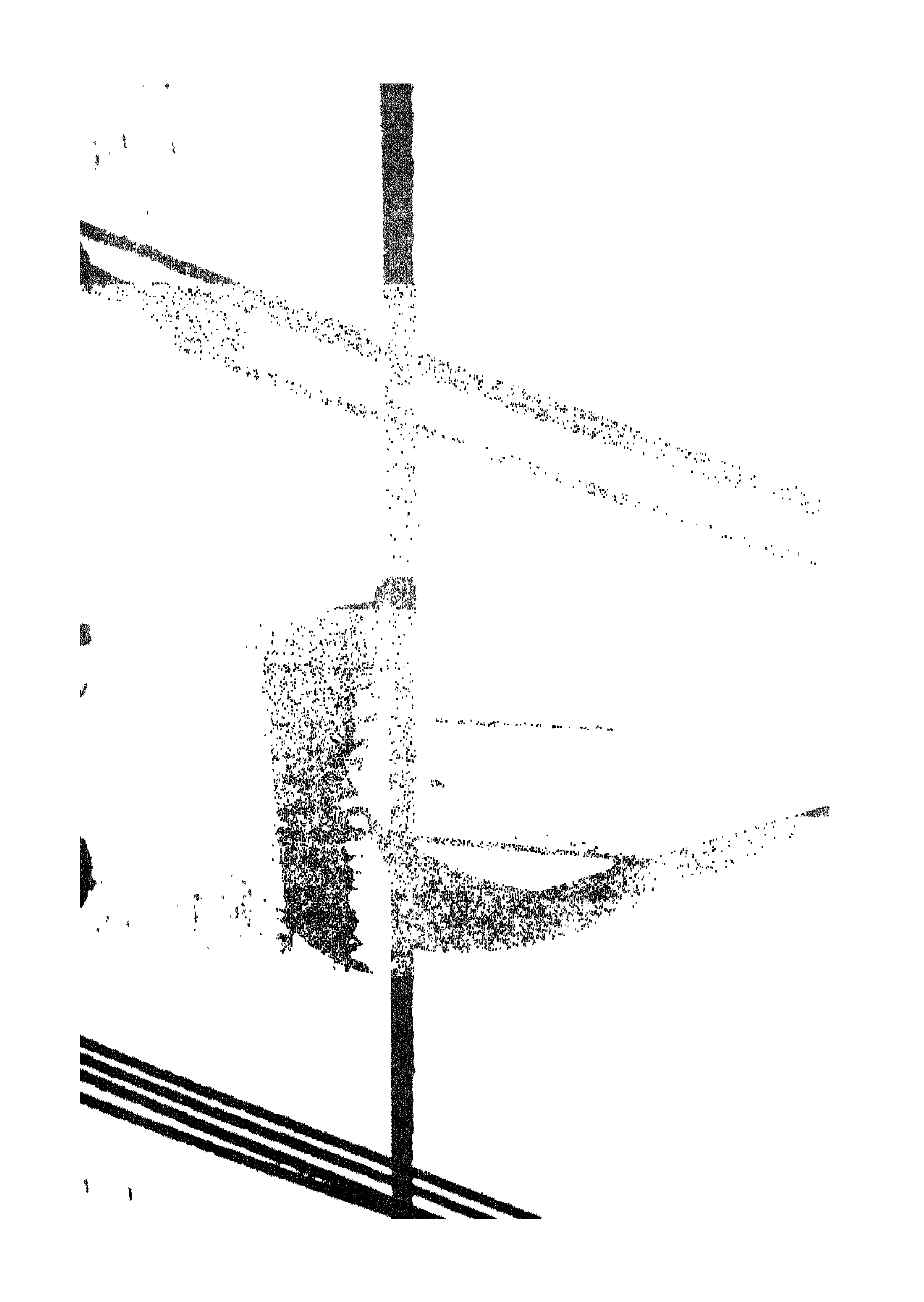
وقد زرت أيضا رصيف بناء السفن خارج البلدة ، حيث كان السواحليون يعيدون بناء أحد المراكب العربية • وكانوا يفعلون ذلك بطريقة بسيطة ، هى أن يقوموا أولا بنزع الاضلاع الخشبية من الداخل ، واستبدالها باضلاع جديدة • وبعد ذلك ينزعون الالواح الخارجية ويستبدلونها بالواح جديدة • وبهذه الطريقة يصنعون مركبا جديدا بنفس شكل المركب القديم • لقد كان الجو حارا على الرمال الذهبية القريبة من البحر ، وكان النجارون يعملون تحت مظلة من سعف النخيل ، وعلى مقربة منهم كانت تنتصب هياكل مراكب عربية من جميع الانواع ، معظمها من نوع قوارب لامو التى تتميز بسطحها المنخفض، وخطوطها الانسيابيةالجميلة، ومقدمتها المدببة المستقيمة ، ومؤخرتها الاوروبية المستقيمة ، وجميع هذه المراكب يقوم العرب ببنائها ، بينما يتجر فيها السواحليون ، الذين يحملون معظم البضائع من الساحل الافريقى الشرقى برمته ، من « جوبا » حتى مدغشقر جنوبا ، ومعظم هؤلاء من مدينة لامو التى تعتبر أهم ميناء وطنى للمراكب العربية على طول ساحل أفريقيا الشرقى ، ربما باستثناء زنجبار• وهناك رواية متداولة فى لامو تقول أن الشكل الاوروبى للمراكب التابعة لها ــ فشكل الهيكل يبدو انجليزيا أكثر منه عربيا ، رغم بقاء الشراع المثلث المعروف ــ يرجع الى بعد نظر أحد السلاطين المحليين ، الذى كان يحكم البلاد قبل خمسين عاما • فقد كان قد طلب من قبطان أحد الطرادات الحربية الانجليزية الزائرة أن يدل نجاريه على طريقة لتحسين المستوى المحلى لصناعة السفن • وفى ذلك الوقت كانت لامو مشهورة بمراكبها القديمة من نوع « المطيبى » ذات الاشرعة الغربية التى تشبه الحصير • وقد كانت تلك المراكب جميلة،ولكنهاكانت قليلة الفائدة،ولم تكن عربية بالتأكيد• وقد اختفت هذه المراكب الان ، وكان آخرها عبارة عن هيكل متآكل ملقى على الشاطيء ، يقف بقربه مركب كويتى جميل ، لابد أنه بنى على ظهر أحد البومات ، كما كان مركب هندى من خليج « كوتش » بالهند يقف هناك أيضا متكئا على جانبه •

وقفت أرقب القوارب الخفيفة الرشيقة ذات الذراعين الممتدين على

الجانبين ، وهى تقترب منا مسرعة حاملة أنواع السمك المختلفة ، كما رأيت أحد القوارب المحلية يعتليه عدد كبير من رجال « الباجون » ، وهم يحملون أوركسترا كاملة من الآلات الموسيقية ، ويعزفون موسيقى وحشية عنيفة • لقد أحببت لامو حبا جما وتمنيت لو أتيحت لى فرصة البقاء فيها مدة أطول لكى أعرف المزيد عنها وعما يحيط بها ، كجزر « البايراله » ، وجزيرتى « باتـا » و « مانـدا » القريبتين بمـا تضمـانه من آثار رائعة ، وشعب « الباجون » الغامض ، وسوق الرقيق الذى كان مزدهرا فيها عدة قرون • فالى هذا المكان ، الى لامو ، أتى الصينيون والعرب والهنود والماليزيون والبرتغاليون والبريطانيون ، وأضاف كل منهم شيئا الى تاريخ المدينة ، قبل أن يختفوا ويذهب كل فى حال سبيله • أما الآن فقد أصبحت لامو بلـــدة صغيرة هادئة ، تعيش مرة ثانية على تجارة الاخشاب والماشية ، ويخيم عليها شىء من الكآبة ، بعد أن انقطع السواح عن زيارتها ، وأصبحت أمجادها فى خبر كان • أما قرية « سيلا » فقد أصبحت أطلالا ، واضمحلت تجارة لامو ، رغم تحسنها فترة قصيرة ، عندما كان الايطاليون يشحنون معداتهم العسكرية عن طريقها ، ليستعملوها في حربهم مع بلاد الحبشة • ولكن هذا توقف تماما الآن ، ولم يعد الايطاليون أو الاحباش يشترون الا الاشياء الضرورية فقط•

تعيش لامو الآن على جوز الهند ، وعلى النقل البحرى ، وعلى الأبقار التى تبيعها لمباسا وبلدان أخرى على الساحل الممتد جنوبا ، بالاضافـة الى أغصان أشجار المانجروف التى تقطع من الاراضى المنخفضة ، وتبـاع للعرب ، لان بلاد هؤلاء خالية من الاشجار ، ولذلك فان أى نوع من الخشب مطلوب هناك•وكان أرخص أنواع الخشب وأقواه وأصلحه للاستعمالات المختلفة هو خشب المانجروف • فطريقة الحصول عليه سهلة ، ولا تزيد عن قطعه من الاماكن التى يتوافر فيها فى المستنقعات ، التى تكثر على طول الســاحل الشرقى لافريقيا ، والتى يترعرع فيها هذا النوع من الشجر • ويبدو أن هناك شيئا فى التربة التى تجرفها المياه من داخل البلاد الى الشاطىء ، يزود خشب هذه الاشجار بالحديد • وقد أثبت الاستخدام الطويل لهـــذا الخشب فى البيوت العربية أنه ذو قيمة كبيرة ، وكانت مقاسات حجر البيوت العربية تتحدد على شواطىء «لامو»•ففيما عدا عدن والبحرين ، كان البيت العربى يبنى عادة من بعض الصخور المرجانية المثبتة معا بالطين والجير ، ويسقف بأعمدة المانجروف (الشندل) ، يفرش عليها الحصير ، ثم تغطى جميعا بالتراب • وقد أثبت هذا الخشب أنه مناسب للبلاد الحارة الجافة ، بالاضافة الى رخص ثمنه •

وعلى طول ساحل «لامو» ترتفع أكوام خشب المانجروف هذا ، ذى اللون



الاحمر ، الناتج عن الصمغ وحرارة الشمس • وكانت مراكب صغيرة جميلة تأتي بالاعمدة من داخل البلاد ، وتفرغ حمولتها على الشاطىء ، فيقوم الحرس السواحليون بتصنيفها ، وعدها ، ودمغها ، بمطرقة الحكومة • وكانت أصوات المطارق التى يستخدمها حرس الاحراش الحكومى شيئا مألوفا طوال النهار ، كما كانت أكوام « الشندل » ترتفع الى أن تصبح أحيانا أعلى من أكواخ السكان من السواحليين •

وخلف الخط الساحلى ، وفى تلك الازقة الضيقة التى تمتد موازية للساحل ، يجد المرء الحوانيت الرومانسية ، حيث يتاجر أصحابها من الرجال السمر اللون بالحلويات التركية والنراجيل وأباريق القهوة القادمة من سوريا ، أو يتعاملون بالسجاد الايرانى والنحاس الهندى • وهنا يمكنك أن تجد صانعى النعال (الصنادل) الذين يصنعون أحذية قوية جدا بأثمان زهيدة للغاية ، كما تجد الحاكة يصنعون القلنسوات الحضرمية ، وصانعى الحصير ، وناسجى الاقمشة ، بالاضافة الى صانعى الحبال ، وبائعى الشراب والفاكهة • وهنا أيضا تقوم الفنادق الوطنية ، التى تبدو دائما جميلة تمور بالحياة والحركة ونوافذها مشرعة للريح ، بينما يجلس نزلاؤها على الدكات الخشبية أمامها ، وهم يدخنون الطباق من النراجيل المقرقرة أبدا ، أو يتناولون أكواب القهوة التقليدية التى تدور عليهم من آن لآخر •

وهناك ترى أيضا بحارة المراكب العربية والفارسية الكبيرة وهم يتمشون منتصبين ، حفاة الاقدام ، وعيونهم شاخصة الى أعلى ، تبحث عن الفتيات اللواتى تمتلىء المدينة بهن ، فقد كانت «لامو» مكانا معروفا فى جميع البلدان الواقعة على شواطىء الجزيرة العربية بأنه مصدر للنساء الجميلات • وقد رأيت « زيدا » ، عبدنا المعتق ، وكذلك جميع عرفاء البحارة وقائدى الدفة والبحارة ، وهم يسيرون فى الطرقات وعيونهم الجريئة تبحث عن الحريم فى الطوابق العليا من الابنية • وحتى جاسم الطباخ، الصغير الجسم، كان يبحث عنهن فى مؤخرة البيوت ، بعد أن فارقته الكآبة •

أما البدو فقد كانوا يحدقون بهذا المكان فى دهشة وذهول ، وهم يتمنون لو يسمح لهم بالنزول فى هذه الجنة على الارض • الا أنهم ، بعد أن جرى عدهم وهم على ظهر المركب ، سمح لهم بالنزول للترويض فقط ، لا للاقامة • وكان عددهم الرسمى فى هذا الوقت مائة وأربعة ، الا أن هذا الرقم الرسمى لم يكن يشمل الجميع بأى حال من الاحوال • وقد تمكنت

مدخل لامو

لأول مرة أن أرى ما يمكن أن يسمى بقائمة الركاب ، وقد لاحظت أن عدد النساء اللواتى يقمن فى القمرة الكبيرة كان يبلغ ثمانى ، كما ظهر فى القائمة أن أربعة وعشرين راكبا قد نزلوا فى الموانىء الايطالية ، وأن اثنى عشر آخرين قد انضموا الينا • أما عدد البحارة فقد بلغ سبعة وعشرين • وبهذا يكون عدد جميع من على ظهر المركب ، عند وصولنا الى لامو ، قد بلغ مائة وواحدا وثلاثين شخصا • الا أن الواقع أن العدد كان يربو على مائة وخمسين • وكان نجدى ورفاقه من العرب يكرهون هذا الاحصاء الرسمى ، حتى أنه لو كان ينوى فعلا أن يقوم باحصاء دقيق فلا بد أن يكون هذا خاطئا ، ولكنه لم يحاول قط ، وكلما زاد الخطأ كان سروره أعظم • فقد كان نجدى يعتبر جميع هذه الاشكال من الرقابة الحكومية تدخلا صارخا ، لا داعى له ، فى حرية البحارة وفى مشيئة الله • ألا يخضع كل ما فى هذا الكون لارادته ؟ لماذا اذاً ، نجهز قوائم الناس على نماذج سخيفة ، ولماذا نحاول أن نسيطر على ما لا يمكن السيطرة عليه ؟ لقد كان كره نجدى لعالم محكوم بالانظمة والقوانين كرها عميقا وشديدا ومستمرا •

وبعد أن تم التدقيق على الركاب ، سمح لهم بالنزول الى الشاطىء • وقد شعرت براحة كبيرة عندما رأيت السطح وقد خلا منهم أخيرا ، ولو بشكل مؤقت • وللمرة الأولى فى تاريخ الرحلة ، أمر نجدى بشطف المؤخرة وتنظيفها ، الا أنه ترك السطح الرئيسى على حاله ، فلم تكن هناك فائدة من تنظيفه ما دام البدو سيعودون اليه بعد ساعات قليلة • وبما أنه لم يسمح للبدو بالنزول الى البر منذ كنا فى ميناء حيفون ، بعد أن منعوا من النزول فى موقاديشو ، لذلك كانوا يتجولون فى طرقات البلدة وكأنهم فى حلم جميل يودون ألا يفيقوا منه أبدا • وكان الموسم ، موسم المانجو وكان كل كشك مليئا بهذه الفاكهة الحلوة المغرية ، وكان العرب يحبونها حبا غير عادى • فقد كان نجدى دائما مستعدا لالتهام عشرين أو ثلاثين حبة منها فى أى وقت، كما كان يأكل كل ما يجلب منها الى ظهر المركب ، بغض النظر عمن يكون قد جلبها الى هناك • وفى واقع الامر أن لامو كانت مدينة ممتازة ، فقد كان السمك والخضار واللحم والفاكهة متوافرة فيها بأثمان زهيدة •

كان التهريب المهنة الرئيسية لبحارتنا وللقلة الباقية من السندبادين المغامرين على ظهر المركب الا أن الكميات التى كانوا يهربونها لم تكن كبيرة• وكما كان الحال فى الصومال الايطالى ، فقد كانت أهم البضائع المهربة تتألف من الخردوات والزجاجات الصغيرة من العطر الرخيص الا أن هذا المكان كان مناسبا جدا لتهريب بعض لفافات التبغ ــ السجاير ــ ، المشتراه بأسعار زهيدة من عدن ، ففى عدن ، على مايبدو ، عدد من المصانع التى تصنع سجاير رخيصة

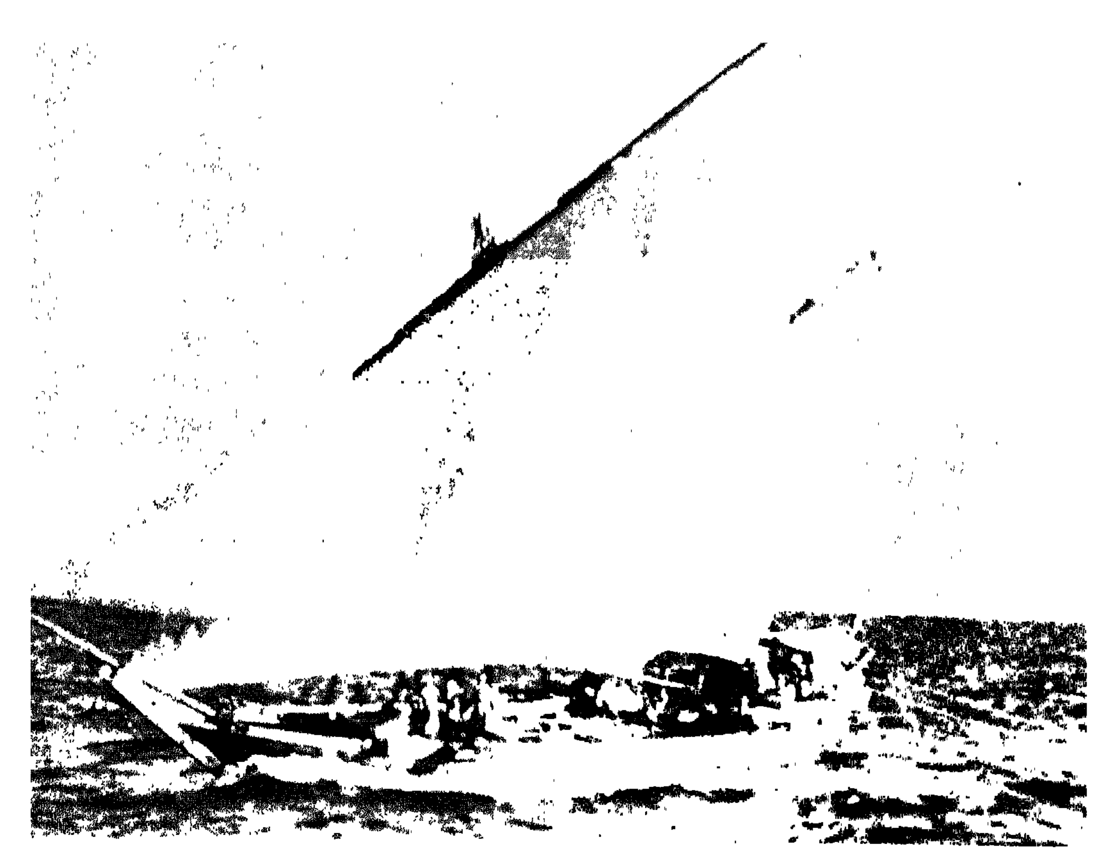
تحمل أسماء تشبه أسماء السجاير المعروفة عالميا ، ويمكن شراؤها من عدن ببضع روبيات لكل ألف منها ، بينما تفرض سلطات شرق افريقيا عليها رسوما جمركية عالية • ولذلك فقد كانت هذه البضاعة مثالية لأغراض التهريب، وكان معظم جماعتنا يحتفظون بكميات كبيرة منها • الا أن العيب الوحيد في هذه التجارة يكمن في حجم وشكل الصناديق التى تصف فيها تلك السجاير ، فقد كان من الصعوبة بمكان أن تحاول تفادى الحراس وأنت تحمل صناديق بمثل هذه الاحجام الضخمة • ولذلك كان من الممتع أن يراقب المرء الحيل والاساليب التى كان يستخدمها العرب لتهريب هذه السلعة ، وان لم تكن تلك الاساليب فعالة دائما • وكان السلاح الرئيسى المستخدم هو الوقاحة الصارخة • فعندما كان يسمح لهم أن ينزلوا من المركب بعض التمر الذى كانوا يأخذونه من الجلل ويوضبونه بعناية بالغة فى صناديق صغيرة ، وأن يحملوه للبيع فى السوق — وكان يسمح بعدد قليل من تلك الصناديق الصغيرة لكل منهم — كانوا يحملونها فى سلال كبيرة تكون فيها دائما أشياء أخرى • وكان الحراس السواحليون ، المتمرسون بحيل العرب يفحصون تلك السلال فيكتشفون البضائع الاخرى المنوى تهريبها • ولكن بما أنهم لم يكونوا غلاظ القلوب ، فلم يكونوا يصادرون تلك السلع ، بل يأمرون حامليها باعادتها الى القارب الطويل وعدم انزالها معهم الى الشاطىء • ولكن من هنا كان من السهل على العرب أن يوصلوها الى الشاطىء بطريقة أو بأخرى ، فقد كانوا يروحون ويجيئون بشكل متواصل ، وهم يحملون معهم دائما سلالا صغيرة ملأى بالسمك أو اللحم أو الفاكهة أو الخضار ، وبين السلال الآتية والسلال الذاهبة ، كانت تلك السلع المهربة تنزل الى الشاطىء •

كان بحارتنا ينزلون الى الشاطىء من السلع كمية يكفى ثمن بيعها لقضاء حاجاتهم فى السوق وفى أماكن المتعة الاخرى • وكنت أحيانا أجلس فى ظل شرفة الحاكم ، على الشاطىء ، أراقبهم ، وكان منظرهم وتصرفاتهم دائما ممتعة ومفيدة لى • ففى أحد الايام رأيت زيدا ، وقد قبض عليه متلبسا بالجرم المشهود ، وهو يقوم ببيع ألفى سيجارة ، واقتادته الشرطة بعد أن دافع عن نفسه دفاعا عنيفا • وقد كان العرب ، كمعظم الناس فى كل مكان ، يعتبرون القبض على الانسان ، لقيامه بمخالفة ما ، اعتداء صارخا على حرياتهم ، ولذلك فقد انزعج الجميع لما حصل لزيد • الا أن هذا لم يعامل بالشدة التى كان ينتظرها • فبعد أن أمضى ليلة فى السجن ، اقتيد الى المحكمة المحلية وهو فى هلع شديد • ألا ان القاضى اكتفى بتلك الليلة التى قضاها فى السجن ، بالاضافة الى مصادرة السجاير وتغريمه مبلغا صغيرا من المال ، واعتبر ذلك عقوبة كافية • وعندما أطلق سراحه وعاد الى المركب ، هلل له الجميع واستقبلوه استقبالا حافلا •

اذا كان القصد من القاء القبض على زيد أن يكون عبرة للآخرين ، فقد فشل فشلا ذريعا ، لأن الجميع عادوا فى نفس ذلك اليوم الى ممارسة عمليات التهريب بنشاط وهمة أكبر مما مضى ، بل انى رأيت عبد الله ، أخا نجدى ، وهو يسوّق ملء قبضته من حبات المسابح في السوق في ذلك اليوم ·

ومرت الايام ، وظل البدو يتجولون مبهورين فى شوارع لامو الظليلة ، وهم يرتدون ملابسهم الصفراء والحمراء وشعورهم مطلية بالدهن · ولكن خمسة أيام من التجوال جعلت تلك الملابس تبدو أقل بهاء من قبل ، كما جعلت الدهن على شعورهم ذا رائحة كريهة · وفى أحد الايام قابلت على الشاطىء « السيد » سعيد الحضرمي وهو يرتدي ملابس السواحليين ، وأقرضته شلنين طلبهما منى · وقد عجبت لذلك ، فلم يكن « السيد » عادة بحاجة الى أن يطلب المال من النصارى ، الا أن لامو كانت مملوءة بأمثاله ممن يدعون الانتساب الى النبى (صلعم) ، وكان الحصول على المال صعبا · وسبب ذلك أن الشباب العرب ، فى مومباسا ومدن أخرى على طوال الساحل ، أصبحوا ينظرون بكثير من الحذر والشك الى ادعاء أمثال « السيد » بقربهم من النبوة وربما الألوهية أيضا ، وبكثير من الازدراء الى التبلد وقلة الطموح التى كانت ترافق تلك الادعاءات · ونتيجة لذلك فقد حصلت هجرة كبيرة من تلك الاماكن الى لامو التى كانت أكثر تأخرا وأقل اتصالا بالافكار المتطورة · وكان هذا وضعا يؤسف له بالنسبة « للسيد » سعيد ، لأنه وجد أن موارده قد شحت كثيرا · وبالطبع لم أر الشلنين ثانية ، كما أنى لم أر « السيد » ، ولا أعتقد أنى افتقدته بعد ذلك · فقد اختفى هو وعدد من تجارنا الحضارمة فى « لامو » حيث لم يكن يسمح لأحد بالبقاء ، الا اذا أثبت أن لديه اذنا بالاقامة فى محمية « كينيا » ، ولم يكن باستطاعة أحد من ركابنا تقريبا أن يثبت أنه مقيم فى أى مكان فى العالم ، لانهم لم يكن لديهم أية وثيقة رسمية تثبت أنهم ولدوا على هذه الارض على الاطلاق ·

كان نجدى يبدو قلقا ونحن فى لامو · فقد كان من الواضح أن الركود الاقتصادى العالمى جعل التجارة صعبة وغير مربحة ، وجعل الامل ضئيلا فى تحقيق ربح وفير من هذه الرحلة · لقد كان نجدى دائما يبدو رجلا متعبا ونحن في الموانىء ، وقد خطر لي بأن النوخذة العربي يحمل من الهموم أضعاف ما يحمل ربان السفينة التجارية العادية · فلم تكن مهمته تنحصر فى الابحار فى المركب وقيادته فى البحر ، بل كانت تتعدى ذلك الى أمور كثيرة أخرى · فهو المسؤول عن نفقات الرحلة ، وعن جميع من عليها من البحارة والركاب ، وعن أوراقها أيضا · وهو الذى يبيع ويشترى الشحنة التى يحملها المركب مباشرة دون الاعتماد على الوسطاء ، وهو الذى يجد



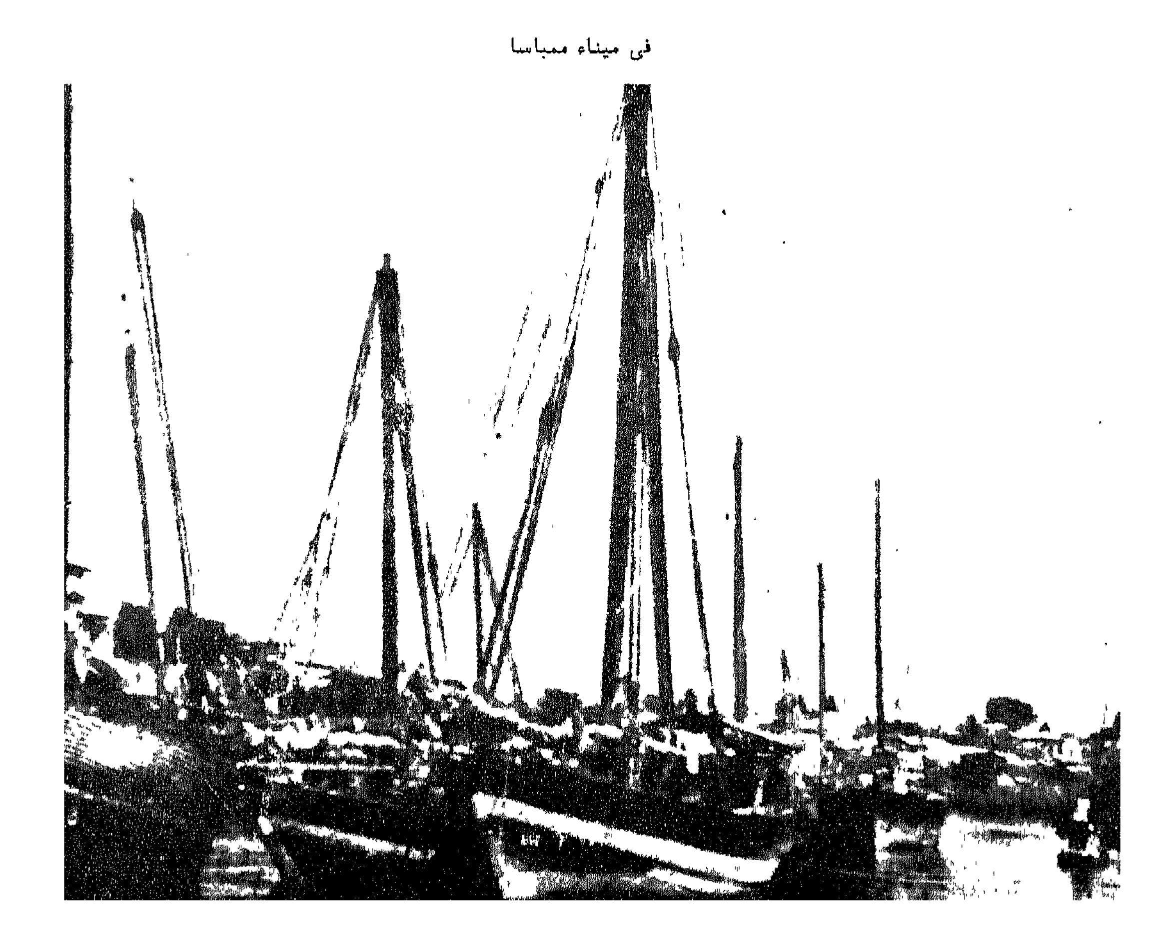
ريح قوية تسير المركب

الركاب ، وعليه ان يتحملهم أيضا ، كما أن عليه أن يحكم بينهم فى حالات الخلاف والمشاكل ، كما أن عليه أن يتخلص منهم ، ولم يكن ذلك دائما أمرا سهلا • وعليه أن يكون رجل أعمال قدير محنك ، وأن يكون خبيرا فى الاخشاب ، وفى السكر ، وفى الارز ، وفى السمن ، وفى الروائح العطرية ، والسمك المقدد ، كما أن عليه أن يستطيع تقدير قيمة المراكب صغيرها وكبيرها ، وأن يكون ملما الماما تاما بصناعة السفن ، وبطريقة صنع الاشرعة والحبال • وعليه أيضا أن يعرف أفضل الاماكن لبيع السلع المختلفة المتنوعة ، من قطع الخشب المجلوبة من ملابار الى أعمدة المانجروف (الشندل) المجلوبة من دلتا الروفيجى ، الى السمسم وجوز الهند والماعز المشترى من بربرة ، الى الملابس القطنية والملح وخلافها • وأخيرا فان عليه أن يعرف الوسيط الجيد من السيء ، حتى في ميناء صور ، وأن يميز بين العربي الموسر من المعسر • ولهذا كله ، فانه كثيرا ما يخطيء ، فالمسؤوليات التى يحملها على كاهله ثقيلة جدا ، وتتلخص فى أن عليه أن يبحر فى مركبه الكبير فى تلك البحار الشرقية ، ويعنى به وبتجارته وبركابه جميعا ، وأن يعود به سالما الى موطنه القابع على رأس الخليج العربى • لقد كان نجدى رجلا جديرا

بتحمل مسؤولية الرجال ، واذا كان أحيانا يبـدو فظا فى نظرنـا وبحسب مفاهيمنا ومقاييسنا ، فانه ، فى نظرى ، لا لوم عليه ولا تثريب ٠

لقد كان المركب جنة عدن وهو خال من الركاب ، الا أنها جنة لم يكن مقدرا لها أن تدوم ، ففى اليوم السابع بعث نجدى من يستدعى ركابه من البدو ، لأن السلطات كانت تسمح للمراكب الكبيرة بالبقاء فى الميناء سبعة أيام دون أن تدفع الرسوم المعتادة ٠ فاذا جاء اليوم الثامن وهى ما زالت هناك ، فان عليها أن تدفع تلك الرسوم ، ولذلك كانت تلك المراكب تقلع عادة فى اليوم الثامن ، وهذا ما كان فى نية نجدى أن يفعله ٠ أما من هم أولئك المبعوثون الغامضون الذين أرسلوا ليجمعوا ركابنا من البدو ، أو ما هى الطرق الملتوية التى كانت تستخدم لجمعهم ، فليس لدى أية فكـرة عـن ذلك ٠ الا أنه لم تكن هناك مشكلة فى تلك البلاد الشرقية ، تبلغ حدا من التعقيد أو الغموض ، يجعلها تستعصى على الحل الفورى على يد نجدى ، اذا رغب فى ذلك ٠ أما ركابنا فقد كانوا دائما يستغلون حرية الحركة التى كانوا يتمتعون بها ، لعدم مقدرة الاوروبيين على تمييز واحد من الآخـر ٠ ولذلك فكثيرا ما كنا نستبدل أكثر من عشرين راكبا فى الميناء ، بحيث نقلع

فى ميناء ممباسا



وعلى ظهر المركب نفس عدد الركاب الذين أتينا بهم ، وان لم يكونوا دائما نفس الاشخاص • ولو كان نجدى بعثنى الى السوق للبحث عن الركاب ، لعدت بعد مدة طويلة ومعى ما لا يزيد عن اثنين منهم • أما الآن فقد رأيت حمدا بن سالم يلوح بيده فقط ، وما كاد يفعل ذلك حتى أخذوا يعودون الى المركب أفواجا أفواجا •

الا أنهم هذه المرة لم يعودوا جميعهم ، كما اكتشف مفتش الهجرة العربى لسوء حظنا • وكان هذا المفتش عربيا قد تحول من الاسلام الى النصرانية ، ولذلك فهو يعتبر كافرا فى نظر نجدى • وقد لاحظ هذا المفتش أن عدد النسوة قد نقص ثلاثا ، وعندها تبين لنجدى أن ثلاثا من النساء اللواتى كن فى القمرة الكبيرة قد هربن من المركب ، وكان وقع هذا صاعقا عليه • ولكن يجب أن أعترف بأنه ، اذا كان نجدى قد لامهن على ذلك ، فان أحدا غيره لم يشاركه هذا الشعور • ولكن الامر كان خطيرا ، فقد كان علينا أن نغادر الميناء ، وعلى المركب نفس عدد الركاب الذين أتوا معنا • ولو كان المفتش مستعدا للتفاهم لهان الامر • فقد كان بامكاننا مثلا أن نغطى ثلاثة من الاولاد بملابس النساء وأحجبتهن ، ونبعث بهم الى القمرة الكبيرة • فيتم احصاؤهم أولا كثلاثة أولاد ، ثم يعدون كثلاث نساء عند التفتيش على القمرة الكبيرة • وكان هذا ممكنا • الا أن هذا المفتش بالذات كان لسوء الحظ ، ذا ضمير حى ، وأصر على أن يجرى البحث عن النساء ، وتتم اعادتهن الى المركب فى الحال • وقد أجاب نجدى بأنهن على الشاطىء، ولا شك أن ذلك صحيح ، الا أنه كان من المحتمل أيضا أن يكن فى طريقهن الى ممباسا •

الا أن هذه المشكلة لم تكن عقبة كؤودا ، فقد نشىء النواخذة العرب على التصرف بسرعة وحكمة فى مثل هذه الظروف • وبالفعل سرعان ما أرسل نجدى أخاه عبد الله الى البر ، ومعه تعليمات بأن يعود معه بأية ثلاث نساء سواحيليات ، ممن لا يفخرن بسجل أخلاقى نظيف ، يبدين استعدادا للاستفادة من فرصة السفر الى ممباسا ،لتجربة حظهن فى حياة اللهو هناك• ولم تمض نصف ساعة حتى كان عبد الله قد عاد ومعه ثلاث من هؤلاء ، وهن متلفعات بالسواد يطلقن الضحكات العالية ، فأرسلن فى الحال الى القمرة الكبيرة • وهكذا اكتملت قائمة ركابنا وأصبح بامكاننا أن نقلع • وقد فعلنا ذلك وأصبحنا فى عرض البحر قبل فجر اليوم التالى• أما الفتيات السواحليات الثلاث فقد كن متعودات على حياة أكثر حرية وانطلاقا من أخواتهن العربيات ، ولذلك فقد قلبن الحياة الى جحيم ، قبل أن نبحر مسافة تزيد عن خمسة أميال • فقد كن يقلن أنهن أتين كضيفات ، فلا ينبغى

حبسهن فى زنزانة ، وكن يرسلن الصياح بدون توقف طوال الرحلة على ساحل كينيا • الا أن نجدى أغلق عليهن الباب العلوى ، ووضع عليه القفل ، ولم يعرهن أى اهتمام ، ولكن النساء العربيات غضبن لوضع هؤلاء النسوة معهن فى نفس القمرة ، وكانت هناك ضجةوهياج مستمران فى تلكالحجرة•

ولم يدم الامر كله أكثر من يوم واحد ، فقد كانت الريح مؤاتية ، والمسافة بين لامو و ممباسا قصيرة • وما كان النساء يفعلنه لم يزعج أحدا ، ما دمن باقيات فى تلك القمرة فى أســفل المركب ، لا يسببن أية مشــاكل خطيرة للمركب ومن عليه من الركاب •

الفصل التاسع

قصة ممباسا

قصة ممباسا

كنا نبحر ببطء ، والريح هادئة ، وساحل كينيا ذو اللون الاخضر الداكن يبدو جميلا تحت ضوء الشمس على يميننا ، بينما كان الركاب يجففون أمتعتهم على أسوار المركب • وفي المؤخرة كان نجدي منهمكا في خطبة طويلة يلقيها على من تبقى من خاصة المسافرين ، بعد أن أوحشه غياب عدد من أفضل المستمعين اليه ، وذلك برحيل العمانيين كالسيد سعيد وأبي علي وبقية «الصوريين» • لحاه الله من رجل ! كنت أنظر اليه حينئذ ، ربما للمرة الخمسمائة خلال تلك الرحلة ، وهو يلوح في الهواء بعصا نارجيلته ، ويؤكد كلامه بين الحين والآخر بعدة اشارات دينية ، وأيمان مغلظة ، ليشهد الله أن كلامه صحيح لا يتطرق اليه الشك • وكان يتحلق حوله حوالى أربعين من البدو ، وكلهم آذان مصغية لما يقول ، وكنت أنظر الى هؤلاء المتشردين الذين ابتلانا الله بهم ، ربما للمرة الخمسمائة أيضا ، وأتمنى من كل قلبي أن تكون هذه هي المرة الاخيرة التي أراهم فيها ، فقد كانت مراقبتي لهم ممتعة لبعض الوقت ، الا أنني شعرت بأني قد تعبت منهم ، بعد أن عرفت عنهم ما فيه الكفاية • وكان حديث نجدي متواصلا لا ينقطع ، وموضوعه نفس الموضوع المألوف عن انحطاط العالم الغربي وأفول نجمه ، وقرب بزوغ الشمس من الشرق • وفي مثل هذه المناسبات كان نجدي يتحدث عنا ، نحن الاوروبيين ، وكأننا قد فقدنا كل أهمية ، بينما نحن لا نزال نسيطر على العالم بأسره • ولكنه كان دائما ينظر الى المستقبل البعيد ، ولا يكترث الى الاحداث اليومية ولا ينزعج منها ، ولذلك فقد كان يومنا ، بموجب وجهة نظره هذه ، قد قارب النهاية ، كما كان مجد العرب يوشك أن يشرق على العالم من جديد •

ولم يكن موقفي طبيعيا ، وأنا أجلس هناك ، كواحد من الاوروبيين المحسودين ، أستمع الى نجدي يشير الينا بهذه الطريقة ، والجميع من حوله يهمهمون بين حين وآخر بكلمة « طيب » ، ويوافقونه على ما يقول • الا أنهم لم يكونوا يعيروني أي اهتمام ، بعد أن أصبحوا ، بمرور الزمن ، وبحكم الزمالة ، ينظرون الي كواحد منهم •

وعندما استمر سكون الرياح ، لم يعد بامكاننا متابعة الابحار ، فاضطررنا للتوقف بعض الوقت • ولكن هذا لم يكن يقلق « نجدي » أبدا ما دمنا سنصل الى ممباسا في الوقت المناسب • ولم يكن نجدي من أولئك

الناس الذين يجزعون اذا أصبحت الظروف معاكسة ، فقد كان بامكانه دائما أن يمضي الوقت بالحديث ، أو أن لا يفعل شيئا قط ، بل يجلس هناك على سدة النوخذة ، وينحني على نفسه ، فيصبح كأنه كتلة من البياض ، وينتظر الى أن تتغير الظروف ٠ فقد كان سكون الريح يتم بارادة الله الذي سيحرك الهواء ، اذا شاء ، عندما يشاء ، كما سكنها في البدء ٠ وعلى هذا فليس لأحد أن يعترض على ارادة الله ، أو ينزعج منها ، لأن احدا لا يستطيع أن يغير من الامر شيئا ٠ الا أنه كان باستطاعة نجدي أن يمتع الآخرين بحديثه ، لأن ذلك من فعل الانسان ٠ ولذلك فقد واصل نجدي حديثه بدون انقطاع ، بينما كان المركب واقفا دون حراك في ذلك البحر المنبسط ، والروائح الكريهة تنبعث من الماء الآسن في داخل المراكب ، وروائح سمك « حيفون » المتعفن تتصاعد الى عنان السماء ٠ أما البحارة ، الذين كانوا في غاية الارهاق والهزال ، بعد أن أمضوا الاسابيع السبعة الماضية على ظهر المركب المكتظ بالركاب ، فقد كانوا يقومون باصلاح الطبول وبشد قطع جديدة من جلود الماعز على الدفوف ، وذلك لأن الوصول الى ممباسا كان يعني نهاية جزء هام من أجزاء الرحلة ، وكان من العرف المتداول أن ندخل الى مرسانا في ميناء ممباسا على قرع الطبول ٠ ولذلك فقد أخذوا يعدون كل طبل ورق على سطح المركب لهذه المناسبة ، بحيث تكون جميعها جاهزة تماما للعمل عندما يحين الوقت ٠ وكنت أتطلع شوقا الى تلك المناسبة ، فلم يحدث منذ ابحاري على ظهر المركب أن دخلنا أحد الموانىء على قرع الطبول والدفوف ٠

وفي اليوم الثاني ، عندما صاح نجدي فجأة : ها هي ممباسا ، كدت لا أصدق في بادىء الامر ، لاني لم أر ميناء عظيما ، بل لم ألحظ أن أي تغير قد طرأ على ذلك الشاطىء الطويل ، فقد بدا كل شيء على ما هو عليه سوى بضعة بيوت صغيرة ، وخزان للماء ٠ والواقع أن ممباسا تظهر فجأة للمسافر القادم من الشمال ، كما أن مينائها يكاد يكون مخفيا عن الانظار ، رغم أنه ميناء كبير جيد ٠ علاوة على ذلك ، فلم يكن قد مضى وقت طويل على مغادرتنا ميناء « لامو » ، الا أن الموانىء الواقعة جنوب بنادير ، على طول هذا الساحل ، كلها جيدة ومتقاربة ٠ نعم ! لقد كانت ممباسا بعينها ! فقد ظهرت مصائد الاسماك والمزارع ، وهي تمتد على طول الشاطىء ، بأعداد أكبر مما كنا نراه خلال تلك الرحلة القصيرة ، كما كانت مظاهر الازدهار والنعمة بادية على المكان ٠ وها نحن الآن نقترب من مدخل الميناء ، وقد قام نجدى بدورة واسعة لكى يتجنب الشعب المرجانية الموجودة فى الطرف الشمالي من المدخل ٠ وهنا استدعاني نجدي وأخبرني أن المكان سيء وخطر ، وأراني كيف يقود العرب مراكبهم في مثل هذه الظروف ٠ وقد أعلمني أن الطرف الشمالي من المدخل خطر بسبب التيارات والدوامات

الموجودة فيه ، ولذلك فان على النوخذة الداخل الى الميناء أن يعرف ما هو مقبل عليه ، على الرغم مما يبدو من بساطة المكان · كما كان هناك حطام مركب قابع في وسط المدخل ، الا أنه كان مشارا اليه بطافية (عوامة) · وعندما استدرنا وبدأنا الدخول ، شاهدنا بقايا حطام آخر عند الطرف الجنوبي · كان الطقس جميلا ، والنسيم لطيفا ، وقد شاهدت عريف البحارة محمدا ، يشق طريقه فوق أجساد الركاب ، مطالبا بقرع الطبول · وسرعان ما تناول كل من البحارة طبلا ، وأخذ يقرعه ويهزج وهو يهرول للتجمع على سطح المقدمة ·

ولما كان الركاب قد تعودوا الآن ، أكثر من ذي قبل ، على الوصول الى أماكن لا يسمح لهم بالنزول فيها ، فقد كانوا يراقبون دخولنا الى ممباسا بهدوء أكبر مما أبدوه قبلا عند توقفنا في موقاديشو أو لامو · ومع ذلك فقد كان بعضهم يتراكضون هنا وهناك بانفعال ، بحيث يعترضون أحيانا طريق البحارة · وها نحن الان ندخل الميناء مارين بالمستشفى من ناحية ، وبمرتفع من الارض تغطيه أشجار جوز الهند من الناحية الاخرى · بينما كانت القلعة البرتغالية المسماة « قلعة عيسى » ترتفع عالية وتشرف على الميناء كله · وكنا متجهين صوب الميناء القديم الواقع في الطرف الشمالي من المدينة ·

تقوم مدينة ممباسا على جزيرة واقعة في وسط خليج عميق ، وتبعد حوالى ستمائة ميل عن موقاديشو باتجاه جنوبي غربي · ويشكل كل من الذراعين الشمالي والجنوبي للخليج ميناء ممتازا · أما الذراع الجنوبي ، الذى يسمى « كلنديني » ، فهو مخصص الآن للسفن البخارية الكبيرة ، وأما الذراع الجنوبي ، فما زال كما كان عليه دائما ، وفيه تحتشد المراكب المحلية كالقوارب الصغيرة القادمة من مدينة « لامو » في الشمال ، والمراكب السواحلية الآتية من زنجبار ودار السلام ، ومراكب الفرس والعرب القادمة من الخليج العربي ، والمراكب الصومالية التي ترفع العلم الايطالي ، وتسافر من حيفون وجنوب الجزيرة العربية ، على طول الشاطىء الافريقي ، الى هذا المكان ، والمراكب الهندية التي تنقل الآجر والأواني الفخارية من ساحل ملابار ومن منجالور ومن خليج كوتش · والواقع أن « كلنديني » ميناء حديث ، فيه أرصفة ، وروافع كبيرة ، وقوارب للقطر كما تحكمه أنظمة وقوانين ، شأنه في ذلك شأن الموانىء الحديثة الاخرى ، ولهذا السبب فهو ميناء جيد · ولكن الميناء القديم هو الذي جذب انتباهي وأعجبني · انه ذلك المكان الرومانسي الجميل الذي دخلناه عشية يوم الاحد ، وكل شيء هادىء من حولنا ، سوى قرع الطبول وأهازيج البحارة القديمة · وما أن

رآنا بحارة المراكب الكويتية الاخرى الراسية في الميناء ، حتى رفعوا أعلامهم ، وأخذوا يحيوننا ويهتفون لنا ، ونحن نتجه الى مرسانا · لقد كان استقبالا جميلا ، ووصولا موفقا ، وقد وجدت فى ذلك متعة كبيرة · فقد تضافرت أشياء كثيرة لكي تجعل من ذلك المكان مكانا جميلا ممتعا · فهناك الاشجار الخضراء ، والمنازل العربية والهندية المطلية بالالوان الزاهية ، والقلعة القديمة التي توحي بالعزم والقوة ، والمراكب الجميلة المحتشدة في المرسى ، وأمواج البحر الازرق الصافي ، وهي تتكسر بلطف على شاطىء نادي السباحة ، والقوارب الغاصة بالبحارة الفقراء ، التي كانت تنتقل بسرعة عبر الميناء ، على أنغام أهازيج البحارة ، وأصوات المجاذيف وهي تخبط الماء بشكل موسيقي منتظم · لقد كانت كل هذه أشياء تثير المشاعر وتضفي جمالا خاصا على هذا المكان · وقد ألقينا مرساة واحدة وتوقفنا مقابل نادي السباحة ، وكان ذلك في وقت العصر من ذلك اليوم الجميل ·

وهنا وجدنا أنفسنا بين ثلاثة مراكب وصلت مؤخرا ، أحدها « بوم » فارسي يحمل شحنة من الآجر جلبها من منجالور بالهند ، والآخران عربيان من مراكب الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، وكنا نرفع أعلامنا على السارية الكائنة في المؤخرة ، على عادة المراكب الكبيرة للاعلان عن وصولها · وبناء على تجاربنا السابقة في حيفون وموقاديشو ، لم أكن اعتقد بأنه سيتم تفتيش المركب وتدقيق حمولته وركابه في ذلك المساء · الا أنه لم تمض عشرون دقيقة على رسونا ، حتى كان طبيب الميناء ــ وكان ايرلنديا مرحا ــ قد اعتلى ظهر المركب · وقد قام بفحص الجميع فحصا دقيقا ، واهتم بشكل خاص بالكشف عن آثار التطعيم والتحصين الحديثة ، لانهم هناك يخشون أن تكون المراكب الكبيرة وسيلة لنقل مرض الجدري ، ولذلك فهم يراقبونها بعناية فائقة ، خاصة أنه ليس هناك نوخذة عربي أو فارسي أو هندي أو صومالي يعترف بظهور أي مرض خطير بين ركاب مركبه أو بحارته · وقد سمعت « نجدي » ينكر حدوث أية أمراض أو وفيات على ظهر مركبه ، مع أنه يندر أن يوجد مركب عربي يقوم بنقل الركاب من عمان أو حضرموت دون أن يخسر عددا منهم · وفي العادة لا يكون هذا أمرا ذا بال ، اذا لم يكن أحد من هؤلاء قد مات من مرض معد ، الا أن المشكلة ، من وجهة نظر طبيب الميناء ، أنه اذا حدث أن انتشر أي مرض معد ، فان العرب يفعلون المستحيل لكي يخفوا كل أثر له ، لانهم ، بسبب اتكاليتهم المعروفة ، يعتقدون أن جميع الامراض ليست الا تعبيرا عن ارادة الله ، ولذلك فانهم ينظرون الى عملية « الحجر الصحى » نظرتهم الى واحدة من تلك العقبات التي يفرضها عليهم الاوروبيون دون مبرر ، ولهذا السبب فان عليهم أن يتجنبونها بأي ثمن ·

وسرعان ما انتهى الطبيب من فحصه للمركب ، وسمح له بالرسو على اعتبار أنه لم يكن عليه أي مرض سار • وأخذت انظر حولي مرة ثانية ، وامتع البصر بجمال ذلك الميناء فى ذلك المساء الاستوائى • بينما أتى لزيارتنا عدد من النواخذة الكويتيين ، وكان من بينهم غانم بن عثمان ، قبطان البوم الكبير المسمى « الباز » الذي كنا نرسو معه سويا فى حيفون • كما كان هناك بدر بن عبد الوهاب قائد البغلة المسماة « بدري » ، وهي مركب جميل كان يرسو قريبا من الرصيف الحجري بين عدد من المراكب العمانية القادمة من صور ، بالاضافة الى كويتي آخر لم أكن قد قابلته من قبل • وكان بدر شابا في مقتبل العمر ، طويل القامة ، مهيب الطلعة في ثوبه الابيض الطويل وعباءته الداكنة • وكان ثوبه الابيض وكوفيته البيضاء مصبوغين باللون الازرق ، على عادة النواخذة الكويتيين عندما يقومون برحلاتهم البحرية • وكان غانم بن عثمان يرتدى ملابس مشابهة لبدر • وقد تباحث نجدى مع هؤلاء ، واستفسر منهم عن الاحوال السائدة فى الميناء ، وعن الفرص المتاحة لتصريف البضاعة ، وعن أمور أخرى مشابهة • وقد علم منهم أنه لاتوجد صعوبة فى انزال الركاب ، فقد كان غانم قدتخلص من مائة وخمسين منهم • الا أن السوق لم تكن مناسبة لبيع المنتوجات العربية ، التى يمكن أن تجد لها سوقا أفضل فى زنجبار ، بحسب رأى بدر • وقد برر بدر ذلك بأن العمانيين كانوا دائما يبيعون بضائعهم بأسعار أقل من أسعار غيرهم • فما تكاد تسنح فرصة لغيرهم لكى يبيع شيئا من سلعه ، حتى يكون العمانى قد عرض سلعته بسعر أرخص • لقد كان الموقف صعبا ، فقد مضى عليه فى ممباسا شهر كامل لم يستطع خلاله أن يتخلص من بضاعته كلها بعد • ولذلك فقد كان ينوى السفر الى « تانجا » فى الجنوب ، والى بعض الموانىء الصغيرة الاخرى لكى يشترى شحنة من السمسم والمواد الاخرى ليعود بها الى الوطن ، وسيمر بممباسا فى طريق العودة لتحميل بعض الركاب • وقد ختم بدر كلامه قائلا انه قد يئس من امكانية بيع بضاعته فى ممباسا ، وانه لذلك سيبحر الى زنجبار فى صباح اليوم التالى •

كنت شغوفا بهذه الندوات التى كانت تعقد على مؤخرة مركبنا « فتح الخير » فى الليالى الاولى لوصولنا الى كل ميناء نتوقف فيه ، حين كان نجدى يجلس صامتا وقورا ينفث دخان نارجيلته ، بينما يقف يوسف على خدمته ، يوسف المسكين الذى لميكن يعرف طعما للراحة طالما كان نجدى على ظهر المركب • وحول نجدى يتحلق النواخذة الآخرون ، وكلهم صامتون وقورون ، الا عندما يثار موضوع أثير الى قلوبهم أو له علاقة بجيوبهم ، فعندها لايبقى للصمت مكان ، ويشترك الجميع فى حديث نشط • وكثيرا ماكان عدد هؤلاء يصل الى ستة عشر ، يصطفون حول

سدة النوخذة ، بينما يستلقى على السطح تحت أقدامهم عدد غفير من الركاب ، وقائدى الدفة ، وعرفاء البحارة القادمون من مراكب اخرى ، للاشتراك فى هذه الجلسات . ولم يكن يسمع أثناء فترات الصمت المتكررة ، سوى صرير ألواح المركب وهو واقف فى مرساه ، وأصوات الطبول التى يقرعها البحارة الحضارمة على مسافة بعيدة منا ، وقرقرة الماء فى النراجيل ، والاصوات الناتجة عن حركة المجاديف فى الماء ، عندما يمر أحد القوارب قريبا منا . لقد كانت الاثواب التى يرتديها العرب ، والكوفيات وأردية الرأس الاخرى الملفوفة باحكام ، والعباءات الموشاة بالذهب ، والعقل الصوفية السوداء التى تثبت الكوفيات على الرؤوس — لقد كانت كل هذه الملابس تضفى على العرب جوا من الجدية والهيبة يتوافق معها . كما كانت وجوههم تتميز بالقوة ، وكان ذلك واضحا تماما عند النظر اليها فى الضوء الخافت المنبعث من جمرات النار التى يوقد بها طباق النراجيل . لقد كنت مغرما بجو السرية والتآمر الذى كان يبدو دائما مخيما على هذه الندوات ، مع أنه لم يكن فيها عادة ماهو سرى أو متصل بالمؤامرات من قريب أو بعيد . الا أن مجرد النظر الى هؤلاء القوم فى صمتهم الوقور الجاد ، وهم متلفعون بعباءاتهم ، كان دائما يوحى بنوع من النذير والوعيد . ولكننى أعلم حق العلم بأن هذا الانطباع كان خاطئا تماما،لانى كنت أنا نفسى عندما أجلس بينهم وأنا أرتدى ملابسهم، كما ينبغى لى أن أفعل ، أشعر كأنى واحد من مجموعة من المتآمرين ، بل والاغرب من ذلك أنى كنت أشعر بكثير من الوقار وبمزيد من الهيبة أيضا . وكنت أعزو ذلك الى شكل الثوب والى العباءة الفضفاضة والكوفية الجميلة الواسعة ، وهى الملابس التى كثيرا ما يرتديها الانسان كلما أراد أن يخلق جوا من الهيبة والوقار . وكنت أشعر بأنى عدت انسانا عاديا جدا عندما أنزل الى البر وأرتدى الملابس الاوروبية المناسبة للمناطق الاستوائية .

ولم تتمخض تلك الجلسة ، كمثيلاتها من الجلسات ، الا عن الاشاعات المعتادة . ولذلك فقد استلقيت على سجادتى تحت سماء تتلألأ بالنجوم ، وأخذت أدير فى ذهنى ماسمعته فى ذلك المساء من الاقوال المختلفة بل والمتناقضة فى كثير من الاحيان . فبعض الروايات تقول أن الاحوال جيدة فى ممباسا وأننا سنمكث هناك عشرة أيام ، بينما تقول رواية أخرى بأن الاحوال سيئة فى ممباسا وأن علينا أن نغادرها الى زنجبار فى اليوم التالى بحمولة من الثيران (وهى ، على كل حال ، أفضل من حمولة البدو) . ورواية ثالثة تقول بأننا ، بعد أن نفرغ حمولتنا ، يحسن أن نعود الى لامو لنحمل أعمدة المانجروف (الشندل) ونأخذها الى البحرين ، ورواية أخرى تقول أن علينا أن نذهب الى دلتا نهر الروفيجي لنحصل على

شحنة من خشب المانجروف ننقلها الى الكويت ، وغير هذه تنصحنا بأن نبحر جنوبا الى « مكندانى » وننقل الذرة منها الى زنجبار • وفى خلال الاحاديث التى دارت فى تلك الامسية ، أقترح البعض علينا أن نتوقف على الشاطىء ، وننظف مركبنا فى ممباسا أو زنجبار أو روفيجى أو لامو أو جزر سيشل • ولم تكن كل هذه سوى بعض الاشاعات والتكهنات التى دارت بين المتحدثين فى تلك الجلسة • أما أى من هذه الامور سيتحقق فيما بعد فلم يكن ذلك يهمنى فى كثير أو قليل ، فقد كنت قد تعلمت أن أقبل مايجرى على علاته ، والا أطمح الى التنبؤ بأى شىء على الاطلاق • ولماذا أفعل ذلك ، وأنا الذى كنت مقتنعا بأن طريقة الحياة هذه لم تكن سيئة بأى حال من الأحوال !

فى صباح اليوم التالى استيقظت على صوت قرع الطبول العمانية ، وشاهدت مركبا مهريا صغيرا جدا يدلف الى مرساه قريبا منا • وكان هذا مركبا غريبا بشعا ذا مقدمة مستقيمة ، لا تختلف فى الشكل عن المؤخرة ، وهو من النوع الذى يسميه العرب « البدن » ، وكان قادما من ساحل المهرة فى جنوب شبه الجزيرة العربية • ويتميز بأنه يبدو خشنا سىء البناء ، وأن خطوطه مستقيمة ، خلافا لما هو معهود فى المراكب العربية • أما مقدمته ومؤخرته وعارضته فجميعها تنتصب عامودية تماما — هذا اذا ساعدتها أخشابها البدائية غير المستقيمة على ذلك — • وأما طريقة قيادة هذا المركب فهى أكثر بدائية منها فى المراكب العربية الاخرى ، وتعتمد على ذراع الدفه ومجموعة من الحبال منظمة بطريقة ثقيله غير فعاله ومتصلة بعمود خفيف ، علاوة على ذلك فان حوافه منخفضة جدا ، بحيث يبدو المركب بوجه عام أقمأ منظرا من جميع المراكب العربية الاخرى • وليس فى تصميم هذا المركب أى ميل من الوسط نحو الطرفين ، كما أن خطوطه بشعة ، وفيه عادة صار واحد ينتصب بعد الوسط بقليل باتجاه المقدمة وهو أعلى من الصوارى فى المراكب العربية الاخرى • وعلى الرغم من كل ما ذكرت من العيوب ، فانه يبدو أن المركب صالح للملاحة تماما •

ومع أن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد ، فقد كان النهار حارا ، وكل شىء ساكنا سكونا تاما • وسرعان ما امتلأ سطح المؤخرة بالمصلين يؤمهم حمد بن سالم لتأدية صلاة الصبح وكان هؤلاء يتألفون من البحارة والركاب من البدو ذوى الوجنات المليئة بالندوب ، والبلوشيين من لامو بسراويلهم الزرقاء الضخمة ، وصغار التجار الذين كانوا قد ارتدوا أفضل ملابسهم استعدادا للنزول الى اليابسة • أما نجدى ، فقد أدى صلاته كالاخرين ، ثم استولى على جرامفون الراكب الماليزى ، وأخذ يستمع الى

شيء من الاغاني الفظيعة ، فقد كان نجدى فى حالة نفسية جيدة • ثم ما لبث سائر الركاب أن أخذوا يدورون هنا وهناك ، وهم يرتدون الملابس المناسبة للشاطيء يجمعون أمتعتهم ، التى كانت تبدو لى الان أقل مما كانت عليه عندما صعدوا بها الى المركب فى بداية سفرتهم •

ومر بالقرب منا قارب طويل ، تابع لاحدى البغلات العمانية ، غاص بالزنوج الاشداء الذين كانوا يقرعون الطبول ، بينما كان قائدهم يرتدى عمامة حمراء ويجلس على المؤخرة • وما أن اصبح المركب على محاذاتنا حتى هب الرجل واقفا على قدميه ولوح لنا بيده محييا ، على عادة جميع الملاحين العرب الذين لم يكونوا يجدون أن من اللياقة أن يحييوا وهم جلوس أو متكئون على جنوبهم • وكان القارب موسقا الى حافتيه بأكياس الملح • وقد لاحظت ايضا أن ثلاثة نواخذة عمانيين (من صور) ، بعمائمهم الزهرية ، الموشاة بالالوان الذهبية والحمراء ، والمثبتة بعقل عمانية فاتحة اللون ، كانوا يجلسون على سدة النوخذة حتى فى تلك الساعة المبكرة جدا ، بينما كان عبد الله ، أخو نجدى ، مقرفصا يمص الدخان من النارجيلة ، كأنه « يشرب » الطباق ، محدثا قرقرة هائلة • وما لبث يوسف أن أتى بوجبة الفطور ، التى كانت تتالف كالعادة من بضع ارغفة من الخبز الفطير ، نستعين على ابتلاعها بأكواب الشاى الشديدة الحلاوة • الا أننا فى هذا الصباح كنا نقف فى الميناء ، ولذلك فقد جرى الاحتفال بوصولنا بتقديم خبز طازج بدلا من الخبز القديم الجاف،المتبقى من اليوم السابق ، الذى كان يقدم لنا عادة • وعلاوة على ذلك فقد كان بعض السمسم مرشوشا على هذا الخبز لاضافة نكهة لطيفة اليه • وقد كان هذا الخبز المعد بهذه الطريقة ، والذى قدم لنا حارا ، يعتبر وجبة كافية ، على الرغم من بساطتها • وقد شاركنا العمانيون فى الطعام ، كما كان من واجب ضيوف العرب أن يفعلوا دائما • وبينما كنا نتناول طعام الفطور ، كان المركب المهرى الصغير يمر بحذائنا ، وفجأة ودون سبب أعرفه ، هب جميع بحارته يصفقون بأيديهم بشكل موسيقى ، ويصدرون ضجة وجلبة عظيمتين • وقد اختار ربان المركب أن يرسو بحذائنا مباشرة ، فرأيت أن على ظهره أكثر من ستين راكبا مع أن طوله لم يكن يزيد عن أربعين قدما ، كما أن الرائحة الفظيعة ، التى كانت تصدر عنهم وعن السمك المقدد الموجود فى مركبهم ، أخذت تهب علينا وتكاد تكتم أنفاسنا • يا للفظاعة ! حتى نجدى نفسه لم يطق تلك الرائحة النتنه ، فنادى عريف البحارة وطلب منه ان ينزل القارب الطويل ، ويقطر مركب المهرة ويسحبه بعيدا عنا • لقد كانت رائحة السمك المتعفن فى ذلك المركب كريهة للغاية وشديدة جدا ، بحيث أصبحت الرائحة الصادرة عن الماء الاسن المتجمع فى باطن مركبنا تبدو كأنها عبير ماء الورد •

كنا ، خلال الليل ، قد أفدنا من المد العالي ، وانتقلنا الى موقعنا في صف المراكب ، ورسونا على بعد ثلاثين قدما تقريبا من بغلة بدر المسماة « بدري » ، بينما كان مركبان عمانيان ومركب فارسي ترسو بيننا وبين الشاطىء ، ومركبان صغيران من خليج كوتش الهندي ، وبضعة مراكب من لامو تقف جميعها في بركة من الماء المسود من القطران ، حيث تنزل حمولتها من أعمدة المانجروف ومن الحطب على الشاطىء • وكانت حولنا مراكب وقوارب من كل نوع ، من البومات الكويتية والقوارب اللاموية ، والمراكب الهندية ، التي تنزل حمولتها من الاواني الفخارية الهشة ، والمراكب السواحلية التي تغطي مخازنها بسقف سميك من الاغصان وأوراق الاشجار ، والبغلات والسنابك العمانية • ومن الواجهة البحرية كانت تنبعث الرائحة التي تبعث على الغثيان ، والمتصاعدة من لب جوز الهند ، فتملأ جو الميناء ، بأكمله ، وتختلط بمئات الروائح الكريهة الاخرى التي تتنافس للسيطرة على الجو ، الا أن الرائحة الفائزة في هذا الصراع كانت دائما رائحة السمك المتعفن • وعلى سارية فوق قلعة عيسى ، كان علم سلطان زنجبار الاحمر يرفرف في الهواء • وهذه القلعة ، مثلها في ذلك مثل قلعة لامو ، تستخدم الان سجنا ، الا انها لا تزال قائمة هناك ، جميلة قوية كما كانت دائما ، كما لا تزال بعض مدافعها البرونزية القديمة مصوبة الى البحر • وعلى الجانب الاخر من الميناء كانت تصطف أشجار جوز الهند الباسقة أمام خلفية من السماء الازرق الجميل ، فتغطي ذلك المرتفع الذي يحاذي الشاطىء ، وتعطيه لونه الاخضر اللطيف • وخارج الميناء ، في عرض البحر ، كنا نرى احدى ناقلات النفط وهي تمخر عباب الماء على مسافة بعيدة ، متجهة الى مكان آخر ، واحدى السفن البخارية التجارية وهي تسير ببطء باتجاه « كلندي » • وها هم ركاب مركبنا الآن يتجمهرون ويتدافعون أكثر من أي وقت مضى • ومع أن الساعة لم تكن قد بلغت السابعة بعد ، الا أنه كان باستطاعتنا أن نرى ضباط المهاجرة وهم قادمون الينا في قارب ، مما جعل جوا من الاضطراب والاهتياج يسود المركب •

لقد كان فحص أوراق المسافرين شكليا تقريبا ، لان جميع الركاب قدموا للضابط أوراقا من نوع ما ، ولكني لا استطيع أن أقول شيئا عن ماهية تلك الاوراق ، أو أن أيا منها كانت تخص الشخص الذي كان يبرزها • وكان ضابط المهاجرة شرطيا شابا يرتدي ملابس بيضاء نظيفة جدا ، وقد جلس على سدة النوخذة على سطح المؤخرة يحف به كتبته السواحليون ، وأخذ يفحص قائمة الركاب بعناية ويضع اشارة مقابل كل منها • وقد سمح لركابنا من العرب بالنزول الى البر دون صعوبة تذكر • ويبدو آنه لم يكن بامكان الضابط أن يفعل شيئا غير ذلك ، كما أخبرني هو في وقت لاحق •

فقد كان هؤلاء العرب عادة مواطنين صالحين قلما يولـــدون المشـــاكل ، وبامكانهم أن يرعوا شؤونهم ويتدبروا أمورهم بأنفسهم دون أن يصبحـــوا عالة على السلطات ، وكان هذا ، بايجاز ، هو كل ما يهم الضابط ، ولذلك كان يسمح لهم جميعا بالنزول الى المدينة • وكان هؤلاء العرب يرتـــادون ممباسا وزنجبار منذ أقدم الازمان • وعلى الرغم من أن فرص العمل قـــد تناقصت تناقصا كبيرا في الآونة الاخيرة ، الا أنه لم يكن من الحكمة ردهم على أعقابهم • وكان من المعروف أن بعض هؤلاء قد استنفذوا آخر مواردهم في سبيل الوصول الى هذا الميناء الكيني ، وربما لم يكن ينبغي لهم أن يأتوا في المقام الاول ، الا أنه كان بامكانهم ، اذا ساءت الامور الى حد كبير ، أن يتدبروا امورهم ويعودوا من حيث أتوا • ولم يحدث أن تقدم واحد منهم الى السلطات طالبا تسفيره الى بلده ، فلم يكن القدوم الى ممباسا يكلفهم أكثر من بضع روبيات ، وكانت بضع روبيات أخرى تكفي لاعادتهم الـــى أوطانهم • واذا صدف أن كان أحدهم مفلسا تماما ، فقد كان بامكانه عادة أن يعود على نفقة أحد رجال القبيلة أو على نفقة احدى قبائل جنـــوب الجزيرة العربية ، أو فرع من فروعها ، على أن يسدد المبلغ فيما بعد •

وهكذا كان الحال في كل فصل من ألسنة تهب فيه الرياح الشمالية الشرقية ! عشرات من المراكب تصل الميناء ، غاصة بالمسافرين ، كما هـــو الحال الآن • وكانوا جميعا ينزلون الى البر ، بينهم المكفوفون والمتسولون والموسيقيون والباعة المتجولون ، والحمالون ، والنساء والاطفال من كـــل جنس ولون • أما الآن فقد سمح لجميع ركابنا بمغادرة المركب ، وقد كانت فرحة الجميع عارمة صاخبة • لقد كان المنظر غريبا : بدوي يصعد الـــى مؤخرة المركب ليدقق الكتبة السواحليون اسمه على قائمة الركاب وينصرف ليأتي غيره ، وهلم جرا • وكان كل منهم يقف مدة قصيرة على مقربـــة من ذلك الشرطي الاسكتلندي ، بينما يقوم أحد الكتبة السواحليين المتسامحين بتدقيق اسمه ، وكان كثيرون منهم يصابون بالدهشة والذهول لأنه سيسمح لهم بالنزول الى البر بعد طول الصبر والانتظار ، ولذلك كانوا يترددون في الانصراف ظنا منهم أن مقابلة قصيرة جدا كهذه لا يمكن أن تكون خاتمـــة رحلة طويلة مضنية ، خاصة عندما يتذكرون ما حدث لهم بعد مقابـــلات مماثلة في حيفون وموقاديشو عندما كانوا يضطرون للبقاء أسابيع طويلـــة على ظهر المركب لا يغادرونه أبدا • ولكنهم كانوا هذه المرة يتحققون من أن الامر جدي وحقيقي ، وأن بامكانهم النزول الى البر بالفعل • فكانـــــوا يندفعون لتجميع أمتعتهم ، وارتداء أفضل ملابسهم ، ان كان لديهم غيـــر ما على أبدانهم ، من الوزرات النظيفة والقمصان القطنية ، ولدهن جدائل شعورهم السوداء الطويلة بالسمن ، وذلك بأقصى سرعة ممكنة • وكانـــت القوارب تأتي من الشاطىء لتنقلهم الى هناك ، فيتدافع ركابنا الى جوانب

المركب ليزحفوا عليها نزولا الى القوارب • ولكنهم لم يكن يسمح لهم بأن يفعلوا ذلك قبل أن يقوم حمد بن سالم ، المسؤول عن حسابات المركب ، بالتدقيق على حساب كل واحد منهم ، للتأكد من أنه ليس مدينا للمركب بشيء ، والا فانه لا يسمح له بمغادرة المركب • وكان الحضارمة القادمون من شحر قد سددوا أجور سفرهم مقدما • الا أن بعض الركاب القادمين من موقاديشو ، وبعض المتشردين الذين قدموا معنا من لامو ، لم يكونوا قد سددوا حساباتهم ، وكان على بعض الركاب أن يدفعوا ثمن ما تناولوه من طعام المركب بعد أن نفذت مؤنهم • وكان حمد يرقب الجميع بعينين كعيني النسر ، فقد كان يتقن هذا النوع من العمل اتقانا تاما • فلم يكن يتأثر بأية محاولات أو مشاحنات أو وعود ، فما كانت كلها تعني شيئا بالنسبة له • ولم يكن مستعدا أن يفهم الا شيئا واحدا ألا وهو أنه غير مستعد للسماح لأحد بمغادرة المركب ما لم يسدد حسابه كاملا ، وكان هذا بالنسبة له قرارا نهائيا لا عودة عنه • وقد وجدت متعة وأنا أرقب احد الركاب القادمين من موقاديشو وهو يحاول أن يقنع حمداً بأن يسمح له بالنزول ، بأن يغريه بالثروة الطائلة التي سيحصل عليها منه حالما تطأ قدماه البر • ولكن حمداً لم يسمح له بالنزول رغم الحجج وطرق الاقناع المختلفة التي لجأ اليها ، ورغم ان احتجاجاته واستغاثاته قد ملأت الميناء بأكمله ، فلم يكن ذلك يفيد في شيء ، بل كان عليه أن يستدعي من المدينة من يكفله أو يدفع ديونه قبل أن يسمح له بالذهاب • وبما أن البحارة كانوا يحصلون على مكافآتهم عن الرحلة على نظام الحصص ، فقد كان من صميم مصلحتهم الا يسمحوا لأحد بمغادرة المركب قبل أن يسدد ما عليه من أجور سفر وثمن طعام الخ ، فقد كانوا قد خسروا ما فيه الكفاية بسبب العمانيين الذين سافروا معنا من صور •

لم أستطع التعرف على بعض ركابنا وهم يغادرون المركب الى القوارب ، فقد كانت هيئاتهم قد تغيرت تغيرا كليا • فها هو ذلك العجوز الفظيع ، ذو العين الواحدة والوجه القبيح جدا ، ذلك الرجل البخيل ، المعروق ، الذاوي ، الذي لا يطاق ، والذي لم يغير ثوبه منذ ذلك المساء الذي اعتلى فيه مركبنا في ميناء شحر حتى هذا الصباح ، والذي كان يسمي نفسه « شيخا » ، ويتبارى مع الاخرين في الأذان للصلاة — ها هو الان يتقدم من سور المركب ، وهو في منتهى الاناقة ، يضع على رأسه كوفية بيضاء جديدة ، ويرتدي ثوبا طويلا فضفاضا من الحرير الياباني ، فوقه عباءة سوداء مصنوعة من وبر الجمال ، وموشاة الاطراف والاكمام بخيوط مذهبة ، تتدلى منها شرابتان ثقيلتان موشاتان بخيوط مذهبة ايضا • لقد بدا هذا الصعلوك بملابسه الجديدة رجلا محترما الى حد ما ، وأصبح البدو والركاب الآخرون ينظرون اليه بشيء من الاجلال والاحترام ، على الرغم من أنه كان

قد أصبح موضعا لسخرية الجميع وهو على ظهر المركب • وها هو أيضا ذلك الزمار الكفيف ، الذي كان قد تشاجر مع الولدين المرافقين له ، يرتدي وزرة جديدة مخططة باللونين الاخضر والابيض ، ومزماره في حزامه جاهز للاستعمال عند الحاجة ، وكان الصبيان المرافقان له يرتديان قميصين نظيفين أيضا • كما كان كثير من البدو قد ارتدوا الوزرات ذات الالوان الصفراء والحمراء الفاقعة ، بل ان بعض الحضارمة كانوا يرتدون المعاطف أيضا ، وكانت هذه مصنوعة من القطن الخشن ، ومخاطة في اليابان ، ومسوقة في بلدان الجزيرة العربية • فليس هناك سوق واحد على شواطىء الجزيرة العربية لا يعرض للبيع مثل هذه الملابس التعيسة ، بأسعار تبدأ من اربع آنات فصاعدا(١) • وكان معظم الحضارمة يبدون أنيقين وهم يرتدون الوزرات النظيفة التي تصل الى ركبهم والقمصان النظيفة ، ويتمنطقون بأحزمة النقود والزنانير الملونة ، ويلفون قطعا رفيعة من الصوف الاسود حول سيقانهم ، ويعتمرون العمائم الكبيرة الزاهية الالوان على رؤوسهم • لقد كانت أحزمتهم خالية من المال تقريبا ، وبطونهم خاوية أيضا ، ولم تكن لديهم أية فكرة عما سيحصل لهم في ذلك المكان الغريب • الا أنهم ، برغم ذلك كله ، كانوا يغادرون المركب دون خوف من المجهول ، بل أنهم كانوا يتحلون بروح الرواد الاوائل ، وقد عقدوا العزم على شق طريقهم في الحياة هناك بطريقة أو بأخرى •

وقد استفسرت من ضابط الهاجرة عما يحل بهؤلاء في ممباسا ، فأجاب أن كثيرين منهم يصبحون من صغار البوابين ، مع أنهم بدأوا يفقدون هذا النوع من العمل فى الآونة الاخيرة• فقد أخذ رجال الادغال، الآتون من داخل أفريقيا ، ينافسونهم ويثبتون أنهم أفضل منهم من حيث القوة والقدرة والبعد عن الغش والخداع • علاوة على ذلك ، فقد كان هؤلاء يحتفظون بأموالهم وينفقونها في داخل البلاد ، بينما لم يكن العرب يفعلون ذلك في أغلب الحالات • فقد كان هم العربي الاول أن يجمع ما يكفيه من المال ليعود الى وطنه ، ومع أنه كان يأتي مستعدا للقيام بأي عمل ، الا أنه نادرا ما كان مستعدا للاستقرار ولشق طريقه في هذه البلاد • فقد كان ينظر اليها فقط على أنها مورد للثروة ومكان للاقامة المؤقتة ، ولا قيمة لها الا بما تقدمه له من المال الذي يمكنه من العودة الى الجزيرة العربية ، والعيش هناك عيشة راضية • وكان كثيرون جدا من العرب يفعلون هذا ، فيأتون الى كينيا ،

---

(١) الاربع آنات تعادل ربع الروبية أى أقل من ٦ بنسات انجليزية (قديمة) أو حوالى عشر سنتات أمريكية (المؤلف) • هذه الاسعار قديمة جدا ، كما أن قيمة الروبية قد انخفضت كثيرا بالنسبة للعملات الاخرى • كذلك تغيرت قيمة العملات الاخرى أيضا (المترجم) •

ويعملون بجد ونشاط مدة سنة أو اثنتين ، بل وربما خمس سنوات ــ فقد كانوا يتحلون بالصبر ــ الا أنهم كانوا دائما يعودون الى الجزيرة العربية حالما يتيسر لهم المال الكافي • بل أن بعضهم كانوا يعودون الى أوطانهم كل موسم ، فقد كانت السفرة رخيصة ، لا تكلف من ممباسا الى المكلا ذهابا وايابا في أي مركب عربي أكثر من خمس عشرة روبية ، أي ما يعادل اكثر من الجنيه الاسترليني بقليل • كما كانت الحياة بالنسبة للعرب رخيصة جدا في ممباسا ، وأيسر منها في حضرموت • فلم يكن العربي المتجول بحاجة الى سقف يظله ، كما كان يحمل فراشه على ظهره أينما ذهب • وهو يستطيع العيش على الكفاف ، فلم يكن يتكلف أكثر من آنتين أو ثلاث آنات في اليوم ، أي أقل من خمسة سنتات أمريكية • وهذه كلفة حياته في المدن ، أما عندما يكون في الريف بين عشيرته ، فان تكاليف الحياة تصبح قليلة لا تذكر • فقد كان عادة يعود ببضع هدايا من افريقيا يوزعها بحكمة وتعقل ، وينفق دريهمات قليلة في المقهى ، كأن يكون كريما مع النادل الذي يعد له نارجيلته ، ويحتفظ بسمعة طيبة بالمداومة على ارتياد المسجد ــ وكان ذلك كفيلا بأن يجعله موضع ترحيب من الجميع الى فترة غير محدودة • وعندما تنفذ نقوده كلها ، يعاود الكرة الى افريقيا ، أو يولي وجهه شطر جاوا ، أو الهند ، أو سنغافورة • فكما كانت هناك جالية عربية حضرمية كبيرة في ممباسا ، كانت هناك جاليات مماثلة في جاوا ، وفي كل المدن الساحلية • وقد لاحظت أن كثيرا من المغامرين الشبان على ظهر المركب يحملون صحفا صادرة في مكان ما في جزر الهند الشرقية الهولندية ، نصفها مطبوع باللغة العربية والنصف الآخر باللغة الهولندية •

وقد علمت أيضا أن العرب كانوا فيما مضى يحتكرون مهنة تحميل البضائع وتفريغها في ممباسا ، وبخاصة في الميناء القديم • الا أن هذا العمل قد انتقل الى الافريقيين الآن ، وأصبح على العرب أن يقنعوا بحمل الاثقال الأقل أجرا ، وبمهنة السقاية ، وذلك بأن يحملوا وينقلوا الماء العذب في صفائح وقرب جلدية الى بيوت العرب القاطنين هناك ، كما أن بامكان العربي أيضا أن يعمل كحارس ليلي ، يقضي وقته نائما على دكة خشبية أمام احدى البنايات أو الحوانيت ، أو يعمل بائعا للقهوة التي يحملها في ابريق نحاسي تتقد تحته نار صغيرة من الفحم ، ويتجول بها في الطرقات وهو يطرق الفناجين الفخارية بعضها ببعض للاعلان عن بضاعته • أو يعمل كبائع متجول للسلال والخمارات والاقمشة القطنية التي يتجول بها في الاسواق ، أو يستطيع أن يعمل كصاحب حانوت صغير ، مع أن هذه مهنة يحسد عليها كل من يصل اليها • وقد خيل الي بأن معظم هؤلاء العرب من سكان السواحل يرغبون في أن يصبحوا من أصحاب المتاجر • ولم يكن مهما أن

تكون الدكان كبيرة أو صغيرة ، أو أن تكتظ فيها البضائع أو تقل ، فقد كان صاحبها يقنع تماما ما دام لديه مساحة كافية يعرض فيها بضاعته ، ويجلس على مقربة منها يدخن نارجيلته بهدوء ولذة • وقد لاحظت أن هذه الدكاكين الصغيرة كانت هى السائدة فى كل الاسواق العربية ، على الرغم من أن قيمة جميع البضائع الموجودة فى نصف دستة منها لا تزيد عن خمسة دولارات ، فقد كان يكفى أن تحتوى الدكان ، بالمقاييس العربية ، على عدد قليل من حبات المانجو والبرتقال والليمون وجوز الهند ، وقليل من الارز ، والفلفل ، والقمح ، وبعض حزمات من الطباق العربى الرخيص ، ومجموعة صغيرة من خردوات اليابان الزاهية الالوان ــ كانت هذه الاشياء تكفى لفتح محل تجارى •

لقد رأيت بعض ركابنا على البر ، أثناء توقف مركبنا فى ممباسا ، وكان بعضهم يعملون كبائعين متجولين فى السوق ، وهم يحملون رزما صغيرة من الوزرات ، والقمصان ، والشالات ، والعمائم التى كانوا يعرضونها على كل من يمر بهم • وعلى الرغم من أنى لم ألاحظ أنهم كانوا يبيعون الكثير من سلعهم ، فقد كانت القناعة بادية على وجوههم • وكان بعضهم ينوع بضاعته باضافة بعض السلع الاخرى اليها ، كالمسابح الاسلامية المعروفة ذات الحبات الثلاث والثلاثين ، المصنوعة من الكهرمان الصناعى الرخيص ، وكزجاجات العطر المهرب الصغيرة جدا ، وورق اللعب المجلوب من عدن ، أو بعض مستحضرات الغسيل والاستحمام ذات الروائح القوية جدا • وقد رأيت غير هؤلاء ، وقد أصبحوا يعملون بالفعل كبائعين فى بعض الدكاكين الصغيرة التى ربما كانت تخص بعض أقاربهم • فهنالك حركة سفر نشطة جدا بين صغار الباعة تمتد من موانىء الساحل الافريقى الى جنوب الجزيرة العربية وبالعكس • فكثيرا ما يعود أحدهم الى الوطن لمدة عام أو عامين ، بينما يأتى بعض أقاربه ليحلوا محله فى دكانه ويواصلوا التجارة • وأخيرا فقد لاحظت أن آخرين كانوا قد بدأوا يحاولون الدخول فى منافسة باعة القهوة المتجولين، رغم ازدحام تلك المهنة بأكثر مما تحتاج من الرجال • وخلاصة القول أن الجميع تقريبا لم يكونوا يضيعون الوقت هباء ، بل كانوا يبدأون عملهم ونشاطهم في نفس اليوم الذى يغادرون فيه المركب ، وتطأ أقدامهم اليابسة •

أما المتسولون الذين نزلوا من المركب فلم يضيعوا هم الاخرون وقتهم هباء ، فلم تكن الفرصة متاحة لهم على ظهر المركب لممارسة نشاطهم ، كما أنهم لم يسمح لهم بذلك أيضا فى موقاديشو • الا أنى ما كدت أنزل الى البر عصر اليوم الاول ، حتى رأيت ذلك الضرير سىء الخلق ، وهو يقف فى السوق بالقرب من دار للسينما ويعزف أعلى الالحان على مزماره ، بينما كان أحد

الصبيين يتسول ، والآخر يجمع بعض أعواد الحطب ليوقد نارا • وعندما مررت بالرجل ، أخذ يدعو لى بصوت متهدج طالبا الاحسان ، ولكنى لم أعطه شيئا ، فقد كان واحـدا من أسوأ الرجـال الذين حملناهم على المركب من الجزيرة العربية •

أما الركاب الآخـرون الذين لم يكونـوا متسولين ، فلم تكن أحوالهم حسنة كهؤلاء ، فقد أصبحت فرص العمل كبوابين نادرة ، وأصبح الافريقيون هم المفضلون لهذا العمل • ولكن أولئك الذين سبق لهم أن كانوا فى شرقى أفريقيا لم يجدوا صعوبة تذكر فى تدبير أمورهم واستقرار أحوالهم ، فقد كان لكثـير منهم أقـارب أو رجـال من نفـس قبيلتهم تمكـنوا من تأميـن العمل لهم • أما البـدو الذين لم يكونـوا قد غادروا حضرموت من قبـــل ، فلم يجدوا الامر سهلا ، لانهم لم يكن لهم أقارب ولا أصدقاء على تلك المسافة البعيدة عن الوطن • وقد رأيت عددا منهم أثناء رسو المركب في الميناء • وكانوا متميزين حتى فى ذلك الخليط الدولى من البشر فى ممباسا ، فقـد كانت وجوههم البدوية واضحة لا مجال للخطأ فيها ، وكذلك كانت أجسامهم الهزيلة الملوية المغطاة بالوشم والتى ليس عليها سوى تلك الوزرات السوداء القصيرة ، وكذلك جدائل شعرهم السوداء غير المرتبـة المدهونـة بالسمن • وكانوا يتجولون هنا وهناك كالاطفال الذين فقدوا أبويهم ، يحملقون بدهشة فى المناظر الغريبة كأنهم غير قادرين على فهمها ، ويسيرون وهم حفـــاة منتصبو القامة ، وكلهم حنين وشوق لمنظر جمل أو زوبعة من الرمل تهب من اتجاه الصحراء • ولم يكونوا يجلسون فى المقاهى لضيق ذات اليد ، كما لم يكونـوا يتسكعون فى السـوق ، فلم تكن أطايبـه من نصيبهم • بـل كانوا يتواجدون فى الارض العراء أو فى حقل قريب من القلعة البرتغالية على مقربة من الميناء ، وهم مرتبكون حائرون وعيونهم متجهة الى ناحية الشمال • لقد قدموا من مسافة بعيدة ، وأبحروا على هذا المركب الكبير عدة أيام ، ولكن ما هو المصير الذى ينتظرهم الآن ؟ عسى أن يكون مصيرا جيدا • فقـد أعجبتنى كثير من الخصال الطيبة المتأصلة فى طبيعتهم البسيطة •

وفى أحد الايام ، كنت أسير فى شارع فرعى عائدا الى المركب ، واذا بصوت صبيانى ينطلق فجأة ويحيينى تحيـة الاسـلام : « السلام عليك أيهـا النصرانى ! » فخفضت بصرى دهشة ، واذا بى أرى طفلا صغيرا عرفت فيه ابن البدوى « عودة » • وكان هذا جالسا على الرصيف الحار ، وهو يرتدى وزرة صغيرة ، ويبتسم بعينيه الكبيرتين الصافيتين ، فبدا لى مخلوقا صغيرا جدا ، لا يجوز بحال من الاحوال أن يكون وحده هنا فى أفريقيا ، بعيدا عن أرض الوطن ! الا أن الصغير كان يبدو سعيدا رغم التعب البـادى عليـه ،

ورغم الجوع الذى ربما يكون يشعر به• وكان يلعب بعصا يطرق بها الاسفلت بعنف المرة تلو المرة ، لا لسبب ظاهر سوى أنه ربما كان يتمتع بالصوت العالى الناتج عن ذلك ، وهو يفعل ذلك وعيناه تجيلان النظر فى عجائب ممباسا من حوله ، وربما كانت احدى تلك العجائب أنه لم تتح له من قبل أن يضرب الرصيف بالعصا كما يفعل الآن • توقفت عن السير ، وسألته عن أحواله ، ولكنى لم أفهم من كل ما قاله بلغته العربية الصبيانية سوى أنه كان ينتظر والده • وفى تلك اللحظة ظهر والده وهو يقترب منا بصمت وهدوء • وكان هذا أيضا يبدو متعبا ومرتبكا كأن المدينة كانت أكثر مما يطيق ، وضجيجها وخفاياها مدعاة لبلبلة ذهنه البسيط الصافى • وكان يسير حافى القدمين ، عارى الرأس تنسدل جدائل شعره السوداء الطويلة على كتفيه ، وقد طليت بالسمن ، ولا يرتدى سوى وزرة سوداء ، ويضع على احدى كتفيه عباءة من الخام المصبوغ باللون الاسود • وكان يبدو مهيبا ، متزنا ، محافظا على زمام نفسه ، رغم ارتباكه وحيرته ، فلم يكن محاربو الصحراء ممن تطغى عليهم زحمة المدينة وشوارعها وضجيجها وحشودها •

وقد علمت من عودة أنه لم يستطع الحصول على عمل ، ولا يعرف أين يبحث عنه ، وأنه هو وطفله ينامان فى أحد البساتين ، وأنه سعيد بذلك فقد كان البستان لطيفا ، فيه خضرة وفيه كثير من الاشجار • وكان واثقا من أن الامور ستتحسن ، فقد قدم هو وطفله من مسافة بعيدة جدا ، ولن تتخلى عنهما رحمة الله الواسعة • ولم يطلب منى شيئا ، كما لم يجأر أى منهما بالشكوى ، فقد وصلا ، بمعونة الله ، الى افريقيا ، حيث أرادا الوصول ، وكان هذا كافيا بالنسبة لهما • ولم أكتشف أنهما كانا جائعين الا عندما أعطيت الصغير بضع دريهمات كهدية وداع ، فخاطبني وكأنه رجل مكتمل الرجولة ، قائلا انه يشكرنى على الهدية ، وان باستطاعته الآن أن يشترى شيئا من الطعام • الا أن جملا كان يمر فى تلك اللحظة ، وهو يبدو كأنه تائه وفى غير مكانه كصاحبيّ البدويين ، فهب الطفل واقفا ، وصفق بيديه فرحا لرؤية الجمل ، فسقطت النقود منه وضاعت فى المجارى •

لقد كان عودة وابنه يتحليان بالشجاعة والانفة ، فقد كانا وحيدين جائعين فى ذلك الشارع الممتد فى ممباسا ، ولكنهما كانا مكتفيين ذاتيا ، وغير هيابين من شىء • كما كان ايمانهما برحمة الله ، التى لا تعرف الحدود ، ايمانا عميقا لا تهزه الرياح ، ونظرتهما الى المستقبل جلية مشرقة متفائلة • وعندما اضطررت الى مغادرة المكان ، أخذ كلاهما يلوحان لى بأيديهما ، ويتمنيان لى التوفيق من الله • وعندما التفت لانظر اليهما للمرة الاخيرة ، كان عودة وابنه يسيران فى الشارع خلف الجمل ، وهما متشابكا الايدى ••

لقد أحببت الاثنين كليهما ، فقد كانا نعم الرفيقين • وانى أتمنى لهما حظا سعيدا ، وأرجو أن يكون الحظ قد تبسم لهما فى مكان ما من كينيا • لقد كانت هذه آخر مرة تقع عينى عليهما •

كان من المقرر أن يقام احتفال راقص كبير على ظهر المركب فى الليلة التالية لنزول الركاب الى ممباسا ، الا أن أحدا لم يعثر لاسماعيل الموسيقى على أثر ، كما كان البحارة قد نزلوا الى البر سعيا وراء الفتيات المحليات ، على الرغم من قلة ما نال كل منهم من نقود المركب • ولذلك فقد أجلت الحفلة الى وقت لاحق ، وأقيمت بعد عدة ليال • لقد كان الرقص جميلا بشكل خاص ، رغم أنى كنت أشعر أنى قد شاهدت كل ما يستحق المشاهدة من هذه الحفلات من قبل • كانت أسطح المركب خالية من الناس والامتعة للمرة الاولى منذ أن اعتليت ظهر المركب ، وكان كل من القارب الطويل ، و « عفرة » المركب الجديد الذي يصنعه النجار ، معلقا على جانب المركب ، وكانت الاسطح قد كنست ونظفت ، بل كانت مفروكة فركا جيدا ، لدرجة أنها كانت تلمع من النظافة غير العادية • وكان شراع قد مد من العارضة الرئيسية ونشر كالمظلة فوق السطح الرئيسى ، كما كانت كل سجادة متوفرة في المركب قد مدت ، بل واستعير غيرها من المراكب المجاورة ، بحيث غطيت بها كل أسطحة المركب • وكان المركب بأكمله قد خصص لهذا الاحتفال ، فكان الضيوف يتسلقون السلم الى سطح المؤخرة حيث يستقبلهم نجدى وحمد بن سالم فيخلعون نعالهم ثم ينزلون الدرج من المؤخرة الى السطح الرئيسى ، ويجلسون على السجاد تحت المظلة ، ويتكئون على الوسائد التى كانت مصفوفة على طول الباب المقفل المؤدى الى باطن المركب • لقد كان منظرا لطيفا مهيبا • وكان البحارة يجلسون على الجانبين فى صفين طويلين ، وهم يرتدون أفضل ملابسهم وأنظفها ، وقد شذبوا شواربهم بعناية ، ونظموا لحاهم بشكل لطيف ، كما فعل حمد بن سالم الذى رتب شعر لحيته السوداء بطريقة هندسية منتظمة • وكان هؤلاء البحارة يجلسون بهدوء على حافتى المركب ، بينما كان نجدي وضيوفه يجلسون في الوسط ، حيث كان غطاء باطن المركب واطئا ومريحا • وكان اسماعيل يعزف على قيثارته ألحانا شجية ، للمرة الاولى منذ أن عرفته ، ويبدو أن بعض أغانيه كانت تتألف من حوار عاطفى بين فتاة وحبيبها ، فكان الحاضرون يطربون لذلك ويضربون بأيديهم على أرجلهم وهم يقهقهون ويصيحون اعجابا •

وكان عازف كمان قد أُحضر من بغلة عمانية كان قبطانها ، ذو اللحية السوداء ، يجلس صامتا قرب نجدى طيلة الامسية ، كما كان هناك عدد من الدفوف ، ومثلث معدني واحد ، وتسعة طبول على الاقل ، كان اثنان منها

طبلين هنديين كبيرين ، مشدودا عليهما جلد ماعز جديد ، كانوا يسخنونه بين الفينة والفينة على نار جاسم الدائمة الاتقاد • أما الطبول الاخرى فكانت أسطوانية صغيرة مصنوعة من فخار البصرة ، ومغطاة من أحد جوانبها بقطع من أحشاء الماعز • وكانت هذه الطبول أيضا بحاجة الى تسخين من آن لآخر • وكانت تقرع باليد ، مرة بالاصابع ومرة بالابهام ، ويتناوب البحارة على قرعها واحدا بعد الآخر • لقد كان الايقاع ، الذى كانوا يستطيعون المحافظة عليه بالدفوف والطبول ، ممتازا ، وفى بعض الاحيان مؤثرا جدا ، فقد كان من الواضح أن لديهم جميعا احساسا طبيعيا بالنغم والايقاع السليمين • وكان سطح المركب الرئيسى مضاء بالنور الخافت ، المنبث من مصباحين ، لم أر أحدا يستخدمهما فى أى وقت مضى ، كما كان وهج النار يصدر من موقد جاسم فينعكس على خشب الصارى النظيف اللامع • وقد تضافرت هذه مع ألوان السجاد الفاقعة ، وعبارات الرجال المهيبة ، والصارى الضخم الثقيل بلونه الداكن اللامع ، والظلة المظلمة التى كانت مصنوعة من الشراع الممتد فوق رؤوسنا ـ لقد تضافرت هذه جميعا لتضفى على المكان جوا رومانسيا خلابا • لقد كان البحارة فى أفضل حالاتهم ، وكان غناؤهم كما كانت أهازيجهم رائعة • وكان يجلس فى الوسط حوالى عشرين ضيفا بمن فيهم النواخذة القادمون من المراكب الاخرى ، وعمانى واحد ، وفارسى واحد أو اثنان ، وعدد من العرب القاطنين فى المدينة •

وكان البحار عبد اللطيف (١) يقود الغناء الجماعى ، فقد كانت هذه وظيفته ، وكان دائما يفعل ذلك عند رفع العارضة ، ونشر الشراع ، وعند قيادة القوارب • وكان يتلقى اكراميات من أجل ذلك ، كما كان يشترط عليه أن يقوم بذلك عندما يتفق معه نوخذة المركب فى بداية الرحلة ، مثلما كان اسماعيل يتلقى الاكراميات لعزفه الموسيقى ، ويوسف العجوز للخدمات الاضافية التى يقدمها • لقد كان غناء عبد اللطيف جيدا ومقبولا ، الا أنى كنت أفضل عليه الصوت الاجش الذى كان يصدر عن العبد زيد ورفاقه • وكان اسماعيل أسوأ المغنين جميعا ، وقد اضطررت عندما امتد السهر حتى وقت متأخر من الليل ، أن أغتنم فرصة كان الآخرون فيها غافلين عنا ، وأنفحه قليلا من المال لكى يكف عن الغناء •

الا أن مثل هذه الاحتفالات كانت تمتد عادة حتى الصباح • وعند منتصف الليل شاء سوء حظى أن يعتلى المركب أحد كتاب المهاجرةالسواحليين ،

---

(١) هو عبد اللطيف الرشود ، وكان يعمل مغنيا (نهاما) على مركب نجدى بصفة مستمرة ، ويكون برفقته ، فى العادة ، نهام آخر هو راشد المراغى • (المترجم عن أحمد البشر الرومى) •

وهو فى حالة سكر شديد ، فيولد ازعاجا وضجة عظيمين ، وسرعان ما يمنح اسماعيل مبلغا كبيرا من المال لكى يستأنف الغناء • وكان هذا السواحلى رجلا له أهمية بالنسبة لأولئك العرب ، ولكنه كان ، لسوء الحظ ، ثملا جدا حتى أنه لم يتمكن من الوقوف على قدميه • وكان يصر على الغناء ، وكان غناءه سيئا جدا ورقصه أسوأ ، الا أنه كان يواصل محاولة الوقوف والرقص فيتعثر ويسقط بين الموسيقيين • وكان هذا هو السكير الوحيد الذى رأيته على ظهر مركبنا ، أو على ظهر أى مركب آخر فى ذلك الجزء من العالم • لقد كان بعض العرب يشربون قليلا ، ولكنهم لا يبالغون فى ذلك ، كما كانوا يفعلون ذلك فى الخفاء ، وبكل هدوء ، ولم يكن احدهم يجرؤ أن يصل الى حالة من السكر الشديد ، بل كانوا يتجنبونها بكل ما ملكت أيديهم ، لأن المسلم اذا ضبط ثملا ، فقد هيبته ودينه الى الابد • الا أن هذا السواحلى كان ثملا لدرجة مخيفة وغير آبه بمن يراه على تلك الحالة • ومع ذلك فلم يعترضه أو يحاول ابعاده أحد ، وكان أحدا لم يلاحظ أنه كان ثملا • وهكذا استمرت الحفلة واستمر الرقص بمرح وبهجة ، دون الالتفات الى حركاته • الا أن حسابه جاء فى اليوم التالى ، فلم يكن المسلمون الاتقياء يتسامحون فى أمر السكر ، خاصة وأن الانسان الثمل ينسى تادية الصلاة (المفروضة على كل مسلم) •

لقد كان الاحتفال أفضل ما رايت على الاطلاق ، وقد رقص نجدي مع عدد من النواخذة الكويتيين ، الا أنه لم يرقص مع النوخذة العماني • وكان الرقص يتالف كالعادة من جر القدمين الى الامام ، ثم الى الخلف ، على السجادة الممدودة على الطرف الايسر من السطح ، وذلك بكل جدية ووقار ، ولكن من غير رشاقة ملحوظة ، وكانت الخطوات تتوافق مع الايقاع الصادر عن الطبول • وبعد أن يستمر هذا مدة عشرين دقيقة تقريبا يبدأ الايقاع بالتسارع ، كما تبدأ خطوات الراقصين بالاسراع ، الى أن يقف الراقصون أمام الموسيقيين ، ويأخذون بهز اجسادهم بعنف على وقع الانغام العنيفة الصادرة عن القيثارة ، والاصوات العالية الناتجة عن قرع الطبول قرعا عنيفا متواصلا • وكان هذا الجزء من الرقص دائما مثيرا جدا للبحارة ، حتى أن عددا منهم كانوا لا يتمالكون انفسهم فيهبون واقفين ، ويهرعون للمشاركة في الرقص • وقد يقف عدد كبير منهم ، ربما بلغ الدستة ، هناك أمام الموسيقيين وهم يهزون اجسامهم بعنف والبهجة العظيمة بادية على وجوههم • وعندما يجد اسماعيل أنهم قد نالوا ما يريدون ، يضرب أوتار قيثارته ضربة الخاتمة ، فتقرع الطبول القرعة الاخيرة ، وتتوقف الموسيقى فجأة ، فيقفز الراقصون قفزات عالية في الهواء ، ويستديرون وهم يصيحون صيحات الفرح ، ويضحكون ، ثم يعودون الى مجالسهم • لقد كان هذا دائما

مصدر بهجة ومتعة عظيمتين لهم ، ولم يكونوا يملون منه أبدا · ولكني للاسف لم استطع ان اتابع النغم والايقاع ، كما لم استطع فهم معنى لهذا الرقص · فلم يكن بامكان أذني غير المدربتين أن تحكما متى يكون الوقت مناسبا للاستدارة ، أو للقفز ، أو للقيام بأية حركة اخرى · كما لم استطع أن أتبين نظاما خاصا لتلك الحركات ، وسرعان ما تخليت عن المحاولة كلية ·

لم تقم الحفلة للتعبير عن الفرح بايصال الركاب الى بغيتهم ، أو للترفيه عن أصدقاء المركب من سكان المدينة فحسب ، بل كانت ايضا مناسبة لعرض مهارة صاحبنا اسماعيل في العزف الموسيقي · فقد كان من الواضح انه كان موسيقيا ومطربا مشهورا في أوساط سكان البلدان المطلة على الخليج العربي · ولا بد أنه كان نصرا كبيرا لنجدي أن يتمكن من اقناع شخص من هذا النوع بمرافقته في سفرته الى افريقيا ، كما لا بد أن يكون القبطان العماني ، وكذلك غانم بن عثمان ، اللذان لم يكن نجدي يميل اليهما كثيرا ــ لا بد أن يكونا مستائين جدا ، ويحترقان بنار الحسد والغيرة · والواقع أني لا أعلم ما اذا كان كلامي هذا صحيحا ، الا ان ذلك كله كان يضيف أهمية خاصة واعتبارا خاصا لنجدي في نظر أقرانه ، وكان هذا يعني كل شيء بالنسبة له ·

واستمر الحفل حتى الهزيع الاخير من الليل ، بل استمر الليل كله ، ولم يتعب البحارة أو يملوا من الرقص والغناء · أما الكاتب السواحلي فقد غلبه النعاس فنام حوالى الساعة الثالثة صباحا ، وسرعان ما أنزل الى أحد القوارب ، وأبعد الى الشاطيء ، وهو يصدر شخيرا عاليا · وأما حمد بن سالم ، الذي لم يكن يرقص أبدا ، والذي لم يكن مغرما بموسيقى اسماعيل وغنائه ، كما كان الحال بالنسبة لي ، فقد انسل بعد منتصف الليل بقليل ، الى احدى السجادات التي كانت ممدودة على اقصى طرف من أطراف المؤخرة ، وحاول أن ينال قسطا من النوم · وحاول يوسف الشيرازي ، الذي لم يكن يشارك في الرقص أيضا ، أن يفعل مثله ، ولكن « نجدي » كان يناديه بصوت عال بين كل لحظة وأخرى ، فيحرمه من النوم ، حتى أنه كان الأجدر به الا يحاول ذلك اصلا · ولكن « يوسف » كان يحب النوم حبا جما ، وكان ينظر الى كل دقيقة لا يقضيها نائما كأنها دقيقة ضائعة سدى · ومع أنه لم يكن يستطيع أن ينام أكثر من ثلاث دقائق في المرة الواحدة ، الا أنه كان دائما يستفيد من تلك الفرص · ومن آن لآخر ، كانت تدور على الحاضرين اكواب الشراب المتعددة الالوان (التي لم يكن أي منها يغري بالشرب ، فلم تكن سوى ماء ملون باللونين الاحمر والازرق بشكل خاص) ، أو تدور أكواب الشاي الشديد الحلاوة ، أو القهوة المرة

(السادة) ، أو التمر ، أو التين المجفف ، أو ذلك النوع الرهيب الاصفر اللون الذي كانوا يسمونه « حلوى » ، والذي يصيب الانسان بالغثيان ، ويلتصق بالاصابع واللسان ، ويشبه طعمه طعم المعجون المصنوع من دبس السكر والسكر الرديء مضافا اليهما نكهة العسل المبهر . وكان باستطاعة نجدي أن يأكل كمية هائلة منه ، كما كان الآخرون يلتهمونه التهاما بلذة كبيرة ، ولذلك فقد كنت دائما اقدم لهم نصيبي منه . بالاضافة الى هذه الاكلات الشهية ، كانت تقدم لنا أشياء مختلفة تماما ، كالفاكهة الايطالية المعلبة التي تباع في موقاديشو باسعار زهيدة ، والبسكويت البلجيكي المصنوع خصيصا ليباع في افريقيا .

وأخيرا مللت وتعبت ، وراودني النعاس ، فانتحيت جانبا ، وتمددت على سجادتي المفروشة على سدة النوخذة في المؤخرة . وكان ذلك حوالى الساعة الخامسة صباحا . الا أن الباقين تابعوا سهرهم وغناءهم يقودهم عبد اللطيف وزيد . وقد غلبني النعاس فنمت على أنغام الموسيقى ، ودقات الطبول ، وضحكات الساهرين ، واذكر انهم كانوا عندئذ يغنون اغنية بحرية فارسية جميلة . وبعد ساعة او اثنتين أيقظني أذان سلطان داعيا المسلمين لصلاة الصبح . وقد لاحظت أن البحارة كانوا في نشاط الاولاد الصغار ، رغم انهم كانوا قد امضوا الليل بطوله في الرقص والغناء. وفي الصباح الباكر جاء السواحلي واعتذر عن سكره في الليل ، ولكنهم لم يصفحوا عنه ، كما لم ينس أحد القصة طيلة اقامتي على المركب .

لا شك أن ممباسا كانت بلدة لطيفة ، استمتع بها جميع البحارة كما استمتعت بها شخصيا ، بل اني لم أمل من الميناء القديم ومن المدينة القديمة ، وكان كل شيء مسليا وممتعا . فقد كانت هناك اكوام لب جوز الهند أمام مركز الجمرك والرائحة الثقيلة المنبعثة منها ، وغناء البحارة على مراكبهم في الميناء ، والمراكب المتنوعة الجميلة الراسية في الميناء ، وشكل الميناء الجميل مع قلعة عيسى ، والبيوت العربية التي تبدو في مؤخرة الصورة ، والماء ذو اللون الاحمر القاني حول الاخشاب التي كانت تجلبها المراكب الصغيرة من « لامو » ، وذلك اللسان الذي يمتد عبر الخليج ، تحف به أشجار جوز الهند الخضراء ، وتلك الاشرعة المثلثة البيضاء التي كانت تبدو لي دائما جميلة ، تذكرني بمراكب القراصنة ، ومقدمة مراكب البوم الرشيقة ومؤخرات البغلات الفخمة ، والشوارع المزدحمة بالناس من كل حدب وصوب ، من هنود وبلوش وسواحليين وعرب وبنجابيين و (أطباء اسنان) يابانيين وغيرهم من الشرقيين — لقد كانت جميع هذه الاشياء جميلة ومسلية ، وجعلت من ممباسا مكانا ممتعا حقا . لقد كان هذا هو نوع الميناء الذي أحبه .

وقد كان يهمني أيضا أن أعرف مدى نشاط التجارة في المراكب الشراعية · وفي ممباسا لم يبد لي آن هناك انحسارا في هذه التجارة · ففي خلال وجودنا هناك ، كان ما لا يقل عن ثلاثين مركبا كبيرا راسيا في الميناء · وكان معظمها مراكب من صور ، أو من بلدان أخرى على الساحل الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية · وتدل الاحصائيات أن (٢١٤) مركبا أجنبيا دخلت ممباسا عام ١٩٣٧ ، وان هذا العدد ارتفع الى (٢٤١) في العام التالي ، ومن المتوقع أن يزيد عن ذلك في عام ١٩٣٩ · وهذه المراكب تبدأ بالوفود مع هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، وتكون أولها عادة مراكب صغيرة من صور ومراكب « البدن » القادمة من ساحل المهرة ، والتي تهرع الى زنجبار ، وهي تحمل السمك المجفف ، والعرب الذين يهيمون حبا بفاكهة المانجو · ثم تتبعها المراكب الكويتية والفارسية ، وهي تحمل بضائع متنوعة كما تحمل ركابا من حضرموت · وتعقب ذلك المراكب الهندية التي تأتي من خليج كوتش وساحل ملابار ، ثم بعض المراكب الصومالية المختلفة التي تأتي من حيفون وهي ترفع العلم الايطالي · ويجلب العرب معهم الركاب والملح بكميات كبيرة من عدن حيث يباع بأسعار زهيدة · أما العمانيون ، من صور ، فيجلبون السمك المجفف الذي يباع في أسواق السواحليين · ويجلب العرب السجاد أيضا بكميات محدودة ، لان هذه سلعة غالية الثمن ، واذا كان السجاد عجميا أصليا فان من الصعب الحصول عليه ومن الصعب بيعه · كما يجلبون المواقد والسمن والمنتوجات العربية الاخرى · أما الهنود فيجلبون الآجر والاواني الفخارية· ولا يقوم هؤلاء برحلات يتاجرون فيها على حسابهم ، بل ينقلون البضائع التي يكون المستوردون الهنود الموجودون في شرق افريقيا قد تعاقدوا على شرائها من تجارا آخرين في الهند ·

وبالمقارنة بين ما يتكلفه المركب الاوروبي عندما يزور الموانىء المختلفة في العالم ، وبين ما يتكلفه المركب العربي ، نجد أن الاخير لا يكلف الا النزر اليسير ، وهذا هو السبب الرئيسي لاستمرار التجارة على هذه المراكب · فلم يكلفنا بقاؤنا في ممباسا مثلا أكثر من اربع دولارات ، أي أقل من جنيه استرليني واحد · فالعرب لا يطلبون أية تسهيلات في الموانىء ، فما دام هنالك خليج يرسون فيه ، ورصيفا يفرغون عليه البضائع ، فانهم لا يطلبون شيئا آخر · فهم يوقفون مراكبهم على مراسيها الخاصة ، ولا يقفون على الارصفة قط ، كما أنهم يفرغون بضائعهم بقواربهم الخاصة · واذا ما احتاج المركب الى تنظيف او اصلاح ، فانهم يسحبونه الى الشاطىء الرملي ، ويقومون بما يلزم بانفسهم · ولذلك ، فلو كان المرشدون ، وأصحاب مراكب القطر ، وموظفو الارصفة ، وعمال الميناء ، والحمالون ، يعتمدون

على العرب ، لماتوا جوعا ، لان العرب لا يضطرون لاستخدامهم · والواقع أن العرب يقولون بصراحة انهم لا يحتاجون أية رقابة أوروبية على الاطلاق ، ويعترضون على دفع أية رسوم تطلب منهم ، مع أنهم يعلمون علم اليقين بأنه ، لو لم تكن ممباسا في أيد أوروبية ، لكان عليهم أن يدفعوا أضعاف تلك الرسوم لابناء جلدتهم · الا أن لدى العربي كرها متأصلا لدفع أية رسوم أو عوائد حكومية ، لان لديه اعتقادا عميقا متوارثا بان جميع الرسوم والعوائد ما هي الا نوع من الابتزاز ، ولذلك فان الرسوم بالنسبة له لا مبرر لها ، وصيانة الموانىء لا داعي لها ، لانه يستطيع أن يستدل على الطريق التي يسلكها الى حيث يقصد الذهاب ، كما يعرف الموانىء العميقة التي تستطيع أن تحمل مركبه · ولذلك فان اعمال الموانىء ، والسدود الحجرية التي تمنع أمواج البحر ، وجميع أنواع التحسينات اللازمة للميناء لا تعني شيئا بالنسبة له ، وهو لهذا يعترض على دفع نصيبه من تكاليفها · وهو يقول انه كان دائما باستطاعته أن يبحر في هذه المياه ، فلماذا يدفع المال ليجعل من تلك الموانىء أماكن اكثر صلاحية وأمنا بالنسبة للاوروبيين ، الذين يعملون كل ما في طاقتهم لكي يبعدوه عنها ؟

وقد لفتت نظري بشكل خاص احدى المواد المذكورة في انظمة الميناء ، والتي تنص على أنه ، بموجب قانون المراكب المحلية « لا يجوز لاي مواطن محلي أن يستخدم بحّارا الا بعد أن يقابل ضابط الميناء ليتأكد هذا بأنه سيعمل بحارا حرا (أي ليس عبدا) » · كما انه لا يجوز أن يسافر أحد ، او يستخدم بحارا بدون رقابة السلطات ، كما أن قوائم البحارة وقوائم المسافرين على المراكب يجب أن تكون كاملة ودقيقة فهي تعتبر وثائق مهمة جدا · وقد فهمت أن جميع هذه الشروط لا تزال سارية المفعول ، وان القصد منها هو منع العرب من استخدام بعض السواحليين كبحارة اضافيين ، يسافرون معهم الى الجزيرة العربية بكل سرور ، ولكنهم يباعون هناك عبيدا · وقد تساءلت عما اذا كانت مثل هذه الشروط ما زالت ضرورية ، ولكن السلطات هناك كانت تؤمن بضرورتها · فقد أخبرني نجدي ، ان العمانيين (الصوريين) — الذي يلقى عليهم اللوم لكل خطأ يرتكب — ما زالوا يتاجرون بالعبيد ، اذا أمكنهم ذلك ، فما زالت للرقيق أسواق رائجة في عمان · ولذلك فهم لا يتورعون عن المتاجرة ببعض الافريقيين الاشداء ، اذا امكنهم الحصول عليهم ، فلم تكن هناك صعوبة في بيعهم عبيدا · وعندما كنت في « لامو » سمعت عن حالة ، أكدوها لي ، من حالات تجارة الرقيق · فقد كان أحد السمابك ، التابعة لاحدى بلدان عمان ، يشق طريقه من احد المسارات الخلفية لينطلق الى عرض البحر ، واذا به يقابل قاربا صغيرا جدا فيه افريقيان ، فيعترض طريقه ويغرقه عن عمد ، ويسوق الافريقيين الى

الجزيرة العربية حيث يبيعهما عبيدا . وقد حدث هذا منذ مدة قصيرة فقط ولذلك فقد كان الافريقيون ما يزالون حذرين من المراكب العربية ، مع أني من خلال خبرتي مع المراكب الكويتية ، لم ألاحظ أن أحدا حاول مرة واحدة أن يتعامل بهذه التجارة . وقد اعلمني نجدي أن من الصعب التخلص من رجل وبيعه رقيقا في الكويت ، فقد كان يكفي أن يذهب احدهم الى دار المعتمد البريطاني هناك ليصبح انسانا حرا . ولكنه طبعا لن يلاقي أية صعوبة في بيع عدد من الفتيات الفاتنات في الكويت لو أمكنه العثور عليهن . ولكن من أين يحصل على شحنة من هذا النوع ؟ فقد مضى عليه سنوات طوال وهو يحاول عبثا . وبموجب كلام نجدي ، فان الكويتي لم يكن أبدا من تجار الرقيق ، فقد كان المتخصصون فيها هم المسقطيون ، والصوماليون ، وسكان الباطنة وساحل عمان المتصالح . ولعل ذلك صحيح ، فالكويتيون حديثو عهد بالتجارة مع شرقي افريقيا ، ولكن لو اتيحت لهم الفرصة ، لا أعتقد انهم كانوا سيختلفون عن العمانيين (الصوريين) أو عن سواهم .

وكنت مرة في مكتب الشحن القائم على المرتفع المحاذي لرصيف التحميل ، فعثرت فيه على مجلد غريب يحتوي على معلومات كثيرة تعطينا فكرة عن كثير مما يجري على ظهر المراكب العربية والسواحلية والهندية . وكان هذا المجلد سجلا للحوادث . ومع أن مادته ، كأمثاله من السجلات ، لم تكن ممتعة للقارىء ، فقد جلست أقرأ بعض ما ورد فيه في صباح ذلك اليوم ، وأنا جالس في غرفة الجمرك داخل مكتب الشحن ، انظر من خلال النوافذ المفتوحة الى الميناء القديم في الخارج ، حيث تتزاحم المراكب العمانية والكويتية والهندية والحضرمية والفارسية وحيث ترى قوارب «لامو» آتية رائحة . ومن آن لآخر ، كنت أرى قاربا باجونيا محليا يندفع باتجاه احد المراكب مصحوبا بأنغام الموسيقى ودوي الطبول ، وبحارته يحملون الماء من البر الى مركب عماني راس بالقرب من مركبنا « فتح الخير » . بينما كنت أرى المركب القديم « بدري » ، وقد قطره أحد القوارب الى عرض البحر في الصباح الباكر ، يقف ساكنا على البعد بحيث ترى صورته في الماء الهادىء . فعلى الرغم من أن النسيم كان يهب معتدلا داخل الميناء ، لم يكن يبدو أن هناك أية نسمة ريح على الاطلاق في عرض البحر .

كان العمانيون على مركبهم يثيرون صخبا عاليا وهم يقرعون الطبول ويضربون المثلثات ، ثم يتوقفون جميعهم كل بضع دقائق ليصفقوا بأيديهم الضخمة ، فتصدر عنهم ضجة عظيمة تسمع في جميع أرجاء الميناء . وعلى الشاطىء كان بحارة جلبوت مسقطي يسحبون مركبهم في أثناء المد العالي ،

لكى يقف على الرمل عندما ينحسر الماء ، (فيقومون بتنظيفه وصيانته فى وقت لاحق) • وكان هـؤلاء يرقصون ويهزجون أيضـا ، وكانت أصواتهم البعيدة تصلنى لطيفة مقبولة من خـلال النوافذ العاليـة • وعلى رصيف التحميل والتنزيل ، كان عدد من الحمالين الافريقيين يجاهدون لحمل أكياس الملح ونقلها من مكانها • لقد كانوا مجموعة من الرجـال الاشـداء ، ذوى العضلات المفتولة ، والاجساد الرياضية الجميلة ، ولكنهم كانوا يقطرون عرقا بحيث يخيل للرائى أنهم قد خرجوا لتوهم من البحر • وكانوا كغيرهم يغنون ذلك الغناء الذى يخرج عميقا من الحناجر ، والذى كنت أسمعه من كل ناحية ، فيدلنى على أن هناك من يتعب ويشقى ليعيش ، لانه كان دائما مصاحبا للعمل الشاق • وفى الخارج كانت الشمس ترسل أشعتها الحارقة ، والسماء تزهو بصفائها الكامل الذي لا تعكره سحابة واحدة • بينما كـان عدد من الركاب العرب يتأكدون من أمتعتهم فى الجـو البـارد داخل مكتب الجمارك • وبين الفينة والاخرى كان تاجر هندى يوقف هذه الاجراءات لفترة وجيزة ، لكى يحصل على توقيع أحد الموظفين على احدى الاوراق • لقد كان مكتب الجمارك ، ومكتب الشحن يداران ادارة حسنة ، وكان الهنود المسؤولون عنهما موظفين أكفياء مؤدبين ، يقدمون المساعدة حيث تلزم • وقد شاهدت صاحبنا الكاتب الصومالى ، الذى كان قد اعتلى مركبنا وهو فى حالة السكر الشديد ، ونغص علينا حفلتنا ،الا أنهحالما رآنى انفلت خارجا، وهو يشعر بالحرج الشديد ، ولم أره بعد ذلك قط •

لنعد الآن الى سجل الحوادث • لقد كان هذا سجلا لجنوح المراكب أو انفلات صواريها أو أنواع أخرى من الخسائر ، وكلها مكتوبة بخط دقيق واضح كأنها حسابات تسجل فى الدفاتر الرسمية التى يحتفظ بها أحد التجار • الا أن تلك الروايات لم تكن تعطى القارىء الصورة الحقيقية للاحداث التى تذكرها في ذلك السجل • ولذلك فقد كان من الصعب عليّ ، حتى وأنـا جالس هناك ، وأمامى ذلك المنظر من المراكب المختلفة فـى الخـارج ، أن أتصور ، دون جهد كبير ، تلك الصراعات والاحزان والمآسى التى تذكرها رواية ذلك المجلد بطريقة باردة جامدة لا حياة فيها • وقد لفت نظـرى التشابه الغريب بين كثير من تلك الحوادث ، فقد كان شيئا لا يصـدق أن أقرأ عشرات المرات كيف كانت الريح القوية « تهب فجأة » ، أو كيف كانت الصخور « تبرز فجأة » فى أسفل المركب فتسبب تحطيمه وغرقه • الا أن بعض الروايات المقتضبة عن تحطم المراكب كانت ممتعة الى حد ما • تأمـل مثلا قصة المركب اللاموى (١) المسمى « أمانـة اللـه » ، والـذى تذكـر

---

(١) نسبة الى « لامو » ، الميناء المذكور سابقا على سـاحل افريقيـا الشرقى • انظـر الخريطة ، ملحق رقم ٥ (المترجم) •

الرواية أنه كان مسافرا من ممباسا الى دار السلام • فبحسب شهادة النوخذة المأخوذة بعد أداء القسم ، « فجأة هبت عاصفة مدمرة على مركبنا وقذفت به الى الصخور » ، فتحطم وفقد ولم يعثر له على أثر • وكان يحمل شحنة تتألف من (٢٥٠) زكيبة من الذرة ، وستة صناديق من الشمسيات • ويبدو أن كلا من بحارة المركب قد سبح الى الشاطىء وهو يحمل شمسية ، لانهم استطاعو انقاذ عشر منها • وهناك أيضا حادثة المركب اللاموى « البنفسج » ، الذى كان يقوده النوخذة مبارك بن خميس ، والذى لقى نهاية مماثلة • فقد كان قد غادر لامو وعليه سبعة بحارة وراكب واحد ، قاصدا زنجبار في الجنوب • وكانت عليه شحنة تتألف من (١٢٥) كيسا من الفول و (١٨) كيسا من « المونج » ـ الذى لا أعرف ما هو ـ وكان هذا المركب الصغير يسير بأمان الله ، على محاذاة الشاطىء قريبا من بلدة « كليفى » ، عندما « انجرف فجأة ، فاصطدم بالشعب المرجانية ، وانكسرت دفته ، كما انخلع لوحان من قاعه ، فأخذت المياه تتسرب الى داخله بسرعة » • وهكذا غرق المركب وضاع كلية مع حمولته ، حتى أنهم لم يستطيعوا انقاذ كيس واحد من البضاعة •

وتستمر الروايات على هذه الوتيرة ، وكلها تشير الى تغير مفاجىء فى الطقس فى موسم معروف بهدوئه، الى أن تصبح مملة ثقيلة على السمع• صحيح أن من الممكن أن المنطقة المجاورة لمالندي وكليفي ، وحتى خارج ممباسا نفسها، يمكن أن تتولد فيها في بعض المواسم تغيرات مناخية من الطقس السيىء ، الا أن من الممكن عادة أن يرى البحارة تلك التغيرات وهى قادمة اليهم من بعيد وأن يستعدوا لها • ولذلك فانه يخيل الى أن معظم تلك الحوادث كانت تنجم عن هبات قوية مفاجئة من الريح لا تستمر طويلا ، ولكنها فى أحيان كثيرة تستطيع أن تغرق المركب بالنظر الى الثقل غير الطبيعي للاشرعة ، والى قرب المراكب الشديد من السواحل الخطرة ، بالاضافة الى ضعف المراقبة ، والاتكالية الزائدة عن الحد • وليس معنى هذا أن تلك المراكب كانت دائما تغرق بسبب تلك الهبات المفاجئة من الريح القوية • فالمركب اللاموى المدعو « أمير البحر مثلا ، كان يدخل ميناء ممباسا بكل هدوء ودون أية مشاكل ، « واذا به فجأة يصطدم بحطام مركب قديم ، موجود فى منتصف الممر المؤدى الى الميناء تماما ، وكانت فى ذلك نهايته » • ولكن الحطام موجود هناك فى نفس المكان منذ مدة طويلة ، ومن المؤكد أن النوخذة كان يعرف كيف يتلافى الاصطدام به ، ولكن هذا هو ما حدث • ثم خذ مثلا آخر عن الحادث المؤسف الذى وقع للمركب الزنجبارى « فتح الخير » • فقد كان يمخر البحر قادما من زنجبار فى طريقه الى « بمبا » فى حالة من الطقس السيىء ، « وفجأة هوى الصارى كله دفعة واحدة » • وهذا بالطبع يعتبر مصيبة اذا

حدث على أى مركب من أى نوع · الا أن النوخذة تدارك الموقف وتمكن من الوصول الى ممباسا بسلام ·

ويذكر ذلك السجل أيضا حالات بعض المراكب التى اختفت ، ولم يعثر لها على أثر ، كما أنها لم تتوقف فى أى مكان ، وكل ما يعرف عنها أنها أبحرت من مكان معين ثم اختفت من الوجود كلية · وكان من الواضح أن حوادث الضياع والتحطم كثيرة بالنسبة للمراكب السواحلية الصغيرة ، ولكنى لم أعثر فى السجل الا نادرا على حوادث وقعت للمراكب العربية الكبيرة · أما الهنود فكان لهم نصيبهم من الخسائر · فهنالك مثلا قصة المركب الهندى المسمى « كاليانباسا » ، الذى كانت حمولته تبلغ (١٧٨) طنا ، وكان يقوده القبطان موسى أحمد · فقد انطلق هذا من ميناء «باسنى» فى الهند بحمولة تتألف من (٢٧٠٠) حصيرة هندية ، قاصدا زنجبار · وبعد شهر من اقلاعه ظهر خرق فى أحد جوانبه ، وبدأ الماء يتسرب الى داخله · وهذا ما يقوله القبطان موسى فى شهادته الرسمية ، حسبما وردت فى السجل : « لم نتمكن من الوصول الى مكان تسرب الماء بسبب الحمولة ، بينما أخذ المركب يغرق بسرعة ولذلك فقد اضطررنا لهجره ، والتجديف فى قارب النجاة مدة ثلاثة أيام ، وصلنا بعدها سالمين الى مالندى · وقد جلبت معى خريطة الهند بدلا من خريطة افريقيا التى فقدت منى » ·

لقد أعجبتني صورة القبطان موسى ، وهو على ظهر مركبه الآخذ بالغرق يبحث عن خريطة افريقيا ، فلا يجدها ، فيأخذ معه خريطة الهند بدلا منها ، ربما على أساس أن أية خريطة أفضل من لا شيء · ولكنه كان على مسافة بعيدة من الهند ، طالما كان قد مضى عليه حوالى شهر منذ اقلاعه · وهو يضيف في شهادته ، فيقول انه صحب معه الى قارب النجاة قدرين من الماء العذب ، وبوصلة وستة أرطال من الحنطة بالاضافة الى المجاذيف · وقد فعل خيرا بأخذه المجاذيف معه · وقد أكد هذا الكلام أحد البحارة ، المدعو « عثمان باكو » ، وأضاف أنهم لم يحتاجوا لاكثر من ربع ساعة لانزال القارب الى الماء ، وأن ماء البحر كان قد بلغ سطح المركب عندما بدأوا بمغادرته · ولكنه يعترف بأنه لم يكن في قارب النجاة أية مؤن أو مياه صالحة للشرب · واستطيع أن أؤكد ، من خبرتي الطويلة ، أن هذه القوارب لا تكون جاهزة أبدا ، لان المسلم المؤمن بالقضاء والقدر ، سواء أكان عربيا أم هنديا ، لا يفكر ابدا بشيء من هذا القبيل · وتضيف الرواية بأن البحارة لم يكونوا قد شاهدوا البر ، ولكنهم كانوا يعلمون بأنهم اذا واصلوا السير باتجاه الغرب فانهم ، عاجلا أم آجلا ، سيصلون ساحل أفريقيا بكل تأكيد · وكانت روايتهم عادية جدا لا يبدو فيها التأثر

الشديد ، مع أنهم قضوا ثلاثة أيام بلياليها في قارب مفتوح ، معرض لحرارة الشمس الشديدة في النهار ولرطوبة الجو في الليل · ولكنهم كانوا متعودين على ذلك ، فلم ينزعجوا انزعاجا شديدا · استمع اليهم يصفون تلك الرحلة المخيفة في قارب النجاة فيقولون بكل بساطة : « وقد يممنا وجهنا صوب الغرب ، ووصلنا البر في اليوم الثالث » · ويضيف عثمان قائلا انهم لم يكونوا يحملون شيئا من المال · وفي نهاية شهادته يمكنك أن ترى بصمة ابهامه ، كما ترى بصمة ابهام القبطان موسى على شهادته أيضا ·

ثم هناك أيضا قصة المركب الهندي المسمى « دين جانجابيرباسا » الذي كان يقوده القبطان محمد حاجي جا محمد · فقد كانت حمولته (١٣٥) طنا ، وكان على ظهره عشرة من الملاحين · وتبدأ الرواية هكذا · يقول القبطان : « في اليوم الثالث عشر من يناير عام ١٩٣٩ ، أقلعنا أنا وعشرة من البحارة الاقوياء من ميناء منجالور قاصدين ممباسا ، ونحن نحمل (٦٠ر٠٠٠) آجرة مستوية ، وصفيحتين من الفلفل المخلل ، لنوصلها الى شركة ممباسا للمواد الثقيلة المحدودة · وكان الطقس حسنا حتى اليوم الثاني والعشرين ، عندما اشتد هبوب الريح ، وارتفعت أمواج البحر وأصبح الطقس عاصفا · » ، مما اضطرهم لانزال الشراع وترك المركب ينجرف مع الريح · وكانت هذه هي الطريقة العادية التي تتبعها المراكب الهندية والعربية في حالة مقابلتها للطقس السيء · « واستمر المركب بالانجراف والاهتزاز بعنف ، بحيث بدأت أمواج البحر تغطي سطحه » · وقد آمن القبطان بأن المركب على وشك الغرق ، ولذلك أضطر أن يلقي في البحر بـ (١٢٠٠٠) آجرة ، وهكذا أنقذ الموقف ، واستطاع المركب أن ينجو من العاصفة · وعندما هدأ الجو تابع المركب سيره باتجاه ممباسا التى وصلها فى الثامن من فبراير مع بقية الحمولة ·

لقد كان سجل الحوادث هذا كتابا ممتعا · وقد لاحظت أنه على الرغم من كثرة الحوادث ، كان فقدان الرجال قليلا · وقد فسر كاتب الشحن ذلك بقوله ان جميع الملاحين سباحون ماهرون ، وقد خيل الي أنه لا مناص لهم من أن يكونوا كذلك · وعندما رفعت عيني عن الكتاب ، نظرت ثانية الى الخارج ، وتأملت المنظر المليء بالحركة والحياة في ذلك الميناء القديم ، حيث كانت القوارب تمر من بين المراكب العربية والهندية ، وبحارتها يجدفون وهم يصدحون بالغناء ، وحيث كانت أصوات قرع الطبول والغناء والاهازيج والموسيقى تختلط بأصوات دق الارض بالاقدام والتصفيق بالايدي القوية · وأخذت أتساءل كم من هذه المراكب العظيمة مرت بعواصف مدمرة ، كتلك المذكورة في السجل ، فاضطر قباطنتها لانزال

الاشرعة وتركها تنجرف مع الريح على غير هدى ، وهي في طريقها من شواطىء الجزيرة العربية ، وكم من اولئك الملاحين الذين يكدحون ويهزجون بلا انقطاع قد اضطر الى التجديف في مركب النجاة ثلاثة أيام متجها الى الغرب ، وليس معه الا خريطة للهند يحاول الاهتداء بها دون جدوى ٠

وكان كاتب الشحن ينظر الى الخارج ايضا ، وكان شابا هنديا لطيفا ، فبادرني قائلا : « انها حياة غريبة ، أليس كذلك ؟ » ٠

لقد كانت الاحتفالات على ظهر المركب مسلية ، كما كانت هذه الروايات عن المراكب المنكوبة ٠ الا اننا كنا قد تخلصنا من ركابنا ، دون أن نتمكن من بيع شيء من الملح ٠ وبعد انقضاء خمسة أيام أعلن نجدي اننا مبحرون الى زنجبار في الغد ٠ ولكنا لم نفعل ذلك بالطبع ، بل أقلعنا بعد ثلاثة أيام أخرى ٠

الفصل العاشر

السّفر إلى زنجبار

السفر الى زنجبار

وبعد ممباسا تأتي زنجبار · هذا هو الطريق الذي كانت تسلكه معظم المراكب العربية في رحلاتها الى افريقيا ، وكان هذا طريقنا ايضا · وهكذا انسللنا من ممباسا بهدوء في فجر أحد الايام ، ومخزن المركب موسوق بالملح ، ومعنا ثلاثون راكبا جديدا ، قاصدين زنجبار · ومع أن عددنا جميعا كان يصل الى ستين رجلا ، الا أن المركب كان يبدو مهجورا تقريبا ، ولذلك كانت الحياة على ظهره نعمة من نعم السماء · وكان ركابنا الجدد يتألفون من العرب الحضارمة المسافرين الى الجنوب في مهام تجارية ، بالاضافة الى بعض سكان ممباسا الذين كانوا يقومون برحلة للمتعة ، ومجموعة صغيرة من التجار العمانيين الذين كانوا يبدون كأنهم خبراء في تجارة الحشيش · وكان هؤلاء العمانيون يتجمعون حول سدة النوخذة في المؤخرة ، يستمعون الى حديث نجدي ، الذي أصبحت أشك أنه لم يأخذهم على مركبه الا لكي يكونوا من المستمعين لأحاديثه · فقد كانوا يتحلقون حوله وينصتون له بكل احترام واعجاب ، ولا يتوانون عن ابداء ذلك الاعجاب بترديدهم كلمة « طيب » بين الفينة والفينة ·

وما أن حل المساء حتى كنا نعبر الممر الواقع بين جزيرة بمبا — التي يسميها العرب الجزيرة الخضراء — وبين البر ، في أحوال جوية ممتازة ، ونسيم مؤات للابحار · وكنا نبحر في وسط الممر تقريبا ، فلم نكن ننوي التوقف في الجزيرة ، ولذلك فقد ظللنا بعيدين عنها · وفيما كنا نتابع سيرنا ، ونقترب تدريجيا من زنجبار التي ما فتئت بغيتنا طوال هذه المدة الطويلة ، دب النشاط والحماس فجأة على ظهر المركب ، وأصبح البحارة يتسابقون للقيام بواجباتهم ، وقد التمعت عيونهم وزادت سرعتهم وأشتد غناؤهم أكثر من أي وقت مضى · أما وقد غادر المركب أولئك الركاب الذين كانوا رفاقنا من المكلا وشحر ، فقد كان هناك متسع للرقص على سطح المركب ثانية · ولم يضع البحارة الفرصة ، فرقصوا وغنوا كما يحلو لهم ، كأنهم يحاولون التعويض عن الوقت الضائع · فكلما كانوا ينتهون من اداء جزء صغير من أعمالهم ، كانوا يستأنفون الرقص والتصفيق وخبط الارض بأقدامهم القاسية بموجب ايقاع معروف · وقد لاحظت لدى البحارة شعورا بالتشوق وجوا من الحماس لم أعهدهما لديهم من قبل · وكان من الواضح أن « زنجبار » ، هذا المكان الذي يعتبر ملاذا للمسافرين الى ساحل افريقيا

الشرقي ، كان يعني الشيء الكثير بالنسبة لهم ، لا مجرد نقطة النهاية بالنسبة لرحلتهم البحرية • فهم يعتبرون هذا المكان نقطة العودة الى الوطن ، حتى لو كانوا سيواصلون رحلتهم الى دلتا نهر الروفيجي لتحميل البضائع من هناك • ولكنني فهمت أن الامل في التمتع بفتيات زنجبار كان أهم بالنسبة لهم من فكرة العودة السريعة الى الوطن • فقد أخبروني بأن هؤلاء الفتيات هن أفضل ما يمكن العثور عليه في موانىء المحيط الهندي قاطبة ، وكان يتوافر في زنجبار عدد كاف منهن ممن عندهن الاستعداد لاشباع شهوات أولئك العرب الاشداء ، المكتملي الرجولة ، الذين يقذف بهم البحر من آن لآخر •

ان الطريق من ممباسا الى زنجبار قصير وسهل نسبيا ، ففي صباح اليوم الثاني كنا قبالة الطرف الشمالي من جزيرة زنجبار • وكان الفجر رائعا ، فريدا من نوعه ، لا يعرفه الا من يجد نفسه في وسط المحيط الهندي ، كما كان المركب ، وهو يمخر الماء برشاقة وقوة ، في أفضل حالاته • وكان لترتيل المصلين وهم يؤدون صلاة الصبح وقع موسيقي جميل في أذني ، كما كان ترديد المصلين لكلمة « آمين » بشيرا بقدوم الصباح الجميل • ولاول مرة ، كان المركب ينساب بهدوء كامل ، من غير أي اهتزاز على الاطلاق سوى الاهتزاز الناتج عن حركة سيره العادية ، فقد كان الهواء يهب من خلفنا ، ولم تكن هناك أية أمواج قادرة على هزه وتعكير انسيابه • وكانت الاسماك الطائرة تتطاير مبتعدة عن هيكل المركب وهو يمخر عباب الماء ، كما كنا نشاهد شواطىء جزيرة « تومباتو « المغطاة بالغابات ونحن نمر قبالتها • وكانت الطبول تدفأ على مقربة من نار الموقد استعدادا للوصول ، فقد كان من الواجب أن ندخل زنجبار ونحن نرقص ونقرع الطبول بحماس وقوة أكبر من أي وقت مضى ، بل وأفضل مما فعلنا عندما وصلنا الى ممباسا مؤخرا •

كان النهار رائعا ، وحتى طعام الافطار ، الذي كان يتالف كالعادة من الخبز الفطير ، كان مذاقه في ذلك الصباح الجميل أشهى من أي وقت مضى • وعلى سطح المركب ، وبعد أن انتهى البحارة والركاب من تأدية صلاتهم ، ساد الهدوء والسكينة كما لم يحصل خلال الرحلة كلها من قبل • وكانت بعض قوارب السواحليين ذات الاذرع المزدوجة تمر بنا مسرعة وهي تحمل الصيادين ، كما كنا ، كلما تابعنا السير ، نكتشف أجزاء جميلة جديدة من الشاطىء الطويل • لقد كانت زنجبار أرضا مستوية جميلة مغطاة بالاشجار ، تحيط بها شواطىء رملية ذهبية اللون •

وبينما كنا نقترب من الجزيرة في ذلك الصباح المشرق الجميل ،

عدت بذاكرتي الى الوراء وبدأت اتصور تلك السفن العظيمة التي مرت من الطريق ذاته ، وذلك التاريخ البحري الذي تم صنعه في تلك المياه • فقد مر العرب من هنا ، والفرس والهنود والصينيون وحتى الماليزيون ، قبل أن تعيدهم المنافسة العربية العنيفة الى مياههم ، كما مر من هنا فاسكودا جاما البرتغالي ، وبعده سائر المغامرين الاوروبيين الآخرين • وكنا خلال الليل قد مررنا بذلك الحاجز المرجاني القريب من ساحل جزيرة بمبا ، حيث اضطر فاسكودا جاما أن يهجر سفينته المسماة « سان رفاييل » ، اثناء رحلته المشهورة الى الهند في أواخر القرن الخامس عشر • فقد احتكت تلك السفينة بالشعب المرجانية المقابلة لجزيرة بمبا ، وتركت هناك لعدم توافر العدد الكافي من الملاحين اللازمين للابحار والعودة بها الى الوطن • ويبدو أنها لم تكن قد أصيبت بأضرار كبيرة يتعذر اصلاحها ، الا أن فاسكودا جاما كان في تلك المرحلة من رحلته قد فقد عددا كبيرا من رجاله ، ولذلك لم يكن باستطاعته أن يعود بسفنه الثلاث الى الوطن • فما كان منه الا أن أحرق « سان رفاييل » ، ونقل بحارتها الى السفينتين الاخريين الباقيتين •

ولم يكن نجدي معجبا بفاسكودا جاما أو برحلته ، وكان له فيها رأي مختلف عن رأي الاوروبيين فهو ، كغيره من القباطنة العرب الذين كان لديهم المام واسع وان لم يكن دقيقا بتاريخ المحيط الهندي ، يعتقد أنه كان من الافضل للعالم بأسره لو أن ذلك الملاح البرتغالي لم يحرق مركبا واحدا فقط ، بل أحرق مراكبه جميعا على ذلك الحاجز المرجاني قبالة جزيرة بمبا ، وأحرق نفسه معها أيضا • فلم يكن نجدي يرى في رحلة فاسكودا جاما ما يلفت النظر على الاطلاق ، بل ويرى فيها كثيرا مما يؤسف له • فهو يرى أن الرجل لم يكن قبطانا بل ولا بحارا عاديا • أما الرحلة ، فان نجدي ينظر اليها كضربة من ضربات الحظ ، التي أحسن استغلالها ، وبولغ في الدعاية لها مبالغة كبيرة • كما يعتقد بأن تلك الرحلة الى الهند لم تكن لتنجح أبدا ، لو لم يستخدم فيها الأدلاء العرب ، الذين أرغموا على ارشاد الرجل تحت تهديد السلاح • وكان نجدي والبحارة الاخرون يتحدثون عن رحلة فاسكودا جاما ، وكأنها حدثت منذ مدة قصيرة فقط • ولم يكن الرجل الذي يكرمونه هو دا جاما أو أي برتغالي آخر ، بل ذلك النوخذة العربي المشهور ابن ماجد ، الذي يقولون انه ارشد البرتغالي في رحلته من مالندي في شرق افريقيا الى كاليكوت على ساحل الهند الغربي • وكانوا سيمجدون ابن ماجد اكثر مما يفعلون حاليا ، لو أنه جعل مركب داجاما ينغرز في الرمال الضحلة على شواطىء جزر لكاديف(1) • وهم ما زالوا لا يفهمون

---

(1) انظر الخريطة فى الملحق رقم ٥ (المترجم) •

لماذا لم يفعل ابن ماجد ذلك فعلا ، فقد كان باستطاعته أن يقضي على تلك المراكب بكل سهولة • أما ابن ماجد فقد كان ، بحسب رواية نجدي ، عربيا من مكان ما على ساحل الخليج العربي ، ربما كان ساحل الاحساء • وكان ملاحا مشهورا ، الا أن الجريمة الوحيدة التي ارتكبها هي أنـــه ســاعد فاسكودا حاما في رحلته من ساحل افريقيا الى كاليكوت في الهند • ولكنه ، بحسب قول نجدي ، كان مرغما على ذلك ، فقد صدف أن كان في مدينـة مالندي عندما وصلها البرتغاليون ، الذين أخذوا يزعجون شيخها وسكانها ازعاجا مستمرا ، ولم يكونوا ليغادروها لو لم يعرض عليهم حاكمها مرشدا ممتازا ، يدلهم على طريق الهند • ولم يكن ذلك المرشد الا ابن ماجــد نفسه •

وقد خطر لي أن « نجدي » نفسه قد يجد صعوبة في قيادة مركب من مالندي الى كاليكوت حتى في هذه الايام ، لان خط السير يمتد عبر مئات الاميال في عرض البحر بعيدا عن الشواطىء • ولم يكن نجدي يعرف الطريق عبر المحيطات ، بل كان خبيرا بطرق السير بمحاذاة الشواطىء • ولكنـي عندما سألته ان كان يستطيع القيام بتلك الرحلة ، أجاب بالايجاب بـدون تردد ، ولكنه أضاف انه سيضطر لاستئجار « معلم » هندي ليقيس له مواقع الشمس وحركتها • وكان نجدي يأسف لجهل النواخذة العرب في هذه الايام بالمعلومات الملاحية الضرورية ، ولا يستطيع مقارنتهم بالملاحيـن العــرب القدماء • فلم يعد باستطاعة أحد من نواخذة الخليج العربي ، من أمثـال نجدي ، أن يبحر بمركبه في رحلة الى الصين أو الملايو أو سنغافورة • بل لم يعد باستطاعته ، دون أن يستأجر دليلا هنديا ، أن يقوم بنقل حمولـة من الحجاج من كاليكوت الى جدة ، كما كان عليه ، عند القيام برحلاتـه الافريقية ، أن يظل قريبا من الشاطىء طوال الوقت •

ولكن الحال لم تكن دائما على هذا الشكل ، ونجدي يعرف ذلك معرفة تامة • ففي أيام أمجاد الملاحة العربية . كانت مراكب العرب تجوب البحار الشرقية جميعها • ولكن الوضع قد تغير الآن ، فربما لم يتمكن أي منها من الدوران حول الطرف الجنوبي من جزيرة سيلان منذ أكثر من نصف قرن من الزمن • فقد ضاعت اساليب السفر القديمة ، والأدوات الملاحية القديمة ، والمعلومات الرياضية القديمة التي برع فيها العــرب الــى حــد كبيــر ، ولم يعوض عنها بشيء سوى بعض البوصلات التالفة ، المشتراة من احدى أكوام الخردة في بومباي ، وبعض الخرائط البحرية القديمة العهد ، التي تحتوي على كثير من المعلومات الخاطئة • ومع ذلك فما زال العرب يسافرون بمراكبهم ، رغم أنهم فقدوا كثيرا من معلوماتهم وكثيرا من أمجادهم • ولكن

رحلاتهم أصبحت قاصرة في الغالب على التجارة الساحلية والتهريب • ويعزو نجدي تخلف الملاحة العربية وتقلصها الى تراخي العرب وضعفهم ، والى تلك المنافسة التجارية القاسية ، غير المتكافئة ، التى يستخدمها الاوروبيون ضدهم •

وكان هذا كله موضع الحديث الممتع الذي كان يدور مع نجدي في صباح ذلك اليوم الجميل ، ومركبنا ينساب بلطف بمحاذاة جزيرة زنجبار • وقد كان بامكاني أن اطيل الحديث معه ، وأن استمع اليه بصبر أكثر ، لو لم يكن دائما يصر على انه على صواب ، وان ما يقوله هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من أمامه • فهو يعتقد اعتقادا جازما بأن الاوروبيين شعب مقضي عليه بالاضمحلال ، وأنهم من الغباء بحيث لا يستحقون أن يكترث بهم الانسان ، وأنهم لم يعودوا حتى من « أهل الكتاب » ، لان من الواضح أنهم لم يعودوا يتبعون ما جاء في ذلك الكتاب ، وان الميزة الوحيدة التي انفردوا بها كانت تقتصر على تفوقهم المالي والعسكري ، وهو التفوق الذي سمح به الله تعالى ، لحكمة لا يعلمها الا هو • فربما كانت هذه هي طريقته في تلقين العرب المتراخين المتخاذلين درسا لا ينسونه ، وفي تزويد الاوروبيين بوسيلة يقضون بها على أنفسهم • ولكن الله واسع العلم ، عظيم الحكمة ، ولا بد أنه قد قرر أن أيام الاوروبيين قد اصبحت معدودة ، وأن أمجاد العرب الاولى ستعود عما قريب • وعندما كان نجدي يصل الى مثل هذه الخاتمة ، كنت تستطيع أن تسمع الجميع ، بمن فيهم العمانيون وحمد ابن سالم ، يرددون كلمة « طيب » ، تأييدا لما يسمعون • أما انا فقد كنت ألزم الصمت •

وكان نجدي يحب أن يردد القول بأن العرب ينظرون الى رأس الرجاء الصالح كنوع من الحماية الالهية للعرب في مياههم الشرقية • فهناك هذا الرأس في الجنوب بعواصفه الهوجاء ، وهناك البحر الاحمر بشعابه المرجانية ومخاطره الاخرى من جهة الشمال ، وهناك مجاهل افريقيا الشاسعة المخيفة ، وهناك الصحراء ومخاطر طرق القوافل عبر الجزيرة العربية الى الخليج العربي شرقا – جميع هذه الاشياء ، في نظر نجدي ، هي الحصون التي خلقها الله في وجه الكفرة • وعندما سقطت هذه الحصون ، كان ذلك نوعا من العقاب الالهي للعرب على لينهم وتخاذلهم ، أولئك العرب الذين كانوا أسيادا غير منازعين على مياه المحيط الهندي من القرن السادس الى القرن السادس عشر ، فجمعوا الثروات الطائلة التي مع الاسف ، جعلت حياتهم هينة لينة ، فزالت عن الرجال صلابتهم وخشونتهم ، وكانت في ذلك نهايتهم التي نشهدها هذه الايام • لقد مدوا سيطرتهم على مساحات شاسعة ، وامتدت

مستوطناتهم من زنجبار الى الفلبين ، ومن جاوا الى كانتون ، ومن ساحل ملابار الى السودان ، ومن سيام الى مندلاي ، ومن موزمبيق الى ملكا ٠ أما الآن فان الكفرة والنصارى يقيمون امبراطوريات أوسع بمراحل ، ولكنهم هم أيضا ستزول دولتهم عما قريب ، وتعود الى العرب تلك الحصون التي كانت تحميهم دائما ، وتعود المراكب الشراعية وحدها سيدة البحار الشرقية ، وبمشيئة الله ، فان موعد عقاب الكفرة قد أصبح قريبا ٠

هذا ماكان نجدى يتحدث به يوما بعد يوم ٠ فقد كانت فلسفته كلها وحججه جميعها ، كما كانت آماله وأحلامه جميعها ، وأراؤه بأسرها تستند على القدرية وعلى الايمان برحمة الله الواسعة ، (وفي رأيه ان الله لم يكن يتكلم أو يفهم الا اللغة العربية) ٠ وقد كنت أغبط نجدي علـى آرائـه ونظرياته فقد كانت تمنحه نعمة الرضى والقناعة ، لأني شخصيا لم تكن لدى أية آراء أرضى عنها رضاء كاملا مثله ٠

وفي هذه الاثناء كان الصباح قد انتصف ، وكان البحارة يقومون على سطح المركب بأعمال كثيرة جدا تزيد عما سبق أن رأيت أحدا يقوم بها على ظهر أي مركب عربي ٠ فقد كان خليل النجار وزمرته يقومون بدهن المركب الجديد « عفرة » بزيت السمك (١) ، فكانت تصدر منه رائحة فظيعة ٠٠ ولم يكن هذا المركبقد بيع في لامو أوممباسا ، الا أن نجدى كان يأمل أن يبيعه في زنجبار بسعر جيد ٠ لقد كان المركب جديدا جميل الشكل ، قاعدتـــه ملساء ، وله رونق وبهاء ٠ وكان من المؤسف أن يطلى بزيت السمك بدلا من أن يدهن بالطلاء العادي ٠ وكان الثمن المطلوب ما زال ألف شلن وهو يشمل المركب كاملا مع الصاري والشراع ومرساة واحدة ٠

وكان حسن ، قائد الدفة ، ينظف الدفة النحاسية للمرة الاولى منذ أن غادرنا موقاديشو كما كان عريف البحارة وبحارته يفركون سطح المؤخـرة بأيديهم المجردة وهم راكعون على ركبهم ٠ فلم يكن في المركب مكنسة أو

---

(١) زيت السمك (أو الصل) هو دهن السمك ، ويستخرج من نوع من السمك هو العـوم (السردين) ٠ وكانت سيحوت ، وبقية أجزاء ساحل المهرة هى المصادر الرئيسية له ، وذلك لكثرة هذا السمك هناك ٠ وكان مايصاد منه يوضع بكميات كبيرة على ارض صخرية مسطحة ، وتحفر فى المكان الواطىء قريبا منها حفرة كبيرة ٠ ثم يوضع على السمك غطاء ثم صخور واثقال ٠ وبعد أيام ، وبفعل حرارة الشمس الشديدة ، يسيل من السمك هذا الدهن الى الحفرة ويجمع من هناك ، ويباع الى سفن الخليج معبأ فى صفائح او براميل ٠ ويستخدم لدهن المراكب ، وخزانات المياه أيضا ٠ (المترجـم عن احمد البشر الرومى) ٠

فرشاة واحدة . أما حمد بن سالم ، الذي لم يكن قد غمض له جفن طوال الليل ،وعبدالله ،شقيق نجدي ، الذى لم يكن مستيقظا خلال الليل ، فقد كانا نائمين في ظل الشراع الصغير ، بينما كان اسماعيل الموسيقي يعزف بعض الالحان على قيثارته ، أسفل المؤخرة ، وجاسم الطباخ يطبخ بعض السمك المجلوب من حيفون ، وعلى سطح موقده كانت الطبول ملقاة ، لتجف في حرارة الشمس ، قبل أن تسخن على النار في وقت لاحق .

كان قنال زنجبار مكانا جميلا . وكنا فى هذه الاثناء قد اقتربنا من المدينة نفسها فوجدنا أنفسنا بين اسطول مهيب من المراكب العربية والسواحلية الصغيرة والكبيرة المتجهة الى الميناء . ومن حولنا كانت آخر القوارب المزدوجة الاذرع تمر عائدة وهي محملة بالصيد السمين . كما أدركنا بغلة هندية كبيرة تسير بتثاقل وتهتز اهتزازا كبيرا ، ، ربما لانها كانت خفيفة الوزن جدا . وقد لاحظت أن رسوما معقدة كانت محفورة على مؤخرتها الضخمة فجعلتها تبدو جميلة أخاذة . وكنا قريبين جدا منها حتى أنه كان باستطاعتنا ان نرى من خلال نوافذها ما فى قمرتها الكبيرة من جرار السمن المعلقة على الجدران ومن الاشياء الغريبة الاخرى الموجودة في السلال . وكان يرفرف على مؤخرتها علم حريرى ذو خطوط حمراء وبيضاء كبيرة جدا . وقد أخبرنى نجدى أن هذه البغلة من صنع ميناء « بورباندار » في الهند ، واتفق معي على أنها مركب جيد ، الا أنه قال ان المراكب العربية افضل منها ، رغم علمه الأكيد كبحار خبير ، أن هذا الكلام غير صحيح ، ولكنه لم يكن يطيق أن يرى أحد عيبا في أي شيء عربي . صحيح أن مركبنا كان أفضل من تلك البغلة الهندية من حيث انسيابه وسرعته ، فقد استطعنا أن نسبقها بكل سهولة رغم خفتها هي وثقل حمولتنا نحن . ولكني كنت واثقا من أن البغلة الهندية أقوى بكثير ، ولو خيرت أن أكون فى أحدهما فى حالة حدوث اصطدام مثلا ، لفضلت البغلة الهندية بدون تردد .

وقبل انتصاف النهار لاحت لنا مدينة زنجبار،ونحن نبحر في الممر الواقع بين الشعاب المرجانية على مقربة من بيت لفنجستون (١) ، وطبولنا تقرع ، وبحارتنا متجمعون على مقدمة المركب يصدحون بالغناء ، وعلم الكويت الاحمر يرفرف خفاقا على ساريته فى المؤخرة . فقد كنا فى ذلك اليوم نرفع علما

---

(١) لفنجستون David Livingstone (١٨١٣ - ١٨٧٣) هو المبشر والمستكتشف الاسكتلندى المعروف برحلاته فى افريقيا التى قطعها من الغرب الى الشرق ، مكتشفا شلالات فكتوريا ومستكشفا حوض بحيرة ملاوى ، ومنابع نهر الكونغو . وقد كرس حياته للقضاء على تجارة الرقيق فى افريقيا . (المترجم) .

خاصا ، علما مصنوعا من الحرير الاحمر ، وقد طرزت عليه بالحروف العربية البيضاء كلمة « كويت » ، وتحت ذلك مباشرة ذلك النص القرآني المعروف الذى يجب أن يزين كل علم عربى محترم :« لا اله الا الله ، محمد رسول الله» وكان نجدى يشعر بالفخر والاعتزاز ويبدو ذلك واضحا عليه كلما رفعنا ذلك العلم ٠وواقع الحال أننا لم نفعل ذلك خلال رحلتنا الطويلة الا مرتين : مرة ونحن ندخل زنجبار اليوم ، ومرة أخرى عند عودتنا سالمين الى ميناء الكويت٠ ولم أر مركبا كويتيا آخر يرفع علما بمثل هذا الجمال ، كما أن علمنا العادى الذي كنا ننشره في الاماكن الاخرى ، لم يكن سوى قطعة من الكتان الاحمر ، طولها حوالى اثني عشر قدما ، وعرضها ثلاثة أقدام ، مكتوب عليها كلمة « كويت » بحروف عربية بسيطة ٠

كان المنظر أخاذا، ومركبنا ينساب بهدوء وسرعة أمامالنسيم ، الذىأخذ ينشط الان ، متجها الى الشاطىء الجميل المحفوف بأشجار جوز الهند ٠ وكان المركب يبدو متجها الى الشاطىء مباشرة ، الا أنهبعد قليل أخذ ينحرف انحرافا واسعا لكي يتجه نحو مرساه ٠ وكان هناك في الميناء اسطول عظيم من المراكب المختلفة التي رفع كثير منها أعلامه تحية للمراكب الفارسية والعمانيـــة والهندية والكويتية التي كانت تدخل الميناء سوية ٠ وكان البحر أزرق صافيا ، بينما كانت ابنية زنجبار تلمع في ذلك الحر الشديد ، فتكون خلفية جميلــة كأنها صف من المراكب قد نشرت أشرعتها جميعا ٠ وسرعان ما أخذنا نصحح مسارنا ونتجه في آخر جزء من رحلتنا هذه الى مكان رسونا ٠ ولكني لاحظت أن الميناء كان مزدحما بالمراكب ازدحاما كبيرا لدرجة أني لم أكن اتصور كيف سنتدبر أمرنا ونجد مكانا نرسو فيه في ذلك الزحام الشديد ٠

وباقترابنا من المرسى بدأت معالم المدينة تتضح ٠ بدأت تلك الابنية التى كانت تلمع وتتراقص فى الحر الشديد والسديم الناتج عنه ، تتخذشكلها الطبيعى الواقعى ، وبدا للعيان قصر السلطان الابيض الضخم على حقيقته ، فكان أصغر واقبح مما تصورنا ٠ كما توقفت البيوت الاخرى عن اللمعان والتراقص في النور الساطع ، الذي كانت الشمس ترسله من اشعتها الحارقة ، فظهرت لنا تلك البيوت ذات الاسطح المغطاة بالقرميد الاحمر ، وهى تمتـد فى صفوف منتظمة على امتداد الشاطىء ٠ كما كنا نرى على القرب مراكب كبيرة وصغيرة من جميع الاصناف ، وهي واقفة على الشاطىء الرملي لتجفف وتنظف وتصلح٠وكان باستطاعتنا ، عندما يهدأ غناء ملاحينا قليلا ، أن نسمع أغانى بحارة تلك المراكب وهم يقومون باصلاحها ، كما كان بامكاننا أننسمع الضجة العامة الصادرة عن المراكب الاخرى الراسية في الميناء والناتجة عن قرع الصوريين لطبولهم ، ودق العمانيين اسطح المراكب باقدامهم الصلبة العارية ،

وترديد السواحليين لاغانيهم وأهازيجهم، وعزف أهل «لامو» على كماناتهم وضرب الباطنيين على مثلثاتهم . وما زلنا نتابع سيرنا باتجاه المرسى المزدحم بالمراكب، الذي لم أكن ارى فيه فجوة واحدة نستطيع ولوجها . فقد كانت المراكب مصطفة أمامنا كأنها اسطول حربي مستعد للقائنا وقتالنا ، بل كأنها سد منيع مؤلف من ألواح الخشب المطلية بالزيت ، اللامعة تحت أشعة الشمس ، وكلها ترفع الاعلام الحمراء ، ويشع من بعضها النور المنعكس على أدواتها النحاسية . وقد كانت دفتنا النحاسية النظيفة تتلألأ ايضا بينما كان نجدي وحمد بن سالم يرتديان افضل ملابسهما . فقد كان نجدي يرتدي عقاله المفضل ، الذي فيه ثنية على شكل نصف دائرة من الامام ــ وربما كان هذا احدث زى فى الكويت ــ، وكان الركاب يقفون هنا وهناك ، وهم يرتدون أفضل ملابسهم أيضا ، يتفرجون جميعهم على المنظر الجميل . وكان عدد من العمانيين بأثوابهم الداكنة الطويلة وعمائمهم المطرزة، يقفون على سطح المؤخرة وهم يحدقون في شيء ما باهتمام شديد . وقد لاحظت أن اثنين منهم كانا يخبئان رزما صغيرة داخل عباءتيهما .

وفى هذه الاثناء لم ينقطع بحارتنا عن الهزج والغناء ، وكانوا يقرعون الطبول بشكل لم ار مثله من قبل قط ، يقودهم فى ذلك عريفهم بنشوة عارمة كانت ظاهرة على قسمات وجهة الاسود بوضوح تام . وقد واصلوا غناءهم دون انقطاع أبدا ، كما واصلوا قرع الطبول والدفوف . وكانوا يحدثون ضجة هائلة جدا ، حتى أنه لم يكن بامكانهم ان يسمعوا أية أوامر تصدر اليهم . وعلى الرغم من انهم كانوا يهزجون ويرقصون على اقصى مقدمة المركب ، الا أن الاصوات والضجة التي كانوا يحدثونها كانت تمنع حتى قائد الدفة ، القريب جدا من نجدي، من سماع أوامره، حتى عندما كان حمد بن سالم يرددها بصوت عال جدا . وكنا قد انزلنا الشراع الصغير من قبل ، وان كانت العارضة مازالت قائمة ، اما الشراع الرئيسي فقد كان لا يزال مربوطا بأعلى الصاري وكانت الريح الصاعدة قليلا تنفخ فيه فتملأه بالهواء . وكنا نسير بسرعة تقدر بثماني عقد وهانحن قد اصبحنا مقابل المرسى تماما ، ومقدمة مركبنا تشق عباب اليم .

وهنا يصيح نجدى ، وهو يقف على القارب القريب من مؤخرة المركب: «قليلا الى اليسار» فيردد حمد بن سالم أمره بصوت عال، وهو يقف على مقربة من الدفة : « قليلا الى اليسار » بينما يتابع البحارة غناءهم وهم يرددون هذه الاهزوجة :

ها نحن قد وصلنا
ورحلتنا تأتي الى نهايتها
حمدا للـــه
الغفـــور الرحـــــيم

على قرع الطبول ، وتشجيع عريفهم ، محمد ، وتحميسه لهم • ويتابعون غناءهم قائلين :

نجدى أوصلنا الى هنا
نجدى نوخذه جيد
حمدا لله
الغفور الرحيم

ويستمرون على هذا الحال ، دون ان يلقوا نظرة واحدة على ما يجري على ظهر المركب ، أو يهتموا بالخطر الناجم عن قربهم من المراكب الاخرى ، بل يتابعون غناءهم وهم يرددون :

من الذي ساعد نجدي على ذلك ؟
حمد ، المعلم الطيب •
حمدا لله
الغفور الرحيم (١)

وفجأة يصيح نجدي قائلا : « انزلوا الشراع الرئيسي » • ولكنني لا أرى أي استجابة من البحارة الذين كانوا يواصلون غناءهم ، ولا يستطيعون سماع أى شيء اخر • ويردد حمد بن سالم أمر رئيسه ، وهو يصرخ بأعلى صوته • ثم يكرر ذلك ، وهو يندفع الى مقدمة المؤخرة ، الا أن البحارة يواصلون غناءهم فهم لا يسمعون ولا يستجيبون ولا يطيعون •

وكان المركب يندفع نحو ذلك الصف المتراص من المراكب الراسية ، وكأنه عازم على شق طريق له بينها ، لانني لم أكن أرى طريقا جاهزا مفتوحا لدخوله • وكان هناك حوالى خمسين مركبا عربيا تتأرجح على مراسيها فى الميناء،وكان هبوب الريح قد نشط بعض الشيء،وأخذت المسافة القصيرة التي تفصل بيننا وبين تلك المراكب تتقلص بسرعة مخيفة ، حتى أصبح بامكاننا أن نرى وجوه بعض البحارة الاعاجم ، الواقفين على أقرب مركب الينا ، وقد ارتسمت عليها بعض علامات الاهتمام ، الا أني كنت مندهشا لانه لم يبد عليهم

---

(١) أغنية الوصول بالسلامة تدعى « الحرضة » • لقد كانت لكل مناسبة أغنيتها الخاصة ، وهذا مالم يستطع المؤلف ان يدركه ، بل ولا ينبغى ان نتوقع منه ان يفعل ذلك • ولذلك فقد جعلنا ملحقا خاصا باغانى البحر المختلفة ومناسباتها وكلماتها باللهجة الكويتية مع شرحها بالعربية الفصحى وذلك فى الملحق رقم (٤) ، فى ختام هذا الكتاب •
(المترجم)

أي خوف على حياتهم ، في الوقت الذي كان فيه مركبنا يبدو كأنه سيصطدم بهم في أقل من عشر ثوان • ولكني كنت احسب تلك الحسابات كلها دون أن أخذ بعين الاعتبار أن معنا ربانا قديرا متمرسا بمثل هذه الظروف الصعبة ، كنجدى •

وكان حمد بن سالم لا يزال يزعق بأعلى صوته طالبا انزال الشراع الرئيسى ، وهو يندفع بأقصى سرعة نحو الحبال ليفلتها • وكالعادة ، لم يكن أى شىء جاهزا للاستعمال • فقد كان ذانك الجزءان من الحبال ، اللذان ترفع العارضة بهما ، لا يزالان ملفوفين حول الصارى ، ومثبتين بنصف انشوطة ، وكان فكهما يحتاج الى أربعة رجال أشداء • وأخيرا تنبه عريف البحارة الى أن الشراع يجب انزاله ، فهب واقفا ، واندفع مع نصف بحارته للقيام بذلك العمل ، بينما ظل الباقون يغنون ويقرعون الطبول • وقد خيل الى كأن فك تلك الحبال قد استغرق بضع دقائق ، بينما لم يحتج الامر فى الواقع لاكثر من ثوان معدودات ، بدأت بعدها البكرات العليا تصدر صريرها المعتاد ، والعارضة تنحدر بسرعة وهى تصدر صوتا كأنه الرعد ، بينما انتشر الشراع القطنى على جانب المركب غير المعرض للريح ، وغطى البحارة الراقصين الهازجين جميعا • وتابعت العارضة نزولها ، وهى تصر وكأنها غير راغبة فى ذلك ، كما واصل المركب اندفاعه الى الامام ، ومن مكان ما تحت الشراع ، ظلت الطبول تقرع والاهازيج تسمع ، وكأن شيئا لم يكن •

وفى هذه الاثناء ، أصبحنا فى الطرف الخارجى لمكان رسو المراكب ، بين العوامات التى كانت تدل على مرسى المراكب الوطنية • وكان يخيل الى أننا لا بد أن نصطدم بعنف بثلاثة مراكب على الاقل ، وندفعها بقوة لتصطدم بدورها بالصف الاخر من المراكب الراسية خلفها • وربما كانت توقعاتى هذه صحيحة ، لو لم يكن معنا نجدى ، الذى كان يعرف تماما ما هو مقدم عليه • فقد رفع هذا يده لكى يوقف قرع الطبول ، فقد آن الاوان لايقاف الغناء ، لان الحاجة تدعو للاستفادة من كل رجل على ظهر المركب الآن ، ثم بدأ باصدار عدد من الاوامر القصيرة السريعة ، بينما واصل المركب اندفاعه الشديد • وقد لاحظت أن نجدى قد وجد لرسو مركبه مكانا ، ولكنه كان مكانا صغيرا جدا ، حتى أنى لم أتصور أن مركبنا يمكن أن يندس فيه ، يقع بين مركب هندى كبير ومركبين عمانيين راسيين ومؤخرة أحدهما مربوطة بمؤخرة الآخر • وقد أصبح من الواضح أنه متجه الى تلك الفجوة ، بينما كان يشير بيده الى أخيه الواقف أمام الدفة ليحركها قليلا ذات اليمين أو ذات اليسار • وفى هذه الاثناء كان البحارة قد جمعوا الشراع وأفلتوه من مربطه بسرعة فائقة ، وكانوا ، بأمر من حمد بن سالم وعريفهم ، يقفون والحبال

جاهزة فى أيديهم . ولم أستطع أن أفهم لماذا كانوا يمسكون بالحبال ، ما دمنا لن نقف بجانب رصيف نربط مركبنا به . وسرعان ما بدأ « فتح الخـــير » يدس أنفه الطويل ، المطلى بالزيت ، فى تلك الفجوة الظاهرة بين المراكب الاخرى بسرعة كبيرة تنذر بالويل والثبور . وفجأة سمعت نجدى يصدر أمرا لم أفهمه . وفى الحال ألقى نصف بحارتنا أنفسهم فى الماء ، دون أن يخلعوا ملابسهم ، وأخذوا يسبحون بعيدا عن المركب ، قبل أن يسحقهم سحقا ، وكان كل منهم يسحب معه طرف حبل فيه أنشوطة ، حتى وصلوا الى المركب الهندى من ناحية ، والمركبين العمانيين من الناحية الاخـرى ، فاعتلـوا ظهورهـا وربطوا الحبال بها . بينما كان بقية البحارة على « فتح الخير » يشـدون الاطراف الاخرى للحبال ويوثقونها بقوة ، لكى يوقفوا اندفاع المركب .

لقد كان مركبنا مندفعا بسرعة كبيرة ، فقد كان مركبا كبيرا حمولته تبلغ مائة وخمسين طنا ، ما زال أكثر من مائة منها على ظهره . ولذلك فقد تسبب ايقافه السريع المفاجىء فى تحرك المركب الهندى والمركبين العمانيين الآخرين حركة عنيفة كادت أن تقطع حبال مراسيها ـ ولكنها لم تفعل ، بل احتكت تلك المراكب بالمراكب الاخرى المجاورة ، وكان الاحتكاك لطيفا لـم يسفر عن أى أذى . لقد قام نجدى بعملية كبح جماح مركبه بشكل رائع ، وبسرعة فائقة ، وتمكن من ادخـال المركب فى تلك الفتحـة الضيقة بسرعة تفوق التصور ، حتى أنى كنت عاجزا عن متابعتها ، فقد تمت تقريبا فى نفس اللحظة التى بدأت فيها أفهم القصد من تلك العملية الرائعة .

فى البدء لم يكن باستطاعتى أن أتخيل كيف سيعثر نجدى على مكان يرسى فيه المركب ، وحتى لو وجد ذلك المكان ، كيف سيقوم بايقافه وارسائه فى ذلك المرسى المزدحم ! ولكن ها هوذا المركب واقف فى مكان مناسب أمين ، بعد أن وصل الى هناك دون أن يسبب حتى خدشا واحدا للمراكب الاخرى . ولم يكن ذلك ممكنا بالطبع لولا ذلك الاستخدام البـارع لطريقـة الكبح من الجانبين ، ولولا خبرة البحارة ومهارتهم الملاحية . وقد قيض لى أن أشـهد ، فى وقت لاحق ، كثيرا من مظاهر الخبرة الملاحية المشابهة لهذه فى مينـــاء زنجبار ، حيث كانت المراكب المحلية محشورة فى مســاحة ضيقة محصورة لا تكاد تتسع لها ، وبالطبع لا تسمح لها بكثير من حرية الحركة .

ولكن يبدو أن العرب لم يكونوا يكترثون لذلك ، بل أنهم ربما كانوا يفضلون أن ترسو مراكبهم متلاصقـة ، لـكى يتمكنوا من استغلال الفوضى الناجمة عن وصولهم ، فى تفادى أكثر القوانين الاوروبية ازعاجا لهم . فلم يكن بامكان أى تفتيش ، مهما كان دقيقا ، أن يطلع على كل ما يجـــرى ،

عندما يندفع مركب الى مرساه بهذا الشكل ، ويضطر المرسو متلاصقا مع عدد من المراكب الاخرى • فقد كان وقوف مركب محلى ، خارج الحدود المخصصة لرسو هذه المراكب ، يعتبر مخالفة كبرى ، كما أنه سرعان ما يأتيه قارب حكومى بخارى يحمل موظفين يأمرونه بأن ينتقل من مكانه الخاطىء •

وقفت أرقب كيف يستفيد ملاحو المراكب الوطنية وركابها من هذا الوضع المفروض عليهم • ففى اللحظة التى كان مركبنا يندفع فيها الى مكانه بين المراكب الاخرى ، رأيت الراكبين العمانيين ، وهما ينزلان الى الماء من جانب المركب البعيد عن المدينة • فقد ألقى أحدهما بنفسه فى الماء ، وسبح حتى وصل الى قارب صغير ، يقف خلف سمبوك ، فاعتلاه ، وقاده بسرعة فائقة حتى وصل الينا ، فقفز الاخر داخله ، وسرعان ما انفلت القارب براكبيه مبتعدا عنا • وعلى الرغم من أنى تابعت مراقبته بكل يقظة ، الا أنى لم أستطع أن أحدد أين ذهب ، وكيف اختفى فى ذلك الجمع الحاشد من المراكب • وباختفاء هذين الراكبين ، اختفت معهما أيضا الرزمتان الصغيرتان الغامضتان •

وفى الوقت نفسه ، اختفى عدد من الركاب الآخرين ، وكان الامر سهلا للغاية • ولم يبق على ظهر المركب ، فى ظنى ، الا أولئك الذين كانوا يحملون أوراقا رسمية ، وكانوا مسجلين فى قائمة الركاب الرسمية • لقد كان أمرا مضحكا حقا هذا التظاهر بالاذعان للقوانين والانظمة الاوروبية • فقد كان العمانيان يبدوان سعيدين كتلاميذ المدارس ، وهما يبتعدان عنا فى قاربهما الصغير ، وكأن الامر كله بالنسبة لهما لا يعدو أن يكون نكتة كبيرة • ومع أنى كنت مهتما جدا بمعرفة ماذا كان هذان يحملان فى الرزمتين الصغيرتين، الا أنني لم أستطع أن أعرف شيئا عن ذلك • فقد سألت عبد الله ، دون أن أتوقع أن يعلمني شيئا ، بل ودون أن استطيع الوثوق بجوابه حتى لو أجاب ، الا أن هذا لم يزد عن الابتسام • ولكني تجرأت واستفسرت عما اذا لم يكن ما يحملانه حشيشا ، بعد أن سمعت أن ذلك أحد الاحتمالات • ولكن عبد الله أجاب بابتسامة للمرة الثانية ، دون أن يحير جوابا • ولكنه ، بعد برهة قصيرة ، علق على كلامي قائلا ، ان الرجلين العمانيين كانا من أراذل القوم ، وأضاف الى كلامه ابتسامة أخرى •

وفى أثناء وجودنا على البر ، فى زنجبار ، كنت أتحدث مع أحد الاطباء • وكان هذا يبدى استغرابه لان مرضاه لم يعودوا يطلبون الافيون ، من ذلك الوقت الذى كانت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية تبدأ بالهبوب ، والعرب والهنود يبدأون بالقدوم ، حتى موعد مغادرتهم للمدينة • وكان

يعتقد أن الهنود ربما كانوا يجلبون معهم شيئا منه • وقد وافقته على كلامه ، بالطبع ، وحسدته على نعمة الجهل •

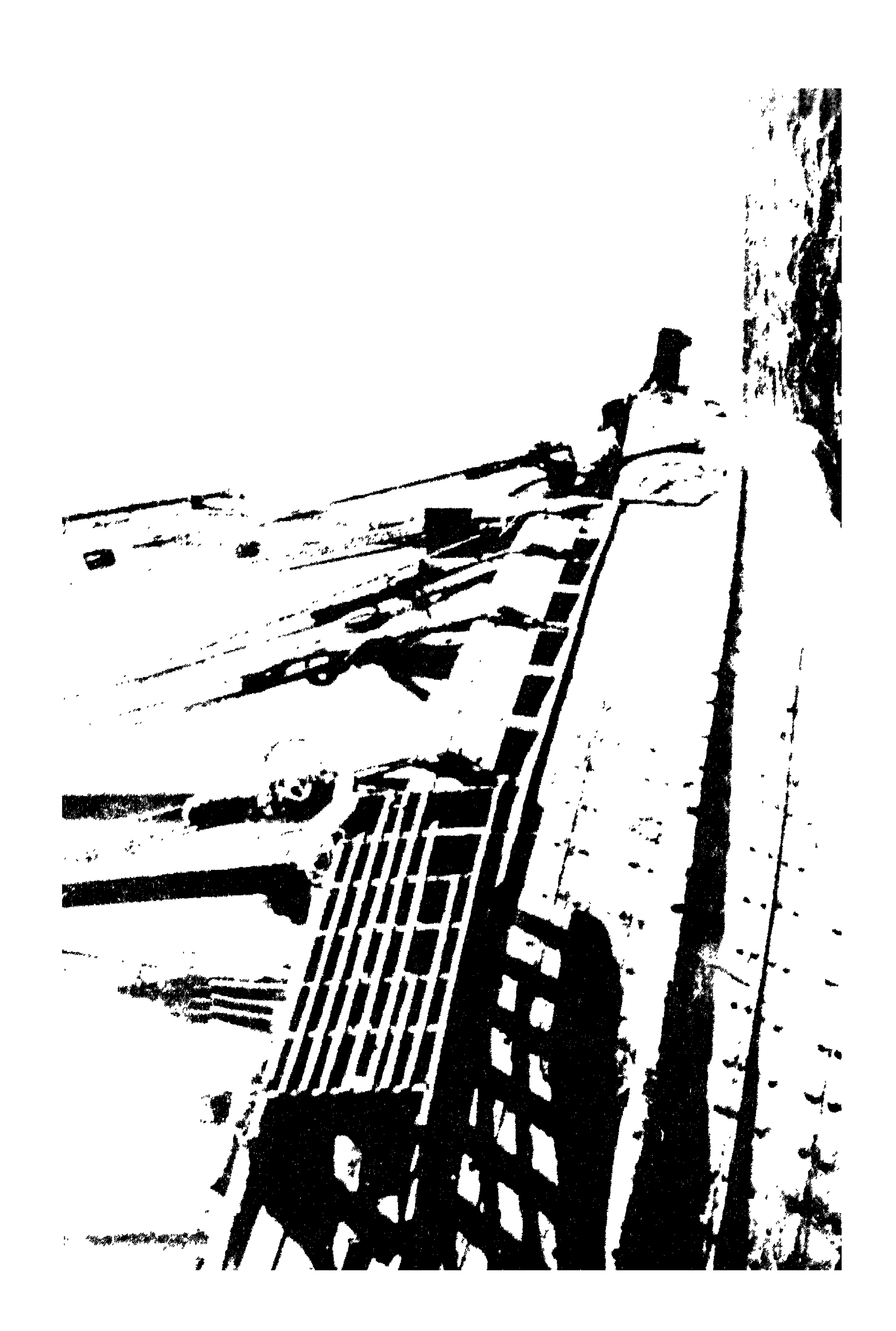
لقد كان وصولنا الى زنجبار نهاية مرحلة مهمة من الرحلة ، فقد كان علينا أن نفرغ البضائع والركاب هنا ، رغم أنه كان علينا أن نواصل الابحار جنوبا الى « سمبا أورنجا » ، الواقعة على دلتا نهر الروفيجي ، فى تنجانيقا ، لكى نحصل على الشحنة التى سنعود بها الى الوطن • وقد تمكنا فعلا من بيع الملح وبقية البضائع ، التى كنا نحملها ، فيما عدا التمر الفاسد ، الذى أصبح الآن متخمرا بشكل مريع • لقد جعلت رائحته ، مضافا اليها الرائحة المخيفة المنبعثة من السمك المكدس فى المراكب العمانية التى تحيط بنا وتملأ الميناء — لقد جعلت تلك الروائح النتنة من المرسى مكانا لا يطاق • فقد كان أكثر من نصف المراكب الراسية هناك مراكب عمانية ، جميعها موسقة بالسمك المنتن• ولكنا ، لحسن الحظ ، كنا نرسو على الطرف الخارجى من ذلك الاسطول ، وكانت الريح تهب من جهتنا باتجاه البر ، فقد كان مرسانا قريبا من مدخل خليج « فوجونى » ، حيث كانت المراكب الصغيرة تسحب وتوقف على رمل الشاطىء لتنظيفها •

عندما وصلنا الى زنجبار ، وجدنا مركب عبد الله القطامى مرفوعا على الشاطىء لتنظيفه واصلاحه ، وكان عبد الله نفسه أول من زارنا على المركب ، وكان يبدو سعيدا مبتهجا بنتائج سفرته • وقد عرفنا أنه ما زال في زنجبار منذ شهر كامل ، وانه كان قد أبحر لمدة اسبوعين من شحر الى ممباسا مباشرة ، حيث لم يجد أية صعوبة في التخلص من ركابه المائة والخمسين ، الذين لم يمت أي منهم ، ومن بيع معظم حمولته ، وبعد أن مكث حوالي عشرة أيام ، أبحر من هناك الى زنجبار ، بينما كنا نحن نتصبب عرقا في موقاديشو ولامو • وهنا تمكن عبد الله من بيع بقية حمولته ، وهو ينتظر الان حتى تهدأ الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، ويحين وقت عودته الى لامو ، لكي يشحن كمية من أعمدة المانجروف للعودة بها الى أرض الوطن • وكنا حينئذ في أواخر شهر فبراير (شباط) ، ولذلك كان لديه متسع من الوقت ، قبل أن يبدأ بالرحيل •

كان عبد الله القطامي يبدو راضيا عن نفسه ، الا أن بعض بحارته ، الذين كانوا قد أحضروه في قارب الى مركبنا ، تحدثوا مع بحارتنا ، ولم يكونوا راضين عن الرحلة • فقد كانوا يحبون « زنجبار » ، الا أنهم لم يكونوا سعداء بقضاء شهرين كاملين فيها • فقد كانت ، بحسب قولهم ، مكانا غاليا يعج بالانواع المختلفة من الملاهي • فاذا كانوا سينفقون جميع ما كسبوا

من المال فى هذه المدينة ، فلن يبقى معهم شيء يعودون به الى أهلهم • وكانوا يتذمرون ويتساءلون لماذا لم يذهب النوخذة الى مكان آخر ؟ ولماذا لم يكن من الممكن ، كما كان العمانيون وكثير من الفرس يفعلون ، أن يحصلوا علـــى حمولة محلية من أحد الموانيء الواقعة جنوب هذا المكان » ، فيكسبون بذلك بعض المال ، بدلا من ايقاف المركب هناك على الشاطيء فلم يكـــن هـــدف المركب من القيام برحلته الا كسب بعض المال ، وليس ذلك ممكنا ما دام المركب واقفا على شاطيء زنجبار • لقد كان بامكانهم فعلا أن يذهبوا جنوبا الـــى دلتا الروفيجي ، حيث يمكنهم الحصول على شحنة من الاخشاب لبيعها فـــي زنجبار ، ثم يذهبون شمالا الى « لامو » للحصول على شحنة ثانية • لقـــد كان بامكانهم ايضا أن يسافروا الى مكنداني لجلب شحنة من القمح ، كما قيل أن « سليمان سعيد » قد فعل ببغلته الكبيرة • بل لقد كان بامكان المركب أن يحصل على شحنة من زنجبار نفسها ، أو أن يحصل على شـــحنة ينقلها من مكان آخر الى زنجبار ، لو أن النوخذة تحـــرك قليـــلا وحـــاول الحصول على شيء • لقد كان للبحارة مصلحة مباشرة في أن تتم الرحلة على أحسن وجه ، ما دام لكل منهم حصته من الارباح ، ولذلك فلم يكونوا راغبين في البقاء في زنجبار • أما اذا كان عبد الله القطامي راغبا في البقاء فيها وفي انفاق جميع ماله ، فهذا شأنه هو ، وبامكان العبد سعود أن يقود المركب بدلا منه ، فقد قاده فعلا من عدن الى المكلا وشحر ، تماما كما فعل حمد بن سالم ، كما أنه سيكون له بومه الخاص في السنة التالية • وكان سعود رجلا فاضلا لا يحب الملاهي والترف ، ولا يرغب في بقاء مركبه يتعفن في الشمس لمدة شهرين كاملين على شواطيء زنجبار •

كنت أستمع الى كل هذا باهتمام بالغ ، لأني في ذلك الوقت فقط ، بدأت بالفعل أسمع شيئا من آراء البحارة ووجهة نظرهم فيما يجري مـــن أمور • وقد فاتحت عبد الله القطامي في الموضوع في وقت لاحق ، وسألته لماذا لم يحاول ، بدلا من الانتظار ، أن يحصل على مزيد من المال بنقـــل بعض الشحنات المحلية ، فقد كانت جميع المراكب الاخرى تقريبا تفعـــل ذلك ، وقد علل موقفه بأن أنحى باللائمة على العمانيين القادمين من صور ، لانهم كانوا يقبلون أسعارا زهيدة جدا لنقل البضائع ، بحيث لا يســـتطيع هو أن ينافسهم • فلم يكن باستطاعته مثلا أن يفعل ، كما يفعل العمانيون ، ويقبل نصف شلن فقط أجرة لنقل كل زكيبة من القمح من لندي أو مكنداني الى زنجبار • وقد استمعت اليه وهو يشرح موقفه ، لكني لم اقتنع بكلامه • فلو فعل شيئا من ذلك لما خسر شيئا على الاقل ، على العكس كان بامكانـــه أن يكسب مالا يكفي لتغطية النفقات ، وهذا افضل من لا شيء • فقد كان على البحارة أن يدفعوا ثمن الطعام الذي كانوا يتناولونه ، وهم لا يفعلون شيئا في زنجبار • بل انه كان بامكانه مثلا أن يشتري شحنة من القمح من



دلتا الروفيجي ، لو أراد ذلك ، كما كان باستطاعته أن يستدين ثمن تلك الشحنة من بعض تجار زنجبار ، ان لم يكن معه من المال ما يكفي لشرائها ·

والمرة الاولى لم يترك نجدي الامر غامضا ، بل افصح عن نواياه بكل جلاء · فلم يكن ينوي ان يترك « فتح الخير » عاطلا عن العمل ، ولا أن يسحبه الى رمل الشاطىء لتنظيفه ، بل سيبحر به الى الجنوب حالما تفرغ شحنته · واذا كان هناك متسع من الوقت ، يمكنه أن يقوم برحلتين واحدة لجلب حمولة تباع في زنجبار ، والاخرى لجلب الحمولة التي ستؤخذ الى أرض الوطن · الا أن « نجدي » لن يكون على ظهر المركب خلال هذه الرحلة ، بل سينوب عنه حمد بن سالم ، فقد كانت منطقة الروفيجي ، بحسب رواية نجدي ، الذي لم يذهب الى هناك قط ، مكانا مخيفا ، بل ربما أسوأ مكان يمكن أن يصل اليه مركب عربي · فلم يكن سوى مستنقع كبير ، قابض للنفس ، مغطى بالاوحال والطمي ، ومحاط بأشجار المانجروف والادغال الاستوائية ، التي كان لسع البعوض فيها مثل عض الكلاب · كما أن السماء تمطر هناك بدون انقطاع ، والمكان موبوء بالحميات ، والنهر يزخر بالتماسيح والوحوش الاخرى التي تستطيع أن تقلب القوارب بمن فيها ، والادغال تغص بالافاعي والقرود التي لا تنقطع عن الثرثرة · وكان نجدي متاكدا من أني لا أنوي الذهاب الى مكان كهذا ، حيث يمكن أن يبقى المركب ثلاثة أو أربعة اسابيع ، لأن على بحارته أن يبحثوا عن الحمولة ويعثروا عليها بأنفسهم · واقترح عليّ ، بدلا من ذلك ، أن أبقى معه في بيت يملكه في زنجبار ، وأضاف أن بامكاننا فيما بعد أن نذهب الى دار السلام وباجامويو ، بل ويمكن أن نصل الى بمبا · ويجب أن أعترف بأن الفكرة قد راقت لي ، وأن عرضه ، بأن أبقى معه ستة أسابيع في زنجبار والموانيء المجاورة ، كان عرضا مغريا · ومع ذلك ، فقد قررت أن أبقى على ظهر المركب واسافر معه اينما يذهب ، سواء كان نجدي معنا أم لم يكن · ويبدو أنه كان لنجدي مأرب آخر من محاولته تثبيط همتي ، وقد عزمت على اكتشاف ذلك أيضا · كما أنه لم يكن من المحتمل أن أقوم بمثل تلك الرحلة في وقت آخر ، وأردت أن أكتشف وأتعلم كل ما أستطيع ، فلم يكن هناك ما أتعلمه عن البحر وعن المراكب ، وأنا أمضي الوقت مع نجدي في مدينة زنجبار ·

لقد كان من المستحيل أن يتنبأ المرء حتى متى يمكن أن تحدث أشياء ممتعة على ظهر « فتح الخير » ، ولذلك فان عليه أن يظل هناك على ظهر المركب طوال الوقت ، وينسجم كلية في حياة المركب · فليس هناك من

← جانب البوم

فائدة ترجى من وقوف الانسان متفرجا ، كما أنه لا فائدة ترجى من البقاء في زنجبار أو الذهاب الى باجايومو أو الى أي مكان آخر ، فذلك كفيل بأن يجعلني أقطع الصلة بتلاحق الاحداث التي تدور على ظهر المركب · وقد وجدت أني ، بعد أن قضيت قرابة ثلاثة أشهر في المركب ، قد بدأت لأول مرة باكتشاف ما يجري على ظهره بالفعل · وسبب ذلك أن للعرب ، رغم أنهم لا يتعمدون السرية ، دراية ممتازة باخفاء أعمالهم وأفكارهم عن الآخرين · ولذلك فقد كان طريقي لمعرفة ما يجري فعلا أن أراقب بكل يقظة ما يدور هناك كل يوم ، وأن أقرر بنفسي ما الذي يجري فعلا · فهناك أمور كانت واضحة تماما ، كالحقائق المنظورة المتعلقة بالريح والطقس والاماكن التي يزورها المركب · الا أن الامور الاكثر متعة وأهمية ، كحياة البحارة من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ، والنظام التجاري المتبع على ظهر المركب ، ونظام الرحلة الاقتصادي ، والنواحي الانسانية ، وبعض النشاطات الخاصة للمركب والبحارة ــ جميع هذه الامور كانت تحتاج الى بحث وتحر طويلين ، والى صبر وأناة كبيرين والى طرق مختلفة لمعرفتها ، فبعضها تنتزعه انتزاعا في حينه ، والبعض الآخر تحاول الحصول عليه من بعض الاصدقاء ، ولو بصعوبة فائقة ، والبعض الآخر تكتشفه بطريقة ما رغم كل المحاولات التي تبذل لاخفائه · ولا أعتقد أن أحدا كان يتعمد اخفاء شيء عني أبدا ، بل كل ما في الامر أن هذا هو النمط الذي كان سائدا في حياة العرب ·

وكان مما يساعدني في بحثي وعملي أن التقط صورا للبحارة ، لانهم كانوا جميعا يجدون متعة فائقة في التفرج على صورهم ، هذا اذا كانت حسنة · فقد كان المستوى المطلوب محرجا لي ، لاني لم أكن أجري أية تحسينات على المسودات ، كما أنه لم يكن من السهل أن يصنع المرء صورا مرضية لبعض تلك الوجوه الشديدة السواد رغم وسامتها · ولذلك فكثيرا ما كان البحارة الذين أصورهم يصرحون بأنهم لا يستطيعون التعرف على أنفسهم بتاتا عندما كنت أعطيهم صورهم ، بل كانوا يعيبون علي عدم خبرتي بالتصوير ويبالغون في ذلك كثيرا · لقد كانت لدى كل منهم فكرته الخاصة عن الهيئة التي يجب أن يبدو عليها في الصورة · ولذلك اذا لم تكن الصورة تطابق فكرته فالخطأ خطئي ، وهو ذنب لا يغتفر · ولم يكن يفيد في شيء أن أبين لهم أن عدسة آلة التصوير لا تستطيع أن تراهم الا على حقيقتهم ، لا على الصورة التي يتخيلونها لانفسهم ، فقد كان بعضهم يقف منتصبا جامدا كالعصا عندما أطلب منه أن التقط صورة له ·

ويجب أن أعترف بأني كنت أحيانا أجد مواقفهم هذه ، والحافهم في أن تكون صورهم جميلة ، مصدر ازعاج لا يمكن تحمله ، ولكني كنت أنسى

ذلك وأعاود محاولاتي مرات عديدة ، عندما كنت أرى سعادة الاطفال على وجوههم ، وهم يشترون الاطارات الرخيصة لصورهم من سوق زنجبار ، أو عندما كنت أراهم وهم يقضون الوقت الطويل يملون رسائل لذويهم على أحد الكتبة العموميين ليبعثوا بتلك الصور داخلها • وكانت هذه الصور تتداولها أيدي جميع الكويتيين الموجودين في ميناء زنجبار ـ وكان عددهم لا يقل في المرة الواحدة عن مائتين ، بمعدل ثلاثين على كل مركب من سبعة مراكب تلتقي في وقت واحد ـ ويبدي هؤلاء اعجابهم بها ، وسرعان ما أصبحت أجد بحارة آخرين من مراكب أخرى يحيونني في الشارع ، ويصعدون الى مركبنا لكي أقوم بتصويرهم • ولكني كنت عادة أرفض هذا الشرف العظيم •

لقد قر رأيي على البقاء في المركب والسفر فيه الى حيث يسافر ، بل أني كنت في الواقع أنتظر زيارة الروفيجي بشيء من الشوق ، فهو مكان يصعب الوصول اليه عادة • وهو أيضا المكان الذي ما زالت ترقد فيه السفينة الألمانية الحربية المسماة كوينجزبرج (Königsberg) وكنت أرغب في مشاهدتها هناك • أما في الوقت الحاضر ، فقد وجدت زنجبار مدينة لطيفة ، وكان ميناؤها ممتعا دائما باسطوله الكبير من المراكب المختلفة • أما المدينة فقد كانت جميلة جذابة ، وأما داخل البلاد فقد كان أكثر جمالا • ولا تزال زنجبار مركز الحياة العربية في شرق افريقيا ، مع أن نفوذ العرب آخذ بالانحسار ، وما زال سلطان زنجبار العربي ، سليل السيد سعيد المشهور في عمان ، هو الحاكم الاسمي لها وللجزيرة المجاورة « بمبا » ، ومراكبه البخارية البيضاء تقف رشيقة في الميناء ، بينما تقوم فرقته الموسيقية ، وهي ترتدي الزي الرسمي ، بالعزف في الساحة الممتدة أمام النادي الانجليزي كل يوم ، وعلى شاطيء البحر مرة في الاسبوع ، كما أن قصره الابيض الجديد القائم على الشارع المحاذي للشاطيء ذو منظر خلاب • ويمكن أن يراه المرء كل يوم تقريبا ، وهو خارج من القصر في سيارة رولز رويس كبيرة ، يرفرف على مقدمتها العلم الاحمر ، ويجلس فيها رجل ملتح لطيف كبير السن يرتدي العمامة ، ليقوم بنزهة قصيرة • وعلى مقربة من قصره يقوم « بيت العجائب » العظيم ، الذي كان سلطان سابق قد أنشأه ، ثم اضطر للتخلي عنه لفداحة نفقاته ، وهو يستخدم الان كمكاتب حكومية ، بينما يستخدم بيت الحريم المجاورة له مدرسة للبنات •

ومنذ مدة ليست بالبعيدة ، كانت زنجبار المركز الرئيسي لتجارة الرقيق العربية ، وهنا كان يقوم واحد من آخر أسواق الرقيق العمومية في العالم • أما الان فان كتدرائية كبيرة تقوم في مكان ذلك السوق • وفي

هذه الايام يبدو أن الهنود يسيطرون على جميع انواع وأحجام التجـــارة في زنجبار ، بالاضافة الى معظم مزارع جوز الهند و القرنفل ، بينمـــا يقوم الافريقيون بأعمال البوابين والحمالين في الميناء ، والبريطانيون بأعباء الحكم • الا أن العرب ما زالوا يملأون الميناء بمراكبهم ، عنـــد هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية فـي كـل عـــام ، والعمانيـون بقمصانهم الداكنة وقاماتهم المنتصبة ما زالوا يملأون شوارع السوق ، وهم يحملون السلاح ، فقلما تجد عمانيا في الخارج دون أن يكون على الاقل يضع في وسطه خنجرا معقوفا مزينا بالفضة ، ومغمدا فـي جراب مفضض أيضا • أما الكويتيون فلا يحملون السلاح أبدا ، لان البدو فقط هم الذين يحملون السلاح في الكويت ، وهؤلاء ينظر اليهم الكويتيون شزرا • ويعتبر سوق زنجبار سوقا عامرا حتى فى نظر الكويتيين ، الذين لا يرون في كـل افريقيا سوقا يعادل سوق بلدهم العظيم •

لقد وجدت مدينة زنجبار مكانا لطيفا ، اذا ابتعد المرء عن رائحـة السمك المتعفن قرب الميناء • ففي السوق تستطيع أن تجد الفاكهة الاستوائية على أنواعها ، علاوة على السمك واللحوم والخضار • وهنـــاك أيضـــا « الحلوى » والبطيخ ، والمانجو والكعك الشديد الحلاوة ، وبقية المآكـــل اللطيفة التي يحبها العرب ، وجميعها تتوافر بكثرة ، كما أن شهرة صانعي الحلوى لا تضاهيها الا شهرة زملائهم في مسقط • في السوق أيضا دكاكين للسلاح تستطيع أن تشتري منها خنجرا عمانيا مثلا ، الا أني لم أجد فيها واحدا من الصنف الممتاز •

وقد فهمت من بحارتنا ان زنجبار كانت أفضل مكان على طول الساحل بأكمله بالنسبة لتوافر الفتيات من جميع الاشكال والاصناف ، ولذلك كانوا يجدون في ليالي زنجبار متعة دائمة ، وقلما كانوا يتواجدون على المركب مساء ، ليؤدوا الرقصات المعتادة التي لم نر منها شيئا طوال اقامتنا فـــي الميناء • وحتى نجدي ، قلما كنا نراه على ظهر المركب ، فقد كان يغيـب عنه أياما كاملة • والواقع أن الجميع كانوا يقضون أوقاتهم على الشاطىء ويتمتعون بما تقدم المدينة لهم ، ما عدا حمدا بن سالم الذي لم يكن ينزل الى البر الا لقضاء حاجة ، ويوسف الشيرازي ، الذي كان يذهب الى المدينة خلال النهار ليشتري ما يلزم للمركب من حوائج • ولكنه كان ينزل أيضا لغرضين آخرين : أولهما ، بيع آخر ما لديه من السلع الخاصة ، وثانيهما ، شراء بعض الهدايا لزوجته وأولاده في الكويت • وكثيرا ما كان الجميع

اصلاح الشراع ←



يتغيبون عن المركب ولا يبقى عليه في المساء سواي أنا وحمد بن سالم ويوسف العجوز ، وحتى أنا لم أكن أتواجد هناك كثيرا • فقد كنت أحب الميناء ، الا أني كنت أحب المدينة أيضا • وكان يوسف يبيع السلال الحضرمية لأصحاب الحوانيت بسعر تسع بنسات للسلة الواحدة ، بينما يقومون هم باعادة بيعها بسعر شلنين لكل منها • وكان لدى يوسف عدة أكياس ملآى بالسلال والمراوح المصنوعة في المكلا ، وكان يبيع بعضها في كل ميناء توقفنا فيه طوال الرحلة ، وقد تمكن من بيع آخرها في زنجبار • أما اسماعيل ، فقد كان الطلب على موسيقاه كبيرا ، ولذلك كان مشغولا باستمرار في اقامة الحفلات الموسيقية ، والعزف في النوادي الليلية العربية ، وكان هذا مدعاة سرور غامر لكلينا : له لان ذلك كان يدر عليه ربحا وفيرا ، ولي لأن في غيابه هدوء المركب وراحة لي •

لم يكن في زنجبار شيء يعجز البحار عن القيام به • فقد كانت بالنسبة للعرب وللآسيويين الآخرين ، مدينة مفتوحة على مصراعيها ، فيها الحياة الليلية والحياة النهارية مفتوحة لمن شاء أن يغرف منها • وكان بحارتنا عادة يعملون طوال النهار ، فيما عدا فترة القيلولة عقب وجبة الغداء ، التي كانوا يقضونها على ظهر المركب ، ولم يكونوا ينزلون الى البر الا بعد العصر • وكان نظام حياتهم هناك منتظما • فهم يبدأون ببيع بعض السلع التي بحوزتهم ، والتي كان يبدو لي أنها لن تنضب أبدا ، ثم ينفقون ثمن ما باعوه على الفتيات • وكانوا يعودون الى المركب في أي وقت ، ما بين منتصف الليل وصلاة الصبح • وكان هذا يتكرر ليلة بعد أخرى ، وكأن هؤلاء البحارة لن يشبعوا من المتعة أبدا • وقد أسر لي يوسف الشيرازي مرة انه غير راض أبدا عما يجري في زنجبار ، فهو يعتقد أن الفتيات يتمتعن بحرية زائدة ، وأنه يرفض أن يتخذ لنفسه زوجة من ذلك المكان ، لان الفتاة تكون ، حتى في سن الثانية عشرة ، قد أصبحت تهوى التنويع في الملذات لدرجة أنها لا تصلح أبدا زوجة لأي رجل ، وبخاصة اذا كان بحارا •

وعندما كانت جيوب البحارة تفرغ من النقود ، لم يكن هذا يعني بالضرورة أنهم سيحرمون من التمتع بالنساء ، لان هؤلاء ، كما فهمت ، مولعات جدا برجال البحر الاشداء • ولم يكن على البحار ، اذا فرغ منه المال ، الا أن يتمشى قليلا حتى يصل الى المزارع ، أو آبار الماء الواقعة خارج المدينة ، ويفضل أن يتم ذلك في وقت القيلولة عندما يكون الرجال نياما • ففي مثل هذه المناسبات ، لا بد أن يجد البحار فتاة تبحث عن المغامرة • ولا بد أيضا أن تشعر نساء زنجبار بالحزن الشديد عندما ترحل تلك المراكب عن مينائهن • الا أن بعض البحارة كانوا يتخلفون في المدينة •

وقد لاحظت أن البريق قد خبا من عيون أولئك العرب الذين كانوا قد أمضوا مدة طويلة هناك ، فقد أصبح عودهم طريا ، وأعتادوا على الحياة الناعمة ٠ وقد علق يوسف الشيرازي على ذلك قائلا : ان العربي الذي يمضي خمس سنوات في زنجبار ، لا فائدة من عودته الى الجزيرة العربية ، فلن يصلح للحياة هناك ، وعليه أن يمضي بقية حياته في هذه المدينة ٠

وكان يوسف يقول ان القصة نفسها تتكرر كلما كان العربي يبتعد عن وطنه ٠ فهو يبدأ أولا بالمتاجرة ، ثم يستقر حيث هو ، ثم يسير في طريقه الى الدمار بسبب انغماسه في الحياة الهانئة والملذات المختلفة من خمر ونساء ، ويتابع سيره في الطريق الوردي ، فينسى كلام الله ، ويهمل فريضة الصلاة ، ويتوقف عن الصيام ، ويطلق العنان لشهواته يحاول اشباعها كلما أحس بأي منها ، وهكذا يندفع الى الهاوية ، وقلما يحاول العودة الى الطريق السليم ٠ ويتابع يوسف كلامه قائلا ان العربي كان ، الى ما قبل نصف قرن من الزمان ، سيد زنجبار والساحل الافريقي كله ، أما الآن فقد اصبح يعتمد على الهنود في ادارة أعماله ومزارعه ، وحتى في خياطة ملابسه ، فأصبحت الثروة تؤول اليهم ، بينما اصبح البريطانيون هم الذين يصدرون له الاوامر كيف يدير مركبه وأين يرسيه ، وأصبحت سلطات الجمرك تجبره على تسجيل مركبه ، وتجبر النوخذة على الحصول على شهادة تثبت كفاءته ، وأصبح الاجنبي يسيطر على كل حركة من حركات مركبه التي يجب أن تتمشى مع القانون ٠

والواقع أن الرقابة على المراكب العربية كانت شاملة وفعالة ، ولو شكليا ، في زنجبار ٠ فقد كان القانون المحلي ينص على أن المراكب الشراعية يجب أن تفحص فحصا دقيقا ، وأن تكون بحوزة كل منها أوراق التسجيل الرسمية السارية المفعول ٠ كما يجب أن تكون قوائم البحارة كاملة ودقيقة ٠ وأن يكون البحارة قد تطوعوا للعمل بمحض اختيارهم ، وألا يزيد عددهم عن العدد المعقول اللازم لادارة المركب (وذلك لمنع تجارة الرقيق) ٠ وكان عدد الركاب ، الذين يسمح للمركب بتحميلهم ، محددا بعشرة ركاب للاطنان العشرة الاولى من الحمولة المسجلة للمركب ، وسبعة لكل من الاطنان العشرة التالية ٠ وبموجب هذا تكون حمولة مركبنا فتح الخير من الركاب محددة بأربعة وتسعين ، لان حمولته المسجلة كانت مائة وثلاثين طنا ، وكان هذا ، في رأيي عددا معقولا جدا ٠ كما كان القانون ينص أيضا على أن تكون المراكب في حالة صالحة للابحار ، وأن تدقق السلطات قوائم البحارة عند وصولهم وعند مغادرتهم للميناء ، والا يتم التعاقد مع أي بحار جديد دون رقابة ، وأن يكون مع جميع الركاب وثائق رسمية تثبت هوياتهم،

وأن يسجل كل منهم فى قائمة الركاب • كما كان على جميع المراكب أن تقلع وتغادر الميناء حالما يسمح لها بذلك ، وألا يظل لهـا أى اتصـال بالشاطىء ، ولم يكن يسمح لأى مركب بالاقلاع ليلا الا باذن خاص • لقد كان كل هذا منصوصا عليه بكل وضوح فى القانون المحلى • كما كان على كل مركب أن يحمل المصابيح الخاصة بالملاحة ، بما فى ذلك القناديل الدالة على أن المركب واقف على مرساته • وكان من الواجب على كل مركب أيضا أن يرفع علم بلده عند الوصول وعند المغادرة ، وألا يلقى بحارته بأية قاذورات فى الميناء ، كما كان على النوخذة ، ان لم يكن حاصلا على اجازة من قبل ، أن يجتاز امتحانا أمام ضابط الميناء ، لكى يحصل على شـهادة الكفاءة ، التى لم تكن تمنح الا اذا اقتنع الضابط ، أو من يقوم مقامه ، بكفاءة المتقدم للامتحان واتزانه، وخبرته، ومقدرته، وحسن سيره وسلوكه• ولم تكن هذه الشهادة أبدية ، بل كانت معرضة للالغـاء أو التوقيف لأيـة أسباب معقولة •

وليس هذا هو كل ما ينص عليه القانون المحلى ، بل هناك الكثـير غيره ، بحيث يبدو أن حياة البحارة العرب كانت محددة ومقيدة بالانظمة والقوانين الى حد بعيد • ولكن الواقع أن هذه الانظمة لم تكن تحاول أن تقيد نشاط البحار العربى ، بقدر محاولتها منع سوء الاستعمال الفاضح • فلم يكن أحد يزعج تلك المراكب ، ما دام كل منها راسيا فى المكان المخصص له ، وما دامت عمليات التهريب لا تتم على نطاق واسع جدا • أما ما يتعلق بشهادات الكفاءة ، فعلى الرغم من أنها كانت خطوة على الطريق الصحيح ، ومن أن العرب كانوا يفخرون بها عندما يحصلون عليها ، فيضعونها فى اطارات ، ويحفظونها بعناية فى صناديقهم ، الا أن اجتياز الامتحان اللازم للحصول عليها لم يكن أمرا شاقا جدا • فمن الناحية النظرية ، لم يكن يطلب من النوخذة العربية أكثر من معرفة جيدة باصول الملاحـة فيمـا يتعـلق بمراكبهم من ناحية ، وبطرق تفادى الاصطدام بالسفن البخارية الكبيرة من ناحية أخرى ، وخبرة تامة بفنون الملاحة ، وبصعوبات الابحـار بمحـاذاة الشاطىء الافريقى ، بالاضافة الى مقدرة أولية على التصرف فى مواجهـة الحوادث البحرية • وعندما كانت السلطات تكتشف (ولم يكن هذا يتكرر كثيرا) أن أحد نواخذة المراكب العربية الكبيرة لا يحمل الشهادة المطلوبة ، كان يؤتى به الى ضابط الميناء ليتقدم للامتحان اللازم • ولم يكن الامتحان نفسه صعبا أبدا • فقد ذكر لى ضباط الميناء أنفسهم أنهم مقتنعون بـأن الرجل ، الذى يستطيع أن يقود مركبه من الجزيرة العربية الى زنجبار ، يستطيع أيضا أن يعود به الى وطنه بأمان ، وأن المراكب العربية الكبيرة نادرا ما تتعرض للحوادث ، وما يتعرض لها هى تلك المراكب الصغيرة التى يبنيها السواحليون بشكل غير متقن ، أو تلك المراكب العربية القديمة التى

يشتريها بعض الناس من الجزيرة العربية ويقودها البحارة المحليون ، فهذه هى التى كانت تحتل الصدارة فى قائمة الحوادث البحرية ٠

وذات يوم كنت فى مكتب ضابط الميناء ، وكان هذا شابا اسكتلنديا لطيفا ، عمل فيما مضى ضابطا على احدى السفن البخارية ، واذا بأحد النواخذة العرب يدخل علينا ، طالبا فحصه بقصد منحه الاجازة اللازمة ٠ وكان هذا عبد الرزاق العمانى الاحول العينين ، الذى كنت أعرفه حق المعرفة ، فقد كنا قد اجتمعنا مرارا من قبل ، وكانت بغلته الصغيرة الجميلة، التى تبلغ حمولتها حوالى سبعين طنا ، راسية بجوار مركبنا مباشرة ٠ وكان يقودها بالفعل ، شأنها فى ذلك شأن معظم المراكب العمانية ، خمسة أو ستة من البحارة الاشداء الخبراء ، بينما كان عبد الرزاق قائدهم بالاسم فقط ٠ وكان هذا شابا صغيرا مغرورا لا يزيد عمره عن التاسعة عشرة ، بينما يزيد طول قامته عن ستة أقدام مع هزال شديد ٠ وقد فهمت من نجدى أن والد هذا الشاب كان يملك البغلة ، كما يملك عدة بغلات أخرى مثلها ، وأن هذا هو السبب الذى جعل عبد الرزاق يصبح نوخذة لها ٠

وقد تم فحص عبد الرزاق بصورة شكلية وبسرعة كبيرة ٠ بدأ ضابط الميناء الذى كان يبدو عليه الملل ، بسؤال عبد الرزاق ، عن طريق ترجمان ، ان كان يعرف قواعد الملاحة فى الطرق البحرية المعتادة ٠ وعلى الرغم من أنى كنت متأكدا من أن عبدالرزاق لا يعرف تلك القواعد ولن يتعلمها أبدا ، الا أن جوابه كان بالايجاب ٠ وما دام الامر كذلك ، فما هى المصابيح التى ينبغى أن تكون على المركب فى أثناء ابحاره ؟ وكان جواب عبد الرزاق أن المركب يجب ألا يحمل أى مصباح على الاطلاق ، وبرر ذلك بقوله أن فى ذلك مضيعة للزيت وللمال ، ومضايقة للبحارة ، واقلاقا لراحة مساعديه أثناء نومهم ، واغراء للسمك « أبو سيف » بمهاجمة المركب ٠ وقد خيل الى أن الاجابة كانت خاطئة تماما ، حتى على الصورةالتى نقلها الترجمان٠ ولكن حدث فى تلك اللحظة أن دخل الى المكتب القبطان الهندى لاحد مراكب السلطان البخارية ، وكان هذا فى العادة هو الذى يقوم بفحص النواخذة ٠ فقد كان يعرف العربية معرفة جيدة ، كما كانت له دراية واسعة بالنواخذة العرب ٠ وسرعان ما طلب الضابط من القبطان أنيواصل فحص عبدالرزاق، وأن يقنعه ببطلان حججه فيما يتعلق بانارة المركب أثناء سيره ليلا ٠ فدخل الاثنان الى غرفة مجاورة ، بعد أن أخذ الهندى معه بعض نماذج المراكب الصغيرة ، لمساعدته على شرح بعض قوانين البحار ، بالاضافة الى احدى خرائط زنجبار ٠ ولم يمض وقت طويل حتى عاد الاثنان ، وأعلن الهندى أن عبد الرزاق قد نجح فى الامتحان ٠ وقد لمحت نظرة من الشك ترتسم على وجه ضابط الميناء ثم تختفى بسرعة ، الا أنه لم ينبس ببنت شفة ، وحصل

عبد الرزاق على شهادته • وعندهـا خطر لى خـاطر • فاذا كانت شهادات النواخذة تمنح بمثل هذه الطريقة ، لم لا أتقدم أنا للفحص أيضا ، فقد حان الوقت لاحصل على شهادة ؟ وهكـذا فعلت ، ونجحت فعـلا ، وحصلت على شهادة رسمية من حكومة السلطان تخولنى حق قيادة مركب عربى كبير ،وقد دفعت خمسة عشر شلنا فقط رسما للحصول على تلك الشهادة •

واحتفالا بالمناسبة فقد قررت أن أصحب نجدى الى السينما ، لأنه كان في الماضي قد أعرب عن رغبته في مشاهدة أحد الافلام،وكانت في زنجبار دار جيدة للسينما • فذهبت للبحث عنه فى مكتب وكيل المراكب الشراعية الذى كان جزءا من حانوت للحلوى قائم فى وسط السوق • وكان لهـذا الحانوت شرفة مخصصة لنواخذة المراكب الكبيرة المعروفة ، وفى الداخل غرفة خاصة منعزلة يمارس فيها الوكيل أعماله • وكان هذا رجلا من الاسياد تبدو عليه سيماء التقى والورع ، الا أنه لم يكن يتـورع عن القيـام بأى عمل • وفى الطوابق العليا كانت هناك حجر سرية عديدة ، وجدت نجدى فى واحدة منها تقع فى الطابق الثـالث • وكان يجلس هنـاك مع عبد اللـه القطامى ، وكلاهما يرسلان نظرات الحب والهيام الى غرفة أخرى مملوءة بالفتيات المحجوزات خلف قضبان من الحديد ، تقع فى الناحية الاخـرى من الفناء ، بينما كان يقوم عليهما ، ويحاول تسليتهما ، رجل سواحلى يجلس على الارض ويعزف على الكمان • ومع أن الوقت كان متأخرا ، الا أن طعام الغداء كان يمد على الحصير ، وقد طلبا منى أن أشاركهما فيه • فاستمتعنا بوجبة شهية تتألف من الدجاج المشـوى ، والسمك والارز ، ومـرق الفلفل الحار (الدقوس) ، واللبن والفاكهة من الموز والاناناس • وقد انتهينا من التهام الطعام بسرعة مذهلة، على الرغم من أن نجدى قضى على ثلاث دجاجات كاملة بالاضافة الى ثمانى سمكات • ثم غسلنا أيدينا بالماء الذى أحضره أحد الخدم ، واستلقينا لنأخذ قسطنا من النوم والراحة • وعندما استيقظت بعد ساعة تقريبـا ، كان عدد من العمانيين يجلسـون القرفصاء من حولنـا • فتناولنا بعض الحلوى الطازجة المصنوعة فى الحانوت القائم تحتنا ، وشربنا شيئا من الشاى • الا أنى اضطررت بعد ذلك للجلوس مدة لا تقل عن ساعتين استمع الى حديث أولئك العمانيين ، اقترح نجدى بعدها أن نشغل الحاكى (الجراموفون) ، القائم فى احدى زوايا الغرفة ، ونستمع الى شىء من الغناء • وقد وجدت أنـى لن أستطيع أن أطيـق ذلك ، رغم تطمينى بأنى سأشنف أذنى بغناء أعظم مطربة فى مصر ، فودعتهم وانطلقت أتمشى على الشاطىء •

وبعد المغرب بقليل ، قابلت نجدى ، وذهبنا سويا الى السينما ، التى كانت مؤسسة هندية لا تبعد كثيرا عن السوق • وقد ركبنا عربة يدويه

أخذت تدرج بنا من غير اتزان في الشوارع الضيقة ، يجرها زنجي سرعان ما أخذ يلهث من التعب ، ويدفعها آخر من الخلف · وكان نجدى في حالة نفسية سيئة ، لأن الامور ، كما قال ، كانت سيئة في زنجبار · وقد أضاف بأنه ، اذابقى الوضع على ما هو عليه ، فسرعان ما سيأتى اليوم الذى يجد فيه نفسه ، وهو يجر عربة من النوع الذى كنا نركبه · فلم يكن هناك سعر مناسب للملح الذى كنا نحمله على مركبنا ، ولم يكن المال وفيرا لدى تجار المدينة · ولم يكن العمانيون مستعدين لدفع أجور الخدمات التى قدمها لهم ، كما أنه لم يتمكن من بيع المركب الصغير الذى كان النجار قد فرغ من بنائه · وقد زاد من تشاؤم نجدى أن محصول القرنفل ، الذى يعتمد عليه ازدهار الجزيرة اعتمادا كبيرا ، لم يكن وفيرا هذا العام ، ولذلك فقد قل المال فى ايدى التجار والناس عموما · أما لب جوز الهند ، وهو المحصول الرئيسى الآخر ، فقد كان فى حالة غير صالحة للاستعمال · وكان نجدى مرتبكا لايستطيع أن يفهم كيف يمكن أن تتغير الامور بهذا الشكل وبهذه السرعة · فبالامس القريب ، منذ سنة خلت فقط ،كان كل شىءعلى مايرام، وكان محصول القرنفل ممتازا ، والاسعار جيدة ، وكانت الاموال وفيرة عند العرب والتجارة مزدهرة ازدهارا كبيرا · وقد كان نجدى ، كمعظم العرب الذين عرفتهم ، يجد صعوبة كبيرة فى التكيف مع التغيرات المفاجئة او حتى مع أية تغيرات من أى نوع · فكان يتساءل كيف يمكن ان تكون الامور بهذا السوء الآن ، اذا كانت جيدة فى العام الفائت ، دون أن يجد جوابا على ذلك · وكان تعليله لذلك هو أن الخطأ خطأ انسان ما ، فان لم يكن كذلك ، فهو سوء حظه العاثر اذا · وفي كلتا الحالتين ، فان ذلك أمر يدعو للرثاء · ولكن هذا لايغير شيئا من الواقع المؤلم · كان نجدى يقول ذلك ، بينما كانت العربة تنحرف بعنف شديد وسرعة كبيرة حول احدى الزوايا ، فتصطدم بأحد أصحاب الحوانيت وهو جالس على درج حانوته · واخيرا وجد نجدى الجواب · لقد كان الذنب ذنب الاوروبيين وحدهم · فقد كانت مساوىء العالم كله من فعلهم ، بسبب تلك الحياة غير الطبيعية وغير المتزنة التي يحيونها ، فقد خلقوا الفوضى في العالم كله بسبب ابتعادهم عن المثل العليا والمبادىء السامية ، وبسبب جشعهم وحسدهم القاتل لجميع شعوب الارض ، ولبعضهم بعضا أيضا · وعليهم ، اذا ارادوا اصلاح ما خربوه ، أن يعودوا الى الله ، وان يحافظوا على نسائهم · هذان هما المبدءان الرئيسيان ، والضرورتان الماستان ، فى رأى نجدى :الايمان بالله والسيطرة على النساء · وهو يعتقد أن الاوروبيين جميعا لم يفقدوا اتزانهم الا باهمالهم هذين المبدأين ، وبعملهم هذا فهم يجرون بقية العالم الى الدمار ·

ولم أكن أعير اهتماما كبيرا لما كان نجدى يحدثنى به ، فقد كان هذا

دأبه دائما ، بينما كنت أرقب الطريق التى كنا نسلكها باهتمام أكبر ،فقد كان سوق زنجبار مكانا مسليا بحق ، يغلب عليه الطابع العالمى • فكنت أرى اليونانى ، والهندى القادم من جوا ، والهندوسى والبنجابى والسيخ والسنجالى والعمانى والحضرمى واليمنى والفارسى والعراقى والكويتى والكردى والسواحيلى والبلوشى والافريقيين من جميع الاشكال والاجناس يتدافعون فى الشوارع ، أو يقفون على جانبى الطريق ليفسحوا مجالا لمرور العربة — ولم يكف نجدى عن الكلام ، ولم أعترض على كلامه اطلاقا فلم يكن لذلك فائدة ترجى ، فقد كان دائما متأكدا من انه على صواب،وفى مثل هذا الموقف ، لم أكن اعرف كيف اجيبه • وهكذا تابعنا سيرنا ، وكانت العربة تندفع أحيانا بأقصى سرعتها ، بينما تبطىء أحيانا أخرى حتى تعادل سرعة المشى العادية عندما تواجهها طريق صاعدة • وكنا نرى هنا مجموعة من الفتيات العمانيات الصغيرات ، وهن يرتدين الملابس الاوروبية ،ويضعن اشرطة حمراء فى شعورهن ، وهناك نشاهد هندوسيا يسير بقامته المهيبة ، تسير خلفه زوجته الشابة ، وهى تحافظ على مسافة لاتقل عن ست خطوات بينها وبينه •

لم أكن موفقا باصطحاب نجدى الى السينما وهو فى ذلك المزاج السيء ، كما أن الفيلم لم يكن موفقا ايضا • فقد كان الفيلم امريكيا ، من النوع العادى الذى تنتجه هوليوود ، فكان اخراجه جيدا من الناحية الفنية الا أن فكرته لم تكن موفقة • وفى العادة ، لم اكن أعير ذلك اهتماما كبيرا، بل ربما وجدت فى مثل هذا الفيلم مايدعو للملل ، الا أنى عندما نظرت اليه من وجهة نظر نجدى ، أصبح له معنى خاص مخيف تقريبا • وقبل أن أخرج من دار السينما تلك ، بدأت أتساءل تساؤلا جديا عما اذا لم تكن أراء كثير من اصدقائى العرب أقرب الى الصواب من آرائى • فقد كانت قصة الفيلم تدور حول محاولة احدى السكرتيرات ، العاملات فى نيويورك ، أن تتخلص من رتابة حياتها وعملها ، بقضاء اجازة فى أحد مخيمات الشباب، الذى بدا فى الفيلم مكانا مزعجا ، مبتذلا ، مجنونا ، نظمته جماعة من النساء المصابات بالشبق ، الشاعرات بالحرمان الجنسى ،بالتعاون مع عدد من الرجال التافهين •

ان كان المقصود من هذا الفيلم أن يكون نقدا لمثل هذه المخيمات ، فقد كان قاسيا جدا عليها ، ولكنى لا أعتقد أنه كان يهدف الى ذلك ، بل غالب الظن أنه لم يكن الا مجرد فلم مبنى على احدى المسرحيات التى عرضت على مسارح برودواى مدة طويلة ، بحيث لفتت نظر رجال صناعة الافلام فى هوليود • وأنا متأكد أنه لم يقصد منه أى شيء آخر ، كأن يكون وثيقة

اجتماعية أو ما أشبه ذلك ، بل كان المقصود منه الربح المادى ليس الا · الا أن نجدى كان يجد فيه أكثر منذلك بكثير، فقد كان يصر على اعتباره ادانة صارخة للجنس الاوروبى الابيض بأسره · فقد كان يعتبره سخيفا لدرجة لاتصدق ، ولو كان الامر بيده ، لغطى بطلة القصة بالحجاب ، وحبسها بين أربعة جدران في القسم المخصص للحريم · علاوة على ذلك ، فلم تكن تلك البطلة تتحلى بأية مقاييس جمالية متعارف عليها بين العرب ، فلم تكن لها أثداء بارزة ، أو مؤخرة تستحق الذكر ، فهي أشبه بالعصا الضعيفة ، علاوة على أن مشيتها كانت تدعو للرثاء · ثم أنها كانت تتمتع بفم واسع رخو ، وكان هذا ، في نظر نجدى ، أكبر عيوبها · لانه لايعتقد أن امرأة ذات فم كبير يمكن أنتكون امرأة طيبة · ولم يكن باستطاعة نجدى أن يفهم لماذا تصور المغامرات العاطفية لفتاة عادية جدا بالطريقة التى صورت فيها ، وتحول الى فيلم سينمائى ، خاصة وأن نجدى لم يكن ينظر اليه على اساس أنه مجموعة من الصور ، بل على أنه يمثل جزءا من الحياة الاوروبية · فكان جنون الفيلم ، ونكاته الفارغة ، وسخافاته وتفاهاته تحدث في نجدي الصدمة تلو الاخرى ، فتثير فيه القرف والتقزز ، حتى أنه لم يعد يستطيع المتابعة ، فهب واقفا بعد أن شاهد المنظر العاطفى الرابع ، وغادر المكان · وقد سررت لذلك ، فلم تكن الامسية موفقة أبدا ·

وعندما أصبحنا فى الخارج كان نجدى مايفتأ يلحف على فى السؤال عن معنى كل مايجرى فى الفيلم · فلم يكن باستطاعته أن يفهم مطلقاسلوك أولئك الناس الذين كانوا يملأون ذلك المخيم الامريكى الترويحى ، وعندما وصفتهم له على أنهمبالنسبة للامريكيين أشبه ما يكونون بالبدو بالنسبة للعرب المتحضرين ، لم يفهم ما أقصد ، رغم أن نظرته الى البدو لم تكن نظرة احترام · فقد كان مستوى تفكيرهم ، في نظره ، منخفضا جدا ، حتى أنه يتوجب على الحكومة أن تحجزهم فى أماكن خاصة بهم كمستشفيات المجانين ، والا فكيف يمكن أن يتصرف أناس عقلاء على هذا النحو ؟ ففى أول فرصة كانت بطلة الفيلم بين ذراعي البطل · ولم يكن ما يمنع هذا بالنسبة للرجل على الاقل ، فى نظر نجدى ،الذى لم يكن يمانع فى شىء من المتعة النظيفة · ولكن ألم يكن باستطاعة الرجل الامريكى أن يعرف المرأة غير البكر عندما كان يجتمع بها ؟ والا ماذا دهى اولئك الرجال ؟ وكيف يرضى أحدهم بالزواج من فتاة من ذلك الصنف الذي يمكن أن يحصل عليه في كل وقت وعندما يشاء ؟ أما رأي نجدي في البطلة ، فهو أنها كانت فى السابق فتاة عليها مسحة من الجمال ، وأنها ، لو تعهدها اهلها بالعناية والغذاء اللازمين ، لكانت قد زادت جمالا واصبحت مقبولة جدا ، على الرغم من أن فمها الواسع كان سيظل أحد معايبها ، وانه كان من واجب اهلها ان يزوجوها وهى شابة صغيرة ·

لقد كانت قصة الفيلم سخيفة حقا اذا قيست بأى مقياس ، الا انها كانت ، بالنسبة لنجدى ، تعنى اكثر من ذلك بكثير . فقد كان ينظر اليها كأنها مرآة لايستطيع أن يرى خلالها الا مجتمعا متفسخا منحلا تمام الانحلال فلم يكن يعتبرها مجرد قصة ، او فيلما يقصد منه امتاع الناس ساعة أو ساعتين ، وجمع مبلغ من المال من شباك التذاكر . وحتى لو كانت مجرد قصة فهى ، فى نظره ، تعكس المجتمع الذى انتجها ، والذى من الواضح انه يدفع المال ليجلس افراده فى المقاعد ويتفرجون عليها . والدليل على ذلك أنهم يتقبلونها بدون كلمة احتجاج واحدة ، اليس كذلك ؟

ولقد استمعت الى نجدى يقول كل ذلك ، واقتنعت أخيرا بأن لديه وجهة نظر وجيهة فعلا . لقد كانت سهرتنا فى السينما فاشلة تماما ، ولم ينسها نجدى قط ، بل كثيرا ما كان يشير الى ذلك الفيلم ، حتى بعد انقضاء شهور على تلك الامسية ، كصورة للحياة السخيفة التى يحياها الناس فى الغرب . ولم يكن يميز بين الاوروبيين والامريكيين ، فجميعهم كانوا فى نظره سواء .

ودعت نجدى عند بوابة المنزل ، الذى كان يقيم فيه ، وعدت أدراجى الى المركب . فوجدت المرسى هادئا ، وأنوار النجوم تنعكس على صفحة الماء المظلمة ، فلم تكن الليلة مقمرة . وفى مكان ما على الشاطىء على مسافة بعيدة عني ، كانت تتناهى اليّ أصوات السواحليين وهم يرددون اغانيهم المعروفة ، وفى احدى اللحظات تمكنت من سماع أصوات الغناء وهى تنبعث من حناجر بحارة قارب فارسى كان يقترب من مركبه . وعندما اختفت تلك الاصوات ، سمعت صوت ضحك مجلجل قادم من أحد البيوت القائمة على الشاطىء . وعندما صعدت على ظهر المركب ، كان كل شىء هادئا تماما ، والسكينة تخيم على الكون ، بينما وقف يوسف الشيرازى كأنه الشبح فى ذلك الليل المظلم يستقبلنى على رأس الممر الخشبى . وأخذت أنظر الى المراكب الراسية حولنا ، والتى يلفها السكون والهدوء ، والى صوارى المركب المائلة وهى تكاد لا تبين للعين فى الظلام الدامس ، لولا شىء من النور آت من النجوم ، فخامرنى شعور غامر بالرضى والسعادة لوجودى هناك ، كواحد من اولئك المغامرين جوابي الآفاق ، أعيش حياة فيها المتعة ، وفيها المغامرة وفيها شىء من الجمال ، حياة رجال لا مكان للنساء فيها ، حياة لا يستطيع المرء أن يجدها فى أى مكان آخر فى هذه الايام .

وأخذت أتأمل وأحدث نفسى قائلا : ألا يجوز ان يكون هؤلاء البحارة القادمون من بلاد العرب يدركون من معانى الحياة أكثر مما ندرك ، على الرغم من تبجحنا وادعائنا بأننا متفوقون عليهم حضاريا ؟ ليس من شك فى

أنهم يعرفون أكثر منا بكثير نعمةالقناعة وتقبل كل يوم بما فيه من خير وشر ،
ومحاولة التمتع بما يقدمه ذلك اليوم لنا • الا يكفي أنهم لم يكونوا قلقين ،
غير مستقرين ، يريدون دائما أن يكونوا فى غير المكان الذى هم فيه ، وان
يتوفر لديهم عمل غير ذلك الذى يقومون به ؟ لقد كانوا يرضون بماقسم
الله لهم ، ولا يرغبون فى أن يصبحوا أكثر غنى مما هم عليـــه ، أو أن
يمتلكوا الاملاك والاراضى الشاسعة • ولم يكونوابحاجة الى فتح المذياع فى كل
حين لكي لا يعملوا الفكر فى شيء ــ كما نفعل نحن ــ ، أو أن يتقبلـــوا
الافكار التى تقدم لهم جاهزة عن طريق الصحف الصباحية ، او ان يصارعوا
ويزاحموا ويشاركوا فى ذلك الكفاح الشاق القاسي ، الذى لامعنى له ،
الذي تقدمه الحياة فى المدن الكبيرة • كلا !! لم يكونوا مرغمين على شيء من
ذلك قط • فقد كانوا يعيشون حياتهم البسيطة وهم قانعون بذلك تماما
وهاهم الآن على الشاطيء ، يتمتعون بالفتيات ! ومع ذلك فلم يتغير رأيي
فيهم بسبب ذلك قط • فربما كانت هناك أمور كثيرة أسوأ من الانغماس
فى الشهوات البسيطة •

ولقد بدالى كأن بعض هؤلاء البحارة كانوا من اولئك الناس الذين
شاركوا فى الفيلم الذى شاهدناه تلك الليلة •

الفصل الحادي عشر

في جزيرة كوالي[٧]

في جزيرة كوالي

مكثنا أسبوعين في زنجبار ، على الرغم من أن البضاعة جميعها كانت قد أفرغت خلال اليومين الاولين · وبعد مضي الاسبوع الاول ، كان يعلن يوميا بأن رحيلنا سيكون في الغد ، ولكن أحدا لم يكن يبدى أدنى اهتمام لتلك الاعلانات ، التي لم يكن ينظر اليها حتى كتمنيات يرجى تحقيقها ·فان كلمة « غدا » كانت بالنسبة لهم تعني أى وقت فيالمستقبل غير المحدد ، كما لو قالوا « في الاسبوع القادم » أو في الشهر القادم مثلا · لقد اكتشفت أن السبب الحقيقي للتأخير كان يكمن في صعوبة تحصيل ثمن البضاعة ، فقد كان من السهل بيع تلك البضاعة ، الا أن تحصيل ثمنها كان شيئا أخر ·وقد كان من الضروري أن نحصل على بعض الشلنات الفضية ، لندفع ثمن الاعمدة الخشبية ، التي سنشتريها من دلتا نهر روفيجي ، ولم يكن هناك فائدة من مغادرة زنجبار قبل أن يتوفرلدينا صندوق من تلكالشلنات علىظهر الباخرة، ذلك لان أهل روفيجي لم يكونوا يبيعون شيئا بالدفع المؤجل · وبالفعل فانا حالما توافرت لدينا الشلنات المطلوبة ، أبحرنا بدون تأخير ·

وفي أثناء ذلك وصل بوم كبير جدا قادما من الكويت ، عن طريق الموانيء المعتادة ، وألقى مراسيه قريبا منا · وقد أطلق عليه بحارتنا اسم « الداو » (١) وكانت هذه المرة الاولى التي اسمع فيها العرب يستعملون كلمة « داو » · ومع أنه كان باستطاعة هذا المركب أن يحمل أربعة الاف جلة من التمر في عنبره الكبير ، فقد كان مركبا رشيقا · وقد قيل لي أنه كان قد بني في الاصل ليحمل خمسة الاف جلة ، ولكنهم اقتطعوا جزءا منه لان حجمه الاصلي كان كبيرا جدا · وقد كان على ظهره خمسة وأربعون بحارا ، كما كان على سطحه الرئيسي مركب جديد اخر طوله أربعون قدما ، مبني في مكان ما على الساحل · وقد كان النوخذة هو القبطان المشهور عبد الوهاب القطامي ، الرجل العربي ذو المظهر الصارم ، والصوت الهادىء والعينيين الزرقاوين · وقد كان المركب في كامل هيئته ، يتدلى سلم الصعود والهبوط من طرف مؤخرته · كما كانت سارية العلم تحمل في أعلاها نموذجا

---

(١) كان هذا البوم ملكا لحمد الصقر الذى ينتمي الى أسرة الصقر المعروفة بالكويت والتي منها عبد العزيز حمد الصقر رئيس غرفة التجارة والصناعة حاليا · (المترجم)

ممتازا لطائرة مائية من طائرات سلاح الجو الملكى البريطانى • وكان هذا نوعا من الزينة بين الكويتيين، الذين أخبرونى بأن مرفأهم أصبح يستخدم مؤخرا مهبطا للطائرات الانجليزية • وقد كان فى المركب أيضا نموذج صغير لطائرة مزدوجة الاجنحة ، يستعمل كجهاز يدل على اتجاه الريح ، ومثبت على سارية متحركة فى مؤخرة المركب ، حيث يستطيع قائد الدفة أن يراه ، وقد كان بحارتنا فخورين بهذا المركب الكبير ، الذى لاحظت أن بحارته كانوا دائما يختالون أثناء سيرهم فى السوق بطريقة خاصة بهم • وقد كان المركب محملا بالملح والارز وبضائع أخرى • كما أعلن عبد الوهاب عن نيته فى الرسو على شاطىء زنجبار عندما يقلع مركبنا منه ، ثم السفر الى لامو لجلب البضائع من هناك • وقد كان باستطاعة مركبه أن يحمل أكثر من ألف عمود من الخشب •

وأخيرا غادرنا زنجبار فى يوم جمعة ، مع أننا لم نكن نبحر فى أيام الجمعة ، لان ذلك اليوم يوم مقدس عند المسلمين ، وفيه يرغب البحارة فى أداء صلاة الجماعة فى مساجد المدينة ، اذا كان المركب راسيا فى المرفأ • ولكن لم يكن يوم الجمعة يوم راحة ، فقد كان كل من على المركب يقوم بالعمل الضرورى المطلوب منه ، دون أن يتأثر النظام العادى فيه • الا أنه كان يوما للزيارة ، يقوم فيه البحارة بزيارة المراكب الاخرى القادمة من الكويت والموجودة فى الميناء ، لاحتساء القهوة وتدخين النارجيلة • ولكن عندما كنا نقلع فى يوم جمعة ، كان ذلك دائما يتم فى وقت متأخر من النهار ، لان اليوم بالنسبة للعرب ينتهى عند مغيب الشمس ، وهذا يعنى تباشير يوم السبت ، حين يكون السفر مناسبا • وقد كنا جاهزين للسفر قبل تلك الساعة المباركة بوقت طويل • فقد كانت عارضة الشراع الرئيسى مرفوعة الى أعلى الصارى ، والشراع جاهزا لينشر نشرا كاملا ، كما كان المركب « عفرة » ، والقارب الطويل ، مربوطين بحبال فى مؤخرة المركب لنسحبهما خلفنا ، مادمنا كنا نتوقع أن يكون الطقس هادئا أثناء رحلتنا القصيرة الى دلتا الروفيجى ، التى لا تبعد أكثر من مائة ميل الى الجنوب من زنجبار • وقد قررنا أن نأخذ «عفرة» معنا ما دمنا لم نستطع بيعه ، وذلك لاستعماله في نقل الأعمدة الخشبية من الغابة الى المركب •

وبعد أن رفعنا المراسى، مكثنا عصر ذلك اليوم بحذاء مركب عبد الوهاب من الناحية البعيدة عن الاسطول • أما حمد بن سالم ، فقد كان على اليابسة يجمع ما تبقى له من الشلنات ، بينما كان معظم البحارة ، العائدين من صلاة الظهر فى مسجد الميناء ، نائمين على ظهر المركب حيثما وجدوا الظل المناسب • وقد كانت فترة الرسو هذه هادئة ، ولم يكن أحد يغني ، لانه لم يكن هناك عمل يتطلب أن يقوم به أحد • كما كانت الحركة فى الميناء

هادئة ، وقلما رأينا شيئا ينتقل من خليج « فونجونى » الصغير أو اليه ، أو من الشاطىء أو اليه · أما القوارب القليلة ، التى كانت تنتقل الى المراسى القريبة من الشاطىء ، فقد كانت تحمل البحارة الضباط ومساعديهم وهم عائدون الى مراكبهم ·

لقد كان مركبنا خفيفا ومرتفعا فى الماء ، لانه لم يبق على ظهره الا التمر السيء المتعفن ، الذي أتينا به من عدن ، والذي جعلنا منه صابورة المركب فى طريقنا الى الدلتا · ونظرا لخفة المركب ، فقد استغنينا عن جزئين من الشراع الرئيسى ، كما كان أصغر أشرعتنا مطويا ، وذلك احتراسا من انقلاب المركب لخفة وزنه · وقد ساعدنا بحارة عبد الوهاب على رفع العارضة الرئيسية الى أعلى الشراع ، وكان ذلك بعد صلاة العصر ، كما بقي ستون رجلا منهم يرقصون على سطح مركبنا حتى ضجت الالواح الخشبية بالشكوى · انه ليبدو أمرا غير قابل للتصديق أن يجد ستون رجلا قويا مشقة فى رفع عارضة واحدة لمركب لايزن أكثر من مائة وخمسين طنا · ولكن هذا هو الواقع ، وهو بلا شك دليل على عدم كفاءة المعدات · وقد استغرق ذلك منهم حوالى نصف ساعة ، الا أنهم قضوا حوالى ثلث هذا الوقت فى الرقص والغناء · وقد توقفوا مرتين ، مرة عندما كانت العارضة مرفوعة الى ثلثى المسافة ، ومرة أخرى قبل وصولها الى أعلى الصارى بقليل · يا لأولئك الرجال كيف يرقصون ويغنون ! فلم يكن البحارة الكويتيون يعملون باعتدال قط ، وكان سطح المركب يعج بجميع الرجال العاملين الذين يتصببون عرقا ·

لقد كان رفع العارضة يقترن دائما بطقوس منتظمة تؤدى بدقة متناهية · فحالما يصدر الامر لرفع العارضة ، كان البحارة يبدأون بالغناء ، وكان هناك قائد معين لهذه الاغنية · وعلى مركبنا كان البحار عبد اللطيف هو ذلك القائد ، الذي كان يقود البحارة بصوته العالي النبرات · أما الباقون فكانوا ، قبل أن يبدأوا برفع العارضة ، يردون على غنائه بصوت جماعي عميق أجش ، يبدو أنه خاص بالكويتيين · ولست أدري كيف كان باستطاعتهم أن يصدروا ذلك الصوت المدوي المخيف الى حد ما من حناجرهم ، فقد كان ذلك الصوت يبدو وكأنه يخرج من أعماق أعماقهم · ولم يكن أحد من البحارة الآخرين يصدر مثل هذا الصوت ، لا من سكان صور ولا فارس ولا جنوب الجزيرة العربية ولا عمان ولا سواحل البحر الاحمر · فقد كان صوتا عميقا ، قويا مثيرا ، يستطيع الكويتى أن يستمر فيه الى ما لا نهاية · ولا أعلم منشأ هذه العادة ، ولكني أعتقد أنها عادة قديمة جدا منشؤها المحاولات البدائية لاخافة الجن وابعادهم · أما البحارة الذين سألتهم ، فلم يعرف أحد منهم لماذا يصدرون هذا الصوت ، فقد كان هذا

أسلوبهم وكانوا يحبون أن يفعلوا ذلك ، وأن يفعلوه باستمرار . فلم يكن يخطر ببالهم أن يرفعوا العارضة ، أو يبحروا بالقوارب ، أو يرسوا مركبا للغطس على اللؤلؤ دون أن يفعلوا ذلك .

وعندما كان جميع البحارة ينتهون من ترديد أشعار عبد اللطيف ، التي كان موضوعها دائما الله ، والمركب ، والريح ، والبحر ، بأعلى ما لديهم من الأصوات المزمجرة ، كان قائدهم يطلق صيحة أعلى من السابق ، ويسرع في نغمته ، وعندها كان الجميع يندفعون الى الحبال ، فيتوقف الهدير ، ويبدأ البحارة بالغناء ، وهم يشدون الحبال من جانبي الصاري . وكانوا يفعلون ذلك وكأنهم رياضيون مشتركون في سباق شد الحبل ، فكأنهم لم يكونوا يعملون فقط ، بل يحاربون الحبال النازلة ، والعارضة الصاعدة . فقد كانوا يهاجمون تلك الحبال الصماء وكأنها مخلوقات حية يبغون اخضاعها ، وكان العرق يتصبب منهم ، والغناء يتزايد ، والحبل الاصفر الغليظ المشدود يبدو صلبا كالفولاذ ، وهو ينزل على أيدي أولئك الرجال ذوي العضلات المفتولة . وكانت البكرات تصيح احتجاجا ، كما كانت الحلقات المرتخية تئن ، أما العارضة فكانت تهتز وترتجف وهي في طريقها الى أعلى .

وهكذا ارتفعت العارضة أخيرا الى أعلى الصاري . وكانت أشعة الشمس المتوهجة تنصب علينا ، ولم يكن هناك ظل نحتمي فيه ، وكان البحر نفسه يكاد يغلي من قسوة أشعة الشمس ، كما كان العرق يسيل أنهارا . لقد كان عملا شاقا بالفعل ، وكان من الصعب على البحارة أن تستقر أجسامهم ، وهم يخبطون مرة بعد أخرى بأقدامهم الجافة الضخمة على سطح المركب الخشبي ، وهم يرفعون العارضة ويغنون ، وكلما ارتفعت قليلا تسارع غناؤهم وهم ينشدون :

يا ألله أعنا واملأ شراعنا بالريح !
يا الله يا معين ، يا الله يا معين !
امنح القوة لسواعدنا ولنا جميعا !
يا الله يا معين ، يا الله يا معين !
انفخ الريح بقوة على جميع هذه البحار !
يا الله يا معين ، يا الله يا معين !
يسّر لنا سفرنا ! .
يا الله ساعد سفينتنا الطيبة على السفر ! (١)

---

(١) تسمى أغنية رفع الشراع هذه « الخطفة » انظر كلماتها باللهجة الكويتية فى الملحق رقم (٤) . (المترجم) .

هكذا كانوا يغنون جميعا ، لقد كان الجهد المبذول في الغناء كافيا وحده لارهاق أي رجل عادي قوي البنية في ذلك المناخ القاسي • فقد كانت العضلات متوترة • والعرق يسيل على سطح مركب دون أن يهتم به أحد ، وكانت الشمس تتوهج حتى يصبح رمل الشاطىء الأبيض مؤذيا للعيون ، والوهج المنعكس من على الأبنية البيضاء لا يمكن مواجهته • لقد كانوا يغنون بتلك القوة الهائلة المنبعثة من رجولتهم الجامحة ، وكانوا يغنون بعنف وقوة تنبعث من حناجرهم كافية بحد ذاتها لرفع تلك العارضة لو كانت معداتها أفضل مما كانت عليه • ولكن البكرات كانت غير مزيتة ، ولا تعمل بكفاءة عالية ، كما كانت حبال الشراع لزجة ومتآكلة من كثرة الاحتكاك ، وكانت الحلقات ثقيلة والعارضة ضخمة ، كما كانت زاوية ميل الصاري تجعل العمل أكثر مشقة ، الا أنهم ، على الرغم من كل ذلك ، كانوا يتابعون عملهم ويغنون • فان العربي لا يشكو قط من عدم الكفاءة ، اذا أمكن تعويضها بالقوة المجردة •

ومع أنهم كانوا يعملون بجهد كبير ، الا أنه لم يبد عليهم أي اجهاد في التنفس ، فقد كانوا جميعا في حالة جسدية ممتازة ، نحيلين على غير ضعف ، بالرغم من وجبات اللحم التي تناولوها في زنجبار • وقد خلعوا دشاديشهم الطويلة ، ووقفوا عراة الصدور الا من وزراتهم • كما كانوا حاسري الرؤوس بعد أن كانت الكوفيات قد انزلقت عن رؤوسهم • وكانوا يطرقون الارض بأقدامهم العارية دون توقف ، بينما كان يوسف الشيرازي وجاسم الطباخ يعملان بسرعة وجهد كبيرين للف الحبال المتدلية حول العارضة المخصصة لذلك • وكانت عضلاتهم تهتز على تلك الظهور السمراء اهتزاز سنابل القمح الناضج في حقل نظيف ، عندما تهب عليها رياح متقلبة الاتجاه • وكانت العارضة ترتفع رويدا رويدا الى أعلى بينما كان الغناء يزداد عنفا •

وصلت العارضة الآن الى منتصف الطريق • وعندما رأى محمد ، عريف الملاحين ، ذلك توقف الجميع عن العمل دفعة واحدة ، بينما كان يوسف وجاسم يمسكان بطرف الحبل بقوة ويلفانه حول العارضة بالتناوب • وهنا بدأ البحارة يرقصون ، وكان ثلاثة أو أربعة منهم يرقصون على الباب المؤدي الى داخل المركب ، بينما كان محمد والآخرون يرقصون حولهم ، ولم يكفوا عن الغناء رغم اختلاف الجرس ، فقد كانوا يدقون الارض بأقدامهم ، ويصفقون بأيديهم المقروحة تصفيقا يتمشى مع الأغنية ، فتصدر عن تصفيقهم أصوات كأنها قرع الطبول • وكانوا يغنون « الله سيدي ، الله سيدي » ، ويدقون ويدقون بأقدامهم الحافية حتى اهتزت السفينة

بأكمله • وقد دام غناؤهم ورقصهم بضع لحظات بانسجام كامل ، محافظين على الايقاع أحيانا بكامل أجسامهم، وأحيانا أخرى بأيديهم وأقدامهم فقط • ومن آن لآخر ، كان أحدهم يندفع الى وسط الحلبة ، ويؤدي رقصة خاصة مصحوبة بالصراخ والعويل • لقد كان محمد قائدا جيدا •

وبعد أن انتعش البحارة من الرقص ، هبوا مرة ثانية للامساك بالحبال ، وهم يطلقون تلك الاصوات العميقة الصادرة من حلوقهم ، وتبعهم عبد اللطيف بالغناء • لقد كانوا يعملون في السابق بعنف شديد ، ولكنهم أصبحوا يعملون الآن وكأن بهم مسا من الجنون • فقد قفز حسين قائد الدفة ، وعبد الله بن سليم وابراهيم بن سليمان ، وناصر الغواص ، على الحبال من الجهة الامامية للصاري ، وتسلقوها وتمسكوا بها عند البكرة ، وأخذوا يشدون ذلك الحبل الاصفر المتوتر ليرغموا البكرة على الهبوط والعارضة على الصعود • وقد كانت كل عضلة في أجسادهم تهتز وتتوتر ، وازدادت سرعة غناء عبد اللطيف ، وكان يتخلل ذلك صيحات الحرب الصادرة من سعود والبحارة الآخرين الذين قدموا من المركب الكبير • وكانوا ينشدون الاغنية التالية :

اصعدي عاليا أيتها العارضة !
لا تظني أن باستطاعتك أن تستريحي !
انتشر أيها الشراع الكبير ،
وضم الى صدرك
الريح التي يبعث بها الله ،
لأننا متجهون الى الوطن (١)

هكذا كان عبد اللطيف يغني ، وقسمات وجهه تتلوى ، بينما كان ظهره العريض مشدودا للعمل ، فقد كان يقوم بقسط من شد الحبال علاوة على قيامه بقيادة الغناء • وقد أخذ الغناء يتسارع بينما كانت البكرة تنزل الى أسفل • وقفز بحارة آخرون يتسلقون الحبال كالقرود ، ويد أحدهم فوق يد الآخر ، بينما الحبل يمر من بين أصابع أقدامهم • لقد صعد يوسف العجوز مرة أخرى ، ثم محمد ، ثم خليفة قائد الدفة ، ثم سلطان المؤذن ، وتابعوا تسلقهم وأجبروا الحبال على النزول ، ثم تساقطوا ،

---

(١) يقول العارفون من الكويتيين بان الاغانى التى تنشد فى هذه المناسبة هى ذاتها المذكورة فى الصفحتين السابقتين ، مع شيء من الزيادة او النقصان فى بعض الاحيان • أما هذه الاغنية التى يذكرها المؤلف فغالب الظن انها من نسج خياله • (المترجم) •

وأجسادهم تقطر عرقا وهم يصيحون ، بين الجمهور الموجود على سطح المركب بالقرب من الصاري ، وما زالوا يدقون الارض بأقدامهم ويصيحون ويغنون ويهزجون . لقد كانت هناك مجموعات منهم عند البكرة العليا حول الصاري ، كما اصطف عدد منهم في صفين متراصين على كل جانب من جوانب السطح الرئيسي ، الممتد من مؤخرة المركب الى عارضة التثبيت في المقدمة . وهكذا تابعوا رقصهم ، ثم عودتهم الى العمل ، الى أن وصلت العارضة الى مكانها في الاعلى . والان حان وقت تثبيت الحبال . ولكنهم كانوا يغنون ويصيحون بصوت هادر جدا ، لدرجة انهم لم يسمعوا الاوامر بالتوقف ، وكادوا أن يقتلعوا العارضة كلها من جذورها . ولكن لحسن الحظ ، أنهم سمعوا الاوامر فى الوقت المناسب ، وانتهت المهمة .

لقد قاموا بعملهم بشكل جيد كما أعتقد ، وكان هذا العمل يثيرني دائما ، وأحيانا كنت أشاركهم فيه . الا أن السرعة التي كانوا يؤدونه بها كانت أكثر مما أطيق ، فلم أكن أستطيع العمل معهم أكثر من ربع ساعة ، كما لم أتمكن أبدا من اتقان غنائهم بصوت أجش ، أو من التصفيق العالي جدا بالأيدي . كما أن الدق على سطح المركب بأقدامي العارية كان يؤلمني . ومع أني كنت حافي القدمين على ظهر ذلك المركب لعدة أشهر ، مما جعل أرض قدمي قاسية جدا ، تمكنني من السير على الحجارة الصوانية ، الا أنه لم يكن بامكاني أن أقفز وأدق بهما على سطح ذلك المركب غير المستوي .

وما ان ارتفعت العارضة ، حتى انبرى كل من البحارة لتنفيذ أوامر أخرى ، كاعداد أجهزة الرفع من البكرات والحبال والسلاسل المختلفة ، وتنظيف وصيانة المعدات الاخرى . وقد انثنى البحارة للقيام بهذه المهمات الجديدة وكأنهم محاربون انتهوا لتوهم من صد هجوم كبير ، ولكنهم سمعوا أن هناك فجوة فتحها العدو في الأسوار في مكان ما . ولم يتوقفوا عن الغناء قط ، وان كان نوع غنائهم قد اختلف ، فقد أصبح أكثر هدوءاً وهم يتراكضون ويتجمعون في مجموعات حسنة التدريب . وعندما انتهوا من العمل كله ، عب كل منهم جرعة سريعة من الماء الفاتر من خزان جاسم .

عندما انتهى رفع العارضة غادرنا رجال عبد الوهاب ، وعادوا الى مركبهم . وقبل غروب الشمس بقليل وصل حمد بن سالم الى المركب حاملا كيسا من الشلنات . وعند مغيب الشمس أقيمت الصلاة ثم أفلت الشراع الرئيسي من عقاله بكل هدوء ، وفك الحبل الذي كان يصلنا بالمركب الكبير ، وبدأنا الاقلاع . لقد كانت أمسية جميلة ، تهب فيها ريح شمالية هادئة مؤاتية للابحار . وقد غادرنا زنجبار مع « بوم » فارسي ، وسمبوك صغير ،

وجلبوتين من صور بعمان • وعندما غادرنا نقطة الانطلاق ، كان الشفق خلفنا واستمر النسيم العليل • وقبل منتصف الليل ، كنا نسير بمحـــاذاة الأضواء المنبعثة من مدينة « دار السلام » •

وفي الصباح وجدنا أنفسنا مقابل « رأس كمبيجي » ، وقد زاد هدوء النسيم الذي كان نشطا خلال الليل • وكانت السحب الكثيفة المحملة بالمطر تغطي ساحل تنجانيقا • ولم يمض وقت طويل حتى مرت بنا بعض الزخات الغزيرة ، ساد بعدها هدوء قصير ، ثم نشطت الريح الشمالية ثانية وتابعنا ابحارنا • ومضى الصباح بطوله ومركبنا يخوض عباب اليم بهدوء علــى طول ساحل تنجانيقا ، مقتربا تدريجيا من مصبات نهر روفيجي • وقد كنا نبحر بمحاذاة الشاطىء ، ولكن المياه كانت ضحلة جدا في بعض الاماكن ، مع أن مركبنا لا يحتاج لكي يعوم الى أكثر من خمسة أقدام من الماء • لقد كانت هذه المياه أخطر من جميع المياه الاخرى التي أبحرنا فيها • فقد كانت مملوءة بالشعاب المرجانية ، والجزر المنخفضة • وكان قاع البحر الرملي يرتفع أحيانا حتى يكاد يلامس غاطسنا • لكن لم يكن كل هذا يشغل بالنا ، فقد كان معنا مبارك العماني المرشد لهذه النواحي ، الذي كان نجدي قــد استخدمه بتوصية من ذلك الوكيل الغامض في سوق زنجبار • أما حمــد بن سالم ، وعبد الله أخو النوخذة ، والبحارة الآخرون ، فلم يسبق لأحــد منهم أن وصل روفيجي من قبل ، لأن المراكب الكويتية كانت حديثة العهد في ذلك الاقليم ، وكان الدخول الى الدلتا يتطلب معرفة دقيقة بالظروف المحلية • فلم تكن الفنون الملاحية الاخرى تفيد في ايصال المركب الى هناك • وقــد علمت أن الملاحة في نهر روفيجي نفسه ستكون أسوأ •

في تلك الاثناء كان بحارتنا مشغولين برفع أكياس التمر العدنـــي السيء من المخزن ، والقائها على سطح المركب ، حتى أني خشيت أن ينقلب بنا • وقد كانوا يلقون فى البحر بالاكياس المتعفنة ، التى كانت تنطلق منها رائحة كريهة للغاية • أما ما لم يكن متعفنا بالفعل ، فقد حفظوه وخزنوه مرة ثانية ، وهكذا بقي حوالى ستين كيسا • ولكن حتى الأكياس الباقيــة التى وصف تمرها بأنه جيد ، فقد كانت تحوى بالفعل تمرا رديئا جــدا • وقد ذقت تمرة بناء على اقتراح من حمد ، فكان طعمها شبيها بطعم الدبس المتخمر مضافا اليه نكهة زيت السيارات ، وقد عجبت لماذا احتفظوا بذلك التمر وهو على تلك الحالة •

وعندما وصلنا الى الطرف الشمالي من دلتا روفيجي تقريبا ، مررنا بحذاء لسان من ساحل يمتد من جزيرة منخفضة • وفجأة ، وبأمر من مبارك

العماني ، توقف المركب داخل ذلك اللسان ، وأنزل الشـراع ، وألقينـا المراسي • وقد رأيت أن بغلتين كبيرتين كانتا راسيتين على القسم الداخلي من اللسان بقصد التنظيف • وبسؤال حمد ، أفاد بأن هذه هـي جزيـرة كوالي ، وأن علينا أن نرسو لنقوم بتنظيف المركب •

لم أكن أعلم من قبل أننا سنزور جزيرة كوالي • وفي واقع الامر لم أكن قد سمعت حتى باسم تلك الجزيرة حتى تلك اللحظة ، فلم يكن أحد قد ذكرها من قبل ، كما لم تكن موجودة على خريطتنا الصغيرة • لذلك لا بد من الاشارة الى أن كوالي جزيرة منخفضة قريبة من ساحل تنجانيقا ، تقع على الجانب الشمالي من دلتا نهر روفيجي • ومع أني لم أكن قد سمعت بها من قبل ، الا أنها مكان مطروق بالنسبة للعرب المتجهين جنوبا • وكـان الألمان قد استفادوا منها عندما كانت تنجانيقا تسمى « مسـتعمرة شـرق افريقيا الألمانية » قبل عام ١٩١٤ ، كما أن بناية الجمرك التي أقاموها من الحجر لا تزال قائمة حتى الآن • والجزيرة مرفأ تمر به المراكب المتجهـة الى سلالي وكيلوه ولندي ، ويقوم موظف جمارك سواحيلي بالصعود الـى المراكب المتجهة الى الداخل ، ويجمع الرسوم القليلة المستحقة ، وينتبه الى أن المراكب لا تقوم بتهريب كثير من البضائع • وقد زارنا هذا الرجـل المدعو السيد تموثى أنطون قادما في قارب من الساحل ، ولكن ، حتى قبل أن نراه ، كان بحارتنا قد بدأوا الاستعدادات لكدج المركب الى رمـل الشاطىء ، وكنت مهتما بأن أشهد هذه العملية • فقد شاهدت بعض المراكب الكبيرة وهي تكدج الى الشاطىء من قبل في موانىء عدن وممباسا وزنجبار ، ولكن كانت هذه هي المرة الاولى التي يقف فيها مركبنا على رمل الشاطىء وأنا على متنه • لقد كان « بومنا » مركبا عميقا كبير الارتفاع ، بحيث لم يكن بامكانه أن يقف على رمل الشاطىء بدون سند ، كما هو الحال مثلا بالنسبة للمراكب التي تمخر نهر التيمز ، بل كـان علينـا أن نسـنده بدعامات ، مثله في ذلك مثل جميع المراكب العربية • ومع ذلك فقد كان من الخطر أن نترك الصاري الرئيسي قائما ، لأنه من الممكن أن يتسبب فـي انقلاب المركب اذا هبت عليه أقل نسمة من الهواء •

لقد كان من عادة العرب أن ينظفوا قمر مراكبهم ، وأن يقوموا بأيـة اصلاحات ضرورية ، برفع تلك المراكب الى رمال أحد الشواطىء التى يكون المد والجزر فيها كبيرين • فكانوا يدخلون بها بعـد أن ينـزعوا الصـارى الرئيسى ويفرغوها من البضاعة كلها ، وذلك فى أثناء المد العالى ، ويسحبونها ومؤخرتها باتجاه الشاطىء الى أبعد ما يمكن أن تصل • وعندما يأتى الجـزر ترسو على الرمل ، ويسندونها بدعامات خشبية قوية يصل عددها الى ثمـان

أو عشر من كل جانب • وكلما أتى المد عوّم المركب مرة أخرى ، وكثيرا ما يخلـع بعض تلك الدعامات • ولذلك فان العناية بالمركب الواقف على رمل الشاطىء مهمة هامة وأحيانا مزعجة أيضا • أما تثبيت المركب فى مكانه فيتم عن طريق مراسي تربط بها المقدمة والمؤخرة ، وكلما أتى مد عوّمها ، فاذا جاء الجزر أنزلها الى الارض ثانية •

يبقى المركب على رمل الشاطىء عادة مدة يومين أو ثلاثة فقط ، الا اذا كانت هناك اصلاحات ضرورية • أما مركبنا فقد كان جديدا نسبيا ولم تكن فيه ألواح تالفة ، لذلك لم يكن بحاجة الى أية اصلاحات • ففى اليوم الاول ، كشط الطلاء الدهنى القديم ، وفى اليوم الثانى ، طلى بطلاء جديد(١) وتطلب ذلك الكثير من الجهد وصاحبه الكثير من الغناء • وفى اليوم الثالث عوّم المركب ثانية وجهزت معداته ، وبهذا يكون العمل قد اكتمل • ولايشارك فى هذا العمل الا أهل المركب ، كما أن المركب يحمل طلاءه معه • وقد كان طلاؤنا مؤلفا من دهن الجمل المحفوظ فى صفائح نفط قديمة ، ومن الجير الحيّ •

لقد كان أول ما ينبغى على بحارتنا القيام به هو انزال الصارى الرئيسى • فقد كان صارى مركبنا يعلو ثمانية وسبعين قدما عن السطح ، كما يبلغ محيطه على السطح ستة أقدام تقريبا ، وهو مصنوع من خشب الساج القوي الثقيل جدا • وكنت أعجب كيف سيتمكن العرب من القيام بانزال مثل هذا العمود الثقيل ، ولكنهم كانوا قد توصلوا الى طريقة ربما تعود الى آلاف السنين ، تجعل من ذلك الامر عملية سهلة • ففى البداية تخلصوا من العارضتين الطويلتين الرئيسية والمزينية ، ومن الاعمدة الاخرى الملقاة على السطح بالقائها من على ظهر المركب الى البحر حيث تربط معا وتعوم الى الشاطىء مقطورة الى « عفرة » ، والى القارب الطويل • وعلى الشاطىء تثبت ببعض الشجيرات ، وتبقى هناك الى أن يحين وقت السفر • أما المهمة الثانية ، فقد كانت انزال حبال الصارى والاوتاد من المركب • وكما فى جميع المراكب العربية ، فقد كان الصارى الرئيسى فى مركبنا يثبت فى الجزء الامامى من الفتحة الرئيسية ، التى تشبه المذود ، والتى تشكل ما يشبه الفراش الذى يرقد فيه الصارى • وعندما يكون الصارى مرفوعا ، يتكىء

---

(١) دهن المركب من الخارج كان يتم « بالشونة » وهو دهان يتالف من الودك (اى دهن الية الخروف المذابة) مضافا اليه شيء من النورة التى تعطى الدهان اللون الابيض • وكان هذا الدهان يستخدم لطلاء غاطس المركب الملامس للماء وذلك لحماية الالواح والمسامير من امتصاص الماء • (المترجم عن احمد البشر الرومى) •

على الطرف الامامي من الفتحة ، وعندما ينزل ، يرقد في المذود • وهــو يرفع وينزل بسهولة بواسطة الحبال الخاصة به • ولكي ينزل ، لم يكن الامر يحتاج الى أكثر من رمى الحبال فى المكان الذى يستقر فيه جذع الصارى ، على العمود القوى ، فى الجزء الامامى من الفتحة • ثم يرفع الصارى عموديا، ويمال قليلا باتجاه المؤخرة بالحبال الرئيسية ، ثم ينزل الى الخلف بعناية ، ويثبت هناك بمعداته • فلم تكن هناك حبال وسلاسل قائمة تحتاج الى انزال، بل كانت تتألف من روافع تتلاءم تماما مع هذه العملية • وكان الصارى يمتد الى الخلف ، على طول مذود الفتحة الرئيسية ، ويرمي بثقله على دعامة تمتد على بداية ارتفاع المؤخرة ، بينما يبرز رأس الصارى من فوق المؤخرة • أما عارضتنا المزينية ، فلم ننزلها ، لأنها كانت تتألف من عمود خفيف مثبت فى سطح المركب فقط ، ولذلك كان بامكاننا أن نرسى المركب على رمل الشاطىء دون أن ننزعها • أما اذا احتاج الامر الى نزعها ، كما كان يحدث دائما فى الكويت، فقد كانت ترفعكلها بواسطة بكرة بسيطة، موجودة فى أعلىالصاري الرئيسى ، بينما يكون هذا الصارى الرئيسى مثبتا بواسطة بكراته الخاصة فى أثناء انزاله لمدة كافية يستعمل خلالها كبرج يستند عليه الصارى المزينى وهو ينزع من مكانه •

لقد كان أسلوب العمل بسيطا ولكنه واف بالغرض ، ولم يستغرق فك الاجزاء المذكورة أكثر من ثلاث ساعات ، كان بعدها المركب جاهــزا للوقوف على رمل الشاطىء • أما البغلات ، فلأنها كانت أقل عرضا وأعمق من البوم ، فقد كان على بحارتها ألا يكتفوا بنزع صارييها الاثنين فحسب ، بل كان عليهم أن يخرجوهما من على ظهر المركب كلية ، قبل أن يجرؤوا على ايقافه على الشاطىء • وقد حدث ان انقلبت بغلة أحمد رضوان الكبيرة ، المسماة « أمل الرحمة « على شاطىء المعلا ، بسبب اهمال هذا الامر ، واضطرت الى البقاء هناك حتى عوّمها مد الربيع • أما البغلتان اللتان كانتا راسيتين على شاطىء كوالي ، فقــد كانتا منزوعتي الاشرعة جميعــا ، وكــانت احــداهمــا المسماة « بدري » ، تخص بدرا بن عبد الوهاب • أما الاخرى فكانت تخص عبد الرزاق العماني ، الذي كان قد حصل على اجازة قيادة المراكب العربية من زنجبار مؤخرا • وقد قدر لنا أن نرى هذا الرجل الأحول كثيرا فــي ذلك المكان وفي الدلتا ، لأنه كان متجها الى روفيجي ، كما كان بدر متجها اليها أيضا •

وبعد أن انتهينا من تعويم اعمدة المركب ، ومن انزال الصــــاري الرئيسي ، ووضعه على طول المركب ، أصبحنا جاهزين لكدج المركب الى الشاطىء عندما يصل المد • وكنا قد نزعنا عجلة القيادة وربطناها إلــى

جانب المركب ، كما كان صندوق البوصلة مخزونا في القمرة الكبيــرة ، ولذلك فقد بدا ظهر المركب في حالة فوضى • لقد كان ارساء المركب عملا بسيطا ولكنه مجهد جدا ، يتطلب كدجه عند ارتفاع المد وتركه على الارض وقت الجزر • وقد استغرق ذلك العمل الليل بكامله ، لأن الساحل المنخفض كان يمتد عدة أميال وكان علينا أن نكدج المركب مسافة بعيدة • فقد كان القارب الطويل يدفع الكدجات الى الامام أكثر من اللزوم مرة بعد أخرى ، الى أن أمكن في النهاية تثبيته في بعض الاشجار القائمة على الموقع المطلوب وقد أمضى البحارة الليل بطوله وهم يرقصون ويغنون ويهزجون ، وكلمـا كانوا يجرون حبال الكدجات كانوا يؤدون نفس الطقوس • كان سـطح المركب المواجه للمرفأ خاليا ، فكانوا يرقصون على طوله بتشكيل بيضاوى : نصفهم دائما يشدون الحبل ، والنصف الأخر منهم يعودون رقصا الـى المقدمة ليأخذوا دورهم • لقد كانوا في حركة دائبة يدورون ويدورون ، وكل منهم يشد جزأه من طرف الحبل ، ثم يرقص ويصفق وهو عائد الـى المقدمة ثانية ، استعدادا لتحمل جزئـه من العبء ثانيـة • وقد بدا لى أن هذا الرقص ، الذي كانوا يواظبون عليه سـاعات طويلـة تحـت ظروف مثل هذه ، كان ينعشهم ، فلم يكونوا يحلمون قط بأن يقوموا بأي عمل شاق بدونه • (١)

وقد عجبت لتلك القوة الرئوية التي كانت تمكنهم من الاستمرار في هذا العمل ، بالاضافة الى قوة سواعدهم التي دفعت بالمركب بسرعة معقولة الى مرساه • وقد تم العمل كله بمرح وروح عالية ، على الرغم من أنهم كانوا يتصببون عرقا حتى أثناء الليل • لقد كان القمر بدرا وكان العمل يستمر بلا توقف ، لأنه كان علينا أن ندخل مع ذلك المد العالي ، وعندما اقتربنا أكثر من الشاطىء وجدنا انه ستكون أمامنا مهمة صعبة ، هـي أن ندخل المركب بين البغلتين المذكورتين لضيق المكان - ولكن ما ان وصلنا الى هناك ، حتى وجدت أن المكان مناسب جدا لها • لقد أدار حمد العملية بشكل ممتاز ، وأوصل المركب الى مكانه المقرر بسلام •

ولكن النهار أخذ يبزغ على جزيرة كوالي قبل أن يتمكن البحارة من تثبيت آخر الدعائم الساندة له • وقبل أن تثبت المراسى الامامية والخلفية

---

(١) تسمى هذه العملية (اى عملية جر المركب الى الشاطىء بالطريقة التى ذكرها المؤلف) « الدوارى » وتستعمل اذا كان حبل المرساة يزيد طوله عن الكيلو متر الواحد • وكانوا ينشدون فى أثناء هذه العملية أغنية خاصة وضعنا نصها باللهجة الكويتية فى الملحق رقم ٤ بادناه • (المترجم)

تثبيتا جيدا • وعند فحص قاع المركب ، تبين أنه في حالة ممتازة ، الا أن الطلاء الذهني كان بحالة سيئة وبحاجة الى تبديل • لقد كان المركب قد نظف وطلي في « بربرة » قبل أربعة أشهر فقط ، ولكن ، على الرغم من أن الطريقة العربية في الطلاء بالجير والدهن كانت فعالة ، الا أن الطلاء لم يكن يدوم طويلا •

ومع أن البحارة سهروا طوال الليل ، الا أنهم بدأوا في الحال بكشط قاع المركب وهم يغنون أغنيتهم المعهودة عند قيامهم بمثل هذا العمل •

« قليلا قليلا في كل مرة
الله المعين ، الله المعين
قليلا قليلا في كل مرة
وعما قريب سننجز كل شيء (١)

وقد استمروا في غناء نفس المقطوعة ساعات طويلة متواصلة ، الا أنهم كانوا أحيانا يدخلون بعض العبارات التى تناسب العمل الذى يقومون به ، أو التي تشير الى بعض الاحداث أو الاشخاص العاملين على ظهر المركب ، على طريقة الاناشيد البحرية الانكليزية القديمة • وقد استمر كشط القاع الى أن انتهى ، بينما كان آخرون يقومون بنفس العمل في القارب «عفرة» ، وفي القارب الطويل ، اللذين كانا قائمين ومسنودين أيضا على مقربة من المركب • وما ان انتهت عملية الكشط ، حتى كان المد العالي قد أتى ثانية ، وعندها تمكنا من تناول بعض الارز والسمك ، وبعد ذلك تمدد جميع البحارة في ظل الاشجار القائمة في القرية السواحلية واستغرقوا في النوم •

كانت كوالي مكانا مريحا وكنت مسرورا بأني بقيت على ظهر المركب• وكنت أتمتع بالسباحة في الصباح الباكر عند ذلك اللسان الطويل الذي كان يمتد بعيدا باتجاه تنجانيقا ، كما كنت أتمتع بالتمشي في غابات كوالي مع عبد الله وخليل ، نجار مركبنا ، وسعيد نجار البغلة التي تخص «بدري»• وسعيد هذا كان مشغولا طوال النهار باصلاح دفة البغلة ، في ظل شراع منشور على شجرة من أشجار الشاطيء ، وكان خليل يساعده في عمله •

---

(١) الواقع ان الاغنية التى ينشدها البحارة وهم يقومون بهذا العمل هى نفس الاغنية المشار اليها فى الحاشية السابقة ، الا أن اللحن يختلف عند القيام بهذا النوع من العمل • (المترجم)

وكنت أحب أن اراقبهما ، فقد كانا عاملين ممتازين وصديقين حميمين ، وكثيرا ما قاما ببناء المراكب الكبيرة معا في الكويت • وكنا عادة نتمشى ما بين صلاة العصر وصلاة المغرب ، في القرية السواحلية ، أو على سطح الجزيرة • وكان النجاران يعرفان الكثير عن النباتات ، ويتمتعان بتفحص الاشجار والشجيرات ، كما كانا يتفحصان ، بعين الخبيــر ، الفتيــات السواحليات اللاتي كنا نصادفهن عند الآبار أو في الحقول والبساتين • ولكن الفتيات لم يكن جميلات وقلما كنا نتأخر هناك •

وقد بدا لنا أن كوالي تتألف بشكل رئيسي من صخور مرجانية غير مستوية محاطة بأشجار المانغروف • وكانت أرضها واطئة وتربتها خفيفة ، ولكن المياه كانت متوافرة فيها بكثرة كما كان فيها بعض الاغنام والماشية • أما المساكن فكانت عبارة عن أكواخ من الطين ذات سقوف بسيطة مصنوعة من أغصان الاشجار • وكان أهل القرية يمتلكون بعض المراكب الصغيرة ، بينما كانت أغلبية السكان السواحليين ، الذين يقارب عددهم المئتين ، تعيش على صيد السمك ، فقد كان السمك وفيرا في المياه المحيطة بكوالي ، وكانوا يجففون سمك القرش الكبير ، و « الأطوم » الحيوان البحري الثديي ، الذي كان محبوبا لدى سكان المناطق الداخلية ويباع بسعر مرتفع ، كما كان هناك متجر هندي واحد في القرية •

وبينما كنت أسير على الشاطىء في أحد الايام ، شاهدت عدة قوارب مائلة على جنوبها ، في بقعة منبسطة خلف بعض أشجار المانغروف القديمة المملوءة بالعقد • وكان أحد تلك المراكب جلبوتا مسقطيا يبلغ طوله حوالي خمسين قدما ، والآخر قاربا هنديا صغيرا ، ولا بد أن الاثنين قد قطعــا مسافة طويلة قبل أن يريحا عظامهما هناك • وكنت أتمنى لو كنت أعرف تاريخ ذينك القاربين قبل أن يؤتى بهما ، بعد أن أصبحا غيــر صالحيــن للسفر البحري ، ليقضيا آخر أيام الشيخوخة على شاطىء كوالي • وقــد عرفت أنهما كانا مسجلين في دار السلام ، وبدا لي أنهما قد وجدا المكــان المناسب ليدفنا فيه ، في تلك البقعة الهادئة من الساحل الابيض ، التــي تحف بهما الاشجار من كل جانب ، دون أن يكون هناك أحد يرتــل لهمــا أناشيد الموتى ، سوى صوت الريح أثناء مرورها في الغابة • وقبالة تلــك البقعة ، كنت أرى بوضوح شاطىء افريقيا الرئيسي ، وبعــض مراكــب الصيد ، وهي تعوم على المياه الزرقاء ، وفوق رأسي كانت طائرة تحلــق على ارتفاع شاهق ، أمكنني أن أعرف أنها تابعة للخطوط الجوية الملكيــة البريطانية رغم ارتفاعها ، ولا بد أنها كانت تنقل البريد من داربن(1) الى

(1) Durban ، ميناء هام فى اقليم ناتال بدولة جنوب افريقيا (المترجم) •

لندن • أما الرجل السواحلي الذي كان معي فلم يلتفت الى الطائرة ، لأن نقل البريد عن طريق الجو اصبح هناك من الامور المألوفة ، وكان جل اهتمامه يتركز على المراكب •

خارج مبنى الجمرك ، شاهدت جزءا من دفة بوم كبير كانت متآكلة الى حد ما • وقد أخبرني السيد أنطون بأن البحر كان قد قذف مؤخرا بذلك الجزء من حطام أحد المراكب ، ولكنه لم يكن يعرف المركب الذي تحطم ، لأن الحوادث من هذا النوع كانت كثيرة ومألوفة • فقبل بضعة أيام فقط ، كانت عاصفة قد حطمت مركبا سواحليا بالقرب من الجزيرة ، وأغرقت أربعة من رجاله ، وكانت حمولتها من جوز الهند مكدسة على الشاطىء بالقرب من مركبنا •

لقد كان أكثر ما أحببته في كوالي هو مرج القرية الاخضر ، الذي كان عبارة عن مساحة خضراء جميلة ، قريبة من الموقع الذي كانت تقف عليه المراكب في الطرف الشمالي الغربي من الجزيرة • وكان مركز الجمرك يقوم على أحد طرفي المرج ، بينما يوصل طريق من وسطه الى الجزيرة • وعلى جذع احدى الاشجار الكبيرة ، التي كانت تلقي ظلالها على طرف المرج القريب منا ، كانت قد حفرت عبارة « ملعب كرة قدم ١٩٣٣ » • ولكني علمت من أنطون بأن أحدا لم يعد يلعب كرة القدم في هذه الايام ، بعد أن نتجت عن المباريات السابقة مشاجرات واصابات كثيرة جدا ، ولذلك فقد قرر أهل القرية التخلي عن اللعبة كلية • وتحت الكتابة هذه ، كان شيء آخر محفورا على الشجرة ، ولكن كان من الصعب علي أن أفك رموزه ، وكل ما استطعت أن أفهمه منه هي الحروف : H. M. S. وهي الحروف التي تعني « سفينة تابعة للاسطول البريطاني » ، وكان هناك أيضا تاريخ غير واضح ، يمكن أن يكون ١٨٨٩ أو حتى ١٨٣٩ • وقد حفر تحت هذا رسم لمرساة سفينة • وربما كان هذا اشارة قديمة الى احدى السفن التي كانت تهرب الرقيق ، لأن كثيرا من المهربين كانوا يمرون من هذا الاتجاه وهم آتون من كلوا ، وبحسب ما أخبرني الاهالي المحليون ، وأيد العرب قولهم ، فان مراكب مهربي الرقيق كانت ، عندما تطاردها السلطات في قوارب صغيرة ، تبحر الى داخل جزر مافيا المرجانية وتختبىء في مصبات نهر روفيجي ، ثم كانت تمر ما بين كوالي والبر الاصلي ، ثم تندفع في ذلك الممر ليلا الى أن تصل الى مياه المحيط ، ومن هناك تتابع سيرها بعيدا عن الشاطىء الى شبه الجزيرة العربية •

هناك بالفعل سجلات مكتوبة تدل على حدوث مصادمات عنيفة بين

قوارب مسلحة تابعة للاسطول البريطاني وتجار الرقيق العرب قريبا من شواطىء جزيرة كوالي · ولا بد أن عددا من الرقيق ، الذين كانت تنقذهم البحرية البريطانية ، قد استنشقوا أول نسيم للحرية على هذا الشاطىء ، الذي كنا نقف عليه · فقد كان العرب يعرفون الروفيجي معرفة جيدة ، ويبدو أنهم كانوا يجدون فيه مخبأ ممتازا ، لا لأن الملاحة على ذلك الساحل الرديء المملوء بالشعب المرجانية كانت صعبة فحسب ، بل لأن المكان كان ، بالاضافة الى ذلك ، سيئا جدا من الناحية الصحية · وعلى الرغم من أن كوالي هادئة الآن ، فقد مرت بأيام عصيبة لا يرجع سببها كلها الى تهريب الرقيق · فقد كانت مركزا للطراد الألماني « كوينجزبرج » عندما هاجم زنجبار فى سبتمبر ١٩١٤ ، ثم هرب ينشد المخبأ فى روفيجى · وقد كانت الروفيجي مخبأ ممتازا لذلك الطراد ، بل لعله كان ممتازا أكثر مما ينبغي لأن الطراد لا يزال راقدا هناك ·

كنت أحب الجلوس في ظل شجرة قديمة قائمة على المرج الاخضر ، أراقب بحارتنا وبحارة بغلة بدري ، وهم يصلحون أشرعتهم · وكانت أشرعتنا قد نشرت على المرج وثبتت وبدىء باصلاحها ، وكان المرج مكانا ممتازا لاصلاح تلك الاشرعة · لقد كانت الحياة جيملة ، وكنت سعيدا لأني لم أتخلف في زنجبار · وقد كان بامكاني أن أجلس هناك ساعات طويلة ، أتحدث الى صديقي العزيز أنطون ، وبصحبتي قردي « يميد » ، الذي اشتريته من أحد السكان السواحليين بشلن واحد · لقد كانت البقعة جميلة ، وكانت تقف ، في الخلفية على الشاطىء ، المراكب الكبيرة ، وخاصة بغلة بدري الجميلة المنظر ، التي كانت تشبه احدى السفن البحرية الاسبانية ، بجزئها الخلفى المحفور والمزركش الذى كان يبدو عاليا فوق الاشجار ، وبمقدمتها المنخفضة اللطيفة التي كانت متجهة الى البحر · وقد كانت خطوطها انسيابية جميلة ، الا حيث كانت تحدودب وحيث يبدو عمود المقدمة غير متناسق · وقد كانت انسيابية مقدمتها من أجمل ما رأيت في حياتي ، وكان كل خط من خطوطها يمتد بانسياب نحو تلك المقدمة المنخفضة المدببة ، وقد كنت ، كبحار ، أستمتع استمتاعا كبيرا ، ولا أمل من النظر الى القسم الخارجي من مقدمتها ، التي ترتفع من غاطسها القصير نسبيا ، في خط طويل هادىء ، الى أن يصبح رأسا مدببا منقوشا شامخا أمام المركب ، يسر الناظرين ·

لقد كان مركبنا أقل جمالا من بغلة البدري ، بل انه كان يبدو بسيطا ، وربما بشعا أيضا بالمقارنة بها · فقد كانت مقدمة « البوم » مستقيمة ، وكذلك كان عمود مؤخرتها ، كما كانت أطرافه حادة ، وكان

عمود المقدمة بارزا أكثر من اللزوم ، ودفته ضخمة ، كما كان يفتقر الى أعمال الحفر والزخرفة • ومن الواضح أن « البوم » كان من المتنجات المتأخرة زمنيا ، والأكثر فائدة من حيث الاستعمال ، وهكذا كان العرب أنفسهم ينظرون اليه • كما أن البغلات أغلى ثمنا • لقد كان عمر بغلة البدري يزيد عن نصف قرن ، ومع ذلك فلم يكن يشينها أنها كانت منقرة قليلا ، وأن الصدأ كان يعلو بعض أجزائها ، كما لم يكن يعيبها أن ألواح سطحها العتيق كانت متآكلة وقديمة ، أو أن دفتها قد نخرها السوس ، وأنها كانت تحتاج الى اصلاح قبل أن تتابع سيرها • لقد كانت سفينة قديمة ، جيدة ، حسنة المنظر ، وعندما أتى اليوم الذي كان عليها أن ترحل فيه ، لاحظت أنها كانت تمخر الماء بجلال وبرشاقة طيور البحر • لقد كانت سفينة بالفعل ، سفينة حقيقية تتمتع بالجمال واللياقة الكاملة للابحار ، وهي في أوجها ، كأفضل السفن • أما بغلة البدري فلم يكن أحد يستطيع القول بأنها كانت في حالة ممتازة الآن ، فقد مضت أيامها ، كما تمضي أيام أي مركب خشبي بعد نصف قرن من الزمان • لقد كانت البغلة خلال حياتها الطويلة تقوم بأعمال تجارية شاقة ، تجلب الاخشاب من ملابار ، وتحمل التمور الثقيلة من اليمن ، ويصل بها المطاف الى افريقيا ، وان كانت لم تتردد على هذه القارة كثيرا ، فقد كانت معظم تجارتها تمتد ما بين الكويت والبصرة وساحل ملابار ، وكان هذا أقصى ما يعرفه العربي •

وبينما كنت أمتع النظر بمرأى تلك السفينة العتيقة الجميلة ، وأستمع الى أناشيد بحارتها وهم يطلون أجزاءها السفلية ، تمنيت لو استطعت أن أمتلك سفينة كهذه فأنقذ هذا الطراز من الانقراض الكامل في خضم عالمنا الرتيب الممل • فهاهنا تقف واحدة من آخر بغلات الكويت ذات المؤخرة المحفورة ، ولم يكن يشبهها الا بغلة واحدة فقط ، اذا استثنينا تلك البغلة التي كان يملكها سليمان سعيد الفارسي ، التى لم تكن شيئا بالنسبة لها • فقد بنيت هذه في مدينة صور ، ويمتلكها فارسي ، ومسجلة في الكويت لتسهيل عملها • وقد خطر لي أن أحدا ما ينبغي أن يمتلك احدى هذه السفن القديمة ، ويتأكد من انها ستعيش وتبقى في هذا العالم ، تحيطها العناية اللائقة بها • ولكن من هو الذي سيفعل ذلك ؟ ولم لا أكون أنا ذلك الشخص ؟ فقد كنت مؤهلا تماما للقيام بتلك المهمة • وكلما فكرت في الامر ازداد تعلقي بالفكرة ، فالعرب لن يحتفظوا ببغلة لأسباب تاريخية محضة ، فلم تكن العاطفة تجاه السفن تعني شيئا بالنسبة لهم ، فقد كانوا يستبدلون هذا النوع من السفن بالبومات الكبيرة ، وكان هذا يعني زوال عهد المؤخرة المحفورة • ان الابقاء على البغلة مهم من الناحية التاريخية ، ليس لأن جسم البغلة كان ينحدر تاريخيا من أفضل واسرع

المراكب العربية فحسب ، بل لأن مؤخرتها المزخرفة زخرفة فنية جميلة كانت على ما اعتقد من بقايا السفن البرتغالية ٠

استلقيت تحت الشجرة ، وأخذت أنظر الى بغلة البدري القديمة ، والى مركب عبد الرزاق الاصغر حجما ، الذي كان يعوم في تلك اللحظة ٠ وكنت اسمع الدوي الهائل الصادر عن ضرب الطبول ، يتخلل ذلك بين الفينة والفينة دفقة من التصفيق الحاد ٠ ومن ظاهر الامور ، كان يبدو لي أن الضجة كانت أكثر من العمل ٠ ثم عدت بتفكيري الى البغلة ٠ فخطر لي أنه من الصعب الاحتفاظ بواحدة منها ، لأن من المستحيل ابقاؤها في البحار الشرقية ، فهناك سيكون مصيرها التحطم ، كما لم يكن هناك معنى للاحتفاظ بها هناك ، عندما يكون الناس المهتمون بأمرها يسكنون في الطرف الآخر من العالم ، ولذلك كان لا بد من أن تنقل اما الى انجلترا أو الى الولايات المتحدة ٠ وقد فكرت في هذا الامر ، وفي امكانية القيام برحلة كهذه ، فقد كان من الممكن الابحار بأحد المراكب الجيدة في مثل هذه الرحلة ٠ فمن الممكن أن يأخذه الانسان الى البحر الاحمر في شهر ديسمبر ، عندما تكون الريح الجنوبية مؤاتية ، وربما حالفه الحظ فوصل الى منتصف الطريق قبل أن تواجهه الرياح الشمالية القوية المندفعة بين بيريم وسويري (عند باب المندب) ، ومن بيريم ستكون رحلة شاقة جدا الى سويرى تمتد خمسمائة الى ستمائة ميل ٠ فالبحر الاحمر طويل الا أن من الممكن الوصول اليه ٠ ثم تصل الى السويس فيقطرها قارب طويل ، وتعبر الى البحر الابيض المتوسط فتقطعه الى مضيق جبل طارق ، الذي يمكن أن يكون العبور فيه صعبا بالنسبة للسفن المتجهة غربا ٠ وعندها تكون المتاعب قد انتهت ، لأن الرياح الشمالية التي تهب بمحاذاة ساحل البرتغال تدفع بالمركب الى الرياح التجارية التي لا يلاقي البحار صعوبة في الانطلاق أمامها باتجاه جزر الهند الغربية ، كما فعل كولومبس من قبل ٠

لقد خيل الي وأنا متمدد على المرج الاخضر في جزيرة كوالي ، بأن تلك الرحلة لم تكن لتواجه مخاطر كبيرة ٠ فحتى بغلة البدري لم تكن أسوأ حالا من سفينة « نينا » التي استخدمها كولومبوس ٠ وما دام كولومبوس قد تمكن من القيام بتلك الرحلة فيمكن للعرب ، كما يمكنني أن أقوم بها أيضا ، فلم تكن رحلة مستحيلة ٠ صحيح أن عبور البحر الابيض المتوسط يمكن أن يكون صعبا ، وأن الشراع المثلث الشكل ليس الشراع الأمثل للاستفادة من الريح ، وأن عملا شاقا بالنسبة لاتجاهات الريح تتطلبه مثل تلك الرحلة ٠ ومع ذلك فقد خيل الى أنها جديرة بالتجربة ، ولكن ليس فى سفينة البدرى ، التى لم تكن لسوء الحظ فى حالة تسمح لها بالقيام

بمثل هذه المهمة ، بل ربما تستعمل لذلك البغلة الكويتية الاخرى ، التى ما زالت على قيد الحياة ، والتى ربما تكون أكثر صلاحية . ولذلك فقد قررت أن أتابع التفكير فى المسألة ، وفى البحث عن البغلة الاخرى .

لقد كان هذا الموضوع من المواضيع السارة ، التى يتسلى بها الانسان، وهو مستلق تحت شجرة افريقية ، يستمع الى أصوات الامواج وصيحات البحارة . وسواء أكان بامكانى أن أنقذ البغلة من الاندثار أم لا ، فقد كان من الجميل أن يفكر بها الانسان . فقد كانت احدى الصعوبات التى توقعتها هى كيفية الاحتفاظ بالبحارة العرب ، لأنه اذا كان مقدرا لى أن أبحر على سفينة عربية فى رحلة عبر المحيط الاطلسى ، فلا بد من أن يكون لدى مجموعة من البحارة العرب ، مع أن من المحتمل أن يقوم البحارة العرب ، على الرغم من كونهم رجالا أوفياء ، بامتلاك الاراضى والاستقرار فيما لو نزلوا الى البر وشاهدوا الفتيات فى ضاحية بروكلين ، أو حتى فى فلوريدا فى جنوب الولايات المتحدة .

سرحت بنظرى الى بحارتنا وهم يصلحون الشراع فى الشمس، وتساءلت عما يمكن أن يكون تفكيرهم بالنسبة لمثل هذه الرحلة . فقد كانوا كالصبيان المرحين ، وكان اصلاح الشراع من احدى تلك المهام التى لم يكونوا يغنون خلال تأديتها ، بل كانوا يسمحون لأنفسهم بالجلوس ، أثناء القيام بها . فقد كانوا يجلسون على الشراع المثبت بالارض بواسطة الاوتاد ، فيصلحونه ويجعلون له اطارا ، بينما كان حمد بن سالم وعبد الله النجدى يشرفان عليهم . ولم يكونوا يفكرون كثيرا بجزيرة كوالى ، على الرغم من جمالها ، بل كانت تعنى بالنسبة لهم مزيدا من العمل ، الذى سيتبعه عمل أكثر ، لأن جمع أعمدة المانغروف من دلتا نهر روفيجى الكئيبة لم يكن عملا سهلا . وعندما ذكرت لعبد الله أن المكان كان لطيفا أجاب قائلا : وما هو الشىء اللطيف فى كوالى ؟ فلم يكن فيها سوق ، كما قال ، كما لم يكن فيها فتيات أو حتى فاكهة . ولكنى أحببت كوالى لهذا كله ، وأكثر ما أعجبنى فيها ذلك المرج الاخضر المظلل فى القرية .

قمنا بطلاء قاع المركب فى اليوم الثالث ، وبدأنا بالجانب المواجه للشمس حالما أصبح جافا . وقد سخنا الدهن على نار الحطب على الساحل ومزجناه بالجير تحت اشراف ذلك الملاح الخبير . وكان البحارة يدهنون المركب بأيديهم العارية ، وكانوا يعملون فى الارض الموحلة ، بينما شىء من المزيج يدخل عيونهم . وما أن انتهوا من العمل ، حتى كانوا جميعا ملطخين بالجير والدهن والطين والعرق ، ومع ذلك فلم ينقطعوا عن الغناء . وعندما

انتهى طلاء القاع ، حملوا المراسى مسافة طويلة الى الامام فـوق الارض المسطحة ، لكى يعوموا المركب عندما يأتى المد العالى · وعند العصر كنا قد عومنا المركب ، وكان العمل سهلا ، ثم كدجنا المركب فى داخل الخليج ·

وفى صباح اليوم التالى ركبت الصوارى ، والاجزاء الاخرى مـــرة ثانية ، وأبحرنا باتجاه ذلك المكان الغامض المدعو « سمبا أورانجا » فى دلتا نهر روفيجى ·

الفصل الثاني عشر

دلتا التعاسة

دلتــا التعاســة

نهر روفيجي أحد أنهار أفريقيا القوية ، ينبع من مرتفعات تنجانيقــا ويجرى شرقا باتجاه المحيط الهندى ، وما زال ، منذ سنين لا تحصى ، يجرف معه التربة من التلال ، ويلقيها فوق مئات الاميال من الشاطىء • أما البحر المقابل له فيمتلىء بالركام الرملى ، وبالجـــزر المغمورة ، وبالصخـــور المرجانية التى يستحيل رؤيتها بسبب الطين الذى يجرفه النهر معه • أما مداخل الدلتا ، فتتألف من شبكة من الممرات المعقدة الكثيرة الامطار ، كأن الطبيعة قد خلقتها لتجعل مرور المراكب فى الدلتا صعبا للغاية • فالعوائق المختلفة ، من رمال وصخور ومياه ضحلة ، ومجموعات أخرى من العوائق التى لا يمكن التنبؤ بها ، والتيارات المتقلبة باستمرار ، كلها تتضافر لتكون مجموعة من الصعاب الملاحية التى يمكن أن تسبب كابوسا لأى بحار •

وعلى امتداد مساحة الدلتا الشاسعة ، تغطى المياه ثلاثة أرباعها فقط، بينما يغطى الوحل الربع الباقى • أما تربة الجزر والشواطىء ، فانهـــا تتألف من ثلاثة أرباع من الوحل والربع الآخر فقــط من المــاء • وتزخــر المنطقة بالابخرة العفنة ، والمستنقعات الحارة ، والغابات النتنة ، وبأوبئــة من جميع الانواع • أما مجرى النهر ، فانه لا يستقر على حال ، بل يتغير من يوم الى آخر بسرعة محيرة ، ومن غير سبب واضح • كما أن قوى المد والجزر والتيار النهرى تتغير بسرعة ، وبشكل لا سبيل للطاقة البشرية أن تتكهن به • حتى أن اتجاه جريان الماء فى أى من الروافد المختلفة للدلتــا لا يمكن التنبؤ به • وعلى اتساع تلك الدلتــا ، أو تلك المتــاهة التعيسة المخيفة الموحلة ، تكون روافد نهر روفيجى ، باستمرار ، تشعبات جديدة ، تصل ما بين المجارى المرسومة على الخريطة ، وتغير اتجاهاتها ، حتى أن البحار الذى يعرف الدلتا فى سنة ما ، يمكن أن يعود فى السنة التالية فلا يتعرف على شىء من معالمها • لقد كانت قادرة على تحدى أية محـــاولات للسيطرة عليها • فمن المحتمل مثلا أن تتحول دوامة الى جزيرة بين عشــية وضحاها ، كما يمكن أن ترى ضفة رملية اليوم ، وتجدها وقد جرفت تماما فى صباح اليوم التالى • فكأن النهر بأسره مسكون بروح شريرة ماكـــرة مدمرة ، فالتغيير مستمر ،ولا مجال للهدوء مطلقا ، والنهر خداع باستمرار، ولا يمكن أن يؤمن جانبه أبدا ، كما أن الدلتا جميعها يخيم عليها جو قاتم ، ثقيل قابض للصدر لدرجة لا يمكن احتمالها • وكانت الامطار تهطل يوميا تقريبا ، بزخات غزيرة تطرق الارض كأنها السياط ، وتخلف وراءها سحبا

من البخار ، فتجعل الجو أشبه ما يكون بحمام تركى · أما عندما لا يسقط المطر ، فان الشمس ترسل شواظا من نار ، فترتفع الابخرة الكريهة من مستنقعات الغابة محملة بالاوبئة · كما أن الجو بوجه عام سيء ومزعج بشكل مستمر · أما مستنقعات شجر المانجروف ، وجميع الاشجار النامية فيها ، فانها ذات لون قاتم مشبع بالرطوبة · أما الضفاف فانها موحلة ، اذا سار فيها المرء غطس حتى ما فوق الركبتين · كما أن المكان بأسره موبوء بأنواع من البعوض لا يمكن أن يوجد ما هو أشرس أو أكثر جرأة أو أخطر منها فى العالم كله ·

خلاصة القول أن المكان السيء بشكل يفوق التصور ، ولا أتصور وجود مكان فى العالم بأسره يفوق فى السوء دلتا نهر الروفيجى ، فاذا كان ذلك المكان موجودا بالفعل ، فانى أضرع الى الله ألا أعيش لأراه ، فأنا لم آت بعد على ذكر جميع مساوىء هذا المكان · فهناك التمساح القاتل ، وفرس البحر الضخمة التى تختبىء فى مجرى النهر ، وهى على استعداد لقلب قارب ضعيف والتهام ركابه بسرعة هائلة · أما فى الغابة ، فان القرود لا تنقطع ثرثرتها وزعيقها · كما أن الطيور المائية ، كالطائر الرفراف ، ومالك الحزين ، فانها تطير على حافة الماء بألوانها الزاهية · وعلى قمم الاشجار العالية تجثم النسور مترقبة · كما أن فى الغابة أنواعا مختلفة من الافاعى ، منها الضخمة كأفعى البواء ، ومنها الصغيرة السامة · ويزخر وحل المستنقعات السام بالعلق والقراد المتحفز للالتصاق بالاقدام ، بالاضافة الى النباتات المتسلقة التى تعيق السير ، والحيوانات الشوكية التى تمزق الساقين · فهنا لا تعيش الا وحوش الغابة ، كما لايتوافر أى نوع من الغذاء ، وليس فيها أية بساتين ، لانه لا توجد قطعة من الارض الجافة يمكن أن يبنى عليها كوخ واحد فيما عدا « سلاله » ، والقرى القليلة الاخرى · أما الضفاف ، فانها واطئة لا ترتفع الا قليلا جدا عن الماء فى الوقت الذى تفيض الدلتا · وعندما يكون المد عاليا ، فان كثيرا من الجزر تختفى من الوجود · أما التيارات السريعة فى النهر ، فانها تضغط على الحبال التى تشد السفينة الى البر بقوة مخيفة ، وتقتلع بعض الاشجار الضخمة من اليابسة وتقذف بها على المراكب · ان الابحار فى مكان كهذا نوع من الكابوس ، كما أن الدلتا بأسرها حلم مزعج ، وليس هناك ما يؤكل فيها سوى الطعام الذى يحمل على ظهر المركب ·

لقد كان البعوض أسوأ بكثير مما تخيلت ، وكنت قد نبهت مرارا الى عاداته الشريرة ، فقد كان متوحشا لدرجة لا يمكن تصورها أو تصديقها · وكان يهاجم البحارة العرب ، عندما تمر مراكبهم من هناك ، بضراوة النمور

الصغيرة وسرعتها • وقد خيل الى أنها لم تذق طعم الدم البشرى من قبل ، ولذلك فان حلاوة طعمه كانت تدفعها الى الجنون • فقد كانت أسرابها تهاجم وتلسع بلا هوادة ، ثم تعود ثانية للهجوم غير مبالية بالعدد الذى يقتل منها• فاذا سار المرء فى تلك المستنقعات ، ومسح بيده على ذراعه ، رآها كتلة من اللونين الاسود والاحمر • أما الاسود فهو بقايا أجساد البعوض التى قتلها ، وأما الاحمر فهو دمها أيضا ، ولكنه الدم الذى تكون قد امتصته من جسده • وقد كانت وسيلة الدفاع الوحيد ضدها هى أن يغطى الانسان جسمه من قمة الرأس الى أخمص القدم ، الا أن ذلك لم يكن ممكنا لأن حرارة الجو كانت لا تطاق • ولم يكن هناك من وسيلة أخرى لتجنب البعوض ، ولكن لم يكن بامكان الانسان أن يغطى جسمه كله • اما عندما كانت تهب الريح والمركب راسية فى منتصف النهر ، فلم يكن البعوض مزعجا الى هذا الحد ، لأنه لـم يكن باستطاعته الطيران بعيدا أثناء هبوب الريح • ولكن ما أن يهدأ الجو ، حتى يكون البعوض قد غطى المركب ، وكأنه سرب من الجراد قد حط على حقل يانع • ولم يكن هذا كل شيء • فقد كان النحل يهاجمنا أيضا ، وكان نحلا ضخما ساما ، تجذبه الرائحة القوية المنبعثة من تمرنا الفاسد • وعندما كانت اسرابه تهاجمنا ، كنا لا نبالي بالتمر لانه لم يكن بامكاننا الاقتراب منه • وهكذا فقد كان النهار بطوله مسرحا لهجوم النحل ودويِّه وقتاله ولسعه ، أما الليل فقد كان يأتينا بالبعوض • وقد كان المطر قويا لا ينقطع ، وكان النهر هائجا ، وكان السواحليون صامتين منقبضين كئيبين ، وانتشرت الحمى بين طاقم بحارتنا كما هلك بعض البحارة العاملين على سمبوك صوري كان موجودا هناك •

في هذا المكان المخيف المقبض ، في الدلتا التعيسة لنهر روفيجي السريع ، قضينا شهرا كاملا • لقد كان بحق أسوأ شهر مر بنا طوال الرحلة •

ولم أكن أدرى ما تخبئه لنا الاقدار ، عندما دخلنا مصب نهر سيمبـا أورانجا ، وهو أحد روافد النهر العظيم ، عصر أحد أيام شهر مارس ، بعد أن كنا قد نظفنا المركب على الشاطىء واصبح خفيفا ومرتفعا كثيرا فى الماء ، حتى أننا لم نجرؤ على نشر الشراع الرئيسي ، بل اكتفينا برفـع أخف الاشرعة المزينية على الصاري الرئيسي • فقد كان أي ثقل يزيد عن ذلك كافيا لقلب المركب لان المخزن كان فارغا • فقد خلفنا وراءنا سيلا من المطر ، وكان المد عاليا جدا والريح معتدلة • كما كان مبارك مرشدنا يرقب الوضع بحذر بالغ ، ونحن ندور حول نقطة مغطاة بشـجر الكزبرينـا • واصبحنا وعلى يميننا مزرعة لشجر جوز الهند ، وعلى مسافة بعيدة منا كان أحد روافد النهر يمتد باتجاه الغرب ، ولكن مباركا أبلغنا أن هذا المصب



سلالة ، دلتا الروفيجى

كان اخطر مصبات نهر روفيجي ، وانه لا يمكن الملاحة فيه حتى على يد العرب فى مراكبهم الشهيرة • وقد وقفنا قريبين من ضفة سمبا أورانجـــا المواجهة للجهة اليسرى من المركب ، وكان هذا اسم فرع الدلتا الذي دخلناه• ثم درنا حــول منحنى قائم الزاوية تقريبــا ، واقتربنــا من الشاطىء الى درجة أن أغصان الاشجار كانت تمس قمة شراعنا • ثم غيرنا اتجاهنا وسرنا بمحاذاة الضفة الاخرى ، لأن مباركا أبلغنا بأن هذا النهر ، على اتساعه ، كان مملوء بالعوائق الخطرة ، كما كان هناك حطام لباخرة تجارية كبيرة ، نصفها غاطس في الماء ، تعترض الممر من الجهة الجنوبية ، ولم يكن يبدو منها سوى الجسر والصاريان وعمودان ضخمان • وقد اخبرنا مبارك ، وهو يزهو بمعلوماته ، بأن هذا المركب هو بقايا سفينة حربية ألمانية ، أغرقها البريطانيون فى الحرب العالمية • وقد ابدى حمد بن سالم اعجابه بمــا سمع ، كما فعلت أنا أيضا ، لأنه كان بامكانهم أن يصدقوا ذلك ان شاءوا ، الا ان الواقع كان خلاف ذلك تماما • فقد كان ذلك الحطام حطام ناقلـــة الفحم البريطانية « نيوبردج » ، التي كانت قد اغرقت هناك اثناء محاولتها اعتراض سبيل الطراد الالماني « كوينجزبرج » ، عندما كان هذا مختبئا في «سلالة» في أوائل عام ١٩١٥ • وكانت « نيوبردج » قد أحضرت من زنجبار ،

وارسلت الى المدخل الذي دلفنا منه • ولكن المكان كان في ذلك الوقت محصنا على يد الالمان ، ولذلك فقد لقيت نيوبردج استقبالا حارا منهم ، فلقي عدد من الرجال حتفهم في ذلك النهر السريع ، كما غرقت « نيوبردج » ، ولا زالت ترقد هناك ، حطاما قبيحا في ذلك المنظر الرمادي وقد شق النهر طريقا جديدا بجانبها •

مررنا بالقرب من « نيوبردج » وحرصنا على الا نلمس مقدمتها الغارقة لأن الاصطدام بها كان كفيلا بتمزيق مركبنا اربا اربا • وبعد ذلك بقليل ، تبعنا منحنى آخر من منحنيات النهر متجهين الى الداخل ، وكانت اسراب من طيور مالك الحزين ترقبنا ونحن نمر وهي واقفة في الطين قرب ضفتي النهر ، كما كانت القردة تثرثر في الاشجار • وفي احدى الممرات ، رأينا أسرة كاملة منها تتأرجح بين اشجار الغابة ، وقد سر ذلك قردي « يميد » ، فانفعل انفعالا كبيرا وأخذ يصيح بصوت عال • تابعنا سيرنا ، ونحن نتلوى وندور حول منحنى تلو الآخر • وما أن تغير المد ، حتى وجدنا انفسنا وقد وصلنا الى مكان يبعد ستة أميال عن المصب الذي دخلناه ، أخبرنا مبارك بأن اسمه كان « سلاله » ، وكان كل ما استطعت أن أراه من المكان بعض أشجار جوز الهند ، وبيتا واحدا ، ورصيفا صغيرا للسفن ، وبالقرب من الرصيف كان هناك مركبان سواحليان ، كما كانت بغلة عبد الرزاق الصوري راسية على مسافة منهما • فألقينا مرساتين في مكان ينحدر فيه ماء النهر الموحل بشدة • وفى الحال اهتدى البعوض الينا ، فتحولت حياتنا الى جحيم ، واستمرت كذلك مدة شهر كامل •

لقد امضينا معظم الوقت ومركبنا راس فى أحد اذرع الدلتا ، على بعد عدة أميال الى الداخل من سلالة ، قرب المكان الذي يرقد فيه حطام الطراد « كوينجزبرج » ، وقد انقصم ظهره ، على مسافة قريبة من قرية « كيكاله »(١) •

وقد كان جسم الطراد ، الذي كان عظيما فيما مضى ، غارقا في مصب « كيكونيا »(٢) وهو أحد روافد نهر روفيجي ، قريبا من المكان الذي ينزل فيه البحارة الى البر للذهاب الى قرية كيكاله • وكان يرقد هناك كأنه جثة

---

(١) ، (٢) انظر خريطة الدلتا صفحة ٣٦١ (المترجم) •

(٣) المقصود هنا أن المركب الغارق ألمانى ، ولكنه أغرق عام ١٩١٤ أى فى الحرب العالمية الاولى حين لم يكن هتلر قد ظهر فى ألمانيا ، كما حصل فيما بعد ، وتسبب فى قيام الحرب العالمية الثانية التى قام مؤلف الكتاب برحلته البحرية عشية اندلاعها (المترجم) •

فرس بحر ميتة • وكان بحارتنا يمرون به يوميا في ذهابهم وايابهم وهم ينقلون أعواد المنغروف الى المركب ، ولم يكن يعني شيئا بالنسبة لهم ، سوى أنه واحد من مراكب هتلر البحرية الغارقة كأي حطام آخر في الدلتا(٣) • وقد كان المركب يرقد على احد جانبيه ولا يظهر منه سوى جزء من السطح المحطم وجزء آخر من البدن وبعض الروافع • وقد كان ظهره مكسورا ، وبدنه مقسوما الى جزءين في مكان ما خلف الجسر ، وكأنه قد نسف بقنابل المدافع ، عندما وجد الكشافون البريطانيون بعده الصحيح عنهم • لقد كان منظرا كئيبا مقبضا في وسط الماء المتدفق ، أمام خلفية من المستنقعات والسماء الممطرة ، وكان يرقد في الماء العميق ، في مكان ينحني فيه مجرى النهر انحناء واسعا • وكانت النسور ترقب الجميع من أعالي أشجار « البوباب » ، وأسراب مالك الحزين ، ذات الاجنحة البيضاء ، تحلق فوقنا ، كما كان السواحليون يجذفون قواربهم الصغيرة ولا يلقون بالا للحطام ، فقد كان المنظر منظرا مألوفا في نهر روفيجي الآن ، لأن الطراد كان هناك وما زال منذ ربع قرن من الزمان •

وعند منحنى آخر من النهر ، في مصب الرافد « كيومبوني » (٤) ، على بعد ميل أو ميلين تقريبا من قرية « سلاله » ، كان يرقد حطام سفينة أخرى هشمتها المدفعية البريطانية عام ١٩١٤ ، وقد كانت هذه هي باخرة الشحن المسماة « صومالي » ، التى كانت تابعة لخطوط الملاحة الالمانية في افريقيا الشرقية ، والتي استعملت فيما بعد كمستودع ملحق بالطراد « كوينجزبرج » • أما الان فهي ترقد حطاما احمر مهشما على ضفة رملية صفراء ، وصاريها الرئيسي ومدخنتها ملتويان ، بينما يمتد صاريها الامامي على جانبها وكأنه انبوبة متغضنة ، وظهرها مكسور وبدنها مقسوم الى جزءين ، يمكن رؤية الغابة من الشق الذي يفصل بينهما •

من هذه الغابة ، وفي المستنقعات القريبة من الطراد « كوينجزبرج » قطعنا أخشاب حمولتنا ، ولكن ذلك استغرق زمنا طويلا ، وما كان علينا الا أن ننتظر ونصبر •

وكانت طريقة تحميل المراكب في روفيجي أن يأتي العرب ، ومعهم أموالهم نقدا ، ويسجلوا مراكبهم واحتياجاتهم في « سلالة » حيث كان يوجد مأمور حراج بريطاني • وكان هذا يبعث بهم الى ذلك الجزء من الدلتا ، الذي كان يعتقد أنه سيزودهم بالاخشاب المطلوبة في اسرع وقت

---

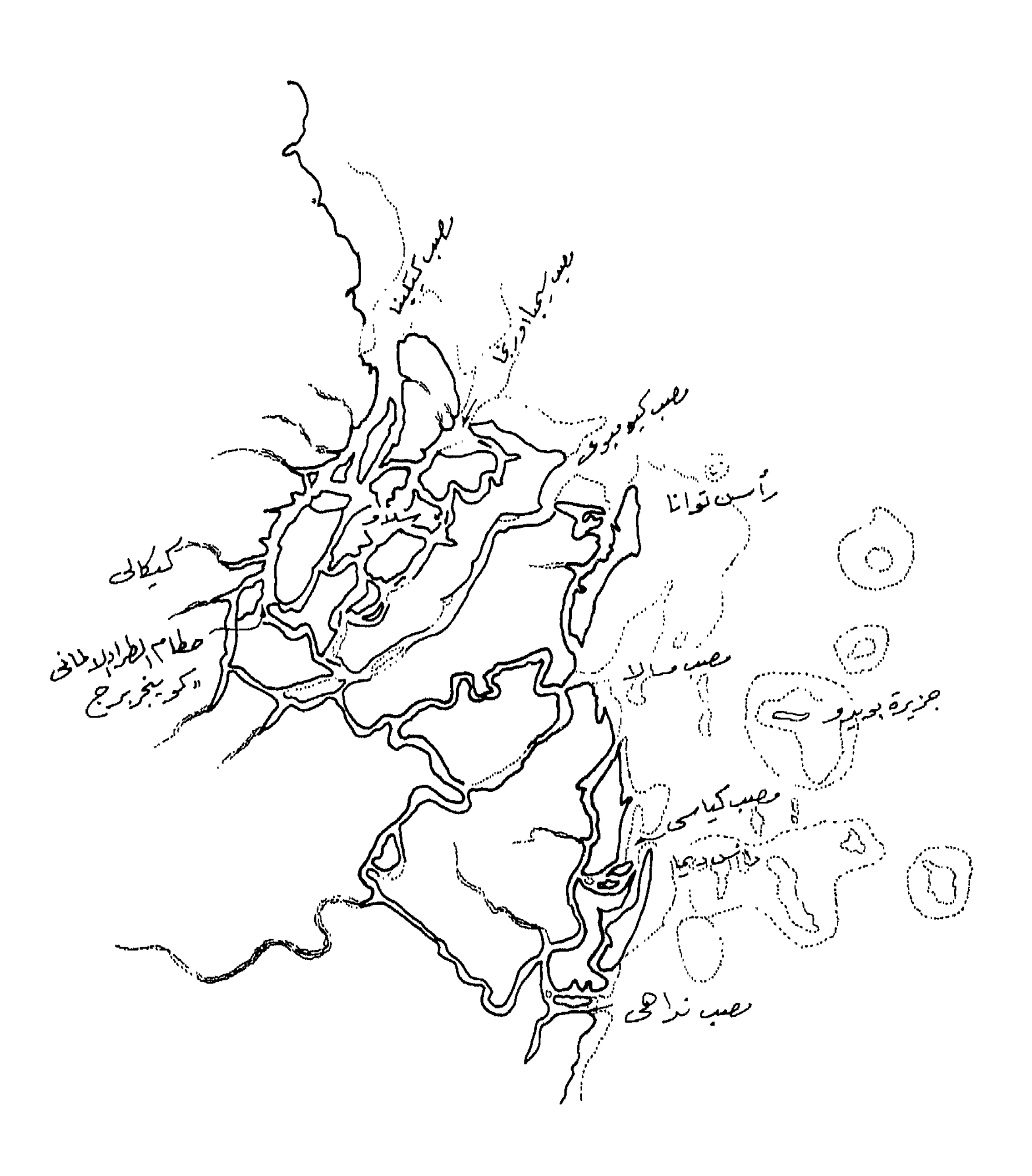
(٤) انظر خريطة الدلتا صفحة ٣٦٦ (المترجم) •

ممكن ، لانه على الرغم من أن المكان جميعه كان مملوء بهذا النوع من الخشب ، الا أن اخشاب الاجزاء القريبة من البحر كان معظمها قد قطع ٠ أما الآن ، فقد كانت المراكب بعيدة عن البحر ، لأنه كان من الافضل أن يؤتى بالحمولة الى أقرب مكان ممكن من ضفتي النهر ٠ لقد استغرق قطع الاشجار وتشذيبها وقتا قصيرا نسبيا ، الا أن نقلها الى مكان التحميل حيث يمكن فحصها وتصنيفها ودمغها ، ومن ثم نقلها الى المركب ، كان يحتاج الى وقت طويل ٠ لذلك كان من الافضل أن تكون المراكب وحدها في أماكن جديدة ، حيث تنمو أشجار المنجروف كثيفة على جانب الماء ٠ (وقد اكتشفت مؤخرا اسبابا أخرى وراء رغبتهم في أن تكون المراكب وحيدة) ٠

وبعد أن يسجل المركب ويخصص له مكان معين ، كان يبحر مسافة الى أعلى النهر للحصول على العمال ، وكان هذا احيانا أمرا صعبا ، لأن المنطقة لم تكن مأهولة ، فلم يكن فيها ما يغري على العيش ، كما لم يكن السواحليون يحبون الاعمال الدنيئة الشاقة ، ولا يمكن أن يلومهم أحد على

صنع الأشرعة فى كوالى





دلتا نهر الروفيجى، تنجانيقا

ذلك • لقد كان استئجار مجموعة من قاطعي الاشجار يستغرق اسبوعين ، لأن المراكب كانت تأتي في وقت واحد من السنة ، وكان الطلب على العمال كبيرا • فقد كان هناك احد عشر مركبا عندما وصلنا الى هناك ، وكان قاطعو الاشجار المستأجرون يعيشون على ظهر المركب على نفقة صاحبه ، بينما يقومون بقطع الاخشاب نهارا • لقد استغرق قطع الاخشاب وقتا طويلا وان كنا قد حصلنا في وقت قصير على ثمانين سواحليا ، جميعهم أصبحوا يعيشون على ظهر المركب • وكان بعضهم من رجال القبائل ، وبعضهم أطفالا ، والبعض الآخر مساعدين • وكان هناك عدد لا يقوم بأى عمل سوى تناول الطعام ، لانك اذا استخدمت عددا من السواحليين للقيام بالعمل ، فيجب أن تتوقع أن تأتي قبيلة كاملة في أثره طلبا للغذاء • وكانوا ينامون على ظهر المركب ، حيثما يجدون مكانا يستلقون فيه ، ويتناولون الطعام من المركب أيضا • لقد حاول حمد أن يطعمهم من التمر الفاسد ، الا أنهم ابوا أن يتناولوا شيئا منه • ولم يمض وقت طويل حتى اضطررنا الى اقتراض كمية من التمر من المراكب الكويتية الاخرى الراسية في الدلتا • لقد كانت شهية السواحليين هائلة ، وفي كثير من الاحيان كانوا يأكلون الطعام كله ، ولا يتركون شيئا منه لطاقم المركب • ولكن البحارة كانوا يعانون دون شكوى ، لانهم كانوا يعلمون أن عليهم الا يقوموا بعمل يسيء الى السواحليين ، على الرغم من أنه لم يكن هناك داع لجوعهم ، لاننا ، بدون السواحليين ، لم يكن من الممكن ان نغادر ذلك المكان التعيس ، ولذلك فقد كان علينا اطعامهم • لقد كانت حكومة تنجانيقا تشرف على حقوق قطع الاشجار من غابات دلتا روفيجي ، ولكن كان من عادتها أن تؤجر تلك الحقوق الى شركة خاصة مقابل رسوم معينة • فيقوم العرب بشراء الخشب من الشركة ، بينما يقوم مفتش الحراج الحكومي بمراقبتهم • ولم تكن هناك أية حمولات جاهزة ، بل كان على كل مركب أن يقطع الخشب بنفسه • فلم يكن من الممكن أن يقطع الشجر ويخزن لتأتي المراكب وتحمله • وسبب ذلك أن هذا كان يتطلب جهدا لا داعي له ، علاوة على أنه كان في ذلك العمل خسارة ايضا • فلم تكن ضفتا النهر في أي جزء منه تقوى على حمل ثقل الخشب لمدة طويلة ، بل كان من المستحيل أن تكدس الاخشاب اليوم دون أن تنجرف غدا • ولذلك كان السواحليون يقومون بتجميع عشرات الاعمدة في المرة الواحدة ووضعها على ضفة النهر بينما يقوم حراس الغابة بالتفتيش عليها تحت اشراف مأمور الحراج ، ليتأكدوا من انها تصنف تصنيفا سليما ، ثم يدمغونها بخاتم الحكومة ، ولم يكن من الممكن تحميل عمود واحد لا يحمل تلك الدمغة • أما الاثمان فانها تسجل تدريجيا الى أن يمتلىء المركب تماما ، وعندها يدفع ثمن ما تشحنه نقدا • أما العمال ، فتدفع اجورهم على أساس ما يقطعه كل منهم • ويقوم البحارة العرب بنقل الاخشاب من الضفة الى المركب وتحميلها عليه ، كما يمكنهم جمع بعض الحطب

الجاف من الغابات لاستعماله وقودا للنار ، بالاضافة الى الاستقاء من ماء النهر ، وهذا كل ما كان يمكنهم الحصول عليه · لقد اعتاد العرب ، منذ القدم ، المجيء الى دلتا روفيجي للحصول على شحنات من الاخشاب ، وكانت هذه التجارة قديمة · ومع انهم من حيث المبدأ يبدون ، ولو ظاهريا ، الانصياع للقوانين المؤقتة التي تضعها الحكومات التي يعتبرونها دخيلة معتدية ، فانهم لا يرون مبررا لان يدفعوا مالا لشركة اوروبية مقابل حقهم في أخذ الاخشاب · ففي رأيهم أنهم اذا دفعوا للسواحليين الذين تقع الدلتا في بلادهم كان ذلك كافيا · ثم ان القيام برحلة من الخليج العربي على ظهر مركب كبير الى دلتا روفيجي ، وتحميله بخشب المنجروف ، أمر شاق وخطر في بعض الاحيان ، ولم تنظم هذه العملية بشكل أو بآخر الا في السنوات الاخيرة · ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت أن العرب يواصلون القيام بحملة فعالة ليؤكدوا أن هذا التنظيم لا يعدو أن يكون مظهرا فقط ، الهدف منه تسهيل العمل ·

صحيح أننا اشترينا بعض الاخشاب ، وكذلك فعل باقي العرب في الدلتا ، وصحيح أيضا أن حارس الحراج كان موجودا على ظهر مركبنا ، كما كان واحد مع كل مركب آخر في الدلتا ، كما كان مركبنا كثيرا ما يستقبل مأمور الحراج النشيط الذي كان يعمل سابقا في غابة دين بانجلترا وكان ذا عينين زرقاوين براقتين يدلان على أن من الصعب خداعه · وكان هذا حال جميع المراكب الاخرى في الدلتا ، كما كانت اخشابنا تختم وتصنف وتدمغ بالفأس الرسمية ، كما كان مراقبو العمال السواحليون مطيعين هادئين دمثين · لقد شحنا مائة وخمسين عمودا خشبيا ، ودفعنا ثمنها · الا أننا كنا قد حملنا مائة وخمسين أخرى لم ندفع ثمنها قبل أن نغادر المكان ، مع أنني لم اكتشف ذلك ، رغم كوني هناك طوال الوقت ، الا بعد أن كنا قد ابحرنا مسافة ألفي ميل بعيدا عن المكان ·

ولا شك أن كل مركب عربي في تلك الدلتا ، وربما المراكب الفارسية ايضا ، قد قام بسرقة نصف حمولته ، على الرغم من كل الجهود المبذولة لمنعه من ذلك · فقد كان هناك نظام شائع وفعال جدا لقطع وتحميل الاخشاب في غفلة عن عيون الموظفين الرسميين ، وان كنت لم اعرف ذلك الابعد خمسة عشر شهرا · كما أن تلك العملية كان يشترك فيها مشرفو العمال وحرس الاحراج والعمال والنواخذة العرب والبحارة جميعا · لقد كان عملا متقنا ، ولم يكن بامكان أي أوروبي أن يسبر غور اولئك القوم الذين كانت تبدو عليهم براءة الاطفال · فقد كانوا يتصرفون اثناء القيام بالعملية كلها ، وكأنهم مجموعة من طلبة المدارس يدبرون أمرا ضد مدرسهم ، الذي لا يتمتع

في الواقع بالمهارة التي يظن أنه يتمتع بها · وهل كان بامكان رجل واحد أن يشرف على تلك المساحة الشاسعة وان يضبط مثل هذه الامور ؟ فقد كان العرب يحمّلون المراكب في مساحة تقل قليلا عن مائة ميل مربع ، وعلى طول واجهة نهرية تمتد الى ما يربو على مائة ميل · لقد كان مجرد زيارة كل من تلك المراكب عملا يحتاج الى اسبوع كامل ، ولم يكن في تلك المنطقة بأسرها الا موظف واحد · وقد بدا لي أنه لم يكن في دائرته موظف محلي واحد يستطيع أن يثق به · ولذلك فقد كان دفع مرتبات للحراس ، ليراقبوا المراكب العربية في تلك الاماكن النائية ، هدرا للمال ، لان هؤلاء الحراس كانوا في الواقع لا حول لهم ولا قوة حتى لو افترضنا الامانة فيهم · فلم يكونوا يجرؤون أن يقفوا في وجه جهاز يعمل بفعالية كبيرة كفعالية عملية السرقة هذه ، التي كانت تشبه عمليات ابتزاز الاموال في أمريكا ، وتماثلها من حيث تنظيمها وجرأتها · وبقدر فهمي للعملية ، فاني اعتقد أن مراقبي العمل السواحليين هم قادة المؤامرة ، فقد كان العرب يتسلمون شحناتهم غير الشرعية بمساعدتهم وعن طريقهم · فكانت اكوام كبيرة من الخشب تقطع في أماكن نائية بعيدة عن ضفتي النهر ، لانه كان من المعروف أن مأمور الحراج لا يتوفر لديه الوقت للتجول والتفتيش في المستنقعات المخيفة ، وأنه ربما مات بالحمى لو فعل ذلك (وهو ما كان قد حدث بالفعل لسلفه الذي نقل ميتا من سلالة) · علاوة على ذلك فقد كان هذا المأمور يثق بحراسه ويعاملهم معاملة حسنة · فقد كان مراقبو العمال يخيفون الحراس بالتهديد أو العنف كما يخيفون العمال ، ولم يكونوا يتقاضون أموالا من العرب ثمنا للخشب المسروق فحسب بل كانوا ، على طريقة عصابات الابتزاز الحقيقية ، يستولون على حصة الاسد من نصيب العمال ايضا · وقد كان واحد من هؤلاء المراقبين رجلا قويا صاحب نفوذ بالفعل ، يشبه نفوذ أي فرد من أفراد عصابات الولايات المتحدة ، بل ربما كان أقل تورعا منه عن القيام بأي عمل · وكان هذا الرجل يسيطر على كامل الجزء الشمالي من الدلتا ، ويديره بيد من حديد · فلم يكن من الممكن استئجار أي عامل ، أو توظيف أي حارس ، أو قطع أية شجرة ، دون أمر منه ، وقد استغل سلطته هذه استغلالا كبيرا · وقد اكتشفت أن هذا الرجل هو الذي كان يعنى بأمورنا ، وان مباركا دليل مركبنا كان الواسطة بيننا وبينه ·

ومبارك الصوري هذا كان في الواقع رجلا غامضا · فقد كان قصيرا ، بدينا ، في منتصف العمر ، له لحية وخطها الشيب ، وسالفان خشنان على طريقة أهل صور ، وكان من تجار الروفيجي القدماء · وكان دائما حافي القدمين ، مرتديا قميصا طويلا بني اللون مما يرتديه أهل صور فوق ازار أحمر اللون · وكان من عادته أن يحمل خنجرا فضيا ويدهن جفنيه بالكحل ·

وكان يتحدث بصوت هادىء منخفض ، يرتفع الى شيء يشبه النحيب عندما كان ينفعل • وكان يظهر بمظهر الرجل الشديد التواضع • ثم انه كان يملك مركبا في زنجبار ، كما قيل لي ، وقد كنت أعجب لماذا ، اذا ، يقبل أن يعمل معنا مرشدا ، اذا كان ما قيل لي صحيحا • وجواب هذا السؤال في الواقع هو أنه ، وان كان كفئا كمرشد ، الا أن ذلك لم يكن عمله الاساسي ، فقد كان يعرف أصول اللعبة ، وكان هو الرأس المدبر لها • وكان على ما يبدو لا يهتم بنا فحسب ، بل بكل مركب عربي في ذلك الجزء من الدلتا • وقلما كنا نراه على ظهر الباخرة ، فقد كان يأتي ويذهب بطريقة غامضة ، كما كان صديقا لمعظم السواحليين ، ويتكلم لغتهم بطلاقة ، وهي لغة يسهل على العربي تعلمها •

ولكن كان من سوء حظ مبارك هذا أن مركبه وصل الى النهر بعدنا بقليل ، قادما من زنجبار ، لنقل شحنة ثانية من الاخشاب • ومع أن اسم المركب كان قد غير ، ولم يكن مبارك هو قبطانه ، الا أن مأمور الحراج تعرف عليه كمركب مطلوب للسلطات بتهمة سرقة الاخشاب • اذ سبق لهذا المركب أن جاء في أوائل العام بقيادة مبارك ، وطلب شراء كمية قليلة جدا من الاخشاب ، ولكنه أبحر مثقلا بحمله لدرجة أثارت ريبة مأمور الحراج • ودون أن يعلم مبارك ، كانت الشحنة قد احصيت بعناية بأمر من سلطان زنجبار عندما أفرغت هناك لتباع الى تاجر محلي ، وقد وجد على متنها أكثر من ضعف عدد الاخشاب التى كان مبارك قد طلب شراءها • وها هو مبارك قد عاد ثانية كمرشد لسفينتنا • وفي العادة يعتمد العربي على الشبه الشديد بينه وبين ابناء جنسه — على الاقل بالنسبة لعين الاوروبي غير الخبيرة — ويعتقد أن ذلك يكفي كنوع من التخفي • الا أن مباركا كشف هويته بحماقة واعترف ، دون أن يرتاب في الامر ، بأنه كان ايضا نوخذة للمركب المطلوب ، وقد كان هذا كافيا لاعتقاله • وقد تبين أن أحد مراقبي العمال السواحليين كان متورطا معه بتزويده بالعدد الزائد من الاخشاب ، فسيق الاثنان للمحاكمة في « أوتيتي » في أعالي النهر •

ولكن ذلك لم يعرقل عملنا ، فقد كان عمل مبارك بالنسبة لنا متقنا تمام الاتقان قبل أن يكتشف أمره ، وكان نظام العملية يسير سيرا حسنا ، فقد أخذنا حاجتنا من الاخشاب ، ولكنا لم ندفع الا ثمن نصفها • ومن المحتمل جدا أن جميع اصحاب المراكب الاخرى من العرب في تلك الدلتا قد فعلوا الشيء ذاته •

ويخيل الى أن العرب لا يجوز أن يلاموا لوما شديدا على هذه العملية غير الشريفة • وقد بررها حمد بن سالم على الشكل التالي ، اذ قال : « لو

انصعنا لجميع القوانين لما أتينا · فان من المعروف أنه لا يأتي مركب الى هنا ويعود محملا بالشحنة التي دفع ثمنها رسميا فقط · فاذا لم يتمكن المركب من أخذ الجزء غير الرسمي ، فليس بالمستطاع دفع ثمن الجزء الآخر ، وهكذا فان التجارة تتوقف · ان النظام الحالي يسير سيرا حسنا ، وليس هناك خسارة لأحد · فلماذا التدخل فيها ؟ ان الاوروبيين لا يملكون اشجار المنجروف ، فالله هو الذي جعلها تنمو هناك ، وهي ملك لجميع البشر · وفي افريقيا خشب وفير ، ولكننا في الجزيرة العربية بحاجة ماسة الى الخشب ، والا لما قمنا برحلة طويلة شاقة للحصول عليه » ·

لقد كانت هذه وجهة نظر حمد ، الذى كان قلما يتكلم ، (وقد أفصح عنها الي بعد مدة طويلة من مغادرتنا الدلتا ، لانه لم يفه بكلمة واحدة طيلة وجود المركب هناك) · وقد أضاف أيضا بأنه ليس هناك من يشجع المراكب العربية على زيارة روفيجى ، فقد كان التأخير طويلا ، كما كان من الصعب الحصول على العمال ، وكان النهر خطرا للغاية · وبالاضافة الى ذلك ، فلم يكن النوخذة مضطرا لدفع الثمن نقدا وفى الحال فحسب ، بل كان عليه أيضا أن يحمل ذلك النقد معه طوال تلك الرحلة الخطرة المرهقة ، من الطرف الشمالى للدلتا الى « ريما » فى الجنوب ، حيث يدفع الثمن لوكيل الشركة· وبالنسبة لهم ، فان وكيل الشركة لم يكن هناك مبرر لوجوده اطلاقا سوى الاستيلاء على نقودهم ، ولذلك فقد كان مدعاة فخر لهم ألا يدفعوا له الا أقل القليل · أما لو كانت التجارة منظمة تنظيما جيدا ، وكانت الاخشاب جاهزة للشحن ، فلم يكن هناك داع لتسلمها من السواحليين · ومع ذلك فقد قال حمد انه لا يعتقد أن مركبنا سيأتى الى روفيجى ثانية · لقد كانت هذه رحلته الاولى وستكون رحلته الاخيرة · أما فى المستقبل فانه سيسافر الى « لامو » ·

لقد كانت عملية الشحن فى الواقع عملية بطيئة وشاقة ومجهدة ، فقد مكثنا عشرة أيام فى ذلك الجزء من النهر دون أن نتمكن من تحميل أى شيء على الاطلاق ، بينما كان السواحليون يأتون على ما لدينا من الطعام · وقد قيل لنا أن علينا أن ننتظر الى أن يتمكنوا من تجميع عدد كبير من الاعمدة يكفى لاستدعاء الحراس لدمغها ، وهذا ما فعلوه فى النهاية · ولكن فى أثناء ذلك كانوا قد جمعوا كمية أخرى فى مكان منعزل لا يبعد كثيرا عن حطام الكوينجزبرج ، تنقل منه ليلا عندما يحين الوقت · فاذا ما تمدفع ثمن أول جزء من شحنتنا والسماح لنا بتحميلها ، كان بامكاننا أن ننقل للمركب الكمية الاخرى التى كان عددها يزيد عن المئة ، والتى تمكنا من نقلها فى ليلتين · ويبدو أنه لم يكن لدى الشركة ، ولا لدى الحكومة ، أية فكرة عن امكانيات

تلك المراكب العربية ، فعندما طلبنا شراء مائة وخمسين عمودا ، افترض أن هذه هي طاقتنا • ولو كان لدى مأمور الحراج أى شك فى ذلك ، لكان باستطاعته أن يجبر المراكب على تفريغ الشحنة وتدقيقها فى سلالة ، أو فى أى مكان آخر يراه مناسبا ، ولكنه كان مأمور حراج لا مأمور شحن ، كما كان لديه ما يكفيه من العمل •

عندما بدأنا الشحن ، أصبحنا فى شغل شاغل ، فقد كانت الاخشاب تحمل في القارب (عفرة) وفي القارب الطويل أثناء المد العالي • وكنا قد جهزنا كليهما بشراعين لتسهيل العملية ، وكانا ينقلان شحنتين نهارا وشحنتين ليلا • وقد رثيت لحال البحارة ، فقد كانت الظروف سيئة للغاية ، ففى خلال ذلك الشهر التعيس الذى قضيناه فى روفيجى ، كان هؤلاء البحارة يعيشون حياة شاقة للغاية دون توقف ، ودون أن تجف ملابسهم • وكانوا ينـامون بدون غطاء يحميهم من الامطار الغزيرة ، ويعملون طوال النهار ونصف الليل وهم غارقون فى الوحل والماء والعرق ، والبعوض السـام يمـص دماءهم ، وأيديهم مقرحة من شظايا الخشب ، وأقدامهم داميـة من النباتات المائيـة المتشابكة المليئة بالاشواك ، وكانت تلك الجروح تتقيح • كما اقتصر غذاؤهم على قليل من الارز والسمك مرتين فى اليوم ، وأحيانا مرة واحدة فقط • ومع ذلك فقد كانوا يعملون بانتظام ودون انقطاع ، ولا ينشدون الراحة أبدا اذا كان هناك عمل ينبغى القيام به • كما أنهم لم ينفكوا عن الغناء أثناء القيام بأعمالهم ، فيما عدا تلك الليـالى التى كانـوا ينقلون فيهـا الاخشاب المسروقة • فقد كانوا ينقلون الاخشاب الى أسفل النهر ، تحت المطر ، وبصمت تام ، ثم يكدسونها بسرعة على ظهر المركب •

وهكذا مرت الايام ، ثقيلة ، هادئة الريح ، شديدة الحرارة أو ممطرة• ولم يكن هناك مجال للتسلية ، أو حتى مكان يتمشى فيه المرء ، كما لم تكن السباحة مأمونة • وكان المركب مغطى بالوحل ، مع أن كل بحار كان يحاول أن يغسل الوحل الملتصق به قبل أن يعود الى المركب • وقد بني سقف من الاعشاب فوق الجزء الخلفى من مؤخرة المركب فوق السدة التى كان يجلس عليها النوخذة ، ولكن هذا السقف لم يكن يقى من المطر ، كما لم يكن هناك شيء يمكنه ابعاد البعوض عنا ، فقد كان البعـوض يهـزأ حتى من الكلل (الناموسيات) ، ويستمتع بالدخول اليها • ومن المعروف أن بعوضة واحدة داخل الكلة أسوأ من مائة خارجها ، ولكن لم يكن لدى البحارة كلة واحدة ، فكانوا يتقبلون البعوض على علاته • وكانوا فى البدء يحاولون أن يطردوه بطريقة أو بأخرى ، الا أنهم بعد حين تخلوا عن ذلك الصراع غير المتكافىء، وتركوا البعوض يلسعهم كما يشاء ، على أساس أنه اذا شبع فانه يغادرهم،

بينما اذا حاولوا ابعاده عنهم فانه سيعود اليهم ثانية برفقة بعوض آخر أشد جوعا ، وعلى هذا الاساس فان من الافضل الابقاء على بضع بعوضات حسنة التغذية على أن تأتيهم آلاف مؤلفة من البعوض الجائع · ولم يكن باستطاعتى شخصيا أن أضع هذه الفلسفة على المحك ، فقد كان لسع البعوض شديدا قاسيا حتى أن الايدى والاذرع كانت تتورم نتيجة له ·

وعلى الشاطىء كان يكثر الذباب وغيره من الهوام بدلا من البعوض· وقد شغلت وقتى فى أعمال التطبيب ، وكنت أتمنى لو كانت لدى الخبرة الفعلية بهذا النوع من العمل · فقد تفشت أنواع مختلفة من الامراض لم يكن لى عهد بها من قبل : أمراض استوائية، أمراض جلدية متقرحة ، أورام متقرحة فى الرأس، وأنواع أخرى من الحميات· وقد عانى أولئك الذين كانوا غواصى لؤلؤ فى الخليج العربى معاناة شديدة، لأن كثيرين منهم كانت لديهم أمراض جلدية ساكنة استيقظت فى هذا المكان · وكان هذا المرض نوعا من البثور الخلقة ، التى كانت آثارها موجودة دائما وظاهرة على أجسادهم ، وخاصة على أرجلهم · وطالما كانت تلك البثور غير متقيحة فانها لم تكن شديدة الازعاج ، ولكنها كانت تنفجر فى هذه الدلتا التعيسة بسبب الاشواك والشظايا والنباتات المتسلقة المتشابكة · وكلما كانت احدى هذه البثور تنفتح ، كانت تلتهب ، اما بسبب السائل الحمضى الموجود فى لحاء شجر المانجروف ، أو من وحل النهر السام · ولم يكن باستطاعتى أن أفعل شيئا سوى أن أبقى الجروح نظيفة ، وأوقف النزيف وأمنع الالتهاب · وقد مرت بى أيام عصيبة عندما كانت المواد الطبية تنفذ ، فقد كان الطلب عليها كبيرا ولم يكن لدي منها ما يكفيهم جميعا ، فقد كانت الديدان الصغيرة تنفذ أحيانا الى داخل ركبهم وعضلات أرجلهم ، وكان من الضرورى تخليصهم منها بالجراحة ·

لقد أثبت أولئك العرب أنهم صبورون على المرض ، وأنهم يحسنون التصرف عندما يبتلون به ، وقد كنت ممتنا مرة أخرى لقدرتهم العظيمة على الشفاء · ولكن ما أن انقضت ثلاثة أسابيع على وجودنا فى الدلتا ، حتى بدت عليهم علامات الاعياء الشديد ، فقد أصبحوا ، حتى أقواهم بنية ، كالاشباح ، ناحلى الاجسام ، شاحبى الوجوه · وقد لاحظت أن كثيرين ، ممن لم تكن تزيد أعمارهم عن الثلاثين عاما ، قد وخط الشيب شعرهم · لقد كانت حياة قاسية ، ولكن العجوز يوسف الشيرازى قال ذات يوم ان منطقة الروفيجى ، على رداءتها ، كانت أفضل من الغوص على اللؤلؤ ،وهو يشكر الله أنه لن يعود لذلك العمل ثانية · وقد بدأت أتساءل عن عملية الغوص هذه ، ومدى صعوبتها ·

لقد كانت الاوضاع صعبة على بحارتنا ، كما كانت صعبة أيضا على السواحليين الذين غفرت لهم كآبتهم ، عندما رأيت الظروف التى كانوا يعملون فيها • فقد كانوا يغوصون فى الطين حتى ركبهم ، ويقومون بقطع أشجار المنغروف بفؤوس صغيرة ، (بالرغم من صلابة ذلك النوع من الخشب) ثم يشذبونها ثم يسحبونها خلال الغابة الى جون أو حوض تكون قواربهم راسية فيه • ولم تكن قواربهم الصغيرة تتسع لأكثر من خمسة أو ستة أعمدة • وعندما كانت تمتلىء ، كان عليهم أن ينقلوا الاخشاب الى مكان التجميع الرئيسى لتصنف وتجمع معا • وكان العمل صعبا ، حتى فى الاماكن التى كان يكثر فيها شجر المنجروف ، أما حيث كان يقل فقد كان العمل أشق بكثير • فقد كانوا يقومون فى الصباح الباكر ، بعد صلاة الفجر مباشرة ، التى كانوا يرتلونها معا بصوت مرتفع ، ويغادرون البوم ، ثم يستقلون قواربهم ، ويجدفون بها ضد التيار الى أعلى النهر • وكانوا يفعلون ذلك قريبا من الشاطىء خوفا من التماسيح المتوحشة ، التى كانت تستطيع أن تقلب قواربهم الصغيرة وتغرقها بكل سهولة ، ثم تأخذ أجساد الركاب الىأوكارها لتتعفن هناك وتصبح صالحة للاكل • وكانوا يستفيدون من الاغصان المتدلية فوق رؤوسهم لتساعدهم فى هذا العمل • أما عندما كانوا يسيرون مع التيار ، فقد كانوا يتركون قواربهم تنجرف فى منتصف النهر ، وكان ذلك عملا سهلا • لقد كانوا يعملون طوال النهار وكان غذاؤهم يقتصر على حفنة من التمر الردىء ، ولم يكن يعيقهم شىء عن العمل ، لا هطول المطر ولا حرارة الشمس ولا أى شىء آخر •

لقد كان منظرهم جميلا على الرغم من نظراتهم الكئيبة • فقد كان على وجنتى كل منهم أثران من الوشم القبلى ، وكانوا جميعا يرتدون ثيابا عربية رثة ، كانت فى معظمها تتألف من القمصان المسقطية ، التى كانت تتدلى على ظهورهم وهى مربوطة بالخيوط • لقد كانوا مسلمين ورعين ، أو كانوا كذلك على الاقل فى أثناء وجود العرب فى الميناء • وكانوا يرتلون صلواتهم بقوة وحماس • والواقع أن أولئك الذين كانوا يعملون أقل من غيرهم هم الذين يؤدون قسطا أكبر من الصلاة ، وكانوا أحيانا يزعجون البحارة ويقلقون نومهم حتى منتصف الليل ، وهم يرددون أدعيتهم بصوت عال • ولم يكن من اللائق أن يقوم المسلمون الاصليون بتأنيب الداخلين فى الاسلام حديثا على صلاتهم • وهكذا كانوا يصلون ويصلون حتى أنى كنت أحيانا أشعر بأن علـّي أن أوبخهم بنفسي • فلم أكن أجد مسوغا لهذا التدين الزائد ، الا أن يكون تعويضا عن بقية العام عندما لا يكون العرب بينهم • وقد أسر لى بعض السواحليين بأنهم لم يكونوا يصلون كثيرا بعد ذهاب العرب •

اذا كانت الحياة في روفيجي سيئة بالنسبة لبحارتنا وللعمال

السواحليين علي السواء ، فلا بد أنها كانت كابوسا بالنسبة لحمد بن سالم • فهو لم يكن قد زار هذه المنطقة من قبل ، وها هو الآن مسؤول عن بوم كبير ثقيل الى حد ما ، ومتوغل مسافة طويلة داخل أحد روافد نهر روفيجي المتقلب • ولم يكن مسؤولا عن قيادة المركب بسلام من زنجبار واليها فحسب ، بل وعن تأمين حمولته في اسرع وقت ممكن أيضا ودفع ثمن نصف تلك الشحنة فقط • وكان مسؤولا ايضا عن ثمانين عاملا سواحليا ، عليه أن يسيطر عليهم ويطعمهم ويجعلهم يقومون بالعمل ، كما كان عليه أن يعنى بالمركب (وقد كان هذا ، في حد ذاته ، عملا كبيرا في ذلك المكان الصعب ذي المياه المتقلبة) ، كما كان عليه أن يعنى بالقوارب وبجميع البحارة أيضا • لقد بدأت احترم حمداً بن سالم خلال ذلك الشهر الذي أمضيناه في الروفيجي • لقد كنت أحبه من قبل ، ولكن لم تتوفر لي الفرص لاعرفه جيدا اثناء الرحلة من المعلا الى حضرموت ، لان شخصية نجدي كانت طاغية عليه •

لم يكن حمد بن سالم من نواح عديدة رجلا عربيا عاديا • فقد كان يبلغ السادسة والثلاثين من عمره ، ومع ذلك لم يكن قد اصبح نوخذة ، بل كان معلما ، أي نوخذة صغيرا ، في بوم نجدي ولم يكن من المحتمل أن يصبح نوخذة في يوم من الايام • لقد كان ضخم الجسم بالنسبة لبحارة العرب ، ذا لحية مدببة وجبهة عالية وأنف مستقيم كبير جدا ، وكان والده من نجد التي كان هو قد غادرها ليستقر في الكويت • وكان وجهه القوي مغطى بعدد كبير من التجعدات العميقة ، كما كانت اسنانه سيئة وبارزة جدا تشوه منظر فمه ، وكان يقص شعره الاشيب فيجعله قصيرا جدا ، بل كثيرا ما كان يحلقه بالموسى • وكانت لحيته عادية مدببة ، حسنة التشذيب ، مناسبة له • وكانت اطرافه كبيرة ، وساعداه ويداه قويتين جدا ، وكذلك كان صوته قويا يمكن أن يحتد أحيانا ، أما صوته ، عندما كان يؤم المصلين بصفته اتقى المسلمين على ظهر المركب ، فقد كان جهوريا وعاليا جدا • ولم يكن ايمانه موضع شك ، فقد كان ايمانا حقيقيا ، لان الرجل كان يتحلى بالمبادىء السامية ، والامانة التامة في كل الامور ، اذا غضضنا النظر عن أخشاب روفيجي التي كان يتسلمها ويهربها ، لان هذه الاعمال كانت في نظره مستقيمة لا غبار عليها • لقد كان متحفظا وهادئا جدا ، وهي صفات مناسبة تماما لمساعد النوخذة في أي مركب يكون تحت قيادة نجدي • علاوة على ذلك فقد كان بحارا قديرا ومرشدا كفئا • أما زياراته الى الشاطىء ، فقد كانت تقتصر على العمل فقط ، ولم يكن يهتم بالنساء حتى في زنجبار • وكان قد بدأ حياته في البحر وله من العمر تسعة عشر ربيعا ، بادئا مهامه كصبي من صبيان المركب ، ثم مرتقيا الى مسؤول عن اجهزة الملاحة • أما

القفزة من هذه المهمة الى وظيفة مساعد النوخذة ، فقد كانت قفزة كبيرة ، وربما كان سبب ترقيته اليها أنه كان قد تزوج احدى شقيقات نجدي • ومهما يكن من أمر ، فقد كان حمد رجلا صالحا يستحق الترقية التي نالها ، والتي ربما تكون آخر ترقياته •

لعله كان باستطاعة حمد أن يرقى الى مراتب أعلى ، لولا نقص في بعض مقومات شخصيته • فلم تكن لديه خبرة بتلك الطرق والوسائل التي كانت تمكن شخصا مثل نجدي من قيادة الرجال بسهولة • ولذلك فلم يكن باستطاعة أحد أن يقول أن حمدا قد خلق ليقود الآخرين ، كما كان الحال مع نجدي ، الذي كان يسيطر على المركب سيطرة كاملة منذ اللحظة التي كان يظهر فيها رأسه ، وهو يصعد الى ظهر السفينة ، حتى اللحظة التي كان يختفي فيها لباس رأسه وهو يغادرها • أما حمد ، فلم يكن يعمل كخليفة لنجدي ، بل كان يستطيع متابعة العمل في غيابه • لقد كان حمد رجلا قديرا كفئا نشيطا وموثوقا ، ولكنه لم يكن يعرف كيف يقود الآخرين ، ولذلك فلم يكن محبوبا من البحارة الذين كانوا يفضلون نجدي ، رغم تسرعه وكثرة نقده لهم ، ولعل سبب ذلك كان يرجع الى ذلك الشعور القديم الذي يشعر به البحارة عادة نحو الضباط الذين يرقون من بينهم • فقد كان حمد يعمل كبحار عادي مع بعض هؤلاء الذين على ظهر المركب الآن ، عندما كان يعمل على مراكب أخرى • ولكنني اعتقد بأن الامر أبسط من ذلك ، وان مرده الى أن حمدا لم يكن يتمتع بشخصية قيادية ، فقد كان كل همه أن يجمع من المال ما يكفي لشراء مزرعة صغيرة في البصرة ، على ضفاف شط العرب ، وأن يستقر هناك وينام ، بينما التمور تنمو دون عناية • أما وهو على تلك الحال ، فلم يكن يعرف متى تتحقق أحلامه ، أو ما اذا كانت ستتحقق أبدا • فقد كانت المزارع غالية الثمن ، وجمع المال صعبا ، وكانت الحصة التي ينالها مما يكسبه المركب « فتح الخير » ، مضافا اليها ما يحصله من أعمال أخرى ، لا تكاد تكفي لاعالة اسرته ، فقد كان لديه زوجة وأربعة أطفال •

لقد ازداد حبي لحمد خلال تلك الليالي الطويلة التي كنا نقضيها في روفيجى ، عندما كان المطر ينهمر على سطح السقيفة المقامة فوق سدة النوخذة ، أو عندما كنا نجلس ونحن متلاصقون خارجها • كان العجوز يوسف الشيرازي يقبع عند الدفة يدخن نارجيلته ، فيما كان الصبي محمد قدرفي يدير علينا أكواب الشاي أو القهوة بين وقت وآخر • وفي مثل هذه الاوقات ، كنت اتجاذب اطراف الحديث مع حمد ، مع أنه لم يكن في العادة يتكلم كثيرا ، وكنا نتحدث في مواضيع مختلفة وخاصة عن المراكب وعن

الكويت • وبعد مدة ، بدأ يحدثني عن الجانب الاقتصادي للرحلة : كم تكلف وكم يمكن للمركب أن يكسب • فقد ذكر لي ان المركب دفع لكل بحار في العام الماضي ما يزيد عن مائة وستين روبية ، أما في هذه السنة ، فانه يشك أن يصل المبلغ الى مائة ، فقد حدثت أمور كثيرة جعلت الحصول على الربح صعبا ، ومن هذه الامور الصعوبات التي واجهتهم في مقاديشو ، وتدني أسعار الشحنات في زنجبار ، وانخفاض اجرة الركاب ، ثم ذلك الوقت الطويل الضائع الذي كان عليهم أن يقضوه على ظهر المركب ، وارتفاع تكاليف خشب روفيجي ، (ولم يذكر بالطبع تلك الاخشاب التي زودهم بها السواحليون) ، واحتمال مواجهة صعوبات في بيع الاخشاب في الخليج العربي • كما أخبرني حمد ان من الافضل ان تنقل المراكب بضائع لحساب التجار ، الا أن هؤلاء يفضلون أن يتحمل النوخذة مخاطر النقل • فلو شحن تاجر بضائعه الخاصة ، فان عليه أن يدفع اجرة المركب ويتحمل مسؤولية تصريف الشحنة • أما اذا حمل المركب بضائعه الخاصة ، فان التجار يحصلون على البضاعة على أية حال ، وغالبا ما يكون ذلك بأسعارهم هم ، لانه لم يكن بامكان النوخذة أن ينتظر طويلا حتى يبيع شحنته ، أو أن يخزنها الى وقت لا يعلم نهايته • وهكذا فان التجار يحصلون على البضاعة، دون أن يدفعوا اجرة شحنها ، أو يتحملوا مسؤولية المخاطرة التي تتعرض لها الرحلة (١) • وقد كان رأي حمد أن هذا النظام غير عادل ، ولكنه النظام السائد بين العرب ، وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا لتغييره • وقد كان حمد يسألني عن السفن البخارية الكبيرة ، وكيف تعمل ، فقد كان رأسه مملوءا بالافكار المختلفة •

لقد كان حمد يعمل بشكل مخيف خلال ذلك الشهر القاسي ، وقد غيرنا مكان المركب ثلاث مرات بحسب تغير المد : مرة نقترب من حطام الكوينجزبرج ، ومرة أخرى نتجه الى جزء آخر من النهر ، لان البوم كان يزداد وزنه فيزداد انخفاضه في الماء • لقد كنا نحمّل المركب حتى حوافه العليا ، وقبل أن نغادر روفيجي كنا قد غطسنا الى عمق ثلاثة عشر قدما تقريبا • ولو كنا بتلك الحمولة قد فوجئنا بفترة من الجزر فى ذلك الرافد البعيد من النهر ، لمكثنا في الدلتا شهرين بدلا من شهر واحد • شهرين ؟ لقد كان مجرد التفكير في ذلك أمرا مرعبا ، مع علمنا بأن عبد الوهاب بن خليفة الكويتي قد مضى عليه هناك أكثر من اربعين يوما في بومه الكبير المسمى « تيسير » • لقد كان تبديل مكان المركب في تلك الانهار السريعة

---

(١) يبدو أن هناك لبسا فيما فهمه المؤلف من حمد بن سالم ، لأن أجرة الحمولة يدفعها التاجر صاغرا ، وليس لصاحب المركب علاقة بربحه أو خسارته المتعلقة بالبضاعة • (المترجم عن أحمد البشر الرومي) •

مناورة خطرة ، وكنا كثيرا ما نضطر ، عندما تتضارب تيارات المد ، أن ندير المركب دورة كاملة في ذلك المجرى الضيق ، ونرسيه بربطه من مقدمته ومؤخرته معا . وفي مثل تلك الاوقات ، كان على البحارة أن يبذلوا جهدا شاقا جدا ، حتى بالنسبة لهم ، وهم يحملون الحبال ليربطوها بالاشجار ويعدلوا وضع المركب ثانية . ولم يكن أى نوع من الحذر ليمنع مثل هذه الامور التى لم تكن تحدث ضررا ، لاننا لم نتحرك الا مع المد العالي ، كما أن ضفتي النهر كانتا مكسوتين بالطين . الا أن العمل كان شاقا ومزعجا الى اقصى الدرجات .

وهكذا توالت الايام ، وفي بعضها لم تكن تصلنا أية اخشاب ، بينما كان السواحليون يأتون على زاد المركب . وقد كان حمد يعلم أنه لن يرضي نجدي ، الجالس هناك مستريحا في زنجبار يتناول اللحم الطازج ، أو أن نجدي على الاقل سيعطي الانطباع بأنه لو كان على المركب لجرت الامور بشكل أفضل . الا أنه لم يكن يبدو أن حمدا يحسد نجدي ، لانه لم يكن يقول شيئا أو يفصح عن مشاعره ، فقد كان يهتم بأمر المركب ويبذل كل طاقته للعناية به وببحارته ، كما كان يؤم المصلين في صلاتهم ، وكان يتغلب على الصعاب عندما تبرز ، ثم يتابع عمله مستعدا لمواجهة غيرها ، ولم يكن يسأل أحدا معروفا أو يعمل معروفا مع أحد . أما عندما كان نجدي يتواجد على ظهر المركب ، فقد كان البحارة يتزلفون اليه صباحا ومساء ، ويقدمون تحياتهم اليه ، ولكن أحدا لم يكن يأتي الى حمد ليفعل ذلك ، وكان هذا هو الفرق بين الاثنين .

وأخيرا ، وبعد أن تم تحميل الشحنة على المركب ، وعدنا بمركبنا المثقل بالحمولة ، وألقينا مراسينا مقابل « سلالة » مرة ثانية ، وسطح المركب الرئيسي أوطأ من مستوى الماء ، قام البحارة المرهقون الناحلون بارخاء الحبال وطي الشراع . وقد كان على حمد أن يبحر الى « ديما » ليدفع ثمن الاخشاب للشركة ، وقد استغرقه ذلك مدة يومين ، لأن « سلالة » تقع في شمال الدلتا ، بينما تقع « ديما » في جنوبها . وقد عاد في اليوم الرابع ، وهو يبدو أشد هزالا واكثر تعبا من أي وقت مضى . فقد قطع معظم المسافة في قارب صغير انقلب مرتين ، مرة بسبب فرس النهر ، ومرة أخرى بسبب كتلة من الخشب خشوا أن تكون تمساحا . وقد شقوا طريقهم، اما في النهر ، أو عبر المستنقعات ، أو خلال الغابة . لقد عاد حمد ، الذي كان حافي القدمين ، وقد تشققت قدماه ، ومزقت الاشواك رجليه . وقد أخبرني أنه ورفاقه قد شاهدوا أفاعي كثيرة منها أفعى البواء الضخمة ، التي كانت نائمة بعد تناولها وجبة من الطعام . ثم أنه لم يوجد هناك في «ديما»

شيء يؤكل أو مكان للراحة ، كما أن حمدا كان قلقا على المركب ، فقد زاد انخفاضه في الماء ، وكان يريد أن يخرجه من النهر مع مد الربيع ، وهكذا اضطر الى العودة ثانية بعد أن دفع الشلنات المقررة وتسلم الايصال الرسمي. وكانت طريق العودة أسوأ من الذهاب ، لأن السماء كانت تمطر طوال الرحلة ، وكانت زخات المطر تتناوب مع الحرارة الاستوائية الرطبة ، كما كان البعوض كثيرا وشرسا ، والذباب يهاجم وجوههم فيسومهم سوء العذاب. وقد اضطر الى خوض بعض المستنقعات ، وهو غاطس الى الركبتين في مياه آسنة ، موحلة ، مملوءة بالحشرات والحيوانات السامة . ولم يكن بامكان اي منهم الوقوف ثابتا على القدمين ، فقد كانت الغابة ، مملوءة بالاشواك والحشرات والافاعي ، كما كانت التماسيح تنتظر على ضفة النهر ، وكان فرس النهر متأهبا لقلب قواربهم . الا أن حمدا تابع سيره ، رغم الوحل والدم والتشقق والجوع وعدم توافر ماء للشرب سوى ماء النهر . وعندما وصل في نهاية الامر الى المركب ، وتجرأت على القول انه لم يكن من العدل أن يتجشم العرب كل تلك الصعوبات لايصال المال الى الشركة ، أجاب حمد بأن الله كريم ، ولم يتذمر أبدا . الا أنه كان مرهقا بالفعل ، كما أن مد الربيع قد اختفى ، وتكون في النهر تيار دافق ، شديد ، ناتج عن الامطار الساقطة في أعاليه ، فتدافعت نحونا الانقاض ، وملأت مسالك النهر ، بينما كانت كتل الخشب والشجيرات وجذوع الاشجار تندفع هادرة باتجاهنا . لقد كانت سرعة التيار لا تقل عن ست عقد ، وكان المركب المثقل بالحمولة يشد مراسيه بعنف ، وبما أن مباركا لم يكن موجودا ، لأنه كان قد سيق للمحاكمة في أعالي النهر ، فقد كنا بدون مرشد . لقد كان الطقس عاصفا في الخارج ، وكانت زخات المطر مستمرة وقابضة للنفس ، ومرفقة ، في بعض الاحيان ، بسياط من الريح القاسية . لكننا كنا قد حصلنا على شحنتنا ، ودفعنا للشركة ثمنها ، كما كان السواحليون قد غادرونا ، وكان باستطاعتنا أن نبحر . حمدا لله لاننا سنبحر أخيرا !!

وقد دعا حمد جميع البحارة لصلاة شكر خاصة . وفي الصباح كنا قد غادرنا المكان .

كان الوقت نهاية شهر مارس ، عندما غادرنا سلالة أخيرا . وقد لامسنا قاع النهر مرة ، ولكننا عمنا ثانية بسرعة ، لاننا كنا نبحر مع اتجاه النهر وكانت الريح تساعدنا ضد المد الجارف ، وقد مكّن المد المرتفع المركب من العوم ثانية ، عندما التصق بالارض ، ولكننا كنا نسير بحذر شديد ، خاصة أن مباركا مرشدنا كان في سجن « أوتيتي » ، ولم يكن معنا غيره يعرف مسالك النهر معرفة جيدة . وقد كانت تمطر طوال ذلك الصباح ،

ولذلك كانت الشمس مختفية ، وقد أضفى ذلك ، بالاضافة الى صوت النهر الحزين ، جوا من الكآبة على المكان • وبما أن مركبنا كان محملا حتى الافريز بالاخشاب الرطبة الموحلة ، لذلك كان المركب يعوم بتثاقل وسطحه الرئيسي تحت مستوى الماء ، وهو غاطس الى مسافة ثلاثة عشر قدما ، كما أنه لم يكن هناك مأوى للبحارة المنهكين المكدودين ، ولا مجال للحركة لأن كل جزء من المركب كان مملوء بالاخشاب ، حتى الجزء الواقع في المكان المنخفض من المؤخرة • وحتى القمرة الكبيرة كانت محملة أيضا ، وكنا قد نزعنا حاجز تلك القمرة ، وكان المركب بأسره قد حشي بالاخشاب حتى الافريز • وكان سطح الشحنة الخشبية غير مستو ومملوء بالنتوءات ، والشظايا ، والرؤوس المدببة ، التي كانت تؤذي اصابع البحارة وهم يركضون فوقها • لقد كان كل منهم قد عانى معاناة تتفاوت في الشدة من البقاء في دلتا روفيجي ، وكان عبد اللطيف وابراهيم قائدا الدفة مريضين جدا بالحمى ، أما الآخرون فقد كانوا جميعا مصابين برشوحات شديدة • وكان جاسم الطباخ قد تحول الى شبح تقريبا ، أما العجوز يوسف الشيرازي المسكين ، فقد اصبح شعره أبيض تماما ، واصبح هزيلا جدا

في جزيرة كرالي



حتى أن جلبابه كان يبدو عليه وكأنه كيس ، وكانت اضلاعه تبرز من فتحات الجلباب عند الرقبة والصدر كأضلاع هيكل عظمي • وكان الجميع في حالة مماثلة ، حتى عبد الله شقيق النوخذة ، الذي كان يقوم بأقل الاعمال على سطح المركب ، فقد بدت عليه امارات التعب والاعياء • أما المسكين حمد بن سالم ، فقد كان يبدو كشبح مخيف •

ظلت السماء تمطر طوال سفرنا في النهر ، وكنا نمر بضفاف من الطين ، وبأشجار كأنها تبكي من غزارة المطر • كما مررنا بأجزاء طينية ، وبالعديد من الروافد والفروع والقنوات والخلجان الصغيرة التي كونها ذلك النهر السريع الجريان ، كما كنا نمر أحيانا بفسحة مكشوفة من الارض كانت مكان النزول الى القرية « كيومبوني » ، ومرة أخرى على مرأى من السفينة ناقلة الفحم « نيوبردج » الغارقة ، ثم بين ضفاف مصب نهر « سمبا أورانجا » ، حيث كان الالمان قد حفروا خنادقهم ونصبوا مدافعهم • وقد سكنت الريح عندما وصلنا الى مصب النهر ، غير أن المد كان قد بدأ ينحسر عندئذ ، فواصلنا السير • وما أن خرجنا من ذلك المصب الكئيب ، حتى صفت السماء ، وتوقف المطر فجأة ، وكأنه ، بعد أن قدم كل ما يستطيعه من الشر ، كان يقول لنا : « الآن يمكنكم أن تنصرفوا ــ لعنكم الله » • لقد كان المطر كأنه الروح المسيطر على ذلك المكان الحزين ، وقد شكرنا الله عندما تخلصنا منه ، ولم ننظر وراءنا قط • فقد كان المطر هناك لا يزال ينهمر وينهمر بدون توقف • أما أمامنا فقد كان بحر واسع مأمون ، وان لم يكن مأمونا تماما ، لأنه كان علينا أن نجتاز ذلك الممر الموصل الى زنجبار ، المملوء بالشعاب المرجانية والعوائق الاخرى ، كما كان علينا أن نتوقف في كوالي ، لتفتش حمولتنا ويسمح لنا بمواصلة السفر • الا أننا على الاقل كنا قد غادرنا دلتا الروفيجي البائسة وخلفناها وراءنا ، ولأول مرة رأيت البحارة يبتسمون • ولم أكن قد لاحظت ، الا عندما كانوا يبتسمون ، كم كان نادرا أن تبدو آثار السرور على وجوههم ، أما حمد بن سالم فانه لم يبتسم أبدا •

الا أننا لم نكن قد تخلصنا من الخطر بعد ، كما أن مشاكلنا لم تكن قد انتهت ، وكنا غاطسين فى الماء أكثر من اللزوم ، وأكثر من أى مركب آخر من المراكب السبعة التي كانت تبحر معنا في ذلك اليوم • فقد كان البحر هناك مملوء بالاماكن الضحلة وبالصخور المرجانية وبالعوائق الرملية، كما كانت تواجهنا عواصف مفاجئة • لقد كانت تلك الفترة هي الفترة المتقلبة ، التي تقع بين الرياح الموسمية الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية، التي يمكن أن يحدث فيها أي شيء • فلو صدف أن غرزنا ونحن في حالتنا

من الحمل الثقيل ، فان من الممكن أن نصيب المركب اصابة جسيمة ، كما أن أي جزء من الشحنة التي نضطر الى التخلص منها لتعويم المركب ستسبب خسارة لنا ، فقد اشتريت جميعها بمال المركب ، أو توافرت بتضحيات البحارة ، ومن المعروف أن اعمدة المنجروف الموجودة في « سمبا اورانجا » ثقلية جدا ، لا تطفو على وجه الماء ، ولذلك فان مصيرها الغرق ، اذا انزلت من المركب ٠

لقد كنا عمليا غير بعيدين عن الدلتا بعد ، على الرغم من اننا كنا قد ابتعدنا عن البر ٠ فقد كنا لا نزال في ذلك الممر الضيق الواقع بين ضفتين طينيتين تمتدان الى أبعد من مصب سمبا أورانجا ، عندما بدأت الريح الخفيفة تهب ثانية من أمامنا ، ولذلك فقد شققنا طريقنا بكل صعوبة ، وكنا نرى أمامنا اشرعة ستة مراكب عربية مثقلة بالحمولة ، كانت قد اقلعت ذلك الصباح ايضا ٠ وكان حمد يقود المركب بحذر وهدوء ، عندما انبرى فجأة عبد الله شقيق النوخذة ، الذي لم يبدر منه في أية مرحلة من مراحل الرحلة ما يدل على طموحه أو على تمتعه بقدرات خاصة ، وقرر استلام قيادة المركب ، وبدأ في الحال يعطي قائد الدفة أوامر تتعارض مع أوامر حمد ٠ وعندما رأى المراكب تسبقنا ، ادعى بأن من الممكن أن نزيد من سرعتنا ونلحق بها ، الا أن حمدا قال ان ذلك غير ممكن لوجود عائق رملي في الطريق ٠ ولكن عبد الله أصر على رأيه وأمر قائد الدفة بأن يجعل المركب يسير بأقصى سرعته ٠ وبدأ الصراخ يعلو من حمد ، الذي كان يأمر بخفض سرعة المركب ، ومن عبدالله الذي يريد زيادة سرعته ، الى أن قال حمد : « لا يجوز أن يكون هناك قبطانان للمركب ٠ أنزلوا المراسي » ، وجلس على الارض ٠

وخلال هذا الجدل القصير ، الذي كان يمكن أن ينتج عنه بعض الخطر على المركب ، كان حمد بن سالم مصيبا تماما ، حتى أن قائد الدفة لم يلق بالا لأوامر عبد الله ، لانه لا شك أن ذلك القبطان الذي لا يستطيع القيام بشيء سوى اللحاق بسفن اخرى قبطان سيء ، كما أن ذلك الضابط الذي ينشد القيادة عندما ينتهي الجزء الخطر من الرحلة ، ضابط سيء ايضا ٠ لقد كان حمد هو المسؤول عن المركب ، وقد أساء اليه عبد الله بأن حاول مخالفة أوامره وتحدى سلطته ٠ لقد كان عبد الله يتمتع بمركز قوى ، لأنه شقيق نجدى ، وكان يعرف تلك الحقيقة ، أما حمد فقد كان مركزه أضعف ، لأنه لم يكن الا صهرا لنجدى ، وكان يعرف تلك الحقيقة أيضا ٠ ولكنه كان يعرف أيضا أن مهمته كانت أن يبحر بالمركب الى دلتا الروفيجى ، ويملأه بالاخشاب ، ويعيده سالما الى زنجبار ، وكان عليه لذلك أن يتحمل عبد الله

الذى لم يكن اسميا الا واحدا من قادة الدفة ، الا أن أحدا لم يكن يعرف بالضبط حقيقة مركزه على ظهر الباخرة ، ولكنهم كانوا جميعا يعلمون أنه شقيق نجدى ، كما كانوا يعلمون بأنه اذا توافر المال فانه قد يشترى مركبا لحسابه بعد أن يعود مركبنا الى الكويت • أما حمد ، فلن يتمكن من امتلاك مركب لحسابه ، مهما طالت مدة خدمته لنجدى وعبد الله ، وتفانيه فى تلك الخدمة ، ومهما بلغ عدد الرحلات القاسية المرهقة التى يقوم بها ، أو عدد الاشهر المؤلمة التى يمكن أن يقضيها وهو يهتم بأمر مراكبهما فى دلتا الروفيجى المخيفة • لقد كانت الطريقة الوحيدة ، التى يمكن أن يمتلك بها حمد مركبا خاصا به ، هى أن يتمكن من جمع المال الكافى لذلك ، الا أن ذلك بدا بعيد الاحتمال • فقد كان رجلا فقيرا يعيل أسرة كبيرة ، بينما كان عبد الله شابا لا يعول أحدا الا زوجته • وبما أنه الاخ الاصغر لنجدى ، فقد كان سكنه مؤمنا حيث كان يعيش مع نجدى ، وكان كلاهما يعيشان مع أبيهما ، ولم يكن له أبناء فأبناؤه جميعا قد ماتوا صغارا •

وهكذا جلس حمد على الارض ، ثم قام فتوضأ وصلى ، فقد كان الوقت وقت صلاة الظهر ولم يقل شيئا عن الحادث الذى حصل • وعندما طلب منى عبد الله أن أعطى رأيى ، أجبته بأنه كان على خطأ ، وأنه ، ما دام نجدى قد عهد لحمد بقيادة المركب ، فلم يكن من شأن عبد الله أن يجعل تلك القيادة مستحيلة • ولكن عبد الله أجاب بأن حمدا كان يسير فى الطريق الخطأ ، فلم يكن هناك مرشد على ظهر المركب ، وانه يعرف الطريق كما يعرفه حمد ، كما أنه يستطيع رؤية المراكب الاخرى • فأجبته قائلا : «ولكن تلك المراكب ليست غاطسةفى الماء بقدر مركبنا ، كما أنها كانتقد ابتعدت الى عرض البحر ، ولذلك كان باستطاعتها أن تطلق العنان لسرعتها ، وتنشر أشرعتها باتجاه الشمال ، بينما لم يكن باستطاعتنا أن نفعل ذلك » • ولم يقتنع عبد الله ، بل احتكم الى واحد أو أثنين من قائدى الدفة ، ولكن أحدا منهم لم يحر جوابا • وعندها جلس عبد الله على الارض أيضا • وفى هذهالاثناء كانت الريح قد اعتدلت ثانية ، وكنا راسين بينما كان الشراع الرئيسى فى أعلى الصارى ، وملفوفا لفا غير محكم على العارضة ، التى كانت مرفوعة على الصارى • ومن وضعنا هذا كان من السهل أن نبحر ثانية • وما أن لاحظ حمد تحسن الريح حتى رفعت المراسى ، وتابعنا الرحلة دون أن يتدخل عبد الله مرة أخرى بقيادة المركب ، فابتعدنا عن الشطآن ، وتابعنا سيرنا بسرعة أكبر باتجاه الشمال •

وبعد هذه الحادثة ، سرنى أن الاحظ أن البحارة ، الذين لم يحاولوا أن يلقوا التحية على حمد طوال رحلتنا فى دلتا الروفيجى ، بدأوا يصعدون الى حيث يجلس فى المؤخرة ، ويحيونه مساء وصباحا • ويبدو أن هذه

الطريقة كانت وسيلتهم للتعبير عن مشاعرهم تجاه حمد ، الذى آمنوا بأنه كان على حق • ولم أكن قد لاحظت سابقا أنهم يفصحون عن مشاعرهم نحو أى شيء أو أى انسان ، فلم تكن هذه من الفضائل الشائعة بينهم • الا أن تحيتهم الهادئة لحمد صباح مساء كانت مظهرا يبعث على السرور • ولكن اذا كان حمد قد لاحظ ذلك ، فانه لم تبدر منه أية اشارة تدل على سروره ، وان كنت شخصيا أعتقد أنه كان سعيدا •

أما من ناحيتى ، فقد أتيحت لى فرصة ممتازة لأتعرف على البحارة بشكل أفضل ، ولأن أعجب بحمد بن سالم ، أكثر من ذى قبل ، خلال ذلك الشهر القاسي الذي أمضيناه في دلتا نهر روفيجي • وقد سعدت لانني بقيت فى المركب ، وشعرت بأنى تعلمت أكثر بكثير بهذه الطريقة ، وتمكنت من معرفة جميع البحارة معرفة أوفى • كما أنى أعتقد أن حمدا والبحارة كانوا مسرورين أيضا لمرافقتى لهم الى ذلك المكان المخيف ، بينما كان بامكانى بكل سهولة أن أبقى مع نجدى فى زنجبار • لقد كنا أصدقاء حميمين قبل رحلة الروفيجى ، أما بعدها ، فقد أصبحنا رفاق عمل على المركب •

بدأنا الآن نتجه ناحية « كوالى » ، وكانت الشمس مشرقة ، فأخرج البحارة ملابسهم الرثة ليجففوها ، بعد أن مضى عليها أكثر من شهر لم تعرف الجفاف خلاله • كما أن قردى « يميد » ، الذى ظل مختبئا فى مكان مبيت البحارة ، فى مقدمة المركب ، خلال الاسبوعين الماضيين ، صعد الى السطح ثانية ، وأخذ يثرثر بمرح ، ويقفز هنا وهناك ، ويتشبث بأرجل جاسم • وكذلك فعلت الهرة « بس » التى ، رغم تعودها على الحياة الصعبة ، وجدت مجموعة الصعاب فى الدلتا تفوق ما تستطيع قدرتها الخارقة على الصبر تحمله • وكانت تبدو فى غاية الهزال ، فقدمت لها شيئا من الحليب ، الذى لعقته شاكرة ، ثم نظرت حولها باحثة عن البعوض ، الذى كان قد أحال حياتها الى جحيم فى الشهر الماضى ، وعندما لم تر له أثرا بدا لى كأنها تبتسم • مسكينة الهرة « بس » ! فلم يكن فى حياتها كثير من المرح ، ولا بد أنها كانت نادمة لانها غادرت موطنها في بربرة ! وقد كانت تخاف كثيرا من « يميد » ، فلا تقترب من مكانه مطلقا ، فكانت هى تعيش فى المؤخرة ، بينما كان هو يعيش فى المقدمة ، وقلما كانا يجتمعان اذا استطاعت الهرة أن تتجنب ذلك •

وطوال فترة العصر ، كنا ننظر خلفنا الى ذلك المنخفض المقبض الذى يكّون الدلتا العظيمة لنهر الروفيجي ، وحيث كان المطر مازال ينسكب كأفواه القرب على جميع مصبات النهر • ومرة ثانية لهج البحارة بالشكر لله • أما

فى المساء ، فقد أمطرت ثانية وأخذنا نبحث عن المرسى القريب من كوالى فى عاصفة ماطرة بعد حلول الظلام · وقد كانت قيادة المركب صعبة ، لأنه لم يكن هناك ماء كاف ، كما كان الظلام حالكا لا نستطيع أن نرى من خلاله شيئا · وقد بدا منظر حمد غريبا وهو يقود المركب فى الظلمة ، بعد أن شمر أطراف جلبابه اتقاء البلل ، ورفع فوق رأسه مظلة من الخيزران يحتمى بها من المطر · أما البحارة ، فقد كانوا يزحفون من مكان الى آخر وهم يقطرون ماء ·

لقد أمطرت فى تلك الليلة أكثر من أى وقت أمضيناه فى دلتا الروفيجى · وكان المطر ينهمر وكأن الغيوم قد انفجرت ، ولم ينقطع لحظة واحدة ، حتى أنه ملأ القارب الصغير المرفوع على حمالاته ، فأصبح من الثقل بحيث أنه خلع الحمالة الامامية من أوتاد الحديد التى تثبتها وتدلى على جانب المركب · أما القارب عفرة ، والقارب الطويل اللذين كانا مقطورين في المؤخرة ، فقد امتلأا الى الحافة · أما ما كان أخطر ، فهو ان ماء المطر الذى كان ينهمر بغزارة من السماء ، قد تدفق الى مخزن المركب ، وكاد أن يغرقه عند المرسى القريب من كوالي ، قبل أن يبدأ رحلة العودة الى الجزيرة العربية · ولما كان السطح الرئيسى تحت مستوى الماء ، فلم تكن هناك طريقة للتخلص من ماء المطر ، ومن ماء البحر الذى يمكن أن تدفعه الامواج الى سطح المركب · لقد امتلأ المخزن بالمطر ، لأن المركب كان يدفع بالمطر كله اليه ، ولم يكن هناك من سبيل لاخراج الماء منه الا بالنزح · وقد كان هذا العمل غير فعال أثناء العاصفة ، لأن الماء كان يتدفق بكميات أكبر مما يمكن نزحه ، كما كان النزح عملية مجهدة وشاقة · وكان على المركب ، كالعادة ، بئر يقع خلف الصارى الرئيسى ، وقد تجمع معظم المطر فى النهاية فى هذا البئر · وكما كان الحال فى جميع المراكب العربية ، لم تكن هناك محاولات حقيقية لمنع الماء من النفاذ من السطح ، بل أن الواقع أن السطح كان يحتوى على فتحات خاصة ، الغاية منها السماح للماء لكى يسيل الى المخزن · ولذلك فان جميع الماء الذي كان ينسكب على ظهر المركب ، حتى على المكان المخصص لمبيت البحارة ، كان يسيل ويتجمع فى المخزن ·

لقد تساءلت ، وأنا أرى المركب فى تلك الحالة القريبة جدا من الخطر فى ذلك الوابل من المطر ، عما اذا كان بمقدوره أن يقوم برحلة العودة الى الجزيرة العربية · فقد كان من المحتمل أن تواجهنا أمطار أخرى فى موسم الرياح الشمالية الغربية ، قبل أن نبتعد عن الساحل الافريقى ، كما كان المركب مثقلا بالحمولة ، وقد سألت نفسى عما يمكن أن يحدث لو كان عليه أن يواجه احدى العواصف · لقد كان واضحا أنه سيلاقى تدميرا كاملا لو

مواجه بعض الامواج العاتية • لقد كانت حواجزه العليا ، المبنية من الخشب والحصير فقط ، قريبة جدا من مستوى سطح الماء ، كما كانت الحمولة من الاخشاب ثقيلة جدا ، ولم تكن تلك الاخشاب مثبتة باحكام ، فلم يكن من عادة العرب أن يحكموا اثبات أى شيء ، وهكذا كان المركب مملوءا بالاخشاب المكدسة بعضها فوق بعض من غير نظام • وقد بدا لى أننا بحاجة الى رحمة الله للوصول الى الجزيرة العربية • ولكن يظهر أن اتجاه تفكيرى هذا لم يكن يخطر ببال أحد ممن كانوا على ظهر المركب ، أو لعلهم كانوا قد اعتادوا ذلك ، لأنه لم يظهر عليهم ما يدل على القلق • وعندما سألت حمدا ما الذى سيحدث اذا طغى البحر على السفينة ، كان جوابه الوحيد « الله كريم » ، ولكنه بعد مدة أضاف قائلا ، وكأنه كان يقلب الفكرة فى ذهنه ، : « نستطيع عندئذ أن نستخدم القارب الطويل » • ويجب أن أعترف بأنه خطر لى عدة مرات بأن من الحماقة أن يبقى الانسان على ظهر مركب وهو يعلم الاخطار التى يواجهها • وتساءلت أيضا كم يمكن أن تطلب شركة للتأمين على حياتى مقابل مثل هذه الاخطار ، وان كان ذلك لا يهم ، فلم أكن قد أمنت على حياتى ، ولم أشأ أن أفعل ذلك ، ولكنى كنت لا أستطيع العوم جيدا ، ولم أشأ أن أفقد الصور التى أحملها • لقد راودنى الشك مرارا فيما اذا كنت قد تصرفت بحكمة ببقائى على المركب لأرى نهاية الرحلة • وكانت المرة الاولى فى المكلا عندما أصبت بالعمى ، والمرة الثانية فى شحر ، عندما هاجمنا جماعة من البدو ، والمرة الثالثة هناك فى كوالى ، وأنا أرقب المركب ينزلق تحت وابل من المطر حتى ليكاد يغرق • ولكن لم يكن باستطاعتى الاستسلام • وما دام البحارة العرب باقين على ظهر المركب ، فلا بد أن أبقى أنا أيضا ، فربما مد الله يد المساعدة لى أيضا ، أو ، كما قال حمد ، اذا ساءت الامور جدا ، كان بامكاننا أن نستخدم القارب الطويل •

غادرنا جزيرة كوالى فى الصباح ، وقد بدأ الطقس يتحسن ، ولم يكن صديقى أنطون على ظهر المركب ، فقد كانت هناك مراكب عديدة تنتظر التفتيش والاذن بالسفر ، لذلك نزلنا الى البر فى القارب الصغير ، وأكملنا أوراقنا ، وتابعنا سيرنا دون التعرض لرسميات أخرى • ومرة ثانية بدأت السماء تمطر بغزارة ، الا أن المطر لم يكن متواصلا ، واستطعنا أن نصل بسهولة الى مكان يقع تحت الشراع الامامي لكي نستطيع نشره بسرعة • اذا ما بدا خطر يهددنا • وقد مررنا بحطام مركب مقلوب ، يبدو أنه من نوع البدن ، لابد أنه كان قد غرق فى احدى العواصف • وكانت الريح جنوبية خفيفة ، هدأت بعد الظهر ، فنشرنا الشراع الرئيسى ، وان كان الافق من حولنا ما زال مكفهرا مظلما ، الا أن بعض الانفراج فى الغيوم كان يرينا الاشرعة الجميلة لرفاقنا من المراكب الاخرى • فقد كنا نستطيع

أن نرى مركب عبد الرزاق الاحرل والبغلة « بدرى » القديمة الوقورة ، بالاضافة الى ثلاث سمابك من صور ومركبين من نوع البدن • وخلال فترة ما بعد الظهر ، كانت الشمس تبزغ لفترات قصيرة • كنا نبحر بهدوء باتجاه الشمال ، فقد كنا الان قد تخطينا أسوأ المخاطر • وفي المساء شاهدنا الانوار المنبعثة من رأس كمبيجى وقد سررنا برؤية أول أنوار ملاحية ترحب بنا ثانية بعد قضاء شهر فى ذلك الجحيم الممطر الموحل •

وفى اليوم التالى كنا قد وصلنا الى زنجبار • وبما أن تحميل الشحنة الاولى كان قد استغرق زمنا طويلا جدا ، لذلك لم يخطر ببالنا العــــودة الى روفيجى للحصول على الشحنة أخرى • وقد كنا فى شهر ابريل وهــو الشهر الذى تهب فيه الرياح الجنوبية الغربية ، ولذلك كان الوقت مناسبا لمتابعة رحلة العودة •

وصلنا زنجبار في ضوء القمر ، ودخلنا الى ممر مرسى المراكب المزدحم • وأعتقد بأن حمدا قد أدى مهمته بصورة مرضية بقيادة مركبنا الى مربطــــه خلال ذلك الزحام ، مع أن عبد الله كان ينتقده بصوت عال • وقد ألقينا مراسينا الى جانب مركب سليمان سعيد المسمى « أمل الرحمة » ، والذى لم نكن قد رأيناه منذ لقائنا فى حيفون • وحالما وصلنا الى الميناء ، وقبل أن نلقى مراسينا ، كان موسى مساعد النوخذة « أمل الرحمة » قد اعتلى مركبنا ليبلغنا الانباء • ويبدو أن تمردا صغيرا كان قد حدث فى الكويت، كما أن اشتباكا كبيرا حدث بين العمانيين من سكان صور والصوماليين فى سوق زنجبار الرئيسى • وقد احتشد بحارتنا على مؤخرة المركب لسماع الاخبار ، فيما اندفع عبد الله الى الشاطىء ليبحث عن نجدى •

الفصل الثالث عشر

في طريق العودة إلى الوطن

فى طريق العودة الى الوطن

يبدو ان الازمة فى الكويت بلغت أوجها فى شهر (آذار) ، اثناء وجودنا فى دلتا الروفيجى نحمل شحنة الاعمدة الخشبية ، عندما كان البحاره يجتمعون حولى كل ليلة ليتغزلوا بجمال مدينتهم وميناثهم ، وبالهدوء والامان اللذين يخيمان عليها • أما الان فقد أصبحوا يتجمعون ليتناقشوا فى آخر أنباء التمرد أو الاضطراب ، أيا كان نوعه ، وسرعان ما أصبح هناك عدد من الروايات يعادل عدد البحارة ، فقد كان لكل منهم رأيه الخاص فيما حدث • أما حمد بن سالم ، فقد كان يرى أن المشكلة الوحيدة التى كانت تواجـــه الكويت هى قربها الشديد من العراق ، ولكنه لم يكن يشرح ماذا يعنى بذلك الكلام على وجه التحديد • أما يوسف العجوز ، فقد كان رأيه ان الامور فى الكويت تسير على مايرام ، وان كل ما فى الامر ان العرب بطبيعتهـــــم لايستطيعون أن يعيشوا حياتهم بهدوء وسلام بعيدا عن الدس والتآمر ،فقد كانوايميلونبطبيعتهم للكيدالىشخص ما أو شىء ما ، وكانت دسائسهم أحيانا توقعهم فى المآزق ، وهذا ، بحسب رأيه ، هو ما حدث فى الكويت هذهالمرة•

وبمرور الوقت ، توصلت بالتدريج الى فهم ما حدث فى ذلك الميناء الكبير للمراكب العربية ، الذى لم تكن الفرصة قد أتيحت لى لزيارته بعد• واتضح لى أن رواية يوسف الشيرازى كانت أقرب الروايات الى الواقع ، مع أن هذا لم يعد لذكر الموضوع مرة ثانية ، بعد أن شرح وجهة نظره فى المرة الاولى • وكانت أفضل مصادرى تتكون من عبد الله ، شقيق نجدى ، وبعض الرجال الاخرين العاملين فى السوق • وكان بعض هؤلاء مطلعين ، بشكل يدعو للدهشة ، على ما يجرى على ضفاف الخليج العربى ، وفى أماكن اخرى من الجزيرة العربية ، وحتى فى أماكن بعيدة جدا عنهم كفلسطين ، بل كانوا أيضا على اتصال بالاحداث السياسية فى جميع أنحاء العالم • وقد فهمت من جميع مصادرى بأن النار تتأجج تحت الرماد فى الكويت منذ مده طويلة ، وكانت ، مثلها فى ذلك مثل كل بلدة ، واماره ، ومشيخة ، وقرية وحتى خيمة البدوى ، تعج بالدسائس والمكائد سواء فى السر أو العلانية ، الا أن الكلام والاشاعات وحالة عدم الاستقرار التى كانت سائدة فى المدينة لم تكن ، على ما يبدو ، تقلق احدا الى درجة كبيره ، على الرغم منتوافر الاسباب الحقيقية لذلك الشعور •

ويبدو أن عددا من الكويتيين وجـدوا ، بتأثير من العـراق المستقل

حديثا والسعيد باستقلاله وقوته ، أنهم لا يشاركون فى حكم بلدهم الا قليلا وعقدوا العزم على المطالبة بمزيد من المشاركة • واصبحوايعلنون عن ذلك جهارا • ولم يكن فى ذلك ضرر بالطبع ، وبمرور الوقت وافق اميرهم ، سمو الشيخ أحمد بن جابر الصباح ، أن يشكل مجلسا منتخبا للشورى • وقد انتخب المجلس بحسب الاصول ، الا انه اخذ يناكف الشيخ ، مطالبابمزيد من السيطرة على الادارة الحكومية وعلى الانفاق الحكومي ، وبخاصة الجانب الثاني • ولكن الحاكم لم يعجبه ذلك ، فقد كان راضيا بالامور على ما كانت عليه ، مؤمنا بأن الطريقة التى كانت الكويت تسير عليها معقولة ومأمونة • فعارض ما كان أعضاء المجلس يطالبون به ، فعمد المجلس الى الشعب محاولا اثارته ، ولكن رد الفعل لم يكن ايجابيا بوجه الاجمال ، فلم يكن الشعب يهتم بالقضايا الخاسرة • صحيح أن كل فرد من أفراد الشعب كان مغرما بالدسائس والمؤمرات ، ولكنهم لم يكونوا مستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل عدد من رجال الاعمال ، الذين كان الشعب يشك بأن دوافع حركتهم كانت شخصية محضة ، علاوة على أن افضل رجالات الكويت كانوا على ظهور مراكبهم فى البحر • وهكذا نشأت المشاكل ، واستمرت فترة طويلة • وكلما كانت الامور في الكويت تتجه نحو الهدوء على عادة مثيلاتها من المدن المستقرة على الخليج العربى ، كان شخص مجهول يعمل فى احدى محطات الاذاعة الخاصة فى بغداد يبدأ بايقاد النار من جديد ، واذا خبت كلية ،عمل على ايقادها مرة ثانية ، فلم يكن يكل أو يمل، بل كان يواصل عمله فى محاولة تقويض الهدوء والاستقرار فى البلاد بكل ما ملكت يداه • وقد جلب على الكويت الكثير من الاذى ، مع انى لم استطع ان اعرف من هو وما طبيعة صلته بالموضوع ، كما لم يستطع عرب الكويت ان يعرفوا شيئا من ذلك • وهكذا استمرت الازمة التى كان من الممكن ان تهدأ لولا ذلك التحريض المتواصل ، وأخذ المتآمرون يعملون من مخابئهم فى المقاهى ، وديوانيات التجار والغرف الداخلية فى بيوت بعض صغار الشيوخ • وفى احد الايام ، هب واحد من مثيرى الفتنة المحليين وتخطى الحد المتعارف عليه •• فقد استطاع بفصاحته ان يثير اهتمام افراد الشعب البسطاء بما كان يدور فى البلاد فبدأ هؤلاء يطالبون « بحقوقهم »، واخذوا يضايقون الحاكم ، ربما لان ذلك اعجبهم ، لا لانهم كانوا يضمرون له عداء حقيقيا ــ فقد كانوا يحبون شيخهم لانه كان رجلا فاضلا ــ ولكن الفرصة لا تتاح كل يوم لافراد الشعب لمضايقة الحاكم ، ولذلك فقد كان يحلو لاحدهم أن يقف فى السوق مثلا وهو يصيح قائلا : «أيها الشيخ ، لماذا لا تنفق بعض المال على هذا الامر أو ذاك؟» ولم يكن يهتم بالفعل ما هو هذا الشيء او ذاك • ولكن الصراخ فى وجه السلطة كان يجلب شعورا من السعادة للفرد العادى •

وقد تحمل الشيخ الكثير من المضايقات • فقد كان انسانا مسالما طيب

القلب ، لا يبغى اكثر من العيش بسلام مع رعيته • الا أن ذلك الانسان المشاغب بالغ في مضايقته بحيث جعل من حياته جحيما لا يطاق مما اضطره في النهاية الى اعتقاله ، والامر بضربه وسوقه عبر « السوق » الى السجن • وفيما كان يعبر السوق ، حاول بعض اصدقائه أن يثيروا شغبا لاطلاق سراحه ، وكان على رأس هؤلاء « يوسف المرزوق » من اصحاب المراكب ، ومحمد القطامى النوخذة الذى كان المجلس الاستشارى قد عينه في وظيفة ثابتة على الشاطىء فأراد الان أن يظهر امتنانه لهم بهذه الوسيلة • وكان الحرس ، وهم يسوقون السجين عبر السوق ، ينذرون « يوسف المرزوق » والاخرين بعدم التدخل ولكن هؤلاء لم يبالوا بتهديداتهم • واخيرا اضطر الحرس لاطلاق النار ، فأصابوا المرزوق في قدمه وقتلوا القطامى • ولم يكن ذلك عملا متعمدا • فقد اطلقوا النار في الهواء للانذار ، الاان هذا قفز امام الرصاصة المنطلقة فأصابته في بطنه ، وسقط مصابا بجرح قاتل • وتفرق المتظاهرون كل يحاول النجاه بجلده ، ومرت لحظات لم يكن يرى خلالها الا الغبار المتصاعد من أقدام الرجال ، وهم يجرون بأقصى سرعتهم هربا من الرصاص • وعندما انقشع الغبار كانت كميات هائلة من النعال والعباءات والكوفيات ، تغطى سطح الشارع الممتد داخل السوق المسقوف ، كما كان محمد القطامى ممددا هناك جثة هامدة ، بينما لاذ الجميع بالفرار •

هذه هي قصة « الفتنة » التي حصلت في الكويت عام ١٩٣٩(١) • ولا شك أن الدسائس والمؤامرات لم تقف عند هذا الحد ، بل استمرت مدة من الزمن ، خاصة وان كثيرا من الزعماء كانوا قد هربوا الى العراق • الا أن المواطنين الذين شاركوا في تلك المظاهرة ــ العجم ، والحمالين ، وأحفاد العبيد الافريقيين ، والبدو ــ كل هؤلاء لاذوا بالفرار عند وقوع الحادث ، ولم يعودوا حتى لاستعادة الملابس التي سقطت منهم •

وكان تعليق حمد بن سالم على الحادث أنه كان سعيدا ببعده عنه ، لأن الموضوع برمته لم يكن ، يتناسب مع بحار محترم ، فلم يكن يهم هذا من الذي يتولى الحكم بالكويت ، لأنه سيظل دائما يعمل في البحر ويجمع المال للتجار • أما اذا اختار أحدهم أن يلقى حتفه برصاص الحكم في الكويت ، فهذا من شأنه وحده • الا أن حمدا وصحبه كانوا يشعرون بالأسى لأن يكون محمد القطامي هو الضحية ، فقد كان هذا شقيق عبد الله القطامي الذي كان معروفا لديهم جميعا •

---

(١) هذه بالطبع ، هي وجهة نظر المؤلف الشخصية عن الموضوع ، وقد توصل اليها بعد أن سمع الروايات المختلفة من الناس ، ولم يرها بنفسه أو يدرس أسباب الفتنة دراسة عميقة • ولذلك فان على القارىء الا يأخذ هذا الكلام على علاته ، بل عليه أن يعود الى مصادر أخرى للاطلاع على وجهات نظر مخالفة • (المترجم) •

عندما عاد نجدي ، كان حزينا جدا لسماعه تلك الاخبار السيئة ، فقد كان محمد القطامي صديقا حميما له • ولكنه كان أكثر حزنا لما أصاب مباركا العماني الذي كان مرشدنا لدلتا الروفيجي • فقد غرمته المحكمة في « أوتيتي » ألف شلن ، وكان على نجدي أن يساهم في دفع جزء من ذلك المبلغ • الا أن أحدا لم يخبرني بنوع المكائد التي كانت وراء ذلك كله ، ولكن لم يكن من الصعب عليّ أن أخمن ما حدث • ويبدو لي أن مباركا كان محظوظا بأن ينجو بجلده بعد دفع غرامة فقط • كما أنه استطاع أن يستعيد سمبوكه ، وكان الآن في طريقه من سلالة الى زنجبار وهو يشعر بالحزن الشديد ، ولكن بعد أن اكتسب شيئا من الخبرة ، وان كنت أشك بأن ما حدث له سيمنعه من معاودة الكرة • وعلاوة على اغتمام نجدي ، وعدم رضائه عن طريقة التصرف بالمركب في غيابه ، فقد أحضر من دار السلام بعض الصور الجامدة له ، كان يعرضها عليّ بكل فخر ، على أنها قطع فنية ينبغي أن أدرسها وأستفيد من خبرة صانعها • أما اذا كان نجدي قد تخلف في زنجبار لكي يجمع بعض الركاب لرحلة العودة الى الوطن ، فقد أضاع وقته سدى ، لأنه لم يحصل الا على ثلاثة مدرسين سواحليين ، تعهد أن يحملهم معه مجانا ، اكراما لخاطر السيد سليمان •

وقد لفت انتباهي ، أكثر من الامور السياسية في مدينة الكويت البعيدة ، وأكثر من المصير الذي حل بمبارك العماني سارق الخشب ، ذلك النزاع الذي نشأ على البر في زنجبار بين بحارة ثلاث بغلات عمانية وخمسة سمابك صومالية ، وهو الذي كان يبشر أحيانا بأنه سيتطور الى اشتباك رائع ، الا أنه لم يصل الى النهاية المتوقعة • ولم يكن الذنب ذنب العمانيين في وصول النزاع الى تلك النتيجة ، فقد كانوا يتحدون الصوماليين للخروج في سمابكهم الى عرض البحر ، والاشتباك معهم في معركة جماعية خارج الميناء • وقد بدا ، لمدة يومين أو ثلاثة ، أن هذا هو ما سيحدث فعلا ، ولكن الأمر في النهاية لم يزد عن مشاجرة صغيرة جرت خلف سوق السمك • وقد أصبت بخيبة أمل شديد ، فقد كان بودي أن أشهد معركة نظيفة في عرض البحر •

وكان هذا النزاع مع الصوماليين قد بدأ بسبب خلاف بسيط على بعض المال ، الذي كان ، في هذه الحالة ، عبارة عن رزمة من العملة الايطالية الورقية ، التي كان العمانيون قد جمعوها في حيفون ، ولكنهم لم يتمكنوا من تهريبها الى الخارج ، لأن الرقابة كانت شديدة عليهم • فانبرى عدد من الصوماليين ، الذين كانوا في سمبوك قريب منهم ، وتعهدوا بالقيام بمهمة تهريب الاموال ، مقابل مكافأة معينة ، واتفقوا على ذلك •

وقد شرح العمانيون للصوماليين كيف ينبغي أن يؤدوا المهمة . فكان عليهم أن يدسوا رزم الاوراق المالية في قطع مجوفة من عصي الخيزران ، يقفلونها جيدا ، ثم يضعونها في جرار فخارية ، ويملأون الجرار بالسمن ، وبهذا لا يمكن أن يكتشفها أي ضابط من ضباط الجمارك . وسلم العمانيون الاوراق المالية بالفعل الى الصوماليين ، بالاضافة الى قطع الخيزران وجرار السمن ، ثم اعتلوا ظهور بغلابهم وغادروا الميناء . وبعد مدة من الزمن ، قابلوا الصوماليين في زنجبار ، وكانت علامات النعمة بادية عليهم ، الا انهم ادعوا بانهم غير قادرين على رد المال ، لأن قطع الخيزران التي وضعت فيها الاوراق المالية قد تحللت داخل جرار السمن ، فتلفت الاوراق جميعها . وقد تظاهروا بالحزن الشديد لهذا الحادث المؤلم .

ولكن العمانيين ، كما كان متوقعا ، لم يقتنعوا بكلام الصوماليين ، وهاجموهم في وسط أسواق زنجبار المكتظة بالناس ، وانهالوا عليهم بالضرب المبرح . وكان من الممكن ان يقضوا عليهم تماما لولا تدخل الشرطة السواحليين الذين كانوا يعملون في الاوقات الرسمية . وكان من واجبهم أن يفعلوا ذلك خوفا من أن يتطور الشجار الى نوع من الشغب الخطير الذي لا يمكن التكهن بنتائجه . وقد قام هؤلاء الرجال الرسميون بقيادة أفراد الفئتين المتنازعتين الى قواربهم الواقفة على الشاطىء ، وطلبوا منهم العودة الى مراكبهم وعدم مغادرتها أو النزول الى البر ثانية لاستئناف القتال ، والا فسيزج بهم جميعا في غياهب السجون . ولم يكن هذا الانذار ليردع العمانيين ، الذين لم يكن السجن في زنجبار شيئا في نظرهم ، كما أنه لم يقلق الصوماليين . ولكن ما أقلق هؤلاء بالفعل هو علمهم بأن عدد العمانيين الموجودين في زنجبار يفوق عددهم ، وأنهم اذا نزلوا الى البر ثانية ، فربما حدثت مذبحة كانوا هم ضحاياها . فما كان منهم الا أن عادوا الى سمبوكهم الحقير ، وسحبوه الى أبعد نقطة في مرسى المراكب الوطنية ، وقبعوا هناك بانتظار أن تنضم اليهم باقي السمابك الصومالية الاخرى ، بعد أن تنتهي من تحميل بضاعتها .

وكانت هذه هي المرحلة التي بلغها النزاع عندما وصلنا الميناء عائدين من سلالة . فقد وجدنا الصوماليين يقفون مشدوهين في سمبوكهم في أقصى اطراف الميناء ، بينما تتحلق وتحوم حولهم السمابك والبغلات العمانية ، وبحارتها يحضونهم على الخروج الى عرض البحر ، ومقابلتهم في معركة فاصلة بعيدا عن الشاطىء ، حيث لا تستطيع الشرطة الزنجبارية التدخل . وقد أخذت أراقب الوضع بضعة أيام باهتمام بالغ ، لأرى ما اذا كان الصوماليون سيقبلون التحدي ، بينما كان جميع من على ظهر المراكب

الراسية هناك يتفرجون ، وقارب الشرطة يقوم بأعمال الدورية ليمنع أي اشتباك يمكن أن يقع داخل الميناء • وأخيرا تجمعت ستة سمابك صومالية ، يعتلي ظهورها بحارتها المعروفون بصخبهم ، وطيشهم ، ووقاحتهم • وكان عدد بحارتهم كبيرا جدا ، الا أنه كان بينهم عدد من الصبية ، كما كان الامر بالنسبة للعمانيين أيضا • لقد كانوا متكافئين تماما • ولكن الايام كانت تمر والعمانيون يحومون حول مراكب الصوماليين ، ويدخلون بينهـا ، ويحتكون ببحارتها لعلهم يستجيبون للتحدي ، وكان عدد مراكبهم خمسة مقابل ستة لدى الصوماليين ، أي أن المعركة ، لو قامت ، ستكون متكافئة • ولم يكف العمانيون صباحا وظهرا ومساء عن ملء الميناء بصراخهم ، وهم يطلقون التهديد والوعيد ، ويحضون الصوماليين على الخروج الى عرض البحر ، الا أن هؤلاء لم يحركوا ساكنا • وأخذت الايام تمر ، دون أن تبدر منهم بادرة استجابة للتهديد والوعيد • ومر أسبوع كامل ، والصوماليون قابعون في مراكبهم الراسية • يعلو وجوههم التجهم والكآبة ، ولكنهم لم يتحركوا قيد شعرة • بينما أخذت المراكب العربية والفارسية والهندية تغادر الميناء مرغمة في رحلة العودة الى الوطن ، دون أن يتمكن بحارتها من مشاهدة الطريقة التي سيحل بها ذلك النزاع ، ويمتعوا انظارهم بما سيتمخض عنه الامر • وأخيرا اضطرت بغلتان من بغلات العمانيين للاقلاع في صباح اليوم العاشر ، لعل العدد الصغير المتبقي من المراكب يغري الصوماليين بالاقلاع أيضا • ولكن الصوماليين كانوا يشكون بأن في الامر خدعة ، وأن المركبين العمانيين ربما كانا يتربصان بهم خارج المرفأ ، في مكان ما من قنال زنجبار الضيق • ولذلك لم يحركوا ساكنا ، وظلوا قابعين في أماكنهم •

وفي تلك الاثناء ، بدأت الرياح الموسمية الجنوبية الغربية تهب بقوة تزداد يوما بعد يوم ، فكانت الرياح القوية تهب أحيانا على الميناء القديم حاملة معها زخات من المطر ، وأصبح من الواضح أن العمانيين والصوماليين على السواء مضطرون للسفر في وقت قريب • أما المركبان العمانيان ، اللذان كانا قد أبحرا من قبل ، فلا بد أن الريح قد دفعتهما بعيدا الآن ، هذا اذا لم يكونا مختبئين على شاطىء جزيرة « بمبا » • وحتى لو حاولا ذلك ، فان السلطات لم تكن لتسكت عنهما • وأخيرا اغتنم الصوماليون الفرصة ، في احدى الليالي العاصفة الماطرة ، عندما كان العمانيون الباقون منهمكين في تثبيت مراسيهم ، وأنطلقوا من الميناء ناجين بجلودهم ، دون أن ينتبه العمانيون لاقلاعهم • وعندما أصبح الصباح ، أخذ العمانيون يندبون حظهم العاثر • ومع أنهم أقلعوا في الحال في أثر الصوماليين ، الا أنه كان من المشكوك فيه جدا أن يتمكنوا من اللحاق بهم ، والدخول معهم في المعركة التي كانوا ينتظرونها • فلم يكونوا يجرؤون على مطاردتهم وادراكهم في ميناء

ايطالي ، كما لم يكن باستطاعتهم أن يدركوهم قبل ذلك بسبب قوة الريح الجنوبية الغربية . لقد كان سوء الحظ حليفهم .

مكثنا في زنجبار هذه المرة اسبوعين لم يحدث شيء هام خلالهما ، فقد بعنا حوالى عشرين عارضة خفيفة ، مما كان في أعلى حمولتنا ، الى أحد الهنود المقيمين بعد أن عرض سعرا مناسبا . كما حاولنا مرة ثانية أن نتخلص من « عفرة » ، ذلك المركب الصغير الذي كان قد اتسخ وتأثر من عمله في دلتا الروفيجي ، مما اضطرنا الى انزاله الى الشاطىء وتنظيفه . ولكن أحدا لم يقبل على شرائه ، ولذلك فقد اضطررنا الى تركه على رمل الشاطىء ، في عهدة وكيل المراكب العربية . أما بحارتنا ، فقد اعطي كل منهم بضع شلنات ، متعوا أنفسهم بها بالطريقة المعروفة . الا أنهم هذه المرة كانوا أحرص من قبل على نقودهم ، بعد أن انتهوا من تهريب بضائعهم جميعها ، ولم تعد هناك وسيلة للحصول على مزيد من المال . فلم يكن الكثيرون يذهبون للبحث عن الفتيات الجميلات ، وبدلا من ذلك ، أخذوا يشترون بعض البضائع المصنعة ، التي كان معظمها من صنع اليابان ، ليأخذوها هدايا لأسرهم في أرض الوطن . وكانت أحبها اليهم : « خشاخيش » الاطفال ، والالعاب البسيطة ، بالاضافة الى شفرات الحلاقة لأنفسهم ، ومصابيح الجيب الرخيصة ، وولاعات السجاير ، والاطباق والاكواب الصغيرة ، كما لم يكن أحد منهم ينسى شراء المواد المعطرة التي تعطي نكهة خاصة للشراب .

وسواء في الروفيجي أم في زنجبار ، فقد كان البحارة ينهمكون في أوقات فراغهم بتعبئة عصير الليمون في زجاجات . وكان الليمون متوافرا بكثرة في كل مكان ، وكانوا يعصرونه على وتد خشبي ، ويحفظون العصير باضافة قليل من الملح اليه . وقد أصبح لدينا مئات من هذه القوارير من عصير الليمون ، محفوظة في كل مكان يتسع لها على ظهر المركب . وكانت هذه القوارير خاصة بالبحارة ، كما كانت تقاليد المراكب العربية توجب توفير الاماكن اللازمة لها على المركب . وكان السواحليون الفقراء يحضرون لنا القوارب المملوءة بالليمون ، ونحن في دلتا الروفيجي ، واحدا بعد الآخر ، كما كان الليمون موجودا بوفرة كبيرة في زنجبار أيضا . ولم يكن ثمن القارب المملوء بالليمون يزيد عن شلن أو شلنين . كما كان جميع البحارة يشاركون في هذا العمل . أما القوارير ، والسدادات ، وحتى الصناديق اللازمة لصف القوارير ، فقد كانت جميعها قد اشتريت وجلبت من عدن . وكانت القوارير تنظف بشكل سريع بماء النهر ، كما كان البحار من آن لآخر يضيف قليلا من الملح على حبة الليمون ويمص عصيرها

على أساس أنها نوع من الفاكهة • وقد حاولت أن أفعل ذلك مرة ، فوجدت طعمها كريها للغاية ، وغير مستساغ ، ولا يشبه طعم الفاكهة أبدا ، الا أن البحارة كانوا يحبونها حبا جما • وكان ثمن القارورة من عصير الليمون يبلغ ثلاث آنات أو أربع في أسواق الكويت ، حيث يمزج العصير بالمـــاء ويستعمل لصنع الشراب • لقد كانت تجارة مربحة •

وخلال زيارتنا الثانية هذه ، كان ميناء زنجبار مزدحما جـدا ، لأن المراكب كانت تتجمع فيه استعدادا لرحلة العودة الى الوطن • فكان بينهـا مراكب الصوماليين العائدين الى حيفون وبربرة واريتريـا ، ومراكـب العمانيين الذين يحملون البضائع لنقلها الى ساحل المهرة والى ميناء صور ، والفرس الذاهبين الى أي مكان ، والهنود القادمين من مدغشقر وأماكـن أخرى ، والذين يمرون بزنجبار ليتزودوا بماء الشرب قبل أن يباشـروا رحلة العودة الطويلة الى بومباي ، وجـوا وخليـج كـوتش ، والكويتييـن العائدين من الروفيجي الى الخليج العربي وخليج عمان • كما كانـت هناك المراكب الحضرمية الصغيرة ذات الطرفين المتشابهين ، التي كانـت تبدو كأنها لا تصلح حتى للسفر في الانهار الصغيرة ، وهي تستعد للعودة الى سيحوت • لقد أحصيت في أحد الايام اثنين وسبعين مركبا من أنواع مختلفة راسية في الميناء ، دون أن ادخل في الحساب زوارق الســواحليين واللامويين الصغيرة • وكان نصف تلك المراكب على الاقل لا يزيد طول الواحد منها عن خمسين قدما ، كما كانت جميعها محملة بشحنات ثقيلـة جدا • ومع ذلك فمن المحتمل أن تصل جميعها الى وطنها سالمة •

عندما مرت عشرة أيام على وجودنا في زنجبار ، وأصبح البحـــارة يتململون بسبب تأخرنا في الاقلاع ، أخذنا شحنة من جوز الهند وضعناها بين الاعمدة الخشبية ، كما حملنا بضعة أكياس من القرنفل ، وعددا قليلا من صناديق الصابون ، وبعض البراميل المملوءة بزيت جوز الهند ، ومائة علبة من الشعيرية • وبهذه الحمولة ، وفوقها قارب النجاة ، أقلعنا مـــن زنجبار عصر يوم الجمعة الموافق الرابع عشر من ابريل (نيسان) متجهين ، حسبما فهمت من الاوامر ، الى مسقط مباشرة • وكانت بغلة بدر المسماة « بدري » والراسية بجوارنا في الميناء ، سترافقنا في سفرنا ، وعندمـــا مررنا بها ، كانوا يرفعون شراعها الرئيسي • وقد علقنا فانوسا مقاومــا للعواصف على سارية العلم في مؤخرة المركب لِنَدُل « بدري » على مكاننا ، وانطلقنا بمساعدة ريح جنوبية معتدلة السرعة عبر الممر الانجليزي فـــي طريق العودة • وكنا قد أركبنا معنا المدرسين السواحليين الثلاثة ، الذين عانقهم السيد سليمان عناقا حارا عند وداعه لهم ، كما عانـق قبطاننـــا

نجدي الذي بدا عليه التأثر الواضح · وكان عبد الله قد سبقنا في احدى البغلات الى « لامو » ليعود الى الوطن عن طريق موقاديشو ، حيث يصفي بعض الحسابات والديون · لقد كان عددنا جميعا ثلاثين شخصا عندما غادرنا زنجبار ، وكلنا أمل بأن نصل الى الجزيرة العربية بسلام ·

وفي الصباح كنا نبحر مقابل الطرف الشمالي من جزيرة « بمبا » ، التي كان بامكاننا أن نراها على يميننا ، بينما كان ساحل تنجانيقا على يسارنا · وعندما بحثنا عن المركب « بدري » ، لم نعثر له على أثر ، بل أننا لم نره قط طوال رحلتنا الى الجزيرة العربية · وكانت الريح تهب نشطة من الجنوب الغربي ، فكان مركبنا يسير سيرا ممتازا باتجاه الشمال ، على الرغم من حمولتنا الثقيلة ، بينما امضى البحارة فترة الصباح وهم منشغلون باعادة ترتيب أكياس جوز الهند التي أتينا بها من زنجبار ، وتحزيمها بالحبال الغليظة ، بتمريرها فوقها ، ثم مدها على طول البضائع المبسوطة على السطح الرئيسي ، وذلك للمحافظة عليها في أماكنها عندما يشتد اهتزاز المركب · كما كانوا يضعون علب الشعيرية والاشياء الاخرى في الاركان والفجوات التي يمكنهم أن يعثروا عليها بين الاعمدة الخشبية ، في المساحة الكائنة تحت سطح المؤخرة · وقد كانت الشعيرية تشكيلة غريبة تمكن نجدي من شرائها بأسعار رخيصة جدا ، بواسطة صديق للسيد سليمان، وكان يأمل أن يجني ربحا وفيرا من بيعها في مسقط أو في الكويت · ويبدو أنها كانت جزءا زائدا من شحنة جيء بها الى زنجبار لبيعها للسواحليين خلال شهر رمضان · أما بقية السلع المختلفة التي كانت معنا ، كالصابون المبرقش ، والصابون الرخيص ذي الرائحة العطرية القوية جدا ، وبراميل زيت جوز الهند ، وعصير الليمون ، وأكياس القرنفل ، فقد أكدوا لي أنها ستلاقي سوقا رائجة لها في بلاد العرب · وفي الواقع اننا بدأنا نستعمل محتويات أحد أكياس القرنفل بدون ابطاء ، فمنذ اقلاعنا أصبحت القهوة التي نشربها تعطر بالقرنفل بشكل دائم · ومع أني لم أعجب بهذه القهوة المعطرة ، الا انه كان من الجلي أن العرب يميلون اليها ·

وكانت السقيفة التي كنا قد اقمناها فوق سدة النوخذة في المؤخرة ، ما زالت صامدة · فقد كان بناؤها جيدا ، وكانت تساعد على حمايتنا من المطر طالما كانت الرياح الجنوبية الغربية هي التي تدفعنا من الخلف · أما البحارة فقد كانوا يصنعون لانفسهم نوعا من المأوى البسيط ، بأن يمدوا جزءا من الشراع الصغير على اسفل العارضة الصغيرة ، وينامون هناك على الحبال بين القارب الطويل وقارب النجاة · وكانت تلك الحبال مصنوعة من الخيوط القاسية الخشنة · ولم تكن تصلح بحال من الاحوال لأن تكون

فراشا مريحا . الا أن الرجال كانوا على الرغم من ذلك ، يستغرقون في النوم عليها ، دون أن تصدر منهم أية شكوى . ولكننا عندما كنا نضطر لنشر الشراع الصغير لمساعدتنا في الابحار ، كان البحارة يظلون بدون مأوى يلجأون اليه ، الا أننا لم نلجأ الى ذلك الا بعد أن كان موسم الامطار قد انتهى .

في بداية الرحلة ، كانت الريح تهب بسرعة معتدلة ، وكنا نسير سيرا حسنا بمعدل ثماني عقد في الساعة ، على ما أعتقد . وكان نجدي يقدر سرعتنا بعشر عقد ، وان كنت أشك في ذلك ، ولكن لم تكن هناك وسيلة للتثبت من ذلك . وبعد مضي تسع عشرة ساعة على مغادرتنا زنجبار ، كنا نبحر مقابل ممباسا ، ولم يكن هذا سيئا أبدا . الا أني وجدت صعوبة في قبول تقديرات نجدي المتفائلة بأنه لن يحتاج لأكثر من ستة عشر يوما ليصل الى مسقط . وقد أدهشني أنه لم يحاول قط أن يخطط لرحلة تتجه الى خليج عمان مباشرة ، كما كنت افعل لو كنت قائدا للمركب . وبدلا من ذلك ، كان لا يبتعد عن الشاطيء قط في رحلة العودة . وهو ما فعله بالضبط في رحلة القدوم الى افريقيا أيضا . فقد أتينا من الجزيرة العربية وجعلنا افريقيا على يميننا ، وها نحن نعود وافريقيا على يسارنا ، وكان هذا هو الفرق الوحيد من الناحية الملاحية . هذا مع العلم أن المسافة المباشرة من زنجبار الى خليج عمان تبلغ حوالى ٢٢٠٠ ميل ، أما المسافة على محاذاة الشاطيء فانها تزيد بما لا يقل عن ٣٠٠ ميل . ولكن « نجدي » أكد أنه سيبحر قريبا من الشاطيء طوال الرحلة ، فقد كانت هذه هي الطريق الوحيدة لتلك الرحلة ، بحسب قوله ، وكأن البحر طريق للسيارات . ولم يفكر أبدا بالابحار مباشرة عبر المحيط ، فقد كان يعرف طريقه جيدا ، ولا يجد داعيا للمغامرة التي لا يعرف نتائجها الا الله . وكان العرب جميعهم يبحرون بمحاذاة الشاطيء ، سواء في طريقهم من الجزيرة العربية الى أفريقيا ، أو في طريق العودة . ولم تكن المسألة مسألة ملاحية فنية (فلم يكن باستطاعة نجدي أن يحدد موقع مركبه بأية وسيلة سوى الرؤية بالعين المجردة) ، ولكنه كان يعرف الرياح والتيارات الموجودة بمحاذاة الشاطيء ، وكان ذلك في رأيه أكثر أهمية من توفير بضع مئات من الاميال ، لا تقدم ولا تؤخر .

وكان لا بد لي من الاعتراف بأن في كلامه كثيرا من الصواب . فقد كان نجدي ، باتباعه الطريق القريب من الشاطيء ، يتوخى السلامة . فلم يكن مركبه الكبير ، وعلى ظهره تلك الحمولة الثقيلة ، يقوى على مواجهة الامواج العالية ، لأن بضع موجات عاتية تطغي على المركب اثناء سيره كانت

على الحبال ←



كافية لاغراقه • فاذا حصل ذلك وهو قريب من الشاطىء ، أمكن استخدام قارب النجاة والوصول به الى الشاطىء ، ولكن ذلك غير ممكن لو كان المركب في وسط المحيط • وكانت خطة نجدي ، كما شرحها لي ، هي أن يبحر بمحاذاة الشاطىء الى أن يصل الى رأس عسير ، ومن هناك يقطع المحيط مباشرة الى الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ، جاعلا جزيرة سوقطرة على يمينه ، كما فعل في رحلة القدوم ، ثم يلتصق بالشاطىء ثانية ، مارا بحضرموت ، وساحل المهرة ، وسواحل عمان الى أن يصل الى رأس الحد • وقد عبرت عن دهشتي لأن يكون قبطان عربي كنجدي ، بعد كل تلك القرون من الملاحة العربية عبر المحيطات ، جاهلا جهلا تاما بالملاحة الفلكية ، مع أنه قضى عمره كله ، وهو يقوم بالرحلات البحرية الطويلة • وقد أجاب بأنه كان قادرا على السفر على طريقته ، لا الى سواحل أفريقيا فحسب ، بل والى سواحل الهند أيضا • ولكنه اعترف بقصوره ، وبشعوره بالاسى لما طرأ على فنون الملاحة العربية من انحطاط ، الا أنه ، كعادته ، عزا ذلك الى التأثير السيء للاوروبيين ، الذين كانت منافستهم للعرب عنيفة وغير متكافئة ، مما لم يترك لهؤلاء فرصة للخيار سوى القيام بتجارتهم الساحلية •

لقد كنا على وشك الغرق في الليلة الثانية لمغادرتنا زنجبار ، وشعرت بالسعادة لأنا لم نكن بعيدين عن الشاطىء • وكنا في الليلة الاولى قد واجهنا نموذجا بسيطا لما كانت تخبئه لنا الاقدار ، عندما تعرض المركب لبضع هبات قوية من الريح المصحوب بالمطر ، أثناء مروره بمياه مالندي المضطربة • فقد بدأ المركب يهتز بشيء من العنف ، وبدأت مياه الامواج العالية تصل الى سطح المركب من الناحيتين • ومع أنها لم تكن قوية ، الا أنها جعلت البحارة ينشغلون بنزح الماء من القاع كل ساعة • كما كان الرذاذ يتصاعد أحيانا عندما كان الموج يرتفع ، فيغطي سطح المؤخرة • ولكن قوة الماء كانت ضعيفة ، فقد كان البحر عاليا ومضطربا بعض الشيء ، ولكنه لم يكن خطرا حقيقيا • وفي احدى المرات ، عندما كان يمر بنا ريح عاصف ، تمكن الموج من انتزاع قارب النجاة من فوق ركائزه ، وكان يهدد بانتزاعه من المركب كلية • ولكن البحارة سرعان ما رفعوه من مكانه ، ووضعوه فوق البضاعة على السطح • وكلما اهتز المركب بشيء من العنف ، كانت الصناديق المصفوفة على سطح المؤخرة تبدأ بالانزلاق من جانب الى آخر فتحدث ضجة كأنها دوي عشرات من المدافع • ولم يكن نجدي يزيد عن أن يقول « الله كريم » وهو يبتسم • ولكن الخوف كان باديا بوضوح على وجوه المدرسين الزنجباريين • كما كان القلق يبدو على وجه حمد ابن سالم • وطالما كان الماء يرتفع فيغطي سطح المركب ، فقد ظل البحارة مشغولين بنزحه من القاع ثلاث ساعات متوالية وهم يعملون بكل طاقتهم •

ولكن الريح سرعان ما خفت حدتها ، وتمكنا من عبور تلك المنطقة من المياه المضطربة ٠ فقد كانت تلك المنطقة ملتقى لعدد من التيارات ، وكان البحر ، كعادته ، سيئا في مثل هذه المناطق ٠ وكان المركب ، تحت تلك الظروف ، يعلو ويهبط بشكل عنيف ، وكان الصاري الرئيسي يتعرض لضغط شديد جدا حتى اننا كنا نضطر ، في أسوأ تلك العواصف ، الى انزال العارضة الرئيسية الى منتصف المسافة ، لتخفيف الضغط عن الصاري وعن الشراع على حد سواء ٠ ولكن المركب صمد صمودا حسنا ، اذا أخذنا الامور كلها بعين الاعتبار ٠ لقد كان المركب قويا ، وكانت نقاط ضعفه ، التي لاحظتها في ذلك الوقت ، كما كانت دائما ، تكمن في حمولته الزائدة عن طاقته ، وفي عدم توفير الاحتياطات الاساسية الاولية له ، سواء كان ذلك على يدي بناته ، أو قبطانه ، أو بحارته ٠ فقد تمكنت الصواري والاشرعة والحبال من تحمل الضغط ، ولم نصب بأي أذى في تلك الليلة الاولى ، فيما عدا ابتلال عدد من الصناديق ٠

وفي الصباح ، أخذت أتساءل عما حل بالمركب « بدري » في تلك الليلة العاصفة ٠ وعندما لم نستطع أن نعثر له على أثر ، خشيت أن يكون قد غرق ٠ فقد كان موسقا بشكل يفوق مركبنا ، كما أنه كان يحمل الشحنات الثقيلة مدة تزيد عن خمسين عاما قبل أن يبنى « فتح الخير » ٠ لقد كان عيب تلك المراكب في نظري أنها غير قادرة على مواجهة البحار العالية ، وقد خيل الي أنها سرعان ما تتحطم قطعا صغيرة لو واجهت طقسا عاصفا بالفعل ، كتلك الظروف التي تسود مناطق المحيط الواقعة بين خطي العرض أربعين وخمسين ، أو شمال المحيط الاطلسي ، أو تلك العواصف الهائلة التي تسيطر على اقصى البحار الجنوبية ، والتي كان على المراكب الشراعية الاوروبية ، ذات الاشرعة المربعة ، أن تواجهها في جميع رحلاتها ٠ صحيح أن الشراع الوحيد القائم على المركب العربي يقوم بعمله على افضل وجه في الظروف الممتازة ، التي تهب فيها الرياح الموسمية بدون اعاصير ، الا أنه مصدر أكيد للخطر تحت أية ظروف أخرى ٠ وانه لمركب سيء ذلك الذى لا يجرؤ على اعتلاء موج البحر ، الا اذا توافرت له الظروف الممتازة بشكل مستمر ٠

فى الليلة التالية مباشرة ، ونحن نبحر مقابل شاطىء كيسيمايو ، واجهتنا نفس الظروف السابقة ، من بحر مضطرب ورياح عاصفة مصحوبة بالامطار ٠ وهنا لم تكن العواصف شديدة فعلا بالنسبة لمركب قوى صالح لركوب البحر ، فقد كان بامكانى مثلا أن أمر من خلال تلك العواصف جميعها فى مركبى « جوزيف كونراد » ، وأنا أنشر أعلى الاشرعة على الصارى

الرئيسي . وكانت هبات الريح سيئة هذه المرة ، مصحوبة بالبرق وبضجة عالية . وكان البحر مرتفعا ، وأمواجه يعلوها الزبد الابيض الذى كانت تنعكس عليه الانوار الآتية من ومضات البرق . لقد كانت التجربة هـذه المرة أسوأ من سابقتها بكل تأكيد . وحوالى منتصف الليل ، زادت حدة الاعصار ، وفجأة انقلبت الريح وأصبحت تهب من الجهة الشمالية الغربية ، يصحبها مطر غزير مخيف ، وأخذ الرعد يهدر ، والبرق يلمع فيضيء سطح المركب ، والامواج ، رغم انخفاضها ، تتكسر على جنبات المركب ، فترسل رذاذها الى السطح وهو يلمع بنور أخضر . لقد كانت الريح فعلا تهب من الجنوب الغربى ، وأحيانا من الغرب ، وتزداد نشاطا . وكنا فى هذه المرة على الاقل نعرف موقع المركب تماما ، فقد كنا قد شاهدنا أنوار كيسيمايو بعد الغروب بقليل ، أى بعد مغادرتنا لزنجبار بثمان وأربعين ساعة . وكانت الرياح الغربية تحمل معها المطر . الا أن سرعتها قفزت فجأة ، وازدادت ثمانى درجات فى احدى الهبات المفاجئة السيئة جدا ، والتى لم تكن تتكرر كثيرا . وكما هو الحال فى جميع المراكب ذات الشراع المثلث ، يجب أن يكون الشراع فى عين الريح . ولذلك أصبح من الضرورى ، عندما تغير اتجاه الريح فجأة ، أن تنزل العارضة ثم ترفع ثانية . وكانت هـذه عملية صعبة حتى تحت الظروف المؤاتية ، فما بالك بظروف غير مؤاتية كالتي كنا فيها ! ولاتمام هذا العمل ، كان من الضروري أن يصبح الشراع المربوط اليها طليقا ، وخارج السيطرة عمليا ، لأنه كان من اللازم أن تصبح العارضة متعامدة مع الصارى ، ثم تلف الى الجهة الاخرى ، بينما يقوم الشراع بأكمله بالدوران حول الصارى فى نفس الوقت . وكانت هذه العملية شبيهة بمحاولة طى مشمع يغطى كومة ضخمة من القش فى أثناء عاصفة ماطرة هوجاء ، ان كان ذلك ممكنا بالفعل ، أو شبيهة بمحاولة طى جناحى طائرة كبيرة بحيث تتلاقى أطرافها أثناء الطيران ، أو شبيهة بمحاولة قلب خيمة « سيرك » ضخمة جدا فى أثناء اعصار بحيث يصبح باطنها خارجها ، دون أن يكون بها من الحبال ما يمكن السيطرة عليها بها .

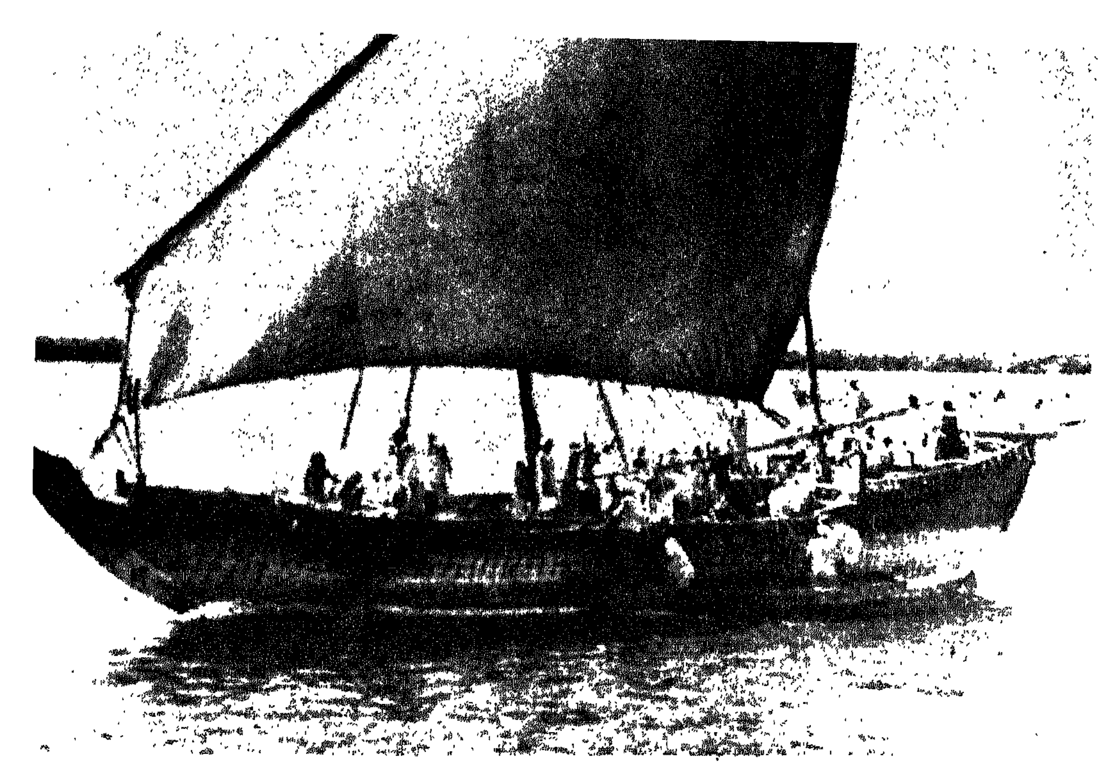
ومما كان يزيد العملية تعقيدا أن المركب كان يرتفع وينخفض بشكل عنيف ، وأنه كان من المحتمل جدا أن يتعرض لخطر الانقلاب والغرق ، وأن الانوار لم تكن متوافرة فيما عدا تلك الومضات الناتجة عن البرق من آن لآخر ، وأن البحارة لم يكفوا لحظة واحدة عن الغناء بصوت عال حتى خلال تلك الازمة التى كنا نمر بها ، بل كانوا يحدثون ضجة كبيرة جدا تمنعهم من سماع الاوامر الصادرة اليهم . وكانت الريح تزأر ، والامطار تنهمر بغزارة وعنف ، والامواج تهدر وترتفع حتى تتكسر على سطح المركب . كما انخلعت الصناديق ، التى كانت على سطح المؤخرة من الحبال التى كانت قد ربطت بها بطريقة غير محكمة فى الليلة السابقة ، وأخذت تنزلق من جانب

الى آخر محدثة دويا هائلا • أما القارب الطويل ، وقارب النجاة ، فقد كانا يهتزان بعنف وهما قائمان فوق الحمولة جميعها ، كما كانت حبات جوز الهند المنفلتة من أكياسها تتدحرج من مكان الى آخر ، وأعواد خشب المانجروف تتحرك من أماكنها مع حركة المركب ، بحيث لم يعد فى المركب كله مكان آمن يمكن أن يؤدى فيه الفرد أى عمل على الاطلاق • ثم أن أنوار البوصلة كانت قد انطفأت ، كما كان يحصــل فى مثل هــذه الظروف عادة على أى مركب ، وانفلت الشراع بعد أن افلتت الحبال الوحيدة التى تمسك به ، ولم يكف الصارى عن الصرير والانين وهو يتحمل ذلك الضغط الهائل الذى كان يرزح تحته ، كما كان قماش الشراع يصطفق بعنف فيصدر صوتا كهــدير الرعد ، أما نجدى فقد كان يزأر ويهدر بصوت يحاول أن يجعله مسموعا فى تلك الفوضى العارمة • وخلال هذا كله لم يتوقف البحارة ، وهم يحاولون القيام بمهامهم ، عن الغناء ، الذى كانت تتخلله أحيانا صيحات بحار مســكين أطاح به عمود خشبى تحرك من مكانه ، أو بحار آخر تعثر باحدى حبــات جوز الهند فانزلق وسقط على الارض • أما القرد يميد ، الــذى كــان يرافقنى دائما ، فقد انطلق من عقاله ، وأخذ يتسلق الصارى حتى وصل الى قمته ، وهناك تعلق وهو يثرثر كمن فقد عقله •

ومما زاد الطــين بلــة أن قمــاش الشراع الكبير بأكمله ، الــذى كان يصطفق بعنف بفعل الريح ، قد التف حول الصارى والعارضة كليهما ، وأخــذ يصـــدر أصواتا كأصوات المدافــع ، ويتـــلاطم ويتمزق اربا ، بحيث أصبح من العسير جدا أن تخفض العارضة وينزل الشراع • وخلال ذلك كان المركب يهتز ويتأرجح كأنه فراشة فى مهب الريح ، بينما كانت الامواج تهاجمه بلا شفقة أو رحمة ، حتى خيل الى أن لا مناص للمركب من أن يستسلم لمصيره المحتوم • الا أن « فتح الخير » كان يقاوم ، وكأنــه يعرف أنه فى خطر داهم يهدد حياته وحياة كل من على ظهره • فعندما كان البحر الهائج المزبد يهاجمه من أحد جانبيه ، كان يرفع ذلك الجانب ليواجه الموج ، بحيث يصد الهجوم القاتل ولا يسمح الا لشىء من الرذاذ بالوصول الى السطح ، مع أن الماء كان يصل أحيانا الى منتصف المسافة بين ســطح المركب وأعلى الصارى الرئيسى• وكذلك كان المركب ، عندما يغطس حيزومه فى الفراغ الناتج عن احدى الموجات ، وتهاجمه موجة عارمة جديدة يمكن أن تغمره حتى منتصفه ، يرفع رأسه عاليا مرة ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، ويتمكن دائما من تفادى ضغط الامواج الهائل ، كأنه حصان أصيل ، وعدم السماح لها بأن تغمره أو تتغلب عليه ، أو حتى بأن ترسل بجزء من ثقلها الهائل ليغمر السطح • وكان الله فى عوننا ، لو كان المركب سمح لهــا بذلك •

وواصل المطر فحيحه وهو يصطدم بسطح البحر المائج ، كما واصل الشراع اصطفاقه وهديره ، الا أن ذلك كان سبب نجاتنا ، في الغالب · لأن الشراع ، بعد أن تعب من الخفقان الشديد ، انفلت من العارضة والصاري ، مما جعل بأمكاننا أن ننزل العارضة انزالا كاملا الى أن استقرت على سطح الحمولة ، دون أن نكترث لطي الشراع الذي كان قد تمزق معظمه · أما وقد تم ذلك ، فلم يكن هناك داع لاعداد شراع آخر في الحال ، بل ظللنا على ذلك الحال طوال الليل · الا أن ذلك الاضطراب الهوائي غير العادي ، الذي سبب لنا كل هذا الخطر لم يستمر طويلا ، وسرعان ما انقلبت الريح ، وأصبحت تهب من الغرب بسرعة أقل بكثير من قبل · وكان هذا مناسبا لنا · فقد كان بامكاننا أن نهدأ قليلا ، ونترك المركب ينجرف بعيدا عن الشاطىء · وفي الساعة الرابعة ، عندما بدأت أول خيوط الفجر تظهر لتضيء السماء المظلمة ، كان نجدي قلقا لئلا نكون قد انجرفنا كثيرا بحيث لا يعود بامكاننا أن نرى اليابسة ، ولذلك فقد أمر برفع أصغر جزء من الشراع الرئيسي ، وهكذا تابعنا سيرنا ، بعد أن خف ضغط الهواء ، وتلاشى الاعصار الذي سبب لنا كل تلك المشاكل · كما أننا كنا قد تخلصنا من المياه المضطربة ، وكانت الامواج تتجه ، حسبما هو متوقع في مثل هذا الموسم ، من الجنوب الغربي ، وان كانت ما زالت عالية بعض الشيء ، مما جعل المركب يواصل اهتزازه وتأرجحه ، ولكن بشكل معقول ، بينما كان البحارة ينشرون بقايا الشراع على السطح الرئيسي لتجميفه ، والقرد ، الذي كان لا يزال متشبثا بأعلى الصاري ، يثرثر بحبور ·

وكانت هذه هي المرة الاخيرة التي نصادف فيها الطقس السيء · ولم نضطر للتوقف وانزال الشراع مرة أخرى · وقد كنت مهتما جدا بمراقبة سلوك المركب في مثل هذه الظروف ، فقد كانت تلك الازمة قريبة جدا مما يمكن أن يسمى طقسا سيئا بالنسبة للملاحة · لقد ظل المركب ثابتا في مكانه تقريبا ، والدفة مرخاة ، والشراع منزلا ، وكانت مؤخرته العالية سدا منيعا في وجه الامواج ، وكان سلوك المركب جيدا في البحر بوجه الاجمال · حتى السطح الرئيسي لم يعد يبتل · وعلى الرغم من عدم وجود الشراع ، لم يكن المركب منطلقا من عقاله ، بل ظل من الممكن السيطرة عليه · ومن الغريب أنه لم ينجرف كثيرا ، بل لم يزد ذلك عن خمسة الى ستة أميال خلال الليل بطوله · وقد كنت أخشى أن يتسبب غياب الشراع في تعثر المركب وانغماره في منخفضات الامواج ، كما يمكن أن يفعل عدد من المراكب ، التي أعرفها من تلك التي تدور حول رأس الرجاء الصالح ، في ظروف مماثلة ، لو كانت محملة مثل مركبنا · الا ان « فتح الخير » ظل رافعا رأسه عاليا ، وكانت وقفته ممتازة في تلك الظروف · وبعد تجربة



سمبوك متجه الى عرض البحر

تلك الليلة ، زاد احترامي لصانعي « فتح الخير » وأمثاله من المراكب . فعلى الرغم من أنه لم يكن سوى مجموعة من خشب الساج المثبت بالمسامير الحديدية ، قام بصنعه على شواطىء الكويت نجارون لا يستطيعون قراءة المخططات ، الا أني أصبحت واثقا بأن باستطاعة هؤلاء أن يبنوا مراكب جيدة . وما داموا يستطيعون أن يبنوا مراكب بهذه الجودة ، فلا حاجة بهم للمخططات أو ما شابهها .

كان نجدي حذرا خلال الليلة التالية . فقد أنزل الشراع الكبير ، وأبحر اثناء الليل معتمدا فقط على الشراع الصغير الذي كانت حباله مربوطة بمقدمة المركب . وقد تمكنا ، بمساعدة ذلك الشراع الخفيف ، أن ننساب بهدوء ، بينما كانت الظلمة قد اختفت وحلت محلها آلاف النجوم المتلألئة ، ونحن نجلس على سطح المؤخرة نتبادل الاحاديث عن السفن والعواصف ، تحيط بنا الصناديق الحديدية من كل جانب . وقد جعل نجدي من صلاة المغرب في ذلك اليوم مناسبة خاصة . فقد استدعى جميع البحارة الى سطح المؤخرة ليصطفوا معه ، بينما كان حمد بن سالم يؤمهم في الصلاة . وكان يقف الى جوار نجدي اسماعيل الموسيقي من ناحية ، وابراهيم قائد الدفة من ناحية أخرى . وقد أقاموا صلوات اضافية في ذلك المساء ، وظل

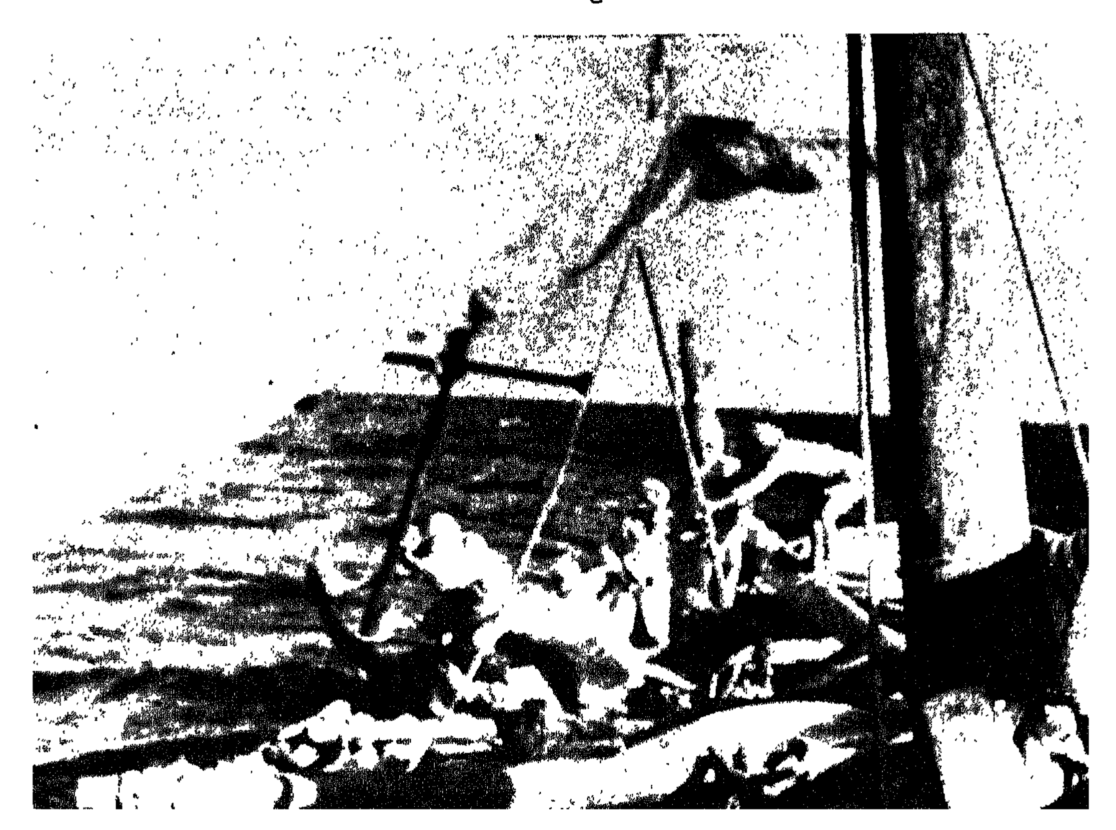
حمد جالسا على السطح وقد ولى وجهه شطر مكة ردحا من الزمن ، بعد أن انتهى الآخرون من صلاتهم • ومنذ ذلك الحين ، أصبحت جميع صلواتنـــا جماعية ، تؤدى كلها على مؤخرة المركب صباحا ومساء ، مع أن المدرســين السواحليين لم يكونوا يشاركون فيها بانتظام • لقد كانت عادة الصلاة هذه ذات أهمية بالغة بالنسبة للعرب ، الذين لم يكن يخطر ببال أحدهم أن يتخلف عنها ، أو أن يؤديها دون أن يكون قد توضأ حسب الاصول • الا أنه لم يكن بامكانهم دائما أن ينبذوا التفكير بالامور الدنيوية خلال صلواتهم المتكررة • فقد كان أحدهم أحيانا يقول نكته ، وحمد بن سالم يرتل احدى الآيـــات ترتيلا موسيقيا جميلا ، كما كان عريف البحارة أحيانا يسترق نفسا مــن نارجيلته عندما يكون الباقون سجودا • ولكن هذه الحالات كانت نادرة ، وكانت الصلاة في الغالب تؤدى بكل جدية ووقار • ولا بد أن من الصعــب أن يتحلل الانسان من جميع افكاره الدنيوية كلما نادى المنادي للصــلاة ، خمس مرات في اليوم ، سبعة أيام في كل أسبوع •

في تلك الليلة تحدثنا طويلا عن عدد من الامور ، كما كنا نفعـــل دائما • وكان ذهن نجدي يقفز من موضوع الى آخر بسرعة البرق ، دون أن يتعمق في بحث أي منها ، فيما عدا الامور السياسية ، التي لم أكن أنا اهتم بها شخصيا • الا أن الحديث مع نجدي كان في معظم الاحيان ينقلب الــى الاستماع الى حديث متصل من جانبه هو ، لا يقطعه الا سحبه للهواء مـــن النارجيلة بصوت عال • وكان حديث نجدي في السياسة أو في أي موضوع آخر سرعان ما ينقلب الى موعظة كخطبة الجمعة • وربمــا كانــت آراؤه سليمة ، ولكن بما أنني لم تكن لدي آراء خاصة ، فلم أكن أجادله فيها • ولكنه كان يبدو جاهلا تماما بمواضيع أخرى • فقد كان ينكر مثــلا أن الارض كروية ، كما لم تكن لديه فكرة عن الجغرافيا بعيدا عن البحار التي يعرفها • فلم يكن يعرف شيئا عن المحيط الاطلسي أو عن الامريكيتين ، ولكنه كــان قد سمع بباريس ــ فقد كان قد راى في طفولته أناسا قادمين من هناك لشراء اللؤلؤ ــ كما كان يعرف لندن بالسماع ، ويعرف كثيرا من بلدان اوروبا ، بل كان مما يدعو للدهشة أنه كان يعرف كثيرا عن الامور السياسية فــي تلك البلدان • ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن النجوم ، او عن الظواهـــــر الطبيعية الاخرى • ففي احدى الليالي، كنا نتجاذب اطراف الحديث كالمعتاد ، وانتقل الكلام الى الحديث عن البرق وقوته وخواصه • فقلت جوابا علــى سؤال ألقاه نجدي علي ، ان البرق لم يكن سوى شحنة من الكهرباء المخزونة في الغيوم تنطلق من عقالها • وما كاد يسمع ذلك ، حتى انفجر ضاحكـــا بصوت مجلجل ، وهو يصيح باستغراب : « كهرباء ! » واستمر في قهقهته • وكان يدعو الكهرباء « تريك » ، كما كان جميع البحارة يدعونها كذلك • لقد كانت « التريكات » تصنع في المانيا أو اليابان وتصدر اليهــم • أمــا

البرق فهو من عند الله . وقد اصبحت تلك نكتة الموسم التي لم يستطع نجدي أن يحتفظ بها لنفسه ، بل تناقلتها الألسن في كل مركب عربي يمخر عباب المحيط الهندي ، صدف أن التقينا به . وقد اصبح عددها كبيرا جدا ، بعد أن ظللنا نبحر مدة أسبوع مقابل رأس حيفون .

تخلصنا من آخر هبات الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، ونحن شمالي مدينة « ورشيخ » ، على ساحل افريقيا الشرقي ، وبعد ذلك أصبحت الريح خفيفة هادئة . ومع أن نجدي كان يفضل أن تكون الريح معتدلة السرعة ، الا أنه لم يكن يحب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، عندما كانت تبدأ بالهبوب في موسمها المحدد . وكنا نشاهد كل يوم ما بين عشرة مراكب عربية وعشرين مركبا ، جميعها متجهة الى الشمال ، كما كنا أحيانا نشاهد بعض المراكب الفارسية والهندية . لقد كنا جزءا من قافلة بحرية طويلة من المراكب العائدة من زنجبار الى الوطن ، وكثيرا ما كان منظر المراكب الكبيرة رائعا . وقد أدهشني فعلا أن ألاحظ أن « فتح الخير » كان يدرك ويسبق كل مركب آخر رأيناه ، بما في ذلك المراكب الهندية والفارسية على حد سواء ، على الرغم من أن بعض المراكب الهندية كانت تنشر عددا كبيرا من الاشرعة ، كما أني لم أنظر من قبل الى مركبنا على

رفع المرساة



أنه مركب سريع بوجه خاص . ولعل تنظيفنا له في « كوالي » كان عاملا مساعدا له على السرعة ، أو لعل وزن حمولته كان الوزن المناسب تماما لهذا النوع من الريح . وكنا الآن قد نشرنا جميع ما كان متوافرا لدينا من الاشرعة التي لم يزد عددها عن ثلاثة . أولها الشراع الرئيسي الكبير المنشور على العارضة الرئيسية ، يليه الشراع المزيني ، ثم شراع صغير ثالث منشور على عمود مربوط برأس المقدمة . وفي أحد الايام رفعنا صاري القارب الطويل أمام عجلة القيادة ، بعد أن ثبتناه في المسند الخاص به على السطح ، ونشرنا شراعه الرئيسي . ولكن هذا سبب لنا ازعاجا يفوق الفائدة المتوخاة منه ، فقد أفلت الصاري ، ولم نعد لرفع شراعه ثانية . وقد رأينا عددا من المراكب الفارسية وهي ترفع صاريا ثالثا من هذا النوع ، منشورا عليه شراع القارب الطويل . وقد علمت من حمد أن هذه العملية بقايا عادة قديمة ، ولكنها ليست بذي فائدة تذكر . الا أن رفع الشراع الثالث في المقدمة كان يساعد على توازن الشراع الكبير ، ويسهل القيادة نتيجة لذلك . وكان عدد من المراكب الهندية ، وقلة من المراكب الفارسية ، ترفع أشرعة خفيفة على أعلى الصاري الرئيسي ، ولكني لم أر مركبا كويتيا واحدا يفعل ذلك . فقد كان نجدي يفضل أن يزيد من مساحة الشراع الرئيسي على أن يرفع أشرعة علوية صغيرة ، لأن هذه كانت ، في رأيه تسبب مزيدا من العمل والعناء والازعاج للبحارة ، وتقلق راحة النوخذة ، « ولا شيء » غير ذلك . ولذلك فقد كان عدد قليل من الاشرعة الكبيرة في رأيه ، أفضل من عدد كبير من الاشرعة الصغيرة . ولعل هذا كان الشيء المناسب فعلا في المحيط الهندي ، عندما يبحر المركب في الذهاب الى افريقيا تدفعه الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ، ويعود مدفوعا بأولى هبات الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، قبل أن تشتد وتصبح عاصفة .

وفي هذه المرحلة من الرحلة ، كان نجدي يأخذ الامور ببساطة لم أعهدها فيه من قبل ، فلم يكن يتابع « سير المركب الا خلال النهار » ، أما في الليل فقد كان يستغرق في النوم بينما يتسلم المعلم حمد القيادة والحراسة . فقد انتهى الطقس السيء ، وتخطينا مناطق الخطر . وما كان علينا الا أن نواصل الابحار باتجاه الشمال الشرقي ونظل على مرأى من الشاطيء ، وبمرور الوقت ، فاننا سنصل حتما الى رأس الحد وخليج عمان . ومن هناك ننحرف يسارا ، دون أن نبتعد عن الشاطيء ، ونتابع السير فنصل الى مسقط .

كان الطقس رائعا والرؤية ممتازة ، فلم يكن الجو حارا ولا باردا ، كما كانت الليالي مثالية للنوم الهنيء وقد خلعنا السقيفة التي كانت تظلل

سدة النوخذة في المؤخرة ، ووضعناها في العنبر لبيعها في الكويت فيما بعد ، وبعد ذلك اصبحنا ننام ونحن نفترش الارض ونلتحف السماء بنجومها الساطعة · أما وقد انقطعت الامطار عن الهطول ، فقد بدأت أعواد الخشب تجف ويخف وزنها ، فتزداد رشاقة المركب في سيره ، وتزداد سرعته ، ويتحسن توازنه · وللمرة الاولى طوال الرحلة ، رأيت خليلا النجار يأخذ قسطه من الراحة ، بعد أن اضطررنا لترك المركب « عفرة » في زنجبار ، وبعد أن تم اصلاح القارب الطويل ، نتيجة ما أصابه من الضرر من المشقة التي لقيها في دلتا الروفيجي ، كما لم يكن لدى البحارة من العمل سوى صنع الحبال من خيوط القنب الذي اشتريناه من زنجبار ، والعناية بالاشرعة · فلم يكن بامكان خليل أن يفعل شيئا لباطن المركب أو لسطحه ، وهو يحمل أعواد الخشب بارتفاع ستة أقدام ، ولم يكن المركب بحاجة الى أية اصلاحات على أي حال ، فقد كان بحالة جيدة جدا · وعندما لاحظ نجدي توافر بقايا من خشب الضلوع والعوارض الصالحة ، بعد أن استخدم خليل كل ما يلزمه منها لبناء المركب « عفرة » ، خطرت له فكرة بناء قارب صغير يصلح لأبنه حسين ، وكان هذا ابنه البكر ، الذي يبلغ من العمر ثماني سنوات ، والذي حان الوقت ليبدأ بالتعرف على البحر · وسرعان ما اخليت ميمنة السطح في المؤخرة من الصناديق ، وبدأ خليل ببناء « شوعي » جميل صغير يبلغ طوله ستة عشر قدما ، من فضلات الخشب تلك · وسيكون هذا تحت تصرف حسين ابن نجدي وبقية ابنائه ، الذين يبدو أن عددهم كبير جدا جدا ، وذلك خلال فصل الصيف ، فاذا ما حل وقت السفر مرة ثانية ، وضع القارب على ظهر البوم وأخذ الى « لامو » أو زنجبار لبيعه هناك · وسيكون على ظهر البوم أيضا حسين نفسه ، فقد كان نجدي يعتقد ان الوقت قد حان ليبدأ ابنه فنون الملاحة وأمورها الاخرى ·

ولم يضع خليل وقته سدى ، بل بدأ بالقيام بالمهمة بشكل نظامي جدي· فقام أولا بوضع متن القارب على فراش مؤلف من عدد من الآجرات ليرتفع قليلا عن سطح المركب ، ثم ثبت عمود المقدمة ثم عمود المؤخرة في ذلك المتن · وكانت خطوته التالية أن أضاف لوحين سفليين الى كل جانب وجعلهما يأخذان الشكل المطلوب بواسطة الاوتاد والمرابط المتصلة بالسطح· ثم بدأ يضيف الاضلاع ، يضع نصفها أولا ويكسوها بالالواح ، ثم يضع النصف الاخر · ولكن كان عليه أولا أن ينشر الالواح من كتلة من الخشب الهندي · ولم الاحظ أنه كان يأخذ أية قياسات أو يضع رسوما لأي شيء ، بل قام ببناء القارب كله اعتمادا على البصر فحسب · وكانت الادوات التى استخدمها تتألف من قدوم ، كان اكثر الادوات استخداما ، ومنشار هندي أو منشارين ، ومثقاب هندي من نوع القوس ، ومطرقة ، ومسحاج بدائي·وكان

خليل يعمل في القارب طوال النهار ، من بعد صلاة الفجر مباشرة ، حتى صلاة المغرب ، يساعده في ذلك بحار واحد ، بينما كان نجدي يراقبه ويعطيه بعض الملاحظات • لقد كان خليل يشتغل خلال تلك الرحلة أكثر من أي انسان آخر على ظهر المركب ، ولكني فهمت انه لم يكن يعتبر واحدا من البحارة ، بل مساعدا شخصيا لنجدي لبناء القوارب والمراكب • ولم يكن جزاؤه على عمله ينحصر في حصته من ارباح المركب ، بل كان يتقاضى أيضا نسبة معينة من أثمان المراكب التي يصنعها • وكان الوحيد بين البحارة الذي لا يقوم بالحراسة ليلا ، فكان يلف نفسه بسجادة النوم حوالى الساعة التاسعة من كل مساء ، وينام ملء جفنيه الى أن يؤذن سلطان لصلاة الصبح • ولكنه كان يشارك في المهام التي تتطلب تعاون الجميع ، كانزال الشراع ، في تلك الميلة الليلاء عندما كنا مقابل « مالندي » ، وكذلك عندما واجهتنا تلك الظروف الصعبة ونحن نبحر بحذاء « كيسيمايو » •

وهكذا تابعنا سيرنا بأمان واطمئنان باتجاه الشمال ، وأخذت سرعة المركب تقل كلما ابتعدنا شمالا ، فقد كان الوقت مبكرا جدا لوصول الرياح الجنوبية الغربية الى حيث كنا قد وصلنا • ولكن لم يكن ذلك بذي بال ، لأن تلك الرياح عندما كانت تصل الى هناك ، كانت تهب بعنف وقوة مصحوبة بالامطار والاعاصير والرؤية السيئة • وكان هدفنا أن نصل الى الخليج العربي قبل وصول الرياح الموسمية ، وبهذا نتجنب الطقس الرديء • وقد تمكنا من صيد بعض الدلافين ، مما أضاف عنصرا لطيفا جديدا الى وجبة الغداء • أما في المساء ، فقد كنا دائما نتناول الارز ، والذرة الهندية التي تدعى « دال » • ولم تكن هذه الوجبة سيئة ، عندما كان يضاف الى المرق شيء من الفلفل واشياء أخرى لا يسهل التعرف عليها • ولكني لم أكن أشعر بالجوع أبدا • وكان نجدى قد اشترى كيسا من البصل من زنجبار ، ولذلك كنا أحيانا نضيف البصل الى الدال • وأحيانا كان نجدى يطلب من يوسف أن يجهز لنا حساء البصل ، مضافا اليه الفلفل والدال ، كما كان السمك يشوى على نار الموقد • لقد كانت أمورنا حسنة ، وكانت الحياة على ظهر المركب لطيفة ومريحة وغير مزدحمة ، فلم يكن معنا من الركاب سوى المدرسين الثلاثة • وهكذا تتابعت الايام ، ونحن نتمتع بالشمس المشرقة والعمل الخفيف ، بينما كنت أتسلى بعلاج عدد ضئيل من المرضى ، وأدرس العربية فى كتب مختلفة قلما كانت تتفق مع اللغة المستخدمة فى الحديث ، وأتجاذب أطراف الحديث مع نجدى وأراقب خليلا وهو منهمك فى بناء القارب ، وأتعلم كل ما أستطيع تعلمه ، ونحن ننساب بهدوء واسترخاء مقابل ساحل افريقيا ، ترافقنا عشرات المراكب الشراعية الاخرى ، وهى تشق عباب اليم فى طقس مشمس جميل •

لقد كانت حياة ممتعة ، وكان هذا الجزء أجمل مراحل الرحلة . وكان لا يزال معنا عدد ممن أصيبوا بالحمى التى أصابت بعض البحارة فى دلتا الروفيجى ، وكان هؤلاء يتلفعون بعباءاتهم ويستلقون على بعض الاكياس فى ظل القارب الطويل . وكنت أعطى دواء « الكينين » لهؤلاء ، وفى الحالات السيئة كنت أعطيهم « أتبرين » . وقد شفى جميعهم بمرور الوقت ، وربما كانوا سيتماثلون للشفاء على كل حال سواء تناولوا الدواء أم لم يتناولوه . الا أنهم كانوا ممتنين لاعطائى اياهم تلك العقاقير . كما كان بيننا أيضا كثيرون ، غالبيتهم من غواصى اللؤلؤ ، يشكون من القروح والدمامل الجلدية الاخرى ، وواحد أو اثنان من التهابات فى الرأس . وقد شغلت نفسى بهواية العلاج هذه ، وكم تمنيت خلال هذه الرحلة لو كنت بالفعل أعرف شيئا عن مهنة الطب .

وفى صباح أحد الايام ، عندما كنا فى مكان ما جنوب رأس حيفون ، ونحن نواصل السير ببطء باتجاه الشمال بمساعدة ريح خفيفة جدا ، أدركنا البوم الصغير الذى يقوده عبد الله القطامى . ولم يكن الجو رائقا فى فجر ذلك اليوم ، الذى لم نكن نبعد فيه عن ساحل الصومال أكثر من عشرة أميال ، بينما كان يرافقنا اسطول مؤلف من ثمانى مراكب عربية كلها تمخر البحر بهدوء ، الكبيرة منها ببطء واتزان ، والصغيرة ، كمراكب الحضارمة ذات الطرفين المتشابهين ، وبدن أو اثنين ، تسير سيرا حسنا وهى أقرب الى الشاطىء منا . وما أن انتصف الصباح حتى أصبح عدد مراكبنا عشرة . وتمكن نجدى أيضا من التعرف على مركب القطامى بواسطة شراعه ، مع أنه كان يسبقنا بحوالى ثمانية أميال ، ولم يكن بالامكان رؤية شىء منه سوى قمة شراعه . وكنت أعلم أن نجدى لا يخطىء فى التعرف على المراكب العربية ، وبخاصة الكويتية منها . ولكنى لا أعلم كيف كان يمكنه أن يميز مركبا من آخر على ذلك البعد السحيق ، فقد كانت الفروق بين المراكب ضئيلة جدا . ولم أكن أستطيع أن أكتشف الفروق بين واحد وآخر ، الا اذا كان الاثنان يقف أحدهما الى جانب الآخر . أما نجدى وبحارته ، فقد كان بامكانهم أن يفعلوا ذلك على بعد خمسة أميال . وأعتقد أن السبب فى ذلك أنهم كانوا يترعرعون بينها ، ولا يهتمون بشىء آخر غيرها . لقد كان بامكانى أن أفعل الشىء نفسه للمراكب ذات الاشرعة المربعة ، كما كان يستطيع ذلك القبطان« دي كلوكس » ، أو قبطان أي مركب آخر من المراكب ناقلة القمح ، بل وأى ضابط من ضباطها . وربما كانت المراكب الاجنبية تبدو فى عينى نجدى سواء ، ولكنه كان حتما يعرف المراكب العربية . لقد كانت الفروق بين بوم كويتى وآخر طفيفة جدا ، كاختلاف بسيط فى شكل الشراع ، أو فرق لا يذكر فى زاوية ميل عمود المؤخرة

أو المقدمة ، أو اختلاف طفيف فى طريقة ربط الشراع على العارضة ، حتى أنه لم يكن بامكان أحد أن يكتشفها ، الا اذا كان بحارا عربيا خبيرا ٠

ولم يكن نجدى يميز الا ثلاثة أنواع من السفن البخارية التى كان يسميها : « مركب جاز ، ومركب ستريك ، وفست ميل » ٠ أما النوع الاول فقد كان يشمل جميع ناقلات النفط ، أو أية سفينة تقع محركاتها فى الجزء الخلفى منها ٠ وأما الثانى ، الذى اشتق اسمه على ما يبدو من سفن ستريك لاين (Strick Line) التى تتاجر مع البصرة ، فقد كانت بالنسبة لنجدى أية سفينة شحن ٠ وأما جميع السفن الاخرى التى تحمل الركاب فقد كانت تنتمى الى الفئة الثالثة ٠ لقد كان نجدى يعرف ناقلات النفط ، لأن الطريق من عبدان الى الخارج يمر بحذاء الكويت ، ولا بد أنه كان يرى تلك السفن طوال حياته ٠ وكان النوع الثالث من السفن يشمل السفن التابعة لشركة الهند البريطانية ، التى كانت تستخدمها للمتاجرة بين بومباى فى الهند وبلدان الخليج العربى ٠

كانت الريح تهب لطيفة من الشرق ، وبدأنا بالاقتراب بسرعة من بوم القطامى ٠ وقام نجدى بتوجيه المركب فى خط مستقيم باتجاه ذلك البوم، وذلك بالتأكد التام من ترتيب وتوازن أشرعته جميعا ٠ لقد كان أستاذا فى هذا العمل ، الذى كان يعتبر نصف ما ينبغى على قبطان المركب الشراعى أن يتقنه اتقانا تاما ٠ ولا أعتقد أنه ، من هذه الناحية ، كان يقل خبرة وفنا عن قباطنة المراكب الشراعية غير العربية التى عرفتها ٠ بل أنى متأكد أنه كان يعادل فى هذا ما يعرفه القبطان « دي كلوكس » ، وهو يقود احدى مراكبه التي كانت تدور حول رأس الرجاء الصالح مثل « هرزوجين سيسيل » أو « بارما » ، وكان كلاهما ممتازا في هذا ٠ أما الآن فقد اعطى أوامره لتنظيم الشراعين الكبير والصغير بالطريقة المناسبة ، كما رفع شراعا صغيرا ثالثا ، وسرعان ما زادت سرعتنا بعد أن نشط الهواء بعض الشيء ٠ وما أن انتصف النهار ، حتىكان بوم القطامىقد أصبحقريبا جدا منا، ولميمض الا وقت قصير ، حتى أدركناه وأصبحنا بمحاذاته تماما ٠ وأخذ نجدي يتحدث مع عبد الله اقطامي من سطح المؤخرة ، بينما كان البحارة يتحادثون مع بعض من رأس السلوقية في المقدمة ٠ وقد أفاد القطامي بأنه غادر « لامو » منذ ثمانية أيام فقط ، بينما كان البحارة يعتقدون أنها عشرة ، أما العدد الصحيح فقد كان اربعة عشر يوما ، وأنهم متجهون ، مثلنا ، الى مسقط لتسليم بعض البضائع ، وأنهم لم يقابلوا الا البحر الهادىء والرياح المؤاتية ٠ كما اخبروني بأنهم لم يروا أثرا للمركب « بدري » ، الذي كنا قلقين عليه ، خوفا من أن تكون تلك الليالي السيئة ، التي مرت بنا ونحن نبحر قبالة سواحل ماليندي

وكيسيمايو ، قد قضت عليه • وكان قد مضى علينا حتى ذلك الوقت سبعة أيام منذ أن غادرنا زنجبار ، مما يدل بالطبع على أننا كنا نسير بسرعة أكبر من سرعتهم •

وبينما كنا نتجاوز ذلك البوم الصغير ، نظرت اليه ، فوجدت أنه كان يبدو بحالة جيدة ، وهو يشق طريقه في تلك المياه الزرقاء ، يدفعه شراعاه الكبيران • بينما كانت عارضتاه تتمايلان كشجرتين من الحور في مهب الريح ، كما كان قماش الشراعين القطني الابيض يمتلىء بالهواء ويبدو منظره جميلا • ومن آن لآخر ، عندما كانت مقدمته تغوص في الماء ، كان الزبد ينبعث من حول تلك المقدمة المنخفضة ، أو يندفع بخفة ويعانق جانبيه المبتلين ، وكان الاثر الذي يتركه خطا مستقيما غير مضطرب • وقد رأينا بضعة عشر راكبا عمانيا على سطحه ، وثمانية حبال صيد مثبتة في مؤخرته •

ثم تابعنا سيرنا وسبقنا مركب القطامي ، الا أن نجدي أمر بارخاء الاشرعة وتخفيف السرعة ، ثم نزل في القارب ليعود الى مركب القطامي ، ويقوم بزيارته • وفي المساء ، وكنا لا نزال قريبين جدا من بوم القطامي بحيث نسير بصحبته ، أرسل نجدي القارب الينا طالبا صوره التي كان فخورا بها بشكل خاص ، كما طلب أن يعرف تاريخ اليوم ، لأن أحدا على ظهر المركب الآخر لم يكن لديه فكرة صحيحة عنه • بل انهم لم يكونوا يعرفون في أي شهر نحن ، ولم تكن لديهم الا فكرة غامضة بأن الشهر قد انتهى وأن شهرا جديدا قد بدأ منذ مدة قصيرة • وعندما بدأت آخر خيوط النور تختفي من سماء ذلك اليوم ، بعد أن غربت الشمس ، قام بحارة المركبين بتأدية صلاة المغرب ، في وقت واحد ، كل منهم على مركبهم ، ثم ما لبث اسماعيل أن أخذ يشنف آذانهم بالموسيقى • وقبل أن ينتصف الليل بقليل ، عاد القارب الينا ، حاملا نجدي وعبد الله القطامي ، اللذين أعلنا انهما سيبحران معا الى أن يصلا مسقط • وقد أمضى القبطانان معظم الليل وهما يتجاذبان أطراف الحديث ، بينما كان حمد بن سالم يقود « فتح الخير » وسعود ، العبد المعتق ، يقود بوم عبد الله •

وعندما اصبح الصباح ، وجدنا أننا قد سبقنا رفيقنا كثيرا ، فأنزلنا الشراعين الصغيرين ، لكي نعطي المركب الآخر فرصة اللحاق بنا • وأخذ نجدي يغمز من قناة المركب الآخر ، ولكن عبد الله كان يرد له الصاع صاعين ، الا أن المركبين ظلا أحدهما بصحبة الآخر • وكان بامكاننا أن

نرى مركبا فارسيا كبيرا ثقيل الحمل أمامنا ، ومركبا هنديا من بومباي على يسارنا ، ولم يكن يصعب علينا أن ندرك المركبين ، لو لم يتسبب رفيقنا بابطاء حركتنا • فقد أمضينا معظم ذلك النهار ونحن نبحر ببطء كبير في المحيط الهندي ، واشرعتنا غير مشدودة ، لئلا نبتعد كثيرا عن البوم المرافق لنا ، وان كان ذلك لم يكن يعجب حمدا ، الذي كان يهمس في أذني قائلا اننا يجب الا نبدد تلك الرياح المؤاتية التي كانت العناية الالهية تزودنا بها • وعندما تجرأت وقلت لعبد الله اني اعتقد أن مركبه يسير ببطء شديد ، أجاب أنه ، على العكس ، كان يبحر بشكل مرض للغاية ، ولكنه اضاف قائلا انه ربما كان يسير أبطأ من المعتاد ، لأنه هو لم يكن على ظهره ، ولم تكن الاشرعة موجهة أفضل توجيه • ولكني لم اقتنع بالجواب من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم ارد أن أسيء الى سعود المسكين ، الذي كان في رأيي من أفضل « المعلمين » الذين انجبتهم الكويت ، ولذلك رددت عليه مذكرا اياه بالايام الاربعة عشر التي أمضاها مسافرا من لامو ، حين كانت الاشرعة موجهة توجيها جيدا ، والظروف الملاحية مؤاتية •

وعندما وجد عبد الله ان حجته ضعيفة ، ابتسم ، واعترف بأن اشرعة المركب كانت أصغر مما ينبغي ، ولم يكن لديه من المال ما يكفي لشراء اشرعة اكبر منها • ولكنه اقسم بأغلظ الايمان أن الماء لم يكن يتسرب الى باطن مركبه ، الا أنه ، من سوء الحظ ، كان البحارة في تلك اللحظة قد بدأوا ينزحون الماء ، واستمروا في ذلك نصف ساعة ، وكانوا خلال تلك الفترة ، ينزحون قربة تلو أخرى من الماء دون انقطاع • الا أن عبد الله أصر أن ذلك الماء لا بد أن يكون من ماء المطر المتجمع في قاع المركب • ولكن الواقع كان يكذب ذلك ، فلم تكن السماء قد أمطرت مدة اسبوع كامل ، ثم أضاف ان القرب التي كانوا يرفعون بها الماء لم تكن مملوءة عن آخرها • والخلاصة أنه كان يختلق الاعذار لتغطية عيوب مركبه ، ولم ألمه على ذلك ، بل انني اعتقد أن النوخذة الجيد هو الذي لا يجد عيبا في مركبه • فلم يكن عبد الله يجد غضاضة في أن يكذب عندما يتحدث عن أداء مركبه ، كما ينبغي لكل بحار جيد أن يفعل ، كما كان غير مستعد للاعتراف بأن في مركبه أي عيب من العيوب ، أو الاقرار بأن مركبنا كان أسرع منه • ولكننا ، لكي نثبت له ذلك ، درنا دورتين حول مركبه ، مع أنه كان يقف على سطح المؤخرة ، ويصيح ببحارة مركبه الصغير : هلموا ! تقدموا ! الى الامام ! وبعد أن فعلنا ذلك ، أعدناه بقاربنا الى مركبه البطيء ، وسألناه اذا كان يرغب في ارسال أية رسائل معنا الى مسقط ، ولكنه لم ينقطع عن الابتسام • وهكذا افترقنا اصدقاء • وما أن أتى صباح اليوم التالي حتى كان بومه قد اختفى عن الانظار خلفنا ، فلم يكن بامكاننا أن نصحبه طول الطريق •

مسكين عبد الله القطامي ! فخلال زيارته لنا ، وكانت زيارة لطيفة فعلا ، لم يأت أحد على ذكر أخيه ، الذي قتله الرصاص اثناء حادث الشغب الذي حصل في الكويت · فلم يكن هو يعلم بذلك الخبر ، ولم نقم نحن بابلاغه اياه ، لأنه كان شديد التعلق بأخيه ، ولم نحب أن نحمل له تلك الاخبار السيئة · ولا بد أن المسكين سيعرف بالامر ، في الوقت المناسب ، عندما يعود بمركبه من البحر ·

الفصل الرابع عشر

مصباح النبي

مصباح النبي

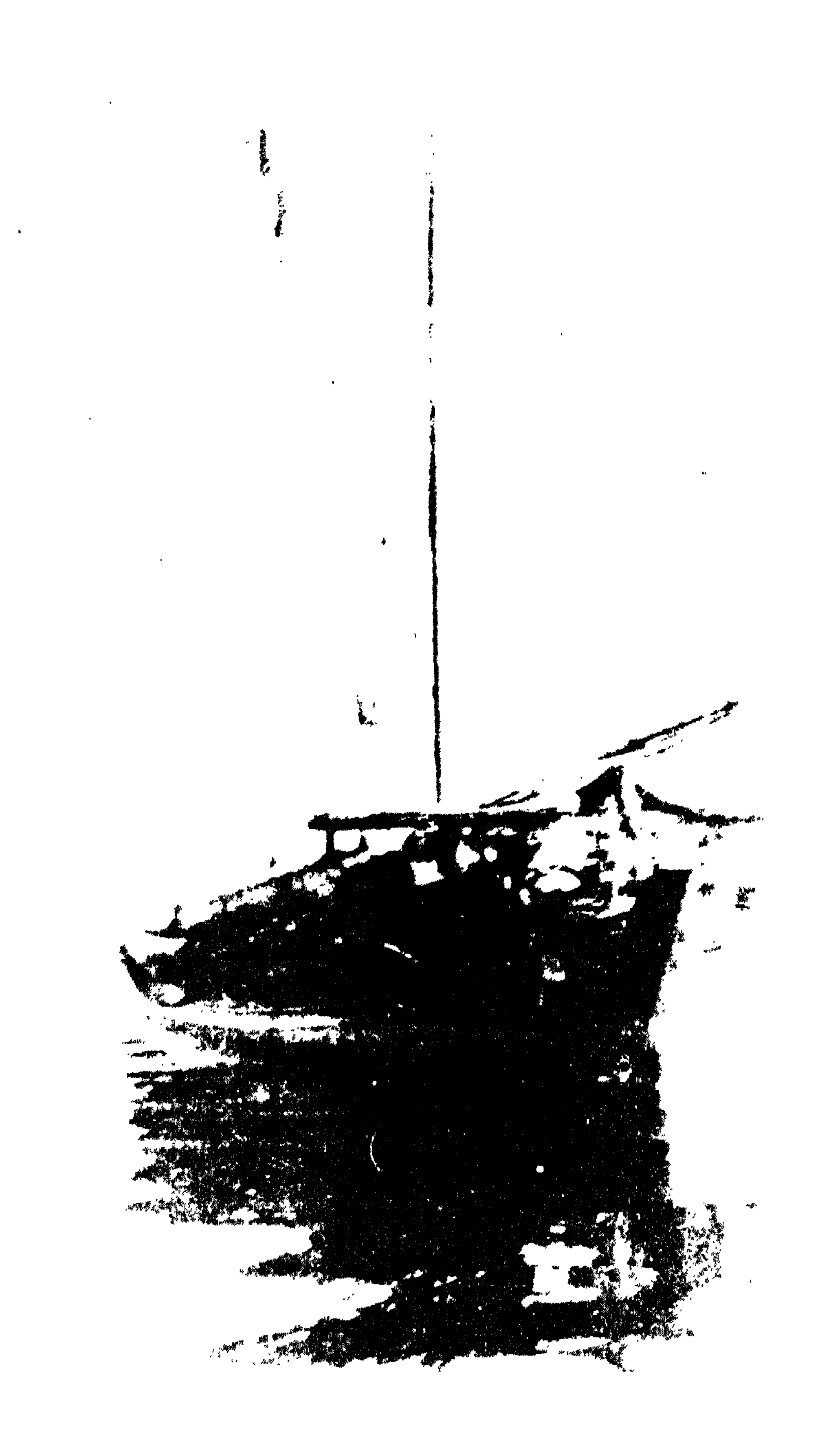
مضى علينا أسبوع ونحن نواصل ابحارنا ما بين رأس حيفون ورأس عسيبر ، والجو ما بين هادىء ومعتدل الريح · وكنا ، في أحيان قليلة ، نبتعد عن البر ، بحيث لا نستطيع رؤيته ، ولكن ذلك لم يكن يستمر طويلا ، فقد كان نجدي يسارع الى تحويل مساره ، بحيث يصبح ساحل افريقيا على مرأى منا ، فلم يكن نجدي يحب أن يغيب البر عن بصره · وكانت هذه المرحلة امتع ما مر بي ، من الوقت الذي نجونا فيه من اعاصير الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الى أن وصلنا « جون مطرح » في خليج عمان بعد خمسة عشر يوما · فقد كان المركب يمخر عباب اليم بهدوء وقوة كأنه راقصة باليه ، لا يعكر هدوءه شيء سوى حركة انسيابه الى الامام · ورغم أن سرعته لم تكن تزيد عن ثلاث عقد أو اربع ، فان ذلك لم يكن يقلق بال أحد · وكان البحر هادئا يزهو بلونه الازرق الرائع · أما الريح فقد كانت تهب علينا برفق من جهة الشرق ، ما بين الجنوب الشرقي والشمال الشرقي ، فتلطف حرارة سطح المركب نهارا ، وتجعل الليالي هنيئة مريحة · لقد كانت الحياة وادعة لطيفة ، فلم يكن هناك صوت يعلو على سطح المركب ، كما لم تكن هناك أصوات أخرى غير تلك الصادرة عن تأدية بعض الاعمال ، كصوت مطرقة النجار ، أو رنين النقود من العملات النمساوية والروبيات الهندية ، عندما كان حمد يقوم باجراء حساباته ، كما كانت تصل الى اسماعنا اصوات الضحكات الخافتة ، التي كانت تصدر عن البحارة البسطاء وهم على مقدمة المركب ، وأصوات صرير سكان المركب وحباله ، والصرير البطيء الخافت الصادر عن الصواري · لقد كانت أياما هانئة فعلا ، كل منها يشبه الآخر ، ولكنها لم تكن مملة · كما كان طعامنا جيدا ، فقد كنا نصيد كثيرا من السمك ، وكانت لا تزال لدينا كمية من البرتقال والموز كنا قد اشتريناها من زنجبار · وفي أحد الايام تمكنا من صيد أحد كلاب البحر وأكلناه · ولكنني لم أكن شخصيا أحب لحمه ، كما لاحظت أن يوسف الشيرازي وخليلا النجار ــ اللذين كانا ينتميان الى طائفة دينية مختلفة عن الآخرين ــ لم يتناولا شيئا من لحمه أيضا · وكان رأي خليل أن سمك القرش هو خنزير البحر ، وقد وافقته على رأيه · الا أن نجدي والاخرين كانوا يأكلونه بشهية ومتعة عندما قدم لهم لحمه مفروما مع الارز ، ومغطى بطبقة من السمن الحار ·

لقد كانت الاقامة على سطح المركب لطيفة تحت ظروف مؤاتية كالتي

كنا نمر بها ، وعلى الرغم من أني كنت شديد الشوق لرؤية الكويت ، الا أني وجدت نفسي غير متشوق لنهاية الرحلة • فلم أكن اعرف متى يمكن أن أقوم برحلة مشابهة أخرى • وكثيرا ما كنت أجيل الفكر في ذلك المشروع ، الذي بدأت ولادته في كوالي ، والذي يهدف الى انقاذ احد المراكب القديمة من نوع البغلة ، والابحار فيه عبر المحيط الاطلسي الى أمريكا ، الا أني ، بعد تلك الليلة المخيفة التي قضيناها مقابل شاطىء ماليندي ، بدأت أعتقد أن تحقيق هذه الامنية مطلب عسير جدا • فان أي انسان يفكر بالابحار في بغلة عربية ، بمعداتها الحالية ، وبالطريقة التي كان العرب يديرونها،وعبور المحيط الاطلسي،أو أي مكان اخر بعيدا عن المحيط الهندى الذى كان مكانها الطبيعى — ان أى انسان يفكر بذلك سيحتاج من الله عونا أكثر مما يحق له أن يطلبه منه • ورغم ذلك ، فقد كنا كثيرا ما نجلس هناك في المساء نتحادث عن الرحلات الطويلة ، وعن امكانية القيام برحلة بحرية عبر المحيط الاطلسى فى بغلة عربية ، لأن نجديا وسائر البحارة أصبحوا يبدون اهتماما كبيرا وحماسا شديدا لتحقيق المشروع ، بعد أن كانوا في البداية ينظرون اليه شزرا • وسرعان ما بلغ بهم الحماس حد مطالبتي بتحقيق المشروع ، فعرض نجدي خدماته بأن يكون مرشدا للمركب في المياه العربية ، كما عرض حمد أن يعمل بائعا لشحنة من السجاد العجمي، والادوات والأواني النحاسية العربية ، والسيوف والصناديق الكويتية المنقوشة التى تعهد بأن يقوم بشرائها ، كما التهب البحارة الآخرون حماسا للاشتراك في مغامرة من هذا النوع ، وشوقا لتجربة التمتع بنساء أمريكا •

لقد كان موضوع هذا الحديث مسليا وممتعا في الليالي المقمرة ، ونحن على سطح مركب كبير محمل بالاعمدة الخشبية ، يحيط بنا سكون المحيط الهندي من كل جانب • وكان نور القمر يضفي على سطح المركب نوعا من الجمال الرومانسي والنظام اللذين كنا نفتقدهما خلال النهار ، كما كان عريف البحارة وطاقم الحراسة الليلية يبدون ، وهم متحلقون حول الصاري الصغير ، وملتفون بعباءاتهم ، كأنهم لوحة زيتية رائعة •• وكانوا يجلسون هناك ، يتجاذبون أطراف الحديث عن الكويت ، وعن المراكب ، وعن ليالي زنجبار ، كما كانوا يحدثونني عن العالم الخارجي • وكان قائد الدفة يجلس على الكرسي المقابل للعجلة كأنه بوذا ، بينما كنا نسمع صريرا خفيفا يصدر عن الحبال والبكرات والصواري ، أما قمة الصاري والشراع الكبير (العود) فقد كانت تبدو عالية جدا • ولم يكن هناك غير نور القمر ، اذ لم نكن نحمل أية مصابيح • كما كان الماء الفضي ينشق أمام مقدمة

هدوء —



المركب بصمت وهدوء ، ونحن ننساب بلطف على سطح الماء ، ولا نترك خلفنا الا أثرا خفيفا ، على الرغم من عرض تلك المقدمة ٠

وكما كان الحال على جميع المراكب الشراعية ، كان كل يوم يأتي بجديد ٠ فقد كنا أحيانا نقوم بزيارة مراكب أخرى ، وكان هذا يحدث كلما رأى نجدي أحد المراكب الصديقة يبرز من وراء الافق ٠ وفي بعض الاحيان ، كانت تقع بعض الحوادث البسيطة ، كما حدث عندما سقط خمسة من بحارتنا في الماء ٠ ولم يكن هذا أمرا غريبا ، فقد كان يحدث كثيرا ، الا أن هذه المرة كانت الوحيدة التي سقط فيها عدد كبير منهم معا ٠ وقد حدث هذا ، عندما تغيرت الريح قليلا ، وأردنا أن نفيد منها برفع الشراع الصغير ليساعد على سرعة المركب ٠ وقد رفع الشراع بالفعل ، وكان البحارة الخمسة يرفعون البكرات ، ويوثقون الحبال ، عندما انفلتت هذه فجأة فسقط الجميع في البحر دفعة واحدة ٠ فقد كانوا يقفون على ظهر الصناديق المصفوفة على سطح المؤخرة ، ولم يكن هناك ما يحميهم من السقوط عندما انفلتت الحبال ٠ فلم يكن هناك درابزين أو سور من أي نوع ٠ وهكذا سقطوا جميعا : سلطان المؤذن ، ومحمد ذو الرأس الاقرع ، ويوسف ذو الجسد النحيل ، وناصر الغواص ، وجاسم الطباخ ، الذي كان قد ترك الارز ينضج على النار وأتى ليساعدهم في عملهم وينال شيئا من الرياضة ، فلم تكن لديهم أية فرصة لتجنب السقوط ، فانجرفوا الى البحر حالما انفلتت الحبال ٠ وكان المركب في ذلك الوقت يسير باتجاه الريح ، وكان حسن ، قائد الدفة ، عندئذ يحاول تهدئة المركب الى أن يقوم البحارة برفع الشراع الصغير وتثبيت حباله ٠ وكان هذا من حسن حظهم ، لان المركب في هذه الحالة لم يكن يترك أثرا عميقا خلفه كما لم تكن سرعته كبيرة بحيث يسبق البحارة الساقطين في البحر بمسافة كبيرة ٠ وقد رأيت الخمسة وهم يتضاحكون ويسبحون كالسمك بمحاذاة المركب ٠

وحالما حصل ذلك ، صاح نجدي بصوت كأنه زئير الاسد قائلا : « ثبت الدفة » وفي الحال أخذ حسن يدير العجلة بسرعة الى أن اصبحت الاشرعة في وضع مقلوب تقريبا ، وثبت المركب في مكانه ، بينما انجرف كل ما كان غير موثق على سطح المؤخرة وسقط في البحر ٠ ولم تمض نصف دقيقة حتى كان البحارة الخمسة قد صعدوا الى ظهر المركب ثانية ، وهم يضحكون ويقطرون ماء ، دون أن يبدو عليهم أي تأثر بما حصل ٠ بل انهم لم يبالوا حتى بتبديل ملابسهم المبللة ، وانطلقوا في الحال لتأدية اعمالهم ٠ وحالما انتهى هذا الحادث البسيط ، عاد نجدى الى سدته على سطح المؤخرة ، وطلب أن يحضروا له صورته ، تلك الصورة التي كان قد أخذها له مصور هندي في دار السلام ، والتي لم يكن نجدي يمل من النظر اليها والاعجاب

بها ٠ أما حمد بن سالم ، فقد ظل نائما ، لم تزعجه هـذه الحادثة ، بل أن الوحيد ، من جميع من كانوا على ظهر المركب الذي أبدى شيئا من الاهتمام لما حدث ، كان القرد « يميد » ٠

وكان أحد المراكب ، التي قمنا بزيارتها ، بوما صغيـرا لموسى عبد العزيز من دبي على ساحل الامارات المتصالحة ٠ وكان موسى هذا صديقا لنجدي ، وكنا قد قابلناه في موانيء عديدة ٠ وكان مركبه قادما من « ديما » في جنوب دلتا الروفيجي ، وميمما وجهه شطر المكلا في حضرموت ٠ اما المركب فقد كان صغيرا قديما متواضعا لا تزيد حمولته عن اربعين طنا ، ومع ذلك فقد كان يبدو كأنه مركب عظيم ، وشراعه الابيض الكبير ممتليء بريح الصباح ، وعارضاته الطويلة مقوسة بشكل جميل ٠ كما كانت خطوطه تنساب انسيابا جميلا ، ولم يكن عاليا في الماء ، وكانت له مقدمة حادة ، وانحراف طولي يساعده على ركوب البحر بقوة وعزم ، هذا اذا تمكن هيكله من الصمود ٠ وعندما اعتلينا المركب ، مدوا لنا سجادة فوق البضاعة الموجودة على سطح المؤخرة ، واستقبلنا موسى بكل ترحاب ، وقـدم لنـا الحلوى والمرطبات مع القهوة ذات نكهة القرنفل ، والشاي الشديد الحلاوة ، وقطعا من برتقالة زنجبارية غير ناضجة ٠ وقد تحادثنا مدة نصف ساعة تقريبا ، بينما كان المركبان يبحران جنبا الى جنب ٠ وقد لاحظت علـى المركب بوصلة قديمة جدا محفوظة في صندوق هائل الحجم ، كانت تبدو كأنها قد اشتريت من أحد الرجال الذين كانوا يعملون في شركة الهند الشرقية قبل قرنين من الزمان ٠ وربما كان هذا صحيحا ، فقد اخبرني موسى انها كانت مشتراة في الاصل من دكان للخردوات في بومباي ، ولم يكن يعرف عمرها بالضبط ، فربما كان مائة عام أو يزيد ٠ فقد كان اشتراها مع المركب وكان عمر هذا يزيد عن أربعين عاما ٠ كما أنه سمع أنها كانت مركبة في مركبين كويتيين آخرين على الاقل قبل أن تنتقل الى مركبه ٠ وكثيـرا ما كنت الاحظ معدات بحرية قديمة ، جدا ، من هذا النوع ، في المراكب العربية المتواضعة ٠ وقد لاحظت أيضا أن عجلة القيادة في هذا المركب ، وكانت قطعة جميلة من الاثاث محاطة بالنحاس الاصفر ، تحمل اسم احدى مؤسسات صنع السفن البريطانية القديمة جدا ٠ ولم يكن لدى موسى آلة لقياس الابعاد أو أية خرائط ، بل كانت تلك البوصلة القديمة هي كل ما يملك من أدوات الملاحة البحرية ، بالاضافة الى خريطة العالم من توزيـع احدى شركات التأمين الاسترالية ، ونسخة قديمة من دليل عربي للبحـار الشرقية من تأليف عيسى القطامي(١) وقد لفت الكتاب نظري ، وأخـذت

(١) الكتاب هو « دليل المحتار في علم البحار » تاليف عيسى القطامي ، وقد صدرت طبعته الثالثة عن مطبعة حكومة الكويت عام ١٩٦٤م – ١٣٨٣هـ ٠ (المترجم)

أقلب صفحاته ، فلم تكن لدينا نسخة منه • ولكن نجدي لم يكن يبالي به ، فقد قال انه لا فائدة منه ، لان جميع المعلومات المتوافرة فيه موجودة بشكل أفضل على الخرائط • الا أنه كان يبدو لي ، من تصفحي السريع للكتاب ، أنه يحتوي على شيء من الوصف الجيد لبعض المعالم البحرية ، ان لم يكن يحتوي على شيء آخر •

لقد أحببت موسى وأحببت مركبه الصغير • فقد كان الرجل بسيطا أنيقا ، وكان يتكلم عن مركبه بعاطفة واعجاب كبيرين ، كما كان يبدو أن بحارته يكنون له الحب أيضا ، فقد كانوا جميعا يجلسون حولنا مسرورين ونحن على ظهر مركبهم • وكان هذا نظيفا نظافة غير عادية ، كما كانت كل خلجة من خلجات موسى تنطق بالهدوء والصفاء • ولكني علمت فيما بعد أنه كان واحدا من افضل المهربين في دبي •

بعد انقضاء عشرة أيام على مغادرتنا لزنجبار ، وجدنا أنفسنا مقابل رأس عسير وهو اقصى شمال الساحل الافريقي الشرقي • وكانت الريح خفيفة ، تهب من الجنوب الشرقي ، في ذلك اليوم الذي كان صحوا ، ومن هناك انطلقنا باتجاه الجزيرة العربية • وعند الغسق ، كنا نستطيع أن نرى جزر « عبد الكوري » الصغيرة الجميلة ، الواقعة الى الغرب من سوقطرة • لقد كانت الشمس على وشك المغيب ، وهي ترسل أشعتها الحمراء ، فتجعل من المنظر شيئا رائعا ، لا يمكن رؤيته الا على سطح المياه في المحيط الهندي ، وكانت صخور تلك الجزر جميلة حقا • ثم ارتفع القمر ، وأرسل نوره الهادىء الرائع في تلك الليلة التي واصلنا السير فيها ، تدفعنا ريح خفيفة ، دون أن ننشر غير الشراع الرئيسي • لقد كان هذا الجزء من الرحلة هو الجزء الوحيد الذي كنا فيه ننطلق في عرض البحر بالفعل ، دون أن نكون قريبين من أحد الشواطىء • وقد كنت مهتما بمعرفة الطريقة التي سيستخدمها نجدي لتحديد مساره في اتجاه ساحل الجزيرة العربية ، الذي لا يمكنه أن يخطئه ، على أية حال ، اذا رسم خط سيره واتبعه دون أن يحيد عنه قيد أنملة • وهذا هو ما فعله نجدي • فقد قام أولا بتقدير المسافة بيننا وبين راس عسير ، وقد استعمل ابهاميه بدلا من المسطرتين المتوازيتين ، ونقل تلك المسافة الى الخريطة • وعندما نظر الى النقطة على الخريطة ، صرح بان المسافة تبلغ حوالى خمسة وثلاثين ميلا ، وعلّم ذلك على الخريطة ، مستعملا ابهاميه أيضا • وبعد ذلك نظر جانبا الى البحر ، وصرح ، بعد فحص قصير ، بأن التيار في صالحنا ، (مع أني لم استطع أن اعرف كيف قرر ذلك) ، وأن سرعتنا أربع عقد ، مع أني كنت متأكدا أن في ذلك مبالغة كبيرة • ثم أضاف قائلا أننا سنتمكن من رؤية جزر

عبد الكوري أمامنا تماما في خلال ساعتين ونصف من الزمن · وقد حصل ذلك فعلا ، وان كنت شخصيا قد عزوت ذلك الى توفيق الباري عز وجل ·

لم يغب البر عن انظارنا الا يوما واحدا ، لأن الساحل حول رأس عسير مرتفع ، كما أن جزر سوقطرة وعبد الكوري مرتفعة أيضا ، وكذلك الساحل الجنوبي للجزيرة العربية · وقد أصبحنا مقابل رأس شرما ، على ساحل حضرموت ، مساء اليوم التالي لمغادرتنا افريقيا ، ولم يغب البر عن انظارنا بعد ذلك الى أن وصلنا بغيتنا ·

وقد صاحب وصولنا الى شواطىء الجزيرة العربية خسوف للقمر · وكنت اعلم أن هذه الظاهرة البسيطة ستحصل ، من المفكرة التي كنت احملها في جيبي ، ولكني لم أذكر شيئا عن ذلك لأحد ، على أساس أنه شيء عادي بالنسبة للعرب كما هي بالنسبة لنا · ولكن ما حصل كان شيئا مختلفا ، فقد خاف البحارة خوفا كبيرا من هذه الظاهرة ، وظلوا ، طوال مدة الخسوف ، يصلون ويدعون ويدقون الطبول الهندية بحالة من الفزع الخرافي · وقد حدث ذلك في ليلة تمام القمر في شهر مايو عام ١٩٣٩ · فبعد صلاة المغرب بقليل ، وكنا جميعا نجلس حول قاعدة الصاري الصغير نتجاذب أطراف الحديث ، بينما كان نجدي يتقلب على سجادته من ألم في احدى أسنانه ، بدأنا نشعر بأن شيئا غير طبيعي يحدث · فبدلا من نور القمر الساطع في مثل هذه الليالي ، كان النور على سطح البحر شاحبا ، يميل لونه الى الخضرة · وسرعان ما خيم الصمت على البحارة ، وبدأوا واحدا بعد الآخر يحدقون في السماء ، يرقبون بدهشة وفزع كيف يطغي ظل الارض على وجه القمر · وما كاد سلطان المؤذن يلحظ ذلك ، حتى هب واقفا ، واندفع الى المكان المرتفع الذي تعود أن يقف عليه وأخذ يؤذن بصوت عال جدا داعيا الجميع الى الصلاة في الحال · ولم يكن هناك صوت يرتفع غير ذلك الصوت ، فقد كان كل ما حولنا ساكنا ، كما كان صوت المحيط نفسه هادئا ايضاً · وما كاد البحارة يسمعون النداء ، حتى هبوا مسرعين ، وتوضأوا على عجل ، وكونوا صفا وراء حمد بن سالم على سطح المؤخرة · حتى نجدي ، رغم مرضه ، لم يتأخر عن الانضمام اليهم ، بعد أن قام من فوق سجادته ، وهو يئن من الالم ، وتوضأ بسرعة وشارك في الصف · ولا شك أن ماء البحر البارد ، الذي اغتسل به ، قد ولد له ألما مضاعفا ، عندما لامس وجهه المحتقن ·

وعندما اكتمل الصف ، ووجهوا وجوههم نحو مكة ، بدأ حمد يصلي ، وقد استمر في ذلك طيلة المدة التي استمر فيها الخسوف · ولم يكن يبدو الخوف على حمد ، فقد كان ايمانه بالله لا يتزعزع ، ولم يفزعه ذلك الظل على وجه القمر · الا أن الآخرين كانوا خائفين حقا · ومع أني كنت أعلم



تماما ما يجري من الناحية العلمية ، وكنت ، طيلة النهار ، اتطلع لرؤية الخسوف ، الا أنها كانت تجربة غريبة بالنسبة لي أن الاحظ كيف كان الخوف ، الناتج عن الخرافات ، ينتقل من بحار الى آخر ، بحيث عمهم جميعا • بل أني أخذت أكافح لكي أبعد ذلك الخوف عني ، رغم معرفتي التامة بأن ذلك الشعور كان سخيفا لا داعي له • وبعد أن انهى بعض البحارة صلاتهم ، انطلقوا الى مقدمة المركب ، وحملوا الطبول الهندية وأخذوا يقرعونها • أما المدرسون السواحليون ، فعلى الرغم من انهم لم يكونوا يبالون بما كان يجري ، لمعرفتهم التامة بالاسباب الطبيعية لخسوف القمر ، الا أنهم شاركوا فى الصلاة بنفس حماس الآخرين ، ولكنى أعتقد أنهم فعلوا ذلك لأنهم لم يجرؤوا على عدم الاشتراك في الصلاة ، وفي ذلك التعبير الحماسي عن الشعور الديني ، رغم أنهم كانوا يعرفون أن ذلك كله مبني على الاوهام المتعلقة بالخسوف • فقد لاحظت أنهم لم يكونوا يشاركون كثيرا في الصلاة ونحن نبحر بحذاء الساحل الافريقي • أما وقد أصبحنا الان مقابل ساحل الجزيرة العربية ، فقد تذكر هؤلاء فجأة أنهم مسلمون ، بل انهم كانوا يزدادون ايمانا وتحمسا للصلاة ، كلما كنا نقترب من مسقط •

لم يستمر الخسوف الا بضع دقائق ، الا أن وقتا طويلا مر على انتهائه ، قبل أن يعود البحارة الى هدوئهم • وقد شعروا بالارتياح الكبير ، عندما انزاح الظل كله عن وجه القمر ، وأدوا صلاة أخرى دليلا على الشكر والامتنان • وبعد ذلك تجمع فريق الحراسة حول قاعدة الشراع الصغير ، وأخذوا يتناقشون بأصوات خائفة في تلك الظاهرة التي شاهدوها • فقد كانوا يؤمنون بأن القمر نور النبي في السماء ، وأن الظل الذي غطى ذلك المصباح كان نوعا من التهديد والوعيد للنبي ، وتبعا لذلك فهو تهديد لهم أيضا ، وهذا هو سبب قيامهم بتأدية تلك الصلاة • وعندما سألوني عن رأيي في الموضوع ، أخبرتهم بأن ما رأوه لم يكن سوى خسوف عادي للقمر ، وهي ظاهرة فلكية عادية جدا ، يمكن التنبؤ بها ، ويمكن لأي تلميذ في المدرسة أن يعللها • ولكن كلامي لم يترك فيهم أي أثر ، رغم أنهم أخذوا يسألون عن بعض التفاصيل • فلم يكن من السهل تعليل الخسوف لهؤلاء الرجال البسطاء ، الذين كانوا يؤمنون بوجود الجن ، وبكثير من الاسس الخرافية لبعض جوانب دينهم (١) • ولكني حاولت جهدي معهم ، وتمسكت بالتفسير العلمي للظاهرة •

← حمد بن سالم

---

(١) هذا هو راى المؤلف ، وهو حر فى رأيه • ولكن الرد على كلامه سهل وواضح ، وان كنا لا نرى داعيا لأن نفعل ذلك هنا • (المترجم) •

وقد ضحكوا ما شاء لهم الضحك من جهلي ، وشاركهم نجدي في ذلك • فقد كان كلامي شبيها بقصة (التريك) ، أي الكهرباء المخزونة في الغيوم (التي يتولد منها البرق) • وقد ضحكو وضحكوا لدرجة أنستهم خوفهم الخرافي • وكرروا كلامهم قائلين ان أي طفل بدوي في الصحراء يعرف تماما أن القمر مصباح النبي في السماء • أما الظلال التي كانت تغطي وجه القمر ، فلم تكن سوى أحد أفراد الجن الهائلين وهو يهاجم مصباح النبي • وكان ذلك نوعا من الاشارة أو الاختبار للبحارة لكي يلاحظوا ذلك الهجوم ويستجيبوا له بالصلوات الحارة • فقد كانوا يصلّون لكي يطردوا الجن • أما خط الظل المتحرك على وجه القمر ، فلم يكن سوى فم الجني وهو يتقدم ثم يتقهقر ـ ولكن بعض البحارة قالوا ان ذلك كان ناتجا عن جفاف اللعاب الذي كان الجني قد بصقه على المصباح اثناء هجومه عليه • وكان السواحليون الثلاثة يشاركونني سخريتي من مثل هذه المعتقدات الغريبة ، الا أنهم ساهموا في الصلاة والدعاء بنفس الحماس والحرارة ، كما اشتركوا أيضا في القرع على الطبول • على كل حال ، لقد كان الشعور بالخوف الذي اعترى الجميع غريبا ومؤثرا ، وقد شعرت بالارتياح عندما انتهى الخسوف •

ولم يوافقوني قط على تعليلي العلمي للظاهرة ، وكانوا يسخرون مني ويقولون أي انه لم يبق سوى أن أخبرهم في المرة القادمة أن القمر ، كالبرق ، ليس الا « تريك » مخزونا في الغيوم •

ومرت الايام واحدا بعد الآخر بهدوء وبطء ، ونحن نبحر قبالة الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، متجهين الى راس الحد وخليج عمان • ولكن الألم ، الذي كان نجدي يشكو منه في احد أسنانه ، ازداد حدة ، وكان يمكن أن يتحسن ، لو ترك نجدي أسنانه وشأنها ، ولكنه لم يكن يكف عن وخزها واللعب بها كأنه ولد صغير ، وكأنه كان يأمل أن مزيدا من العذاب يمكن أن يخلصه من الالم ، ويعيد اسنانه الى حالتها الطبيعية • وكان سبب المشكلة أن أحد اطباء الاسنان (أو بياطرة الاسنان) اليابانيين كان قد ركب في فم نجدي ، ونحن في زنجبار ، جسرا مؤلفا من ثلاثة أسنان ذهبية • ولكن الذهب لم يكن ذهبا ، ولا كانت الاسنان اسنانا ، الا أن الذهب كان يبدو ذهبا ، وكان سرور نجدي به لا يوصف ، أو هذا ما كان عليه حال نجدي عندما غادرنا زنجبار • الا أن الصناعة السيئة للجسر سرعان ما ولدت خرّاجاً تحته ، وأصبحت السن الذهبية تضغط بشكل مخيف على الجزء الملتهب تحته ، فيزيد الألم أضعافا مضاعفة ، وأصبح نجدي المسكين لا يستطيع النوم أو الاكل ، بحيث أصبحت حياته جحيما لا يطاق • ولكنه سخر من العلاج البسيط الذى اقترحته ، بأن نحاول نزع الجسر

الذهبى من فمه بأية أداة نعثر عليها ، وتابع رحلة العذاب بأن واصل اللعب بفمه بالسّواك ، كما كان كثيرا ما يملأه بالسمن الحار ، ويدخن بلا انقطاع ، ولا يتوقف عن الشكوى والانين · ولم يكن فى الواقع يخاف من أية عملية تجرى على سنه · ولكنه لم يكن يحتمل أن يتنازل عن أسنانه الذهبية ، فقد كانت فى نظره كنزا عظيما لا يمكن التخلى عنه · وفى أثناء ذلك ، ساءت حال فمه ، وتورم وجهه ، وتدهورت روحه المعنوية الى الحضيض · وفى أحد الايام ، قص على كيف أصابه ألم فى احدى أسنانه عندما كان ، وهو صبى ، على ظهر أحد مراكب الغوص العاملة فى الخليج العربى ، وكيف تحمل الالم بضعة أيام ، قام بعدها أبوه بخلع سنه مستخدما فى ذلك مسمارا وزرادية (كلابتين) · وقد تم ذلك بأن أمسك ستة رجال برأسه ، واستمرت العملية ساعتين كاملتين · وعندما أنهى قصته ، اقترح على أن أقوم بنفس العمل فى الحال ، ولكنه كان يشير الى سن سليمة،وكنت متأكدا من أن خلعها لن يخفف الألم أبدا · وقد أخبرته بذلك ، وأصررت على أن الحل هو التخلص من الاسنان الذهبية · كما أنه لم يكن معى من الادوات شىء اطلاقا · وقد اعترف نجدى بأنه اضطر ، بعد تلك التجربة مع والده فى الخليج ، أن يظل فى المستشفى مدة أسبوعين يعالج من التهاب فى فكه · وقد أثنيت على شجاعته ، ولكنى حاولت اقناعه بأن التهابا فى الفك أشد خطورة بمراحل من أى ألم فى احدى الاسنان ، ولذلك فان علينا أن نتخلص من الاسنان الذهبية· ولكنه رفض ذلك رفضا قاطعا ، واستمر فى الشكوى والانين ·

ولكنه ، بعد بضعة أيام أخرى من العذاب ، ضعف ، ولان ، ووافق على التخلص من الاسنان الذهبية ، الا أنه أصر على أن يفعل ذلك بنفسه · وهذا ما حدث بالفعل ، وقد استخدم لذلك آزميل النجار ، وقدوما صغيرا ، واستمرت العملية يومين كاملين ، يومين من العذاب المخيف الذى لا يمكن تصوره · ولكنه ، فى النهاية ، استطاع انتزاع تلك الاسنان الذهبية اللعينة، مع أنه أعلن فى الحال بأن ذلك العمل كان خطأ فاحشا ، وأنه لم يؤثر على حالة الالم التى كان يعانى منها · الا أن الواقع أن فمه بدأ يتحسن فى الحال، ولم يمض يوم واحد حتى كان الالم قد خف الى درجة كبيرة ·

وقد طلب نجدى من يوسف أن يخبىء الاسنان الذهبية بعناية فى صندوق أمتعته ، وأعلن أنه سيركبها ثانية بطريقة سليمة اما فى البصرة أو فى البحرين ·

فى ذلك الوقت كنا نبحر بحذاء جزر « كوريا موريا » ، التى كانت احدى المعالم الرئيسية القديمة على طريق مراكب الرقيق القادمة من زنجبار ·وهى

جزر لها طابعها الخاص من الجمال · وقد مررنا من بينها ، على مقربة من جبل صخرى تآكلت بعض أجزائه ، فبانت طبقاته المختلفة ، وبدا شكله العام فى ضوء الشمس الساطعة فوق رؤوسنا كأنه تمثال مصنوع · وعند قدميه ، على مستوى سطح البحر ، كان يمتد نصف فدان من الرمل الاصفر ، الذى كان يصطلى بحرارة الشمس المحرقة · وعلى يسارنا ، كانت تمتد على البعـــد سواحل الجزيرة العربية الجنوبية ، وهى لا تبدو واضحة خلال النهار بسبب وهج الشمس ، ولكن معالمها تتحدد عند المغيب وعند الشروق · وحولنا كان الماء يعج بالحياة البحرية ، كما كانت احدى البغلات الفارسية ترافقنا عن بعد وهى متجهة بحمولة خفيفة من الحديدة فى اليمن الى ميناء « كنجان » على الخليج العربى ·

شفي نجدي من ألم أسنانه ، وظل في يقظة تامة غير عادية ونحن نعبر جون « كوريا موريا » ، وذلك لأن الريح ، بحسب قولـه ، غير مأمـونة أو مستقرة هناك ، كما أن بدو الشاطيء مستعدون للقيام بأخس الاعمال · وقد قص علي قصة بوم كويتى كان متجها من البصرة الى بربرة ، صادفته بعـض الصعوبات فى هذه المنطقة فى السنة الماضية ، فهاجمه البدو وجردوه من كل ما عليه ، وسرقوا التمر الذى كان يحمله · وأضاف نجدى قائلا ان من السهل أن يصادف المركب بعض المصاعب هناك ، فيضطر الى التوقف ، وعندها يصبح تحت رحمة البدو الذين لا يعرفون الرحمة · فقد كانوا ينتمون الى قبيلة فقيرة ، لا تجد من القوت ما يكفى أفرادها ، لأن أراضيهم كانت قاحلة لا تنتج شيئا ، ولذلك ، عندما كانوا يعثرون على مركب متعطل محمل بالتمور ، كانوا يعتبرون ذلك هبة من الله · وقد استنتجت أن القرصنة ما زالت أحد المخاطر التى تواجه المراكب العربية فى تلك المياه · وبالفعل قص علي نجدى ، الذى لم يكن فى العادة يبالغ فى رواية مغـامراته ، ما حدث لـه شخصيا فى ذلك الجوار قبل بضع سنوات ، وكيف نجا بمعجزة ، عندما كان يقوم بأولى رحلاته البحرية الى افريقيا · فقد كان يقود مركبا صغيرا ، كان يملكه قبل مركبه الحالى ، فى الطريق القديم الموصل من البصرة الى المكلا ، عن طريق مسقط ، وهو يحمل شحنة تتألف من (١٢٠٠) جلة من تمور العراق · وكان ذلك فى أول الموسم ، عندمـا لم تكن الريـاح الموسمية الشمالية الشرقيـة قد بدأت بالهبوب ، وكانت الطريقة الوحيدة للقيام برحلة الى الغرب ، فى ذلك الوقت من السنة ، أن يظل المركب قريبـا جدا من الشـاطيء ، ويستغل كل حركة مؤاتية من حركات التيار المعاكس ، ويستفيد من كل هبة من النسيم تأتى من البر ، لأن الظروف في عرض البحر كانت كلها معاكسة ، بوجـود ريـح جنوبية غربية قوية الى حد ما تدفع المركب الى الخلف · وفى الوقت نفسه ، لم تكن الملاحة سهلة على مقربة من الشاطيء ، لأن ذلك الجزء من السـاحل كان يعج بالمخاطر · وعلاوة على ذلك ، فقد كان البدو هناك غدارين ، غـير

مسالمين • وكان من الضروري أن يقوم نجدي بارساء المركب عدة مرات في البحر بعيدا عن الشاطيء ، خوفا من مخاطر الرسو قريبا من البر خلال الليل • وكان على بحارة المركب الذي يقف على مراسيه هناك أن يقوموا بالحراسة اليقظة ليلا ، خوفا من تقطع حبال المراسي وانجراف المركب وتحطمه على الشاطيء ، بحيث تصبح حمولته من التمور مصدر اغراء شديد للبدو القاطنين هناك •

وتابع نجدي قصته قائلا انه توقف في احدى الليالي ، وأرسى مركبه في خليج صغير مقابل « راس شرتبات » ، لا يبعد كثيرا عن المكان الذي كان مركبنا يبحر قبالته في هذا الوقت • ومع علمه بأن سمعة البدو القاطنين في تلك البقعة من الارض كانت سيئة ، الا أن هذا لم يكن يقلقه كثيرا ، فقد تمكن قبل ذلك من مصادقة عشائر بدوية أسوأ من هؤلاء ، كما أنه كان يوزع التمر بسخاء على جميع مضارب البدو التي مر بها في رحلته تلك • وكان يعرف أن أنباء كرمه الحاتمي تنتقل بسرعة كبيرة في الجزيرة العربية ، ولذلك كان يعتقد بأن تلك الانباء السارة كانت تضمن له رسوا أمينا ، أو على الاقل تؤمن له عدم قطع حبال المرساة • وفي النهار السابقلتلك الليلة ، لم يشاهد نجدي أي مضارب للبدو ، ولذلك لم ينزل الى البر ، لأنه كان متعبا ، وكان ينوي استئناف السفر عند الفجر • وهكذا أرسى مركبه هناك دون أن يرفع عليه أية مصابيح ، كما لم يبق من البحارة أحد مستيقظا يقوم بالحراسة سوى بحار واحد ، أما الآخرون فقد تلفع كل منهم بعباءته وأخلد للنوم • ولا بد أن الحارس الوحيد قد نام أيضا ، عندما أوغل في الليل ، دون أن يلحظ أمرا غير عادي • وفي وقت ما بعد منتصف الليل ، أوقظ نجدي بعنف ، ليجد نفسه أمام ما لا يقل عن ستة من البدو الملتحين الذين يبدو عليهم الجوع ، والذين لم يسمعوا ، على ما يظهر ، بسخائه في توزيع التمر ، وهم يطالبون بحمولة المركب جيمعها • وكان هؤلاء البد يحملون سيوفا وبنادق قديمة ، ويتمنطقون بالخناجر العمانية المعقوفة •

وعندها خاطب نجدي زعيم تلك العصابة من البدو قائلا : « أيها الشيخ! ما سبب تشريفكم اياي وايقاظي في منتصف الليل ؟ » • فأجاب البدوي القذر ، بعد أن أطلق ضحكة خبيثة : « السبب هو التمر • نعم التمر ، هذا هو ما نريده ، أيها النوخذة الشاب • التمر • نريد كل جلة من التمر على ظهر المركب » • فقال نجدي : « ولكنني كنت أوزع التمر على جميع مضارب البدو التي رأيتها على طول الشاطيء » • كان نجدي يقول هذا ، بينما كان معلم المركب يسخر من كلامه ، لانه لم يكن يوافقه على ذلك الكرم الذي لا داعي له • وتابع نجدي كلامه مخاطبا زعيم البدو قائلا : « اذا كنتم تريدون

التمر ، فهو لكم ، ولكن لا تفعلوا شيئا بمركبى الجميل » • وعندما سمع ذلك البدوى القذر كلام نجدى ، أجابه قائلا بكل خبث : « ولكننا لا نريد التمر فقط ، أيها النوخذة • بل نريد أيضا مفاتيح صندوق أمتعتك • هيا ، ناولنى اياها فى الحال • فاننا نرحب أيضا بما يمكن أن نجده على مركبك من المال ، نحن معشر الفقراء • أما أنت فان بامكانك أن تحصل على مزيد منه فى المستقبل » • وقد وجد نجدى أن الوضع سىء ومتأزم جدا ، فأخذ يستعطف البدو قائلا • « ألستم جميعا مسلمين ؟ » ، لمعرفته بالكراهية الشديدة التى كان الرسول يكنها للسرقة والسارقين • ولكن ذلك لم يؤثر فى البدو ، فهم ، اذا لم يسرقوا يموتون جوعا • هذه سنة الحياة بالنسبة لهم • فقد كانت السرقة والنهب مسموحا بها عندهم ، كما كانت حياتهم لا قيمة لها •

وقد تأزمت الامور فعلا ، وبلغت حد اليأس • ولم يخف على نجدى أن بحارته كانوا قد حوصروا وجمعوا كأسرى تحت سطح المؤخرة • كما كان بامكانه أن يرى قمتى صاريين لسمبوكين صغيرين يقفان بجوار مركبه • وقد قدر أن على ظهر مركبه ما لا يقل عن أربعين بدويا • وبدا الامر ميئوسا منه• بل أن بعض البدو كانوا قد بدأوا فعلا بنقل جلل التمر الى السمبوكين الصغيرين • وكان من الواضح أن البدو ، سواء كانوا مسلمين أم غير مسلمين ، لن يقنعوا بأقل من كل ما تقع عليه أبصارهم • كما أن من المحتمل أنهم ، عندما يفرغون من الحمولة ، سيحرقون المركب ويأخذون بحارته معهم ليبيعوهم عبيدا فى داخل البلاد • ولذلك فقد أخذ عقل نجدى يعمل بسرعة ، وكله شعور باليأس ، لعله يجد طريقة للخلاص من ذلك المأزق • وفجأة ، خطرت له خاطرة • ألم يكونوا يريدون صندوق أمتعته ؟

بدأ نجدى يتحادث مع زعيم البدو ، محاولا تسليته بعض الشىء ، والهاءه عما اعتزم القيام به • فأخذ يتظاهر باعتبار الامر كله نكتة كبيرة ، وأنه لا يعدو أن يكون تعبيرا عن ارادة الله ورحمته للبدو الفقراء المساكين• ولذلك فقد صرح لهم بأنه سيفتح صندوقه ، وكان يعرف أن الصندوق لم يكن يحتوى على أى نقود ، وأنه لا ضرر من أن يتفرج البدو على ما فيه ، بل وأن يأخذوا ما يشاؤون من الملابس التى كانت فيه • الا أن نجدى كان يعرف أن فى الصندوق شيئا آخر ، شيئا كان يأمل أن تصل يده اليه قبل أن تصل اليه أيدى البدو • ولذلك فقد تابع نجدى مزاحه مع البدو ، حتى أن بحارته الذين كان بامكانهم سماع ما يقول ، كانوا ينظرون اليه فى ذهول لا يكادون يصدقون ما تسمعه آذانهم •

كان لا بد أن تكون يدا نجدي حرتي الحركة وهو يفتح الصندوق ، ونظرا الى أنه كان ينظر الى الامر كله بغير مبالاة ، فان البدو لم يتخذوا

أية احتياطات خاصة لاتقاء شره • وكما كان الحال على المراكب الشراعية الكبيرة ، كانت مفاتيح الصندوق مثبتة في حلقة معلقة على خصر نجدي • ولكي يتمكن من فتح الصندوق ، كان عليه أن ينحني فوقه ، ويوصل نهاية الحلقة بالقفل • وهكذا فعل ، وهو لا يزال يلاطف زعيم البدو ويوصيه بأن يحتفظ بأفضل التمر لنفسه • فانحنى على الصندوق ، وهو يتظاهر بعدم الاهتمام بهذه العملية ، وقرب المفتاح ببطء من القفل ، وبدأ يحاول فتحه • ولم يتمالك البدو انفسهم ، فاقتربوا منه ، وتزاحموا حوله ، وكلهم شوق لمشاهدة ذلك الكنز الذي يحتوى عليه الصندوق • وبدأ نجدي بادارة المفتاح في القفل ببطء شديد ، والبدو يتحلقون حوله ، بل ان بعضهم بلغ بهم الحماس مبلغا شديدا حتى أنهم ألقوا ببنادقهم جانبا •

وفجأة رفع نجدي غطاء الصندوق ، ومد يده الى الداخل ، وهو يصيح بهم بصوت كأنه زئير الاسد : « والآن أيها البدو الانذال ! أغربوا عن وجهي ، واذهبوا الى جهنم وبئس المصير • أيها البحارة ، اقذفوا بهؤلاء الخنازير في البحر » •

ولم يصدق نجدي نفسه عينيه ، كما لم يصدق بحارته عيونهم وهم يرقبون النتيجة ، بعد ان كانوا غير قادرين على فهم تصرفاته حتى الآن • فقد ولت جموع البدو الأدبار ، وأخذوا يقذفون بأنفسهم في البحر ، دون أن ينتظروا ليفكوا الحبال التي كانت مراكبهم مربوطة بها ، بل انهم كانوا يلقون ببنادقهم وهم يهربون • ولم يقصر البحارة ، بل أخذوا يصيحون ويحدثون ضجة هائلة ، تجاوبت أصداؤها على طول الخليج وعرضه ، وهم يطردون البدو من فوق ظهر المركب ، ويتابعونهم بالصراخ ، وهم يخوضون الماء ، أو يسبحون فيه باتجاه الشاطىء •

وعندما جمع نجدي البنادق ، وجد أنها غير محشوة • بل وجد أنها كانت قديمة لدرجة أنها يصعب أن تطلق منها طلقة واحدة • ثم أخذ ينظر الى مسدسه بكل تأمل وهو يشكر الله كثيرا ، فقد كان المسدس فارغا أيضا •

أما وقد تذكر نجدي هذه الاحداث ، فقد ابتعد بمركبنا كثيرا عن ذلك المكان ، وهو يقول : « لا بد أن البدو يتذكرون تلك الليلة أيضا ، وأنهم قد عقدوا العزم على ألا يفشلوا مرة ثانية » • لقد كان الحظ حليفه في تلك الليلة ، ولكن الحظ لم يحالف كثيرين غيره من النواخذة الكويتيين ، الذين لا تزال عظام بعضهم ، وبقايا مراكبهم المحطمة ، منثورة هناك على ذلك الشاطىء القاسي البغيض •

كنا نتابع ابحارنا خلال الليل في بحر كأن مياهه مضاءة بالفسفور ، وكأن قمم الامواج السوداء المتكسرة منارة بأنوار خضراء قوية جدا تنبعث من أسفلها · وعند ظهور القمر ، كانت بعض السحب السوداء تتراكم بسرعة في السماء من ناحية الغرب ، مع شيء من البرق ، وهدير الرعد البعيد · وفي هذه الاثناء ، كان نجدي ، وهو لا يزال يشعر بالضعف المتسبب عن ألم الاسنان الذي أصابه ، ينزل الاشرعة ، ويترك المركب ينجرف بهدوء ، خوفا من أي تغير مفاجيء في اتجاه الريح أو قوتها · ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولذلك كنا بعد منتصف الليل نرفع الشراع ، ونبحر ثانية ، بعد أن صفا الجو وظهرت النجوم ·

أخذنا نقترب تدريجيا من رأس الحد ، وهو نقطة التحول على ساحل الجزيرة العربية · وعندئذ خلع المدرسون السواحليون سراويلهم ، التي كانوا يرتدونها حتى الآن ، وارتدوا الجلاليب العربية الفضفاضة · لقد كانوا ثلاثيا غريبا · فلم يكونوا يختلطون كثيرا بالآخرين ، بل كانوا يلتصقون بعضهم بالبعض الآخر · ويعيشون على القسم الايسر من سدة النوخذة ، فيضيقون الخناق على حمد بن سالم ، الذي كان يعيش هناك أيضا · كما كانوا يقضون النهار بطوله وهم يتحادثون بلغتهم السواحلية اللطيفة ، وكأنهم منهمكون في تدبير مؤامرة خطيرة · وعندما استفهمت من نجدي ، الذي كان يعرف تلك اللغة ، عن المواضيع التي كانوا يتحدثون فيها ، افاد بأنهم كانوا يبحثون الاوضاع السياسية في زنجبار · وكثيرا ما كان نجدي يوبخهم على ارتداء السراويل ، التي لم يكن يعتقد أنها مناسبة لهم ، وعلى عدم مواظبتهم على تأدية صلواتهم اليومية ، وعلى كونهم مثلا سيئا للآخرين · الا أنهم لم يكونوا يبالون بما يقول ، بل كانوا يواصلون حديثهم المعتاد بلغتهم السواحلية ·

عندما رأيت هؤلاء الثلاثة أول الامر حسبتهم ثلاثة زنوج ، فقد كانت هيئتهم أقرب الى الزنوج من هيئة أي من بحارتنا · الا أني علمت منهم فيما بعد أنهم شقيقان بلوشيان ، وعربي واحد يتصل بأمير زنجبار بشيء من القرابة · وكانوا يتكلمون اللغة الانجليزية بطلاقة ، كما كانوا قد تدربوا على أعمال الكشافة ، ويشعرون بالاعتزاز بتلك الخبرة ، وهاهم الآن منطلقون للتعرف على العالم الخارجي · أما الاخوان البلوشيان ، فانهما ينحدران من أب بلوشي يعمل في تجارة العاج وأم من الكونغو ، وقد ولدا في مكان ما في داخل افريقيا · أما العربي ، فقد كان ربع زنجي ، مولودا في زنجبار · لقد كانوا ثلاثة شباب يتمتعون بصحة جيدة ، وتتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والعشرين · أما سبب مغادرتهم المفاجئة لزنجبار،

فلم أتمكن من معرفته تماما ، الا أنهم غادروها دون أن تكون معهم جوازات السفر الرسمية • وبحسب روايتهم ، فقد كانوا ثائرين على حكم أهلهم ، وعلى التربية التقليدية للشباب المسلم ، وذلك بحكم الثقافة التي يتحلون بها ، والتي جعلتهم لا يرضون بالافكار القديمة ، ولا يقنعــون بحيــاة زنجبار المحدودة جدا • ولا بد أنهم سمعوا الكثير عن العالم الخارجي مــن الهنود الكثيري العدد هناك ، ولذلك فقد رغبوا في الخروج من بلادهــم للتعرف على ذلك العالم الواسع ، وكانت الخطوة الاولى أن ساعدهم السيد سليمان على عبور البحر الى مسقط على مركب نجدي • وكان هذا قد خبا حماسه الاول نحوهم ، الا أنه كان يتركهم وشأنهم ، فيما عدا نقده اليومي لملابسهم الاوروبية ، ولتخلفهم عن تأدية الصلوات الخمس • ولم يكن نجدي يتقاضى أجرا على سفرهم في مركبه ، وكان يبدو كأنه نادم على تهوره ، وتعهده للسيد سليمان بأن يوصلهم الى مسقط بسلام •

وقد تحدثت معهم باللغة الانجليزية ، وكنت أشعر بشيء من الراحة بعد جهادي الدائم للتحدث باللغة العربية ، وفهمت منهم أنهم كانوا يحبون الحياة فى زنجبار ، الا أنها كانت حياة محدودة جدا بالنسبة لشباب يرغبون فى التفرج على العالم وهم صغار السن • لقد كان يسعدهم جدا أن يتمكنوا من الانخراط في سلك البحرية البريطانية في زنجبار ، الا انه لم يكن هناك مجال لذلك • ولذلك فانهم ذاهبون الى الخليج ، على أمل أن يجدوا سفينة تجارية في مكان ما هناك ، تقبل أن يعملوا على ظهرها • وربما تمكــن بعض أقاربهم ، الموجودين فى مسقط ، من مساعدتهم على تحقيق بغيتهم • وقد فهمت أيضا أن آباءهم لم يكونوا يوافقونهم على ما يريدون • وبدا من الواضح أن ذويهم كانوا يريدون منهم أن يتزوجوا ويستقروا فى زنجبار ، الا أن هذا لم يلق هوى فى نفوس هؤلاء الشباب ، الذين أحببتهم وتمنيت لهم التوفيق والنجاح ، فقد كانوا مجموعة طيبة محبوبة •

أخذنا ندور حول رأس الحد ، بعد أن مضى علينا ثلاثة أسابيع منــذ مغادرتنا زنجبار ، وكنا برفقة خمسة مراكب من نوع السمبوك متجهة الى ميناء صور ، فلم تكن المراكب الصورية تتعدى ذلك الميناء فى طريق عودتها الى أرض الوطن • أما اذا بقيت بعـض الحمولة على ظهورها ، فقــد كان بحارتها يفرغونها على الشاطىء ، وينتظرون الى أن يحــين الوقت المناسب للسفر شمالا فى الخليج العربى ، للتزود بشحنة من تمور البصرة • وكانوا دائما ، وهم فى طريق عودتهم الى الوطن ، ومعهم شحنات من الأعمــدة الخشبية من الروفيجى أو لامو ، يحاولون بيعها على طول الشاطىء ، اما فى حضرموت ، ان استطاعوا الى ذلك سبيلا ، أو فى بلدتهم صور نفسها • أما اذا لم يتمكنوا من بيعها ، فقد كانوا يفرغونها ويخزنونها ، وبعد استراحة

الصيف ، يعيدون تحميلها ، ويشحنونها الى البلدان الواقعة على خليج عمان، أو الخليج العربى ، كالبحرين وقطر والكويت والبصرة والموانىء الاخرى الواقعة على الساحل الفارسى من الخليج • وهذا ، على ما أعتقد ، هو سبب عدم مرورنا بحضرموت فى طريق العودة ، فقد كنا نترك ذلك السوق للعمانيين من صور ، لعلمنا أننا نستطيع أن ننافسهم ونسبقهم الى أسواق أفضل فى الموانىء المأهولة على الخليج العربى •

لم نر من ميناء صور سوى الجبال المحيطة به ، وقد حزنت لعدم استطاعتى زيارة ذلك المكان الجميل ، الذى خرجت منه تلك الشخصيات المتنوعة من أمثال ماجد وسعيد المهرب ، وعبد الله ، ذلك الانسان الغامض أبدا ، ومبارك ، مرشدنا فى دلتا الروفيجى • الا أنه لم يكن بامكاننا أن نبيع شيئا هناك ، ولذلك واصلنا سيرنا دون توقف ، مع أن نجدى أخبرنا بأنه ربما نزل الى المدينة ، اذا كان البحر هادئا • فقد خطر له أن يحاول استرجاع بعض الديون القديمة ، التى كانت له على بعض سكان البلدة • ولكن حمدا نصحه بأن يغض النظر عن ذلك كلية ، فلم تكن ، فى رأيه ، فائدة ترجى من محاولة جمع أية ديون من هناك ، ولذلك فان النزول الى البلدة لن ينتج عنه الا تأخير سفرنا • وهكذا واصلنا سيرنا بمساعدة ريح جنوبية لطيفة ، وبدأنا بالابحار صعدا فى خليج عمان ، بينما كان أصحابنا الثلاثة ، السواحليون أو البلوشيون أو العرب ، أو كائنا ما كانوا ، يغيرون ملابسهم الاوروبية ويرتدون الجلابيب العربية ، ويزيدون اهتمامهم بتأدية الصلوات فى مواقيتها ، والبحارة يتجمعون فى الامسيات اللطيفة ويزداد حديثهم عن الكويت • ولم أعد أسمع الا اسم الكويت ، الكويت ، الكويت • فقد كانت الكويت بالنسبة لهم جنة الله فى الارض • ولم نكن سنتوقف فى مسقط الا لحمل البريد ، ولا بد أن يتسلم نجدى هناك رسالة من أبيه ، ينصحه فيها بأفضل الاماكن التى يمكن أن يبيع فيها بضاعته ، ويحصل على أفضل الاسعار • وبعد أخذنا البريد ، سنتجه الى الكويت مباشرة ، فقد كان الجميع يفترضون أنها ستكون أفضل مكان لبيع شحنتنا من الخشب •

وبعد أن تخطينا ميناء صور ، سكنت الريح تماما فى خليج عمان ، وتوقف المركب هناك منتصبا فى المياه الزرقاء ، وكأنه قد اغتبط برؤية صورته الجميلة فى الماء ، حتى أنه عزف عن مغادرة المكان • وكنا نرى ، على البعد ، من الناحية اليسرى ، جبال عمان الشاهقة الجرداء التى حرقتها أشعة الشمس • كما كنا نرى أمامنا بيوت مسقط البيضاء ، وهى تبدو على البعد كأن كلا منها مبنى على صخرة عالية • وقد استغللنا فرصة الهدوء ، فأرسلنا البحارة الى الماء ، وهم نصف عراة ، لكى ينظفوا قاع المركب مما

علق به من الاعشاب • ومع أنى كنت أعلم أن معظم بحارتنا يعملون فـى الغوص على اللؤلؤ ، الا أنى كنت مندهشا من طول المدة التى كان يمكنهم أن يقضوها تحت الماء • فقد كانوا يسبحون ببطء تحت متن المركب من جانب الى جانب وهم ينظفون القاع ، دون أن يبالوا كثيرا بسمكتى قرش كانتا تسبحان بهدوء عند المؤخرة • وعلى سدة النوخذة ، كان نجدى يسلى نفسه بالغناء فى شمس الصباح الجميل ، بعد أن تخلص من ألم أسنانه ، وشـعر بكثير من الراحة والسعادة • أما محمد ، عريف البحارة ، فقد كان يسخن الطبول والدفوف على موقد جاسم ، بينما كانت الهريرات المولودة حديثـا تصعد الى السطح للمرة الاولى ، وتقفز وتتدحرج وتلعب بسعادة وحبور •

وبعد انقضاء ثلاثةوعشرين يوما علىمغادرتنا زنجبار دخلنا بمركبناالى خليج «مطرح» ونحن نهزج وندق الطبول ، ونرفع العلم الكويتى على مقدمة المركب ومؤخرته ، ونعلق نموذجا لطائرة جديدة على قمة سار فى المقدمة • لقد كان وصولا مؤثـرا ، والقينا مراسينا بين عـدد من المراكب الكويتية القادمة من زنجبار والهند ، والتى رفعت أعلامها ترحيبا بقدومنا • كمـا كانت أعداد أخرى من المراكب الفارسية والعمانية والهندية تملأ الاجـزاء الداخلية من الجون الصغير • وكان هناك مركب عبد الوهاب خليفة ، الذى كان قد أبحر بمركبه من دلتا الروفيجى قبلنا باسبوعين ، ولكنا لم نسمع شيئا عن المركب « بدرى » ، كما أنا لم نتوقع وصول عبد الله القطامى قبل مرور بضعة أيام أخرى • لقد كانت سفرتنا فى هذه المنطقة موفقة جدا ، وكان نجدى سعيدا جدا ، رغم الاخبار التى وصلتنا من سائر النواخـذة ، والتى كانت تشير الى عدم توفر الفرصة المناسبة لبيع شحنتنا من الخشب ، سواء هنا أو فى مسقط • فقد وصلت الى نجدى رسالة من والده ، ينبئـه فيها أن كل شىء هادىء فى الكويت مرة ثانية ، وأن زوجته قد رزقت بصبى جميل •

الفصل الخامس عشر

في ميناء مطرح

فى ميناء مطرح

عندما كنا ندخل خليج مطرح، ونحن عائدون من زنجبار، رحت أتساءل مرة ثانية عن مقدرة نجدى الملاحية ·فعندما سمعت لأول مرة بأننا سنلازم الشاطىء فى رحلة العودة الى الوطن ، بعد أن كنا قد فعلنا ذلك طوال رحلة الذهاب الى أفريقيا ، كنت ميالا الى الشعور بشىء من الازدراء للملاحة العربية · ولكنى أيقنت الآن بأنى كنت على خطأ ، وأن نجدى ، كما قال ، قد قاد مركبه فى الطريق الصحيح · كما أنه لم يزعم فى يوم من الايام أنه كان ملاحا ، بل كان دائما يقول أنه يعرف طريقه معرفة تامة · ويجب علي أن أعترف بأن كلامه صحيح تماما ، وأنه قام برحلة ممتازة · فلو كان علي أنا أن أقوم برحلة العودة ، لسلكت الطريق المباشر فى عرض البحر ، ولكنى تأكدت الآن ، بعد أن أتم المركب « فتح الخير » الرحلة بسلام ، أن الطريق الذى كنت سأسلكه لم يكن الطريق الصحيح · لقد كانت الرحلة مصحوبة بشىء من الريح ، فيما عدا بعض الاوقات القصيرة التى كانت الريح تهدأ فيها تماما ، وتولد لنا شيئا من الازعاج ، وكان من الممكن استغلال تلك الريح بشكل دائم ، بحيث تساعدنا فى سيرنا · لقد قام نجدى بانجاز رائع حقا ، وكنت دائما أحسده قليلا على تلك الكمية الهائلة من المعلومات البحرية التى كان يختزنها فى رأسه ، ولكنى أصبحت الآن أكن له اعجابا وتقديرا عظيمين · فربما كان صحيحا أنه لم يكن بحاجة الى أية معلومات لا يعرفها ، ولكنه كان صحيحا أيضا أن معلوماته كانت وليدة جهده وخبرته الشخصية ، وأنها كانت كافية له تماما ، وأنه لم يكن بحاجة الى الرجوع الى الكتب للحصول على المزيد · فطالما كان بامكانه ، بحسب قوله، أن يقوم برحلة طويلة من هذا النوع بسهولة كبيرة ، فلماذا يكترث بعلوم الملاحة ؟ ومع ذلك ، فانى لعلى يقين أنه كان يرغب فى اتقان ذلك العلم ، لو أتيحت له الفرصة · فقد كان صديقنا العجوز ، عبد الوهاب خليفة ، يلاحقنى باستمرار لكى أطلعه على أسرار آلة قياس الابعاد ، وآلة قياس الزمن (الميقت) ، والجداول الملاحية ، كما أنه كيثرا ما كان يبدى أسفه لعدم وجود مدرسة للملاحة البحرية فى الكويت · فقد كان يرى أن من واجب العرب أن يحافظوا على هذا العلم القديم ، حتى لو لم تكن له فائدة عند القيام بالرحلات العادية الى افريقيا ، وأن عليهم أن يحافظوا لا على فن الملاحة فقط ، بل وعلى فن قيادة السفن أيضا ، لأن يوم عزهم ومجدهم آت لا محالة فى وقت قريب ·

لقــد أعجبت كل الاعجـاب بأواصر الصـــداقة التى كانت تربط بين النواخذة • فكلما كنا نرسو فى أحد الموانىء ، سواء كان ذلك فى مينـاء مطرح أو فى غيرها من الموانىء التى قمنا بزيارتها ، كانت جماعات منهم تتقاطر على مركبنا فى الحال ، وتتجمع على سدة النوخذة فى مؤخـــرة المركب • وهناك كانوا يجلسون طوال الليل يتحدثون ويتسامرون ، بينما النراجيل تدور عليهم من واحد الى آخر • ولم يكونوا يتوقفون عن الحديث الا عند الصلاة ، أو عند تناولهم طعام العشاء • وعندما يحل موعد صـــلاة العشاء ، كانوا يشاركون بحارتنا فى الصلاة ، فيقف النواخذة مع نجـــدى فى وسط الصف وراء الامام حمد ، بينما يكمل بحارتنا وبحارتهم الصف على الجانبين ، من أول المركب الى آخره ، ويولون وجوههم شطر مكة ، ويبدأون بترتيل صلواتهم ، فى الوقت الذى تختفى فيه آخر أنوار النهار • وفى مثل هذا الوقت كان غناء الايرانيين ، وهم ينقلون الخشب من بغلاتهم ، يتوقف تماما ويخيم الهدوء والسكينة على المرسى بأكمله • وفى الليل ، كان ضيوفنا ينامون معنا على ظهر المركب ، وفيما بعد ، تقام الولائم التى كان اسماعيل يحييها بعزفه على القيثارة ، رغم انه لم يشف تماما من الحمَّى التي كان قد أصيب بها فى دلتا الروفيجى • لقد كانت تلك الصداقة ، التى تربط بين نواخذة الميناء الواحد ، صداقة حقيقية ، وكانوا يؤلفون عصبة واحـــدة مترابطة • وكانوا مستعدين دائما لمساعدة بعضهم بعضا تحت أية ظروف ، وللقيام بأعمال انقاذ خطرة لا يتقاضون عنها آجرا ، ولأن يعير بعضهم بعضا واحدا أو أكثر من البحارة ، أو أحد الطباخين ، أو مجموعة من السجاد ، أو أى شىء آخر يكون لازما • وفى الحالات الطارئة ، كان أحدهم مستعدا لحمل بحارة مركب آخر آلاف الاميال • كما كانوا يأخذون على مراكبهم ضباطا من مراكب أخـرى ، يبعث بهم نواخذتهم لمحـاولة تحصيل الديــون المتأخرة • ولم يكونوا يتقاضون أجرا عن أى من الاعمال المذكورة • ولم يكن أى نوخذة عربى يطمع فى الاستيلاء على أحد من أطقم بحارة مركب آخر • لقد كانت صداقتهم أخوة حقيقية في البحر ، وكنت لذلك أكن لهم كل حب واحترام • ولم تكن الحوادث البحرية غير معروفة لديهم ، فقد كانوا يبحرون فى مياه خطرة ، ولكنهم قلما كانوا يفقدون أحدا من بحارتهم • ففى بعض الاحيان ، كانت بعض مراكبهم تتفسخ وتغرق ، كما كان يحدث أن يغرق أحد تلك المراكب تحت وطأة المطر الغزير ، اذا كان محملا أكثر مما يطيق ، وهو فى طريق العودة من افريقيا أو من ساحل ملابار ، ومع ذلك فقلما كان أحد من بحارتهم يفقد فى مثل هذه الحوادث • لقد كان هؤلاء النواخـذة الكويتيون مجموعة طيبة ، وتمكنت ، خلال الاشهر الطويلة التى قضيتها على بوم نجدى ، أن أعرفهم معرفة جيدة ، ولذلك فقد كان جميع ضيوفنــا فى مطــرح من الاصــدقاء القــدماء •

وقد علمنا من هؤلاء ان الامور لم تكن حسنة في مسقط أو في خليج مطرح ، وان التجار ، رغم حاجتهم للاخشاب التي كنا نحملها ، لم تكن لديهم الروبيات اللازمة لتسديد ثمنها • وتحت هذه الظروف ، لم يكن هناك داع لاطالة بقائنا في هذا المكان • ولذلك فقد انزلنا المدرسين السواحليين الثلاثة ، وبعنا شيئا من جوز الهند الذي كنا نحمله ، وتزودنا بالماء العذب من بئر المسجد ، وبعنا حوالى نصف الشعيرية الى مركب من دبي نقلت اليه خلال الليل ، واشترينا كمية من حلويات مسقط الذائعة الصيت ، ثم غادرنا المكان • ولم نمكث في خليج مطرح الا ثلاثة ايام ، وهي اقصر مدة نقضيها فى أى ميناء حتى الآن • ولعل نجدى أصبح فى شوق شديد لرؤية ابنه الجديد •

لقد تفرجت ما طاب لي أن اتفرج في مطرح ومسقط خلال اقامتنا القصيرة ، ولم أجد في أي من المكانين ما يلفت الانتباه • فقد كان ميناء مطرح أقذر مكان زرناه خلال رحلتنا الطويلة كلها ، وكانت الرائحة الكريهة، المنبعثة من الشاطىء ، قابضة للنفس • وبلدة مطرح هذه تقع على جون صغير ، يبعد حوالى ميل أو ميلين الى الشمال من مسقط ، بين جبلين ، يقوم على كل منهما حصن برتغالي عفّى عليه الزمن ، فلم يبق منه الا الخرائب • وعلى امتداد الشاطىء في البلدة ، تقوم بيوت التجار والوسطاء ، الذين ينتمون الى الطبقة العليا من ذلك المجتمع الصغير • بينما تنتصب مئذنة هنا ومئذنة هناك • وعلى أحد طرفي الشاطىء ، توجد ساحة للخردة من المراكب ، رأيت فيها مركبين صغيرين باليين مغمورين حتى نصفيهما في المياه ، وعلى الطرف الآخر توجد نقطة الجمرك ، ومكان النزول الى الشاطىء الرملي نفسه ، فهو يستعمل ممرا ، ومنتزها ، ومرمى للنفايات والخردة ، وسوقا ، ومكانا لبيع السمك ، ومرقاة الى البر ، ومأوى للكلاب ، ومرحاضا عموميا لجميع سكان عمان ونصف سكان بلوخستان • وهو دائما مملوء بالكلاب المصابة بالجرب ، التي تبدو نصف ميتة ، وبالبلوشيين ، وبالسمك ، والماعز ، وجميع أقذار البشر ونفاياتهم ، حتى أن المرء يتردد كثيرا قبل النزول اليه والتمشي عبره • كما أن البدو العمانيين المسلحين يختالون عليه حفاة ، على الرغم من كل تلك القاذورات المتعفنة المكدسة على طوله ، وهم يرتدون القمصان الداكنة ، ويتمنطقون بالأحزمة المحشوة بخراطيش الرصاص ، بينما يتدلى من وسط كل منهم الخنجر المعقوف ذو المقبض الفضي • وكثير من هؤلاء يحملون بنادق ضخمة مخيفة ، مطعمة بالزخارف الفضية ، أو بالحلقات المعدنية المصنوعة من النحاس أو الفضة • ولم تكن جميع تلك البنادق قديمة جدا ، بل أن بعضها يبدو صالحا للاستعمال •

لقد كانت مسقط ، كما كان خليج مطرح فيما مضى ، مركزين هامين لتجارة الاسلحة الى منطقة الشرق الاوسط ، وكثيرا ما حملت شحنات من هنا عبر الخليج العربي الى أفغانستان ، أو شمالا الى الأحساء ، وبلاد فارس ، والعراق والكويت • بل ربما كان هناك شيء من التهريب الى ايران • ولكن تجارة السلاح منظمة ومراقبة الآن ، ولم يعد هناك مجال لكسب الثروات من وراء هذا العمل ، على الاقل في عمان • وانتقلت عمليات التهريب الى ايران ، والى موانيء دبي والشارقة • وبتوقف تجارة السلاح ، تضاءلت أهمية مسقط ، فاصبحت الآن من الموانيء غير الهامة على ساحل الجزيرة العربية ، ولا يستعملها العرب الا لتوصيل بعض الطلبيات من البضائع • كما أن حياة البشر لا تزال رخيصة فيها ، فحتى في هذا الوقت ، لا يليق بالرجل المحترم أن يخرج من منزله دون أن يكون حاملا سلاحه • وفي السوق يوجد عدد من حوانيت بيع السلاح ، يستطيع المرء أن يشتري منها بنادق البدو أو سيوف الحضر ، ونادرا ما ترى عمانيا مرتديا كامل ملابسه ، دون أن يكون متمنطقا الخنجر المعروف ، سواء أثناء سيره في الشارع ، أو حتى على شاطيء مطرح •

وعلى طول الشاطيء ، كنت تستطيع أن ترى أكوام السمك بأنواعه المختلفة ، من سمك القرش ذي الرأس الشبيه بالمطرقة ، الى سمك الشفتين العملاق ، فقد كانت مياه الخليج المحاذية لعمان تزخر بالسمك ، الذي كان كثير منه يشحن الى أوربا ليستعمل سمادا • ومن آن لآخر ، كنت ترى سيارة عتيقة ، تهتز اهتزازا شديدا ، وهي تحاول السير في شارع مسقط الكثير الحفر ، وتعبر الشاطيء وهي تشق طريقها بين الاطفال والكلاب • وخلف الصف المواجه للشاطيء من البيوت الانيقة ، كان السوق يمتد بطرقاته الملتوية المتعرجة الضيقة ، تحميها من حرارة الشمس سقوف من جريد النخل والحصير ، وتقوم على جانبيها الحوانيت الصغيرة ، تعرض بضائع اليابان الرخيصة • ومع كل ما سبق ذكره ، فقد وجدت أن مطرح مكان جميل ، وان رائحة البلدة أقل سوءا مما يمكن أن تكون في أمثالها من البلدان الاخرى •

وكان النواخذة الكويتيون يجلسون ، في العادة ، في أحد مقاهيهم المفضلة ، قرب سوق السمك ، على الشاطيء ، حيث كانوا ينزلون بقواربهم الطويلة • وهناك كنت أجلس معهم ، عندما أكون على الشاطيء ، وتدور عليّ من آن لآخر ، وعلى فترات طويلة متعاقبة ، أكواب القهوة المعطرة بالقرنفل أو الهال ، أو الكؤوس الصغيرة من الشاي الشديد الحلاوة • ومن ذلك المقهى ، كان باستطاعة المرء أن يرى الشاطيء بأكمله ، ويراقب كل ما

يجري في الميناء ، ولذلك كان المكان مناسبا لنواخذة المراكب • وكان الشاطىء مملوءا ، بدون انقطاع ، بأجناس وأشكال من البشر شتى ، من آلاف البلوشيين الى العمانيين ، والعرب ، والفرس ، والهنود ، والكويتيين القادمين على مراكبهم ، والبدو المدججين بالسلاح • كما كان بامكان المرء أن يشاهد النساء ، بسراويلهن الطويلة ، وأقنعتهن الفظيعة ، وهن يزعقن ، مناديات أطفالهن التعساء ، لكي يكفوا عن ضرب الكلاب بالحجارة ، وأن يشاهد الاطفال وقد طليت وجوههم بالكحل والألوان المختلفة حتى أصبحوا يبدون كالمهرجين بطرابيشهم ذات الشراريب ، ومعاطفهم الحمراء ، وان يرى البلوشيين بسراويلهم الضخمة التي يكفي قماش كل رجل منها لصنع خيمة صغيرة ، والفتيات الصغيرات بسراويلهن ، والأولاد العراة وهم يشاكسون الكلاب الضالة ويقذفونها بالحجارة • ومن علّ ، كان الحصنان العاليان ينظران الى كل ذلك شزرا ، وهما يقفان على التلال التي حرقتها الشمس وسودتها ، كما كان الطريق الى مسقط يدور حول الصخور ، ثم يتجه الى الجنوب •

وهناك في مقهى النواخذة ، كنت تسمع نجدي وهو يصيح مناديا أحد النُدُل لكي يبدل نار نرجيلته ، بينما ترى عبد الوهاب بن خليفة الغانم يرشف كوبا من القهوة المعطرة بالهال ، وهو يراقب الاعمدة الخشبية وهي تنزل من قاربه الطويل الى الشاطىء • وفي هذا الوقت يصل مركبان هنديان ، يبدو أنهما قادمان من بومباي ، الى المرسى ، وهما يرفعان الاعلام الحريرية الكبيرة ذات الخطوط الافقية الحمراء والبيضاء • بينما يتجه حمد بن سالم الى الصرافين ، لكي يبدل ما يحمله من العملة الفضية النمساوية بالروبيات الهندية • وكانت هذه العملات النمساوية تحمل تاريخ ١٧٨٦ ، ولكنها مضروبة في دار سك النقود البريطانية في العام السابق ، وهي العملات التي كان حمد قد أتى بها من زنجبار • ولا زال البدو العمانيون يفضلون هذه القطع النقدية المستديرة التي تحمل ذلك الوجه السمين لماريا تريزا ، ولذلك كانت تصرف بسعر مناسب في سوق مطرح ، بمبلغ تسعين روبية لكل مائة منها ، بينما هي مشتراة من زنجبار بثمانين روبية فقط •

وقد رأيت يوسف أيضا ، وهو يذهب في مهمة شراء الحلويات لأسرة نجدي ونسائه ، بعد أن سأل نجدي عما يرغب فيه • لقد كان هذا المقهى ملتقى الجميع من الضباط ، وقائدي الدفة ، وأشقاء النواخذة القادمين من جميع المراكب الراسية في الميناء ، وكانت تتم فيها كثير من الصفقات التجارية • ولكن النواخذة فقط هم الذين كانوا يجلسون على المقاعد ـ أعني النواخذة ، والوكلاء ، والوسطاء الذين لهم علاقة بالمراكب ، والتجار الذين

كانوا يسعون لشراء بعض شحنات المراكب • لقد كانت تلك المقاهي شبيهة بأسواق العملات ، وبالنوادي ، وكانت معظم المعاملات المتعلقة بالتجارة البحرية تتم فيها • ولم يكن النواخذة يدفعون في الحال ثمن ما يطلبون من المشروبات ، فقد كانوا معروفين لدى صاحب المقهى ، وكانوا يدفعون حسابهم عند مغادرتهم البلدة ، بل أنهم كانوا حريصين جدا على المحافظة على سمعتهم الطيبة عن طريق علاقاتهم بصاحب المقهى ، وطريقة تعاملهم مع الآخرين ، وكان لكل منهم عادة حساب مفتوح مع أصحاب المقاهى المتشابهة ، القائمة في جميع البلدان التي يتعاملون معها ، من جدة الى زنجبار ، ومن العشار الى بربرة ، ومن موقاديشو الى خليج مطرح •

وعندما كنا نمل الجلوس في المقهى ، ونرغب في شيء من التغيير ، كان بعضنا يذهب احيانا للتجول في السوق المكتظ بالناس • وقد وجدت السوق كبيرا ، مع أن بحارتنا كانوا يقولون انه لا يقارن بسوق الكويت • الا أنهم كانوا يهرعون الى شراء قطع طويلة من قماش ذي لونين ، أحمر وأصفر لأنه قماش جيد ، بحسب قولهم • كما كانوا يشترون سلالا صغيرة من الحلويات يحملونها الى ذويهم ، فقد كانت حوانيت الحلوى في مسقط ومطرح مشهورة بجودة مصنوعاتها • الا أن اصحابها كانوا سيفلسون لو اعتمدوا علي وعلى أمثالي • فعلى الرغم من أني أمضيت ستة أشهر وأنا أحاول استساغة طعم تلك الحلويات ذات الطعم الشديد الحلاوة لدرجة تصيب الانسان بالغثيان ، الا أني لم أفلح في ذلك أبدا • الا أن السوق كان مسليا لبعض الوقت ، فهو يزخر بالحياة والمتعة بأشكالها المختلفة • فأنت ترى هناك رجالا يحلقون شعور آخرين بالموسى ، وآخرين يكتبون ، وغيرهم يسنون السكاكين بادارة قرص المجلخ المصنوع من حجر الصوان ، ورجالا وصبيانا يطرقون الحديد في محددة قائمة على جانب الطريق ، كما ترى الحوانيت المملوءة بالتباريق ، والاقمشة القطنية ، وتلك المصنوعة من وبر الجمال ، علاوة على حوانيت السلاح ، والصرافة ، والمعادن ، حيث يمكنك أن تجد مجموعة كبيرة من الاقفال المتنوعة ـ لأن العربي يقفل كل شيء بالقفل ـ بالاضافة الى بعض الادوات البسيطة الرخيصة الثمن • أما أرض الشارع المار بالسوق ، فهي من الرمل الذي أصبح قاسيا من كثرة وطء الناس له ، ولكنه لا شك يصبح كتلة متصلة من الوحل لو أمطرت السماء عليه •

أما مسقط ، فانها اذا قورنت بمطرح ، تبدو أقل امتاعا ، فقد كانت، عندما زرتها ، مكانا هادئا يبدو عليه الكساد • ولم تتكرر زياراتي لها كثيرا ، كما أن البحارة لم يذهبوا اليها قط • وكان الوصول اليها يتم

بسيارة عتيقة تسير عبر ممر جبلي جيد · كما كانت تبدو للوهلة الاولى بلدة جميلة ، فيها بعض النباتات الجيدة ، مثل قصر السلطان (وكان هـذا شابا صغير السن ، بعد أن تنازل والده حفيد السيد سعيد المعروف عـن الحكم وقرر تمضية بقية حياته في اليابان) ، وكمقر المقيم البريطاني ، وبيوت بعض كبار التجار · وعلى الناحية الاخرى من الجون من جهـة الجنوب ، كان يقوم حصن برتغالي متهدم يستعمل الآن سجنا ·

وكان المسئول عن السجن رجلا بلوشيا محترما يعامل السجناء كأنـه هو مالك الحصن · ولم يكن عدد أولئك السجناء يزيد عن العشرين رجلا ، أرجلهم مقيدة بالسلاسل الحديدية · وكان احدهم مسجونا هناك عقابا على سرقة جمل ، وقد مرت عليه سنة ، ولا يعلم كم سيطول به المقام في هـذا المكان · كما كان بين السجناء أربعة من الشيوخ العتيقين من مكان ما في الباطنة ، حكم عليهم بالسجن لقيامهم بحرق بستان لأحد الخصوم اثناء تأجج النزاع بينهم وبينه · وكان هؤلاء يرتدون الجلابيب الطويلة والعمائم ، فاذا سئلوا عن سبب دخولهم السجن ، كانوا يبتسمون بطريقة معبرة · واذا جاز لنا الحكم عليهم من طريقة ابتسامهم ، يمكننا القول أنهم لم يكونوا يعترضون كثيرا على السجن ، فلن يمضي وقت طويل ، حتـى يطلق سراحهم ، باذن الله ، كما أنهم ينالون حاجتهم من الطعام في وضعهم الحالي · فلمـاذا الاعتراض ؟ وقد لفت نظري ، أكثر من المساجين ، رسوم للمراكـب ذات الاشرعة المربعة ، كانت مرسومة على جدران غرفة الاستقبال في هذا السجن الغريب · وقد عجبت لوجود رسوم هذه المراكب الاوروبية فـي معقـل للمراكب العربية كهذا المعقل · وعندما سألت نجدي عن تلك المراكـب الغريبة ، أجاب أنه لم ير مثلها قط · وكانت الرسوم متقنة ، وسليمة من الناحية الفنية ، وكان بعضها لطرادات ، والبعض الآخر لمراكب حربيـة أخرى ، يعود تاريخها الى القرن الماضي ·

وعلى الرمال المجاورة لمقر المقيم البريطاني ، رأيت صاريا رئيسيا مأخوذا من أحد تلك الطرادات التي كان السيد سعيد يصونها ، ويستخدمها في أيام مجد مسقط وعمان وازدهارهما ، عندما كانت زنجبار وأكثر مـن نصف ساحل أفريقيا الشرقي تحت حكم السلطان · فقد كان السيد سعيد يشتري الطرادات القديمة من الانجليز ومن الهنود لكي يحافظ على سلطانه ، ولكي يسافر على ظهرها في زياراته المتكررة لمستعمراته الافريقية · ويبدو أن السيد سعيد كان يحب الطرادات وسفن القتال الكبيرة بل انه ، فـي الواقع ، قام مرة بارسال احدى السفن المسماة « سلطانة » في مهمة الـى أمريكا ، الا أن سكان مدينة « سالم » فى ولاية انجلترا الجـديدة عاملـوا

البحارة العرب الملتحين بغلظة وفظاظة ، وأخذوا يشدونهم من لحاهم ويسخرون منهم ، وانتهت المهمة الى الفشل الذريع ٠

وما زالت التقاليد المتعلقة بالمراكب الشراعية الحربية البريطانية حية وقوية في الخليج العربي ٠ فقد لاحظت فيما بعد ، عندما وصلت الكويت ، أن دليلا للبحار الشرقية أعطاني اياه خليفة الغانم ، والد النوخذة عبد الوهاب ، كان يحتوي على رسومات كثيرة للطرادات بدلا من المراكب العربية ٠ ولكن خليفة ذكر لي أن الدليل من صنع مسقط ، وأنه جلب الى الكويت عندما بدأ الكويتيون لاول مرة بالملاحة في البحار العميقة ٠ ولكني لاحظت أيضا تشابها بين عدد من المصطلحات التي يستخدمها البحارة العرب وتلك التي كانت مستخدمة في الاسطول البريطاني القديم ، فمثلا كلمة « جلبوت » تأتي من كلمة (Jolly boat) وكلمة « باورة » الدالة على المرساة ، تأتي من الكلمة الانجليزية (bower) و « كتر » من (cutter) و « لنش » من (launch) .

وكانت المدافع القائمة أمام الحصن البرتغالي موجهة الى قصر السلطان، وكانت هذه مجموعة منوعة من المدافع القديمة التي تعبأ من فوهاتها ، فيها مدافع حديدية من الهند ومن يوركشير في انجلترا ، وفيها أيضا مدفعان برتغاليان منقوشان نقشا جميلا ، وكانت حمالة تلك المدافع متآكلة ، وقواعدها لا تكاد تتحمل أن يتمشى الانسان عليها ٠

من الواضح أن مسقط كانت في أسوأ حالاتها ، فلم تكن فيها صناعة لبناء السفن ، ولم تكن فيها من التجارة سوى تلك التجارة المحلية البسيطة بين ميناء مطرح وبلوخستان عبر الخليج العربى ، أو بينها وبين صور والباطنة على الساحل ٠ ولم يعد المسقطيون يملكون كثيرا من المراكب الكبيرة ٠ بل كانت معظم تجارة عمان بعيدة المدى تقوم بها مراكب سكان « صور » ، او مراكب عتيقة يملكها أهل الباطنة او الساحل المتصالح ، وكان المتسولون يملأون أسواق مطرح ، التي كان عدد البلوشيين فيها يفوق عدد العمانيين ٠ أما المركب الكبير الوحيد ، الذي أبحر من ميناء مطرح في اثناء اقامتنا هناك ، فقد كان بوما فارسيا في الاصل ، ولكنه محول الى عمان ليحمل العلم العماني الذي يسهل له التجارة بحرية أكبر ٠ وكان هذا بوم محمد خنجي ، الذي كنا قد قابلناه في زنجبار ، في تلك المؤسسة الغامضة التي يملكها السيد سليمان بن سعيد ٠

وصل بوم عبد الله القطامي بعد وصولنا بيومين ٠ وقد وجد

الكويتيون أن الوقت قد حان لاطلاع عبد الله على موت أخيه ، ولذلك ما كاد يلقي مراسيه حتى تجمع النواخذة الكويتيون الموجودون في الميناء ، وكانوا سبعة ، واعتلوا مركبه بكل جد ووقار ، وأعلموه بالنبأ السيء • ورغم أنهم حاولوا أن يعلموه بالامر بألطف طريقة ممكنة ، الا أن وقعه كان شديدا عليه • وبعد أن قدموا تعازيهم وعبروا عن استعدادهم لتقديم أي نوع من المساعدة يتطلبه الموقف ، غادروا المركب بصمت تام ، ولم يبق على ظهره الا نجدي ، الذي لازم صديقه الى أن أبحرنا من المكان • فقد كان عبد الله لا يزال يعاني من أثر حمى شديدة أصابته بعد أن أفترقنا في البحر ، وكان وقع الخبر عليه كالصاعقة ــ اذ أنه كان يحب أخاه محمدا حبا جما ، ولم يكن قد سمع بخبر الفتنة ، ولذلك فقد كان خبر موت أخيه صدمة كبيرة له • فالحوادث من هذا النوع نادرة الوقوع بالكويت • كما أن رجل البحر قلما يضحي بحياته من أجل سخف سياسي ، فهذا من اختصاص أولئك الذين لا يغادرون البلاد • لقد كان من الصعب على عبد الله أن يصدق تلك الاخبار المأساوية ، وظل يعتقد أن الوفاة لا بد قد حدثت عن طريق الصدفة والخطأ ، ففي فتنة من هذا النوع تحدث في سوق مزدحم ، اذا كنت قريبا من مركز الشغب ، فلا بد أن تصاب بالرذاذ • وكم كان يتمنى لو كان أخوه قد رافقه في رحلته بدلا من التخلف في الكويت •

وفي اليوم الذي وصل فيه عبد الله القطامي ، كان الميناء يعج بالفرس • فقد وصلت خمسة من مراكبهم ، قادمة معا من أفريقيا • وكان الجون يدوي ، وهم يرددون أهازيجهم وهم على ظهر قواربهم الطويلة المتجهة الى الشاطيء ، والنواخذة واقفون وهم يلوحون بأيديهم ، تحية للمراكب الفارسية التي يمرون بها • وعند الغروب ، كان بالامكان سماع صوت الحبال والسلاسل ، وهي ترسل صريرها المعروف عند رفع الاشرعة الى أعلى استعدادا للرحيل ، مصحوبة بالطبع بالغناء والرقص • لقد كان جون مطرح جميلا جدا في ذلك المساء ، والنجوم تتلألأ في السماء ، وترسل شيئا من النور اللطيف ، فتجعل المكان رومانسيا أخاذا ، بينما البحارة الفرس يستعدون للرحيل • وكان أحد مراكبهم بغلة ضخمة جدا ، حمولتها (٥٠٠٠) جلة من التمر ، ذات قاع مغطى بالنحاس ، وفي غاية الجمال • وقد علمت أنها آخر بغلة من صنع ميناء « قشم » ، وان عمرها سبعون عاما • وعندما وصلت ميناء مطرح ، كانت قادمة من ساحل مالابار في الهند محملة بخشب الساج • ومواد لصنع الحبال ، وحبال مصنوعة ، كما كان ثلاثون قاربا صغيرا (محفورا من جذوع الاشجار) مكدسة على السطح ، وكمية من الاثاث الهندي تتدلى من جانبي سور المؤخرة • وفي نفس الليلة ، وصلت بغلة كويتية ، بعد تسعة عشر يوما من مغادرتها ميناء « لامو » على ساحل

أفريقيا الشرقي . وما أن انتصف الليل ، حتى أتتنا من الشمال الغربي رياح قوية أخذت تهب علينا ، وهي تحمل جميع حرارة الصخور والصحراء المجاورة ، فتلفح وجوهنا وكأنها شواظ من نار ، حتى تكاد تحرقها ، بحيث لم يتمكن أحد من النوم تلك الليلة حتى على ظهر المراكب الواقفة بعيدا في مياه الخليج .

وهكذا ظللت صاحيا ، لم يغمض لى جفن ، وقد حمدت الله على ذلك لأنى تمكنت من مشاهدة بوم عبد الوهاب القطامى العظيم ، وهو يدخل الميناء فى أولى ساعات الصباح الباكر كأنه شبح هائل ، ويجد له مكانا مناسبا يرسو فيه فى الظلام . وكنت أسمع صرير البكرات عند انزال العارضة ، بينما كان البحارة يتكلمون وينادون بعضهم بعضا بهدوء لئلا يزعجوا سائر من فى الميناء . لقد كان منظرا رائعا ، والمركب يلقى بمراسيه فى الظلام الحالك ، والريح تهب بقوة وعنف ، مما جعل العملية فى غاية الصعوبة ، فعملية من هذا النوع شاقة جدا حتى خلال النهار ، عندما يستطيع النوخذة أن يرى جميع المراكب حوله ، فكيف والوقت ليل ، وليس فى أى من المراكب الراسية بصيص من نور يدل عليها ؟ والواقع أنى لست أدرى كيف استطاع القطامى أن يهتدى الى طريقه بين المراكب ، ومركبه يسير بسرعة ، وأن يوقفه بحذاء البوم الصغير الذى يملكه ابن أخيه عبد الله القطامى . فلو تم هذا العمل نهارا لكان عملا باهرا ، أما وقد تم ليلا فقد كان أشبه بالمعجزة . ولا شك أن تقدير المسافات بطريقة عبد الوهاب فى تلك الليلة ، والرسو فى ميناء مزدحم بالمراكب ، دون الاستعانة بمصباح واحد ، بكل رشاقة وروعة ، هو قمة الفنون الملاحية ، فقد كانت هذه المراكب تقاد الى مراسيها دون مساعدة الشراع ، مما يزيد من مسئولية النوخذة ، فكل شيء متروك لتقديره وحكمه . لأنه اذا ارتكب خطأ واحدا فى وقت كهذا ، فليس بامكانه أن يصلحه بنشر الشراع ، أو بمحاولة الرجوع الى الخلف ، ولذلك فان عليه أن يدخل بسرعة ، والا فلا يمكنه أن يوجه مركبه أبدا ، فاذا حدث أدنى خطأ ، لا بد أن يصطدم المركب بمركبين أو ثلاثة على الاقل . ومع كل ذلك فان قيادة مركب كبير كهذا « الداو » فى مثل هذه الظروف ، كانت تعتبر عملا روتينيا عاديا جدا بالنسبة للنواخذة العرب .

وعندما نظر يوسف الشيرازى العجوز الى ذلك « الداو » فى وقت لاحق من فجر ذلك اليوم تمتم قائلا انه عاد الى حيث ينتمى . فكثيرا ما كان يحمل شحنات من السلاح من هذا الميناء بالذات ، وكان يوسف يبحر على ظهره . وفى احدى المرات التى سافر بها على هذا المركب ، اعترضه البريطانيون وساقوه الى قاعدتهم البحرية الواقعة قريبا من مضيق هرمز . لقد كان هذا « الداو » مركبا ذا تاريخ حافل .

أقلعنا فى صباح اليوم التالى برفقة سبعة مراكب أخرى كانت تضم بوم عبد الله القطامى الصغير تحت قيادة العبد المحرر سعود ، فقد كان عبد الله محطم النفس ، مريضا بالحمى ، مما اضطره لترك المركب والانتقال الى مركب عمه عبد الوهاب ، فى « الداو » الكبير ٠ وقد أقلع معنا ، فى هذا الصباح المشمس أيضا ، البوم الكبير المسمى « سمحان » ، بقيادة النوخذة الكويتى المعروف يوسف بن عيسى ، كما رافقتنا بغلة كبيرة من بغلات ميناء قشم الفارسى ، وبوم كويتى قديم كان عائدا الى الوطن بشحنة من زيت السمك من ساحل المهرة ، بالاضافة الى ثلاثة مراكب فارسية أخرى عائدة من رحلة أفريقيا ٠ لقد كان الصباح جميلا ومنظر المراكب رائعا ، وهي تقلع سوية وقد نشرت جميعها أشرعتها البيضاء الكبيرة فوق أجسامها المنسابة على سطح الماء الازرق الصافى ، بينما تقف من خلفها الجبال الشماء ٠ وطوال ذلك النهار كانت الريح تهب بضعف شديد ، تكاد لا تكفى لدفعنا قدما ، ولكن أحدا لم يكن يبالى اذا سبب ذلك تأخيرنا فى الوصول ٠ فقد كانت الظروف مثالية ، وكنا نمتع أنظارنا بمنظر المراكب الاخرى المرافقة لنا ٠ وسرعان ما تخلفت المراكب جميعها عنا ، الا أننا لم نتمكن من سبق البوم الكبير « سمحان » ، بل كنا نبحر معا طوال النهار ، ونحن لا نبعد بعضنا عن بعض بقدر مرمى الحجر ، وكان بحارتنا يجلسون في ظل الشراع يرقبون بحارة المركب الآخر يجلسون فى ظل شراعهم يرقبون بحارتنا ٠ وكان سمحان عائدا من لامو وعلى ظهره ما يزيد عن (١٢٠٠) عمود من خشب المنجروف ٠ والحق يقال انه كان مركبا كبيرا ، أكبر حتى من الداو — الذى كان قد عجز عن مسايرتنا — ولكنه ، برغم ذلك ، كان يشق عباب الماء بشكل رائع ، تاركا خلفه أثرا مستقيما ، كما كان بامكانه أن يستمر فى الابحار بأخف دفعة من الهواء ٠ وعند الغروب نظرت خلفى الى ذلك الاسطول العربى — الفارسى وهو يبحر فى خليج عمان ، ومراكبه مصفوفة واحدا بعد الآخر خلفنا ، وأشعة الشمس الذهبية تسقط على أشرعتها فتحيل لونها الى لون الذهب ، بينما تتجه الشمس الى المغيب ، وتكتسى السماء عند الافق بذلك اللون الرمادى المزرق الذى يسبق الظلام ، فشعرت براحة كبيرة جدا ٠ لقد كان منظرا هادئا وادعا ، يوحى بالسلام والطمأنينة ، فى هذا العالم الذى تمزقه الحروب ٠ وقد تابعنا سيرنا ليلا ونهارا بصحبة المراكب الاخرى ، وكان البوم سمحان يبدو منظرا رائعا فى ضوء النجوم المتلألئة فى السماء ٠

وهكذا تابعنا سيرنا الهنيء صعدا فى خليج عمان ، باتجاه رأس مسندم والخليج العربى ، واستمر ذلك خمسة أيام كاملة ، فقد كانت الريح هادئة وكانت سرعتنا بطيئة ، مما جعل نجدى يشعر بشيء من نفاد الصبر ، فلا شك أنه كان متشوقا لرؤية ابنه الجديد ، كما بدا على البحارة الشوق للوصول

الى أرض الوطن . ولكنني لم أكن أدرى ، كما لم يكن غيرى من البحـــارة يدرى ، الى أين كنا متجهين ، لأن ذلك كان يتوقف على الظروف . فلم يكن من المحتمل مثلا أن نحمل جميع شحنتنا من مواد البناء الى الكويت مباشرة ، دون أن نحاول أولا أن نبيع جزءا منها فى أماكن أخرى . فقد غادرنا زنجبار ونحن نحمل أوراقا رسمية تشير الى أننا عائدون الى الكويت مرورا بمسقط والبحرين ومكان آخر يدعى « جبيل » على ساحل العربية السعودية . وكان نجدى يتحدث عن البصرة ، بل وأحيانا يذكر بعـض الاماكن الواقعـة على الساحل الفارسى من الخليج ، ولكنه لم يأت على ذكر جبيل قط . ولم أكن أعلم أنه من المفروض بنا أن نمر بتلك البلدة ، لو لم يناولنى أوراق المركب ، ويطلب منى أن أدله على « المانيفست » الخـاص بجبيل . وكانت الاوراق مكتوبة باللغة الانجليزية ، ولم يكن هو يفهم منها شيئا . وتقع جبيل هذه على ساحل الاحساء ، على بعد حوالى مائة ميل جنوبى جون الكويت ، ولم تكن سوى مكان صغير لصيد اللؤلؤ . ولست أدرى لماذا كنا نحمل أوراقا تشير الى تلك البلدة ، فنحن لم نذهب اليها قط ، ولا أعتقد أننا كانت لدينا النيـة للذهاب الى هناك . فربما كانت بعض الظروف الطارئة تتطلب مجموعة من هذه الاوراق ، وكان نجدى يحب أن يكون دائما مستعدا لكل طارىء .

تابعنا سيرنا ونحن أحيانا ننساب انسيابا متصلا ، وأحيانا أخرى نسير سيرا متقطعا ، وأحيانا بمساعدة هبات من النسيم ، وأحيانا أخرى بدونها ، وأحيانا بدفع هبات نشطة من الريح تستمر ساعات عديدة ، وأحيانا أخـرى يخيم الهدوء والسكون التامان على كل شىء . ولم يكن أحـد يبـالى بذلك كثيرا ، فسنصل ، بمشيئة الله ، الى الكويت فى الوقت المناسب ، وحسبنا الآن ما نحن فيه من النعماء ، وأن الله لم يرسـل علينا الريـح الشـمالية المعاكسة . فلم يكن أحد يرغب فى تلك الريح التى تهب بعنف فى مواجهتنا تماما ، فتعطل سيرنا ، وتستمر فى العادة أربعين يوما كاملا . وقد دعوت معهم الا يبتلينا الله بتلك الريح ، على الاقل الى أن نقطع مسافة معقولة فى الخليج تقربنا من الوطن . الا أن نجدى كان قلقا ، لأنه يعلم أن هذه الريح تهب عادة بعد فترة من الهدوء . وفى أثناء ذلك ، كنا نقوم بالتزاور مـع يوسف بن عيسى الذى كان يأتى الينا فى قاربه الصغير . لقد كان رجـــلا ضخما ، مرحا ، صحيح الجسم ، ذا بنية قوية يبلغ طوله حوالى ستة أقدام ، وكان دائما يستمتع بالنكات التى يقولها ، ويضحك لها بصوت عال . وكـان يأتى وهو يرتدى جلبابه الابيض الطويل وكوفيته الحسنة الزرقة ، ويحمل فى يده مظلة يابانية لتقيه وهج الشمس . وكان يزورنا يوما ، ويقضى عصر ذلك اليوم وهو يتجاذب أطراف الحديث مع نجدى ومع حمد بن سالم ، وفـى اليوم التالى نقوم نحن برد الزيارة له . لقد أحببت يوسف بن عيسى ، وكنت

أسعد بزيارة مركبه الكبير النظيف ، الذى كان على مؤخرته قمرة صغيرة مزودة بمصباح كهربائى وبمذياع ، ولكن أيا منهما لم يكن صالحا للعمل ٠ وعندما كنا نقوم بزيارته ، كان بحارته يتجمعون على سطح المؤخرة لتحية نجدى ، وعندما كان هو يقوم بزيارتنا ، كان بحارتنا الذين يعرفونه من قبل، وربما عملوا تحت امرته ، يتقدمون لتحيته ، ويصافحونه بحرارة ٠ لقد كان النظام والانضباط على المراكب الكويتية ممتازا ، وكانت هذه تدار ادارة حسنة ٠ الا أن البحارة والضباط كانوا يعرفون كيف يتصرفون تجاه بعضهم البعض من غير نفاق أو تذلل ، ودون أن يرفعوا الكلفة بدون مناسبة ٠ فقد كان الضابط بين العرب ضابطا لأنه يستحق ذلك ، كما كانت قيادته للآخرين أمراً طبيعيا ، ومن أجل هذا لا بد أن ينزل المنزلة اللائقة به ٠

وفى أوقات العصر ، كان حمد وحسن قائد الدفة يعمـلان على ضبط الحسابات ، حمد ممثلا للمركب ، وحسن نيابة عن البحـارة ، لأن الرحلـة آذنت بالنهاية ، وبانتهائها يتوجب أن يكون حساب الحصص منتهيا ، ويدفع لكل رجل ما يخصه من الارباح ٠ وكانت هذه العملية مسألة طويلة معقدة ، ولذلك فقد واصل الرجلان عملهما للانتهاء منها دون تعب أو ملل ، بينمـا ، من الناحية الاخرى ، كان يوسف بن عيسى لا يتوقف عن القهقهة استمتاعا بنكاته التى لا تنتهى ، ولكن عينه على مركبه دائما ، ونجدى يرقب الجـو بعينيه اليقظتين ، وهو يتوجس خيفة من هبوب الرياح الشمالية ٠ فلم يكن المركب يتطلب عملا كثيرا فى هذه المرحلة من الرحلة ، ما عدا المحافظة على المركب سائرا فى الماء ٠ وكان خليل ومساعدوه لا يتوقفون عن عملهم فى بناء القارب الجديد ، وفى فترة الصباح ، كان عريف البحارة يقود بحارته فـى تركيب « كابل » جديد ٠ وكان على ظهر المركب الآن أربعة من البحـارة يشكون من الحمى ، كما أصبح اسماعيل ، الذى أتيحت له فرصة العزف على قيثارته بسعادة وحبور فى ميناء مطرح ، يشكو من الروماتزم ومن البواسير فى آن واحد ٠

وعندما لم يكن نجدي يستقبل ضيفه يوسف على ظهر مركبنا ، أو لم يكن يزوره على ظهر مركبه ، كان يجلس على سجادته الممدودة وعلى السدة في المؤخرة ، ويرتل آيات من القرآن الكريم ، أو يعبث بقدمـه السـوداء الحافية ، وهو يرقب الشراع والبحر والمراكب الأخرى ، بل وربما يفـكر بابنه الجديد ، أو بما يمكن أن يحالف أخاه من الحظ في جمع ديونه مـن موقاديشو ٠ ومن آن لآخر كان يبدأ محاضرته عن السياسة ، أو يسـألني للمرة المائة كيف يمكن للاخلاق المسيحية أن تتحول الى أساس لحياة معقولة ، أو يستعلم مني عن الوقت الذي سأبدا فيه تأدية الصلاة ٠

مضت علينا بضعة أيام ، ونحن نبحر بحذاء الشاطىء ، قبل ان نصل الى رأس مسندم ، وكنا نسير ببطء بمحاذاة ساحل الباطنة وكأننا تحت الجبال مباشرة ، بينما ندور أحيانا وكأننا نتجه الى الساحل الفارسي ٠ وكانت جبال الباطنة تبدو قديمة جدا ، حارة جدا ، سيئة الطبع جدا ، وكأنها قد تعبت من الوقوف باستمرار تحت أشعة الشمس المحرقة ٠ وكانت تبدو كالحة قاتمة مقفرة ، ووجهها الشديد الانحدار المقابل لنا مملوء بالفجوات والاخاديد والشقوق ، ولم تكن ، اجمالا ، توحي بأن ذلك الساحل العماني يرحب بالضيوف ٠ فقد كانت تقف صلبة شامخة على الشاطىء مباشرة ، كأنها تؤكد أنها لا يمكن أن تقهر ، وكأنها تريد ابعاد أي بحار يمر من هناك ٠ لقد كان هذا الجزء من الارض الشاطىء المناسب للجزيرة العربية المتخلفة وأرض البدو الغزاة ٠ وكنت ، وأنا أنظر الى تلك الجبال يوما بعد يوم ، أعود بالذاكرة الى البرتغاليين الذين كانوا يبحرون في هذه النواحي ، والى جميع المراكب الاخرى التي كانت تمخر هذه المياه ، من المراكب الشراعية الاوروبية على أنواعها ، الى المراكب الصينية التي كانت تجلب الحرير والبضائع الثمينة الى الاسواق العظيمة في بلدان الخليج العربي ٠ وها نحن أخيرا على ظهر بوم عتيق ، يؤلف آخر حلقة من حلقات المراكب الشراعية الشرقية ، نشق طريقنا شمالا ، ونحن نحمل شحنة من الأخشاب المقطوعة من احدى غابات أفريقيا ٠ لقد صبت ثروات جزر الهند الشرقية هنا ، ومن هنا أبحر العبيد ، والقراصنة ، والقباطنة وتحاربوا ، وفي هذه المياه قام المكتشفون والرواد باكتشافاتهم ومغامراتهم ٠ ولكن ها نحن الآن نشاهد احدى ناقلات النفط العملاقة ، القادمة من عبدان ، تمر بنا بسرعة ، وهي تدفع نصف مياه الخليج أمام مقدمتها الضخمة ، وتسحب النصف الآخر خلفها ، وهي تحمل النفط لاستعمال السيارات الفارهة ، التي تجوب الأحياء الراقية في لندن ٠ وكان نجدي ينظر الى السفن ويتمتم : « انها تجيء وتذهب ٠ لقد كانت هكذا دائما » ، وهو يتابع بنظره دخان السفينة وهي تبتعد عنا فترة طويلة من الزمن ٠ ولكنه ما لبث أن عاد الى عالمه ، فتوضأ وأدى الصلاة ٠

وعند المغيب ، هب علينا نسيم عليل ، فبدت الجبال كأنها أقل قسوة ، رغم أنها كانت لا تزال تقف بسوادها وجلالها أمام آخر أشعة الشمس الغاربة ٠ وفي الافق البعيد من جهة الشرق ، كان ساحل ايران يبدو خطا أزرق غير واضح تماما ٠ لقد كانت جبال الباطنة جميلة في تلك اللحظة ، الا أن نجدي لم يشاركني شعوري ، عندما أخبرته به ٠ بل أجابني قائلا : « وأين موطن الجمال في هذه الجبال ؟ انها لا تنتج شيئا ٠ انها لا تخرج شيئا حيا » ٠ وعندما أجبته بأن الجبال أيضا جزء من مملكة الله ، وأن الله

جعلها جميلة ، لم يحر جوابا ، ولكنه لم يقتنع بكلامي · فلم تكن فكرة جمال الجبال تروق له ، بل قال لي ان علي أن أنتظر لأصل الكويت ، اذا أردت أن أرى الجمال الحقيقي ·

ومع أننا أصبحنا قريبين جدا من رأس مسندم ، حيث يتصل خليج عمان بالخليج العربي ، وحيث تلتقي جميع ناقلات النفط القادمة من عبدان ومن البحرين ، وحيث تأتي المراكب المحملة بالتمور من البصرة وبوشهر وتعود ، الا أننا لم نعلق أية مصابيح على ظهر المركب · وعندما سألت نجدي ما اذا كان من الحكمة أن نرفع ولو مصباحا غازيا من المصابيح المضادة للأعاصير ، في مثل هذه المناسبات ، أجاب أن الجمل يعرف طريقه في الصحراء دون حاجة الى أية أنوار ، وتساءل لماذا ، اذاً ، يجب على المركب العربي أن يكون مضاء في البحر ؟ ولكني أجبت أن بامكان الجمل أن يتفادى الاصطدام على البر أكثر من المركب في البحر ، كما أن للجمال الاخرى عيونا تستطيع الرؤية بها · الا أنه لم يبد أي اهتمام ، وبقيت مصابيحنا في المخزن في أسفل المركب · ولما كانت الريح قد سكنت ثانية ، فقد أخلد نجدي الى الراحة والنوم على حصيره بعد أن أدى صلاة العشاء ، بينما ذهبت أنا لاقضي الليلة اتجاذب أطراف الحديث مع البحارة الذين كانوا يقومون بنوبة الحراسة ، وهم في القارب الطويل الممدد على سطح الحمولة· وكان الحديث في تلك الليلة عن الكويت ، كما كان الحال منذ مدة · وكان الشراع الرئيسي العظيم يتشكل بأشكال مختلفة وهو يهتز بلطف تحت ضوء النجوم ، بينما كان شخير نجدي ، وهو نائم على سدته ، يخرق الصمت المخيم على المركب ،و حمد بن سالم متلفعا بجلبابه وعباءته ، ولكنه يقوم بالحراسة رغم النعاس الذي كان يراود جفنيه · كما كان ابراهيم ، قائد الدفة ، يبدو جسما مظلما أمام النور المنبعث من صندوق البوصلة ، وهو جالس أمام عجلة القيادة · وكان ماء البحر يداعب جوانب المركب ومقدمته بلطف ، بينما كانت البكرات تصر فوقنا ، والمركب يتابع سيره ببطء ·

وما أن دخلنا الخليج العربي حتى انقلبت الظروف رأسا على عقب · فقد تبدد الهدوء في الحال ، وبدلا من ذلك بدأت الريح الشمالية بالهبوب بهدوء أولا ، ثم أخذت بالاشتداد · فازداد قلق نجدي ، الا أننا طوينا أصغر أشرعتنا الرئيسية وتابعنا سيرنا · وقبل أن ينقضي النهار ، كانت الريح تعوي كأنها الذئاب ، وارتفع الموج ، حتى أننا لم نحرز تقدما يذكر · ومنذ ذلك الحين بدأت الايام تتعاقب ، كل منها لا يختلف عن سابقه ، وأخذنا نكافح لكي نكسب بعض المسافة مهما كانت ضئيلة · وكنا أحيانا نبحر بمحاذاة الساحل الفارسي لعلنا نحظى بتغيير في اتجاه الريح هناك ، وفي

أحيان أخرى ، عندما ينتابنا اليأس من ذلك الجانب ، نندفع عبر الخليج الى الساحل المتصالح ، ونتجه صوب الشارقة ودبي • وهكذا كنا نمر ببطء شديد بجميع الموانىء التي كانت ترسل أساطيلها الى أفريقيا : مسقط ، والباطنة ، والشارقة ، ودبي ، وكنج ، وبندر لنجه ، وقشم • وتابعنا صراعنا مع الريح والموج يوما بعد يوم • فقد كان الوطن بعيدا ، على رأس الخليج ، وكانت المسافة بيننا وبينه ما زالت كبيرة • وفي أثناء ذلك مررنا بجوار عدد من الشواطىء الفارسية ، وكنا قريبين جدا من عدد من الموانىء والبلدان • فقد مررنا بقرب « حنجم » ، التي كانت فيما مضى قاعدة بحرية بريطانية ، ولكنها الآن تبدو مهجورة تماما • وهنا قدم الينا رجل فارسي في قارب صغير ، واعتلى ظهر المركب وأبدى رغبته في شراء شيء من زيت جوز الهند ، وبعض البضائع المصنعة ، وشيء من السكر والشاي والطباق التي أتينا بها من مسقط • وقد مررنا أيضا بروقان ، وجرك ، وجيرو(١) كما أمضينا ثلاثة أيام ونحن نتقدم بصعوبة ما بين جرك وجزيرة ام قيس(٢) ويوما آخر ما بين جيرو وهندرابي(٣) •

هدأت الريح قليلا ونحن نبحر في الممر المجاور لجزيرة أم قيس ، فاغتنمنا الفرصة لنتفرج على تلك الجزيرة الملفتة للنظر • وقد رأينا عددا من القوارب الصغيرة التي تستخدم للغوص على اللؤلؤ وهي تعمل على الشاطىء الداخلي ، الا أن نجدي أفاد بأن تلك القوارب كانت متواضعة ، وأن اللؤلؤ الذي يصاد على الجانب الفارسي من الخليج لم يكن جيدا ، بل الجيد والثمين هو ما يصاد من المياه المقابلة للساحل العربي ، وخاصة مقابل البحرين • وقد رأينا أيضا البلدان الثلاثة التى تقوم على الجزيرة ، ولكنها كانت تبدو خربة في الغالب فيما عدا بضع بنايات جيدة • وكان من الواضح أن الاوضاع سيئة فى الجزيرة • وقد اكتشفنا أن « حسنا » قائد الدفة ، لم يكن كويتيا ، كما كان يدعي حتى الآن ، بل كان من جزيرة أم قيس ، وقد أعلمنا هو بذلك ، وأضاف بأن الاحوال لم تكن حسنة في الجزيرة ، وأنه كان قد غادر الجزيرة مع أسرته منذ عشر سنوات واستقر في الكويت ، وأن المكان كان فيما مضى مكانا جميلا ، غنيا باللؤلؤ ، الا أنه لم يعد جميلا ولا غنيا الآن • ولم يزد على ذلك سوى أنه كان يبدو وكأنه يتحسر لأنه ولد فى ذلك المكان أصلا •

(١) موانىء فارسية صغيرة على الضفة الشرقية من الخليج العربى تقع شمالا من مضيق هرمز • (المترجم) •

(٢) أم قيس : جزيرة تقع مقابل الساحل الايرانى ما بين مينائى جرك وجيرو (المترجم) •

(٣) ميناء فارسى صغير على الضفة الشرقية من الخليج العربى تقع شمال ميناء هرمز (المترجم) •

علاوة على جزيرة أم قيس ، كان بامكاننا أن نشاهد عددا آخر من البلدان نصف المهجورة ، ونحن نقف هنا وهناك على طول الساحل الفارسي ، تحت التلال الملونة ، التي كان بعضها يبدو كأنه أكوام من الأتربة الملونة وضعها الانسان هناك • وعلى قرب من بلدة يدعوها الكويتيون والفرس باسم « كالت » ، رأينا حصنا كبيرا يشبه القلاع على قمة احدى التلال • كما رأينا سمبوكا راسيا مقابل البلدة ، التي كانت تبدو بلدة كبيرة ، الا أننا لم نشاهد أي أثر للحياة ، مع أننا كنا نمر على مسافة قصيرة جدا منها ، وبسرعة بطيئة جدا • وقد أفاد حسن بأن أهالي البلدة قد هاجروا سوية الى بلدة على ساحل الباطنة تدعى خورفكان • وبينما كان حسن غير راغب في الحديث عن جزيرة أم قيس ، لم يكن لديه مانع من الكلام عن هذه البلدة • ويبدو أنه كان قد غادر جزيرة أم قيس أولا قاصدا بلدة « كالت »، وأنه وصل الى الكويت آخيرا بطريقة دائرية طويلة • وقد قص علي القصة كاملة ، كما أرويها هنا • في البدء اصبحت الحياة في جزيرة أم قيس لا تطاق ، وكان السبب الرئيسي في ذلك ، بحسب كلام حسن ، هو استبداد الشيخ المحلي وطغيانه ودأبه في نهب أرزاق الشعب • وعندها هاجر حسن ، وكان يافعا ، مع أسرته الى المكان الآخر المسمى « كالت » • وفي ذلك الوقت كانت هذه البلدة مزدهرة ، وكانت الحياة فيها رخية ، ولكن كان هناك وميض نار تتأجج تحت الرماد ، بسبب خطوات التحديث والتجديد التي كان الشاه الجديد يقوم بها • وكان هذا الشاه ، على ما يبدو ، لا يطيق بقاء الاشياء على ما هي عليه ، وكان على عجلة من أمره في تغيير الاوضاع السائدة • وقد بدأت الاشاعات والتقارير تصل تباعا الى « كالت » عن أشياء فظيعة جدا تجري في مملكة فارس • وكانت بعض تلك الاشاعات تقول ان الشاه يقوم بهجوم أحمق على مبادىء الاسلام ، بينما كانت تقارير أخرى تقول أنه يعمل على خراب البلاد • وأنه قد طلب من الناس في بعض أجزاء البلاد الاقلاع عن عاداتهم وتقاليدهم القديمة ، بأن تقلع نساؤهم عن ارتداء الحجاب والانغلاق على أنفسهن في الحريم • كما ان على الرجال أن يقلعوا عن ارتداء القفطان الفضفاض والعمامة الجميلة ، وعوضا عن ذلك عليهم أن يحرروا نساءهم ويرتدوا القبعات •

وكان هذا في نظر معظم أفراد الشعب كفرا • وحتى في الوقت الذي كان حسن يحدثنا فيه عما جرى ، لم يكن يتصور كيف يمكن أن يتقدم أي ايراني بمثل هذه الاقتراحات • الا أن الشاه أعلن ذلك على الملأ بالفعل ، بل والأنكى من ذلك ، أنه عمل على تنفيذ تلك الاوامر • وكان أهالي أم قيس وكالت يعتقدون بأن الامر لا يهمهم في قليل او كثير ، فبلدانهم تقع في زاوية منعزلة بعيدة عن العاصمة ، ولن تصل اليهم الاصلاحات المزمعة الا بعد

وقت طويل . الا أنهم أفاقوا من حلمهم ذات يوم ، واذا بمبعوث من البلاط الشاهنشاهي ، يصل البلاد ، ويحمل الاوامر الصادرة عن الشاه ، بأن على أفراد الشعب أن يقلعوا عن عادات آبائهم وأجدادهم ، وأن ينبذوا الافكار القديمة ، ويحرروا نساءهم ، كما فعل الاتراك من قبل . علاوة على أمور أخرى ، ذكرها حسن ، معظمها يتعلق بالضرائب الجديدة ، والرسوم الجمركية ، ووضع نهاية لتجارة التهريب المستمرة منذ قرون . وقد استمع أهالي كالت الى مبعوث الشاه بدهشة وصمت ، غير قادرين على تصديق ما يسمعون . ولكن ما أن غادر المبعوث البلاد ، حتى عاد كل شيء الى ما كان عليه ، ولم يبال الناس بالاوامر الجديدة ، لأنهم كانوا يعارضون جميع ما جاء فيها معارضة تامة ، ويحبون الحياة التي كانوا يحيونها ، والتي يتطلب تغييرها أكثر من مجرد أوامر يصدرها شاه ، يحمل أفكارا جديدة ، ولكنه يبعد عنهم آلاف الاميال .

ولكن الشاه ، بمرور الوقت ، سمع بخبر هذا العصيان ، فجرد على البلاد حملة من خيرة جنوده ، لتنفيذ الاوامر . ومع أن الجنود كانوا من خيرة الرجال الذين رآهم أهل كالت ، وكان منظرهم وسلوكهم مؤثرين ، الا أنهم ، كغيرهم من الجنود ، كانوا يحبون « العرق » وأي مشروب روحي آخر . وقد أقام لهم أهل كالت وليمة عظيمة لكي يوثقوا عرى الروابط التي توحدهم مع سائر بلاد فارس ، ولم يبخلوا عليهم بالعرق والمشروبات الروحية الاخرى ، بل أغرقوهم بها ، ولم يكن هناك مكان فسيح يتسع لجميع المدعوين سوى السجن المحلي . فزينوه بشكل لائق ، وأقاموا وليمتهم فيه . الا أن الخطة لم تنته عند ذلك ، بل ما كاد الجنود يثملون من الشراب ويصبحون عاجزين عن المقاومة ، حتى قام المواطنون ، الذين كانوا يشربون الماء بدلا من العرق ، بحشر الجنود في داخل السجن ، واقفال الابواب عليهم . وقد كان حسن منشرحا وهو يروي تلك القصة التي كان يعتبرها نكتة كبيرة ، فقد ساعد بنفسه على اغلاق أبواب السجن . ولكن ما أن تم للناس ذلك ، حتى شعروا أنه لم يعد لهم بقاء في بلدتهم « كالت » ، لأن الشاه ، عاجلا أم آجلا ، سيرسل حملة أخرى لتأديبهم ومعاقبتهم على فعلتهم ، الا أنهم كانوا قد أكملوا خطتهم ، فليس لهم بقاء في بلاد تسير فيها النساء في الشوارع من غير حجاب ، ويرتدي فيها الرجال القبعات . وهكذا سار الجميع ، الرجال والنساء والأطفال ، الى الميناء ، وأقلعوا على ظهر المراكب العسكرية وكانت هذه هي المرة الاولى التي يركب فيها حسن البحر ، فيما عدا تلك الرحلة القصيرة التي قام بها من جزيرة أم قيس الى البر ، ومع أنه شعر بدوار البحر ، الا أن المغامرة كانت عظيمة . لقد حمل الجميع كل ما تمكنوا من حمله ، وأقلعوا في البحر ، ولم يعد أي منهم الى بلده مرة

ثانية • ومن ذلك الوقت حتى الآن وبلده « كالت » مدينة مهجورة تسكنها الاشباح •

وقد أضاف حسن أن أسرته هاجرت أولا الى مكان يدعى « خورفكان » في محمية عمان(١) ، ومن هناك هاجروا فيما بعد الى الكويت ، وسواء كانت رواية حسن صحيحة أم لا ، فقد كانت « كالت » مدينة مهجورة عندما مررنا بها • لقد كان من الممكن أن تكون البلدة ميتة تماما ، الا أنها لم تكن ميتة لدرجة تشجع « نجدي » على القاء مراسيه فيها ، مع أن الظروف الجوية كانت معاكسة لنا ، وكان يحسن بنا أن نرسو هناك ، فقد كان نجدي يخشى الايرانيين الجدد وجميع ما يقومون به من أعمال • كما أن الايرانيين كانوا يرتابون بالمراكب الكويتية ، ويتهمونها بالقيام بأعمال التهريب بدون انقطاع ، ولكن « نجدي » كان يسخر من ذلك ويدعي بأن المراكب الكبيرة لا تقوم بأعمال التهريب ، بل أن هذه الاعمال متروكة للمراكب الصغيرة • فكل كبير وصغير يعرف أن المراكب الصغيرة تهرب البضائع من الشارقة ودبي والبحرين وخورفكان الى ايران هذه الايام • فان المعقول أن تحمل البضائع المهربة بكميات صغيرة على مراكب صغيرة وتنتقل خلال الليل ، بدلا من الشحنات الكبيرة التي تحتاج الى وقت أطول لتفريغها ، ونتيجة لذلك تتعرض لمخاطر أكبر • كما أن المراكب الصغيرة يمكنها أن تختبيء في أي مكان ، أو توقف على رمل الشاطيء أو تحرق عند الضرورة القصوى ، أما المراكب الكبيرة فلا يمكنها أن تقوم بشيء من ذلك ، ولهذا كله فان « نجدي » بعيد عن عمليات التهريب بعدا تاما ، بحسب قوله ، ولكنه يضيف ، في صوت هامس ، وهو يحدثني متسائلا عما اذا كنت أعرف أية بقعة من بقاع الارض يمكن لربان فقير يقود مركبا عربيا أن يحمل شحنة اليها •

اني أعتقد ، استنادا الى كل ما سمعت ورأيت ، أن عمليات التهريب رائجة على طول الساحل الفارسي ، وأشك بأن الكويتيين غير منخرطين فيها أيضا • فالتهريب في المراكب الكبيرة ، وهي مسافرة الى أفريقيا ، عملية صغيرة يقوم بها نفر من الرحالة وبعض البحارة ، أما الربح الذي يمكن الحصول عليه من تهريب شحنة من الشاي او البضائع الخفيفة الى ساحل ايران فهو شيء مختلف تماما • وفي احدى الليالي ، بعد أن شاهدنا

---

(١) خور فكان بلدة تتبع أمارة الشارقة ، لا محمية عمان ، وان كانت تقع على الساحل الشرقي من شبه الجزيرة • وامارة الشارقة الآن بالطبع جزء من دولة الامارات العربية المتحدة • (المترجم)

قافلة من الجمال تغذ السير قبل المغيب ، وتختفي في منخفض من الارض يقف قبالته بوم من دبي راس هناك ، بدأ العجوز يوسف يتحدث عن رحلات التهريب التي تقوم بها المراكب من الساحل المتصالح الى « كالت » وأماكن أخرى • ومن جملة ما قاله ، ان تلك المراكب كثيرا ما تعود ، من رحلات التهريب الى فارس ، بحمولة كاملة من الرجال ، تنزلهم على أحد شواطىء البحرين المنعزلة تحت جنح الظلام ، ليجربوا حظهم في العمل كعمال في حقول النفط • ولست أدري موقف حكومة البحرين من هذا ، كما أن يوسف لا يهمه ذلك ، ولكني لا أشك في أن هذا الامر يزعج الحكومة ، لأن وضع الايرانيين الفقراء يعتبر مشكلة حادة في تلك الجزيرة منذ بعض الوقت •

لقد قص يوسف علي أيضا قصة ذلك المركب الذي كان يعمل على ظهره ، والذي قبض عليه وهو يفرغ شحنة من البضائع الى قافلة من الجمال في الليل • فقد أرسل مع المركب ثلاثة من الجنود الايرانيين ليرافقوا المركب ويوصلوه الى ميناء بوشهر • الا ان البحارة تغلبوا على الجنود في أثناء الطريق ، وقيدوهم ، وألقوهم في وقت لاحق على شاطىء منعزل على ساحل الاحساء ، غرب الخليج • أما ماذا حدث لهؤلاء ، فلم يكن يوسف يدري ، بل هز كتفيه بلا مبالاة • ولا بد أن حركة التهريب هذه شوكة في جنب شاه ايران الذي كانت تجارة بلاده آخذة بالكساد ، والذي كان رعاياه ، ذوو الافكار المستقلة ، الناقمون على آرائه الغريبة عن تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، يهاجرون الفوج تلو الآخر ويختفون في مجاهل عمان • وقد علمت أن هناك أعدادا كبيرة من الايرانيين المنفيين أو الهاربين من بلادهم يقطنون البحرين والكويت بالاضافة الى موانىء الساحل المتصالح •

وفي هذا الوقت ، أصبح لدينا خمسة مرضى من البحارة : اسماعيل ، وعبد اللطيف المغني ، وجاسم الطباخ ، وناصر الغواص ، وابراهيم قائد الدفة • وقد علق نجدى على ذلك قائلا أن نظرة واحدة من هؤلاء على وطنهم الكويت كفيلة بشفائهم جميعا ، الا أني كنت أشك في ذلك شكا كبيرا • فقد كان ناصر الغواص ، الذى كان يغوص على اللؤلؤ منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره ، يشكو من درجة متقدمة من مرض السل ، وأصبحت أيامه معدودات ، مع أنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين • لقد كانت الحياة على ظهر المراكب شاقة جدا ، فالطعام لم يكن كافيا أو مناسبا ، ولم يكن هناك مجال للراحة الطويلة ، ولم تكن الملابس كافية وكثيرا ما كانت مبللة ، كما كان البحارة معرضين دائما للحميات وأنواع أخرى من الامراض الاستوائية • ولا بد لمثل هذه الظروف أن تترك أثرها العميق على صحة البحارة • فقد كان كل من الملاحين على ظهر مركبنا ، فيما عدا شابا في السادسة عشرة ،

أشيب الشعر ، بل أن شعر بعضهم كان بلون الحديد · وكثير منهم كان يبدو عليهم الكبر ، مع أن أحدا منهم لم يكن قد تقدمت به السن · فلم يكن سالم ، الذى لم تبق فى فمه سن واحدة ، يبلغ الاربعين ، ولكنه كان يبدو فى الستين من عمره ، كما لم يكن يوسف الشيرازى يزيد عمره عن الخامسة والخمسين مع أنه كان يبدو فى السبعين · فقد كانت ثلاثة من أظافر يديه وثلاثة من أظافر قدميه مخلوعة من جذورها ، وكان هذا أمرا عاديا جدا لا يلفت انتباه أحد · ولكن نجدى ، الذى لم يكن يؤمن بالدواء غير الكى بالنـار والربط بأوراق المصحف ، كان يرى أن جميع بحارته بصحة جيدة ليس بينهم مريض واحد · ففى رأيه أن الضعيف يموت صغيرا فى الجزيرة العربية ، أما من يكبر ليصبح بحارا ، فلا بد أنه صحيح الجسم معافى ، كما كان يدعي أن نظرة واحدة من المرضى على الكويت كافية لشفائهم جميعا · وقد كنت أرجو ذلك فعلا ·

وفى أثناء ذلك لم نستطع التقدم كثيرا أو الاقتراب من موطن الجمال هذا ، الذى يمكنه أن يشفى المرضى ويملأ القلب بهجة وسعادة ، فقد كانت الريح لا تزال تهب معاكسة لنا من الشمال ، أحيانا خفيفة ، وفى أحيـان أخرى عنيفة وتعمل على تمزيق أشرعتنا · وكان « فتح الخير » يتراقص ويهتز فى المياه المحصورة فى الخليج العربى دون أن يتمكن من احراز أى تقدم ، وكان يفعل ذلك بعنف وبشكل مستمر ، حتى أن نجدى أصبح يشعر بكثير من التشاؤم ويقول : « يظهر أنى لن أعود حيـا لأى من زوجاتى » ، وذلك عندما استمرت الظروف السيئة لليوم الحـادى عشر على التـوالى ، وأعترف لى للمرة الاولى بأن شراعا رئيسيا جديدا ربما صلح به حـال المركب · فقد كان دائما يدعى فى السابق بأن « فتح الخير » كان آيـة فى الكمال ، على الرغم من العيوب الواضحة فى شراعه الرئيسى ، التى بدأت تظهر وتزداد وضوحا مع كل هزة من هزات المركب · ولكن ما آلمه حقا هو أن البوم الكبير سمحان قد سبقه وغاب عن بصره ، فأخذ يشعر بالانقباض ، عندما يخطر على باله أنه لن يتمكن من بيع الأخشاب التى يحملها ، بعد أن يكون المركب سمحان قد أغرق السوق المحلى بألف ومائتين من الاعواد التى يحملها على ظهـره ·

وقد استمر يتذمر ويقول : « يظهر أن أيا من زوجاتى لا ترغب فـى عودتى (١) · سيغرق المركب سمحان السوق بالاخشاب · يبدو أن هذه الريح

---

(١) يكرر المؤلف فى عدة مواضع أن لنجدى عددا من الزوجات · وعند الاستفهام عن ذلك من السيد أحمد البشر الرومى ، الذى كان يعرف « نجدى » معرفة جيدة ، أفاد أن الواقع أنه كانت لنجدى زوجة واحدة هى زوجته الاولى التى توفيت منذ عشر سنوات تقريبا ، بعد أن أنجبت له جميع أولاده · ومنذ سنوات قلائل تزوج للمرة الثانية الزوجة التى أصبحت أرملة الآن بعد وفاته فى مارس ١٩٧٩ · (المترجم) ·

الشمالية اللعينة لن تتوقف » · كان يقول أشياء من هذا القبيل ويكررها دون أن يؤمن بصحة أي سوى الاخيرة منها ، ولكنها جميعا كانت تسبب له القلق والازعاج · فاقترحت عليه أن نذهب الى البحرين ، بدلا من أن نبقى على هذا الحال ، وذلك بعد أن نظرت الى خرائطى ، ووجدت أنها ربما كانت فكرة صائبة أن نحاول الاطلاع على سوق الاخشاب فى البحرين ، لعلنا نوفق الى بيع بعض ما نحمله ، خاصة أن ذلك لن يزيد فى تأخيرنا أكثر مما تقـــوى عليه الريح الشمالية · علاوة على أن ذلك سيريحنا كثيرا من العذاب الذى نحن فيه · ثم أننا كنا قد أصبحنا فى النصف الشمالى من الخليج ، بحيث يمكننا أن نصل البحرين بالدوران على أنفسنا والاستفادة من هبوب الريح الشمالية التى لم تنقطع ·

نظر نجدى الى طويلا ، وللمرة الاولى فى حياته ، وافقنى على كلامى، على الرغم من أنه لم يكن راغبا فى الذهاب الى البحرين ، أو الى أى مكان آخر غير الكويت · وأجاب قائلا : « ان شاء الله · ما دمنا لا نستطيع الذهاب الى أى مكان آخر ، فلنتوجه الى البحرين » ·

أعتقد أن ما أعجبه فى اقتراحى بالفعل هو أن يسبق المركب سمحان الى شىء لم يقم به ، فبينما يكون سمحان يشق طريقه بصعوبة بالغة باتجاه الكويت والبصرة ، يستطيع هو أن ينسل الى البحرين فربما حالفه الحظ وباع شحنته من الخشب فيها ، دون أن يجد منافسا له هناك · وكلما فكر فـــى الاقتراح ، ازداد اعجابا به ، فقد كان والده قد ذكر له فى رســالته بأن فى البحرين حركــة عمرانية نشــطة ، نتيجة للتوســع السريع لشركة النفط ، وازدياد موارد الحكومة ·

وحوالى منتصف الليل ، بينما كانت الريح تعصف وتزأر ، ومركبنا يعلو ويهبط بعنف فى بحر مضطرب فى مكان ما مقابل « رأس نابند » ، درنا على أنفسنا مصحوبين بالطبع بالصراخ المعروف ، وبتمزيق الاشرعة · وما أن فعلنا ذلك حتى وجدنا أنفسنا نتجه بسهولة نحو البحرين · لقد قمنا بتلك الحركة عند منتصف الليل ، لكى لا ترانا أو تشعر بنا أية مراكب يمكن أن تكون قريبة منا ، فقد كان من الاهمية بمكان أن نذهب الى البحرين بمفردنا، وألا نجد أية منافسة فى البحرين ، والا فان زيارتنا لذلك البلد ستكون بــلا فائــــــــدة ·

الفصل السادس عشر

ابن سعود يشتري الشحنة

ابن سعود يشترى الشحنة

بعد يومين كنا نلقي مراسينا في ميناء المنامة الضحل ، في جزيـــرة البحرين • وكان أول ما رأينا هناك « سمحان » بوم يوسف بن عيسى وهو يرفع علم الكويت تحية لنا • وفي داخل الميناء على مقربة من الشاطىء كان يقف بوم حامد يوسف الفارسي القادم من ديما ، كمـا كـــان بـــوم عبد الوهاب خليفة الكبير قد بدأ يظهر في نور الصباح الباكر ، وهو يسير خلفنا في عرض البحر ، محملا بأعواد الخشب أيضا ، ومتجها الى الميناء نفسه • وفي خلال الايام القليلة التالية وصل نصف أسطول الكويت مـــن المراكب العائدة الى أرض الوطن من أفريقيا ومن الهند ، بمـــا فيهـــا « الداو » الكبير ملك عبد الوهاب بن عبد العزيز ، وبغلة سليمان الروضان ، وبغلة ناصر بن عيسى المسماة « القطة » ــ والتي لم يكن هو يدعوها بهذا الاسم ــ ، ومركب أخيه حمود المحمل بخشب الساج ومواد صنع الحبال قادما من مالابار ، بالاضافة الى ثلاثة أو أربعة مراكب فارسية أخرى •

عندما وصلنا الى البحرين ورأينا الميناء مكتظا بهذا الشكل ، خيمت الكآبة على نجدي ، وأعلن فى الحال بأنه عازم على العودة والاتجاه الـى عرض البحر ثانية ليواصل سيره الشاق صعدا في الخليج ، ويحاول أن يسبق المراكب الاخرى الى البصرة • فقد دفعت الريح الشمالية بجميـــع تلـــك المراكب الى البحرين ، كما دفعتنا نحن أيضا • ولكن يشاء حسن الطالع أن يحالفنا الحظ لأول مرة ، لأنه لم يمض على وصولنا الا ساعات قلائل ، حتى كنا قد بعنا جميع حمولتنا من خشب البناء • كما لم تجد المراكب الاخرى أية صعوبة في التخلص من حمولاتها أيضا ، وذلك لأن عبد العزيز بن سعود، ملك المملكة العربية السعودية ، كان قد زار المدينة قبل مدة وجيزة ، وترك تعليمات مع أحد الوسطاء المحليين بأن يشتري حمولة عشرين مركبـا مـــن الاخشاب الصالحة للبناء • فقد كان الملك قد بدأ برنامجا لاعمار مدينـــة الرياض ، ومدن أخرى في مملكته ، بعد أن زادت موارده زيادة محسوسة من بيع النفط الذي اكتشفته الشركات الامريكية في البلاد ، وكانت البحرين هي المكان الطبيعي للحصول على المعدات والمواد اللازمة لذلك البرنامج • لقد كنا محظوظين فعلا ، وشاء الله أن تكون الريح الشمالية نعمة لا نقمة • وكانت أسعار ابن سعود جيدة ، أفضل مما يمكن أن نحصل عليه في أي مكان آخر ، فقد كان الملك دائما كريما • وهكذا تمكنا من بيع حمولتنا عن طريق

وسيط ايراني بسعر عشرين روبية لكل عشرين عمودا ، ولم نكن قد دفعنا ثمنا ، لأكبر وأفضل تلك الاعمدة ، أكثر من عشر روبيات لكل عشرين منها فكان ربحا مجزيا ، بعد طول انتظار ، وانقلبت الرحلة فأصبحت موفقة ، بعد أن كنا لا ننتظر منها خيرا كثيرا ·

لم يكن الوصول الى البحرين بالأمر اليسير ، بل كان علينا أن نكافح ونبحر في ظروف قاسية لكي نصل اليها · فعندما استدرنا لنتجه اليها ، أخذت الريح تدفعنا بعيدا عن خط سيرنا ، وبدلا من أن نصل البحرين مباشرة ، وجدنا أنفسنا مقابل شاطيء قطر ، وهي شبه جزيرة رملية ، منخفضة تبرز الى البحر عند الزاوية الجنوبية الغربية من الخليج العربي ، تحيط بها مياه ضحلة خضراء اللون ، تكثر فيها الحواجز المرجانية · وكانت هذه المياه مياها خطرة ، وقد رأينا الوهج ينبعث من رمال الصحراء خلفنا ، قبل ان نشاهد تلك الارض الواطئة ، وعددا من الغواصين وهم يحاولون الاحتماء من العاصفة بالحاجز المرجاني · فالريح كانت قوية في ذلك اليوم ، وأمواج البحر عالية ، قصيرة ، عميقة ، يعلوها الزبد الابيض · ولم تكن هذه الظروف مناسبة لمركبنا القصير ، ذي الصواري العالية ، فأخذ يعلو ويهبط ويهتز وترتجف صواريه دون تقدم يذكر · وكنا قريبين جدا من شواطيء قطر ، مما مكننا من رؤية احدى البلدان الخربة ، قبل أن نمضي في سيرنا · وعندما سألت « نجدي » عن تلك البلدة ، أجاب بأن اسمها « زبارة » وانها كانت مكانا هاما في يوم من الايام ، وانها الموطن الاصلي لعدد من الكويتيين ، وكذلك لعدد ممن يسكنون البحرين الآن · ولكن المكان لم يكن يبدو ذا أهمية الآن · ولذلك فرحت عندما انقلبنا واتجهنا بسيرنا بعيدا عن قطر · وقد أضاف نجدي قائلا ان هناك كثيرا من المشاكل في قطر ، وانحى باللائمة على بعض المشايخ السيئين · ولا بد أن أقول ، استنادا الى ما شاهدت ، أن كثيرا من بلدان الخليج كانت تبتلى من آن لآخر ببعض المشايخ الظالمين ·

عندما غيرنا اتجاهنا ، ويممنا وجهنا شطر الشاطيء الفارسي من الخليج مرة ثانية ، شاهدنا بومين أمامنا ، وفي الحال تعرف نجدي عليهما ، وقال ان احدهما كان قد غادر زنجبار قبلنا بشهر كامل ، وكان هذا الأمر مصدر سعادة لنجدي ، أما الاخر فكان من الباطنة ، متجها شمالا يحمل شحنة من حطب الوقود · وتدريجيا بدأنا نقترب منهما ، والريح تهب علينا حارة جدا كأنها لهيب جهنم ، ومحملة بالرمال بحيث تعطل الرؤية ، كما كان البحر غاضبا ، مخيفا ولم يتوقف مركبنا عن التأرجح الشديد ، وعن الصعود والهبوط بعنف ، كما لم يتوقف البحارة عن نزح الماء من باطنه ، فقد كان

رذاذ البحر يغمر المركب وهو يهب علينا كأنه السحاب ، فيبلل القرد « يميد » الذي كان قد خرج من مخبئه ليراقب البحارة وهم يقومون بأعمالهم ، ويغمره بالماء ، وكان هذا ينظر حوله بمرارة ليرى من الذي سبب له البلل ، ويبدأ بالثرثرة وهو ينظر الى البحر ، وكأنه يقول له شيئا ، ثم لا يلبث أن يزحف وهو يقطر ماء ، عائدا الى حِمَى الموقد وهو ينظر خلفه بغضب • أما القطة فقد كانت أكثر تعقلا من القرد ، ولم تخرج قط من المكان الامين الذي كانت قد أوت اليه مع صغارها •

وقبل أن يختفي آخر شعاع من نور ذلك اليوم ، وكان البحر لا يزال على هيجانه ، مررنا على مقربة من البومين الآخرين • وكان كلاهما يسيران وهما يرفعان أصغر شراعيهما الرئيسيين ، ويحرزان بعض التقدم رغم ارتفاع الموج وسوء الاحوال الجوية • لقد كان منظر المركبين لا ينسى ، وهما يصارعان الأمواج في أولى ساعات ذلك الليل المدلهم ، فكنت انظر الى شكليهما الجميلين وخطوط اجسامهما الانسيابية ، وكل منهما يمخر عباب اليم ، مرة يرفع مقدمته الغاطسة في الماء ، ومرة أخرى يرفع مؤخرته ، بينما جسمه كله يهتز اهتزازا شديدا ، ويتمايل مع هبوب الريح من أحد جانبيه ، ولكنه يبقى واثقا من امكانية متابعة سيره دون خوف من الغرق • وعندما اقتربنا منهما ، بعثنا لهما بالتحية ، وتمنينا لهما ليلة موفقة • لقد كانا مركبين صغيرين باسلين بالنسبة لتلك الظروف • وقد خطر لي في ذلك الوقت ، كما كان قد خطر لي سابقا ــ وأنا على شاطيء « كوالي » ، أنظر الى المركب العتيق « بدري » ، من على ظهر المركب في تلك الليلة الليلاء التي قضيناها مقابل بلدة « ماليندي » ، وثانية مقابل « كيسيمايو »ــ خطر لي أن من المؤسف حقا ألا يقوم الكويتيون ، الذين بامكانهم بناء مثل هذه المراكب الجيدة ، ببنائها بشكل أفضل قليلا ، بحيث تصبح صالحة للملاحة في أي وقت وتحت أية ظروف ، وألا يقوموا بتجهيزها بشكل أقوى قليلا ، على الطريقة الهندية • فلم يكن يلزم تلك المراكب ، لكي تصبح أفضل وأقوى مما هي عليه ، سوى عناية أكبر بطريقة تثبيت الاخشاب بعضها بالبعض الآخر ، واستخدام انواع أفضل من الخشب ، وبناء سطح لا ينفذ منه الماء ، وتوفير احتياطات ملاحية للتخلص من الماء الزائد فى المركب• فلو أضيفت هذه التحسينات البسيطة ، في رأيي ، لأصبحت المراكب الكويتية قادرة على السفر الى أى مكان • وأنا شخصيا أفضل أن أجهز مركبا كويتيا على الطريقة الهندية ، اذا كنت سأسافر على ظهره الى أي مكان آخر خارج المحيط الهندي •

وحوالى منتصف الليل ، تحسن هبوب الرياح ، واستطعنا أن ندور

على أنفسنا مرة ثانية ونيمم وجهنا شطر البحرين · وقد نجحنا هذه المرة ، ووصلنا البحرين عند فجر اليوم الحادي عشر على مغادرتنا خليج مطرح ، بعد أن واصلنا سيرنا طوال الليل · وكان هذا فعلا انجازا عظيما يقوم نجدي به ، لولا أنه لم يفتأ يفخر بذلك ويدعي عدة مرات بأن نوخذة آخر غيره لا يمكنه القيام بما قام به هو · ذلك لأن البحرين تقع في زاوية من زوايا الخليج العربي ، المملوءة بالشعاب المرجانية ، التي يحق للبحارة أن يخشوها ، كما أن المياه ضحلة حولها ، وحواجز اللؤلؤ ترتفع كثيرا بحيث تقترب من قاع المركب ، ويصبح بامكانها فتح الثقوب به اذا مر من فوقها · ولا شك عندي بأن معظم النواخذة الآخرين لن يجرؤوا على محاولة الابحار باتجاه البحرين الا خلال النهار ، وهذا في رأيي ، عين العقل والحكمة · ولذلك فقد كان منظر نجدي لا ينسى ، وهو يغني بسعادة وقلة اكتراث وراء ظهر قائد الدفة في ذلك الليل البهيم ، بينما يواصل المركب سيره دون توقف باتجاه ميناء البحرين · ولم يكن الليل مقمرا ، ولكن السماء كانت مرصعة بالنجوم المتلألئة · كما كنا نخلف ورائنا خطا من الزبد الابيض ، يقطعه أحيانا النور المنبعث من حبل الرصاص الذي كان البحارة يسبرون به غور البحر من آن لآخر ، وكانت الأشرعة المنتفخة تبدو سوداء في ضوء النجوم ، وقائد الدفة منحنيا على عجلة القيادة ، بينما كان البحارة الذين لا عمل لهم ، يغطون في نوم عميق على ظهر الصناديق ·

وقد دخلنا الميناء بسرعة عادية ، وكان نجدي مغتبطا جدا بما قام به ، وفخورا بنفسه ، ولكن ما أن أشرقت الشمس من وراء الافق ، ورأى ذلك العدد الهائل من المراكب التى سبقته الى الميناء ، حتى غادرته غبطته وانشراحه واغتم اغتماما شديدا · ولم يخفف من غضبه أن أفضل تلك المراكب كانت قد غادرت دلتا الروفيجي أو ميناء لامو قبل أن نغادر نحن زنجبار باسبوعين على الاقل · ولم تمض خمس دقائق على وصولنا حتى كان يوسف بن عيسى قد اعتلى مركبنا ، وهو يضحك بملء شدقيه كعادته ، ويروي على مسامع نجدي قصة العرض السخي الذي قدمه ابن سعود لشراء جميع الشحنات من الخشب · وقد تأكد ذلك بأن زارنا في الحال وكيل الملك يعرض شراء الشحنة · وقد تم ذلك بدون تأخير ، ومن غير فحص دقيق للبضاعة ، فلم يكن ابن سعود ممن يماحكون في عقد الصفقات التجارية · وكان الوكيل بحرانيا ايرانيا ، يرتدي قميصا أبيض اللون ، وسروالا من الحرير الاصفر تحت جلباب من القطن ، وكله حيوية ونشاط وشغف بالحياة ، ولم يستغرقه شراء الشحنة كلها أكثر من خمس دقائق · وقد فهمت أن عمولته من كل صفقة تبلغ نصفا في المائة · وكان ما اشتراه منا يزيد عن (٣٠٠) عمود ، بينما لم ندفع نحن للسلطات في دلتا الروفيجي الا ثمن

(١٥٠) • أما كيف تمكنا من شحن ضعف العدد الرسمي ، رغم كل الصعوبات والرقابة الشديدة علينا ، فهذا أمر أجهله تماما ، ولكني خمنت أن مرشدنا المشهور « مبارك » ، الذي ذكرنا قبلا أنه سيق الى السجن في « أوتيتي » ، كان ، بلا شك ، وراء العملية كلها •

لقد كان الحر قاتلا في ميناء البحرين ، الذي كان يبدو أقل عروبة حتى من ميناء عدن • فقد كانت المنامة ميناء نشطا كثير الحركة ، ولكنه لم يكن عربيا • فقد كان يعج بالهنود والايرانيين والامريكيين ، بينما كان العرب يغوصون على اللؤلؤ ، والايرانيون يقومون بالاعمال الشاقة • وهو ميناء حار ورطب لدرجة لا يستحق بذل الجهد الكبير لاستكشافه • فلم تكن البلدة تبدو لي أكثر من مركز تجاري لتوزيع البضائع الرخيصة السيئة الصنع الى الاحساء ونجد وايران دون ان تتدخل سلطات الجمارك كثيرا ، وللحصول على أي أموال يتكرم الكفار المشرفون على صناعة النفط بانفاقها ، أو تبديدها هناك • وكانت هذه الاموال ، برغم كفاءة الامريكيين، تبدو مبالغ طائلة ، بحسب رواية العرب • فقد كانت السيارات الحديثة الانيقة تتجول هنا وهناك في سوق المنامة ، ولم تكن جميعها ملكا لرجال النفط ، بينما كان البحارة يجوبون الطرقات حفاة الاقدام ، ويجدون أن أسعار الحاجيات في هذه الايام تفوق طاقتهم على الشراء •

أما وقد تم الاتفاق على بيع حمولتنا بهذه السرعة ، فقد أعلن نجدي أننا لن نمكث في المنامة أكثر من ثلاثة أيام ، فقد كان متلهفا للعودة الى أرض الوطن • وقد شاركه البحارة في لهفته ، الا أن ثلاثة أيام كاملة مضت قبل أن نبدأ في تفريغ حمولتنا • ولكن ما أن بدأ التفريغ ، حتى تم بسرعة • وقد قام بحارتنا بانزال الخشب الى الشاطىء ، مستخدمين لهذا الغرض القارب الطويل وبضعة قوارب أخرى استأجروها من الشاطىء ، وكانوا يلقون الخشب على جانب الشارع الممتد على طول الميناء • ولم يمض أسبوع على وصولنا الى هناك حتى كان ذلك الشارع قد غطي كله تقريبا بأعواد الخشب المجلوبة من الروفيجي ومن لامو وهي الأعواد التي اشتراها ابن سعود • ولكن نجدي ، الذي كان في البداية سعيدا بتخلصه من الشحنة التي كان يحملها ، عاد يشكو من مجيئه الى البحرين أصلا ، لأن ذلك أخر عودته الى الوطن • وكان يبدو كأنه غير راض عن السهولة والسرعة التي يتم بها تفريغ الحمولة ، لأن ذلك لم يكن يمثل الطريقة التي يؤدي بها العربي مهامه • وأعتقد شخصيا بأنه كان يجد متعة في المساومة على بضاعته بضعة أيام كاملة • ولكن ها نحن أولاء ، ما كدنا نصل ، حتى اعتلى مندوب الملك المركب ، واشترى البضاعة في بضع دقائق ، دون

مساومة ، ودون ذلك الشعور بالبراعة والدهاء ، الذي يحسه البائع عندما يساوم طويلا على بضاعته · ولا شك أن نجدي كان يحب ذلك ، بل أنه كان جزءا من لذة الحياة ·

وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد بدا لي أن « نجدي » أخذ يسمح لنفسه بالاستمتاع بوقته بشكل معقول في المنامة · فقد ذهبت معه بضع مرات الى البر ، كما زرنا بضعة مراكب أخرى ، وكان واضحا أن نوعية الحياة التي كان يحياها نواخذة هذه المراكب الكبيرة أخذت تميل الى التحسن كلما اقتربوا من الوطن · فقد كنا نذهب في القارب الطويل ، في الصباح الباكر ، حين يكون الجو باردا نسبيا ـ لأن التجول في المنامة بعد الساعة العاشرة صباحا ، مشيا على الاقدام ، يشبه الدخول في حمام تركي ـ وننزل الى الشاطىء على طرف رصيف طويل مبني من الحجارة المرجانية · وكان هذا الرصيف في طور التحسين والتطويل ، ومن هنا كانت القوارب الصغيرة ، التي تنقل الحجارة ، وهي تنساب على سطح الماء ، تسوقها أشرعتها المثلثة العالية ، تمر من أمامنا واحدا بعد الآخر ، كأنها في حلبة سباق · وفي جميع أنحاء الاجزاء الداخلية من الميناء ، كان العمال يقفون عراة في الماء ، ويكسرون الصخور المرجانية ، ويحملون قطعها في تلك القوارب التي كانت تقوم بنقلها الى الرصيف · وفي طريقنا الى الشاطىء ، كنا دائما نتوقف عند المراكب الكويتية الاخرى ، ونصطحب معنا أية نواخذة يرغبون في النزول الى البر · وفي العادة كان الجميع يرافقوننا · ولكن كان يحدث ، في بعض الاحيان ، أن يكون القارب الطويل ، التابع لأحد المراكب الكبيرة ، ينتظر عند سلم المركب الى أن نمر ، وركابه على ظهره ، وحالما نمر بهم ، كانوا يندفعون لمسابقتنا · لقد كان سباقا رائعا حقا ! فقد كان البحارة يهزجون ، والمجاديف تخبط الماء فتبعث الرذاذ عاليا ، والنواخذة يقفون على رأس بحارتهم يحثونهم ويشجعونهم ، بينما يذمون بحارة المركب الآخر ، وعرفاء البحارة يصيحون ، وقائدو الدفة يقفون بكل يقظة ونشاط وراء سكان كل منها ، وجميع من في الميناء يتفرج على السباق · وكنا دائما نتسابق مع بحارة « الداو » الكبير · فقد كان قاربهم الطويل جميلا ، يزيد طوله عن سبعة وثلاثين قدما ، يجذفه أربعون من الرجال الاشداء ، ويقودهم عبد الوهاب نفسه وهو يمسك الدفة · وكانت أفضل تلك السباقات التي كانت تجرى في المساء ، عندما تكون جميع القوارب الطويلة تنتظر عند الرصيف ، لكي تعيد كلا من النواخذة الى مركبه · وكان سبعة أو ثمانية من هؤلاء يعودون دائما ، وهم يتمشون ، قافلين من المقهى ، وكل منهم يداعب حبات مسبحته ، وحالما يصلون الى رأس الرصيف، ينطلق كل منهم الى قاربه كالسهم ، وتندفع القوارب في الحال ، كل يحاول أن يسبق الآخر · لشد ما كان هؤلاء البحارة يجذبون مجاذيفهم ، وكم كان

الميناء كله يرجع صدى صياحهم وأغانيهم ! وكانت المسافة الى المراكب حوالى نصف ميل ، وكانت تلك مسافة طويلة في ذلك الجو الخانق · الا أن البحارة كانو يحبون هذا السباق ويسعدون به ، ولذلك فقد كانوا يعاودونه نهارا وليلا ، بلا انقطاع · وكنا نتعادل تقريبا مع رجال « الداو » الكبير ، فقد كان مركبهم طويلا ، رشيقا ، قويا ، وجميلا · وقد أقسم نجدي ليحصلن على قارب أفضل من قاربه الحالي في الرحلة المقبلة ·

أما الفترات التي كانت تمتد ما بين سباق الصباح وسباق المساء ، فقد كنا نقضيها في التجول في أرجاء السوق ، والاسترخاء في المقاهي ، وتناول الطعام في بيوت التجار ، والاستلقاء على سجادهم في البرودة النسبية للغرف الظليلة · أما السوق نفسه ، فقد كان فسيحا ومسقوفا ، وكان فيه كل ما يخطر على البال ، من العباءات العربية الجميلة ، الى الملابس الداخلية الامريكية الصنع ، ومن عطور باريس ، الى ربطات العنق الخاصة بالسهرات الرسمية ، ولذلك كان باستطاعة المرء ان يشتري أي شيء يحتاجه من سوق المنامة ، فقد كان ازدهار المدينة واضحا للعيان · الا أن المكان كان حديث عهد بالنعمة ، وكان الازدهار يعود بشكل رئيسي الى النفط ، مما جعل البحرين تنتقل من لا شيء الى أكبر ثاني عشر حقل للنفط في العالم · أما في الماضي ، فقد كانت صناعة اللؤلؤ هي الصناعة الرئيسية في البلاد ، الا أنها كانت في كساد منذ مدة طويلة : أولا ، بسبب الكساد الذي كان يسود العالم ، ولكن بدرجة أكبر ، بسبب المنافسة الحادة للؤلؤ الاصطناعي الياباني · أما الزراعة ، فقد كانت مهمة في يوم من الايام ، الا أنها الآن أصبحت مهملة بوجه عام ، وتركزت ثروة البلاد في النفط فقط · وقد بدأت أتساءل ، وأنا أتجول مع نجدي في السوق ، وأرى الحوانيت المملوءة بالبضائع ، ما اذا كان هذا الرخاء المفاجيء والعارض نعمة بالنسبة للبلاد ، ولكني لم أعثر على واحد يقول انه يمانع في ذلك أو يعترض عليه · بل أن نجدي أجابني على تساؤلي بقوله : « ستصبح الكويت كالبحرين عما قريب » · ولكني أجبته قائلا : « لا سمح الله ولا قدر ! أليست الكويت مدينة عربية ! » فنظر الي مليا ثم قال : « نعم ، ولكن فيها نفطا وفيرا » الا أنه بعد لحظة أضاف قائلا : « ربما كنت على حق · فهذه المدينة ليست عربية » ، ولم يزد على ذلك شيئا ·

لقد كان تجوالي في السوق مع نجدي تجربة مفيدة ، وكنت أراقبه وهو يحيي الأقارب والتجار والاصدقاء · وفي احدى المرات ، قمنا بزيارة واحد من كبار التجار ، وكان له صلة قرابة بعيدة بنجدي · وكان رجلا محترما ، قليل الكلام ، يتصرف بشيء من التعالي ، ويرتدي أفخر الملابس ·

وعندما زرناه في مكتبه في السوق ، كان مشغولا في حديث مع عدد من الصرافين من « بنيان » ، وهو يحاول افهامهم بكلمات قليلة ، ليست كلها لطيفة مهذبة ، لماذا لا يستطيع الموافقة على عروضهم ٠ وهنا ، كما كان الحال في كل مكان آخر ، جرى الترحيب بنا بتقديم الحلوى ، والشراب ، والقهوة العربية غير المحلاة ، والشاي شديد الحلاوة ٠ وقد دعانا الرجل لتناول طعام الغداء في منزله ، الا اننا لم نلب الدعوة ٠ وكان تعليق نجدى على الرجل : « انه تاجر وأن التجار قوم غلاظ القلوب ، كل همهم جمع المال » ٠ فسألته : « وماذا عن النواخذة ؟ » ٠ وكان جوابه : « النواخذة لهم البحر ٠ أما المال فهو لمراكبهم » ٠

أمضينا بعض الوقت فى مكتب ذلك التاجر ، ولكن ما لبثنا أن أخذنا نتجول فى الازقة الضيقة التى تقع خلف السوق ، حيث كانت الحمير تجرى، وهى محملة بجميع أنواع البضائع ، وأصحابها يركضون خلفها وهم يصيحون : « أفسحوا الطريق ! أفسحوا الطريق ! » ثم قمنا بزيارة بعض المكاتب الاخرى ، وكانت أقل أهمية من المكتب الاول ٠ ورأيت فيها العرب الوقورين الجادين يجلسون الى مكاتبهم لا يفعلون شيئا ، بينما كان عدد من أتباعهم يجلسون على المقاعد الطويلة يحملقون بأصحاب المكاتب ولا يفعلون شيئا أيضا ٠ وكانت هذه المكاتب غرفا عارية ، لم أستطع أن أكتشف نوع التجارة أو الاعمال التى كانت تقوم بها ٠ وقد أخبرنى نجدى بأن هؤلاء كانوا وسطاء ، وقد بدا لى أن أى تاجر فى الجزيرة العربية يستطيع أن يصبح وسيطا ، اذا لم يكن باستطاعته أن يفعل أى شىء آخر ٠

وكان الحديث فى تلك المكاتب ، التى كنا نزورها زيارات مجاملة ، دائما يدور عن الاعمال التجارية ، ولم يكن نجدى يشارك فيها أبدا ٠ الا أننا ، عندما كنا نتمشى فى السوق أو على الشاطىء ، كنا كثيرا ما نلتقى بعدد من النواخذة الآخرين ، وكان الحديث يدور معهم طبعا عن المراكب ، وكان نجدى دائما يدلى بدلوه ٠ وكان ، فى هذه المواقف ، يعود الى وضعه الطبيعى ويصبح رجلا كاملا واثقا من نفسه ، بينما كان يصغر ويتقلص عندما يكون في مكتب أحد التجار ٠ ولم أكن قد لاحظت من قبل كم كان نجدى صغير الحجم ، ولكننى أدركت ذلك عندما كنت أراه وهو يتكلم بأدب على كرسى أحد التجار ، ولم ينفع فى هذا الموقف جلبابه الحريرى الممتاز ، ولا عباءته المطرزة الرائعة فى رد اعتباره لنفسه وكان نجدى حريصا على أن يرتدى أفضل ما لديه كلما نزل الى البر ، فكان يلبس جلبابه الحريرى الموشى بخيوط الذهب ، وكوفيته البيضاء المخططة بالذهب أيضا ، والتى يمسكها في مكانها عقال من الصوف العجمي الاسود ، علاوة على نعله

المصنوع باليد والمزين باللونين الاخضر والاحمر ، وسبحته المصنوعة من أفضل أنواع الكهرمان ٠

عندما كنا نلتقى مع النواخذة ، كنا سرعان ما نتجه الى المقهى ، وكان هذا هو نفس المقهى دائما ، وكان مقهى فسيحا ، يقع فى عمارة الهلال على الشاطىء ، وكانت شاة سوداء كبيرة تدخل الى المكان وتخرج منه وكأنها من أهل البيت ، بينما كانت الجدران مغطاة بصور غريبة ٠ وكنا دائما نقضى الوقت فى أحاديث البحر وتدخين النراجيل ٠ وكانت صور الجدران تتألف من صور بعض الشيوخ ، وصور بعض الفتيات المصريات الجميلات ذوات العيون الجريئة ، وبين هذه وتلك ، صور دعاية لفتيات يدخن السجاير الاميركية ، وبعض الصور الهزلية المقطوعة من احدى جرائد يوم الاحد التى تصدر فى شيكاغو ٠ أما الصورة الرئيسية ، فقد كانت صورة فظيعة ملونة، يظهر فيها بعض الشرقيين وهم يعذبون النبى عيسى بن مريم ٠ وفوق هذه ، كانت صورة مطبوعة لشاه ايران ، وكان يجلس تحتها ، فى احدى زوايا المقهى ، عدد من الايرانيين وهم يتذمرون من تصرفات حكومتهم ٠ وفى ركن آخر كان هناك جهاز حاك يزعق ، وعدد من العرب متكئين على المقاعد الطويلة ، وهم يشربون الشاى ويدخنون السجاير ٠ وكان نجدى عادة يخلع نعليه ، ويبدأ بالحديث الجاد عن احدى نواحى الرحلة التى نقوم بها ٠ وهكذا كنا نقتل الوقت فى هذا المقهى ، لأن الوقت فى المقاهى العربية لم يكن يعنى شيئا لا للزبائن ولا لصاحب المقهى ، فبامكانك ، اذا شئت ، أن تنام أو تقضى النهار وأنت تلعب احدى لعب النرد الشائعة ٠

وفيما بعد كنا نتناول طعام الغداء فى مطعم عربى يقع على الناحية الاخرى من الشارع ، حيث يقدم وجبات شهية من اللحم والسمك والخضار واللبن الرائب ٠ وبعد ذلك ، كنا عادة نعود الى المقهى لندخن نارجيلة أخيرة ، قبل أن نعود أدراجنا الى المركب لننام قليلا ٠ وهناك كنا نقضى القيلولة حيث الحرارة فى أوجها ٠ وعند العصر ، كان النسيم يتسلل بلطف الى مكان رسونا ، فيوقظنا لتناول الشاى وأداء الصلاة٠ ومرة ثانية ، كان الحديث يدور حول المراكب والمغامرات البحرية ، بينما كل منا يداعب حبات مسبحته ، ويدخن نارجيلته ، ويشير بيديه لتوضيح حديثه ٠ ولم يكن نجدى يهدأ أو يمل من الحديث ، وكثيرا ما كان يقص على مستمعيه ما حدث له خلال الرحلة ، وكيف كان مركبه يؤدى مهامه على خير وجه ، بل أنه كان يروى بعض الاحداث البحرية العظيمة التى لم تحدث على الاطلاق ٠ وكنا أحيانا نتحادث وننام على ظهر هذا المركب ، وأحيانا نفعل ذلك على ظهر مركب آخر ، فلا فرق ولا تفريق ، فقد كان النواخذة يتناوبون فى استضافة

بعضهم بعضا • وكان الجو العام رائعا ، والجميع يؤدون أعمالهم وضيافاتهم وتصرفاتهم دون أدنى تكلف • فعندما كنا نعتلى ظهر أحد المراكب ، لم يكن بامكاننا أن نعرف متى نغادره ، فربما طاب لنا المقام ، وامتد بنا حتى صباح اليوم التالى ، بل وربما لليوم الذى يليه •

وأجد هنا من واجبى أن أعترف أن من السهل على النوخذة العربى أن يبدي كرم الضيافة العظيمة هذه دون استعداد مسبق ، لأنه لم يكن بحاجة أن يعد فراشا لضيوفه ، أو عددا اضافيا من الكراسى حول المائدة • فقد كان بامكان الجميع أن يفترشوا سطح المركب ، ويلتحفوا نجوم السماء • أما الطعام ، فلم تكن هناك حاجة لاعداد القدور أو المواعين الاخرى له ، بل كان الارز واللحم يقدمان على طبق واحد كبير يتسع لنصف دزينة من الايدي الاضافية • ومع ذلك فلم أستطع أن أمتنع عن التفكير بأن هؤلاء القوم كانوا فعلا يقدمون لنا ضيافة حقة • ولم يكن هناك وجه للمقارنة بين ما يفعله هؤلاء وما نفعله نحن فى الغرب •

أصبحنا فى آخر يوم من أيام شهر مايو (أيار) وما زلنا راسين قبالة المنامة ، وعلى الرغم من أن البوم أصبح خاليا من الحمولة ، فلم يكن هناك ما يشير الى أننا سنغادر الميناء قريبا • ولكن ذلك لم يكن يقلق أحدا • فقد كان كل يوم بالنسبة لنا خلقا جديدا نحاول أن نهنأ به ، أما الغد فلا مدعاة للقلق عليه ، فسيأتى ومعه خيره • ولكن بعض البحارة أصبحوا متشوقين للسفر والعودة الى أرض الوطن ، فقد كان بعضهم ينوى أن يتزوج فى الكويت ، كما كان خليفة ، مدير الدفة ، قد قابل رجلا على البر نقل اليه خبر ولادة ابن جديد له ، أصبح الآن فى الشهر السادس من عمره ، ولكنه لم يشاهده بعد ، لذلك فقد أسعده أنه سيرى ابنه الجديد عندما يصل ، وأصبح يقوم بعمله بنشاط مضاعف • الا أن الايام كانت تمر ونحن واقفون فى مرسانا ، وكانت تصلنا أخبار كثيرة عن الكويت عندما ننزل الى السوق ، وقد أجمعت جميع الروايات على أن الحالة رائقة والاعمال مزدهرة هناك ، وأن مثيرى الفتنة يقضون بقية أعمارهم القصيرة فى سجون الشيخ التى لا أمل فى خروجهم منها وهم على قيد الحياة • كما علمنا أن أخبار النفط مشجعة ، رغم أنها ما زالت فى مراحلها الاولى ، وأن ابن سعود قد رفع الحظر الذى كان يفرضه على تعامل بدو مملكته مع الكويت ، وسمح لهم بالاتجار مع أهل الكويت بكل حرية • لقد كانت معظم الاخبار عن العالم العربى تنتقل بالسماع ، ولكنى دهشت للسرعة الكبيرة التى كانت تتناقل بها ، علاوة عن أنها كانت دقيقة فى معظم الأحيان •

لم نسمع ، منذ أن غادرنا زنجبار ، عما حصل للبغلة « بدري » ، التى

يقودها بدر صديق نجدى ، الا أن هذا لم يبدر منه ما يدل على أنه كان قلقا على مصير ذلك المركب . وفى ذلك اليوم ، الاخير من شهر مايو ، خرجت من المركب مبكرا فوجدت نجدى على ظهر بوم حمود بن عبد اللطيف، الذى كان قد وصل مؤخرا من الهند ، وقد جلس على السجادة المبسوطة على سدة النوخذة يدخن النارجيلة ، وأمامه طبق من الحلوى ، وقبالته على الرحوية ، يجلس بحار زنجى يسليه بالعزف على القيثارة . وكان بوم حمود موسوقا بالحبال ، والخشب وبخاصة خشب الساج ، والخيزران، والصناديق، والكراسى ، وفوق ذلك كله عدد من القوارب المصنوعة من جذور الاشجار المجوفة . وكان قد مر على المركب اثنان وخمسون يوما منذ أن غادر ساحل ملابار فى الهند الى أن وصل مسقط ، وهذا يدل على أن سير المركب كان بطيئا . ولكن لما كان قد أمضى عشرين يوما ليصل من مسقط الى المنامة ، فقد استنتجت أن المركب بطىء فعلا ، أو أن قيادته كانت سيئة ، لأن المدد التى ذكرتها مدد طويلة جدا . ومع نجدى وحمود وجدت أيضا ناصرا ، شقيق حمود ، وقائد البغلة « القطة » ، وكان هذا رجلا صغير الحجم ، قصير القامة ، ذا شاربين ضخمين ، يقهقه بصوت عال لأية نكتة سواء كان هو قائلها أو سواه . لقد كان رجلا صغيرا، مرحا ، لا يزيد طوله عن خمسة أقدام ، متناسب تماما مع (القطة) التى كان يقودها . ولكنه لم يكن ينظر الى بغلته على أنها صغيرة ، أو شبيهة بالقطة . وكان من المفروض أن يكون اطلاق اسم القطة على تلك البغلة نكتة عظيمة ، ولكنى لم أستطع أن أفهم النكتة ، كما لم يستطع ناصر أن يفهمها ، رغم أنه ذواقة للنكت ، محب للمزاح . وكان هو يدعو بغلته « سيدة البحار » ، أو اسما رنانا طنانا بهذا المعنى ، ولكنها لم تكن كالقطة بأى حال من الاحوال ، رغم أن الجميع، من النواخذة الى البحارة ، كانوا يعرفونها بهذا الاسم . وكانت هذه مركبا صغيرا جميلا يتسع لألف وثمانمائة جلة من تمور البصرة ، وكانت لها مؤخرة محفورة بأشكال جميلة ، ورغم أن عمرها كان يزيد عن خمسين عاما، الا أنها كانت سليمة وقوية ، كما كانت أفضل البغلات الكويتية الباقية على قيد الحياة ، وكنت ، لذلك ، أنظر اليها باعجاب واهتمام. فقد كنت لا أزال أقلب فى ذهنى فكرة محاولة انقاذ احدى تلك البغلات من الاندثار ، بأن أبحر بها برحلة عبر المحيط الاطلسى ، وكانت « القطة » تبدو مثالية لمثل هذه المغامرة . ولكنى لم أذكر شيئا عن ذلك لأحد ، فأمامى فى الكويت فرصة كافية لفحصها فحصا دقيقا عندما تسحب وتوقف على الشاطىء هناك مدة ثلاثة شهور كاملة .

وكنا أحيانا ، بدلا من أن نعود أدراجنا الى المركب لننام القيلولة ، ننقضى تلك الفترة فى شقة تاجر كويتى شاب يدعى بدر الساير ، فى بناية

الهلالى . وكانت هذه الشقة تطل على الشاطىء كما تطل على جـزء من السوق ، وكانت حركة الحياة فى كليهما تسر الناظرين . ولم تكن خمس دقائق تمر على دخولنا الى هناك ، حتى يكون عبد الوهـاب ، ونجـدى ، وحمود ، وناصر ، وعبد الله القطامى ، ورجل ايرانى يبلغ الستين من العمر كان قد وصل لتوه فى مركبه الضخم عائدا من لامو ، ــ حتى يكونوا جميعا قد استلقوا على السجاد وراحوا في سبات عميق ، وقد غطى كل منهم رأسه بكوفيته ، واستند الى ذراعه المغطى بالشعر الغزير ، بينما أخذ شخيرهم يهز أرجاء الغرفة . وكان وقت القيلولة يمر خفيف الظل ونحن نيـــام ، وعندما تنكسر حدة الحر عند العصر ، تدب الحياة ثانية على الشاطىء وفى السوق . فكنا نرى قطعان الاغنام الكويتية السمينة ، وهى تنزل من بوم صغير الى الرصيف وتساق من هناك الى حيث تذبح ، فتصبح لحما سائغا للآكلين من أهل البحرين . كما كانت هناك أرتال الحمير بأجراسها التـى لا تنقطع عن الرنين ، وهى تهرول محملة ببالات الجلود ، أو أكياس الارز، أو جلل التمر ، كما كنا نرى مجموعة من الايرانيين ذوى الاصوات العالية المنكرة ، وهم يرتدون السراويل والقلانس الروسية الرهيبة ، ويتناقشون مع رجال الجمارك بشأن ادخال عدد من رزم السجاد المنوعة . كما كانت جميع أجهزة الحاكى الموجودة فى السوق تنطلق من عقالها معا. وهكذا كانت الحياة تعود الى المنامة ، وتعود تلك القوارب الصغيرة الى حمـــل الصخور المرجانية الى طرف الرصيف لزيادة طوله ، بينما ترى ، علـى البعـــد ، مراكب الغواصين عائدة من مهمتها في البحر ، والسمابك والجلابيت عائدة من الاحساء .

وكان يتجمع في الشوارع جمهور مختلط من أبناء الشرق . فكـان هناك الايرانيون ، بعضهم يرتدي ما تسمى بالملابس الاوربية في بلادهم ، والبعض الاخر يرتدي الجلابيب والعمائم الملفوفة بعناية ، كما كان هناك اناس من « بانيان » ومن البنجاب وعدد قليل من بلوخستان ، علاوة علـى العرب من عمان ، والساحل المتصالح ، والاحساء ، ونجد ، والكويت ، وقطر ، والبحارة الزنوج الاشداء من الكويت وهم يؤرجحون مسابيحهم ، ويخطرون كالرجال الحقيقيين ، والبدو ذوو الشعور الطويلة القادمون من البادية ، والمساجين يرسفون بأغلالهم وهم يسيرون في الشارع ومن خلفهم حراسهم ، وواحد أو اثنان من الصوماليين النحيلي الجسم ، الطوال القامة ، المحبين للشغب والصخب ، الحريصين على استقلالهم في الرأي والتصرف . وقـد زارني احد هؤلاء في بيت بدر ، وكان يدعي أنه شاعر ، وأخذ يتلو شيئا من شعره الذي أصغى له الجميع اصغاء تاما . ويبدو أن موضوعه كـان يدور حول مقاومة الاحباش للهجوم الايطالي على بلادهم ، فكان الجميـع

يثنون على ما يسمعون بترديدهم كلمة « طيب » · ولكن الشعر كان ، لسوء حظي ، فوق مستوى طاقتي على فهم اللغة العربية ، التي كان حتى الكلام العادي بها صعبا علي · وربما كان الشعر جيدا ، لا أدري ، الا أن الشاعر نفسه لم يبد لي صوماليا جديرا بالاحترام · وعلى كل حال ، فقد ناولناه اكرامية ، وذهب في حال سبيله ، وهو يرتدي صدرية ذهبية اللون ، ومعطفا من الخام ، بينما تمشينا نحن عبر الساحة متجهين الى الحمامات الايرانية خلف المنزل ، على مقربة من بستان الفاكهة · وكانت هذه الحمامات رحبة وصالحة للسباحة ، وقد القينا بأنفسنا فيها ، وسبحنا ساعة من الزمن · وكان العجوز عبد الوهاب بن خليفة ، الذي كان ضخما قوي الجسم ، يسبح برشاقة سبع البحر ، مع أني كنت أتوقع أن يعوم بتثاقل كالحوت · وكثيرا ما كانت البركة تمتلىء بالنواخذة يطرطشون ويلعبون كالأولاد · لقد كان المكان جيدا ، تهب عليه الروائح العطرة من الرياض ، ومن أزهار الشجر ، يحملها نسيم البحر · الا أن الطقس في الخارج كان رطبا بشكل مخيف ، بحيث ان المرء يسبح في العرق حتى لو وقف جامدا لا يحير حراكا · وعلى وجه الاجمال ، فقد كان نواخذة المراكب العربية الكبيرة يحاولون الاستمتاع بأوقاتهم ما وجدوا الى ذلك سبيلا ·

وبهذه الطرق المختلفة التي ذكرتها ، كانت الايام في المنامة تمر هانئة ، ولم أعد اتطلع كثيرا لنهاية الرحلة · فقد كانت البحرين آخر موقف لنا ، وبعدها تأتي الكويت مباشرة · وعلى الرغم من أن ريح « الشمال » كانت لا تزال تهب بعنف ، الا أن أيامها الاربعين قاربت نهايتها · فقد ذكر لي نجدي أنها كانت أحيانا تواصل الهبوب مدة عشرين يوما ، ثم تتوقف عشرة ، ثم تعود الى الهبوب بقوة أكبر من ذي قبل مدة أربعين يوما أخرى · وكان يرغب في الانسلال من المرسى والجري الى الكويت في أي وقت تتوقف فيه ريح الشمال ، ولو مؤقتا ، عن الهبوب ، فبقية الرحلة لن تستغرق ، في رأيه ، أكثر من يومين بالطريق المباشر فوق الصخور المرجانية · فكان لذلك دائم اليقظة ، يراقب الطقس والريح مراقبة مستمرة ، رغم انه كان يقضي أياما هنيئة هادئة في المنامة ، وكان مستعدا للاقلاع في خلال خمس دقائق · ولكن ، سواء كانت الريح تهب أو تسكن ، فلم يكن بامكاننا الاقلاع بمثل هذه السرعة ، لأننا لم نكن قد تسلمنا ثمن البضاعة بعد · ولكن لم يكن هناك داع لأن نقلق من هذه الناحية ، فسيدفع لنا المال ان عاجلا أم آجلا ، فلم يكن في كل الجزيرة العربية من يدفع المال المستحق عليه أفضل من الملك عبد العزيز ·

في احدى المرات ، ذهبنا لزيارة حوض صناعة المراكب ، وهو مكان صغير يقع على أحد اطراف المدينة ، فوجدنا ان صانعي المراكب ومساعديهم

يكسبون مالا من صنع النماذج الصغيرة وبيعها لرجال النفط الامريكان أكثر مما يكسبون من صنع المراكب الحقيقية وبيعها الى الملاحين العرب • ويبدو أنهم كانوا فيما مضى يصنعون نماذج متقنة جدا ، الا أن كثرة عدد الزبائن ، الذين لا يميزون بين الغث والسمين ، وكثرة الطلبات ، كان لهما تأثير واضح على مستوى الصناعة • فقد كانت النماذج التي رأيتها سيئة ، على الرغم من أن المراكب الحقيقية التي كانت تقف هناك غير مكتملة الصنع ، كانت في منتهى الجمال • وكان بعض من هذه يقف هناك منذ أربع سنوات أو خمس ، فلم يكن لها سوق رائجة ، وكان حال البحارة سيئا • وكانت أفضل الأعمال تشتمل على توزيع البضائع الى الأحساء ، والتهريب الى ايران ، الا أن تجارة اللؤلؤ ، التي هي عصب الاقتصاد للبلاد ، قد تقلصت الى حوالى النصف •

وبالاضافة الى هذه الزيارة ، وتمضية للوقت ، قمنا بزيارة الآثار البرتغالية • كما تناولنا طعام الغداء مرة مع أحد الايرانيين في بلدة المحرق • وكان الطعام من اللحم والدجاج والسمك والفاكهة ، مبسوطا فوق السجاد ، على سطح المنزل ، تحت ضوء القمر ، وكنا من هناك نرى مراكب الماء ، وهي تضخ الماء العذب من الينابيع الواقعة تحت البحر • كما كنا نقيم الولائم ونحضر غيرها ، ونسمر وحدنا ومع الاخرين ، ونتجول في السوق نتفرج على الحياة في البحرين • ففيما كان بحارتنا يعملون ، كنا نحن نتمتع بأوقاتنا •

وقد قمنا أيضا بزيارة حقول النفط • وهي قطعة من تكساس مقامة في وسط البحرين ، حيث الطقس أشبه بنار جهنم • ومع أن الامريكان كانوا يسكنون في أكواخ مكيفة الهواء ، الا أنه لم يكن ممكنا بالطبع تكييف المنشآت الخارجية ، وكان الانتقال من الخارج الى داخل تلك الاكواخ كالانتقال من الصحراء الى برد شيكاغو ، وذلك بمجرد أن تفتح الباب ، وكان الانتقال المفاجيء غير المتوقع مخيفا • وكان حقل النفط مكانا شاسعا ، حسن الادارة ، ولكنه كان يبدو لنا ، نحن أبناء البحر ، مجموعة رهيبة من الخزانات الهائلة الحجم ، والمراجل الضخمة ، والانابيب المعدنية الغريبة ذات الاشكال المعقدة ، يشرف عليها رجال يمكن أن يكونوا قد أتوا من كوكب المريخ ، رغم الأمور المشتركة التي تجمع بينهم وبين من حولهم من العرب • وقد شاهدنا كل شيء الا النفط ، مع أنهم كانوا يشحنون منه كميات هائلة تصل الى عشرات الألوف من البراميل يوميا • كما لم نر أية براميل أيضا ، الا أننا شاهدنا ناقلات النفط وهي تعبأ بالنفط لتنقله الى الخارج • وكان النفط من الناحية الجغرافية ، يخص البحرين ، كما كانت

الأرباح التي تجنى منه تنعكس رخاء على البلاد ، ولكنه في الحقيقة كان يمكن أن يكون في المكسيك أو فنزويلا • وكان الحقل معزولا عن سائر الجزيرة بالأسلاك الشائكة • ولكنه كان منعزلا بحد ذاته دونما حاجة الى تسوير •

وكان من الممكن أن يقف المرء على مكان مرتفع في احدى الأمسيات الصافية ، ويشاهد حقل النفط القريب الواقع على البر الأصلي التابع للعربية السعودية ، والذي لم يكن يبعد عنا أكثر من عشرين ميلاً • وهناك كانت تقوم مدينة أخرى مكيفة الهواء ، يسكنها رجال النفط القادمون من تكساس وجنوب كاليفورنيا ، ويضخون الذهب السائل من باطن الارض • وقد علمت أن ابن سعود نفسه كان قد زار المكان قبل بضعة أيام خلت ، بمناسبة شحن أول كمية كبيرة من النفط من الميناء الجديد في رأس تنورة • كما أنه كان قد قدم الى البحرين بدعوة من شيخها ، صاحب السمو الشيخ حمد بن عيسى الخليفة ، قبل بضعة أيام من وصولنا الى البلاد • وقد أسفت لعدم تمكننا من رؤية الملك السعودي ، الذي كان الكويتيون وسائر العرب الآخرين يكنون له كثيرا من الاحترام • وقد روي لي كيف أتى الى البحرين في قافلة مؤلفة من (٣٠٠) عربة شحن كبيرة و (٢٠٠٠) من الجنود البدو ، الذين كادوا أن يأكلوا الأخضر واليابس ، فقد قيل أن كلا من أولئك البدو قد استهلك خلال اقامته في البلاد نصف دسته من الغنم ، وصندوقين من عصير الاناناس •

وفي هذا الوقت الذي كنا خلاله في البحرين ، كان النفط يدر على البلاد ما يقرب من خمسة ملايين روبية سنويا ، يذهب ثلثها الى الأسرة الحاكمة • وقد رأينا أبناء الحاكم بالفعل وهم يسرحون في البلاد في أحدث السيارات الامريكية ، التي كانت تحتوي على أبواق الشرطة التي لا تنقطع عن العويل • أما مدى دلالة مثل هذا التصرف على المستوى الثقافي المتدني ، فعلمه عند الله ، وقد كان البعض يقول بذلك • كما كان نجدي يسخر من أولئك الشيوخ الصغار وهم يزعجون الناس بأبواق سياراتهم •

وكان نجدي يصيح قائلا : « ما هذه الضجة ! انها مزعجة فعلا ، أليست الطبول الفارغة هي التي تصدر أعلى الاصوات ؟ » وكان يضيف قائلا ان البحرين قد تغيرت في السنوات العشر الماضية بحيث لم يعد بامكان المرء أن يتعرف عليها ، وان كان يقر دائما بأن ذلك التغيير كان نحو الافضل • الا أن حقل النفط ، وأبراج الآبار العالية ، والسيارات التي تمر بسرعة كبيرة ، كل هذه كانت تذهله وتقلقه • وكان يشكو من أنه

لم يشاهد أحدا فى السوق لا يرتدى على الاقل بعض الملابس من صنع أوربا • وحتى النساء أصبحن يرتدين الجوارب والاحذية ، وكان يتساءل : « ما الذى دها العرب ؟ ولماذا يقلدون الاوروبيين كالقردة ؟ » ، ويضيف قائلا : « ان النساء سيخرجن بدون حجاب فى وقت قريب جدا ، كما سيهمل الرجال تأدية الصلاة » • وكنت أخشى أن يبدأ نجدى محاضرة دينية ، كلما بدأ حديثا من هذا النوع ، فكنت أتخلف عنه قليلا ، وأرافق العجوز عبد الوهاب ، الـذى كان يقبل الامور على علاتها ، فينظر الى الامور بكل هدوء ، ولا يعلق عليها بكلمة واحدة •

وفى يوم قائظ من أيام الاسبوع الاول من يونيو (حزيران) أتى أحمد برفقة وكيل مركبنا ، وهما يحملان كيسا فيه ستة آلاف روبية ثمنا لاخشابنا• وقد أقلعنا فى نفس المساء • فعندما سكنت ريح الشمال ، لم يكن هناك مجال لاضاعة الوقت • وكان ثقل التوازن (الصابورة) يتألف من الصخور المرجانية التى كان البحارة قد قطعوها من قاع الميناء ، وكسروها ونقلوها الى المركب على ظهر القارب الطويل • فبينما كان النواخـذة يستمتعون بأوقاتهم فـى المنامة ، كان على البحارة أن يقوموا بكثير من الاعمال • وكنا ما زلنا نحمل بعض جوز الهند ، وخمس أكياس من القرنفل • أما باقى السلع ، فكانت قد بيعت كلها •

خرج نجدى بمركبنا من الميناء ، ومعه مجموعة من النواخذة • وكان ذلك فى المساء المنخفض الحرارة ، وأقلعنا فى الحال ، دون كبير استعداد ، بينما كان البحارة فى غاية الانهماك ، وهم تارة يسبحون فى عرقهم ، وتارة أخرى يقطرون من ماء البحر وهم يقفزون فى الماء لكى يخلصوا المرساة من الصخور المرجانية ، أو لينظفوا الكابل ، ثم يتسلقون المركب ثانية لينشروا الشراع • وقد رفعنا قواربنا الى السطح ونحن نقلع ، كما ساعدنا رجـال « الداو » فى شد الحبال لرفع العارضة ونشر الشراع • وسرعان ما فارقونا عائدين الى قاربهم ، وقاموا هم وباقى البحارة على المراكب الاخرى بتحيتنا تحية الوداع ونحن نمر بهم • وكانت الريح مؤاتية ، ولكنها خفيفة جدا ، وبدأنا نستجمع قوتنا ونزيد سرعتنا قليلا ، وقد رافقنا فى اقلاعنا بومـــان آخران ، وهما بوم حمود وبوم منصور الفارسى ، كما خرجت معنا بغلة ناصر « القطــــة » •

خرجنا ببطء عبر المياه الضحلة متجهين الى الكويت بالطريق المباشر ، فقد اشتد بنجدى الحنين الى وطنه • وكان الطريق المباشر من البحرين الى الكويت يمر فوق مياه ضحلة وصخور مرجانية ، وعقبات خطرة • وكان علينا

على ما أعتقد ، أن نبعد عنها كثيرا فى الظروف العادية ، الا أن نجدى كان قد سمع بأن زوجته مريضة جدا ، ربما من آثار الولادة ، ولذلك فقد كان عازما على قيادة المركب الى الكويت بأقصر الطرق .

ثم بدأت الريح تنشط قليــلا ، وزادت سرعة المركب ، وبــدأ السرور والانشراح على البحارة جميعا . فها نحن ، بعد أشهر طويلة ، متجهون الى أرض الوطن ، نحمل معنا ستة آلاف روبية فى صندوق النوخذة ، وتساعدنا على السير ريح معتدلة مؤاتية .

الفصل السابع عشر

نجدي يغذُّ السير إلى الوطن

نجدى يغذ السير الى الوطن

لقد كانت اندفاعتنا من البحرين عبر الشعاب المرجانية الى الكويت أكثر أجزاء الرحلة كلها اثارة ودرامية · فعندما طلع نهار اليوم الثانى لاقلاعنا ، لم يكن هناك مركب واحد فى مرمى البصر · وكنا نبحر فى بحر ضحل ، بين عدد من مراكب الغواصين الصغيرة التى كانت ، عندما مررنا بها ، مملوءة بالبحارة الجالسين على أسطح مراكبهم ، وهم يفلقون المحار · وبموجب قول نجدى ، كانت تلك المراكب تكون أسطول القطيف ودارين ، وقد تقلص عددها بسبب الكساد · تبادلنا التحيات مع أولئك الغواصين ونحن نمر بحذائهم ، وسألناهم عن حالهم وعن صيدهم، ولكنهم لم يجيبوا الا بالعبارة المعهودة « الله كريم » · وعندما سألهم نجدى ما اذا كانوا قد شاهدوا أية مراكب كبيرة أخرى ، أجابوا بالنفى ، وأضافوا قائلين أن ثلاثة مراكب أو أربعة كانت قد مرت بهم قبل مرورنا ببضعة أيام ، الا أن نجدى كان مصرا على أنه لا يمكن لأى منها أن يكون قد تجرأ وأبحر عبر تلك الحواجز المرجانية · ومما يجدر ذكره هنا ، أن الجانب الغربى من الخليج العربى ، الممتد من البحرين الى جوار الكويت ، مملوء ببقايا المراكب المحطمة الغارقة لأن المنطقة تعج بالشعاب المرجانية ، وبالجرف ، وبالرمال المتحركة على امتداد مائتى ميل ، كما انه لا توجد خرائط تفصيلية دقيقة لتلك المنطقة ، وذلك لأنها لم تكن ذات أهمية بالنسبة للسفن التجارية الكبيرة ، الا أني علمت من نجدى أنه كان يغوص على اللؤلؤ هناك منذ كان طفلا ·

وكان كل رجل على ظهر المركب يعرف هذه المياه معرفة تامة ، فلم يكن بينهم من لم يبحر فيها عشر سنوات على الاقل · وكان نجدى يعرف كل جرف ، وكل تيار ، وكل نقطة رملها منخفض · وكنا نسبر غور الاعماق باستمرار ، وفى كل مرة نضع مادة لاصقة فى المسبر ، مع أننا لم نكن نفعل ذلك قط حتى الآن · فكان البحارة يضعون شيئا من دهن الجمال فى ثقب مفتوح بطريقة بدائية فى قاع المسبر ، وكان نجدى يفحص فحصا دقيقا الحصى والرمل والصدف التى كانت تعلق به · وكان يبدو قادرا على تحديد خط سيره بهذه الطريقة ، كأنه كان يقرأ الاشارات الموجودة على جانبى الشارع في احدى المدن · وكنا أحيانا نسير بطريقة ملتوية تاركين وراءنا أثرا يشبه التواء الثعبان ، مع أنى لم أكن أرى الطريق الآمن الذى ينبغى أن نسلكه ، أو أميز بين الاماكن التى يبلغ عمق الماء فيها قامتين من تلك التى يبلغ فيها قامة واحدة ·

ولم يكن بامكاننا أن نرى البر كثيرا ، لأن ساحل الاحساء منخفض ، ولكن نجدى كان يعرف كل شبر من البحر ، وكل مركب صغير نشاهده ، وكل اختلاف ، مهما كان صغيرا ، فى قاع الخليج • وكان هذا أوج الملاحة المحلية• وكنت أراقب نجدى باهتمام وأغبطه على تلك الخبرة ، فلم يكن باستطاعتى أن أقوم بما يقوم به ، ولو بعد عشر سنوات من الابحار والغوص على اللؤلؤ ، وحتى لو توافرت لدي جميع الآلات اللازمة ، من آلات قياس الابعاد ، الى الجداول ، الى آلات قياس الزمن ، الى المساطر الحسابية وغيرها • لقد كانت هذه الملاحة تعتمد على النظر وعلى الخبرة الفردية ، وكأن تلك المقدرة أصبحت غريزية • ولكى يتمكن الملاح من الابحار بهذه الطريقة ، فان عليه ألا يحشو رأسه بمعلومات من الكتب ، وربما كان نجدى على حق فى احتقاره لوسائلنا وأساليبنا • فقد كان يقول أن عملا من نوع عمله يتطلب الاستعانة حتى بلون السماء ، لأنه ، كما يقول ، يستطيع أن يلحظ فيها تغيرا فى اللون فوق الاماكن الضحلة ، ولكن ما كان يدهشنى حقا هو تلك المقدرة الواضحة على معرفة اتجاه الريح والمد والجزر ، والتنبؤ بها • فلم يكن لديه جداول تساعده على ذلك ، بل ولم يكن يعرف حتى تاريخ اليوم وكان يكتفى بالقمر، حسب قوله ــ بالقمر والنجوم ، وأحوال البحر •

تابعنا سيرنا ذلك الصبح بمساعدة ريح خفيفة ، وكان نجدى يبدو ، لأول مرة خلال الرحلة كلها ، غير راض عن ذلك ، بل أنه كان قلقا يرجو سرعة أكبر • وكنا قد انلعنا ونحن نرفع الشراع الكبير الثانى ، لأننا لم نكن نرغب فى نشر الشراع الكبير (العود) على مركب خفيف الوزن ، فقد كانت هبة قوية واحدة من الريح كفيلة بأن تقلبه • ولكن ، عندما انخفضت سرعتنا الى خمس عقد فى الساعة ، أصدر نجدى الأوامر بأن ننزل الشراع الثانى ، (السينديرا) (١) ، كما كان يسمى ، وأن نجهز الشراع الرئيسى (العود) • ولم يتقاعس البحارة عن ذلك ، بل قاموا بالمهمة بسرعة البرق ، وسرعان ما أصبح الشراع فى أعلى الصارى • وما أن نشر الشراع ، حتى نشطت الريح ، وأصبحنا نسير بسرعة عشر عقد ، ونحن نقذف بالزبد ، وسور المركب من الجهة المحجوبة عن الريح لا يرتفع كثيرا عن سطح الماء • وكان نجدى يصيح « أطلقوا له العنان » ، وهو يجلس القرفصاء على مؤخرة المركب ، وأعصابه ثائرة ، يرقب المركب بعينين كعينى النسر البحرى العجوز• ومع أن المركب كان يهبط أحيانا لدرجة يخشى فيها أن يغمره ماء البحر ، الا أن ذلك لم يحدث أبدا ، واستمر يشق عباب اليم غير عابىء بشىء • وكان أحيانا يميل ميلا شديدا بحيث يصبح سوره على مستوى سطح الماء تقريبا ،

---

(١) يقصد « الغديرة » (المترجم)

الخليج العربي وخليج عُمان

ولكن البحارة كانوا يقابلون ذلك بالنشوة والضحك ٠ ولم يكتف نجدى بذلك، بل تابع تحميسه للبحارة بقوله : « أطلقوا له العنان » ، فقاموا برفع الشراع المزينى ، كما رفعنا شراعا صغيرا على المقدمة ، وأصبحنا نسمع زئير الريح وهى تمر بين الحبال ٠ وكان الزبد يختفى من أمام المقدمة ، كما كان أثرنا يمتد أميالا خلفنا ٠ بينما كانت الطيور تحيينا ، والغواصون العاملون على ظهر المراكب القادمة من جبيل ينظرون الينا بدهشة كبيرة ونحن نمر أمامهم بسرعة هائلة ٠

وكنا نمر فوق بعض القيعان المرتفعة ، وبعض الصخور المرجانية العالية ، التى كانت تبدو قريبة جدا من قاع المركب لدرجة يخشى معها أن نصطدم بها ٠ ولكن نجدى كان يطمئننا بأن هناك من الماء ما يكفى لحمل مركبنا ٠ وكنا بالطبع نتجنب الاماكن الشديدة الخطورة ، وكان قائدا الدفة ، عندما لا يكون أى منهما وراء عجلة القيادة ، يسبران الغور من الجانبين بشكل مستمر بمسبر يدوى ٠ وكان ترديدهما لمقادير العمق ، يبدو موسيقيا فى مهب الريح ٠

لم نر شيئا من اليابسة سوى قاع الخليج ، الذي كنا نراه بشكل متواصل تقريبا ٠ وفي احدى المرات شاهدنا رأس البر المنخفض المدعو « أبو علي » ، الذي لم يكن سوى امتداد رملي ٠ اما بقية ساحل الاحساء الأبعد من ذلك اللسان الرملي ، فقد كان السديم يحجبه عنا ٠ وقد تابعنا ابحارنا السريع جدا طوال النهار ولم نبدل شيئا خلال الليل ، بل بقيت جميع الاشرعة منشورة ، رغم أننا كنا حينئذ في واحدة من أخطر مناطق الخليج كله ٠ وكان البحارة قد قاموا خلال النهار بدلك السطح وتنظيفه ، وواصلنا ابحارنا خلال الليل في ضوء القمر الساطع وكل ما في المركب نظيف يلمع ، وأشرعته البيضاء غارقة في الجمال والروعة ، وأسطح المركب اللامعة تحت أشعة القمر أنظف منها في اي وقت مضى ٠ وكان البحارة متجمعين حول قاعدة الصاري المزيني ، وهم متلفعون بعباءاتهم ، سعداء ، لا يتحدثون الا عن وطنهم الكويت ٠ الكويت ! الكويت ! هذا هو كل ما كنت أسمعه ، ولم أكن اسمع شيئا غيره ٠ وأخيرا أصبحنا قاب قوسين أو أدنى من ذلك الفردوس المنشود ، وما أن يطلع صباح اليوم التالي حتى يكون قد ظهر في الافق ٠ الكويت ! الكويت ! ذلك البلد العربي الذي كان فيه كل مركب مركبا جميلا قويا ، وكل فتاة آية من الجمال ٠ الكويت ! حيث بيوت الشيوخ وكبار التجار وقصور عظيمة تزخر بثروات الهند ، وحيث الماء قراح ، والفاكهة رائعة ، والبطيخ النابت من الارض له طعم العسل ورائحة الريحان ٠ اي نوع من البلاد هذه الكويت ؟ لا بد أنها أكثر ثمرا من زنجبار ، وأروع هناء من بيروت ، وأفضل مناخا من جبال الهند ٠

وهكذا كان البحارة يهذون ، بينما كان نجدي يجلس القرفصاء على سدته يرقب المركب الهادر في سيره ، وللمرة الاولى ، لا ينبس ببنت شفة ٠ لقد كان علي أن أنتظر الوصول لأرى المدينة بنفسي ٠ فلم يكن هناك أدنى شك في حب هؤلاء البحارة لوطنهم ، ولكني بدأت أتساءل عما تكون عليه تلك البلاد ، التي يضطر هذا العدد الهائل من رجالها أن يعتلوا ظهور مراكبهم الكبيرة ، ويجوبوا البحار معظم شهور السنة سعيا وراء قليل من الرزق ٠ ومع أني أخذت أتساءل عن هذا ، لم تبدر مني بادرة تدل على شعوري ، فقد كان حماس البحارة معدياً ٠ ولاحظت أن جميع الأمراض قد اختفت أو كادت ، حتى الحمى التي كان ابراهيم يشكو منها ، ووقف جاسم الطباخ على قدميه ، وان لم يكن ثابتا تماما عليهما ، بينما اسماعيل ، الذي كان قبل أيام قلائل يشكو من أوجاع الروماتزم ، كان يعزف على قيثارته بسرور وسعادة ٠ وأخذ سلطان ، وناصر ــ الغواص الذي كان أجله قريبا ــ يتحدثان بمرح وحبور عن الفتاتين اللتين سيتزوجانهما في اليوم الثاني لوصولنا ، كما كان خليفة ، قائد الدفة ، يبتسم مسرورا وهو يفكر بابنه الجديد ٠ وكان سلطان يفخر قائلا أنه سيتزوج أجمل فتاة في الكويت ، بينما كان زيد يتحداه قائلا ان فتاته أجمل ٠ ولكن سعوداً ، ذلك البحار الصغير القامة الجدي المزاج ، كان ينفي كل ذلك قائلا : كيف يمكن أن يتزوج اي منهما فتاة جميلة ، وقد سبق له هو أن تزوج جميع الجميلات في البلاد ؟ أما حسن ، قائد الدفة ، فقد كان يتقدم منا ، بعد انتهاء نوبته أمام عجلة القيادة ، ويتحدث عن زوجتيه اللتين تنتظرانه وكلاهما حامل ، واحدة عمرها عشرون سنة ، والاخرى ، التي تزوجها في السنة السابقة ، لا يزيد عمرها عن السادسة عشرة ٠ وكان يقول انه يحتاج الى كليهما خلال الصيف القصير الذي سيقضيه في الوطن بعد سفر تسعة شهور في البحر ، فلم تكن واحدة كافية له ٠ كما كان يتحدث عن الزواج بثالثة ، فقد كانت الاثنتان اللتان تزوجهما على وفاق تام ، وكانتا مصدر بهجة في حياته ٠ فاذا اصبحن ثلاثة ، فلا شك انه سيعيش في جنة النعيم ٠ كما أن تكاليف الحياة ــ فيما عدا المصاريف الاولية ــ لا تختلف كثيرا بين زوجة أو اثنتين أو ثلاث ٠ وكان سعيدا لأن زوجتيه كانتا على وفاق ووئام تامين ، وكانتا تحفظان بيته في غاية النظافة والترتيب والجمال ٠ وكان ينام مع احداهما في وقت القيلولة ، ومع الأخرى خلال الليل ، في نظام دائم دقيق ، ولذلك فلم تكن أي منهما تغار من الاخرى ، أو تحسدها ٠

وعندما أتم حسن كلامه ، التفت اليه يوسف قائلا : « نصيحة لك يا بني من رجل عجوز محنك ٠ عليك أن تفكر مليا قبل أن تتخذ لنفسك



زوجة ثالثة • بل يجب أن تحمد الله أنه رزقك بزوجتين تعيشان معا في وفاق ووئام ، وأن تقنع بهذه النعمة • صدقني يا بني أنه لا يوجد على وجه الارض ثلاث نساء يمكنهن أن يتقاسمن رجلا واحدا • كما أن من المحتمل أن تكون الثالثة امرأة مشاكسة مزعجة » •

ولكن حسنا أجاب ساخرا : « كفاك شكاية يا رجل ! ان زوجتك تبلغ الثلاثين من العمر ! » وضحك الجميع عاليا على هذه النكتة ، فأن يكون للرجل زوجة في الثلاثين من عمرها كاف للحكم بأنه أصبح واحدا من مجتمع المسنين العاجزين • الا أن يوسف العجوز ، رغم أن زوجته تبلغ الثلاثين ، كان يتطلع الى العودة لزوجته وأهل بيته بشوق لا يقل عن شوق الاخرين • مسكين يوسف ! لقد كانت قدماه في حالة يرثى لها ، من جراء المشاق التي تعرض لها خلال الرحلة • فقد كانتا متشققتين من أثر الوطء على العقد المسننة الحادة التي تتميز بها أعمدة الخشب المقطوع من دلتا الروفيجي ، وكانتا مصابتين بكدمات واصابات أخرى من أثر العمل الشاق المتواصل • وكانت قدماه ، كسائر أقدام البحارة الاخرين ، قويتين ، جافتين صلبتين بشكل مخيف ، وكان في اسفلهما طبقة من الجلد المتحجر لا يقل سمكها عن ربع بوصة • ومع ذلك فقد تمكنت الشعاب المرجانية وأشواك الخشب من النفاذ حتى من تلك الطبقة الواقية ، ومن أن تجعل الدم يسيل من قدميه كلما اضطر الى الجري • وكنت أقوم بمهمة العناية بقدميه ، رغم أنه لم يكن يطلب مني ذلك ، ولم يكن بامكاني ، على أي حال ، أن أقدم له الكثير ، فكان كل ما أفعله هو أن أغسل قدميه بمحلول البوريك ، وألفهما بالقماش اللاصق • ولكن سرعان ما نفذ هذا القماش ، الا أن يوسف لم يكن يبالي ، فزوجته تعرف كيف تعنى بقدميه عندما يعود الى بيته ، كما تعرف تماما الوسيلة لذلك ، وهي التي تفعل ذلك دائما بين كل سفرة وأخرى • وقد أخذت أرسم لنفسي صورة ليوسف المسكين ، وهو يقيم في بيته الصغير الواقع في أحد أزقة الكويت الخلفية ، بين أبنائه الثلاثة ، يحيط به قطيع الماعز مع صغاره ومع الدجاج البياض (فقد كان أخبرني عن ذلك كله) يجهز نفسه لرحلة قادمة بمساعدة زوجته التي تواصل علاج قدميه ، ودهن عينيه بالمراهم • فقد كانت اعالة اسرته تتوقف توقفا كليا على قوة جسمه ، ولم يكن العمل على المراكب يرحم أو يحابي أحدا ، الا اذا كان من طينة اسماعيل الموسيقي ، الذي كان يتمتع بمركز خاص يسمح له بالتفاوض والمساومة مع النواخذة ، على ما يتقاضاه من الاجر ، نظير اظهاره مواهبه العظيمة هناك على الساحل الافريقي •

← الطاهي جاسم

لقد كان ايقاع العمل على المراكب الكويتية سريعا بصورة مذهلة ، وأسلوبه قاتلا ، ولا بد أن ذلك كان أمرا شاقا جدا على رجل عمل في الغوص على اللؤلؤ فيما مضى • فعلى ظهر المركب التجاري ، يجب أن يندفع الرجال الى مهامهم بسرعة البرق ، ويجب أن تطاع الاوامر المتتابعة بلا مناقشة في الليل وفي النهار ، كما يجب أن يوافق مزاج البحارة مزاج النوخذة ، فاذا كان هذا حاد الطبع أو متسلطا ، فان عليهم ، رغم ذلك ، أن يتحملوه ويصبروا عليه • ولم يكن النواخذة عادة يقيمون اعتبارا كبيرا للاخرين • ولا بد أن الحياة على ظهر المركب شاقة قاتلة ، بالنسبة لكبار السن بوجه خاص ، فاذا لم يستطع الرجل أن يجاري تلك الحياة ، فان عليه أن يتخلى عنها • ولكنه كان في العادة يمضي في عمله حتى يأتي يوم يجد فيه الرجل نفسه وقد خر صريعا • ولا شك أن سرعة اداء الاعمال على المركب العربي سرعة قاتلة ، بل هي جنونية ، لانه لا داعي في الواقع لكل هذه العجلة •

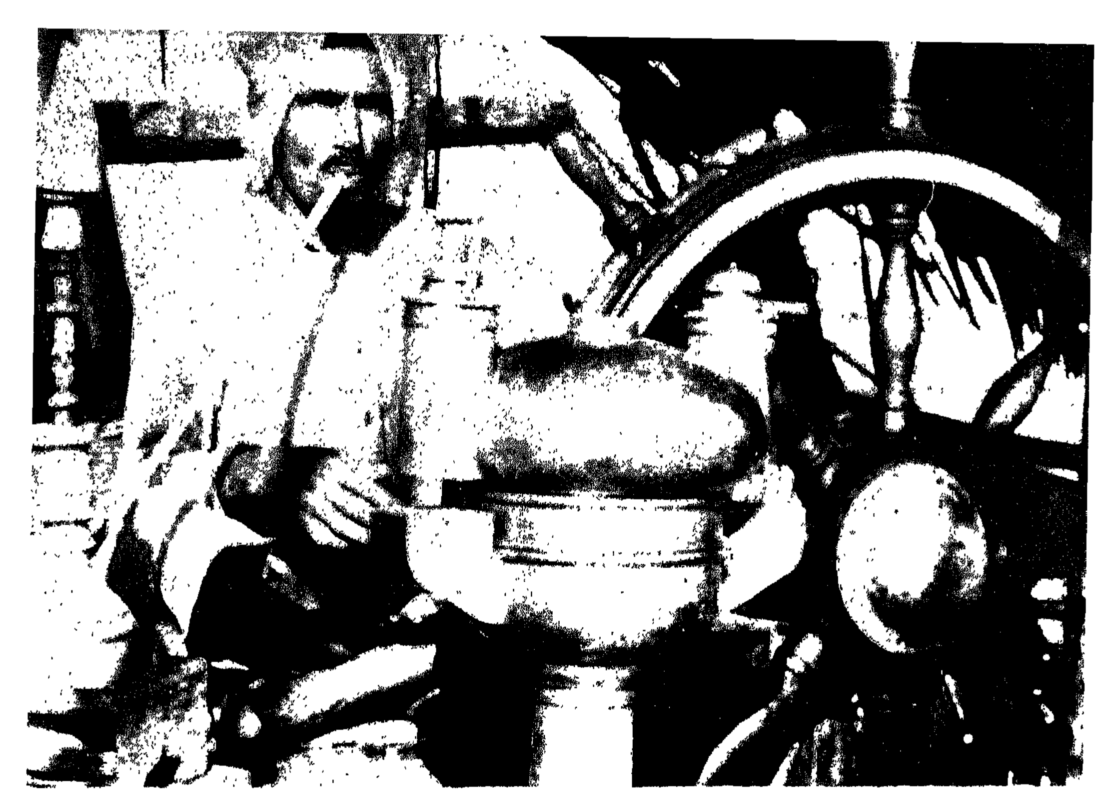
وفي احدى المرات سألت نجدي عن هذا الامر ، فلم يحاول أن يجد مبررا له أو يبين أسبابه ، بل أجاب قائلا : « انها طريقتنا في العمل » •• قال ذلك وهو مندهش لاقدامي على توجيه مثل هذا السؤال • وقد لاحظت فعلا أن البحارة أنفسهم كانوا يشعرون بالفخر وهم ينطلقون الى أعمالهم جريا ، مع أن بعضهم كان يصطدم بالبعض الآخر في اثناء ذلك ، وربما أصيب بأذى • فكان يخيل الي أن الواحد منهم كان يشعر بالاعتزاز اذا كان سباقا الى العمل ، سواء كان ذلك في الصعود الى اعلى الصاري مثلا ، أو في التجديف ، او بحمل وتصفيف الاعمدة الخشبية الثقيلة على سطح المركب • ولم يكن أحد غير الكويتيين يفعل ذلك : لا العمانيون ، ولا اليمنيون ، ولا الحضارمة ، ولا بحارة الساحل المتصالح او الباطنة ، ولا الهنود ، ولا الايرانيون • لقد كان هذا أسلوب الكويتيين وحدهم ، وكان اسلوبا شيقا ، فعالا ، مؤثرا ، الا انه كان في بعض الاحيان قاتلا أيضا • وكنت أتساءل الى متى يستطيع يوسف العجوز أن يتحمل مشاق هذه الحياة ، وماذا سيحدث لاسرته الصغيرة عندما ينتهي عمره • فقد كان حدثني عن أصغر أخوته ، الذي مات وهو يعمل على ظهر بوم كويتي في كراتشي في العام المنصرم • وكان يخيل الي أنه بحاجة ماسة الى الأشهر الثلاثة التي يقضيها في البيت خلال الصيف يستريح من عناء السفر ، قبل أن ينطلق في رحلة أخرى • فقد فهمت أن معظم البحارة كانوا يموتون في البحر ، وأن الغوص على اللؤلؤ هو الذي كان يقتلهم في الغالب • ولذلك كان يوسف يحمد الله الذي أنجاه من ذلك العمل المميت • كما علمت منه أنه قد انتهى من تسديد الدين الذي كان يرزح تحته منذ أن ترك عمل الغوص قبل خمس

سنوات ، دفع خلالها عشرين روبية سنويا من المال الذي يجنيه من رحلاته البحرية على ظهر المراكب الكبيرة • وعلى هذا فقد كان يشعر بالحرية الكاملة • وكان يقول لي أنه لا مجال للمقارنة بين السفر وبين الغوص على اللؤلؤ ، فالغوص كان دائما مصحوبا بأسوأ ظروف السفر ، حتى أن قضاء شهر في دلتا الروفيجي المخيفة ، يعد ، بالنسبة للغوص ، اجازة للراحة والاستجمام •

وفي صباح اليوم التالي ، كنا لا نزال نبحر باندفاع كبير • فقد كان نجدي يسوق مركبه طوال الليل ، دون أن يتناول شيئا من الطعام ، ودون أن يغمض له جفن ، وهو جالس على سدته خلف قائد الدفة ، يراقب باستمرار ، ويفحص في ضوء البوصلة ما يعلق بقاع المسبر من الرمل والحصى كلما أتاه البحارة به ، ويستدل على قوة الريح واتجاهها عن طريق الأنف • وكنا أحيانا نخفف من سرعتنا ونغير اتجاهنا الى هذه الناحية أو تلك ، رغم أني لم أكن أرى سببا لذلك سوى ما يقوله نجدي عن وجود الكثير من الصخور المرجانية • وكنت أعرف ذلك ، ولكن ما كان يحيرني فعلا هو كيف كان نجدي يحدد تلك الصخور ، ويشق لنفسه طريقا بينها • ولكن كان من الواضح أنه كان يعرف ذلك ويفعل ما يجب فعله دون تردد • وما أن انتصف نهار اليوم التالي ، ونحن نغذ السير مارين برأس بر بعد رأس بر ، حتى كنا قد أصبحنا قبالة رأس الزور ، الذي يعين الحدود الجنوبية لدولة الكويت • وقد نشطت الريح ، وأشار نجدي الى الارض ، وهو يتمتم : « الكويت » كأنه لايكاد يصدق أنه ، بعد تلك الشهور الطويلة ، يرى وطنه مرة ثانية • وقد ناداني ، وهو يشير الى البر قائلا : « تلك هي الكويت • تلك هي البلاد الجميلة التي تستحق أن تراها • ألا ترى معي أنها جميلة فعلا ؟ » فأجبته ، وأنا أتظاهر بعدم المبالاة : « ماذا ؟ أتقصد تلك البقعة من الرمل ؟ » فبدا عليه الامتعاض من جوابي ، مع أن الواقع أن الارض المحيطة برأس الزور ليس فيها ما يلفت النظر ، ولا يمكن أن يجد فيها أحد غير الكويتي شيئا من الجمال •

فصاح نجدي قائلا : « رمل ؟ بقعة من الرمل ؟ أنظر اليها أيها النصراني ! ألا ترى أنه ليس فيها تلك الجبال الشاهقة الوعرة ، بل هي أرض ناعمة ، مستوية ، لطيفة ، لا ترتفع الا كنهود العذارى ! ألا تشعر بالخجل الآن لأنك قلت لي سابقا أن جبال عمان جميلة ، مع أنها لا تنتج شيئا ؟ أنظر الان ومتع ناظريك برؤية الكويت » • وتابع هو النظر طويلا ، ولم ينقطع عن النظر ، دون أن يهتم بانطباعاتي الخاصة •

والواقع أن الارض التي كنا نراها لم تكن تختلف عن أية قطعة أخرى



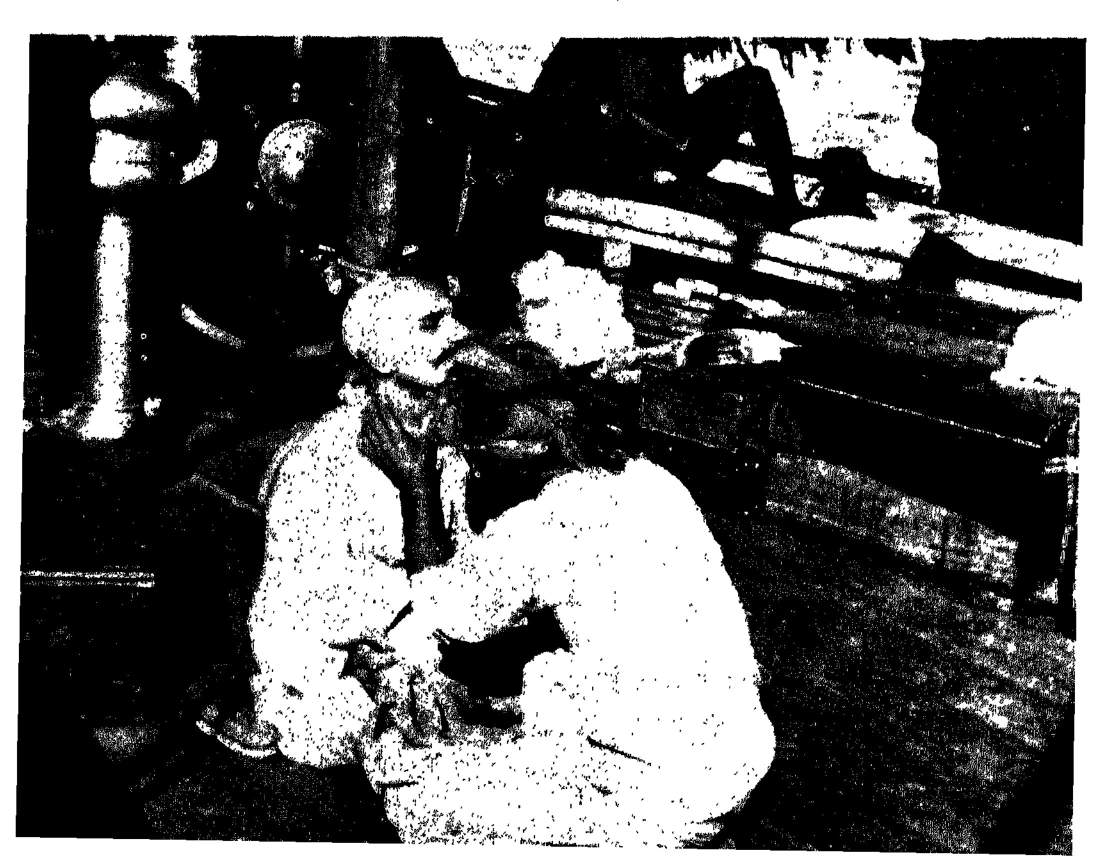
حسن قائد الدفه

من الارض الرملية ، وهي شبيهة الى حد ما بساحل بنادير ، جنوبي رأس حيفون • الا أني لم أقل ذلك ، فقد شاهدت التأثر واضحا على وجه نجدي الأسود ، كما رأيت عينيه المتعبتين وقد أغرورقتا بالدموع ، وكان في الليلة السابقة قد أخبرني لماذا كان يقود مركبه بهذه الطريقة ، بحيث كان سوره على مستوى سطح الماء ، وشراعه الكبير قد تشقق من الريح الجنوبية النشطة • فقد كانت الأخبار قد وصلته ، وهو في المنامة ، بأن زوجته الأثيرة الى نفسه مريضة ، وربما فارقت الحياة •

وها نحن الآن قد أصبحنا على مقربة من جزيرة كبر ، التي صعدت منها الطيور في قطعان هائلة كأنها السحاب ، ونحن ننطلق بحذائها بسرعة تبلغ حوالى اثني عشر عقدة • كما أننا أدركنا وتجاوزنا سفينة البريد الهندية البريطانية البطيئة ، التي كانت قد غادرت البحرين في نفس الوقت الذي غادرنا فيه ، وهي تحمل رسالة من نجدي يعلن فيها نبأ عودته الى الكويت • وعندما مررنا بها ، رفع نجدي علم الكويت ، بينما كان البحارة يضحكون عاليا • وكانت الطبول تسخن على موقد جاسم ، فلم تكن المسافة بين كبر والكويت تصل الى عشرين ميلا ، يمكن قطعها في ساعتين من

الزمن • كما دب الحماس وازداد الشوق بالبحارة ، فأخذوا يتراكضون هنا وهناك يخرجون أفضل ملابسهم ، وأنظف كوفياتهم ، كما أخذوا يشذبون شواربهم وينظفون أسنانهم ، بل بلغ الوجد ببعضهم حد العجز عن القيام بأي عمل • أما نجدي ، فبعد أن تخطى جميع العقبات ، وتغلب على جميع المخاطر ، (فقد كانت جزيرة كبر تؤذن بانتهاء المياه الخطرة) ولم يبق أمامه الا الكويت ، فقد جعل حسنا يحلق له شعره بالموسى ، ويدلك جسده ، ويحممه بماء البحر ، وبعد ذلك قام يوسف بتعطيره ، بأن مسح ببعض العطر الباريسي على جبينه ، وخلف أذنيه ، كما أخذ يفتش في صندوق أمتعته ، ويخرج الحلي الذهبية ، ويضعها على وجه الأمتعة ، لتكون جاهزة للاهداء الى زوجاته حال وصوله • وحتى القرد « يميد » ساهم في الحماس ، بأن أخذ يقفز هنا وهناك ، وهو ينظر الى شاطيء الكويت ، بينما أغتنمت القطة فرصة انشغال جاسم الطباخ ، وهجمت وصغارها : فهد وفريد وفاطمة ، على الموقد للحصول على ما يمكن الحصول عليه من الطعام • وكان البحر شديد الخضرة ، وكان للرمل الابيض الممتد على الساحل قبالتنا وهج شديد ، فقد أصبحنا قريبين جدا من رأس الخليج العربي •

المعلم يحلق شعر لحيته



الا أن الريح أخذت تهدأ تدريجيا ، فهبطت سرعتنا ، وأمضينا عصر ذلك اليوم كله نقطع الاميال العشرين التي تفصل بين جزيرة كبر ورأس الارض ۰ وفي أثناء ذلك أدركتنا سفينة البريد وسبقتنا ، وفي هذه المرة لم ننظر اليها لخجلنا ۰ ثم وصلنا جزيرة فيلكا ، التي كانت آخر علامة برية شرقي جون الكويت ، وهكذا تكون رحلتنا انتهت تقريبا ، ولم يبق لنا سوى أن ندور حول الرأس ونلقي مراسينا في جون الكويت ۰ وقد رأينا بيوت فيلكا ، وبعض السمابك الواقعة على الشاطىء ، علاوة على مراكب الماء ومراكب الحطب ومراكب « البلم » الصغيرة ، وهي قادمة من البصرة على الطريق الممتدة بين جزيرة فيلكا والبر الأصلي ۰ كما شاهدنا قوارب الصيد المصنوعة من سعف النخيل ، والصيادون يستخدمونها في مياه رأس الأرض ، ومعظم اجسادهم مغمورة في الماء ، وهم جلوس فيها ، لأن تلك القوارب كانت لا تعدو أن تكون كومة من الاعواد العائمة ، لا تمنع نفاذ الماء ، بل ولم يقصد صانعوها أن تكون كذلك ۰ ثم درنا حول المنارة المثلثة الواقعة على رأس الارض ، ورأينا نورها يلمع ، ونحن نتجه الى جون الكويت ، ببطء شديد جدا ، بعد أن سكن الهواء ، وأصبحت حركة المد معاكسة لنا ۰

وعند المغيب ، أصبحت الكويت على مرأى البصر ، ونحن متجهون اليها ، على قرع الطبول والدفوف ، وصوت الغناء والأهازيج ۰ وببطء مررنا على قصر الشيخ ، وقد خيم الظلام على الكون فحجب منظر المدينة عنا ، ووصلنا الى مرسانا في الظلام الدامس ، بينما كانت الطبول تقرع والغناء لا ينقطع ، وكان قد مضى علينا منذ مغادرتنا البحرين ثمان وأربعون ساعة ، وهي تعادل سرعة البريد السريع ، بحسب قول نجدي ، (مع أن البريد البطيء سبقنا) ۰ ومع أن نجدي قاد مركبه على نحو رائع ، وتمكن من القيام برحلته الطويلة والعودة الى الوطن سالما غانما ، الا أنه أصيب بخيبة أمل عظيمة ، لأنه وصل خلال الليل ، مما حرمه من فرصة الابتهاج بالنصر ۰ فلو كنا قد وصلنا نهارا ، لرأينا البلدة بأسرها ، ولانبرت القوارب ، وهي تغص بالاصدقاء ، لاستقباله في البحر وتحيته والترحيب به ، ولكان كل من على شاطىء البحر قد عرف بعودة نجدي من رحلته الافريقية عن طريق البحرين بتلك السرعة الهائلة ــ نجدي ، قائد المراكب والرجال ، نجدي على ظهر « فتح الخير » ، وقد قهر البحار مرة أخرى ۰ لقد كانت صدمة له ألا يجد أحدا يرحب به ، فلم يكن أحد ينتظر وصولنا ، ولن تصل الرسالة التي تعلن ذلك الا في صباح اليوم التالي ۰

وكان البحارة لا يزالون يقرعون الطبول ويهزجون ، الا أن الشعور بالانجاز العظيم كان قد فارق نجدي ، ولو مؤقتا على الاقل ۰ ثم أنزلت

الأشرعة ، وأرخيت للمرة الاخيرة خلال هذه الرحلة ، بينما البحارة لا ينفكون عن الغناء ، حمدا لله ، ومدحا لنجدي ، وهم ينزلون الشراع الكبير الذي كان يتألف من تسع وخمسين قطعة من القماش ، ثم وهم يرسون المركب نهائيا تحت نجوم السماء ٠

قمنا بتحية بعض المراكب الايرانية الكبيرة التي كانت راسية بجوارنا ، وفهمنا من بحارتها أن المراكب التي كانت قد غادرت البحرين قبلنا ببضعة أيام لم تصل بعد ، وقد سر نجدي عند سماعه ذلك ٠ الا أنه ما زال يجلس على سدته مكتئبا ، مرهقا جدا ، وقد فارقه حماسه المعروف ، بعد أن انتهى النهار وأتت الرحلة الى نهايتها ٠ وقد نصح الايرانيين بالعودة الى البحرين وبيع حمولتهم هناك ٠ وكانت هذه نصيحة مخلصة ، واستجابوا لها بأن أخذوا في الحال يعدون العدة للاقلاع ، فلم يكن أفضل سعر لخشب المانجروف في الكويت ليزيد عن ثماني او تسع روبيات لكل عشرين منها ٠ لقد كان نجدي يشعر بالفخر والاعتزاز عندما أجاب أن البوم « بوم نجدي » ، وذلك ردا على استفسارات المراكب الراسية ٠ الا أنه كان الآن يشعر بخيبة الأمل ، لأن الوقت لم يكن نهارا ٠ ولما كانت الرحلة قد أتت الى نهايتها ، لم يبق الا أن ننزل الى الشاطىء ٠ ومع ذلك ، وبعد أن قاد نجدي المركب بذلك العزم وتلك القوة لكي يصل الى الوطن ، فقد كان يبدو الآن وكأنه يخشى النزول الى البر لرؤية زوجته ٠

الا أن الجميع ما لبثوا أن غادروا المركب ٠ فبينما كانت أغاني البحارة بالحمد والشكر تتردد أصداؤها في جميع أرجاء الميناء ، أنزل القارب الطويل ، ونزل الجميع اليه متجهين الى الشاطىء : نجدي ، وحمد ، وعريف البحارة ، وقائدو الدفة ، ويوسف ، وجميع الآخرين ، كلهم غادروا المركب ، الذي لم يبق على ظهره الا ثلاثة هم : اسماعيل ، الذي كان يتيما ولا زوجة له ولا بيت ، وسالم العجوز ، الذي كان بدويا من الصحراء : وأنا ٠ لقد غادرنا الجميع في القارب الطويل الذي كان سريعا ، يكاد يطير تحتهم ، وهم لا ينفكون عن الغناء ٠ وكنت اسمع غناءهم الى أن بلغوا الشاطىء ٠ وهكذا وصل البوم وأرسى فى ميناء الكويت ، بعد أن قام برحلة طويلة ، وتخلص من كل حمولته ٠ أما اسماعيل وسالم فقد استغرقا فى نوم عميق ، بينما بقيت أنا جالسا على المؤخرة فترة من الزمن ، أستعيد ذكريات تلك الرحلة الرائعة ٠

ما أعظمها من رحلة ! قطع المركب فيها ما يعادل عشرة آلاف ميل ، وقضى فيها تسعة أشهر ، كلها حياة شاقة وملاحة صعبة، من منتصف أغسطس

(آب) الى منتصف يوليو (حزيران) التالى ٠ تبدأ الرحلة من البصرة ، بعد استراحة الصيف فى الكويت ، ومن البصرة يحمــل المركب بشحنة من التمور الى تجار المكلا ، ثم ينطلق أولا فى الخليج العربى ، ثم فى خليج عمان ، الى أن يصــل بحــر العــرب ، قبل أن تهــدأ آخر الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، بعد وقفة قصيرة فى مسقط للتزود بالمياه العذبة ٠ فقد كان التزود بالماء ضروريا ، للقيام بالرحلة الطويلة ، على محاذاة الشاطىء الجنوبى للجزيرة العربية ابتداء من رأس الحد ، لأن البدو ما زالوا يقومون بأعمال القرصنة فى تلك المناطق التى كانت الملاحة فيها صعبة ، والظروف العامة غير مؤاتية ، والساحل خاليا من الموانىء ، ويتسم بالخطورة فى معظم أجزائه ٠ ثم يصل المركب الى المكلا ، لتحميل شحنات الى بربرة وايصالهــا الى هناك عبر خليج عدن ٠ وفى بربرة تفرغ شحنة التمر لبيعها هناك الى الصومال والحبشة ، ويقوم البحارة بافراغ المركب وهم يعملون فى ذلك الحر القاتل ٠ وعندما ينتهون من ذلك ، يسحبون المركب الى الشاطىء ، ويوقفونه هناك لتنظيفه واعداده لمتابعة الرحلة ٠ ومن هناك يعود المركب الى ميناء عدن ، الذى يعتبر نقطة الانطلاق التقليدية للرحلات الافريقية ، حيث الحر مخيف ، والاغراء الوحيد هو رخص بعض البضائع والخردوات فى الاسواق ٠ ومن عدن يتابع المركب ابحــاره شرقا الى المكــلا وموانىء حضرموت لاكمال الحمولة ، وأخذ بعض الركاب البدو الراغبين فى السفر الى أفريقيا ٠ ثم يعود المركب ويتجه الى افريقيا ، مبتدئاً بميناء حيفون ، تلك الكومة الجهنمية من الرمل والملح ، فموقاديشو ، حيث العمل التجارى غير ممكن ، وحيث يحاول عبد الله أن يجمع الديون المستحقة على التجار ، فلامو ، وهو أول ميناء لطيف نعثر عليه خلال الرحلة الطويلة كلهــا ، رغم أن النشاط التجارى فيه لا يختلف عنه في موقاديشو ، فالسوق في حالة كساد ٠ ومن هناك الى ممباسا ، تلك الجزيرة المشمسة ، حيث ينزل الركاب وتنظف أسطح المركب ٠ وأخيرا الى زنجبار ، جزيرة المتعة والبهجة ٠ ومن هنــاك الى دلتا الروفيجى ، بعد المرور بكوالى ، ذلك المكان الرهيب فى دلتــا الروفيجى ، حيث يتحول البحارة الى أشباح من شدة الهزال ، ويصاب بعضهم بالحمى وهم يعملون تحت ظروف تكاد لا تحتمل مطلقا ٠ ومن الروفيجى نعود الى زنجبار ثانية ، حيث تمسح أيدى الحوريات الناعمة ، ومداعبات الفتيات المحليات على آثار الشقاء والعناء ٠ ومن هناك ينطلق المركب بتلك الرحلة الطويلة على محاذاة ساحل أفريقيــا الشرقى ، وســاحل الجــزيرة العربية الجنوبى ، الى خليج عمان مرة ثانية ، بحيث نتوقف فى مسقط ، ثم نعاود السفر شمالا الى الخليج العربى ، ونتوقف فى البحرين ، ومن هناك ننطلق فى آخر شوط من الرحلة الى أرض الوطن ٠

انها لرحلة دائرية عظيمة حقا ! عشرة آلاف ميل من الابحار ذهابا مع

احدى الرياح الموسمية ، وايابا مع أخرى • ولكنها رحلة ليست باليسيرة كما يمكن أن يتصور المرء ، فقد كان فيها الكثير من الظروف المعاكسة ، كما كان فيها عدد من الاماكن الخطرة التى كان علينا أن نتعامل معها بحذر وتعقل • ومع كل ذلك ، فقد تمت الرحلة ، بل تمت بشكل مرض جدا ، بلا جلبة كبيرة ، وبلا حوادث • تمت على ظهر واحد من أكثر من مائة من المراكب العربية التى تقوم بنفس الرحلة تقريبا • تمت على أيدى مجموعة من البحارة الذين يرتدون الوزرات ، ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، مجموعة من الرجال المتعصبين لدينهم • الا أنهم بحارة حتى العظم ، بحارة لا يعرفون أنواع الانشوطات المختلفة أو ألاعيب البحر ، بحارة معظمهم لا يعرفون طرف البوصلة هذا من الطرف الآخر ، بحارة يقضون معظم أوقاتهم فى البحر دون أن يقابلوا عاصفة هوجاء واحدة ، أو يتعرضوا للمطر الغزير • ومع ذلك كله ، فان بامكانهم أن يقوموا بواجباتهم كأى بحارة آخرين ، ويقاسوا من المشاق وشظف العيش ما يعجز عنه كثيرون غيرهم • كما أن بامكانهم أن يتعاملوا مع أشرعة وصوار وعارضات ضخمة صعبة التحريك ، حتى عندما يصبح التعامل معها فى غاية الخطورة •

أخذت ، وأنا جالس هناك على مؤخرة المركب ، أفكر فى الحياة التى كان هؤلاء الرجال يعيشونها ، كما أخذت أفكر فى نجدى ، ومساعده حمد ابن سالم ، اللذين كانا يقودان أولئك الرجال • لقد كان لنجدى أخطاؤه ، وقد ذكرت كثيرا منها • فقد كان عنيدا ، لا يقيم كبير وزن للآخرين فى كثير من الاحيان ، لا يميل الى الزهد اذا أتيحت له فرصة الاستمتاع بفتاة جميلة ، قانعا بما لديه من المعرفة ، ويشعر بالامان لاعتقاده أنه موعود بجنة لا يتكلم أحد فيها الا اللغة العربية • الا أنه برغم ذلك كله ، كان بحارا ذا صفات رائعة ، كما كان قائدا قديرا وملاحا وربانا يشار له بالبنان ، علاوة على دهائه ومقدرته على مقارعة التجار والوسطاء المقيمين على البر • لقد كان نجدى رجلا بكل ما فى الكلمة من معنى ، ولذلك أحببته كثيرا ، وكان جميع بحارة مركبنا يحلفون بحياته ، كما كان بحارة المراكب الاخرى يحترمونه ، مع أنهم لم يكونوا دائما يحترمون بعض النواخذة الآخرين • وحتى بحارة « الداو » الكبير ، كانوا يتلفتون حولهم اذا ما مر بهم نجدى وهم يتسكعون فى أسواق زنجبار • فقد كان ، وعلى مدار ثلاث سنوات متتالية ، يدفع لبحارته نصيبا من الربح يزيد عما يدفعه أى نوخذة آخر يقوم بالرحلة السنوية من الكويت الى ساحل أفريقيا ، مما أكسبه سمعة طيبة • وفى خلال تلك المدة ، كانت قيادته لفتح الخير قيادة حازمة حكيمة ، على الرغم من أن انصرافه عن رحلات الهند حديث العهد ، فقد كان قادرا على تجنيبه أية حوادث خطرة • أضف الى ذلك كله أن نجدى كان صديقا حميما لى ، صديقا تعلمت منه الكثير الكثير •

أما حمد بن سالم ، الذى كان يتسلم زمام القيادة عندما يتغيب نجدى عن قيادة المركب ، فقد كان رجلا أيضا · الا أن نجدى ، ما دام على ظهر المركب ، فهو السيد ، بينما حمد شخصية صغيرة جدا بالنسبة له · نجدى هو الآمر الناهي الذى لا يستطيع حمد أن يملأ الفراغ الذى يتركه · وكل ما كان يستطيعه هو أن يحل محله الى أن يعود · ولكن كل ما كان حمد يقوم به ، كان يقوم به على الوجه الاكمل · وقد وجدت صعوبة فى البداية فى معرفته معرفة جيدة ، لأنه كان هادئا متحفظا ، شديد التدين ، الا أنى ، مع ذلك ، أحببته منذ البداية ، وارتفع شأنه فى نظرى كلما زادت معرفتى به · وكان حمد ملازما للمركب ، دون أن يحظى بيوم واحد من الراحة ، طوال الشهور التسعة التى استغرقتها الرحلة · وكان دائما موجودا وجاهزا للعمل ، صاحيا عندما يكون نجدى نائما ، مسؤولا عن المركب خلال رحلة الروفيجى ، يعمل على حل المشاكل المزعجة التى تلت القبض على مبارك · وكان حمد يولى اهتماما بالبحارة أكثر من نجدى ، لأنه كان فيما مضى بحارا مثلهم ، بينما لم يكن نجدى بحارا قط ، بل كان دائما ينتمى الى طبقة النواخذة ، أما حمد فقد أصبح ينتمى لهم بالتزاوج · وكنت أتمنى من كل قلبى أن يتمكن حمد من الحصول على مركبه الغاص قبل الموسم التالى ، وكان هو يتمنى ذلك أيضا ، دون ان يبنى قصورا في الهواء ، فهو حري بذلك وجدير به ·

أما البحارة ، فقد كانوا أناسا طيبين دون تباه أو تظاهر ، يعملون بكل جدية واقبال ، وكانوا يعرفون واجباتهم ويؤدونها على الوجه الاكمل دون أن يقف أى عائق فى طريقهم · وكانت حياتهم قاسية جدا ، فلم يكن لأى منهم ستة أقدام من سطح المركب يمكن أن يقول انها تخصه وحده ، ولم تكن أية أجور تدفع لهم سوى حصصهم من أرباح المركب ، ولم يكونوا يتناولون طعاما لا يدفعون ثمنه ، فقد كان ثمن ما يأكله كل من هؤلاء يحسم من أجرته قبل كل شىء عند اجراء الحساب الختامى · ولم تكن لديهم أية فكرة عن التعويض عن الاضرار التي يتعرض لها العامل أثناء تأديته لعمله ، كما كان التأمين مخالفا لاصول دينهم · ولم يكونوا يرتدون الملابس الكافية ، أو ينامون على الفراش اللائق ، ونادرا ما كانوا ينامون ليلة كاملة ، دون أن يزعجوا ويوقظوا من نومهم لتأدية عمل ما · كما لم تكن حياتهم فى الموانىء أقل تعاسة من حياتهم فى البحر · وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كانوا يستخلصون شيئا من المتعة من حياتهم اليومية ، ولم يكن بينهم واحد لا يشعر بعاطفة جياشة نحو المركب ونحو البحر · لقد كانوا بحارة حقيقيين ، كما كانوا مجموعة من الاخوان المخلصين · وعلى الرغم من أن كثيرا من موظفى الموانىء والجمارك ، فى نصف موانىء الشرق ،

لا يحبون شيئا أكثر من رؤية هؤلاء البحارة وراء القضبان ، لأنهم كانوا مهربين راسخي الجذور ، وأن كثيرا من قباطنة ناقلات النفط يتمنون أن يروا تلك المراكب العربية غير المضاءة ليلا وقد اختفت من على سطح البحر كلية ، لانها كانت تهدد الملاحة بالنسبة للسفن التجارية ، وأن كثيرا من موظفي الموانيء المنهكين في موقاديشو ، أو ممباسا ، أو زنجبار ، أو موانيء ساحل الهند الغربي ، يدعون ربهم كل ليلة ، في موسم هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية ألا يروا انسانا أو مركبا عربيا مرة ثانية ـ على الرغم من ذلك كله ، فقد كان هؤلاء البحارة أناسا طيبين · واذا كانت الكويت التي سمعت عنها الكثير ، تستطيع أن تنتج مراكب وبحارة من هذه الجبلة ، فهي بلا شك ، مكان عظيم يستحق أن أتعرف عليه ·

أخذت أنظر الى النجوم والى الظلمة التي كانت تغطي الكويت ، بحيث لا أرى منها شيئا ، فقد كان الوقت منتصف الليل ، وانتقل بي الفكر الى يوسف الذي ربما كانت زوجته تغسل قدميه الآن ، والى خليفه وابنه الصغير ، والى حسن وزوجتيه الطيبتين ، والى نجدي ، وكنت أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام بالنسبة لأسرة كل منهم ، فقد كانوا رجالا طيبين يستأهلون عودة مباركة الى أوطانهم الصغيرة ·

ولا بد أني غفوت وأنا أجيل هذه الافكار في ذهني ، واستغرقت في نوم عميق الى وقت متأخر من الصباح · فلم يكن هناك من يؤذن للصلاة ، أو من يعد خبز الافطار ، أو من يغلي الشاي · الا أن القارب الطويل عاد مبكرا ، وهو يحمل عريف البحارة مع جميع بحارته ، وحمدا بن سالم · وفي الحال باشروا أعمالهم ، بانزال الصواري ، واعداد المركب للسحب الى الشاطيء · فقد كان عليهم أن يجردوا المركب من كل ما عليه من الاشرعة والحبال وسواها وينزلوها الى الشاطيء ، وبعد ذلك يعوموا المركب ، عند قدوم المد العالي ، الى مكان آمن على الشاطيء ، خلف السور الحجري الواقي من الامواج · وهناك عليهم أن يغطوا المركب بسقف من الحصير وسعف النخيل ، لحمايته من أشعة شمس الصيف اللاهبة ، ويحيطونه بمزيد من قطع الحصير لحماية هيكله وقاعه ، ثم يتركونه هناك الى أن يحين الموسم القادم لقطاف التمر من ضفاف شط العرب ·

وقد أقبل البحارة على هذا العمل بقوة وعزيمة · فلم يكن الوصول الى الميناء يعني نهاية العمل ، مع أنه كان يعني بالطبع نهاية الرحلة · فلن ينتهي عمل البحارة ، حتى يرفعوا المركب الى مكانه المناسب الآمن على رمل الشاطيء ، وينزلوا ما عليه من المعدات · وقد دلوني على منزل نجدي ،

على الشاطىء قبالة البحر ، وعلمت أن المركب سيوقف أمامه للاستراحة خلال أشهر الصيف • ولا شك أن ذلك نظام معقول ، بأن يكون مركب كل نوخذة واقفا أمام بيته • وقد استطعت فعلا أن أرى بيوت النواخذة الممتدة على طوال الشاطىء ، وأمام كل منها بوم يقف على الرمل للراحة من عناء السفر •

علمت من يوسف أن هذا الجزء الاخير من العمل على المركب يستغرق فى العادة ثلاثة أيام • وبعد ذلك ، على البحارة أن يطلوا المركب بالزيت من الداخل والخارج ، وبهذا يأتون الى نهاية عملهم ، ويعتبرون أنفسهم أحرارا بقية أشهر الصيف ، الا أنهم لن يتقاضوا ما يستحقون من المال قبل عودة عبد الله ، لأن الديون المستحقة فى موقاديشو يجب أن تحصل ، قبل أن يجرى الحساب الختامى للرحلة ، وربما استغرق ذلك شهرا أو شهرين • ولكن بامكان البحارة فى هذه الاثناء أن يستلفوا من نجدى أى مبلغ من المال يجدون أنفسهم بحاجة اليه • وكان يوسف يقول ان بعض البحارة لم يكونوا ينالون الكثير فى نهاية الرحلة ، وذلك بعد أن يحتسب ما استلفوه فى بداية الرحلة ، وما أخذوه فى عدن وزنجبار • ولكن ذلك لا أهمية له ، فقد كان بامكانهم أن يقترضوا على حساب الرحلة القادمة ما يكفيهم لأشهر الصيف ، اذا شاؤوا ذلك • وكثيرا ما كانوا يشاؤون فعلا • ويبدو لى أن حياة البحارة فى الكويت كانت تمول كلية بموجب نظام التسليف هذا ، بحيث أن معظمهم يجدون أنفسهم مدينين طوال الوقت ، وكانوا يعتبرون أنفسهم مرتبطين بالنوخذة الذى كانوا يدينون له بالمال •

وقبل أن ينتصف النهار ، كان نجدى قد عاد الينا • وهو يصطحب أربعة من أبنائه الذين كانوا ينظرون الى كل شىء فى دهشة وحب استطلاع• وقد أفاد بأن زوجته لم تكن مريضة جدا ، كما قيل له ، وحمد الله كثيرا على ذلك • الا أنه كان ما زال متضايقا من عدم وصوله منتصرا خلال النهار ، بعد تلك الرحلة الرائعة من البحرين • فقد كنا أول بحارة يعودون من رحلتهم الى أفريقيا • أما المراكب التى كانت واقفة على رمل الشاطىء فقد كانت عائدة من رحلتها الى الهند ، أو كانت من مراكب الغوص ، التى تنتظر موسمها ، الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى •

ومع نجدى أتى تجار ، ووسطاء ، ونواخذة آخرون ، وكان بينهم نوخذة أحد مراكب الغوص ، أتى يبحث عن بحارته ، فقد كان جميع بحارتنا تقريبا غواصين من نوع أو آخر • وما دام أحدهم قد بدأ هذه المهنة ، فلا بد له من المضى فيها • وكان على أولئك ، الذين يدينون ببعض المال لواحد

من النواخذة العاملين فى المهنة ، أن يرافقوه الى مصائد اللؤلؤ ، اذا كان سيذهب فى رحلة للغوص ، والا فان عليهم أن يسددوا ما عليهم من الدين • وقد أنقذهم كساد تجارة اللؤلؤ من هذا المصير بضع سنوات • أما الآن ، فان من الواضح أن النواخذة راغبون فى تجربة حظهم مرة أخرى • وقد استطعت أن ألمح الاكتئاب على وجوه بعض بحارتنا ، لأن عليهم أن يحزموا أمرهم ، بعد أن دفعهم الكساد الطويل لعدة سنوات على التخلف عن سداد الدين أو الذهاب للغوص ، لأن النواخذة لم يكونوا يخرجون بمراكبهم ، اذ لم تكن هناك فائدة من الخروج فى رحلة غوص لا يجنون من ورائها شيئا • أما هذا العام ، فقد كان أكثر من مائة من المراكب تجهز للسفر ، ولذلك كانت هناك حاجة ماسة الى البحارة • وقد رأيت خيبة الأمل الشديدة على وجه سلطان ، عندما تقدم منه أحد التجار ، فقد كان المسكين قد وطن النفس على الزواج بما يستحقه من أرباح المركب • أما الآن فان التاجر يخيره بين أن يسدد دينه أو يرافقه فى رحلة الغوص • ولم يزد عن قوله : « الله كريم » مع أنى لم أجد أن هذا القول يناسب الموقف ، وربما كان مجرد دعاء فقط • أما محمد ، ذلك الرجل الصغير الجسم ، الذى كان ينوى أن يستعمل حصته من الارباح لتأدية فريضة الحج الى مكة ، فقد كان مهموما أيضا • « الله كريم » سمعتها من سبعة أو ثمانية من البحارة الآخرين ، الذين وجدوا أنفسهم فى نفس الموقف •

مساكين ! ها هم يعودون من تلك الرحلة الطويلة المرهقة ، وقد أصبحت أقدامهم على البر تقريبا ، واذا بهم يضطرون للسفر مرة أخرى للغوص على اللؤلؤ • ولم يكن أمامهم مجال كبير للخيار • ويبدو لى أنهم ما أن يتورط أحدهم مرة واحدة فى الاقتراض من أحد نواخذة الغوص ، حتى يجد أنه لا يستطيع الفكاك من تسديد الدين بأية طريقة من الطرق • وما أن زال أثر الصدمة الاولى حتى عاد كل شىء طبيعيا ، فلم أسمع بكاء أو حتى أحدا يجأر بالشكوى ، فقد كان هذا قانون الميناء ، وكان الجميع يعرفون ذلك منذ نعومة أظفارهم • ولكن لم يكن الامر كله عذابا وفقرا ، فقد كانت هناك فرص للاثراء من الغوص أيضا • وكان البحارة ، مثلهم فى ذلك مثل سائر البحارة فى أى مكان آخر فى العالم ، مقامرين راسخى الاقدام • وسرعان ما عادت الروح المعنوية العالية الى أولئك الذين كانوا سيئي الحظ ، فأخذوا يقولون النكات ، ويرددون النوادر عن اللآلىء الضخمة التى سيعثرون عليها فى الموسم القادم ، وعن الثروة التى سينالونها• ولكنى لاحظت أن نوادرهم فى ذلك اليوم كانت تخلو من المرح الحقيقى •

وقد شعرت بالسعادة لأن أيا من النواخذة لم يكره يوسف العجوز على

الذهاب معه ، فقد كان هذا بحاجة الى الراحة فعلا • ولا بد أنه كان مطمئنا الى أن أحدا لن يكرهه على ذلك ، فقد سدد ما عليه من الدين ، خاصة أنه لم يعد يذهب للغوص منذ عـدة سنوات ، وكان حريصـا على ألا يضطر للاستدانة ثانية ، فقد نال أكثر من نصيبه من الغوص • وقد أخذت أبحث عن هذا الصديق العجوز على ظهر المركب ، الذى كان دائما أول من يتصدى لأشق الاعمال • نعم • ها هو ما زال هناك ، لا ينفك عن العمل ، ولا يتوقف عن الغناء •

ولكن ما هذا ! ها هو أحد تجار اللؤلؤ يتقدم منه ، ويمسكه من كم جلبابه ، ويبدأ معه شجارا طويلا • ولكن ما شأنه بيوسف ؟ لقد قام يوسف بتسديد جميع ديونه • ولكنى كنت مخطئا • فقد كان له شأن مع يوسف العجوز ، وان لم يكن قبطان يوسف نفسه • وقد علمت فيما بعد أنه كان نوخذة لمركب من نوع « البلم » ، كان أخو يوسف يعمل عليه • وعندما مات هذا انتقلت ديونـه الى يوسف ، الـذى كان عليه أن يذهب الى الغـوص لتسديد تلك الديون • لقد كانت هذه ضربة مخيفة ليوسف • ولكن يبدو أن الشرع الاسلامى ، كما يفسره تجار اللؤلؤ ، يوجب على الرجل تسـديد الديون المستحقة على أخيه • على كل حال فقد كانت هذه تقاليد الميناء ، بحسب قول يوسف نفسه ، وكان عليه تسديد دين أخيه • فاذا كان ذلك النوخذة يريده للذهاب معه الى الغوص ، فلا بد أن يذهب ، وينسى ما وعد به نفسه من قضاء أشهر الصيف مع أسرته • وكان الأخ مدينا بأربعـمائة روبية ، تجمعت عليه خلال عشرين عاما من الغوص على اللؤلؤ •

ولم يكن المبلغ كبيرا ، فقد كان بعـض الغواصين يدينـون بآلاف الروبيات ، الا أنه لم يكن مبلغا يستهان به بالنسبة ليوسف ، الذى لم يكن يحلم بتسديده طيلة حياته • فلم يكن ، فى رأيى ، جميع ما يكسبه يوسف فى عام كامل ، لقاء قيامه بالرحلات الطويلة والقصيرة معا ، يزيد ، فـى يوم من الايام ، عن (٢٠٠) روبية ، كان عليه أن يعول أسرته بشىء منها • وكانت نفقات الحياة ، بالنسبة لبحار فى الكويت لديه بيت صغير وأسرة يعولها ، لا تقل عن روبية فى اليوم ــ أو أثنتى عشرة آنة ، على الاقل ، حتى تبقى أسرته على قيد الحياة •

ولم يكن يبدو لى أن من العدل أن يضطر يوسف المسكين ، الذى مـا كاد يعود من البحر ، الى السفر مرة أخرى فى رحلة للغوص المرهق ، الذى يعد أقسى المهن على الاطلاق • وحتى يوسف نفسه ، الذى كان معتادا على شظف العيش ، كان يعترف لي بأن الغوص على اللؤلؤ لم يكن الا عملا شاقا

قاتلا متواصلا تحت ظروف فى غاية القسوة ، كما أن احتمال أن يخرج من الموسم كله ، دون أن يجد نفسه غارقا فى دين أكبر للنوخذة ، احتمال ضئيل جدا ، ولكن الله كريم ، كمـا كان يوسف يـردد باستمرار ، وعلى شفتيه ابتسامة القناعة والرضى ، وقد انكب على عمله بجهد مضاعف ، رافعـا عقيرته بالدعاء والحمد والشكر لله على نعمائه ٠

وقد قررت فى الحال بأنى سأرافق يوسف فى رحلـة الغـوص ، اذا اضطر للذهاب ، وكان أمامى أسبوع أو اثنان ، أتفرج فيهما على الكويت التى أخـذت تبـدو لى أكثر اثارة مما تصـورت ٠ فقد كانت بعـيدة عن الفردوس الذى وصفوه لي بعد الارض عن السماء ، ولم يكن ينمو فيها أى نوع من الفاكهة ، أو أى شىء آخر سوى بعض السمك والغنم ، كما أنه لم يكن فيها ماء عذب صالح للشرب خلال أشهر الصيف ، بل كانوا يجلبونه من شط العرب فى مراكب صغيرة ، تأتى وتذهب خلال النهار ٠ وكان الرمل الجميل ، الذى وصفه نجدى بالنعومة والدفء ، بل وشبهه بنهود العذارى ، يهب على الميناء ، ويدخل فى عينى ، ولم يكن ناعما ولا مريحا ، بل كـان يرسل وهجا ساطعا يصبح مؤذيا بعد فترة من الزمن ٠

ها نحن فى الكويت ، ويوسف العجوز يجلس هناك وهو يعمل ويغنى، وأبناء نجدي الأربعة ينظرون الى كل شىء حولهم وهم فاغرو الافواه ٠ أما تجار اللؤلؤ ، فقد انتهوا من عملهم، وربطوا بعض البحارة برحلات الغوص، وغادروا المركب فى قواربهم الصغيرة ٠

الفصل الثامن عشر

الكويت - ميناء المراكب الكبيرة

الكويت ـ ميناء المراكب الكبيرة

لا تبدو مدينة الكويت المسورة فى أفضل حالاتها اذا نظر اليها المرء من الميناء ، الا أن واجهتها البحرية ، التى تمتد مسافة تزيد عن الميلين ، من أكثر الواجهات البحرية امتاعا فى العالم · ففى عام ١٩٣٩ ، كان المكان يبدو كأنه حوض واحد عظيم لصنع المراكب والاتجار فيها ، اذ كانت المراكب الكبيرة والصغيرة على السواء تقف متلاصقة على طول تلك الواجهة البحرية ، التى تمتد شرقى وغربى الميناء ، بمحاذاة الشاطىء الضحل المنبسط على جون الكويت ، من مقر دار المعتمد البريطانى شرقا الى المستشفى الامريكى غربا · فهى على رمل الشاطىء ، وهى على الماء الضحل، وهى هناك فى عرض البحر ، تملأ المكان فيبدو شديد الازدحام حقا · صفوف طويلة منها تقف خلف الحاجز الحجرى ، وهى تواجه البحر ، كل خمسة أو ستة منها فى صف واحد ، وهى تستند الى متونها الطويلة ، ومقدماتها متجهة الى البحر ، ودفاتها منزوعة ، وجوانبها مغطاة ، وأسطحتها محمية من حرارة الشمس بأسقف من الحصير ، وكانت المراكب الكبيرة تقف فى الماء الضحل ، أما الصغيرة فهى مرفوعة الى رمل الشاطىء وواقفة تستريح وتجف هناك ·

ومع أن الوقت كان لا يزال فى منتصف يونيو (حزيران) عندما وصلنا الكويت ، ولم يكن عدد كبير من المراكب الكبيرة قد عاد الى الوطن بعد ، كان هناك ما لا يقل عن مائة مركب كبير تقف هناك فى أماكنها الصيفية ، هياكلها مرفوعة على أعمدة من خشب لامو ، أو الروفيجى ، أو على جذوع الاشجار الهندية، بينما نزعت جميع معداتها وأنزلت الى البر · كما كانت بعض المراكب تعوم ، أو تنزع معداتها وهى فى المرسى ، استعداد لكدجها عندما يصل المد التالى · وكان عدد من القوارب الطويلة ، المكتظة بالبحارة وهم يهزجون ، تقطر المراكب ، وبحارتها يحملون حبالا الى الحاجز الحجرى لربطها به ، أو الى المراسى المغروزة فى الرمل لتثبيتها بها ، وذلك للمساعدة فى جرها ورفعها الى مواقفها الصيفية· وهكذا كان الشاطىء يعج بالمراكب ، على جميع أنواعها وأحجامها وأعمارها ، بينما كان البحارة يملأون الواجهة البحرية النشطة وهم يؤدون أعمالهم ، ويذهبون هنا وهناك كأنهم نهر لا ينقطع عن الجريان · كما كان هناك البحارة ، الذين يكادون ينوءون بما يحملون من الأشرعة الكبيرة والصغيرة التي نزعوها من مراكبهم ، لكى يوصلوها الى الشاطىء ، بينما كان غيرهم من البحارة يرقصون

ويهزجون ، وهم يجرون القوارب الطويلة ، ويحكمون وضعها وتثبيتها في الاماكن المناسبة ، ثم يغطونها بسعف النخيل ، لحمايتها من الشمس • وكان غير هؤلاء وأولئك من البحارة يكدون ويعرقون وهم يديرون الرحويات ، لكي يرفعوا مراكبهم الى البر ، بينما كان آخرون يهزجون ويرقصون وهم يعتّمون الاشرعة الثقيلة ، والقضبان المعدنية الرفيعة ، ويجعلون منها رزمات مربوطة بعناية ، يضعونها على الشاطىء ، بين الأكوام الهائلة المنوعة من الرحويات ، والقوارب الطويلة ، وقوارب النجاة ، وقوارب الربابنة ، وخشب الساج الهندي ، والمراسي ، والدفات ، ومصدات الامواج ، وخزانات المياه ، والمواقد ، وأنواع لا تحصى من الأدوات والمعدات البحرية ، التي كانت تملأ المكان ، فتكاد لا تترك فيه موطئا لقدم •

وكان الايرانيون يعبرون الشارع الترابي ، والأحمال الثقيلة على ظهورهم • فقد كان من الواضح أنهم هم الذين يتولون مثل هذه الأعمال ، وهم الذين يقومون بايصال الماء الى البيوت ، وهم الذين يؤدون معظم أعمال التحميل والتفريغ في الميناء ، علاوة على جميع الاعمال اللازمة لأحواض بناء السفن واصلاحها • وكان هناك آلاف منهم ، بعضهم يقومون بنشر قطع الساج الهندي الضخمة وجعلها ألواحا ، وكان ذلك عملا قاتلا في ذلك الجو الخانق ، وغيرهم يفرغون مراكب الماء الآتية من شط العرب ، فيسوقون حميرهم الى داخل البحر لكي يحمّلوها بنصيبهم من القرب ، وآخرون ينقلون على ظهورهم كل ما يلزم نقله من الحطب ، أو أكياس الرز ، أو جلل التمر ، أو أي شيء آخر يلزم نقله الى مخازن التجار • لقد كان الايرانيون وحميرهم يقومون بأعمال المدينة ، أما الكويتيون فكانوا يقومون بأعمال البحر • وقفت مع نجدي أراقب عددا من الايرانيين ، وهم يعدون بوما جديدا لانزاله الى الماء من حوض لبناء السفن ، كان فيه خمسة من المراكب غير المكتملة تقف صفا واحدا ، خلف سور من الصخور المرجانية والطين • وكان العمال يقومون بهدم السور أمام مركب انتهى صنعه ، ويحملون مرساة كبيرة الى الماء الضحل • ولم تكن اعادة بناء السور ، تستغرقهم أكثر من ساعة أو ساعتين ، بحسب قول نجدى • وكانوا سيقومون برفع المركب وسحبه الى الارض اللينة في أثناء الجزر ، فاذا ما جاء المد عوّم ، وأصبح من الممكن قيادته الى عرض البحر •

سألت نجدى : « ولكن لماذا يبنى السور ثانية ،ما دام سيهدم كلما أنزل بوم جديد الى البحر ؟ » فقد كانت ستة من تلك المراكب الجميلة يجري بناؤها في تلك الاحواض ، ومثلها تبنى على الشاطىء

المكشوف ، حيث ترى مرتفعة شامخة على بقية المراكب الاخرى · فأجاب نجدي قائلا : « يحسن أن يكون المركب محميا اثناء صنعه » ·

ــ لكن لماذا ؟

ــ لأن السور يبعد الجن ·

ــ وماذا عن المراكب التي تبنى في الهواء الطلق علـى الشـــاطىء المكشوف ؟ أليست هي أيضا معرضة للعنة الجن ؟

ــ بلى ، ولكن بعض أصحاب المراكب وبعض النواخذة لا يبالـــون بالجن كثيرا في هذه الايام ، الا أن هناك شيئا واحدا يحرصون عليه حرصا كبيرا ، وهو الا تقفز امرأة واحدة فوق متن المركب الحديث البناء ·

ــ ولماذا تفعل ذلك ؟ لماذا ترغب أي امرأة في القفز فوق متن مركب ؟ واذا أرادت أن تفعل ذلك ، فلماذا لا تدعونها تفعل ما تريد ؟ »

نظر نجدي الي بدهشة واستغراب ، كأنه كان علي أن أعرف شيئا من هذه الامور بعد أن قضيت معه ستة أشهر ، وبعض الوقت مع أحمد اليمني من قبل · ثم أجاب على سؤالي قائلا :

ــ ليس هناك من يجهل ان المرأة العاقر ، التي تتخطى متن مركـــب حديث ، تستطيع الحمل بعد ذلك ·

لقد كان هذا الخبر جديدا علي · اذا لا بد أن عقر المـرأة أمـــر خطير جدا في الكويت ، حيث الوظيفة الاساسية للنساء هو انجاب الاطفال· ولم أكن قد سمعت بهذا الامر الغريب من قبل ، فتساءلت قائلا :

ــ اذا كان المجتمع لا يرحب بالمرأة العاقر ، واذا كانت كثرة الاولاد تعتبر بركة ونعمة ، فلماذا لا تشجع النساء العاقرات على القفز من فوق متون جميع المراكب الحديثة الصنع ؟

ــ لا يا صديقي · حياة مقابل حياة · الا تعلم ذلك ؟ هذا هو الوضع مع الجن · فاذا قفزت امرأة من فوق متن أحد المراكب الجديدة ، يكون قد انتهى عمر بعمر ، الا تعلم ذلك ؟ واذا لم يكن النوخذة هو الذي يموت ، فربما لاقى أحد النجارين حتفه ، قبل أن يتم صنع المركب وينزل الى الماء · ولذلك فان عمل المرأة هذا فال سيء · ألا توافقوني على ذلك ؟

وتابعنا سيرنا على الشاطىء ، واخذت أتخيل أني أرى فريقا مـــن النساء العاقرات ينظفن الملابس على صخور الشاطىء الصلبة ، وهن ينظرن بعين الحسد الى متون المراكب الجديدة · بينما أخذ نجدي يحدثني كيف كان عشرون رجلا يقومون بالحراسة ليل نهار ، عندما كان النجارون يبنون

له « فتح النير » ، خشية أن يفقد حياته ارضاء لاحدى النساء العاقرات التي ترغب في انجاب الاطفال ٠ وقد لاحظت أيضا أن صانعي المراكب كانوا ، عندما يمدون متن المركب ، يعملون بسرعة جنونية ، الى أن ينتهوا من تركيب الالواح على كل جانب من جانبيه ، لكي يمنعوا أية أمرأة عاقر من القفز فوقه ٠ ولذلك ، فقد كان على المرأة ، التي ترغب في القفز ، أن تكون فى منتهى السرعة ، وأن تفعل ذلك فى أول يوم يبدأ النجارون فيه ببناء المركب ٠

وكانت معظم النساء ، اللواتي رأيناهن على طول الواجهة البحرية في صباح ذلك اليوم ، اما زنجيات أو ايرانيات ، وجميعهن متشحات بالسواد ٠ وكان النسوة ، اللواتي يقمن بغسل الملابس في البحر ، يغطين وجوههن بالحجاب الاسود الكثيف ، مع أن أجسامهن كانت كثيرا ما تغطس في الماء ، فتظهر تضاريس اجسادهن واضحة جلية ، تحت ملابسهن المبللة الملتصقة بها ٠ وكان معظمهن كبيرات السن أو هرمات ، ولكن بعضهن لم يكن كذلك ٠ ولم يكن نجدي ينظر اليهن ، فلم يكن من اللائق للرجل أن يراقب أولئك النسوة ، وهن يقمن بأعمال الغسيل في البحر ، وكانت غالبيتهن من زوجات العمال والحمالين ، ولم أر واحدة منهن ترغب في القفز من فوق متن أحد المراكب الجديدة ٠ فقد كان مع كل منهن تقريبا جيش جرار من الاطفال ذوي العيون الجميلة ، صبيانا وبنات ، يلعبون في الماء بينما امهاتهم يقمن بأعمالهن ٠

وتابعت سيري بصمت بجانب نجدي ، وهو يحيي الاعداد الكبيرة من النواخذة الذين كانوا يجلسون على المقاعد الطويلة المصفوفة في الظل أمام بيوتهم ٠ لقد بدأ نجدي باعطائي فكرة عن أصول السلوك الاجتماعي عندهم ، فقال أن على الماشي أن يحيي الجالس ، وعلى الراكب أن يحيي الماشي ٠ كما أن على ربان المركب العائد من رحلة ، والغريب القادم الى المدينة أن يذهبوا للسلام على الشيوخ ٠ وبما أن نصف النواخذة في المدينة كانوا جلوسا ، كما أن في البلدة عددا كبيرا من الشيوخ ، فقد توقعت أن أنشغل كثيرا في الايام القادمة ٠ ولكننا كنا أحيانا نجلس ونحتسي الشراب أو القهوة أو كليهما مع بعض النواخذة أو التجار ، وعندها كان جميع البحارة وأهل البلدة الذين يمرون من أمامنا يبدأوننا السلام بقولهم « السلام عليكم » ، فنجيبهم قائلين « وعليكم السلام » ، ثم يقولون « صبحكم الله بالخير » ونحن نجيب « صبحكم الله بالخير » ٠ وكثيرا ما كان النواخذة يعانقون نجدي ويقبلونه على الخدين ، كما كان هو يعانق الأصدقاء والأقارب ٠ أما أولئك الذين لم يكونوا يعانقونه ، فقد كانوا

يمسكون بيده اليمنى وذراعه الايمن ، وينظرون في عينيه بشوق وحب ، ويسألونه بضع مرات متتالية عن صحته ٠

وقد كان من الواضح أن العادة في الكويت كانت تقضي بأن يسأل المرء عن صحة الرجل الآخر عند السلام الاول ، ما دام هذا يستطيع سماعه ٠ وكان الناس يسألون عن الصحة بشكل لا ينقطع وبالحاح شديد ، حتى أنه خيل الي بأنهم لم يكونوا يسمعون الاجابات ٠ بل الواقع أنه لم يكن هناك داع لمثل الاجابات ، فقد كان من الواضح أن السائل والمسئول كليهما بصحة جيدة جدا ٠

كنا نسير في الطريق الممتد على محاذاة الشاطىء باتجاه قصر شيخ الكويت ، صاحب السمو أحمد بن جابر الصباح ، لكي نسلم على سموه ، كما كانت العادة في الكويت بالنسبة للاغراب ، والنواخذة العائدين مؤخرا من البحر ٠ وما كدنا نقطع نصف المسافة الى قصر الشيخ ، حتى قابلنا الشيخ نفسه وهو قادم من حول منعطف في الطريق في سيارة أمريكية الصنع ، يتقدمه ويتبعه عدد من سيارات الشحن الكبيرة المملوءة بالجنود البدو المسلحين ٠ فقد وجد سموه أنه لم يعد من الحكمة ، بعد الفتنة التي حدثت في البلاد مؤخرا ، أن يسير في المدينة من غير حراسة ، كما كان الامر في السابق ٠ توقفت السيارة على مقربة منا ، وتبادلنا التحية ٠ وقد أحببت شيخ الكويت من النظرة الاولى ٠ كان رجلا وسيما ، قوي البنية ، له شاربان سوداوان ولحية سوداء ، وعينان واسعتان نفاذتان ٠ وكان يرتدي اللباس العربي الجميل الذي يرتديه شيوخ العرب : الجلباب الابيض الطويل ، وفوقه العباءة المصنوعة من وبر الجمال والموشاة بخيوط الذهب ، كما هو حال عباءة نجدي ، الا أن التطريز على عباءة الشيخ كان أكثر وأجمل ٠ وكان يرتدي على رأسه كوفية من القماش الخفيف المشجر ، الذي لم يكن يخفي القلنسوة المحاكة على شكل نماذج من الازهار ٠ وكان عقاله قويا مصنوعا من الخيوط المذهبة ، ومثبتا فوق الكوفية ، حيث يبقى شكله مربعا ، كما كان الحال بالنسبة لمشايخ العرب ٠ وكان وجهه قمحيا ، يميل الى السمرة ، ليس فيه شيء من الغموض أو اللؤم ٠ وكان من الواضح أنه ليس حاكما مستبدا ، مما جعلني أتساءل أكثر من ذي قبل عن الداعي لتلك الفتنة التي قتل فيها محمد القطامي ٠

وبعد أن تبادلنا التحية ، رحب سموه بي في الكويت ، وطلب مني أن أكون ضيفه في قصره الواقع في المدينة ، والذي كان بيتا كبيرا مبنيا حول فناء ، بحذاء الجزء الشرقي من سور المدينة ٠ وقد شكرت له حفاوته وكرمه ٠



ولكنني أعتذرت عن عدم قبول الدعوة لأني أفضل ، اذا لم يكن لديه مانع ، أن أقيم مع بعض الاصدقاء ، على الاقل مؤقتا ، فقد كان لي هدف واحد من قدومي الى الكويت ، وهو أن أتعلم أكثر ما يمكنني عن المراكب ، وذلك لن يكون ممكنا وأنا حبيس أربعة جدران في قصر الشيخ • فأجاب سموه ، أنه يأمل أن أجعل من الكويت وطني الثاني ، وغادرنا بابتسامة لطيفة • وفي وقت لاحق من ذلك النهار ، تناولنا القهوة مع سموه في قصر السيف الواقع في وسط المدينة والذي كان جده العظيم ، مبارك أسد الجزيرة ، قد زين سقوف غرف النوم فيه برسوم الممثلات والملكات • ولم يكن هذا القصر مستعملا هذه الايام الا لعقد المجلس اليومي ، الذي يمكن لكل مواطن أن يحضره • ولم يعد أحد مضطرا لاستخدام غرف النوم ، وسهر الليالي أرقا ، وهو يتحسر على أولئك الممثلات والملكات المرسومات على السقوف • وفي احدى غرف هذا القصر الغريب ، لاحظت وجود صورة شمسية للورد كيتشنر على صهوة حصان ، وكانت الصورة موقعة بخط يد صاحبها نفسه •

وقد ذهبنا أيضا وقدمنا واجب التحية للشيخ علي خليفة ، اليد اليمنى لشيخ الكويت ، ووجدناه يدخن ، وهو يجلس في ظل شرفة من شرفات مكان يشبه الحصن ، ويطل على الساحة الواسعة الواقعة في الجهة الجنوبية من المدينة ، غير بعيدة عن البوابات الرئيسية • وكانت الساحة خالية من الناس تقريبا عندما وصلنا مقر الشيخ ، لأن النهار كان قد قارب الانتصاف، وكان دبيب الحياة في المدينة يخف كلما اشتدت حرارة الشمس • وفي مكان فسيح على مقربة من الطريق المؤدي الى البوابات ، كان قطيع من الجمال تبرك وأرجلها مربوطة على طريقة أهل البادية ، بينما كان أصحابها من البدو يتسوقون أو يتناقلون الاخبار في المدينة ، بعد أن تركوا أسلحتهم في عهدة الحرس القائمين على البوابة ، وعيونهم تكاد تبرز من محاجرها دهشة لما كانوا يرونه من عجائب السوق • وكان هذا السوق مشهورا ومعروفا لدى جميع البدو ، الذين يقطنون شمال الجزيرة العربية حتى حدود سوريا وشرقي الاردن(١) • وقد رأيت ، من مجلسي ، بدويا يسوق قطيعا من الغنم الاسود ، وهو يمشي وراءه مرتديا ملابس الرسل ، ولكنه يحمل في يده مظلة يابانية رخيصة لتقيه من حرارة الشمس ، كما كانت الجمال تتهادى بعظمة ووقار وهي تتجه الى الساحة الكبيرة ، كما كان بعض النسوة الايرانيات يخرجن من بيت أحد التجار ، وهن محجبات

شيخ الكويت مع المعتمد البريطاني

---

(١) كان هذا هو الاسم القديم ، أيام الانتداب البريطاني لفلسطين ، للمملكة الاردنية الهاشمية (المترجم) •

بحجاب أسود ، الا أن أدنى سراويلهن الطويلة المطرزة ، كانت تظهر من تحت الغطاء ، وكن ، على ما يبدو ، خارجات للتسوق رغم تأخر الوقت بالنسبة لمثل هذه المهمة ٠

كان الشيخ علي خليفة رجلا وسيما ملتحيا في أوائل الخمسينات من العمر ، يحيط به عدد من الجنود البدو بنظراتهم القاسية ، وبنادقهم الحديثة العملية ٠ وقد وقف لنا عندما دخلنا ، وقدمت لنا القهوة والشراب٠ لقد أعجبني الشيخ علي خليفة ، فعلاوة على شهرته الواسعة كمسئول قدير عن الأمن ـ فانه كان يتحلى بروح النكتة ٠ وكانت احدى كلماته لي اني ما دمت قد اخترت أن أقدم الى الكويت على ظهر مركب عربي ، فعلي ، عندما يحين الوقت ، أن أغادر البلاد على ظهر بعير ٠ ولكني أجبت بأني سأكون سعيدا جدا لو سافرت على ظهر مركب مرة أخرى ٠

ولم ينته ذلك النهار حتى كنا قد سلمنا على عدد من الشيوخ ، وكان من بينهم الشيخ عبد الله بن جابر ، الذي كان رئيسا للمحكمة المختصة بمشاكل اللؤلؤ ٠ وقد وجدناه يأمر أحد البدو الفقراء ، بالذهاب مع النوخذة الى البحر ٠ كما كان من بينهم الشيخ عبد الله بن سالم ، الذي كان رئيس مجلس المدينة ، والشيخ فهد ، ابن اخي الشيخ علي خليفة ، وكان هذا قد درس في الجامعة الامريكية في بيروت ، وكان يتكلم كثيرا ٠ ثم الشيخ صباح الذي كان أميرا لأسطول الغوص على اللؤلؤ ، وقد وجدناه في أحد المقاهي الخاصة بالغواصين مقابل مسجد السوق الكبير ٠ كما قدمنا تحياتنا لعدد من أبناء الشيخ الكبير ، وأقاربه ، ممن كانوا مسئولين عن الشرطة ، أو مخازن السلاح ، أو الادارة الحكومية ، أو خلافها ٠ وقد وجدنا الشيخ عبد الله بن سالم يعقد مجلسه فوق السجون المظلمة ، التي كان السجناء السياسيون يقضون بقية حياتهم فيه وهم مقيدون بالسلاسل بعد الفتنة الاخيرة ، بينما كان يحيط به عدد من وجهاء البلاد ، وهم يرتدون جلابيبهم الطويلة ٠ وكان هذا رجلا ضخما ، ذا وجه متورد ، وعينين عميقتين ، تدلان على التفكير العميق ٠ وكان معظم الشيوخ ، فيما عدا صباحا ، أميرال اسطول الغوص ، يرون من الحكمة أن يكون لديهم حرس من العبيد والبدو لحمايتهم ، مع أني لم استطع أن أحكم ما اذا كان ذلك ضروريا ، أو أنه يستخدم من أجل المظهر فقط ٠ أما شيخ الكويت نفسه ، الشيخ أحمد الجابر ، كما كان رعيته يدعونه ، فلم يكن ينتقل خطوة واحدة دون عدد كبير من الحرس الذين كان بعضهم مزودا بالمدافع الرشاشة ٠

ومن قصور وحصون الشيوخ ، عدنا الى الواجهة البحرية ، الى حيث يقع بيت نجدي الذي كان سوره يواجه البحر ، ونوافذ الجزء المخصص للحريم ،

مشبكة لحمايتها من عيون الفضوليين • وكان بيت نجدي كبيرا ، لا يبعد كثيرا عن دار المعتمد البريطاني ، على مقربة من الاحواض التي كانت ترسو فيها مراكب الغوص الصغيرة • وكان يتألف من طابقين ، مبنيين من الحجارة المرجانية والطوب المصنوع من الطين المجفف بالشمس ، شأنه في ذلك شأن معظم بيوت المدينة الثمانمائة ، التي يسكنها حوالى سبعين ألفا من الناس(١) • وكانت الجدران غير منتظمة ، والبيوت غير مرفوعة عن الارض ، ومع ذلك فقد كانت تتمتع بشيء من الجمال ، وخاصة تلك الاشكال المتقنة الصنع ،المحفورة على الابواب الخشبية • وكانت تمتد من أسطح المنازل الى أسفل أعداد كبيرة من الميازيب التي كانت تشاهد على جوانب الطرق جميعها • وقد عجبت لماذا كل هذه الترتيبات لهدر ماء المطر في بلد ماؤه شحيح الى هذا الحد • ولكن نجدي أخبرني بأن زخات من المطر تسقط أحيانا في فصل الشتاء ، وان الأسطح الترابية المسطحة ، والجدران المصنوعة من الحجارة والطوب لم تكن قادرة على مقاومة المطر الغزير • ولهذا كانت البيوت مجهزة بتلك الميازيب ، التي كانت مصنوعة من جذوع شجر النخيل المجوفة ، للتخلص من ماء المطر • وقص علي كيف أن ألفين من بيوت الكويت قد تهدمت بالفعل من أثر المطر الغزير ، الذي سقط قبل عام أو عامين ، والذي لم يكن عاديا ، ولا كانت نتائجه عادية • فقد تساقط المطر خفيفا في أول الأمر مدة يومين أو ثلاثة ، مما جعل المواد التي بنيت منها البيوت تبدأ بالتحلل والارتخاء • وتلا ذلك مطر غزير مفاجيء قضى على بعض البيوت الضعيفة ، بعد أن اهترأ أو تحلل معظم الطين الذى صنعت منه • وتابع نجدي روايته قائلا أن صوت تهدم البيوت كان يشبه الاصوات الصادرة عن معركة كبيرة ، وان عددا من الضحايا قد سقط ، كما شرد الآلاف من الناس عدة شهور • ورغم هذه الحادثة لم الاحظ ان أي تحسن قد طرأ على طريقة بناء البيوت • فكانت ، عندما شاهدتها ، لا تزال بدون أسس ، ولا تزال جدرانها مبنية من الصخور المرجانية ، وان كنت أرى هنا وهناك بعض البيوت الجديدة المقواة بالاسمنت الياباني ، وكان بعض هذه البيوت يبدو أفضل وأقوى من غيرها • وقد علمت من نجدي ان استخدام الاسمنت أخذ يتزايد ، الا أنه كان يشك في فعاليته ، ذلك لأن البنائين المحليين كانوا يضيفون له من الرمل أكثر مما ينبغي •

وفي الشارع القريب من منزل نجدي ، مررنا بصبي عار ، حديث الختان ، وهو يستند الى أحد الجدران ، يجهش بالبكاء ، ولم يكن عمره

---

(١) لقد حصلت على هذه الارقام من مجلس المدينة • وكانت بيوت المدينة في ذلك الوقت قد احصيت ورقمت الا ان الاحصائيات الاساسية لم تكن متوافرة (المؤلف) •

يزيد عن ستة أعوام • وقد أخبرني نجدي بأن « مطهر » الأولاد كان قد مر
من هناك في صباح ذلك اليوم • وبعد قليل مررنا بصبيين آخرين يبكيان ،
ولكن نجدي أشار الى انهما سيتغلبان على الألم بعد فترة قصيرة ، وصاح
بهما أن يكفا عن ذلك التصرف الصبياني ، ولكنهما لم يلتفتا اليه واستمرا
في بكائهما • ثم مر بنا أحد التجار وهو يقود صبيا ، حديث الختان أيضا ،
وقد رفع جلبابه الى وسطه ، وجسمه مطلي من أسفل بنوع من المرهـم
الاسود ، وكان يسير كأن به عرجا ، ولكنه لم يكن يبكي ، وقد علق نجدي
على ذلك قائلا « هذا رجل حقا » •

دخلنا الى بيت نجدي ، حيث كان عدد من أقاربه ، ومن النواخـذة
الآخرين ، والتجار ، والمتعاملين باللؤلؤ ، قد تجمعوا لتناول وجبة الغداء •
وتناولنا طعامنا بصمت ، في ظل الشرفة الواقعة أمـام غرفـة الجلـوس
الرئيسية ، والمواجهة للفناء • وكانت الشرفة تستند على عمدان محفـورة
من الخشب الهندي • أما السقف فكان يتألف من عمدان المانجروف الافريقية
المصفوفة قريبة بعضها من البعض الآخر ، تعلوها شبكة من الخيـزران ،
مغطاة بالحصير المصنوع من سعف النخيل العراقي ، وفوق هذا كله طبقة
من الأتربة والطين • وكانت أرض الشرفة مغطاة بسـجادتين عجميتيـن
كبيرتين ، وقد مد عليهما سماط كبير من القماش الابيض ، وضع عليـه
الطعام • وكان هذا يتكون من خروفين محمرين محشوين ببعض الفواكـه
المجففة والاعشاب والبيض المسلوق ، بالاضافة الى عدد من الدجاج المشوي
جيدا بحيث يمكن تقطيعه اربا بلمسة خفيفة من اليد ، وأطباق كبيرة من
سمك « الزبيدي » المفلطح الشهي ، الذي اشتهر به جون الكويت ، ومـن
أنواع أخرى من السمك ، وتلال فوق تلال من الأرز المسلوق ، المخلـوط
بالزبيب وبمواد أخرى لم أستطع تمييزها ، وبكميات كبيرة من السـمن ،
علاوة على أطباق هائلة الحجم من البطيخ ، المجلوب من مزارع شط العرب
في العراق • وكان نظام السفرة متقنا ، وسرعان ما غسلنا أيدينا ، وأخذنا
نتناول الطعام بهدوء وصمت • ولم يبدأ أى من الحاضرين ، وكان عددهم
يفوق الاربعين ، بالكلام الا بعد أن انتهوا جميعا من الاكل • وكان والـد
نجدي بين الحاضرين ، وكان يأكل بشهية جيدة ، رغم أنه جاوز السبعين من
العمر • وكان هذا رجلا صغير الجسم ، ذا كرش هائل ، وعينين قويتيـن
نفاذتين • وكان لون بشرته أكثر بياضا من معظم الحاضرين ، مع أن كثيرا
من هؤلاء ، لو ارتدوا الملابس الاوربية ، لظن الناظر اليهم أنهم أسبان أو
برتغاليون • وكانت عيون بعضهم زرقاء اللون ، بينمـا كـان غيرهـم لا
يختلفون عن الزنوج في شيء ، الا أنهم كانوا عربا ، ينحدرون من آبـاء
من التجار وكبار النواخذة العرب ، وأمهات من الجواري الزنجيات •

وعلى الرغم من أني كنت غريبا بالنسبة لمعظم هؤلاء الناس ، الا أن ما كانوا يتحلون به من حسن الأدب الطبيعي كان يمنعهم من ابداء حب الاستطلاع عمن أكون وما شأني بالكويت . لقد أحببت هذه الولائم التي كانت تقام على البر . فقد كانت تمتاز بشيء واحد على الاقل عن الوجبات التي كنا نتناولها على ظهر المركب ، هو الاتساع في الاماكن المتوافرة حول الطعام . كما كان الطعام ممتازا ، وفكرة وضع الطعام على السماط دفعة واحدة والجلوس أمامه فكرة حسنة ، علاوة على الصمت ، الذي كان من الادب أن يحافظ الجميع عليه أثناء تناول الطعام ، لأن الكلام ، كما قال نجدي ، يزعج أعصاب المعدة . وهكذا كنا نأكل كأننا لن نشبع أبدا ! لقد كان لحم الضأن ممتازا بوجه خاص ، وكذلك كان الدجاج . وكان كل من الحاضرين يفتح شهيته بدجاجة أو اثنتين ، ثم يثني بكمية كبيرة من الأرز يتناولها باليد ، ويختم ذلك بكمية تتراوح بين ثلاثة وسبعة أرطال (أنجليزية) من لحم الضأن ، مع شيء من السمك . وكنت أجلس بين والد نجدي وأحد التجار ، وكان هذا يعمل يديه بطبق الأرز ولحم الضأن كأنه معول بخاري . ومن آن لآخر ، كان واحد من جاري ينتزع بضعة أرطال من اللحم الحار جدا ، أو يفلق دجاجة الى نصفين ، ويلقي بها أمامي . ورغم أني كنت قد أصبحت خبيرا بطريقة الاكل ، بعد تلك المدة الطويلة على المركب ، الا أني لم أكن استطيع مجاراة جيراني في سرعة الاكل . وفي مثل هذه المناسبات ، لم يكن من اللائق أن يأكل المرء بتأنق وتكلف ، بل أن آداب المائدة كانت تقضي بأن يستمتع الانسان بكمية كبيرة من الطعام — حتى لو وصلت الى نصف خروف ، وخمس دجاجات أو ست — . والواقع أني كنت جائعا في ذلك اليوم ، فقد كنت عائدا لتوي من البحر ، الا أن الريح الجنوبية كانت تهب محملة بالرطوبة والحرارة ، مما لم يكن يشجع على الأكل . كما أنى ، برغم كل شيء لم أتعود على أكل الأرز .

ومع أنى أكلت كمية من الطعام تكفى لبحار مؤونة شهر ، حتى على مركب من تلك المراكب التى تدور حول رأس الرجاء الصالح ، الا أنهم أخذوا يعيبون على شهيتى الضعيفة ، عندما انتهينا جميعا من تناول الطعام ، وقمنا نغسل أيدينا ، ثم نتجشأ ، ونشرب القهوة المطيبة بالقرنفل ، ثم نعود متثاقلين الى مجلسنا على السجادة ، فى ظل الشرفة .

وبينما كنت جالسا هناك ، أنظر الى بعض المجاذيف الطويلة المكومة فى جانب من الفناء والى صوارى البوم فى الخارج ، بدأ والد نجدى يستفسر عن أخبارى وأحوالى ، بعد أن امتلأت بطوننا بالطعام ، وحل الوقت المناسب للكلام . فسألنى عن عدد أبنائى ، وعن مكان زوجاتى ، وما اذا كان ابنه

نجدى قد أحسن معاملتى ، وماذا حدث فى زنجبار ، الى غير ذلك من الاسئلة • وقد همس معيوف البدر فى أذنى قائلا أن السيد سليمان ، الذى كان قد ودع نجدى بالعناق الحار ، قد كتب الى أبيه يروى له سلوك أبنه المعيب فى تلك الجزيرة الافريقية • وقد أجبت على الاسئلة قائلا انى لا أعرف شيئا عن زنجبار ، وانى للأسف ليس لى أبناء ، ولا حريم ! وقد بدا الاستغراب على وجه الجميع ، وأخذوا يرددون بدهشة : « ماذا ، ليس لديك حريم ؟ » وكنت أجيب بقولى : « لا لست متزوجا ، لأنى أفضل المراكب على النساء ! » وكانت صيحات الاستهجان أعلى من قبل : « ماذا ؟ تفضل المراكب على النساء ؟ » ثم انفجر الجميع بالضحك ، كأن ما قلته نكتة كبيرة ، وبدأوا يعلقون على كلامى بعبارات مختلفة ، كقول والد نجدى ان المراكب لا تنجب الابناء • ولكنى أفهمتهم أنى لم أكن بحاجة الى الابناء فى أوروبا كما أعرفها • وقد وافقنى الرجل العجوز على ذلك • ولكنه تساءل لماذا لا أمكث معهم فى الكويت ، فان فيها عددا كبيرا من الفتيات اللطيفات ، ومن الممكن ، بل من السهل ، أن أستقر فيها •

وقد راق هذا الاقتراح للتجار والبحارة المجتمعين هناك ، ولاقى منهم قبولا حسنا ، كما خيل الى أن هناك ما يزكى هذا الاقتراح • والواقع أن أولئك النواخذة الكويتيين يمكن أن يحسدوا من عدة نواح على الحياة التى كانوا يحيونها • فقد أحببت بيوتهم الممتدة على الطريق المحاذى للشاطىء ، ومنظر المراكب التى لا تنقطع عن الحركة والنشاط أمام تلك البيوت • وأحببت تلك المراكب السريعة الجميلة ، التى كانوا يبحرون على متونها الى زنجبار ، والى ساحل ملابار ، والى الصومال واليمن • وأحببت كرم ضيافتهم التى لا حدود لها ، كما أحببت بعدهم عن النفاق والرياء • وأخذت فى تلك اللحظة أتصور ما يمكن أن أؤديه من الاعمال المفيدة على تلك الواجهة البحرية ، كأن أتعرف على المزيد من تاريخ الملاحة عند العرب ، وأن أبذل ما أستطيع من جهد لتحسين نوعية المراكب بتطوير أعمال بنائها ، ولزيادة الاهتمام بالممرات المائية وبطريقة حماية المراسى من البحر ، ولتحسين طريقة تثبيت الصوراى فى المراكب ، وخياطة الاشرعة ، وربما لانشاء مدرسة بحرية أيضا • وكان الطلب على انشاء مثل هذه المدرسة كبيرا ، فلم يكن جيل النواخذة الكبار السن راضيا عن ضياع علم الملاحة الصحيح من أذهان الجيل الجديد ، فلم يكن بين هؤلاء عدد كبير ممن يعرفون طريقهم فى البحر على الوجه السليم ، بل كانوا قانعين بالابحار بمحاذاة السواحل • وهنا قطع على والد نجدى حبل تفكيرى بأن قدم عرضا هائلا ، بأن يبحث لى عن عدد من الفتيات الجميلات ذوات العيون السوداء الرائعة ليقمن على خدمتى ، ويجعلن مقامى فى هذا المكان البحرى جنة من جنان الفردوس •

ولكن ذلك كله لم يكن الا أضغاث أحلام . لقد كانت الفكرة رائعة ولكننا لا نستطيع في هذه الايام أن نتخلص بسهولة من أنفسنا ، أو من تلك الفوضى التي تسببنا فيها .

أما وقد امتلأت بطوننا ، فقد أخلدنا الى النوم ، يخفف وطء الحر عنا تلك النسمات الباردة ،التي كانت تولدها المراوح التي كان العبيد يهزونها ، ونحن مستلقون في ظل الشرفة . هذه هي الحياة التي كانوا يتمتعون بها . وقد سألني نجدي ما اذا كان بامكان أمريكا أو انجلترا أن تقدم أفضل من هذه الحياة ، ولم يكن الجواب سهلا . وما دام الامر كذلك ، فلماذا أفكر في مغادرة البلاد ؟ وكان جوابي أني لم أمض في الكويت الا يوما واحدا ، وأني سأفكر في الأمر فيما بعد .

وعندما استيقظنا من النوم ، شربنا الشاي ، وتناولنا شيئا من الكعك الذي أتوا به من مخبز ايراني مجاور ، ثم بدأ الضيوف يغادروننا لأداء الصلاة ، بينما أداها أهل البيت على الشرفة . وكان الوقت عصرا ، وبدأنا نسمع أصوات الاعمال المختلفة ، التي كان البحارة يقومون بها وهم يغنون ويرقصون ، بعد أن استأنفوا العمل عقب القيلولة ، وهي تتردد في جنبات الشاطىء ، فخرجنا نسير الهوينا ، مرورا بمراكب الغوص الواقفة على الشاطىء ، والتي لم يسافر بعضها منذ سنين ، ونحن متجهون نحو القصر المهجور الذي كان يملكه شيخ « المحمرة » ، ونحو السور القائم على الطرف الشرقي من المدينة . وكان قصر شيخ المحمرة هذا من المعالم البارزة ما بين دار المعتمد البريطاني وقصر السيف ، وقريبا منه كان ملحق الحريم . ويتألف هذا من عدد من المباني الكبيرة ، التي تقوم وحدها على قطعة فسيحة من الارض ، والتي تبدو كأنها تنطق بالحزن والأسى على نفسها وهي تنتظر طيلة سنوات طوال ، عودة صاحبها اليها . وفي أقدم تلك البنايات ، لا تزال تعيش احدى أرامل الشيخ ، وأصغرهن سنا ، وهي أرملة عروس كان قد تزوج بها أثناء رحلته الاخيرة الى الكويت ، ولكنه لم يدخل بها ، لأنه مرض وانتقل الى جوار ربه بعد الزواج منها مباشرة . وها هي تعيش الآن ، تلك الأرملة العذراء ، التي لم تعد صغيرة السن . ولم تتح لي الفرصة ، طبعا ، أن أرى تلك الفتاة ، بل أني لم ألحظ أي أثر للحياة في أي من تلك البيوت . الا أن صندوق زفاف تلك الفتاة، وهو صندوق عربي كبير مصنوع من خشب الساج، ومطعم بأشكال جميلة من النحاس الاصفر المطروق ، ما زال موجودا في قاعة الاستقبال في دار المعتمد البريطاني بالكويت . وقد أكد لي المعتمد نفسه أن الارملة ما زالت تسكن القصر .

وكانت هناك على طول الواجهة البحرية مجموعة من مصائد الأسماك

(الحضرات) ، كما كان عدد من جنود الشيخ من البدو يصيدون الطيور ٠ كما مررنا ببيت كبير مهجور آيل للسقوط ، قال نجدى أنه يخص أحد التجار، وان هذا يملك أكياسا مملوءة باللؤلؤ ، التى لم يكن لها سوق رائجة فى الوقت الحاضر ٠ وكان التاجر قد اشترى اللؤلؤ قبل الكساد الأخير ، الا أنه لم يستطع أن يبيعه بسعر معقول ، وهو ما ازل متمسكا بتلك الجواهر بكل عزم واصرار ومكابرة ، مع أنه بهذا خسر بيته، ومراكبه وتجارته، وكل ما يملك، فيما عدا اللآلىء ، التى لم تكن تساوى الآن عشر معشار ما دفع ثمنا لها ٠ فلم يكن المسكين يستطيع أن يقنع نفسه بأن عليه أن يتخلص من تلك اللآلىء بأى ثمن وهكذا فقد فقد كل شىء ، ولكنه ظل متمسكا باللآلىء ٠

وهناك فى الميناء ، كان بومان كبيران قادمين بخفة ورشاقة كالأوز الجميل ، وأشرعتهما الجميلة البيضاء تخفق فى الريح ، بعد أن كانا قد تخلصا من حمولتهما من الاخشاب ٠ وكان بحارتهما يدخلون المرسى وهم يقرعون الطبول ويهزجون ، فتتجاوب أصواتهم فى أرجاء الميناء ٠ فأخذ نجدى ينظر اليهما بشىء من الحسد ، قائلا : « هكذا كان يجب أن ندخل المدينة ، لا تحت جنح الظلام ، كما كتب لنا أن نفعل » ٠ لقد كان نجدى لا يزال يشعر بغصة من هذا الأمر ٠

عدنا أدراجنا عن طريق الأزقة الخلفية الملتوية ، التى تتفرع من « الكورنيش » ، والتى تمر من بين بيوت لا نوافذ لها ، ولا يرى منها سوى جدرانها المبنية من الطين ، وسوى تلك الميازيب المنحدرة من الأسطح ٠ وهنا وهناك كنا نمر ببعض البحارة أو النواخذة وهم جلوس فى الظل ٠ وفى احدى المرات ، انضممنا الى مجموعة منهم يتناقشون في رحلة عودة سيئة من ساحل ملابار ، وكان أحد النواخذة الملتحين يرسم الطريق التي سلكها على الرمل بعصا من عصى زنجبار ٠ فكان يرسم الهند هنا، ثم الجزيرة العربية هنا، وهنا الخليج العربى ٠ ثم بدا يشرح كيف غادر ميناء كاليكوت بصحبة مركبين آخرين ، قاصدا مسقط لتسليم كمية من البضائع ٠ وأخذ يروى أن الريح الشمالية الشرقية كانت تهب هادئة جدا على بحر العرب ، باتجاه الجنوب الغربى ٠ وقد ذكر أن الريح لم تتح لهم الفرصة المناسبة للابحار الجيد قط ٠ فكانت المراكب الثلاثة تنجرف ببطء شديد ، عبر المحيط الهندي باتجاه سومطرة ، ولم يكن ذلك يفيدهم في شيء ٠ وقد حاولوا ان يعودوا الى الهند ولكن التيار كان معاكسا لهم ، فلم يمكنهم من ذلك ٠ وتدريجيا ، توقفوا توقفا كليا تقريبا ٠ ومرت الايام ثم الأسابيع ، ولم يطرأ أي تغير على الطقس ، ولم يكونوا يعرفون أين هم ، فلم يكن بين البحارة جميعا الا اثنان يعرفان استعمال آلة قياس الأبعاد على الوجه السليم ٠ وقد اغتنم

هؤلاء فرصة طقس صاف وحددا المكان الذي كانوا فيه . وكان هذان على المركب نفسه ، الا أن المراكب الثلاثة كانت تبحر معا ، وقد ظلت كذلك . ثم مضى شهران كاملان ، ونفذ الماء من أحد المراكب ، فأعطاه المركبان الآخران شيئا منه . ومضى سبعون يوما ، فنفذ الماء من اثنين من المراكب ، كما كان الماء في المركب الثالث على وشك النفاذ أيضا . وما زالت الظروف الجوية على حالها ، ولم يسقط المطر ليستفيدوا منه كماء للشرب . كما كانت المراكب واقفة بعيدا عن طريق السفن البخارية . وفي اليوم الخامس والسبعين ، نفذ الماء من جميع المراكب . فاغتنموا فرصة الهدوء ، وتجمعوا جميعا على ظهر مركب واحد ، وأدوا صلاة الاستسقاء . وما كادوا يفعلون ذلك حتى هبت عليهم عاصفة قوية ، جلبت معها المطر الغزير ، الذي كان شريان الحياة بالنسبة لهم ، كما ساعد هبوب الريح للمرة الاولى على الابحار ثانية . وختم النوخذة كلامه قائلا : « نعم ، الله كريم » ! .

وقد وافقت أن تلك كانت ضربة حظ موفقة بلا شك ، ولكنني تساءلت كيف يمكن أن تطول المدة الى هذا الحد لقطع مسافة قصيرة كهذه المسافة . فأجاب نجدي بأن الريح تكون عادة ضعيفة جدا في منتصف فصل الصيف ، وأن المسافة ما بين ساحل ملابار ومسقط طويلة . فاذا صدف أن ابتعد المركب عن مساره ، فليس من السهل أن يعود اليه ثانية . كما أن المركب يحمل من الماء ما يكفيه سبعين يوما ، فلم يكن من المحتمل أبدا أن تطول تلك الرحلة أكثر من ذلك . وأضاف نجدي قائلا أنه كان شخصيا يضطر الى التزود بالماء من سوقطرة ، عندما كان يقوم برحلاته الى الهند . وكانت هذه طريقة المراكب الاخرى . وعلى كل حال ، فان كل شيء مرهون بمشيئة الله ، والله كريم دائما ! وقد علقت على كلام نجدي قائلا ان هذه فلسفة مريحة بلا شك ، الا أن معرفة أفضل بأصول الملاحة لها ميزتها الكبيرة أيضا . وقد وافقني نجدي على ذلك ، ولكنه قال أنه ما باليد حيلة . فلم تكن هناك مدرسة بحرية فى الكويت ، ولا في أي بلد آخر في الجزيرة العربية بأسرها . كما أن أية معلومات ملاحية لن يكون لها أي تأثير على الريح . ولذلك فان كل شيء مرهون بارادة الله ، التي يجب أن ينحني لها الجميع .

اذاً ، لا بد أن ارادة الله أيضا كانت وراء فقدان المركب الكبير « نور البحار » ، الذي سمعت عنه روايات متناقضة فى ذلك اليوم . فلم يكن هناك اجماع حتى على اسم المركب ، مع أني تحادثت مع قبطانه ومع عدد من البحارة الذين كانوا على ظهره . فكان البعض يدعونه « نور البحر » ، والبعض الآخر « نور البحر والبر » وغيرهم « روح المحيطات » ،

الى غير ذلك من الاسماء ٠ وكان هذا مركبا مشهورا ، تبلغ حمولته حوالى (٥٠٠) طن ، قام الكويتيون ببنائه على شاطىء ملابار منذ حوالى ٢٠ عاما ـ وان كان بعض الغموض يكتنف هذا أيضا ـ ولكنه فقد في رحلته الاولى٠ وكان قد بني على ساحل ملابار ، لتوفير نفقات شحن الخشب اللازم لبنائه من الهند الى الكويت ، وبدلا من ذلك ، ذهب صانعو المركب الى حيث يوجد الخشب ٠ ولكن هذه الفكرة لم تكن موفقة ، كما كان يتوقع لها ان تكون ، ذلك لأن مستوى العمال المحليين كان منخفضا ، مما جعل بناءه يستغرق ستة أشهر كاملة ، ويكلف (١٢٠) ألف روبية ٠ وكان المركب يبنى لحساب التاجر البحريني عبد الرحمن الزياني ، وكان قبطانه كويتيا ٠ أما المشرفان على بنائه فقد كانا صانعي المراكب المشهورين سالم بن راشد ومحمد الثويني ٠ وكان طاقم البحارة خلال الرحلة الوحيدة يتألف من سبعة وثلاثين كويتيا ، وأربعين رجلا من كاليكوت ، لهم خبرة طويلة بالطرق البحرية ، وثلاثة من الصبيان ٠ وكان بامكان ذلك البوم أن يحمل (٧٥٠٠) جلة من تمور البصرة ، كما كانت حباله تتألف من تسعة عشر حبلا من الأليــاف المجدولة ، وبموجب كلام « الخياط » سعود ، الذي كان يبحر على ظهـر المركب ، فقد كان بامكان البحار ان يتسلق تلك الحبال بسهولة كبيرة حتى يصل الى أعلى الصاري الرئيسي تماما ٠ وتقول الرواية أن المركب أخذ حمولته الكاملة من كاليكوت ، ونزل الى البحر على دوي الطبول ، وأهازيج البحارة ، والأعلام تزينه من جميع أنحائه ، وأبحر بأمان الله طيلة النهار ، الا أنه واجه عاصفة هوجاء مصحوبة بالمطر الغزير خلال الليل ، مما تسبب بغمره بالماء وغرقه ٠ ومما ساعد على ذلك تشبع الليف الذي كان يحملـه بالماء ، مما زاد في وزنه، فانفجر وغطست أجزاؤه للمرة الاخيرة ، وغمرتها المياه ٠ اما سعود ، الذي كان يروي القصة ، فقد اضطر للسباحة ليلة ويوما الى أن وصل الى الشاطىء ، وكانت بعض الندوب لا تزال على جسده من أثر الاخشاب المتناثرة من الانفجار ٠

وقد تمكنت من مقابلة نوخذة المركب في اليوم نفسه ٠ وكان ذلـك عندما كنت أتمشى مع نجدي في السوق ٠ وكان الرجل قد تقدمت به السن، وابيضت لحيته ، الا أنه كان لا يزال يقود المراكب في البحر ٠ لقد كان غرق البوم الكبير ، بحسب رأيه ، عملا الهيا ، فقد شاءتارادة اللـه أن يغرق ٠ ولكني لم أقتنع بهذا الكلام بالطبع ، وكنت موقنا بأن خطأ جسيما لا بد أن يكون قد وقع اثناء بناء المركب ، غير ارادة اللـه ، ممـا جعلـه لا يستطيع مقـاومة هبـة واحـدة مـن الريـح وزخـة واحـدة من المطر ، فقد كان الامر غريبا جدا ٠ وعندما سألته لماذا لم يغط الحمـولة بما يحميها من المطر ، أجاب بأنه لم يفعل ذلك لأنه لم يتوقع هطول المطر ،



السوق المسقوف فى الكويت

الا أن الله أرسله لحكمة لا يعلمها الا هو · لقد شاءتارادة الله بألا يكمل المركب الكبير رحلتـه الاولـى · ولكن الكويتيين تعلمـوا درسهم من تلك الحادثة ، فلم يعودوا يغامرون بالذهاب الى سـاحل ملابـار لبنـاء مراكبهم هناك ، بل دأبوا على صنعها فى الكويت منذ ذلك التاريخ ·

هكذا كنت أمضي وقتي في الكويت ، تلك المدينة المدهشة ، التي ظلت مصدر متعة لي مدة أربعة أشهر كاملة · وهذا لا يعني أني قضيت تلـك المدة كلها في المدينة ، فقد قمت خلال ذلك برحلة مع الغواصين على اللؤلؤ ، كما تجولت هنا وهناك وذهبت الى ساحل الاحساء ، والى العراق والى جزر الخليج · ولكن المدة كلها كانت ممتعة لدرجة كبيرة جدا ، فقد كنت أتعلم شيئا جديدا في كل يوم ، وفي كل مرة أتمشى فيها على طول الواجهـة البحرية · الا انى في النهاية اضطررت الى مغادرة البلاد وأنا واثق أني لم أتعلم الا القليل · وفي بداية الامر كنت أعيش مع اصدقائي من آل الحمد ، في منزلهم الريفي المسور القائم على شط الخليج ، في الدمنة (١) ، خارج مدينة الكويت · وهناك كنا نعيش عيشة العرب المترفين ، نتغدى سـمكا ونتعشى الخرفان المحشوة يوما بعد يوم · كما كنا نسبح في البحر صباحا ،

(١) السالمية ، حاليا · (المترجم) ·

قبل طلوع الشمس ومساء عند الغروب ، وننام ساعات القيلولة ، وفي بعض الاحيان كان يزورنا بعض النواخذة ، فنجلس نتحدث عن البحر وأسفاره ٠ وفي أحيان أخرى كان يأتينا تجار اللؤلؤ ، أو زوار قادمون من أماكن بعيدة جدا كسوريا ، وسنغافورة ، وحرار ، وزنجبار ، فقد كان آل الحمد من أكبر تجار الكويت ، فكانوا يملكون المراكب والمزارع ، كما كانوا من كبار رجال الاعمال الذين تمتد مراكز عملهم من الكويت الى البصرة الى عدن ، مع فروع على طول ساحل البحر الأحمر ٠ وكان هؤلاء خمسة أخوة ، ينحدرون من والدهم الجليل عبد اللطيف الحمد ، الذي كانت قد مضت على وفاته بضع سنوات، وهم خالد ، وأحمد ، ويوسف ، وعلي ، وعبد الله ٠ فكان خالد يدير أعمالهم في مركز عدن ، وأحمد يهتم بأمور منزلهم في البصرة ، بينما يدير يوسف أعمالهم في الكويت ٠ وكان علي يأخذ قسطا من الراحة والاستجمام في ذلك الوقت ، بينما كان عبد الله مسافرا الى الهند ٠ وكان هذا الاخير قد عاد مؤخرا من بربرة ليساعد في موسم التمور ، قبل أن يسافر الى كلكتا في الهند ، أو الى أي مكان آخر يبعث به أخوته اليه ٠ وكان عبد الله دائما جاهزا للسفر الى أي مكان من غير انذار سابق ، بل أنه كان يتمنى لو يرسله أخوته في رحلة الى أمريكا ٠

اسرة بدوية



وهكذا عشت في الدمنة ، مع الأخوة الثلاثة • وكنا ننام على قطعة ارض رملية تقع خارج أسوار البيت ، يحيط بها جدار منخفض من الاسمنت ، لابعاد الأفاعي عن النائمين ، وكانت تلك الارض قريبة من الشاطىء ، فكنا ننام على وشوشة الامواج الهادئة ، نفترش الارض ونلتحف السماء بنجومها المتلألئة ، ونصحو عند الفجر لنسبح في البحر • لقد كانت حياة هانئة لطيفة • وهنا كان الرجال يجتمعون قبل النوم ، وكان الحديث يدور عن البحر والمراكب ، والتجارة البحرية ، وكان كثير من النواخذة الذين يزورننا من أولئك الذين ينقلون بضائع آل الحمد ، وكانوا جميعا من أصدقاء الأسرة الحميمين • وكلما كانت مراكبهم تعود الى الكويت ، كانوا يعرجون على بيت آل الحمد في الدمنة • وكنت دائما أجد متعة كبيرة في الحديث الى هؤلاء النواخذة ، الا أن أكثرهم امتاعا كان ذلك النوخذة القوي الجسم معيوف البدر ، الذي كان ينحدر من أحد تجار أسرة البدر ، ومن أم حبشية • وكان هذا يقود مركب آل الحمد المسمى « فتح الرحمن » ، وكان عائدا لتوه من رحلة حمل فيها تمر البصرة الى جيزان وعاد بشحنة من الصابون اوصلها من عدن الى البصرة • لقد كان معيوف نوخذة مشهورا ، ورجلا وسيما يتمتع برجولة خارقة • وكان عادة يأتينا في الصباح الباكر بعد صلاة الصبح بقليل ، قادما من مدينة الكويت مشيا على الأقدام ، بعد أن يكون قد قضى على كل ما يجده من الزبد على المائدة بحيث لا يترك لأبنائه شيئا منه ، فقد كان يحب الزبد حبا عظيما ، ويأكله أينما وجده • وقد أحببت معيوفا هذا ، لأنه كان رجلا قويا مستقيما ، يعرف ما يريد ، ويأخذه اذا أمكنه ذلك • وعندما كان يسير ، كان يخب في نعليه ، وهو يضع عباءته فوق رأسه اتقاء لحرارة الشمس ، بينما شراريبها تتدلى على الجانبين • وكانت أحاديثه عن البحر مذهلة ، بل أنها ربما كانت صادقة في بعض الأحيان • فلم يكن من المألوف مثلا أن يتوغل المركب الكويتي الكبير في مياه البحر الاحمر حتى يصل الى جيزان ، بل كانت الحديدة هي الحد الأقصى لما ينبغي أن تصل اليه تلك المراكب ، التي كان معظمها لا يتجاوز عدن • الا أن معيوفا كان يفخر بأنه تمكن من قيادة مركبه في تلك المياه المملوءة بالشعاب المرجانية ، حتى وصل الى جيزان ، ولكنه لم يكن يفخر بأنه اضطر لتمضية خمسة وستين يوما في رحلة العودة من جيزان الى عدن ، دون أن يكون على ظهر المركب أية شحنة من أي نوع •

وكان مجموعة أصدقائي تتألف من معيوف ، وسعود ، وصانع الجلابيب ، وعبد الله ، أصغر أبناء الحمد ، ونجدي ، وعلي عبد اللطيف ، وكانت الأيام تمر بصحبتهم لطيفة ممتعة ونحن نتنقل ما بين الكويت والدمنة • ورغم حرارة الجو القاتلة ، الا أن الحياة كانت منظمة بطريقة

توافق ذلك الجو • فقد كانت الرياح الشمالية تأتي معها ، وهي تعبر جون الكويت ، بالتراب والرمل اللاسع ، بينما كان الهدوء والريح الجنوبية يأتيان بالرطوبة • ولكن الطقس كان دائما أفضل في الدمنة منه في الكويت نفسها ، ذلك لأن ريح البحر الباردة كانت تخفف من وطأة الحر ، ولم يكن « الطوز » شديدا فيها • ولما لم تكن من عادة العربي أن يبتعد عن لنعود الى ما كنا فعلناه في الصباح ، ونزور ونزار ، ونجلس في الحوانيت كل صباح ، فنصل الى هناك في الساعة السادسة والنصف ، ونمضي الصباح هناك نزور ونزار ، ونرشف القهوة ، ونتحدث ، ونزور مرة هذا التاجر ومرة ذاك ، ونذهب للتسليم على الشيوخ وكبار القوم ، ونجلس على السجاد خارج الحوانيت او داخلها ، نتفرج على الحياة النشطة جدا من حولنا • وهكذا كان الصباح بأكمله يمر ، الى أن تبلغ الساعة الحادية عشرة ، وعندها كنا نعود الى الدمنة لتناول طعام الغداء • وما أن نفعل ذلك حتى نقيل ، ثم نصحو ونستحم في البحر ، ونشرب الشاي ، ثم ننطلق الى الواجهة البحرية والسوق مرة أخرى ، عندما يبرد الجو قليلا عند العصر ، السوق يوما بأكمله ، ان تيسر له ذلك ، فقد كنا نذهب الى سوق الكويت نستمع الى حكايات لطيفة واسطوانات رديئة • وهكذا كان التجار يمضون أوقاتهم ، بينما كانت أعمالهم تزدهر ، ويكتسي النواخذة باللحم والشحم من الطعام الشهي الذي يتناولونه ، ويزدادون كسلا وتراخيا من كثرة تمتعهم بنسائهم • وقد عبر معيوف عن ذلك مرة بقوله « نحن لا نفعل شيئا سوى الصلاة والأكل والتمتع بالنساء »• وهذا أمر حسن بالطبع • ولكن العودة الى البحر حسنة أيضا •

هذه هي الحياة الناعمة التي كان يحياها التجار والنواخذة ، أما البحارة فلم يكن لهم نصيب منها • فبعد بضعة أيام ، لاحظت أن الوجوه المألوفة للبحارة الذين كانوا يعملون على ظهر « فتح الخير » قد اختفت من السوق ، بعد أن ذهب أصحابها في رحلة الغوص على اللؤلؤ • فمراكب الغوص تبدأ موسمها بعد عودة المراكب الكبيرة من تجارتها في الخارج ، وتنهي موسمها عندما يحين الوقت لاقلاع المراكب الكبيرة في رحلتها السنوية مرة أخرى • وفي معظم الحالات ، يعمل نفس البحارة على النوعين من المراكب ، ولذلك فان الحياة ، لا شك ، شاقة جدا بالنسبة لهم • الا أنهم كانوا ، عندما يعودون من رحلاتهم الطويلة ، يمضون بضعة أيام وهم يرتدون أفضل ملابسهم ويتبخترون في السوق ، يطوحون بعصيهم ، أو يعدون حبات مسابحهم ، أو يجلسون في المقاهي يدخنون النراجيل ، ويتزاورون ويقصون القصص والحكايات • ولم يكن لبعضهم بيت يأوي اليه ، ولكن هذا الامر لم يكن مشكلة عويصة ، لأن بامكان البحار أن ينام على رمل الشاطىء ، او على

جانب الشارع • وكان الشاطيء ، الممتد على طول الواجهة البحرية ، تتجاوب فيه اصداء شخيرهم وهم نائمون عليه ، وكل منهم متدثر بعباءته ، ومستلق تحت النجوم • ولم يكن البحار ، اذا كان عزبا شابا ، يلزمه الكثير ليتدبر أمره ، فلم يكن الطعام يكلفه أكثر من بضع آنات يوميا • أما اذا لم يكن معه شيء من المال البته ، فانه لن يموت جوعا ، فهناك دائما سماط ممدود يمكنه أن ينضم الى الجالسين حوله ، كما أن كساءه لم يكن يزيد عن جلباب وعباءة وكوفية وعقال • وهذا كل ما يملك عادة ، كما انه لم يكن يملك فراشا ينام عليه • أما صندوق أمتعته ، فهو مودع مع بقية معدات المركب حيث يقف ، بانتظار الاقلاع مرة أخرى ، فهو لا يحتاجه لرحلة الغوص • فلم يكن الصندوق يستخدم في الواقع لحفظ ملابسه ، بل كان يحفظ فيه بعض السلع التي كان يتاجر بها ، اثناء الرحلات الطويلة ، وذلك لأنه لم يكن لدى أفضل البحارة ما يملأ نصف هذا الصندوق ، ولو أمكنه ذلك لأقدم على بيع تلك الملابس • وكان الشباب غير المتزوجين ينامون على الشاطيء في ظل تلك المراكب التي كانوا يقومون على خدمتها بكل أمانة واخلاص ، وهم سعداء لا يحملون هما ، وأجسامهم سليمة قوية في أفضل حالاتها • أما عندما ينتهي موسم الغوص فقد كانت الامور تختلف ، فالغوص عمل شاق جدا •

ومرت الأيام والأسابيع على هذا المنوال • وفي خلال ذلك ، كان يوسف العجوز قد ذهب الى الغوص بدلا من أخيه المتوفى ، كما وصل عبد الله القطامي ، وأوقف بومه على الشاطيء مقابل بيته القائم على الواجهة البحرية • ووصل أيضا العبد الوهاب ، ورضوان على بغلته ، وغانم بن عثمان على بومه الكبير ، ويوسف بن عيسى ، وناصر على مركبه الصغير « القطة » ، ومحمود على ظهر مركبه « نجمة الصبح » ، وموسى ، وعيسى ، وحمود ، واسماعيل ، ومحمد ، وسعيد بن علي ــ لقد وصل هؤلاء جميعا ، وأصبح المكان ، الذي يجلسون فيه في الظل قبالة الواجهة البحرية ، يكتظ بالنواخذة ، كما كانت شوارع السوق تزدحم بهم ، ولكن لم تصل أية أخبار عن مركب بدر المسمى « بدري » •

ولكن ما أن انقضى على وصولنا شهر من الزمن ، حتى كان « بدري » قد ظهر في مسقط بعد رحلة طويلة من زنجبار ، ثم تابع سيره الى قطر لانزال بعض البضاعة • وكان شيء من المتاعب قد صادفه ، في تلك الليلة العاصفة التي أمضيناها قبالة ساحل « ماليندي » ، وفي الليلة الاخرى مقابل « كيسيمايو » • أما عبد الله ، شقيق نجدي ، فلم يكن قد عاد بعد ، الا أن بعض الأخبار وصلتنا عنه • فقد كان آتيا من موقاديشو على مركب

العمانيين ، وكان سفره بطيئا لأنه كان يضطر للتنقل من مركب الى آخر على طول الساحل الجنوبي للجزيرة العربية · وكان من المنتظر أن يصل الكويت خلال شهر · ولم يكن بحارة مركبنا قد تسلموا أجورهم · فلم تكن الأنصبة قد وزعت بعد ، الا أن « نجدي » كان يعطيهم ما يحتاجون اليه من المال · وواقع الامر أن كثيرا منهم سيكونون قد استنفذوا جميع ما يستحقون من المال ، عندما يحسب حساب الحصص ، لأن نظام السلف والديون كان يلتهم كل ما يجنون · فقد كان من الصعب ألا يكون البحار مدينا ، بل أني لاحظت أن أحدا منهم لم يكن يبالي أو يحاول ألا يكون كذلك · وكان من الواضح أن الدين كان أمرا مقبولا ، ولم تكن هناك غضاضة في أن يكون المرء مدينا للآخرين · فقد كان البحارة مدينين للنواخذة ، والنواخذة للتجار ، والتجار لتجار آخرين أو للشيخ نفسه · وعلى هذا فقد كان الجانب الاقتصادي من ميناء الكويت متاهة مظلمة ، لاضطرار الجميع الى العمل من غير نظام مصرفي ، أو تأمين ، أو ربا ، أو حتى فائدة ــ فقد كانت هذه كلها محظورة ، على الاقل نظريا ، في الشرع الاسلامي · وكان من الواضح أيضا أن النواخذة ، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكا للمراكب ، لم يكونوا الملاك الحقيقيين لها ، بل كان التجار أصحابها الفعليين ، وكان هؤلاء ، على ما يبدو ، يجدون من الأنسب لهم أن يمولوا النواخذة ، على أن يتحملوا بأنفسهم مسئولية ادارة المركب ، وكان لهذا أسباب كثيرة ممتازة ، فربما كانوا يدفعون لأصحاب المراكب لقاء تمويلهم لها ، أكثر مما يتوقع من المراكب أن تجنيه بطريقة قانونية · وبعبارة أخرى ، فان المال الذي كان يسلف للنواخذة للابحار في المراكب وادارتها لحسابهم ، كان يعود على أصحابه بعائد أكبر مما يمكن أن تربحه نفس الأموال ، فيما لو استثمرت في المركب بشكل مباشر ، ثم قام أصحابها بدفع أجور النواخذة للابحار بها · لقد كان التجار يجنون الربح الوفير من هذه الطريقة ، كما كان النواخذة يعيشون عيشة راضية ، الا أنه كان يبدو لي بأن هذا النظام يمكن التجار من امتلاك النواخذة أيضا ، علاوة على المراكب ، لأنه لم يكن هناك أمل في أن يتحلل النواخذة من الدين · ولكني لاحظت أن هؤلاء لم يكونوا يبذلون أي جهد للتخلص من ديونهم ، فقد كانوا يعيشون عيشة راضية ، وكانوا قانعين بذلك · أما اذا تمكن أحدهم من أن يفعل ذلك ، فربما أصبح هو نفسه تاجرا · ولكني لم أسمع بأن أحدا من التجار كان يعمل نوخذة من قبل ·

وكان النواخذة بدورهم يملكون رقاب البحارة ، الذين كانوا يعتبرون مرتبطين بالنوخذة الذي يدينون له بشيء من المال ، وكان معظمهم على هذا الحال · وهكذا كان النواخذة مرتبطين بالتجار ، والبحارة مرتبطين بالنواخذة ، وان لم يكن هؤلاء عبيدا ، بل لم يكن هناك رق بالكويت ، اذ لم

تكن الحاجة تدعو اليه ، فقد أصبح الرقيق غير مجد من الناحية الاقتصادية، فكان من الافضل أن يستفيد المرء من عمل الرجل ، بدلا من أن يكون مضطرا لاعالته ، فاذا كنت تستفيد من عمله ، فلا داعي لأن تتحمل مسئولية اعالته هو وأسرته (١) ٠

لقد كان من المفروض أن أرافق يوسف العجوز في رحلة الغوص ، كما كنت أعتزم ، الا أني لم أجد متسعا على ظهر المركب ، فقد ذهب على ظهر سمبوك صغير بعد وصولنا الى الكويت بحوالى أسبوعين ٠ ومع أن السمبوك لم يزد طوله عن ستة وأربعين قدما ، فقد كان على ظهره أكثر من ستين رجلا ، ولم أستطع أن أتصور كيف يمكن لهذا العدد من الناس أن يناموا على سطح المركب ، الا اذا كانوا ينامون طبقات بعضهم فوق بعض ، الا أنهم انطلقوا جميعا وهم يهزجون بقوة ونشاط ، بل أن يوسف نفسه كان يهزج بنفس القوة والحماس ، ويساعد في التجديف أيضا ٠ وكان الصباح الذي أقلعوا فيه حارا ، ساكنا ، لا تهب فيه نسمة واحدة ٠ وقد انطلق سبعة وخمسون مركبا في نفس الصباح ، وجميعها مزينة بالأعلام ، بينما بحارتها يغنون ويقرعون الطبول ، وكان يتقدم الجميع ويقودهم سمبوك جميل يقوده أمير البحر الشيخ صباح ، وكانت المراكب تبدو كأنها اسطول من السفن الحربية المنطلقة من ميناء صور اللبناني قبل ألفي سنة أو تزيد ، ومجاذيفها تلمع في ضوء الشمس الساطع ، بينما هياكلها ، المدهونة بالزيت حديثا ، تبرق وهي منسابة على ماء الخليج ٠ لقد كان المنظر رائعا مؤثرا ، ولكني كنت حزينا على يوسف المسكين ، الذي كان عليه أن يغيب مائة يوم ، كما أخبرني ، وذلك خلال المدة التي يكون فيها ماء البحر دافئا مناسبا للغوص ، وربما عاد قبل وقت قصير من اقلاع « فتح الخير » برحلته الجديدة ٠ لقد كان يبدو مهموما ، كما لم تكن قدماه قد شفيتا تماما ٠ وهناك في الشارع الممتد على طول الواجهة البحرية ، كان هيكل انسان صغير متشح بالسواد يلوح ليوسف ، وسمبوكه يبتعد رويدا رويدا ٠ وقد ظل ذلك الانسان هناك ينظر الى البحر مدة طويلة طويلة ، بينما المراكب تغادر الميناء وتختفي وراء الأفق البعيد ٠

---

(١) أنظر ، في هذا الموضوع ، الحاشية في الملحق رقم (٢) بادناه (المترجم) ٠

الفصل التاسع عشر

الغوص بحثاً عن اللؤلؤ في الخليج

الغوص بحثا عن اللؤلؤ فى الخليج

لم أيأس لأن الفرصة لم تتح لي للذهاب مع يوسف ، بل كنت عازما على أن أبلغ مصائد اللؤلؤ بطريقة أو باخرى . علاوة على أنه كان من الممكن أن يتعرف المرء على جزء من تجارة اللؤلؤ دون أن يغادر الكويت . ففي الأشهر الأربعة التى أمضيتها فى الكويت ، كانت مراكب الغوص الصغيرة تأتي من المصائد القريبة كل يوم ، وتعود محملة بزاد جديد من الماء والطعام . ولم تكن كثير من المراكب الصغيرة تبتعد عن جون الكويت أكثر من ثلاثين أو أربعين ميلا ، كما كانت قوافل طويلة من تلك المراكب تعود كل مساء وتلقي بمراسيها في مكان أمين ، كالشعيبة ، وغيرها ، من القرى على طول ساحل الكويت ، التي يربطها عدد من الباصات المنتظمة . ومن آن لآخر كان تجار اللؤلؤ يقصدون تلك المراسي ليقابلوا النواخذة على الشاطىء ، أو يحضروا فلق المحار عند الفجر ، ويطلعوا على مجرى الأمور . وكان هذا يساعدهم على تقدير حصيلة الموسم ، وتبعا لذلك ، على تقويم حالة السوق الجديدة . وكانت بعض المراكب الصغيرة ، وكثير منها عبارة عن قوارب لا يزيد طول الواحد منها عن ثلاثين قدما ، تفتتح الموسم في وقت مبكر بالنسبة للمراكب الأكبر حجما . كما كانت كثير من الأبوام الكبيرة ، عندما تعود من رحلاتها الطويلة ، تبعث بقواربها الطويلة ، بعد اعدادها الاعداد المناسب بشكل مؤقت ، لكي تجرب حظها في صيد اللؤلؤ ، وعلى ظهورها عدد من بحارة المركب الكبير ، يقودهم قائد للدفة كثيرا ما يكون الأخ الأصغر للنوخذة .

في عام ١٩٣٩ ، خرج من الكويت مائة وخمسون مركبا ، من جميع الأحجام والأنواع ، للغوص على اللؤلؤ . ولا بد أن العدد كان ينوف على الستمائة قبل أربعين عاما فقط . وكان الأسطول الذي خرج في ذلك الصيف الذي قضيته في الكويت ، أكبر أسطول يقوم بذلك منذ الكساد الأخير . وفي تلك الأثناء ، كان عدد من التجار ، الذين ضرب الكساد تجارتهم ، قد انسحبوا من هذه التجارة كلية ، وتركوا لغيرهم من التجار الجدد أن يجربوا حظهم فيها . وكانت منافسة اللؤلؤ الياباني المزروع قد خفت حدتها كثيرا . فقبل عدد من السنوات ، عندما كان اللؤلؤ الياباني نادرا نسبيا ، كان يستطيع المنافسة ، كما قيل لي ، بقوة أكبر مما هو عليه الحال في الوقت الحاضر ، عندما أصبح كثيرا جدا . فعندما نزل الى السوق أول مرة ، كان يباع بحوالي ثلث سعر اللؤلؤ الطبيعي . أما الآن ،

فانه لا يبلغ جزءا من ثلاثة عشر ، وأصبح ينافس اللؤلؤ المزروع من النوع الجيد ، بدلا من اللؤلؤ الطبيعي الأصلي · وربما كان هذا صحيحا · ولكن مجمل الأمر أن أسعار اللؤلؤ جميعه قد انخفضت ، سواء كان حقيقيا ، أم مزروعا ، أم مصنوعا في مختبر علمي · ذلك أن اللؤلؤ الصناعي الممتاز ، لا يستطيع حتى أكثر العرب خبرة تمييزه عن الأصلي ، وما كان بامكان تاجر واحد في الكويت ، على الرغم من خبرة عمر كامل في تجارة اللؤلؤ ، أن يميز بين لؤلؤة طبيعية ولؤلؤة صناعية ، دون أن يلجأ الى فحص شامل دقيق للغاية ، بل الى أنواع من التحقق ، التي كانت غالبا ما تتلف الحبة التي يجرى فحصها ، قبل أن يصل التاجر الى نتيجة موثوقة · وما دام هذا حال الخبراء ، فما بالك بالرجل العادي ! وكانت النتيجة المحتومة لذلك كله ، انخفاض ملموس في الطلب على اللؤلؤ الطبيعي ، لأن السيدة المحترمة تأنف من التحلي بجواهر ، يمكن أن تعتبر من النوع الرخيص · لقد هبطت قيمة اللؤلؤ بوجه عام ·

وما دام الرجال يشترون اللؤلؤ لكي يسعدوا بـه النساء ، وما دام هؤلاء لا يسعدن اذا أهدى لهن الرجال شيئا ، لا يمكن الحكم توا ، بأنه أصلي وغالي الثمن ، أو عكس ذلك ، فالنتيجة أن يقل الاقبال على اللؤلؤ ، وأن يصاب سوق اللؤلؤ بضربة مؤلمة ، وهذا ما جرى بالفعل · فلم يعد اللؤلؤ يعود على بائعه بعشر الثمن ، الذي كان يباع به في الكويت أو البحرين ، الى ما قبل خمسة عشر عاما فقط ·

وفي أحوال كهذه ، لم يعد اللؤلؤ يستحق الغوص عليه ، وصيده ، ولذلك فان شاطىء الكويت مملوء ، حتى هذا اليوم ، بهياكل مئات من مراكب الغوص ، ملقاة هناك ، ومهملة لمدة طويلة جدا ، بحيث أصبحت لا تصلح لشيء ، سوى وقودا للنار · هذا مع أن عددا كبيرا من المراكب الكبيرة ، ومعظم مراكب البوم والسمبوك ، قد انتقلت ملكيتها من أيدي الكويتيين الى أيدي أصحابها الجدد من الايرانيين ، أو سكان الباطنة ، أو الساحل المتصالح ، أو ساحل المهرة ، وأصبحت تستخدم لنقل الركاب والبضائع · لقد نقص عدد المراكب المسجلة في الكويت نقصا كبيرا في السنوات العشر الماضية ، الا أن عددا آخر ما زال مسجلا فيها · وهناك حوض ، لا يبعد كثيرا عن المستشفى الأمريكي ، تزدحم فيه المراكب بكثافة كبيرة جدا ، لا تعادلها الا كثافة المحار الفارغ الملقى على شاطىء الغوص ـ مراكب من جميع الانواع والاحجام : الجلبوت ، والسمبوك ، والبلم ، والشوعي ، جميعها تصطف هناك بأخشابها الجميلة الشكل ، تلقي ظلالا رائعة على الشاطىء تحت القمر ، وتضفي على الشاطىء جمالا أخاذا · الا

أن تلك الاخشاب غدت الآن ملتوية ومهترئة ، بحيث لا يستطيع أي من تلك المراكب أن يبحر في البحر من جديد ٠

لقد كانت الكويت منذ مدة طويلة ، ولم تزل ، ميناء هاما جدا للغوص على اللؤلؤ ، لا تفوقها أهمية على ضفاف الخليج العربي كله الا البحرين ٠ وما زالت تحتفظ بهذا المركز الى الآن ، بيد أن كساد تجارة اللؤلؤ كان كبيرا ، وربما دائما أيضا ٠ واذا نظرنا الى هذا الامر من عدة وجوه ، نجد أنه ليس مما يؤسف له ، فقد كان موسم الغوص شيئا يخشاه البحارة حقا ، لأنه كان دائما محفوفا بالمشاق التي لا تطاق أحيانا ، وبخطر خسارة الصحة ، أو الحياة ، أو عضو من أعضاء الجسم ، كما كان مردوده قليلا لا يذكر ، يقسم في معظم الاحيان تقسيما غير عادل ، بل وأحيانا لا يصل منه شيء قط الى أيدي أولئك الذين جمعوه بالفعل ٠

وعبر التاريخ كله ، كان الخليج العربى ، وما زال ، مشهورا بلآلئه ، كما أن صيد اللؤلؤ تجارة متناهية فى القدم ٠ وكان محار اللؤلؤ دائما يترعرع على ذلك الجرف الهائل ، الذى يغطى الجزء الاكبر من الضفة العربية من الخليج ٠ وقد أصبحت مياه الخليج أغنى وأشهر مصائد اللؤلؤ فى العالم ، بفضل شكل الخليج نفسه ، وضحالة مياهه ، وبفضل حرارة شمس الصيف اللاهبة ــ لأن محار اللؤلؤ ، على ما يبدو ، يحب المياه الدافئة ــ ، بالاضافة ، على الغالب ، الى قرب الخليج من سوق الهند العظيم ، الذى يشترى معظم اللآلىء الى يومنا هذا ٠ وفى بداية القرن الحالى ، قدر عدد العاملين فى صيد اللؤلؤ وتجارته بسبعين الى ثمانين ألف رجل ٠ ولم يكن العدد أقل من ذلك بنسبة كبيرة بعد نهاية الحرب العالمية الاولى ، أى عام ١٩١٩ ٠ ولكن من المشكوك فيه أن يكون العدد الآن يتجاوز عشرة آلاف ، بما فى ذلك أولئك العاملون فى البحرين ، وقطيف ، وموانىء الساحل المتصالح ، والكويت ٠ وبينما كان عدد المراكب المشتركة فى ذلك العمل ينوف على خمسة آلاف مركب ، قبل أربعين عاما فقط ، فان عددها الآن لا يكاد يصل الى ألف ٠ فقد كانت البحرين وحدها ، على سبيل المثال، ترسل ستمائة مركب للغوص ، أو ربما أكثر من ذلك ، قبل عشر سنوات فقط ٠ ولكننا علمنا ، عندما مررنا بها فى رحلتنا الاخيرة ، أن المراكب المسجلة للموسم الحالى لا يزيد عددها عن النصف ، ولولا ظهور النفط ، لكانت البحرين على وشك الافلاس ، وبخاصة أنه ليس فيها تجارة أو صناعة أخرى ٠ وحتى الكويت ، لو لم تتحول بسرعة الى المراكب الكبيرة العاملة فى التجارة البعيدة المدى ، فانها كانت ستواجه مصيرا مماثلا ٠

على أية حال ، فان أسوأ آثار الكساد قد زالت الآن ٠ وكما قال

التجار الكويتيون عندما وصلنا البلاد ، عليهم أن يجربوا حظهم في هذا الموسم مرة ثانية ، فلم يكن من المحتمل أن يبلغ السوء درجة أكثر مما هو عليه الآن . وما دام باستطاعتهم أن يجهزوا بعض المراكب ، مع عدم توقع أسعار أفضل أو أسوأ مما هو سائد الآن ، فان من المحتمل أن تعود تجارة اللؤلؤ الى سابق عهدها ، بمرور الوقت ، وربما على أسس جديدة ، أسلم من الأسس السابقة . ولكن عنصر المغامرة كان هناك دائما . فمن الممكن أن تحصل أقمأ المراكب على أفضل اللآلىء ، فلم يكن لحجم المركب أية أهمية ، والى يومنا هذا ، يظل من المستحيل التنبؤ بسلوك محار اللؤلؤ ، أو بنجاح الموسم . ففي بعض المواسم يخصب اللؤلؤ ، ولكنه يكون من الصنف الرديء ، وفي مواسم أخرى يخصب أيضا ، ويكون من الصنف الجيد ، وهذا الذى حصل عام ١٩٣٩ . الا أن اندلاع الحرب العالمية الثانية قضى على كل أمل بازدهار أسواق اللؤلؤ في ذلك العام . وفي أوقات أخرى ، لا تكون اللآلىء وفيرة ولا جيدة . وأحيانا ، يخرج من جزء من الجرف عدد وفير من اللآلىء الممتازة ، بينما لا تجود الاجزاء الاخرى بشيء يذكر . وكانت المصائد القريبة من البحرين ، الى الشمال والشرق ، تعتبر أفضل الجميع ، الا أن بعض المصائد الجيدة قريبة من الكويت أيضا . وفي بعض الاوقات ، يظل أحد الاحواض عاقرا لا ينجب شيئا سنوات طويلة متواصلة ، ولكنه يشرع في احدى السنوات فجأة ، ومن غير سبب ظاهر ، بانتاج المحار المحشو باللآلىء النادرة . فليست هناك قاعدة على الاطلاق . وهناك ، عند المصائد ، لا يسعف النوخذة الا خبرته ، وحظه فليست تلك المصائد مرسومة على الخرائط ، وليست مدروسة دراسة علمية . ولا زالت الطرق القديمة لصيد اللؤلؤ تستعمل في جميع الحالات بدون أى تغيير . فالغطس يتم بدون أية ملابس خاصة أو أية معدات . كما أن المصائد مطلقة للجميع ، ولو أن العادة جرت بأن تترك الاجزاء القريبة من البر للقادمين من أقرب الموانىء اليها . أما في وسط الخليج ، فان المراكب الكبيرة تعمل سوية . وقد رأيت أكثر من مائة ، تقف على جرف واحد ، وكانت معظمها من الكويت .

ومع أن أحواض اللؤلؤ مشاع بين الجميع ، الا أن هناك معارضة عنيفة لادخال أساليب جديدة للغوص . اذ ليس الخليج العربى ، الذى يعتبر مهد الغوص والغواصين ، بالمكان المناسب للغوص ، والمعدات الوحيدة اللازمة للغوص غير متوافرة الا في المركب الممون للمنارة ، المسمى « نياركوس » ، وفي سفن الاسطول الملكى البريطاني . فالعربي يغوص وهو يقفل أنفه بملقط (فطام) ، ولا شيء غيره . ومعظم الغوص يتم في مياه يبلغ عمقها من خمس قامات الى اثنتي عشرة قامة . أما المراكب الكبيرة فانها تظل في عرض البحر طوال الموسم ، الا أن الصغيرة منها تعود عادة الى

مراسيها كل مساء • وهناك موسمان للغوص ، أولهما ، مشاع وغير منظم ، تخرج فيه المراكب الصغيرة ، وتتقصى الاحواض القريبة السهلة المنال ، وذلك عندما تكون الشمس فى الصيف قد دفأت المياه بحيث تصبح صالحة للغوص فيها • وبعد قرابة شهر يبدأ الموسم الرئيسى ، وتخرج فيه جميع المراكب ، ويستمر مادامت حرارة الشمس تبعث الدفء الكافى فى الماء ، وهذا يعنى عادة أربعة أشهر ، هى : الجزء الاكبر من شهر يونيو (حزيران) ، ويوليو (تموز) ، وأغسطس (آب) ، وسبتمبر (أيلول) ، ونصيب صغير من أكتوبر (تشرين أول) • وخلال هذه الشهور يكون الطقس فى الخليج العربى أقرب الى الجحيم منه الى طقس بلاد مأهولة ، الا أن الحر الشديد المتواصل لازم جدا لحفظ الماء دافئا ، ويساعد البحارة العراة على تحمل الغطس المتوالى فيه • فهم يمكثون فى الماء على مقربة من مراكبهم ، أو يجمعون المحار من قاع البحر نصف النهار تقريبا ، وغطسهم يصل الى عمق خمسين أو ستين قدما • ومن أجل أن يقوى أى انسان على تحمل هذا ـ حتى حين يكون عربيا قويا رائعا ، أو زنجيا ضخما مفتول العضلات ـ عدة أشهر متتالية ، دون أن يتناول الطعام المناسب ، فلا بد من أن يكون الماء دافئا • وحالما يميل الى البرودة ، يجب أن يتوقف الغوص وتعود المراكب أدراجها • ويبدو أن المهمة الرئيسية لأمير البحر ، المسئول عن أسطول الغوص ، هى توقيت يوم العودة والاعلان عنه ، وهو اليوم الذى لا يليق بأى مركب كبير أن يعود أدراجه قبله • أما ما تفعله المراكب الصغيرة والقوارب ، فهو من شأنها وحدها ، ولا دخل لأحد فيه ، ذلك لأنه لا يتسنى لها أن تصيد قط كمية من اللؤلؤ تؤثر على السوق •

فى الماضى ، عندما كان صيد اللؤلؤ فى ذروته ، وكان يشترك فيه أكثر من عشرين ألفا من رجال الكويت ، كان البدو والايرانيون ، والعبيد ، وأى انسان آخر يمكن اقناعه أو ارغامه على الذهاب ، يشترك فى الذهاب مع أسطول الغوص • وكان عدد الغواصين حينئذ أكبر من عدد البحارة • ولكن الوضع تحول الآن ، فأصبح عدد البحارة يفوق عدد الغواصين • كما كان السفر فى رحلات طويلة ، فى الماضى ، عملا اضافيا الى الغوص ، أما الآن فقد أصبح الغوص عملا اضافيا الى السفر • فعندما كنت فى الكويت ، لم يكن يشترك فى عملية صيد اللؤلؤ أكثر من ثلاثة آلاف رجل ، كان كثيرون منهم بحارة على مراكب المياه العميقة ، ولكن بعضهم لم يكن كذلك ، وبخاصة الغواصون • وقد لاحظت أن كثيرين من هؤلاء كانوا بدواً ، تدل على ذلك شعورهم الطويلة ، ولكنى لم أر أبدا أى بدوى كويتى أو سعودى يعمل بحارا على ظهر المراكب الكبيرة • وكان التفسير الذى أعطى له هو أن هؤلاء البدو كانوا مضطرين للغوص ، لكى يسددوا ما ورثوه عن آبائهم

من ديون • وقد سرني أن أعلم أن هذا النوع من الارث قد أوقف في الكويت، كما أنه كان قد انتهى في البحرين منذ عشر سنوات أو يزيد • الا أنه اذا كان أحد البدو يقوم بتسديد دين أبيه ووقع هو في دين شخصي ـ كما كان يحصل عادة ـ فان عليه اما أن يسدد الدين ، أو يذهب للغوص لتسديده ، حتى بعد أن يكون أبيه قد سدد أو ألغى •

لقد كان الهيكل الاقتصادي لصيد وتجارة اللؤلؤ مبنيا على نظام الدين ، الى درجة تفوق ما ذكر سابقا عن تجارة المراكب الكبيرة ـ فقد كان الغواص دائما مدينا للنوخذة، والنوخذة مدينا للتاجر الذي يموله، والتاجر مدينا لتاجر آخر أكبر منه ، والتاجر الكبير مدينا للشيخ • وحتى الوسيط ، الذي كان يخرج لشراء اللؤلؤ ، ربما كان مدينا لشخص آخر ، يموله بالمال لقاء فائدة معروفة • وهكذا كان النظام برمته يعتمد على الدين ، الذي غالبا ما يكون تسديده مستحيلا • ولما كان محظورا في الاسلام على المال أن يربح فائدة من المصارف ، كما لم يكن في البلاد نظام مصرفي، فقد وجدوا طريقة لسد النقص تدر ربحا أكبر • فقد كان الرجل الذي يقرض المال يتأكد من حصوله على مردود كبير ، رغم أن هذا المردود لم يكن يسمى فائدة أبداً ، بل كان يختفي تحت أنواع مختلفة من الأقنعة ، الا أنه كان موجودا دائما • كما كان الغواصون يدفعون الفوائد على القروض التي يحصلون عليها بطرق مختلفة ، كلها سرقة واحتيال مكشوفان دون حياء أو خجل (١) • لقد كان هؤلاء الغواصون زمرة من الناس المتفائلين ، المقامرين ، غير المبالين ، وكان معظمهم يموتون صغار السن • وكان النواخذة يدفعون الفوائد المترتبة على قروضهم بأساليب وحيل مختلفة عند بيع اللؤلؤ • فقد سمعت أن أحد المولين كان يشترط على المراكب التي يمولها ، أن تبيعه جميع ما تحصل عليه من اللؤلؤ ، بأربع أخماس قيمته الحقيقية (٢) ، وهذا يعني الحصول ، بلا خجل ، على فائدة مقدارها ٢٠٪ لمدة أربعة شهور • وليس هذا كل ما يحصل عليه من الربح ، فعلاوة على فرق السعر ، يقوم هذا التاجر ببيع اللآلىء في بومباى بسعر يصل الى خمسة أو ستة أضعاف المبلغ الذي استثمره في صيدها • وبالاضافة الى

---

(١) يبدو أن المؤلف يبالغ في موضوع الفوائد التي كانت تفرض على ديون بعض الغواصين المحتاجين ، لأنها ، كما يقول العارفون من الكويتيين ، لم تكن بالخطورة التي يرويها (المترجم) •

(٢) ربما كانت هذه حالة خاصة شاذة جدا • فقد كان العرف أن يعرض الغواص محصوله على التاجر ، فاذا حصل خلاف على السعر ، فهناك من الخبراء من يلجأ اليه الغواص لتحديد سعر محصوله ، فاذا لم يقبله التاجر ، فان الخبير (أو المثمن) يشتريه بنفس السعر الذي قرره هو • (المترجم ، عن أحمد البشر الرومي) •

ذلك ، فاذا كان ما يحصل عليه المركب فى موسم الغوص يقصر ، بموجب حسابه هو طبعا ، عن المبلغ المدفوع منه مقدما ، يسجل الفرق دينا على النوخذة ، الذى يتوجب عليه أن يقوم برحلات غوص أخرى ، بنفس الشروط، الى أن يسدد الدين كله • وهكذا كان النواخذة مقيدين ، مثل بحارتهم ، كما كان التجار مرتبطين بنفس الطريقة بالتجار الاكبر منهم ، وهلم جــرا ••• ومع أن من الممكن الحصول على أرباح كبيرة ، الا أن امكانية الخسارة واردة • لقد كان هناك عنصر كبير من عناصر المقامرة فى العملية كلها ، وكان كثير من التجار الكويتيين الكبار يأنفون من المشاركة فيها ، حتى لو كان ذلك كمساعدة أو جميل خاص يؤدونه لنواخذتهم ، فقد كانت تجـارة اللؤلؤ ، فى رأيهم ، عملا ينبغى الابتعاد عنه ، وكان ايمانى بصدق قولهم يزداد يوما بعد يوم ، كلما ازددت علما بالموضوع •

لقد اختفت معظم وسائل الاستغلال في البحرين ، على الرغم من أنه كان من الصعب القيام بالاصلاحات المطلوبة ، كما أن الاحوال في الكويت أفضل مما كانت عليه من قبل • فقد أجرت حكومة البحرين ــ التي لا يبدو أنها نالت ما تستحقه من العرفان بالجميل على جهودها في هذا السبيل ــ اصلاحات دائمة ذات أثر بعيد ، لا بد أن تشعر بها بلدان الخليج العربــي الاخرى • ففي السابق ، لم يكن أحد يمسك حسابات رســمية ــ وما زال الغواصون على المراكب الكويتية لا يفعلون ذلك ــ • الا أن حكومة البحرين تصر الآن على أن يكون مع كل غواص دفتر رسمي ، فيه حساباته الدقيقــة المنظمة حسب الأصول ، كما أنها ترسل المفتشين للتأكد من ذلك • ولم تهتم الحكومة بالمحافظة على حقوق الغواصين فحسب ، بل عملت على حمايـــة مصالح النواخذة أيضا • ففي السابق ، كانت هناك مشاكل عديدة ، وكثير من اللف والدوران في تحديد المبالغ التي تدفع قروضا للغواصين ومساعديهم في بداية كل موسم • وقد رأت الحكومة أنها لن تستطيع انشاء نظام سليم للمداينة اذا لم تتم السيطرة على السلف • ولذلك فانها تدعو الان فـــي بداية الموسم الى اجتماع عام ، يحضره التجار وخلافهم ممن يهمهم الامر ، وتحدد فيه قيمة السلف وتعلن على الملأ ، ويحظر على الجميــع زيـــادة ذلك المبلغ المقرر • ولكن هذا الاسلوب الجديد لاقى معارضــة منظمــة ، وبخاصة من الغواصين أنفسهم ، الذين كانت الدعاية المغرضة قد أوهمتهم بأن القيود المفروضة على قيمة السلفة ليست الا طريقة للتضييق عليهم ، والحد من حريتهم • وقد كان من الصعوبة بمكان أن تقنع رجــلا جاهــلا معوزا ، رأى أنه سيقبض ثلاثين روبية بدلا من ستين ، بأن هذا التخفيض في مبلغ السلفة في مصلحته هو ، على أساس أنه ، اذا استطاع أن يكسب ستين روبية في الموسم ، فان الحكومة ستعمل على أن يحصل على ذلك المبلغ فعلا ،

بينما ، اذا كسب مبلغا أقل من ذلك ، فان الفرق لن يضاف الى الدين المستحق عليه . وكل ما كان الغواصون يفهمونه أن المبلغ ، الذي سيصل الى جيوبهم في بداية الموسم بحسب النظام الجديد ، أقل مما كان في السابق . ولم يكن يهمهم أن يربو الدين ويتراكم على ظهورهم ، فقد اعتادوا على ذلك . ونجم عن المعارضة أن حصلت بعض أعمال الشغب التي تطورت الى اطلاق نار ، وخسارة في الارواح . الا أن الحكومة أصرت على موقفها حتى الآن ، واستطاع النظام الجديد أن يصمد للريح .

وفي نفس الوقت قامت حكومة البحرين بالغاء نظام الديون الوراثية ، وأصبح دين الغواص يموت بموته . كما ألغيت المحكمة التي كان يعقدها تجار اللؤلؤ ، ولم يعد يسمح للتجار والنواخذة بارغام الغواصين على العمل في بساتينهم ومزارعهم خارج أوقات الموسم . وكانت محكمة تجار اللؤلؤ في الماضي تبت في جميع الخلافات القانونية التي تنشأ بين الغواصين والنواخذة ، ولكن لم يكن من المتوقع أن تكون أحكامها عادلة ، ما دام لم يكن يمثل فيها الا النواخذة والتجار . ولا تزال مثل هذه المحكمة موجودة في الكويت ، الا أن أحكامها أكثر عدلا مما كانت عليه زميلتها في البحرين . ففي الكويت كثير من المهتمين بالعدل وبأمور البحارة ، ممن يراقبون عمل هذه المحكمة مراقبة دقيقة ، ليتأكدوا من أن احكامها ليست شديدة الجور . الا أنهم في الكويت يعتقدون أن الاصلاحات ، التي ينبغي أن تطرأ على تجارة قديمة جدا ، وغير محكومة بضوابط واضحة ، لا بد أن تتم تدريجيا ، اذا أريد لها الاستمرار والدوام . ويمكن القول أن الكويت قد قطعت حتى الان شوطا بعيدا على الطريق التي فتحتها البحرين لها ولغيرها .

وعلى طول ساحل الاحساء أيضا ، تقاسي تجارة الغوص من نفس الكساد ، ولم تعد موانىء القطيف ، ودارين ، وجبيل ، ترسل الا عددا قليلا جدا من المراكب لصيد اللؤلؤ . بل أصبح كثير من الغواصين يعملون الان في شركة الزيت « ستاندرد أويل أف كاليفورنيا » ، صاحبة امتياز التنقيب عن النفط هناك ، ويدفعون جزءا من أجورهم للنواخذة لقضاء ما عليهم من الديون . ولما وجد هؤلاء أنهم يمكن أن يمدوا أرجلهم ، ويقبضوا تلك المبالغ بشكل منتظم ، دون أن يعملوا شيئا ، فقد أصبحوا لا يبالون بالخروج الى الغوص ، حيث المياه صعبة ، والسوق كاسدة . أليس من الافضل لهم أن يجلسوا على شاطىء القطيف ، ويتمتعوا بجزء مما يجنيه الغواصون العاملون في شركة النفط ؟ وهكذا أصبحت مراكب الغوص تقف الان لتتعفن على شاطىء القطيف . ففي « الخبر » شاهدت آخر المراكب المشهورة ، المزخرفة زخرفة عجيبة ، والتي كانت تستخدم مراكب من نوع « البتيل »

لأمراء البحر المشرفين على الغوص في الخليج العربي • فقد أصبح أمير البحر يعمل الآن في شركة النفط ، ويقوم بعمل خفيف ، لا يحصل منه على مال كثير ، بل ربما كان ما يحصل عليه من الديون التى يسددها له الغواصون أكثر مما يحصل عليه أجرا على عمله •

- - - - - - - - - - - -

من هذا يتبين بوضوح أن الغوص على اللؤلؤ وتجارته ، كما تمارسان في أحواض اللؤلؤ في الخليج العربي ، عمل شاق ، مضن ، وعملية تجارية معقدة • وكنت اتطلع لمعرفة أكثر ما يمكن معرفته عن العملية كلها • وعلى الرغم من أن فكرة قضائي موسم الغوص بأكمله على ظهر سمبوك صغير كانت ترعبني فعلا ، الا أني كنت مصمما على القيام بهذه الرحلة • فقد كنت أعتقد أن باستطاعتي أن أتحمل أي نوع من المشاق ، بعد أن قضيت ستة أشهر على ظهر بوم نجدي • غير أني كنت مخطئا في اعتقادي • كما كنت أعتقد أني قد خبرت جيدا ضروب المشاق ومدى الازدحام الممكن على ظهور المراكب العربية • الا أني عندما شاهدت مراكب الغوص ، تبينت أننى أرى المراكب المزدحمة ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، لأول مرة • فقد كان السطح الرئيسي لمركب الغوص الكويتي ، عند نزوله الى الماء ومغادرته الميناء ، أشبه بازدحامه برصيف القطار الذي يسير تحت الارض « المترو » ، في ساحة تايمز بنيويورك ، في فترة الزحام ، وهو مكتظ بالناس الذين ينتظرون وصول القطار • واذا قارنا مراكب الغوص « بفتح الخير » ، يبدو هذا الاخير كأنه سفينة عابرة للمحيطات • فبينما كان مركبنا يكدس البشر على ظهره كقطيع الماشية ، وهو يعبر البحر من حضرموت الى أفريقيا ، ويتوقف في عدد من الموانىء ، كانت مراكب الغوص تحشرهم على ظهرها كالسردين المكبوس طبقتين في علبة الصفيح ، ولا تتوقف في أي ميناء على الاطلاق • واذا كانت الحياة على ظهر « فتح الخير » شاقة قاسية في بعض الأحيان ، فلا بد أن العيش على ظهر مركب من مراكب الغوص كابوس متواصل • وعلى هذا ، فقد كنت أرتعد خوفا من فكرة مرافقة الغواصين في موسمهم ، وكان علي أن أعترف بأن المشاق التي يصادفها الانسان ، وهو يقوم برحلة غوص حقيقية في الخليج العربي ، ويعمل مع الغواصين مدة تقارب المائة يوم ، في ذلك الجو القاتل ، وتحت الظروف المخيفة السائدة — لا شك أن تلك المشاق فوق ما أستطيع تحمله • كما أنه لم يكن بامكاني وحدي أن أخفف من قسوة تلك الحياة • بالطبع ، كان بامكاني ، لو رغبت في ذلك ، أن أجهز مركبا خاصا بي • ولكني ، بهذه الطريقة ، لا أتعلم شيئاً عن الاوضاع الحقيقية ، بل ربما أنجح فقط بخداع نفسي • لا ! لن أفعل ذلك ! واذا كان لا بد لي من الذهاب ، فليكن بالطريقة الواقعية السليمة • وفي النهاية تسنى لي أن أتوصل الى حل وسط

بعد أن ألقيت نظرة على أحواض صيد اللؤلؤ وآنا بصحبة المعتمد البريطاني على ظهر لنشه المريح • وكان الحل أن ارافق الشيخ محمد عبد الرزاق في مركبه ، ونقوم برحلة لشراء اللؤلؤ ، كان (الشيخ) قد قرر القيام بها • وكان محمد عبد الرزاق يشتري اللؤلؤ لحساب والده ، الذي كان يبيعها في سوق بومباي بالهند ، وكان مركبه من نوع الجلبوت ، كما كان معه حاشية كبيرة ، ورزمة من المعدات الغامضة الملفوفة بقطعة قماش قديمة حمراء ، كما كان معه كاتبه أيضا • وكان للرجل خبرة عمر بتجارة اللؤلؤ ، كما كان رجلا طيبا، أحببته • وقد رافقته في رحلة لشراء اللؤلؤ، بدأت من الكويت ، عبر أحواض صيد اللؤلؤ ، ثم اتجهت جنوبا على ساحل الاحساء ، باتجاه البحرين ، التي كانت مقصدنا النهائي • وكان من المقدر للرحلة أن تستمر شهرا على الاقل • الا أنها في واقع الأمر استمرت شهرين ، ولم نصل البحرين قط • ولكنها كانت رحلة ممتعة حقا ، تعلمت منها الكثير •

لم نقلع من الكويت، الا بعد مرور ثلاثة آسابيع كاملة على أول اعلان عن عزمنا الاقلاع ، وكان ذلك صباح يوم من الأيام الجميلة في أوائل شهر أغسطس (آب) • وكان جلبوت الشيخ محمد (الذي كان لقب « الشيخ » يطلق عليه من باب الاحترام) مركبا جميلا صغيرا ، يبلغ طوله حوالى ستة وثلاثين قدما ، وله صار واحد طويل • وكان موسوقا الى أقصى سعته بسبعة من النعاج ونصف طن من الأرز ، وماء عذب للشرب محفوظ في براميل ، ووقود من العوسج الجاف ، وقدر كبير للطبخ ، وأربع دستات من زجاجات الشراب ، وستة صناديق كبيرة ، وثلاثة صناديق أصغر حجما ، وكمية كبيرة من علف الغنم (تتالف من نوع من العشب المجلوب من شط العرب) ، ونارجيلتين ، وكمية ضخمة من الحلويات ، والسكر والمؤن الاخرى تكفي مدة شهرين • وكان عليه اثنا عشر رجلا ، وصندوق مملوء بالروبيات محفوظ في زاوية مظلمة تحت سطح المؤخرة • وكان هناك معنا أيضا الفراش الذي سننام عليه ، وسجادة ، وعباءة لكل منا ، كما كان هناك عدد من الحشايا مصفوفة حول سطح المؤخرة • فقد كان بامكاننا ، كما أعلمني الشيخ ، أن نعرج على مكان هادىء أمين على الشاطىء كل مساء ، وننام على الرمل هناك • وقد بدا لي أن ذلك أمر لا بد منه ، اذ لم يكن هناك متسع على سطح المركب لننام جميعا عليه • أما خطتنا فكانت أن نتسوق اللؤلؤ حيث نجده ، ونمتع أنفسنا بأكل الأرز ولحم الضأن ، ونتجه الى حيث تدفعنا الريح •

كانت خطة الرحلة تبشر بالخير • وهكذا أقلعنا ، من جون الكويت ،

متأخرين بضع ساعات عن الساعة المقررة ، وعشرين يوما عن اليوم المحدد لذلك . وفي اليوم الاول ، لم نشاهد مراكب غوص ، ولا لؤلؤا ، وعرجنا عند المساء على مكان مسور يدعى « الشعيبة » . وهنا التهمنا احدى النعاج ، واستلقينا على الرمال لننال قسطا من النوم ، وكان المكان طيبا ، ولكن لم تكن فيه أية مراكب غوص ، فقد كان الاسطول قد انتقل الى مكان أبعد جنوبا . وفي فجر اليوم التالي ، بعد صلاة الصبح مباشرة ، أقلعنا ثانية . ولمدة شهر بعد ذلك ، كنا نتنقل من مكان الى مكان في مياه شمال الخليج ، القريبة من الشاطىء ، أحيانا نعود الى أحد الشواطىء الموحشة لننام هناك ، وأحيانا أخرى نظل أياما في البحر المائج ، خلف بعض الشعاب المرجانية ، تحيط بنا مراكب الغوص ، التي يتألف منها الأسطول وأحيانا أخرى نقضي يوما او يومين في مضارب أحد البدو من معارف الشيخ نتناول حليب النوق ولحم الضأن . وكنا نتنقل مع اسطول الغوص ، نذهب حيث يذهب ، وأحيانا نقضي أسبوعا حول حاجز مرجاني واحد ، بينما يقوم الشيخ صباح وهو على ظهر سمبوكه ، بقيادة اسطول المراكب الكويتية في عملية تمشيط الجرف . وكثيرا ما كان منظر تلك المراكب أخاذا ، وهي تقف على الجرف ، أو تنتقل من مكان الى آخر بمجاذيفها الطويلة ، والغواصون في البحر وهم انصاف عراة ، وبحارتها يهزجون ويرقصون وهم ينقلون مراكبهم من مرسى الى خر . وكنا أحيانا نجد انفسنا بين ما يزيد على ستين مركبا كويتيا ، بينما لا نرى حولنا في أحيان أخرى أكثر من ستة منها . وكانت المراكب الكبيرة تظل في عرض البحر ، اما الصغيرة فهي التي كانت تلجأ الى الشاطىء خلال الليل . وعند الفجر ، كان البحارة يفتحون المحار الذي جمعوه في اليوم السابق . وعندها كنا نتجول بين المراكب ، نتسقط الاخبار وننتظر ذلك الهتاف ، الذي كان يدل على العثور على لؤلؤة كبيرة حقا .

وسرعان ما اكتشفت ان الشيخ محمد لم يكن يبحث عن اللآلىء الجيدة الرخيصة الثمن ، بل كان يسعى وراء أندرها وأفضلها ، هذا اذا قيض له أن يحصل عليها . ولكنه كثيرا ما أخطأه التوفيق في مسعاه ، لأن النواخذة كانوا يقظين ، لا يتهافتون على بيع ما لديهم من اللؤلؤ الممتاز الى الوسطاء الذين يزورونهم في مراكبهم ، ما دام هناك أمل في بيعها بأسعار مرتفعة في أسواق بومباي أو البحرين . ولكن بعضهم كان يضطر للبيع ، لكي يشتري بالثمن مزيدا من التمر أو الأرز أو الماء .

وكان المشتري في الواقع يسعى وراء لؤلؤة كبيرة لا يستطيع النوخذة أو البحارة تقدير ثمنها . وكانت هذه اللآلىء نادرة ، ولكنهم كانوا يعثرون

عليها أحيانا · وقد فهمت من الشيخ بأن من الممكن أن تبدو احدى اللآلىء قليلة القيمة ، ولكنها ، اذا عولجت بالطريقة الصحيحة على يد أحد الخبراء، تصبح أحيانا نادرة الجمال · وكان هو واحدا من أولئك الخبراء الذين يتقنون هذا النوع من العمل · ولذلك فقد كان يسعى سعيا متواصلا للحصول على بعض الجواهر التي يمكن أن يعالجها بالطريقة الصحيحة · الا أننا لم نوفق في الحصول على الكثير منها · أما اللآلىء التي تمكنا من شرائها ، فكانت اما لؤلؤة تبدو كالبشرة ، كان يخرجها من المحارة بمهارة فائقة ، أو لؤلؤة كبيرة مشوهة اللون ، كان يزيل قشرتها الخارجية فقط · هذه هي اللآلىء التي اشتريناها ، وكانت كلها رخيصة الثمن · وكان الشيخ محمد يدفع عادة حوالى خمس روبيات ثمنا للواحدة ، بينما كانت « العمليات » التي تجرى عليها تستغرق أياما ، الا أن النتائج كانت في الغالب سيئة · فبعد أن يجري « العمليات » اللازمة على كل منها ، لم تكن لتساوي روبية واحدة · فكانت اللؤلؤة « البشرة » تتكشف عن مجرد زوائد طبيعية ، مغطاة بقشرة خفيفة من مادة اللؤلؤ ، كما كانت اللؤلؤة المشوهة تظل كذلك · أما اللؤلؤة التي في لونها عيب ، فقد كان عيبها يظل واضحا مهما كشط من قشرتها الخارجية · ولكن لا بأس ! فقد كان الامر كله مقامرة ، والتجارة كلها مقامرة ! ولكن الله كريم ! وفي أحد الايام التالية ، لا بد أن تظهر لؤلؤة نشتريها بخمس روبيات ، ولكنها تساوي خمسمائة أو ربما خمسة آلاف · لقد كان الأمر يستحق المجازفة · كما كانت « العمليات » ممتعة ، تساعد على قضاء الوقت ، الذي كان لدينا منه الكثير ·

ولا أقصد من كلامي هذا ، أن الشيخ محمداً كان يحاول أن يعالج عيوب اللآلىء المشوهة ، بحيث يسترها عن الانظار · فلم يكن هذا شأنه قط ، كما ان ذلك كان مستحيلا · بل ان عمله كان يقتصر على محاولة نزع البثور من المحار ، عسى أن تكون بداخلها لؤلؤة جيدة ، أو نزع القشرة عن لؤلؤة كبيرة خشنة ، عسى أن تخرج من باطنها جوهرة ممتازة لا عيب فيها · هذه هي « العمليات » التي كان يقوم بها · فلم يحاول قط أن يغش جوهرة واحدة ، فقد كان حبه للآلىء عظيما جدا يمنعه من فعل ذلك · كما ان كل انسان ، في منطقة الخليج العربي ، كان يعلم تمام العلم أن الأمل الوحيد للاحتفاظ بالسوق يكمن في المحافظة على الأمانة والصدق الى أبعد حد ممكن · وكان يبدو في الظاهر أن من السهل ان يخلط المرء حفنة من اللآلىء اليابانية المصنعة مع مجموعة كبيرة من اللؤلؤ الطبيعي ، طالما أن اكتشاف هذا العمل أمر صعب للغاية · الا أن الواقع أن هذا كان مستحيلا ، فقد كانت الرقابة على « الصيد » اليومي من اللؤلؤ شديدة جدا ، لا تسمح بعملية الغش هذه · علاوة على أن من يقبض عليه ، وهو يقوم بعمل من

هذا النوع ، يجازف بحياته ، فالأحكام في الجزيرة العربية سريعة وحاسمة ونهائية في معظم الأحيان · بل أن استيراد اللؤلؤ الصناعي الى أي من الاسواق العربية يعد جريمة خطيرة جدا ، يعاقب عليها بالسجن المؤبد · والسجن المؤبد هناك يعني أن يقضي الانسان بقية حياته في زنزانة مظلمة تحت الارض ، يذوي يوما بعد يوم ، الى أن يوافيه الأجل المحتوم في نهاية الأمر ·

وكنا أحيانا ننشد التغيير والتسلية ، فنخرج مع أحد مشايخ البدو للصيد بالصقور في « رأس الزور » · وكانت مراكب الغوص المتوسطة الحجم تقصد الشاطىء مرة كل عشرة أيام ، لكي ينال بحارتها وغواصوها قسطا من الراحة خلال يوم واحد يقضونه هناك · وعندما كانت تلك المراكب تفعل ذلك ، كنا نرافقها الى الشاطىء ، لكي نرى نوع الصيد الذي حصلت عليه · ولم نكن عادة نجد فيها أية لآلىء كبيرة ، بل قليلا من اللآلىء الصغيرة التي ليست لها قيمة كبيرة ، وقلما كنا نشتري شيئا منها · ولكننا كنا نقوم ببعض الزيارات الممتعة للبدو ، الذين كانوا يتنقلون من مكان الى آخر ، على الشاطىء ، وهم يسوقون قطعان الغنم ، سعيا وراء الماء والكلأ ، فكانوا يأتون الى حيث آبار الماء قريبا من الشاطىء صيفا ، ويعودون الى البادية في الشتاء والربيع ، وكان جميع هؤلاء يقتنون الصقور ، التي يولع الكويتيون باستخدامها للصيد · وكان اهتمام البدو بتغذية هذه الصقور وتعهدها أكثر من اهتمامهم بغذاء أطفالهم · كما كانوا يقتنون أعدادا كبيرة من الكلاب الجائعة ، التي كانت تهرول نحو الخيام ، كلما سمعت أحدا يتناول طعاما · وعندما لم نكن نذهب للصيد ، أو نراقب قطعان الغنم ، كنا نسند ظهورنا الى سروج الجمال ، ونمضي الوقت في الخيام ونحن في حالة استرخاء ، يفصلنا عن الحريم خباء من الحصير الخشن · لقد كانت حياة حرة طليقة خالية من الهموم ، وكنت أعجب لماذا يختار أي بدوي أن يعمل في الغوص على اللؤلؤ · أما أصدقاؤنا من بدو رأس الزور ، فلم يكن يخطر على بالهم أن يفعلوا ذلك أبدا ·

وعلى الرغم من أن تلك الفترات التي كنا نمضيها على الشاطىء كانت أوقاتا لطيفة مسلية ، الا أني كنت أفضل آن أقضي معظم الوقت بين الغواصين في البحر ، أتعلم منهم أساليب عملهم ، وأجمع بعض المعلومات عن أسرار المهنة · وكان وجودي مع الشيخ محمد طريقة مثالية لدراسة كل ما يتعلق بتلك المهنة ، لأني بهذه الطريقة كنت أستطيع آن أراقب كل شيء ــ الغطس نفسه ، والمناورات ، والحياة على ظهور المراكب على اختلاف أنواعها ، والبيع والشراء ، والعمليات التي كانت تجرى على بعض أنواع

اللؤلؤ ، (والتي أشرت اليها سابقا) • وقد تعلمت كيف كان الوسطاء يتنافسون فيما بينهم • فكان كل منهم يرهف السمع دائما ، لعله يسمع عن صيد لؤلؤة عظيمة قبل أن يدري بها الآخرون ، لكي يتمكن من الاسراع الى شرائها ، قبل أن تضطره العروض الأخرى لرفع ثمنها ، وقبل ان يكتشف النوخذة قيمتها الحقيقية • فكنا نحن مثلا نوزع الهدايا يمينا وشمالا ، لكي نكسب بعض الأصدقاء القريبين من النواخذة ، فيساعدوننا على تسقط الأخبار المفيدة ــ فنقدم شاة هنا ، وعلبة من الحلويات هناك ، وقطعة من لحم الغنم لواحد من الاصدقاء ، وبعض الطباق لصديق آخر ، وهلم جرا ••• وكانت جميع الأخبار تتناقل شفهيا ، وكان معظمها غير موثوق به • فكثيرا ما كانت تصلنا أخبار صيد لؤلؤة عظيمة ، فنسارع للذهاب الى المكان المقصود ، ولكننا لا نعثر على شيء • وقد لاحظت أن الوسطاء لم يكونوا يحملون الا الأخبار السيئة ، فقد كانت تسبق زيارتنا الى أحد المراكب أخبار غير مشجعة عن ركود السوق ــ وكانت أخبارا صحيحة ، لسوء الحظ ــ يقصد منها الايحاء للنواخذة بألا يتوقعوا أثمانا عالية لما يصيدونه من اللؤلؤ • وكنا نجلس مع النوخذة وقتا طويلا ، نتحادث في كل ما هب ودب من الموضوعات ــ فلم نكن في عجلة من أمرنا ، بعد أن نصعد على ظهر المركب ــ • ثم يقوم النوخذة ، ويمد يده الى مكان سري تحت سطح المؤخرة الصغيرة ، ويسحب صندوقا ، يكون في العادة قديما جدا ، ومربوطا بخيط ، الا أنه مقفل بطريقة أو بأخرى ، بينما تكون مفاتيحه مربوطة بسير جلدي صغير ، مشدود حول خصر النوخذة ، تحت جلبابه • وكان الغواصون دائما يحيطون بنا في تلك اللحظة ، عندما يخرج النوخذة اللآلىء من الصندوق ، يرقبون العملية كلها • وكان الصندوق يفتح على مهل ، كما ينبغي أن يفتح وعاء تنعقد على محتوياته كل تلك الآمال • ثم يأخذ النوخذة باخراج صرر صغيرة من القماش الأحمر أو الأسود • وفي المراكب الصغيرة، كانت كل صرة تعلم عادة بنوع العقدة للدلالة على صاحبها من الغواصين ، ولكن المراكب الكبيرة كانت تضع اللآلىء التي يصيدها الجميع معا ، الا أنها كانت ، مع ذلك تصنف بطريقة أو بأخرى • ولكنها لم تكن تصنف بحسب حجمها أو جودتها ، فلم يكن يتم ذلك الا عند انتهاء الموسم ، بل كانت كل مجموعة يتم صيدها في أحد الأحواض تحفظ في صرة منفصلة • وكانت معظم اللآلىء لا قيمة لها ، وبخاصة تلك المحفوظة في قطع القماش الاحمر ، التي لم تكن سوى لآلىء صغيرة جدا ، او لآلىء مشوهة لونا ، أو شكلا ، الا أن بعض اللآلىء كانت جواهر ممتازة •

وكان النوخذة عادة يحل عقدة احدى الصرر الصغيرة • ويديرها علينا واحدا بعد الآخر لنتفحصها • ولكن لم يكن أحد يراقب اللآلىء كلا على انفراد ، مع أن جميع العاملين على ظهر المركب ، ما عدا أولئك الذين

يعملون في الغطس ، وأولئك الذين يمسكون لهم الحبال في تلك اللحظات ، كانوا يراقبون العملية • فقد كان من الواضح أن هناك أمانة مطلقة لا تشوبها شائبة على ظهور المراكب ، وان التنافس الحاد في تجارة اللؤلؤ لم يكن هناك شيء منه بين النوخذة ورجاله • فلم يكن أحد من اولئك الرجال يحتفظ باللآلىء التي يعثر عليها بنفسه ، بل كانت جميعها في حوزة النوخذة • وعندما كانت الصرر تعرض علينا لفحصها ، كان الشيخ محمد كثيرا ما يتظاهر بازدراء احداها ، فلا يلقي عليها الا نظرة عابرة ، قبل أن يلفها ثانية ، ويلقيها في الصندوق • وكان في أحيان كثيرة ، يفعل مثل هذا العشرة أو أكثر من تلك الصرر الصغيرة ، قبل أن نبدأ عملية البيع والشراء بجد • بل كثيرا ما كانت ساعات طويلة تمر، قبل أن يبدأ كاتبه وأخوه الصغير موسى باحضار الميزان والمنخل وبقية المعدات اللازمة لعملية الشراء •

كنا نتنكب ظهور المراكب ، قادمين فى قارب صغير من الجلبوت الذى كنا نبحر على ظهره • وكنا دائما نأخذ معنا نفس المعدات : كيسا من الروبيات الفضية الرنانة ، والرزمة الحمراء التى كانت دائما ترافق الشيخ محمدا ، علاوة على بعض علب الحلوى ، وبعض السجاير العربية لنقدمها هدايا • أما رزمة الشيخ محمد الحمراء ، فكانت تحتوى على عدسات مكبرة ، وميزان صغير أنيق مما يحمل باليد ، ومجموعتين من الاوزان المصنوعة من العقيق ، وبعض الأوزان الصغيرة المصنوعة من معدن خفيف جدا ، وكتاب باللغة الهندية عن أصناف اللؤلؤ المختلفة ، وقيمة كل صنف منها ، وكتاب آخر يحتوى على المعلومات السرية الخاصة بالشيخ ، والمتعلقة بالأسعار السائدة فى أسواق بومباى والبحرين، ومجموعة من المناخل النحاسيةالصغيرة، ذات الفتحات المتدرجة من الكبيرة الى الصغيرة ، التى تستعمل لتصنيف اللؤلؤ ، بالاضافة الى قطعة من القماش الأحمر تستخدم لحماية الميزان من هبات الريح • وكان الميزان يحمل باليد ، وعلى هذا فلم يكن دقيقا تماما ، ولكن الشيخ كان بارعا جدا بمعرفة وزن مجموعة من اللآلىء بواسطته • وقد لاحظت أنه لم يكن أبدا يبالغ فى الوزن • فكان يضع جميع اللآلىء الصغيرة معا ، ويزنها ، ثم يخصم منها عشرة بالمائة مقابل ما يمكن أن يعلق بها من قطع المحار الصغيرة ، (فقد كنا كثيرا ما نفحص اللآلىء ونزنها حال خروجها من المحار) • وعندما كنا نفرغ من فحص اللؤلؤ جميعه بكل دقة ، رغم ما يبدو من قلة المبالاة ، كان يعقب ذلك فترة من الحديث العام • وأخيرا يأتى السؤال المهم : كم الثمن ؟ • وكان النواخذة غالبا ما يحجمون عن اعطاء سعر معين ، كما أن الشيخ كان دائما لا يرغب فى عرض أى سعر ، الا أن النوخذة كان يدرك جيدا قيمة لؤلؤه • وكانت المساومة عادة تأخذ الشكل التالى :

بعد فترة صمت طويلة ، يقول النوخذة ، وهو غير راغب في ذلك ، وأصابعه تداعب الصرة الحمراء : « أربعمائة روبية » ٠

وهنا ينفجر الشيخ محمد بضحكة تـدل على عدم التصديق ، ويهب واقفا ليغادر المكان ٠ الا أنه سرعان ما يعود ويلم معداته في رزمته الحمراء٠ وتستمر المساومة :

النوخذة : أربعمائة روبية ثمن قليل ٠

الشيخ محمد : ليس هناك سوق للؤلؤ ، وأنت تدرك ذلك ٠ وكل ما أدفعه هنا يمكن أن يكون خسارة لي ٠ اذا استطعت أن تحصل على أربعمائة روبية لهذه الكمية من اللؤلؤ ، فانى مستعد لدفع ستمائة ٠

النوخذة : أربعمائة ٠

الشيخ محمد : على بمائتين وخمسين ، وهذا هو السعر النهائي ٠ فليس هناك سوق للؤلؤ ، كما أنه ليس في الصرة لؤلؤة كبيرة واحدة ٠ ولكن صداقتنا القديمة هي وحدها التى تجعلنى أتقدم بهذا العرض السخى٠ احتفظ باللآلىء ، اذا شئت ، لترى ما اذا كنت ستحصل على عرض أفضل من عرضى ٠ والله ، ان عرضى لسخي ٠

النوخذة : لن أقبل أقل من أربعمائة ٠ ألا ترى كم من الرجال الفقراء المساكين سيتقاسمون هذا المبلغ ؟ لقد أمضينا شهرين ونحن نغـوص على هذه اللآلىء ــ شهرين طويلين قاسيين ٠ ألا يساوى كل ذلك أربعمـــائة روبية ؟

الشيخ محمد : الله كريم ! ولكن ليس فى مكنتى أن أحسن من وضع السوق٠ الا أنى مستعد لدفع القيمة الفعلية الحالية لهذه الكمية، فأنت تعرفنى، وتعرف ذلك عنى ، ولكنى لا أملك دفع أكثر مما تساوى ، والسوق كاسدة ٠ وليس هناك مجال للربح الكثير من تجارة اللؤلؤ ٠ (يتلو ذلك كلام يدل كله على مدى التقى والورع اللذين يتحلى بهما الشيخ ، ويؤثر ذلك فـــى البحارة والغواصين الذين يستمعون اليه) ٠

النوخذة : يرد بكلام مماثل ، ويختم كلامه بنغمة حزينة مرددا نفس المبلغ السابق : « أربعمائة روبية » ٠

ويستمر الحديث التقى ، الذى تتخلله الدعوات ، والأيمان ، والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، طويلا ٠ وبعد قرابة ساعة من الزمن ،وبعد

أن تكون تلك الصرة الحمراء ، قد فتحت وأقفلت ثلاث مرات أو أربــع ، بينما الغواصون المعروقون يراقبون المساومة ، وهم يتدفئون علــى نار الموقد الصغير ، ينهض الشيخ محمد فجأة ، ويمسك بيد أخيه من جهة الأصــابع ، ويغطي اليدين بقطعة من القماش الأحمر ، لكيلا يرى الآخرون ما يجــرى تحتها · وكانت هذه طريقته لمعرفة رأى أخيه في قيمة اللؤلؤ · فهو لا يسأله ذلك مباشرة ، بل يستشيره بهذه الطريقة · وكنت أرى الأصابع وهى تقوم بعملها،الشيخ محمد يلمس أظفر احدىأصابعأخيه ،أو يمسك بالمفصل الثالث من أصبع أخرى ، أو ينتقل الى المفصل الثانى من أصبع ثالثــة وهكذا · ويتم كل ذلك بسرعة كبيرة ، بينمـــا يتجــاوب أخوة بنفس السرعة · ان الجانب الحسابى من عملية التفاهم بواسطة الاصابع بسيط لا تعقيد فيــه ، والعملية قديمة ومتعارف عليها كطريقة لشراء اللؤلؤ وبيعه في منطقـــــة الخليج العربي ، الا أن التدريب على العملية نفسها يستغرق وقتا طويلا يصل الى بضع سنوات · فلكل أصبع ، وكل مفصل فى اصبع ، وكل درجة من الضغط قيمتها الحسابية الدقيقة جدا ·

وقد علمت من البحارة أنه كان بامكان التجار والوسطاء ،أن يتفاهموا بهذه الطريقة حتى على مبلغ الاكرامية (البقشيش) الذى سيقتسمونه فيما بينهم ، وأن هــذه الطريقة يمكن أن يســاء استعمالها · ولكن الأمــر مع الشيخ محمد لم يكن يزيد عن اعتبار هذه الطريقة جزءا من عملية الشراء ، وليست كلها · فقد كان الثمن يتفق عليه شنويا ومباشرة ، لا عن طريقة اللمس السرية هذه ، والتى لم يكن يستخدمها الا للتفاهم مع أخيه فى أثناء عملية المساومة ، لأن أخاه كان خبيرا باللؤلؤ أيضــا ، كما أن بصره كــان أفضل ·

وبعــد مرور وقت طويل نشترى اللآلىء بمائتين وستين روبيــة · وعندها يفتح كيس الروبيات الفضية ، ويعد السعر المتفق عليه روبيــة روبية ، تلقى على الارض لسماع رنينها واكتشاف الزائف منها ، وتنتقل اللآلىء الى جيب الشيخ محمد · وبعد أن نحتسى القهوة للمرة الاخيرة ، نعود بالقارب الصغير الى مراكبنا · لقد كان من المذهل حقا أن أراقب كيف كانت قيمة اللؤلؤ ترتفع بعــد أن ننهى يومــا كامــلا من الشراء ، وتصبح الجواهر فى حوزتنا · فقد كان الشيخ محمــد يجلس ويخرج الحبــات من مخابئها ، ويتغزل بجمالها ، ويزنها ، ويصنفها ، ويمنحها قيمتها الحقيقية ، بدلا من القيمة العــامة التى كان يعطيها لها فى أثنــاء عملية الشراء ، ثم يجمعها كلها ويضعها مع اللآلىء الأخرى فى رزمة واحدة · ولم يكن يحفظ كل مجموعة يشتريها منفصلة عن الأخرى ، أو يحاول تصنيفها ، الا عندمــا

ينتهى من جميع عمليات الشراء خلال الموسم . فهناك فى البحر ، كنا نحفظ جميع اللآلىء فى قطعة واحدة كبيرة من القماش ، موضوعة فى صندوق مغلق بالقفل والمفتاح . وكان الشيخ محمد يخرجها من مخبئها عشر مرات ، أو ربما عشرين مرة فى اليوم الواحد ، فى الاوقات التى لا يكون فيها بيع أو شراء ، ويمتع هو وأخوه النظر برؤيتها ، ويغبطون النفس على شرائها. وكان يبدو أن ثمن اللآلىء ، حال انتقالها من صرة النوخذة الى صرتهم ، يتضاعف مرتين ، وربما ثلاث مرات .

وبينما كنا راسين مقابل الشاطىء فى مكان يدعى « رأس مشعاب » ، وصل مركب غوص صغير ، عليه غواص وافاه الأجل ، ليدفن على الشاطىء. وقد بدا لى كأنه مات من مرض الاسقربوط ، فقد كانت التغذية على مراكب الغوص سيئة جدا . فلم يكن هناك من الطعام غير الأرز والسمك . أما الأرز فقد كان مغذيا ، وكان بامكانه ، لو أضيف اليه السمن العربى الاصلى بكميات وافرة ، أن يبعد مرض الاسقربوط عن البحارة والغواصين خلال أشهر الغوص. الا أن النواخذة درجوا فى المدة الاخيرة على استبداله بالدهن الصناعى ، المصنوع فى أوروبا ، والمصدر الى الكويت والبحرين . وكان هذا الدهن يبدو عاديا ، كما أنه كان رخيص الثمن ، الا أنه لم يكن سوى نوع ردىء من زيت الطبخ ، لا يساوى شيئا من الناحية الغذائية . وهكذا أخذ الغواصون يصابون بمرض الاسقربوط ثانية ، ووقف النواخذة مندهشين لا يعرفون سببا واضحا لذلك .

كانت مراسم دفن الغواص المسكين بسيطة للغاية ، وانتهت خلال دقائق معدودات ، وكل ما فعلوه أنهم أنزلوا الجثة من فوق المركب ، وألقوا بها فى حفرة فى الرمل ، ولم يجدوا أية مشقة فى حمل الجثة ، فقد كانت هزيلة ، منهكة ، خفيفة الوزن . وقد نظرت الى وجه الرجل لأتأكد أنه ليس يوسف ، صديقى العجوز ، فقد كنت أخشى أن يكون هو ، ولكنه كان رجلا آخر من الأحساء . وكنت قد رأيت ذلك الدهن الصناعى على ظهور المراكب من قبل ، محفوظا فى صفائح . وطلبت من الشيخ محمد أن يحاول اقناع النواخذة بالتوقف عن شرائه . ولكنه أخفق فى ذلك ، وكان السبب ، كما قال لى ، أن هذا الدهن رخيص الثمن ، وأن النواخذة قوم جاهلون ــ فقد كانوا يستخدمون هذه المادة بسخاء ، دون أن يدروا أنها عديمة الفائدة ــ أما السمن الكويتى الأصلى فقد كان غالى الثمن ، ولم يكن فى مكنة النواخذة الفقراء شراؤه .

وهكذا غيبوا الغواص المسكين تحت الثرى ! وتساءلت عن عدد الغواصين الذين كانوا يلاقون حتفهم بالطريقة نفسها ، فأجابني الشيخ محمد بأن

حوادث الوفاة نادرة ، فيما عدا بعض الغواصين الذين كانوا يغرقـــون ، والقلائل الذين كانوا يموتون حتف أنفهم · الا أني لاحظت أننا لم نصعد على ظهر مركب من المراكب ، الا رأينا على الاقل واحدا من الغواصيـــن يشكو من المرض ، وهو متلفع بعباءته الصحراوية ، ومتمدد على الخشـب العاري في مؤخرة المركب · وكانت معظم تلك الحالات تبدو كأنها حالات من المصابين بمرض الأسقربوط ·

وعلى بعد بضعة أميال جنوب رأس مشعاب ، شاهدنا أسطول الكويت الرئيسي ، والمؤلف من ستين مركبا يقف على جرف واحد كبير ، وعــدد آخر يقف هنا وهناك ، كل منها على جرف صغير · وكان عدد ما تسنى لنا رؤيته منها يبلغ حوالى مائة مركب ، الا أن غالبيتهـــا كانت من المراكب الصغيرة · وكان المنظر خلابـا مؤثرا ـ فهنا كانت تقف مائة من المراكب ، بهياكلها البنية المحروقة ، وبمجاذيفها الطويلة ، وكأنها مائة من المراكـب الحربية القديمة ، وهناك كانت الرايات ترفرف على سمبوك أمير البحر · كما كنا نسمع قرع الطبول ، وأهازيج البحارة القوية ، كلما تحرك جلبوت ، أو بلم كبير ، لينتقل بجلال وجمال من مرسى الى مرسى آخر ، تسوقه تلك الحركات الموسيقية للمجاذيف الطويلة وهي تضرب الماء · كما كانت تتناهى الى اسماعنا تلك الأصوات العميقة ، الصادرة من أعماق مجموعة تتألـف من اثني عشر أو اكثر من البحارة القائمين على ظهر مركب غوص كبير ، وهو يتخذ مرسى جديدا ، وبحارته ينحنون معا ، وهم يجذفون للمرة الاخيرة، ويطلقون آخر صيحاتهم ، قبل أن يتوقفوا في المكان المحدد · وفي بعـض الاحيان ، كان واحد من المراكب الصغيرة يرفع شراعا كبيرا على السارية الأمامية ، وينساب على سطح الماء مسافة ميل أو يزيد · وكانت جميـــع المراكب تستخدم هذه الأشرعة ، التي تساعد على سرعة الحركة وخفتهـــا ، وهي في المصائد ونادرا ما ترفع اشرعتها المثلثة الكبيرة · الا عندما تغادر المكان نهائيا ، او عندما ترتب مراسيها صباحا ومساء · أما اثناء النهار فكانت المراكب تنقل من مكان الى آخر باستعمال المجاذيف فقط

وكانت مراكب الاسطول تنظم نفسها ، وتعمل في صيد اللؤلؤ علـى الشكل التالي : تصطف المراكب على الطرف الخارجي من الجرف صفـــا طويلا ، وتلقي مراسيها بشكل يساعدها ، اذا أرسل البحارة حبالهـــا الغليظة ، على الانجراف تدريجيا الى الطرف الآخر ، بينما يكون الغواصون يمشطون الجرف عرضا · فاذا ما فرغوا من ذلك ، رفعوا المرساة ، وجذفوا المركب الى مكانه الأصلي ، وهم يغنون ويهزجون · وكان كل شيء يتـم بحسب أسلوب معروف · ثم يلقون مراسيهم في مكان أبعد قليلا من مكانهم

الأصلي ، ويعودون ثانية الى استطلاع جزء آخر من قاع البحر ، بأن يعمل الغواصون من كل جانب من جانبي المركب في وقت واحد ٠

لقد كانت طريقة العمل هذه في تمشيط الجرف ، دقيقة جدا ، فلم يكن يمضي يوم أو بعض يوم ، حتى يكون الجرف كله قد نظف تماما كأنه حقل يحرث ٠ فقد كانت المراكب ، وهي تمر فوق الجرف ذهابا وأيابا ، والغواصون ينظفونه من المحار من كل جانب من جانبي المركب ، كأنهـا مسالف تمهيد الارض تمر فوق أحد الحقول ، لا تخطيء أو تترك شيئا ٠ فكلما كان المركب يلقي مراسيه في منطقة معينة ، كان الغواصون يمشطون البحر ، فلا يتركون فيه محارة واحدة ، وعندها ينتقل المركب الى منطقة مجاورة ، وهكذا ٠ وكان يخصص لكل مركب مساره ، ونصيبه من كل جرف ، ولم يكن يعتبر من اللائق أن يلقى مركب آخر مراسيه فى ذلك المسار ، ولكنه كان يحدث ، بين الفينة والفينة ، أن يفقد أحد المراكب الصغيرة كل أمل في العثور على المحار في منطقة ممشطة تمشيطا كاملا بهذا الشكل ، فيرفع شراعا على السارية الأمامية ، ويرحل الى جرف صغير آخر يعمل فيه وحده بعيدا عن الأسطول ٠

وكانت مهارة النواخذة تنحصر فى معرفتهم للجروف التى يكثر فيها المحار ، وفي مقدرتهم على كنسها من المحار كنسا تاما ، فقد كان وجود خمسين أو ستين مركبا فوق جرف معين في وقت واحد يتطلب رجلا حصيفا ، شديد المراس ، يعرف دائما كيف يرسي مركبه كل مرة في جزء جديد من المنطقة ، بحيث يخـرج غواصوه من المـاء في كل مرة ، وسـلالهم مملوءة بالمحار ٠ فقد كنا أحيانا نعتلى ظهر آحد المراكب ، فنجد آن غواصيه لا يستطيعون ، مهما حاولوا ، آن يخرج الواحد منهم من الماء وفى جرابـه أكثر من محارتين او ثلاث فى كل مرة ، بينما يقف قريبا منهم سمبوك آخر يعثر غواصوه على ما يملأ سلالهم من المحار الكبير ، كلما غاصوا الى القاع وخرجوا منه ٠ ولم يكن هذا يرجع الى الحظ وحده ، بل الى تلك الحنكة الطبيعية ، التى اما أن تكون لدى النوخذة ، أو لا تكـون ٠ وكثيرا ما كان الشيخ عبد الله يشير الى النواخذة الذين يتحلون بتلك الصفة ، وكانوا ، في الغالب ، من أصحاب المراكب الكبيرة ٠ وكان آحد هؤلاء مكفوف البصر تماما ، الا أنه كما قال لي صديقي التاجر ، كان لا يزال يتمتع بتلك الصفة ، كما رأينا كثيرا من النواخذة آنفسهم يغوصون ، الا انهم ما كانوا يواظبون على ذلك كسائر الغواصين الآخرين ، بل كانوا عادة يقومون بالغطسة الأولى لكي يتفحصوا الأحواض ٠

وكنا ، ونحن في صحبة الأسطول الرئيسي ، نلقي مراسينا فى الماء

خلف حاجز مرجاني ، موغل في البعد داخل الخليج ، لا يرى منه البر ٠ وكان هذا يقع في منتصف المسافة تقريبا بين الكويت والبحرين ، في ذلك الجزء من الخليج، الشديد الخطورة على المراكب الكبيرة التي تجوب المحيطات الا أنه لم يكن خطرا علينا ، فقد كان جميع نواخذتنا يعرفون قاع البحر في هذه المناطق ، كما لو كان حوضا من أحواض الزهور في حديقة المنزل ، وكانت المراكب الصغيرة تهرع الى حيث نكون في المساء ، كأنها سرب من اليخوت العائدة من السباق ، الا أن الرائحة التي كانت تنبعث منها كانت بعيدة كل البعد عن رائحة تلك اليخوت ، كما كان بحارتها السمر الهزيلون يصدحون بأغانيهم الغريبة ، وهم يدفعون المراكب بالمجاذيف الطويلة ٠ وكان بامكاننا أن نرى الغواصين وهم متكومون على مؤخرة المركب ، كأنهم أنصاف أحياء ، وكل منهم منطو على نفسه ، يرتجف من البرد ٠

عندما انضممنا للأسطول الرئيسي ، كانت المراكب الكبيرة ، وبقية المراكب التي يتألف منها ذلك الاسطول ، تعمل في الخليج بالطريقة التي سبق ذكرها مدة شهرين : كانت تبدأ من الشمال ، متجهة الى الجنوب ، الى أن تلتقي بأسطول البحرين المتجه شمالا ٠ وبعد ذلك ، كانت المراكب الصغيرة تأتي الى المكان ، لترى ما يمكن الحصول عليه من مخلفاتها ٠ وكانت هذه المراكب الصغيرة تعمل قريبا من الشاطىء ، وتستخدم أساليب مختلفة ٠ وكنا نراها أحيانا ، يحيط بها جميع بحارتها ، وهم يسبحون هنا وهناك ، وقد وضعوا رؤوسهم في صناديق ، تتحرك معهم ، فيبدو منظرهم غريبا حقا ٠ وكان قاع الصندوق مغطى بلوح من الزجاج ، يستطيع السابح أن يرى قاع البحر من خلاله بكل وضوح ٠ وعندما كان أحدهم يرى محارة أو أكثر ، فانه يطرح الصندوق جانبا ، ويغطس لاحضارها ٠ وكانوا يواصلون السباحة ساعات طويلة ، دون أن يبدو عليهم التعب ، ودون أن يشكوا من أي ازعاج ٠

وبهذه الطريقة ، كانت قيعان الخليج ، أو على الاقل الضحلة منها ، تنظف من المحار بكل كفاءة ، على الرغم من الاصرار على استخدام الوسائل القديمة ، ومن التناقص الحاد في عدد المراكب والرجال العاملين في هذه المهنة ٠

وقد مكثنا في ذلك المرسى المحاذي للحاجز المرجاني ، بينما كانت مراكب الأسطول تعمل في الجرف المجاور ، وتمكن الشيخ محمد ، خلال مدة اقامتنا ، من شراء عدة رزم من اللآلىء الجيدة ٠ وفي المساء ، وفي تلك الآونة القصيرة التي تفصل بين النور والظلمة ، كنا نتناول طعامنا ، ثم نقوم بزيارة المراكب الاخرى ، أو يقوم نواخذتها بزيارتنا ، فنتجاذب أطراف الحديث معهم ومع التجار الآخرين ، ونبدي اعجابنا بما حصلوا عليه من



اللؤلؤ ، كما نكيل المديح للآلىء التي حصلنا نحن عليها . وعند مغيب الشمس ، ينادي المؤذن للصلاة ، فيقوم الجميع بتأديتها ، وبعد ذلك كنا أحيانا نسمع قرع الطبول على ظهر أحد مراكب البدو الراسية على شاطىء الكويت ، أو نرى ألسنة اللهب تندلع لمدة قصيرة على ظهر أحد المراكب المتأخرة في الوصول الى الشاطىء ، وذلك لتجهيز شيء من القهوة . ثم يخيم على الكون صمت مطبق ، فالجميع يخلدون الى النوم أثناء الليل . وكانت المراكب الصغيرة تتماوج وتهتز وهي متكئة على مراسيها ، بل أنها تتحرك فيحتك بعضها ببعض ، الا أن الغواصين الذين كانوا يصطفون متلاصقين كالسردين في علبته ، كانوا ينامون نوما عميقا ، بعد عمل يوم مرهق ، لا يشعرون بشيء من حولهم حتى بزوغ الفجر . وعندها يستيقظون ثانية ، ليعملوا في فلق المحار ، فقد كان صيد اليوم السابق دائما يودع في أكياسه خلال الليل لكي يموت المحار ، فيصبح فتحه ميسورا . وفي اثناء قيام البحارة بهذا العمل ، تبزغ الشمس ، ثم يشتد نورها ، فيتسنى للغواصين بمساعدتها رؤية قاع البحر . فلم تكن هناك جدوى من بدء الغوص قبل أن يقوى نور الشمس . كما لم تكن هناك فائدة ترجى من الغوص في الأيام التي تهب فيها الريح الشمالية ، المحملة بحبات الرمل الناعم اللاذع ، فتصبح الرؤية سيئة لدرجة أن الغواصين لا يرون شيئا على عمق قامة واحدة . كما لم يكن الغوص ممكنا عندما كان البحر يهيج وترتفع أمواجه ، وترتفع المراكب وتنخفض بشكل عنيف ، يجعل الغوص خطرا على الحياة . وفيما عدا بضعة أيام مثل هذه ، التى كان الغواصون يتعطلون فيها عن العمل ، كان الطقس عادة معتدلا ومستقرا طوال موسم الغوص .

وفي أحد تلك الايام التى كنا نرسو فيها على الحاجز المرجاني، عثرنا على يوسف العجوز . وعندما أتى ، كان الوقت مساء ، هادئا غاية في الجمال ، وقد انعكست على الماء ألوان الشفق الخفيفة الرائعة ، وامتلأ الجو بأهازيج البحارة القادمين على مراكبهم يدفعونها بالمجاذيف ، ويرفعون أشرعتها الكبيرة ، التي كانت تنعكس صورتها على زرقة الماء الصافية ، فأخذ الجو يعبق بأريج الرومانسية ، وبدأ المنظر كله كأنما هو ضرب من الخيال . وكان يوسف قادما على سمبوكه ، ليلحق بالأسطول الرئيسي ، بعد أن جرب حظه في مكان آخر ، وسط الخليج ، يبدو أنه كان خاصا بقائد السمبوك . ولقد صعقت لما طرأ على الرجل من تغير . فقد أصبح وجهه مشدودا ، وازداد هزاله ، كما ازداد شعره الأشيب بياضا ، وتناقص ، وهو

الذي لم يكن غزيرا في الأصل · وغارت وجنتاه حتى كأنهما قطعتان من الجلد المجرد ، شدتا على عظام متقلصة · وأما يداه ورجلاه فقد كانتا متقرحتين ، رغم أن أظافره كانت مغطاة بقطع من الجلد تحميها من الصخور المتكسرة ، والشعاب المرجانية الحادة الرؤوس · وكانت معدته خاوية ، كأنها لم تعرف طعم الزاد منذ أسابيع · ولم يكن يستطيع الوقوف منتصبا ، فقد كان ظهره قد انحنى على معدته الخاوية ، كما كانت رجلاه قد هزلتا ، ولم يبق فيهما الا الجلد والعظم ، وكذلك كانت يداه ، فقد أثر الماء فيها جميعا ، فتركها وقد ذوت وجفت تماما · وكان جلد رجليه مغطى ببثور صغيرة ، كانت تبدو كأنها « الخالات » الصغيرة ، وقد أصبح لكثير منها رؤوس متفجرة ·

وكان كثيرون من الغواصين على ظهر هذا السمبوك ، وغيره من المراكب الاخرى ، مصابين بنفس المرض في أرجلهم ، وكثيرون مصابين في أذرعهم أيضا ، ولا بد أن هذه البثور كانت مؤلمة جدا · وكنت قد رأيتها لأول مرة ، ونحن على ظهر « فتح الخير » · ولم تكن تستجيب لأي نوع من العلاج ، الا أنها كانت تتحسن بعض الشيء اذا ما أبتعد البحارة عن ماء البحر مدة من الزمن · لقد كان يوسف المسكين في حالة يرثى لها · فكان يبدو كأنما زاد عمره عشرين عاما ، وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة · ورغم ذلك كله ، فقد حياني بحيوية وابتهاج ، فقد كانت روحه لا تزال عالية ، ولم يؤثر فيها قبوله لما قدر له بكل طواعية ورضى ، ولم يكن منظره يوحي بأنه يستجدي العطف أو الشفقة من أحد · لقد كان قبوله لمصيره نوعا من التسليم الشجاع للقدر المكتوب ·

وقد علمنا منه أن صيدهم من اللؤلؤ كان هزيلا · وهذا لا يعني أنهم لم يعثروا على شيء منه ، بل حصلوا على الكثير ، الا أنه لم تكن هناك لؤلؤة واحدة من الصنف الاول ، ولم تكن الا بضع لآليء من الصنف الثاني ، أما الباقي ، فكانت من الاصناف الرخيصة جدا · لقد أذهلني أن أعلم أن عدد اللآليء الممتازة التي يعثرون عليها ، نادرة جدا · ففي خلال الشهرين ، اللذين أمضيتهما في تلك المصائد ، كنت أرى أكياسا مملوءة باللآليء في كل يوم ، ولكني لا أعتقد أني رأيت اكثر من دستة من حبات اللؤلؤ التي كانت جواهر كبيرة لا تشوبها شائبة · وقد قال لي الشيخ محمد أن جميع مصائد اللؤلؤ لم تكن تأتي ، في العام بأكمله ، بأكثر من عقدين من اللؤلؤ الممتاز ·

وفي الصباح رافقت يوسف على مركبه ، لأقضي النهار معه ، وأراقب الغوص في نفس الوقت · ولم يقبل العجوز مني شيئا سوى بضع سجائر ،

وحفنة من التمر ، لأنه ، كما قال ، ليس بحاجة للأكل • فلم يكن يجوز للغواصين أن يأكلوا كثيرا ، بل كان من الافضل لهم ألا يأكلوا أكثر من حبات من التمر مع القهوة في الصباح ، ولقمة من الطعام في المساء ، عندما ينتهون من عمل النهار ، فليس باستطاعتهم الغوص ، وبطونهم مملوءة بالطعام ، والا فان الموت مصيرهم • وكان على يوسف أن يقضي ستة أسابيع أخرى ، أو سبعة ، وقال لي أنه يستطيع تحملها ، كما تحملها مدة عشرين عاما من قبل • لقد كان الامر صعبا عليه في بادئ الامر ، بعد أن كان قد ابتعد عن الغوص خمس سنوات كاملة ، الا أنه تعود على الحياة الشاقة ثانية ، ولم يبق له الا ستة أسابيع ، لو كنت أنا الذي سأقضيها هناك ، لبدت كأنها لن تأتي الى نهاية أبدا •

عندما مرت ساعة على طلوع الشمس ، كنا نقف على الجرف ، حيث كان الماء رقراقا صافيا ، وكان البحارة قد أنهوا فلق المحار الذي جمعوه في اليوم السابق ، وكان ملء سبعة أكياس كبيرة ، الا أنهم لم يحصلوا منها جميعا على أكثر من ملء ملعقة صغيرة من اللؤلؤ ، ولم يكن أي منه من النوع الممتاز • لقد كان الحظ عاثرا بالفعل ، لأن بعض المراكب الاخرى في نفس المرسى ، كانت قد صادت لآلئ ممتازة • كما أن سمبوك أمير البحر كان فيه من اللؤلؤ ما ثمنه عشرة آلاف روبية • ولكن الله كريم ! ولا بد أن يوأتيهم الحظ عما قريب • لقد كنت أرجو ذلك من كل قلبي ، وأنا أراقب يوسف العجوز وهو يجهز نفسه للغوص •

كان السمبوك قديما ، مضى عليه أربع سنوات ، وهو واقف عاطلا عن العمل ، على رمال الشاطئ ، الا أنه كان اكبر حجما من كثير من المراكب الاخرى ، وفي حالة جيدة ، وكان له ثمانية مجاذيف من كل جانب • كما كان له سطح ، ولكنه بدون شرفات على الجانبين ، مثله في ذلك مثل سائر مراكب الغوص الاخرى • وعندما يكون المركب راسيا ، كانت المجاذيف تلقى على عرضه ، وهي موثقة بمساندها ، وتبرز فوق البحر وهي على زاوية قائمة مع هيكل المركب • وكانت المجاذيف توضع على هذا الشكل ، وفي جميع المراكب ، وهي واقفة فوق الجرف ، لأنها كانت ذات أهمية خاصة بالنسبة للغوص • فقد كان هناك غواصان ومساعد(١) لكل مجذاف ، وكانت حبال الغواصين تمتد فوق المجاذيف ، لمنع أية امكانية لاشتباك بعضها بالبعض الآخر • وفوق كل مجذاف من المجاذيف ، التي أصبحت مهترئة من كثرة امرار الحبال عليها ، كانوا يعلقون حبلا ، يبلغ طوله حوالى خمس

---

(١) المساعد يسمى « سيب » ، جمعها « سيوب » باللهجة الكويتية (المترجم) •

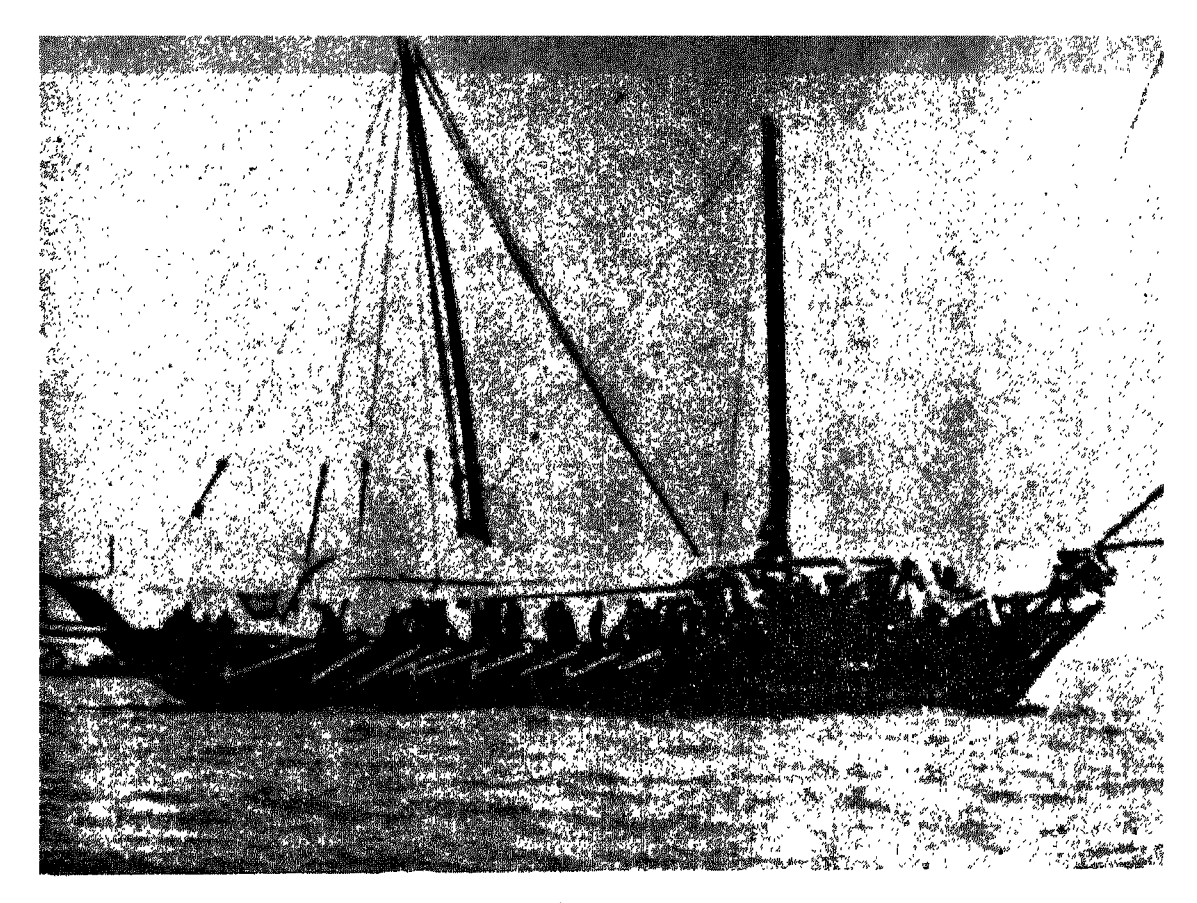
عشرة قامة ، وفي طرفه حجر مثبت به • وكان الغواصون ينـزلون الـى الأعماق بمساعدة هذا الحجر ، الذي كان يرفع ثانية ، حالما يصل أحدهـم الى قاع البحر • وكان كل منهم يصحب معه حبلا آخر ، مربوطة به سـلة مصنوعة من الحبال ، معلقة على عصا معقوفة من الخيزران المجدول ، وكان الغواص يظل متشبثا بهذا الحبل ، الذي كانت وظيفته المحافظة على حياته من جهة ، وجمع المحار في سلته من جهة أخرى ، فاذا ما أفلت هذا الحبل من يد الغواص ، كانت في ذلك نهايته • وكانوا يغوصون وهم يرتدون سراويل سوداء قصيرة ، ولا يرتدون شيئا سواها •

وكان يوسف يعلق قطعة من خيط القنب حول عنقه ، يتدلى منهـا ملقط للانف (فطام) • وكان هذا الفطام مصنوعا من قرن الكبش ، الا أن فطامات بعض البحارة الآخرين كانت مصنوعة من الخشب • وقبـل كـل غطسة كان يثبت هذا الفطام على أنفه بعناية ، فقد كان وسيلة الحمايـة الوحيدة التي يستخدمها • وقد سألته لماذا يرتدي جميع الغواصين السراويل السوداء ، فأجاب بأن الأسماك الكبيرة ، وخاصة سمك القرش ، لا تحـب اللون الاسود ، وما دام الغواصون يرتدون هذا اللون فهم في مأمن منها • وكان هذا اعتقادا مطمئنا ، ولكنني لم استطع أن أتأكد من مدى صحته ، وقد أضاف يوسف قائلا ان الغواصين يرتدون قطعا صغيرة من القماش الأبيض اذا تواجد سمك الشفنين في تلك المياه(١) • ولكن نظرا لعدم وجود هذا السمك في ذلك اليوم ، فقد كان الجميع يرتدون السواد فقط • وكـان يبدو لي أن لدى كل غواص زوجا من السراويل السوداء ، وازارا واحدا • وعندما كان يصعد الى سطح الماء ، وهو يرتجف من البرد ، بعد أن يكون قد أتم الغطسات العشر المقررة على كل منهم ، ثم يسحب الى سطح المركب، كان يبدل سرواله المبلل بسروال جاف ، ويعلق المبلل ليجف ، ثم يقف حول نار الموقد يتدفأ ، الى أن يحين موعد نزوله الى الماء مرة ثانية •

لقد كانت هناك نوبتان من الغواصين ، نوبة لكل مجذاب من كـل جانب ، يقوم كل فرد منها بعشر غطسات ، ويستريح عشرا • وعلمت من يوسف أنه يغوص مائة وعشرين مرة في اليوم ، معظمها في المياه الضحلة • وكانت كل غطسة تستغرق حوالى دقيقة ، أو بكلام أصح ، ما بين أربعين الى تسعين ثانية في المعدل • وعلى هذا المعدل يمضي يوسف حوالى ساعتين

---

(١) يبدو ان في الامر لبسا بالنسبة للالوان • فقد كان الغواصون يرتدون القمصـان السوداء ، لا البيضاء ، لابعاد هذا النوع من السمك (المترجم عن محمد احمـد الرشيد) •



سمبوك للغوص

في قاع الخليج كل يوم • ساعتين في اليوم ! لقد كان ذلك يبدو لي كثيرا جدا ! الا ان يوسف أخبرني أن هناك فترات للراحة أيضا ، بمعدل يوم كل عشرة أيام أو يومين كل ثمانية عشر يوما في بعض الأحيان ، اذا كان حوض الصيد غنيا ، والطقس مناسبا للغوص • وكانوا يقضون أيام الراحة على الشاطىء ، لأن المركب كان يحتاج الى التزود بالماء والوقود • وكان البحارة ، الذين يعملون عادة مساعدين للغواصين وهم في البحر ، هم الذين يتولون مهمة البحث عن الماء والوقود ، وجلبهما الى المركب ، في حين يتنـــاول الغواصون طعامهم وينامون نوما عميقا •

ها هو يوسف العجوز يمسك بحبله الآن ، وهو في الماء ، تحت آخر مجداف في الجهة الخلفية ، على ميمنة المركب • وكان هذا هو مكانه المحدد ، وهو المكان الذي يحتله عادة رئيس الغواصين ، الذي كان يؤمل منه دائما أن يأتي بالقدر الأكبر من المحار • وقد بقي معلقا هناك بضع لحظات ، يتحسس الماء ، ويثبت فطامه بالشكل السليم ، وكانت العظمات العشر المصفوفة على سعفة النخل في مؤخرة المركب ، تدل على أن أحدا لم يقم بالغوص حتى الآن • وكلما كان الغواصون ينزلون الى قاع البحر مرة ،

كان البحار الذي يساعد في سحب الغواصين من الماء ، والجالس في الخلف ، ينقل احدى تلك العظمات من مكانها ، وعندما كانت العظمات العشر تنتقل كلها من مكانها الأصلي ، يصيح هذا معلنا انتهاء النوبة بالنسبة لهذه المجموعة من الغواصين ، فيصعد هؤلاء الى سطح المركب ليستريحوا ، ويحل غيرهم مكانهم ، وهكذا • وكان على ظهر هذا السمبوك اثنان وثلاثون غواصا ، وعشرون مساعدا ، ونوخذة ، وكاتب ، وطباخ وخمسة صبيان(١)• وكان هؤلاء الصبيان ، حسبما رأيت ، لا يعملون شيئا سوى ابقاء النراجيل مزودة بالطباق ، وجلب الماء ليغسل البحارة أيديهم قبل الأكل ، والوقوف حول النوخذة في كل مرة يغير فيها مرسى المركب ، وهم جاهزون لسماع الأوامر ، ونقلها بصوتهم العالي الحاد الى البحارة ، ليستطيع هؤلاء سماعها من فوق أصوات الغناء الهادر من ستين رجلا ، وكان واحد من أولئك الصبيان هو ابن يوسف ، ولم يكن عمره يزيد عن السادسة • وقد علق العجوز على ذلك قائلا : « اني استطيع على الأقل رؤيته وهو معي هنا • ولكني سأعمل على الا يتورط في أي دين من أي نوع » •

لقد أصبح يوسف جاهزا للغوص الآن • وها هو يمسك بالسلة من حافتها العليا • ثم يلف الحبل ، الذي ينتهي بالحجر ، حول رجله ، جاعلا الحجر يلامس قدمه • ثم ينظر الى مساعده فوق المركب ، ويعطي الاشارة • وها هو المساعد يفلت الحبل ، ويوسف يغوص في الماء • وها هو يهبط ويهبط الى أسفل ، وأنا أراقبه ، وأستطيع أن أراه حتى يصبح على عمق ثلاث قامات ، ثم أربع ، كما أرى التيار يجرفه معه ، ويسحبه نحو المؤخرة ، ثم يصبح نقطة مظلمة غير واضحة في الماء ، ثم يختفي كلية عن ناظري • وبعد بضع ثوان ، عندما يشعر المساعد بأن الحبل ذا الحجر قد ارتخى على أثر ملامسته للقاع ، يسحبه الى أعلى ، ويجعله في عقدة رخوة حول المجذاف ، ثم يمسك بحبل السلة ، ويمد ليوسف به ، بانتظار تلك الهزة الخفيفة ، التي تشير الى أن رئتي يوسف لم تعودا تقدران على التحمل ، وأن هذه الغطسة قد أتت على نهايتها • كم يا ترى مضى على يوسف وهو تحت الماء ! لقد كان الوقت يبدو طويلا بالنسبة لي ، وأنا واقف هناك أنتظر • ولم أعد الثوانى فى بادىء الأمر ، فقد كانت تبدو كأنها دقائق • لقد أصبح جميع الغواصين فى البحر الآن ، وخيم الصمت على المركب ، بينما كان المساعدون يقفون هناك منتصبين يقظين ، وهم يمسكون بالحبال، وما زال الغواصون فى الماء • وكانت الحبال مشدودة وجميعها متجهة الى

---

(١) ويدعون باللهجة الكويتية « الثبابون » جمع « ثباب » • وهم صبية تحت العاشرة يقومون بالخدمة الخفيفة ، ولا يتقاضون أجورا عن أعمالهم (المترجم) •

خلف المركب ، يفصل كلا منها عن الآخر ذراع المجداف المستدير • وكان من الواضح أن هناك تيارا قويا يجرى فى قاع البحر ، فقد كان يوسف ، آخر الغواصين من الخلف ، يبعد ما لا يقل عن ثلاثين قدما خلف المركب • مضت دقيقة كاملة ، والآن ، ما هذا ؟ انها هزة خفيفة جدا ، يكاد المرء لا يشعر بها • الا أن المساعد بدأ يسحب الحبل سحبات سريعة طويلة قوية ، أولا باحدى اليدين ، ثم بالاخرى بتتابع سريع • وتابع سحبه للحبل ، ومر وقت ، طويل دون أن أرى أثرا ليوسف • والآن ! نعم ، ها هى بقعة داكنة باهتة تبدو فى الاعماق، على زاوية خمس وأربعين درجة منسطح المركب• وبدأت البقعة تكبر بسرعة ، ثم تأخذ شكلا غير واضح لجسم بشرى ، ثم يتضح رأس رجل ومنكباه ، وأخيرا يخرج يوسف الى سطح الماء ، برأسه الأشيب القصير الشعر • نعم ها هو يوسف العجوز يصل الى سطح الماء أخيرا ، وأول ما يظهر منه سلته وقد امتلأت بالمحار ، ثم رأسه الأشيب العجوز ، وقد امتدت احدى اليدين لتحجب عن عينيه وهج الشمس ، ثم كتفاه والماء يتصبب منهما • وكأنما الرجل عجل البحر • وعندئذ نفخ نفخة كبيرة واحدة ، كأنه الحوت ، وأزاح الفطام عن أنفه ، وأخذ شهيقا طويلا • ثم بقى عائما فى الماء بجانب المركب ، بينما كان مساعده يرفع السلة الى سطح المركب •

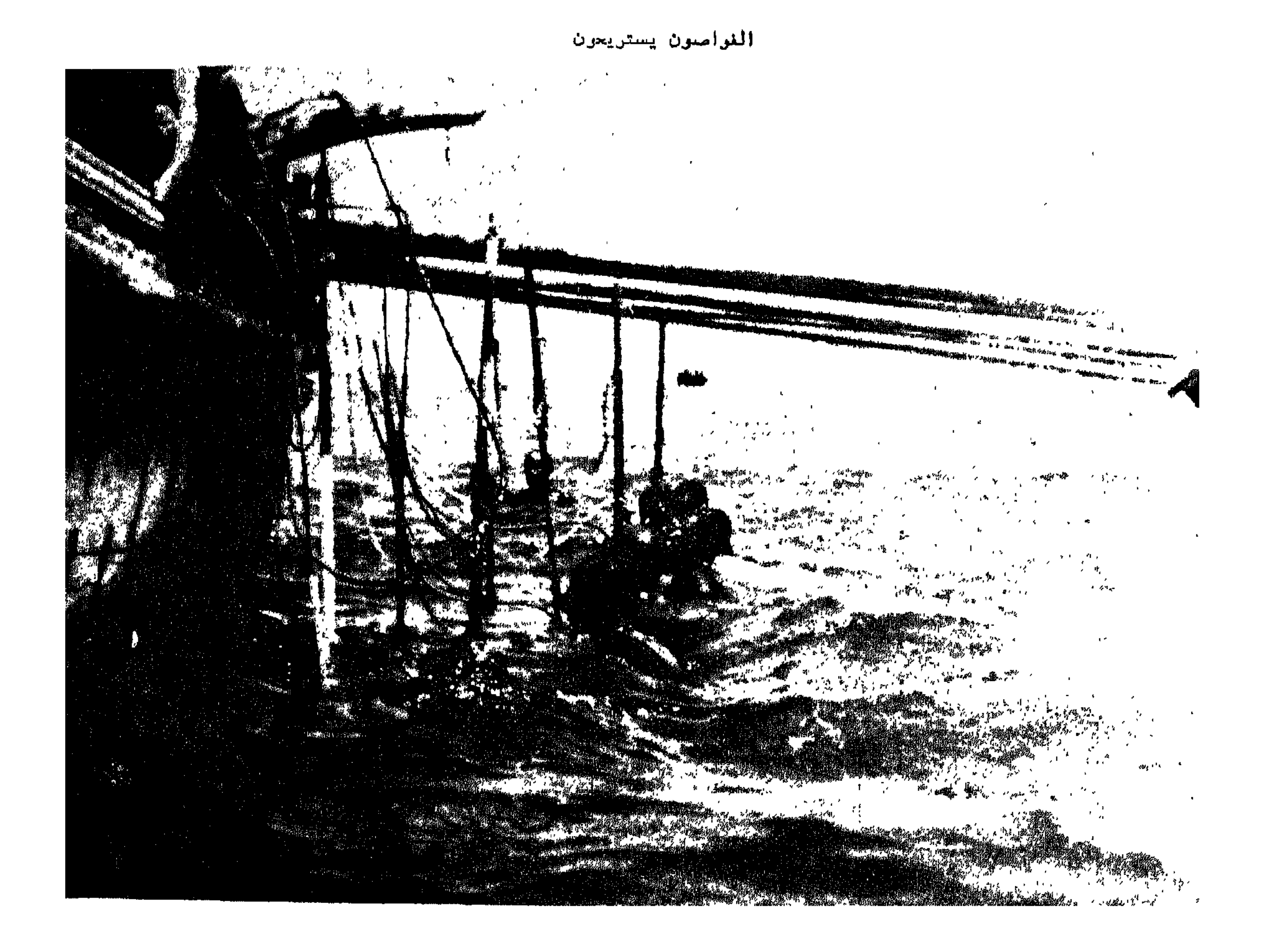
وها هم الغواصون جميعا وقد عادوا الى سطح الماء ، وكان يوسف آخرهم • وها هم المساعدون يتولون أمر سلالهم ، التى كان بعضها ممتلئا الى النصف ، والبعض الآخر الى الربع ، بينما لم يكن فى بعضها سوى محارتين أو ثلاث • وكان كل من المساعدين يرفع سلته ، ثم يدور بجسمه باتجاه المركب ، صائحا : « الله كريم » ، يتبعها بصيحة عميقة أخرى قائلا : « يا الله » وهو يفرغ محتويات السلة على سطح المركب ، فيسمع لها قعقعة • والدعوات تتردد من المساعدين الآخرين « الله كريم ! يا الله ! » •

وعند هذا ، يكون الغواصون قد أخذوا قسطا قليلا من الراحة ، فقد غاصوا دقيقة واستراحوا دقيقتين • ثم يشرعون بتناول السلال مرة ثانية ، فالحبال ذات الحجارة ، ثم يثبت كل منهم فطامه على أنفه ، ويغوص ثانية• وبعد ذلك يأتى الانتظار الطويل ، الرهيب أحيانا ، قبل أن تظهر الرؤوس البيضاء على السطح مرة أخرى ، وتصعد السلال المحملة بالمحار الى السطح فتفرغ هناك ، ويسمع لذلك الصوت المعروف ، كما يسمع دعاء «اللهكريم!» و « يا الله ! » ، ثم تنتقل احدى العظمات من مكانها الاصلى ، ويعود الغواصون للمغطس مرة أخرى •

وقد استمر الحال على هذا المنوال عشر مرات متتالية ، بينما كان غواصو الدفعة الثانية يجلسون بكل هدوء على مؤخرة المركب ، دون أن يبدر منهم أى اهتمام ، وكأن الأمر لا يعنيهم من قريب أو بعيد ، ولكن سرعان ما نودى عليهم ونزلوا الى الماء ، بينما وقف يوسف وغواصو دفعته يرتجفون وتصطك أسنانهم من البرد ، وهم يتحلقون حول الموقد الهزيل طلبا للدفء • وكانت هناك قطعة من شراع قديم قد نشرت لحمايتهم من الهواء البارد ، فقد كان النهار فى أوله ، وكانوا يشعرون بالبرد حقا • وعلى الرغم من أن الطقس كان بالنسبة لى حارا لدرجة لا تحتمل ، فقد كانت درجة الحرارة في الظل ، فى ذلك الصباح الباكر ، تبلغ مائة درجة فهرنهايت ، الا أن الغواصين البؤساء ، المعروقين ، كانوا يقفون هناك فى وزراتهم وهم يرتعدون من البرد •

وعندما اشتدت حرارة الشمس اشتدادا كبيرا ، رفعت مظلتان من قماش يابانى رخيص ، واحدة فوق مقدمة المركب ، والاخرى فوق مؤخرته، فقد كانت الشمس ترسل أشعتها اللاهبة فتسلق أجسام البحارة بشواظها

الغواصون يستريحون



النارية طوال النهار . وكان هؤلاء، مثلهم فى ذلك مثل الغواصين، لا يتناولون شيئا من الطعام ، فما دام الغواصون لن يأكلوا شيئا ، فلماذا تطبخ وجبة الغداء ؟ والواقع أن أحدا لم يكن يتناول هذه الوجبة على مراكب الغوص . وفيما كان كثير من الغواصين من البدو، كان معظم المساعدين من الايرانيين، بينما كان البعض الآخر من العبيد الزنوج المحررين . فى هذا الوقت ، كان الغواصون قد غاصوا عشرين مرة فى المكان نفسه ، وجمعوا ما يمكن جمعه من المحار . ولذلك فقد أرخوا حبل المرساة الطويل ، فانتقل المركب عشرين ياردة من مكانه الى الخلف ، مع اتجاه حركة المد . وعندما سألته عن طريقة عمله فى الاعماق ، وكيف كان بامكانه أن يبقى على قاع البحر ، دون أن يكون معه ثقل كاف لابقائه هناك ، على عمق يبلغ ثمانى قامات ، أجاب بأنه كان يزحف على قعر البحر وعيناه مفتوحتان ، وكان عليه أن يشق طريقه بالقوة ، بأن يتشبث بالرؤوس الناتئة من الشعاب المرجانية ، ومن الصخور الاخرى . وعندما كان يرى المحار ، كان يقتلعه من الصخر ، ويلقى به فى سلته ، كما كان عليه أن يعمل بسرعة كبيرة ، والا يبتعد عن المركب أكثر مما يطيق . وكان كل رجل يتقيد بالجزء المخصص له من القاع ، ويتجه مع التيار الى خلف مجذافه . وحالما يلامس حجره القاع ، يبدأ هو بذرعه ذهابا وايابا ، على زاوية قائمة مع هيكل مركبه ، بحسب تقديره وكفاءته . وبهذا يستطيع الغواصون جميعا تغطية القاع بشكل تام وكامل ، فلا يفوتهم أى جزء منه .

ثم تستمر العملية فى المكان الجديد : عشر مرات للغطس ، وعشر للراحة ، ثم عشر غيرها للغطس ، ومثلها للراحة ، ثم يرخى الحبل وينتقل المركب الى مكان جديد ، ويستمر العمل . وها نحن نرى الكيس وقد امتلأ بالمحار الى منتصفه ، فقد كان المحار كله يجمع فى أكياس موضوعة عند أسفل الشراع المزينى . وها قد أصبح السطح كله مبللا بالماء ، بل أصبح المركب كله مكانا مبللا يستخدم قاعدة للعمل الدائب . فها هم المساعدون يتصببون عرقا ، بينما الغواصون يرتجفون بردا . ومع أن المساعدين كانوا سمانا ، والغواصون فى غاية الهزال ، الا أن هؤلاء لم يكونوا يعرفون طعم الراحة ، وأولئك لم يكونوا يعرفون طعم الدفء . فقد كان الغواصون ، بوجناتهم الغائرة ، وهزالهم المؤلم ، يتحلقون حول نار الموقد ، ينتظرون دورهم فى الغطس . وكان المساعدون يرتدون الوزرات ذات اللونين الاحمر والازرق ، بينما يرتدى النوخذة قميصا أبيض ، والغواصون سراويلهم السوداء القصيرة . ولم تكن أسطح المراكب المكتظة تتسع لأكثر من الرجال العاملين عليها . وعلى مقربة من الموقد ، كان هناك بضعة أكوام من العوسج ، وعدد من قرب الماء الفارغة ، فقد كان الماء

الصالح للشرب محفوظا فى خزانات خشبية فى العنبر • وعلى سطح المؤخرة كان يتكوم غواص مريض لا بد من وجوده على كل مركب ــ أما مركبنا فقد كان عليه مريضان ، لا مريض واحد • وفى المقدمة كانت هناك بعض مصائد السمك المصنوعة من الحبال ، وكانت تستعمل صدف المحار ثقلا لها • وتحت سطح المؤخرة ، بجانب سدة النوخذة ، كان الصندوق الوحيد على ظهـــر المركب ، وهو الصندوق الذى يحفظ فيه النوخذة حصيلة المركب من اللؤلؤ• ولم يكن هناك مكان مخصص لنوم أحد ، سوى ذلك المكان الخشن الذى ينام عيله النوخذة • وفوق سطح المؤخرة ، وعلى جوانبها ، كانت صرر طاقم المركب موثقة • وهى الصرر التى يحتفظ كل فرد من أفراد ذلك الطــاقم بجميع ما يملك من متاع الدنيا فيها ، وكان هذا المتاع يتألف من خرقة من القماش ، وسبحة ، وورقة أو اثنتين من الطباق الايرانى السىء ، ومسواك• لقد كان هذا هو كل شىء ، ولا شىء سواه ، لا فراش ، ولا دواء ، ولا شىء آخر من متاع الدنيا •

وهكذا مضى الحال ، وكأنه لن ينتهى أبدا • الغطس ، والعودة الى السطح ، والنفخ ، والراحة ، وارخاء الحبل ، وصياح الاولاد وهم يرددون « بلي » (١) ، حتى أصبح سطح المركب يعج بالفوضى العارمة ، من وحل البحر ، ومن الزواحف الخارجة من المحار المفتوح • وزاد ارتفاع الشمس ، حتى أصبحت كالجحيم ، وهى تقذف بحممها على الماء الملتهب • لقــد كان يوما يخيم عليه الهدوء القاتل • ونظرت حولى ، فرأيت على البعد ، من جانبى المركب ، مجموعات المراكب الاخرى وهى تعمل على الجرف : عشرات منها هناك ، بعضها ترى على جانبيها رذاذ الماء ، عندما تضربه المجاذيف لتحرك المراكب من مكانها ، وبعضها يخيم عليه الهدوء ، بينما يقوم غواصوه بأعمالهم فى الماء ، كما كان بعضها الآخر بعيدا جدا ، ولكنها تبدو فى غاية الضخامة من أثر السراب • وكان على أحدهما ، وهو مركب بدوى من نوع « الشوعى » ، شراع أوربى صغير ، وقد بدا بتأثير السراب وكأنه منطاد عظيم غير ممتلىء بالهواء • وعندما تقدم النهار ، اشتدت الحرارة ، حتى بلغت حدا تجاوز مقدرتى على تحملها ، مع أنى كنت أعتقد أنى قد لاءمت نفسى مع الوضع السائد هناك • ولم يتوقف العمل ، بل استمر دون انقطاع، فقد كان الحال مثاليا لأعمال الغوص •

وعندما كان حبل المرساة قد امتد الى نهايته ، أخذ البحارة يشدونه

---

(١) بلي : صيغة ماخوذة عن الكلمة الانجليزية (belay) وتعنى : يربط على وتد أو عقلة • وهى تستعمل على مراكب الغوص لايقاف المركب ، وانزال المرساة فى مكــان معين • والتعبير الاكثر شيوعا كان (يروح) وهو أمر بالقاء المرساة (المترجم)•

ليرفعوا المرساة ، بينما كان الغواصون يهرعون الى الموقد ويلتفون حول ناره المشتعلة • فلم يكن هؤلاء يشاركون فى هذا العمل الا اذا أرادوا أن يحركوا الدم ثانية فى عروقهم • بل كان البحارة هم الذين يؤدونه وهم يرقصون ويهزجون • فقد كان البحارة هم سدنة المركب ، كما كانوا يساعدون الغواصين ، بينما كان على الغواصين الغوص والغوص فقط ، فما كانوا يطيقون القيام بأى عمل آخر ، بل كانوا بحاجة الى كل درهم من الطاقة الكامنة فيهم لاستخدامها فى عملية الغوص •

وها هم البحارة يرقصون في صفين طويلين متقابلين على ظهر المركب ، ويدورون ويدورون وهم يصفقون بأيديهم الضخمة ، ويهزجون ، بينما يصعد الحبل الغليظ تدريجيا الى أعلى قامة بعد قامة ، وهو يقطر ماء • وها هي المرساة تظهر ، ولم تكن هذه سوى قطعة من الحجر مغروز فيها مسمار طويل ، وتسحب الى السطح حيث تلقى هناك ، وفي الحال يصدر الأمر من النوخذة : « الى المجاذيف ! » فيهب البحارة ، يمسك اثنان منهم بالمجذاف في حركته الى الامام ، وثلاثة في حركته الى الخلف ، يضربون به البحر بقوة وعزم ، رغم وزنه الهائل ، وطوله البالغ ثمانية عشر قدما • وهنا فقط بدأت أتخيل كيف كانت الحياة على ظهر المراكب الحربية الاوروبية القديمة ، كما بدأت أفهم لماذا يستحيل دفع المراكب الكبيرة بسرعة باستخدام صف واحد فقط من المجاذيف • فتجذيف مثل هذه المراكب عمل بطيء ، ثقيل ، مؤلم ، وكان يتم على مركبنا بمصاحبة الغناء والايقاع، وأعتقد أني بدأت أدرك الآن أن معظم أساليب البحارة الكويتيين ، في عملهم على ظهور المراكب التجارية الكبيرة التي تجوب المياه العميقة ، مقتبسة من أساليب عملهم على مراكب الغوص • فالأغاني هي نفسها ، والاهازيج هي نفسها ، والتصفيق باليدين هو عينه ، وذلك الصوت الصادر من أعماق الصدر هو هو ، وطريقة ضرب سطح المركب بالاقدام هي ذاتها ، وكذلك نفس الخطوات المستخدمة في الرقص عندما يتاح لهم ذلك •

ها هى المجاذيف الطويلة تلمع وهى ترتفع فى الهواء كلها فى وقت واحد بالضبط ، ثم تهبط بقوة الى العمق المناسب في الماء ، بينما البحارة الكادحون ، المتصببون عرقا ، يمسكون بأطرافها بقوة ، ويسحبونها الى الخلف ، وهم يعودون بضع خطوات معها ، وعضلاتهم مشدودة شدا كاملا ، وحناجرهم تهتز بالغناء ، بينما يقف النوخذة وهو يرقب العملية بعينين كعيني الصقر ، فلا بد أنه يعرف هذه المياه أكثر من السمك الذي يعيش فيها ، مع ان الطريقة التي يكسب فيها هذه المعرفة لا تزال سرا من الأسرار • فلا يمكنني أن أقول كيف يمكنه أن يميز جرفا من جرف ، لأن الجروف هنا

بعيدة عن البر ، بحيث لا يمكن رؤيته منها • ومع ذلك ، فانه يعرف المنطقة تمام المعرفة ، ويعرف تماما أين يجب أن يوجه مركبه ، ويجزم أنه يصل الى هناك بالفعل • وفي هذه الأثناء ، تدق الطبول لكي تحفظ الايقاع ، أو تساعد على التجذيف الجماعي المنتظم • بينما يمسك الكاتب بذراع الدفة ، ويحركها يمنه ويسره ، استجابة لايماءة من رأس النوخذة • أما الصبيان فانهم يقفون عند قاعدة الصاري المزيني ، على أتم استعداد لترديد أية أوامر تصدر من النوخذة ، والطبول لا تتوقف عن الهدير لكي تحافظ على ايقاع المجاذيف • ومن آن لآخر يسمع صوت هبة قوية من التنفس المجهد ، صادرة عن أحد البحارة القائمين على المجاذيف ، الا أن هؤلاء لا يتوقفون عن الانشاد أبدا ، شكرا لله على نعمائه ، ودعاء له لينعم عليهم بمزيد من اللؤلؤ • وهكذا يزحف السمبوك • شاقا طريقه في المياه اللامعة ، في غمرة من الغناء المتصل ، والآن ، هل نتوقف هنا ! نعم » ، يومئها النوخذة برأسه ، فيصيح الصبيان : « بلي ! بلي ! يكفي ! يكفي ! » ، وسرعان ما تلقى المرساة الصخرية ، وتثبت المجاذيف على جانبي المركب ، وتلقى عليها حبال الأثقال ، وحبال السلال دون تأخير •

وقبل أن يبدأ الغوص في هذا المكان الجديد ، يتجمع البحارة حول الصاري الرئيسي ، ثم يضع كل منهم يديه على اذنيه أو على خديه ، ويحني الجميع أجسادهم الى الأمام ، ثم يبدأون باطلاق ذلك الصوت العظيم الصادر من الأعماق ، الذي عرف به بحارة الكويت ، ذلك الهدير العميق الطويل الذي لا يصدر الا عن الاوتار الصوتية المتناهية في القوة ، التي يتمتع بها بحارة الخليج العربي • انه صوت يشبه زئيرا مكتوما لقطيع من الأسود الجائعة ، أو زمجرة قطيع من الدببة الكبيرة للحصول على قطعة من العظم ، أو هدير بركان عميق • انه صوت غريب أشد الغرابة ، لم أستطع تقليده ، مهما حاولت • ويستمر هذا الصوت المزمجر مدة طويلة ، وأسأل يوسف العجوز لماذا يفعلون ذلك ؟ أهو لاخافة سمك القرش ، أو سمك اللخمة ، أو لابعاد الجن ؟ الا أن يوسف لا يعرف الجواب ، ولا أحد غيره يعرف الجواب • انه أسلوب البحارة في العمل في الخليج • لربما كان من بقايا أحد الشعائر الدينية القديمة ، التي كان يقصد منها ابعاد الأرواح الشريرة ، أو استدعاء الأرواح الخيرة ، أو اخافة المحار القابع على قاع البحر • من الواضح أن هناك كثيرا من رواسب العادات والشعائر القديمة على هذه المراكب الكويتية • فلماذا ، مثلا يطلى الرأس الطويل الشريب من مقدمة المركب باللون الاسود دائما ؟ وهل هذا أثر من آثار احدى الديانات القديمة التي كان اتباعها يعبدون قضيب الذكر ؟ ولماذا التضحية بالجدي ، عند انزال المركب الى البحر ؟ وهو الذي ما زالوا يفعلونه في المكلا وغيرها

حتى اليوم • ولماذا يقوم البحارة الآن باصدار هذا الصوت الغريب ، عند الانتقال الى مكان جديد ، على جرف صيد اللؤلؤ ؟ »

لقد بلغ البحارة الآن كفايتهم من هذا الضرب من التصويت العميق • فها هو النوخذة يومىء برأسه فجأة ، فيصيح الصبيان مترجمين أمره كلاما ، فتتوقف الضجة توقفا كاملا ، ويهرع الغواصون الى جانبي المركب ، يتخذون أماكنهم المعتادة ، ويستأنف الغوص من جديد : عشر غطسات ، ثم راحة ، يغطس خلالها الفوج الآخر عشر غطسات أخرى ، وهكذا • وتشرع السلال المحملة بالمحار تتصاعد الى السطح حيث تفرغ ، والبحارة يرددون : « الله كريم ! ، يا الله ! » ثم تعود السلال الى البحر من جديد ، وهلم جرا ••• ويتم تنظيف هذا الجزء من الجرف • فيرخى حبل المرساة ، وينجرف المركب بضعة ياردات ، ثم يعاود الغواصون الكرة : عشر غطسات ، ثم راحة ، مقابل عشر غطسات من فوج آخر ، والرؤوس ذات الشعور البيضاء تخرج من مياه البحر الزرقاء ، والأذرع المجهدة ترتفع لتحمي العيون من وهج الشمس ، والصدور العظيمة تتهالك على أنفاس الهواء،حالما يزاح الفطام عن الأنوف• ويعودون الى الغوص ثانية : عشر غطسات ثم راحة ، وعشر غطسات للفوج الآخر • ثم يرخى الحبل من جديد وينتقل المركب بضع ياردات أخرى ، وتتكرر الغطسات العشر ، فالراحة مقابل الغطسات العشر للفوج الآخر ، ثم يرخى الحبل ويتحرك المركب ، ويستانف الغوص مرة أخرى • وها هي الشمس قد ارتفعت في السماء الآن ، وأصبح الحر مخيفا قاتلا ، وما عاد باستطاعة السقائف أن تفعل شيئا ، سوى تعتيم جزء من سطح المركب ، بدلا من تظليله وتبريده ، وما زال البحارة البائسون يرتجفون من البرد ، ويتحلقون حول نار الحطب ، بينما يقوم بعضهم بتأدية صلاة الظهر ، التي حان وقتها • الا أنه لا مجال للقيلولة على مركب الغوص • ويستمر العمل الشاق : عشر غطسات ، وعشر للراحة • ولا يتناول أحد أى طعام ، كما يغدو الهواء ساكنا سكون القبور ويصبح الهجير قاتلا • وها هو أحد الصبيان يرفع من البحر احدى مصائد السمك ، الا أنه يجدها خالية منه • ويستمر الغوص : عشر غطسات ، ثم راحة لهذا الفريق ، بينما يقوم الفريق الآخر ، بالغطس عشرا • يا ليوسف المسكين ! لا بد أن تكون هذه الحياة على ظهر مركب كهذا هي الموت بعينه لنفر من كرام الرجال •

اني أعلم أن المصاعب والمشاق التي يسجلها الكاتب في مفكرته ، يمكن أن تكون أشد وقعا وأكثر ايلاما من التجارب الحقيقية ، فالقصص التي تروى عن رحلات الابحار حول رأس « هورن » (بجنوب أمريكا الجنوبية) مخيفة ومؤلمة • ولكننى أعلم ، من تجربتى على مثل تلك المراكب ، بأن

قدرة الجسم البشري على تحمل العذاب تكاد لا تصدق · ومع ذلك ، فانـي اذا قست الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي بأي مقياس ، واذا قارنته بأي نوع من المشاق البحرية التي كابدتها شخصيا ، أو رأيتها أو قرأت عنها ، فان الغوص يظل فظيعا حقا · لقد عدت من الكويت ، وقد تركت نواحـي الحياة المختلفة فيها انطباعا جيدا لدى ، كما عدت وأنا من أشد المتحمسين لمراكبها ، والمعجبين ببحارتها · الا أن أعمال الغوص الجهنمية شيء آخـر مختلف كل الاختلاف ، فاذا كان لا بد من الحصول على اللؤلؤ ، فليجرف من قاع البحر بالكراكات ·

وأخيرا غادرت يوسف على مركبه ذاك ، وهو يغوص عشـر مـرات ويستريح ، ليقوم غيره بعشر غوصات أخرى ، بينما يقف هو على السطح مرتجفا من البرد ، يحاول التدفؤ بالنار ، تركته وكله ايمان برحمة الله ، كغيره من البحارة · ومما لا ريب فيه أن الله كان دائما رحيما به ، ان لم يكن لشيء ، فلأنه وهبه هذا الاعتقاد المطمئن المريح برحمته الواسعة ، هذا الاعتقاد الذي لولاه ، لكانت حياة يوسف جحيما لا يطاق ·

وبعد شهر من الزمن ، كنت قد عدت الى الكويت ، بعد أن رأيت ما أردت رؤيته من عمليات الغوص · لقد كان أصغر مركب شاهدته لا يزيد طوله عن أربعة عشر قدما ، ولم يكن على ظهره سوى رجل عجوز وأربعـة صبية ، تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والسابعة عشرة · أما أكبـر سمبوك رأيته فقد كان مركب أمير البحر ، الشيخ صباح · لقد رأيت ما هو حسبي من أعمال الغوص ، ولم أجد ما أعجب به في تلك المهنة الرومانسية ، سوى شجاعة الشجعان وقوة احتمالهم ·

الفصل العشرون

الزوجة الجديدة

الزوجة الجديدة

عند عودتي الى الكويت ، وجدت المدينة تعج بالحركة والنشاط • ومع أن الوقت لم يكن أواخر أغسطس (آب) بعد ، الا أن كثيرا من المراكب كانت تجهز لرحلاتها الجديدة • فكانت الواجهة البحرية ، الممتدة مسافة ميلين على الشاطىء ، كأنها خلية النحل نشاطا وحركة • وفى خلال الجزء الأخير من أغسطس ، وطوال شهر سبتمبر (أيلول) ، كان مركب بعد آخر يعوم من مكان راحته الصيفية ، ويسحب الى ماء الخليج ، لكي يجهز بجميع ما يلزمه من المعدات ، ويوازن بالصابورة(1) ، للقيام برحلته الى البصرة ، حيث كانت التمور قد نضجت ، وأخذت تشحن في المراكب لتصديرها الى الخارج •

ومع كل مد عال كانت عشرة الى عشرين مركبا كبيرا تعوم ، بينما كانت المراكب الصغيرة تقطر وتجر الى الماء مع أي مد • وأصبحت أهازيج البحارة تتجاوب طوال النهار في جنبات الاحواض الممتدة على طول المدينة ، كما أصبح الطريق البحري يكتظ بالنواخذة والبحارة وهم في طريقهم للحاق بمراكبهم • ولم يعد المرء يرى فسحة مكشوفة من الأرض ، ليس فيها عدد من البحارة جالسين يخيطون الأشرعة • كما كان النجارون يعملون بحماس وهمة عظيمين لاتمام المراكب الجديدة ، واعدادها للسفر في الوقت المناسب للموسم • فهنا كان يرى مركب ، وهو يسحب الى الطين في وقت الجزر ، وهناك آخر يدفع جانبا الى الجون في وقت المد العالي ، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة لانزاله الى الماء ، بعد أن تم بناؤه في منطقة محصورة على الشاطىء المرتفع • وها هو ينزل الى الماء الآن ، محدثا رشاشا هائلا ، ومتماوجا مرة أو مرتين ، بينما راياته تخفق عالية ، ثم ها هو يتوازن ويبتدىء حياته وعمله في البحار • وما أن يتم ذلك ، حتى يكون البحارة ، الذين ساعدوا في تدشينه ، قد وثبوا الى الماء ، وسبحوا بملابسهم اليه ، واعتلوا ظهره ، ليبدأوا في الحال مهمة تجهيزه بالمعدات اللازمة ــ فقد كانت المراكب الكبيرة تدشن وهياكلها عارية من المعدات ، ثم يجري تجهيزها وهي عائمة على مياه الجون • ولم يكن هذا يستغرق وقتا

---

(1) الصابورة هى الثقل الذى يوضع فى المركب الفارغ عند السفر فيه وذلك لكى يتوازن فى الماء (المترجم) •

طويلا . فقد كانت بضعة أيام تكفي لاقامة الصواري ، وتجهيز العارضات ، وتركيب عجلة القيادة ، ووضع البوصلة في صندوقها الخاص .

لقد كان منظر الكويت أخاذا حقا ! مراكب هنا ، ومراكب هناك ، ومراكب في كل مكان على طول الشاطىء ! بينما البحارة ، وقائدو الدفة ، والنجارون ، والنواخذة ، يزحمون « الكورنيش » . ولم يكن يرى أو يسمع على الشاطىء سوى أصوات المطارق ، وهي تقوم بجلفطة المراكب(١) ، وأغاني البحارة القوية العميقة ، وهم يركبون الصواري ، والهدير الصادر عن طرق الطبول الهندية ، والتصفيق بالأيدي الضخمة ، بينما كانت جوانب المراكب الكبيرة وقيعانها تطلى بالشحم والجير ، وقرقعة الرحويات(٢) العتيقة وهي تدور لسحب أحد مراكب الغوص الى الشاطىء ، وصيحات البحارة وهم يرفعون الصواري لتركيبها على مركب مدشن حديثا ، ورنين الحديد الذي يطرقه حداد البحر يصنع منه بعض الأدوات البحرية ، وصوت المناشير الايرانية وهي تشق الكتل من خشب الساج الهندي المرفوع على المنصات الخاصة بالنشر ، وصوت قرع الطبول ، وأهازيج البحارة المرحة ، الصادرة عن سمبوك عائد الى الوطن من موسم الغوص ـ هذه هي الأصوات التي كانت تملأ جو الشاطىء طوال الوقت ، يوما بعد يوما ، وفي كل يوم ، من غير راحة أو هدوء الا عندما يحين وقت الصلاة .

وبانقضاء شهر سبتمبر (أيلول) ، أخذ الطقس في التحسن قليلا ، بل أصبحت بعض الايام محتملة . فقد كانت أسوأ الأيام ، وأشدها حرارة قد انقضت ، وأخذ البدو يغادرون البلدة تدريجيا . فعندما كانت المراكب الكبيرة تقلع الى عرض البحر في رحلاتها الطويلة ، كان البدو يغادرون المدينة ، بينما يتوجه البحارة الى البحر . وكان يواكب النشاط الهائل على الشاطىء نشاط آخر في السوق الرئيسي . فقد كان البدو يسارعون الى اتمام مشترياتهم ، بينما يجد رجال الاعمال والصرافون ، أنفسهم في شغل دائم . وكان البحارة يشترون حاجاتهم البسيطة ، وبعض السلع التي يأخذونها معهم بقصد الاتجار . وكانت المقاهي تكتظ بالناس ليلا ، بينما تمتلىء مقاه أخرى خلال النهار بالنواخذة العائدين من الغوص ، يعرضون لآلئهم للبيع ، كما كان نواخذة المراكب الكبيرة يتفحصون قطع السجاد العجمي المعروضة على الأرض ، ليختاروا منها ما يمكن أن يصلح للبيع

---

(١) الجلفطة : هي عملية تحشية أو سد الشقوق التي تكون بين الواح المركب عند بنائه ، وذلك لمنع تسرب الماء الى داخله عند انزاله البحر والسفر فيه . (المترجم)

(٢) تدعى الرحوية باللهجة الكويتية « المدور » وجمعها « مداوير » . (المترجم) .

بربح مجز في موقاديشو أو زنجبار . أما مقاهي النواخذة فقد أصبحت تبدو مهجورة خلال النهار ، لا يؤمها روادها الا ليلا ، لأن النواخذة مشغولون بشراء ما يلزم لمراكبهم ، والاتفاق على الحمولات ، وجمع السلف المدفوعة على حساب حمولاتهم ، ودفع السلف لبحارتهم . وكان هؤلاء النواخذة يهرعون من مكاتب التجار الى مقاهي التجار ، في حركة دائبة ، وقد اكتست عظامهم شيئا من اللحم ، من أثر قضاء الصيف مع أسرهم في الكويت ، الا أنهم لم يصبحوا من السمنة بحيث لا يستطيعون أن يتحركوا بسرعة ، عندما يدعوهم داعي العمل الى ذلك .

وقد كان هناك عمل كثير هذا العام . فقد كانت كثير من المناقشات تدور ، وكثير من القرارات تتخذ ، خلال الامسيات الصيفية التي كان الرجال يقضونها على الواجهة البحرية . ذلك أن نواخذة المراكب الكبيرة التي تجوب البحار العميقة ، كانوا يطالبون بأن يكون على ظهر كل مركب يسافر في رحلة طويلة « معلم » ، بالاضافة الى النوخذة ، لأنه ليس من الصواب في شيء أن يكون على ظهر المركب رجل واحد يعرف الطريق . وكانوا يطالبون أيضا بأن يدفع لهم التجار تعويضا عن التأخر في تحميل الشحنة ، عندما كانوا يتفقون معهم على شحنة معينة من شط العرب ، ولكن المراكب تضطر للانتظار أسابيع طويلة قبل أن تسلم لها التمور — وكانت هذه احدى الظلامات القديمة ، التي يصعب حلها . وكان النواخذة يطالبون بشيء آخر ، هو أن يوضع حد نهائي لذلك العرف ، الذي كان النوخذة يعتبر بموجبه مسئولا مسئولية كاملة مستمرة عن ديون المركب ، وعن جميع السلف التي تدفع على الشحنة وغيرها ، حتى في حالة تحطم المركب أو فقدانه — وكان هذا أيضا عرفا قديما ، ليس فيه كثير من العدل ، لأن النواخذة ليسوا في الواقع هم المالكين الفعليين لمراكبهم ، على الرغم من أنها مراكبهم شكلا . وكان النواخذة يقولون أنه ليس من العدل في شيء أن يظلوا هم مسئولين عن ديون المركب ، الذي لم يكن ملكهم في الحقيقة ، حتى بعد فقدانه . بعبارة أخرى ، ان النظام الحالي بالنسبة لهذه الملكية الاسمية للمراكب ، لم يعد صالحا ولا عادلا . فقد كان التجار بموجبه يسمحون للنواخذة بتمويل المراكب بأنفسهم ، وبذلك يتخلصون من أخطار المجازفة ، ويلقونها كلها على عاتق النواخذة . وكانت حجة النواخذة أن خسارة المركب تعتبر كافية لهم ، أما خسارة الحمولة فيجب أن يتحملها أصحابها من التجار . أما التجار فكانوا يعتبرون أن خسارة التمر كافية بالنسبة لهم ، أما المراكب فانها ملك النواخذة ، والديون التي تستحق عليها لهم ينبغي تسديدها . لقد سمعت كثيرا من البحث والمناقشة والجدل في هذه المواضيع ، وخيل الي أن الحق كان في جانب النواخذة ، الا أن التجار لم يوافقوا الا على المطلب الاول ، المتعلق باضافة « معلم » الى كل مركب .

وكانت حجتهم أنه لا يجوز للنواخذة أن يضعوا القواعد الجديدة من جانب واحد ، وأنهم ، اذا ما فعلوا ذلك ، بامكانهم ايضا أن يفرضوا قواعد وشروطا جديدة ، بل أنهم في وضع أفضل يمكنهم أيضا من تطبيق تلك القواعد والشروط · وقد اتخذ النواخذة قرارا جماعيا بالوقوف معا ، ومؤازرة بعضهم بعضا ، الا أنهم لم يفعلوا ذلك في الواقع · فكان واحد منهم هنا ، وواحد هناك ، يتفقون مع أفاضل التجار ، كل على انفراد ، مما جعلهم يخسرون قضيتهم ، ويضطرون للسفر ثانية ، دون أن يدفع لهم تعويض عن فترة الانتظار قبل التحميل ، ودون أن يتخلصوا من أي جزء من المسئولية ، سواء عن التمويل أو عن الحمولة ، ودون أن يتخلصوا من الديون الثقيلة المترتبة عليهم نحو التجار ·

لم يكن عملا مربحا للتجار أن يقوموا هم بامتلاك المراكب وادارة امورها بأنفسهم ، فقد كان حب العرب للتجارة الخاصة ، وللمساومة على الأسعار ، حبا متأصلا ، عميق الجذور · فاذا ما قام النواخذة بادارة مراكب التجار ، فانهم ميالون جدا لادارتها لمصالحهم الخاصة فقط · ولذلك كان من الأفضل أن يقوم التجار بتمويل النواخذة ، بينما يتولى هؤلاء أمور المراكب ، ويستخدمونها لنقل الشحنات التي يريدها التجار فقط · وكانت السلف التي يدفعها التجار مضمونة ، رغم أنه لم يكن هناك نظام للضمان (أو التأمين) ، فقد كان يبدو لي أن النواخذة أنفسهم هم الضمان الوحيد· فاذا فقدوا مراكبهم ، فقدوا أسباب معاشهم ، كما فقدوا أموال التجار أيضا، الا أنهم كانوا مرغمين على تسديد ديون التجار · ولم تكن هناك فائدة تدفع على الدين ، لأن ذلك ممنوع شرعا ، ولكنهم كثيرا ما كانوا يسددون أكثر مما يقترضون ·

لقد كانت هموم النواخذة ومشاكلهم تهمهم وحدهم ، ولم يكن للبحارة أي نصيب منها · ولذلك لم يعقد هؤلاء الاجتماعات ، ولا اقترحوا القواعد الجديدة · وما أن أصبحت المراكب التي يرتبطون بها ، جاهزة للسفر ، حتى كانوا على ظهورها كالمعتاد ·

- - - - - - - -

ومرت الايام ، وأخذت المراكب تغادر الميناء ، مركبا وراء مركب ، متجهة صوب الشمال ، وكان بعضها يسافر دون أن تكون معداته مكتملة التجهيز ، لأن الرحلة الى شط العرب كانت قصيرة جدا · وكثيرا ما كان « المعلمون » ، وبعضهم حديثو التعيين ، هم الذين يقودون المراكب الى شط

العرب ، لينتظروا تحميلها بالتمر هناك ، بينما يتخلف النواخذة في الكويت، أطول مدة ممكنة ، لأنهاء بعض المعاملات المالية ، أو للتمتع بنسائهم • وقد ظل المنظر على طول الواجهة البحرية يعج بالحياة والحركة ، وبالمتعة للمشاهد المتفرج ، فعلى مقربة من « مسجد الخليفة » ، كانت مجموعة من صانعي الأشرعة تعمل ، في الظل ، في صنع شراع رئيسي يبلغ طوله مائة وستين قدما • بينما كان غيرهم يطلون خزانات الماء الخشبية بزيت السمك ، وآخرون يحملون المراسي المطلية بالقار الجديد ، الى مراكبهم ، كما كانت بكرات العارضات تجهز بالشكل السليم ، والأشرعة تنقل وهي ملفوفة مثل خيام السيرك ، والقوارب الطويلة تنقل من مرابضها الصيفية على الشاطىء وتعوم في البحر • وهنا وهناك ، كان الصبية الصغار يلهون ويلعبون بنماذج مصغرة من المراكب ، يعومونها على الماء الضحل ، وهم ينشدون أناشيد البحارة المعروفة • بينما كان النواخذة يقابلون « المعلمين » ، الذين كانوا عادة من أقاربهم ، على طول الرصيف الحجري الممتد على الجهة الغربية من بيوتهم • كما كانت المراكب تبنى أو تجلفط ، أو تطلى ، أو تصلح ، أو تدشن ، أو تعوم ، أو تجهز ، أو تكون مسرحا لرقص البحارة وهزجهم • وكان صانعو الخبز يعملون في مخابزهم البسيطة ، كما كان بائعو الشراب يقفون على جانب الطريق ، يمارسون تجارتهم الرائجة •

وفي أحد الأحواض القريبة من وسط المدينة ، كانت « قطة » ناصر الصغيرة تقف صامتة ، فقد كانت آخر مركب من مراكب المياه العميقة يتخلف عن السفر • وكان ناصر نفسه يجلس على دكته ، ينتظر عودة المراكب الصغيرة من موسم الغوص • فقد كان ناصر هذا رجلا رقيق الحال ، وكان مركبه « القطة » مركبا عتيقا • ولم يكن يقدر على القروض الكبيرة، كما لم يكن مركبه الصغير يقدر على جني الربح الوفير • ولذلك كان على ناصر أن يرضى بأي بحار يوافق على السفر معه • وهكذا جلس ينتظر عودة مراكب الغوص • فبعد موسم الغوص السيء جدا هذا العام ، سيعود الغواصون وقد ازدادوا فقرا بتزايد ديونهم ، وعندها سيكونون على أتم استعداد لقبول الأجر القليل الذي يستطيع ناصر أن يعرضه عليهم • وكان بامكان ناصر أن ينتظر عودتهم ، فالتمر دائما متوافر في البصرة يستطيع أن يحمل منه ما شاء متى شاء •

للمرة المائة نزلت الى الشاطىء لأتفرج على « القطة » العتيقة ، ذات الخطوط الانسيابية الجميلة ، التي لم تبد لي شبيهة بالقطة من أي وجه من الوجوه • لقد كانت بغلة عتيقة جميلة ، ذات هيكل انسيابي الخطوط • ولكني لاحظت ، منذ مدة ، وكلي حزن وأسى ، أن هيكلها أصبح منهكا ، بعد

انقضاء نصف قرن عليه وهو يحمل الخشب · كما كانت أسطحها ملتوية ، وغائرة عند الصاري الرئيسي · ومن آن لآخر كانت بعض المسامير ، التي تثبت ألواحها بعضها ببعض ، تتساقط ، فالتقطها من الطين المحيط بها ، وأجدها مسامير طويلة صدئة ، مصنوعة من حديد سيء · ثم أحدث نفسي قائلا : « لا ! لن تنفعني أبدا ! انه لمن الجنون أن آخذ مركبا كهذا في رحلة طويلة عبر المحيط الأطلسي ، من غير أن آمل ، بل واحتاج بشكل ملح الى طقس ممتاز متواصل ، وتوفيق من الله لا يحق للبحار أن يتوقعه منه · لا ، لا بد أن تبقى القطة في الكويت ، فليس باستطاعتي انقاذها من الاندثار · لقد كان بامكاني أن اشتريها بخمسة آلاف روبية ، وكان ناصر ، الذي كان يعلم برغبتي في انقاذها ، لا يكف عن امتداحها ، ليس لأنه كان يرغب في التخلص منها ـ فقد كان يحبها حبا جما ـ الا أنه كان يعلم أن أيامهـــا معدودات ، وأني اذا اشتريتها ، فسيكون مصيرها أفضل بين يدي مما لــو حصل عليها أحد العمانيين ، كما أنه كان بامكانه أن يشتري « بومـــا » جيدا بالمبلغ الذي أدفعه ثمنا لها ·

ولكني لم أستطع أن أشتري « القطة » رغمَ حبي الشديد لها · لقــد كان الشهر شهر سبتمبر (أيلول) الآن ، وكان هناك في أوربا أمور أهم وأخطر بكثير من انقاذ تلك البغلة الجميلة · وهكذا اضطررت لترك ناصر ، وهو ينتظر عودة مراكب الغوص · وكنت أعلمَ أنه قد أبحر بها ثلاثـــة وعشرين عاما ، بالاضافة الى عام آخر لم يستخدمها خلاله ، لأنه ذهـــب لتأدية فريضة الحج · كما كنت أعلم أيضا بأنه ليس من المحتمل أن أعثر على بغلة قديمة أجمل من هذه البغلة في أيامنا هذه ، أو في أي وقت آخر في المستقبل ، لأن هذا المركب ينتمي الى تلك الأيام ، التي كانت فيهـــا المراكب تبنى على أيدي صناع مهرة ، يضيفون كل لوح خشبي الى هيكلها ، بمنتهى العناية والحب ، وبعد تفكير وتقدير عميقين مضنيين · لقد كـــان النجار الذي بنى هذه البغلة رجلا يحب المراكب التي كان يقوم ببنائها حبا عظيما ، حتى أنه أوصى أن يدفن بعد موته في المكان الذي تبنى عليـــه المراكب ، فقد أراد أن يظل قريبا من المراكب التي أحبها ، حتى بعد موته ·

وفي أحد الأيام ، قابلت خليلا ، النجار الشاب ، الذي كان يعمل على ظهر « فتح الخير » ، ووجدت أنه قد عاد الى عمله في بناء المراكب ، وكان يساعد في تركيب متن لمركب جديد · وكان يعمل بجد ونشاط ، وجميـــع النجارين يعملون بسرعة فائقة تشبه ، الى حد بعيـــد ، سرعة البحـــارة واندفاعهم ، وهم يؤدون مهامهم على ظهر المركب · وعندما تساءلت عـــن سبب هذه السرعة التي لا مدعاة لها · كان جواب خليل : « هـــذه ســـمة

عصرنا هذا • فنحن نقوم بأي عمل على وجه السرعة • هيا ! هيا ! هيا ! هذا كل ما نقوله ونسمعه هذه الأيام • ولكن ليست هذه هي الطريقة السليمة لبناء المراكب • اذا انتظرت هنا حتى المساء ، ستلاحظ أننا نركب هـــذه الأيام ثلاثة ألواح على كل جانب من جانبي المركب في اليوم الواحد • وهذا خطأ ! » •

ثم تابع خليل كلامه ، وأخذ يقص علي من أخبار تلك الأيام التـــي بنيت فيها « القطة » ، و « سمحان » ، وأفضل المراكب الكويتية الأخرى • لقد كانت تلك الأيام هي العصر الذهبي لصناعة بناء المراكب ، حين لم يكن يجرؤ على لمس ألواح المراكب الجديدة الا نجارون خبراء ، وكان المعدل اليومي المقبول لا يزيد عن تركيب لوح واحد في اليوم • وكان العمل يجري على مهل ، الا أنه كان دقيقا جدا ، ومرهقا ، ومتقنا غاية الاتقان • ولم يكن هنـاك شيء أهم من اتقان العمل • ولم يكن يسمح الا الرجال الخبـــراء ، كبيرى السن ، من النجارين الملتحين ، بالقيام بمهمة البناء الفعلى للمركب ، بينما كان الآخرون جميعا ، حتى النجارون ذوو السنوات الطويلة من الخـــبرة ، ينقون الالواح ، ويحفرون الثقوب • ولم يكن بالامكان تركيب أكثر من لوح واحد فى اليوم ، لأن كل شيء يجب أن يكون من الدرجة الاولى ، وما كان أحد يرضى بأقل من ذلك • وكان العمال والمتدربون يخضعون لنظـام انضباط صارم ، وكانت فترة التدريب طويلة شاقة • ولذلك كان كل رجل يشعر بالفخر والاعتزاز لما أنجزه من العمل ، كلما دشن مركب جديد وأنزل الى البحر • وكان « المعلمون » الكبار من بناة المراكب ينتقلون من مركب الى آخر ، ينتقدون هذا ويمتدحون ذاك ، ويقترحون بعض التحسينات على مركب ثالث • وكان هناك مجال لتزيين المراكب ، والحفر على خشبها فى تلك الايام ، كما كان النجارون المتقدمون فى السن يوصون بأن يدفنوا فى الاحواض ، تحت متون المراكب • وتنهد خليل ، وتابع كلامه قائلا : « سقى الله أياما لا تنسى ! » • ولم يكن خليل متقدما فى السن ، بل على العكس ، لم يكن قد تجاوز الرابعة والعشرين من العمر ، ويكاد لا يذكر الظـروف التى يتحدث عنها • ولكنه كان قد سمعها من والده ، الذى كان نجارا قبله ، وهو يتحسر عليها الآن • فقد تغيرت الاحوال ، وأصبح كل شيء يتم بسرعة غير معقولة ، دون كبير اهتمام باتقان الصنعة ، أو حتى باختيار الخشب المناسب • كما أصبح المركب ، الذى كان يستغرق بناؤه ثمانيـة أشهر أو تسعة ، يبنى فى شهرين اثنين ، ولكنه لا يمضى عليه خمســة عشر عامـا ، حتى يصبح « خردة » لا يصلح لشيء • لقد أصبح عمر المركب العربى الجيد الآن لا يزيد عن خمسين عاما ، بينما كان المعدل مائة عام فى السابق •

لقد سمعت كلاما كثيرا مماثلا لهذا ، فى أثناء جولاتى على طـــول

الواجهة البحرية · وكنت دائما أتوقف عند بيت خليفة الغانم ، كبير الاسرة التى ينتمى اليها النواخذة المشهورون الذين يدعى كل منهم « عبد الوهاب » ... وكان خليفة الغانم هذا رجلا ملتحيا، جليلا ، يزيد عمره عن السبعين، ذا صوت خافت لطيف ، ومعرفة كبيرة بتاريخ الكويت ، وبفنون البحر · وكنت كثيرا ما أجلس وأتجاذب أطراف الحديث معه ، ويكون ذلك أحيانا فى غرفته الخاصة فى البيت المطل على الشاطىء ، والذى يمتد أمامه فناء واسع حيث بنيت مراكب أبنائه · وفى أحيان أخرى كنت أتحادث معه ومع الرجال العقلاء الآخرين ، أثناء جلساتهم المسائية · وفى هذه الجلسات كان الجميع يجلسون دائما فى صف طويل، وهم يفترشون السجاد، ويتكئون على الحشايا ، بينما يتحلل كل منهم من عقاله ، ويترك نعليه فى الشارع أمامه، ويستند بظهره الى الحائط · فقد كانوا مجموعة من الرجال الأجلاء المهيبين ، وكان يشرفنى جدا أن يسمح لى بالجلوس بينهم ·

وكنا عادة نتحدث عن أيام الكويت الاولى ، وكيف نشأت صناعة بناء المراكب ، وازدهرت فيها · وقد فهمت منهم أن الكويت كانت ، فى الغالب ، أحدث ميناء على سواحل الخليج العربى كله ، فلم يكن عمر المدينة ، بحسب قول خليفة الغانم ، يزيد عن قرنين من الزمن الا أنها كانت دائما مرفأ بحريا · فمن ناحية ، كان على البدو ، لكى يتمكنوا من العيش ، أن يخرجوا لصيد السمك · ومن ناحية أخرى ، كانت مراكب الغوص البحرانية والاحسائية تصل اليها، لأنها كانت مقرا أفضل لهم بالنسبة للجرف الشمالى· ومن ناحية ثالثة ، عندما استولى الايرانيون على ميناء البصرة ، وأثروا تأثيرا بالغا على تجارة التحميل والتوزيع البحرية ، التى كان ذلك الميناء يقوم بها ، انتقل جزء كبير منها الى الكويت · فقد كانت الكويت فى مركز جغرافى مناسب لتكون ميناء لتوزيع البضائع الى شمالى نجد · وعلاوة على ذلك ، فقد استطاعت المحافظة على استقلالها ، وأصبحت ميناء ممتازا لتهريب البضائع الى مناطق واسعة فى العراق وايران · وكان تجارها تجارا محنكين ، كما أن بناة المراكب ، الذين جلبوا من مسقط والبحرين ، ومن مينائى قشم وبندر لنجة الايرانيين ، اكتسبوا شهرة واسعة فى طول البحار الشرقية وعرضها ·

وبدأت الهجرة الى المدينة ، وبدأ يؤمها ويستقر فيها أناس من « زبارا » فى قطر ـ كانوا قد هاجروا الى هناك أصلا من نجد ، وأناس من « الزبير » على الحدود مع العراق ، وأناس أتوا من نجد ، مباشرة ، وبعد ذلك تبعهم كثيرون من ايران · وبموجب ما قاله خليفة ، فقد كانت الكويت تتمتع بحكومة رشيدة بشكل مستمر ، وما زالت تحافظ عليها حتى الآن ·

كما كان تجارها معروفين بتعاملهم العادل ٠ أما نواخذتها فقد كانوا رجالا طيبين ، وكان بحارتها معروفين ، حتى منذ مائة عام ، بأنهم أفضل البحارة فى الجزيرة العربية بأسرها ٠ وقد أضاف خليفة قائلا ان الكويت كانت ترسل الى البحر ، قبل مائة عام ، أكثر من مائتى مركب ، علاوة على مراكب الغوص ٠ وكانت معظم تلك المراكب صغيرة نسبيا ، الا أن خليفة أتى على ذكر بغلة تبلغ حمولتها أربعمائة طن ، كان جده يذكرها تماما ٠ وربما كانت مائة من تلك المراكب تبلغ حمولة كل منها مائة طن ٠ وكانت تجارة المراكب مقصورة على الهند ، وبلدان الخليج ، وسواحل الجزيرة العربية ، والموانىء الافريقية الواقعة على ساحل البحر الاحمر ٠ فلم يكونوا فى تلك الايام يبحرون كثيرا الى ساحل افريقيا الشرقى ، لأن التجارة مع هذا الساحل كانت من اختصاص العمانيين تقريبا ٠ أما المدينة فقد كان ازدهارها كافيا لسد حاجة سكانها ، الذين كانوا يعيشون عيشة قانعة ، ولكنها لم تكن من الغنى بحيث تغرى الطامعين بغزوها ــ ولم يكن ذلك ليتم ، على كل حال ، والمدينة على ذلك القرب من ميناء البصرة ٠

وقد احتلت الكويت مركزا متقدما بين سائر الموانىء العربية فى عهد الشيخ مبارك الكبير ، الذى وصل الى الحكم عن طريق اغتيال أخويه ، وذلك قبيل مطلع القرن الحالى بقليل ٠ وقد دلنى خليفة على البيت الذى تمت فيه جريمة الاغتيال ٠ وعلى الرغم من أن الكويتيين لم يوافقوا فى بادىء الأمر على اغتصاب الشيخ مبارك للحكم ، الا أن ذلك كان فى رأى خليفة ، نعمة على الكويت ٠ فقد كان مبارك رجلا طموحا ، مستبدا ، الا أنه حكم البلاد بيد أبوية قوية ، فازدهرت ازدهارا كبيرا ٠ وقد ساعدها على ذلك تدنى الاحوال فى بقية الموانىء الواقعة على سواحل الخليج الجنوبية ، والاساليب المتسرعة غير المتقنة التى كان يتبعها الاتراك المتساهلون ، الذين خلفوا الايرانيين على حكم البصرة ، والمشاكل التى حدثت فى البحرين وايران ، وتدهور الاحوال فى مسقط بعد وفاة السيد سعيد ــ كل هذه الامور ساعدت الكويت على النهوض والازدهار ٠ فقد انتعشت تجارة اللؤلؤ فيها ، كما واصلت مراكبها القيام برحلاتها الطويلة ٠ وأصبح يتجمع فى ميناء المدينة ما يزيد عن ألف مركب من كل لون وحجم ، منها مائة وخمسون مركبا كبيرا من تلك التى تسافر فى المياه العميقه ، ومائتين من المراكب الاصغر حجما التى تتاجر مع موانىء الخليج ، ومائتين من مراكب الغوص ، وثلاثمائة واقفة على الشاطىء وعلى أهبة الاستعداد للقيام بأية رحلة تجارية ، علاوة على مائتين من قوارب صيد السمك ٠

لقد كان الكويتيون ، الذين خبروا شظف العيش فى الصحراء ، كما

عرفوا المشكلات القائمة في الاماكن الاخرى ، يقدرون أهمية الهدوء والاستقرار في الكويت ، وقد وجدت أنهم جميعا يكنون للبلاد حبا عظيما ٠ وكان بعض المثقفين أحيانا يرتادون تلك الجلسات المسائية ويشتركون في أحاديثها ، وكان في حديثهم أكثر مما ينبغي من عدم الرضى عن الاحوال السيئة السائدة في البلاد ، وكثير من الاشارة الى الديمقراطية السائدة في العراق ، والتي يجب أن تكون المثل الاعلى الذى يسعون اليه ٠ وكان الشباب العائدون من العراق ، وهم يرتدون السراويل الحريرية ، يسببون كثيرا من التذمر بين أهلهم من الكويتيين العرب ٠ ولكن البلاد كانت تبدو لى مكانا أمينا ، شريفا ، مرضيا ، على الرغم من التخلف الذى كان هؤلاء يعيبونه عليها ولذلك فان بامكان لابسي السراويل الحريرية هؤلاء أن يعودوا من حيث أتوا ، اذا لم يعجبهم الحال ، فقد كانت الكويت للعرب الاقحاح ٠ فانى أكره أن أرى النساء وقد خلعن الحجاب فجأة في الكويت ، والرجال جميعا وقد ارتدوا السراويل الاوروبية ، ووضعوا على رؤوسهم لباس الرأس الايطالى الغريب المستعمل في العراق ٠ كما أكره أن أرى آلات الديزل وقد نصبت فى المراكب الجميلة ، والشيخ يعتمر الخوذة الواقية من الشمس ، وأولئك الرجال الشجعان من رواد المقاهى الدائمين ، يتزاحمون على دور السينما ٠ فالكويت بلاد حسنة كما هى ، وبامكان مواطنيها أن يقوموا بالاصلاحات الضرورية بشكل تدريجى ــ كالمدارس الحديثة ، والشوارع المعبدة ، وشبكة المياه السليمة ، والمستشفيات ، والعناية بالصحة العامة ٠ فقد مضى على قيام أول مجلس بلدى في البلاد حوالى سبع سنوات ، وقد أخذ جميع هذه الامور على عاتقه ، أما المال اللازم لتلك الاصلاحات ، فسيأتى من النفط الذى كان فى مراحله التجريبية عندما غادرت البلاد ٠

وفى عصر أحد الايام ، قابلت « نجدى » أمام حانوت الغواصين فى السوق ٠ وهذا الحانوت لا يبعد كثيرا عن سوق النساء ، الذى تجلس فيه النساء فى الشارع لبيع ما شاء لهن أن يبعن من الساعة الرابعة بعد ظهر كل يوم ، وكان الحانوت فى شارع جانبى ، بين «بسطات» الملابس القديمة، بجانب دكان يبيع الأزياء العسكرية الفنلندية القديمة ٠ أما بضاعته فكانت تتألف من الفطام ، والسراويل القصيرة السوداء ، وقمصان الغوص البيضاء (١) (التى تلبس لابعاد سمك الشفنين أو الدول) ، وحلقات من الخيزران لسلال المحار ، وحبال خشنة ، وأثقال من الرصاص لم أرها تستعمل فى الغوص ــ وبعض ملابس الغوص السوداء التى تستعمل على ما أظن ،

عبد الله الحمد ــ

(١) انظر الحاشية عن هذا الموضوع فى الفصل السابق (المترجم)



فى المياه التى تكثر فيها كلاب البحر المفترسة · وهنا قابلت نجدى ، الذى لم يكن فى الواقع يتفرج على أى من بضاعة الحانوت ، بل كان مارا بـه مرورا عابرا فقط · وقد أخبرنى بأن أهله قد اشتروا بوما جديدا لأخيه عبد الله ، وأنه سيرسل بوم عبد الله وبومه الى البصرة فى خلال الايام القليلة القادمة · وقد دعانى الى حضور الحفل الراقص الذى سيقام بمناسبة طلاء المركب ، ولكنى اعتذرت وشكرت له دعوته ، فقد كنت قد شاهدت ما يكفى من الرقص الذى كنت أراه يوميا على الشاطىء · فقد كانت جميع مراكب الكويت تطلى، وأصبحت الاحتفالات بهذه المناسبات من الامور العادية جدا ، وقد أخبرنى نجدى بأنه تمكن من تسديد حسابات البحارة جميعا بأن دفع لكل منهم نصيبه (١٣٥ روبية) ـ وكان هذا مبلغا قليلا ، وهو يعرف ذلك ، فقد بلغ فى العام السابق (١٦٥) روبية · الا أن مـا دفعـه كان أفضل نسبة دفعت فى الكويت فى ذلك الموسم ، فرضوان لم يدفع سـوى (٩٥) روبية ، وعبد الوهاب (١٢٥) روبية ، أما عبد الوهاب الكبـير فقد دفع (١٢٠) روبية فقط ، لقد كان عاما سيئا على الجميع ·

ولكنه كـان يعتقد أن بامكان بحـارته أن يتـدبروا أمورهم ، فان احتياجاتهم قليلة ، ومعظمهم شبان صغار السن ، وكان بعضهم متزوجا من واحدة فقط · كما أنهم كانوا يحصلون على مورد اضافى من المال ، من بيع البضائع التى كانوا يحملونها معهم ، ويتاجرون بها لحسابهم الخـاص ، بالاضافة الى أن كلا منهم يحصل على علاوة اضافية ، من ثمن العـدد الاضافى المهرب من أخشاب « المانجروف » التى حصلوا عليها بعرق الجبين· كما كان فى مكنتهم ، اذا شاؤوا طبعا ، أن يحصلوا على سلفة على حساب الرحلة الآتية · لقد كان بامكانهم أن يعيشوا فى السوق على بضع آنات فى اليوم ·

لقد استطعت ، خلال اقامتي بالكويت ، أن افهم أن فكرة الأوربيين عن الحريم لا تنطبق على البحارة ، بل ولا على أي من العرب على الاطلاق ، فلم يكن هناك ما يعتقده الأوروبيون من توافر مجموعة كبيـرة من النسـاء الصغيرات الجميلات في المنزل الواحد ، يختار منهن سيد البيت من يشاء · لقد كان الهدف من تعدد الزوجات هو انجاب الرجال الأشداء المحاربيـن الذين يرثون والدهم · ففي بلاد ترتفع فيها نسبة الوفيات بين الأطفـال وتكون كثير من النساء عاقرات ، وتشيع الأمراض الخطرة كالجدري فتقضي على الكثيرين ، كان على الرجل أن يباعد بين المخاطر بأن يوزع ماءه ، اذا كان لذريته أن تبقى وتزدهر (الا أنه لم يكن لدى البحارة ما يورثونـه لذريتهم سوى ديون الغوص في بعض الأحيان) · وبموجب الشرع الاسلامي، يحق للرجل أن يتخذ أربع زوجات ، شريطة أن يتمكن من اعالتهن (والعدل

بينهن) جميعا • وكان بامكان كل زوجة لرجل ميسور أن تطالب بمنزل مستقل اذا شاءت ، وكان التجار هم الذين يقدرون على ذلك • بل أنهم كثيرا ما كانوا مكرهين عليه ، اذا كانوا يرغبون في الحفاظ على أسرهم لأن كثيرين منهم كانوا يضطرون لمغادرة الكويت والعيش سنوات طويلة في مراكز تجارية بعيدة • ولذلك فقد كان من المألوف أن يقوم الواحد منهم بتأسيس أسرة جديدة حتى عندما ينتقل الى بلدة قريبة كالبصرة مثلا •

لقد كانت النساء متوافرات ، بالطبع ، لمن شاء المتعة السريعة ، وهؤلاء يصلحن للهو العابث ، ولكنهن لا يصلحن زوجات لرجال محترمين ، وأمهات بنين • وكان من المدهش أن يعرف المرء كم من أساليب التحايل والخديعة يمكن أن توجد خلف الجدران الصماء والوجوه المحجبة • فقد كان في الكويت عدد من الشبان المعروفين برجولتهم وجرائتهم وقوتهم الجنسية • وعندما كنت أذرع الشوارع الخلفية الهادئة مع واحد من هؤلاء ، بعيدا عن السوق الرئيسي ، كنت ألاحظ أمورا كثيرة مدهشة • فكان صاحبي يتفحص سطوح المنازل بنظراته الجريئة ، حتى اذا ما ظهرت احدى الفتيات الجميلات فوق أحدها ، عرف أنها مستعدة للمغامرة ، كما قال لي صاحبي التاجر الشاب عبد الله ــ وكثيرا ما كانت بعض الأيدي البضة تبرز من النوافذ المشبكة ، وتلقي ببعض الرسائل المعطرة في الهواء ، أو تركض احدى الاماء السواحليات المسنات خلفه ، وتلقي في يده رسالة بكل سرعة وخفة ، وهي تمرق بمحاذاته • أما الرسائل الجوابية فكان ينقلها له أخوته الصغار ، أو بعض الصبية ، وترتب اللقاءات بواسطة هذه الرسائل • وكان صاحبي عبد الله يتقيد بقاعدة واحدة لا يحيد عنها في جميع مغامراته الغرامية ، وهي ألا يمس فتاة بكرا ، فقد نهى النبي عن الاقتراب من هؤلاء(١) • فالفتاة غير البتول لا تستطيع الزواج ، فان فعلت وافتضح أمرها ، فانها تطرد من بيت الزوجية في يوم الزفاف ، وهي تجر أذيال الخزي والعار •

ولكن هذا القيد ، الذي ألزم عبد الله به نفسه ، لم يكن يزعجه • فقد كانت الفتيات العذارى صغيرات السن جدا ، والرقابة عليهن صارمة ، ولم تكن احداهن تجرؤ على ارسال الرسائل من النافذة الى أي رجل كان ، وكان يجري تزويجهن بأسرع ما يكون • وقد سألت عبد الله « كيف يمكن لفتاة أن تتزوج دون ان تجتمع بأي رجل ؟ • فأجاب أن ذلك أمر سهل • فقد كان ذوو القربى المقربون هم الذين يتدبرون أمر زيجات كهذه • ولم يكن

---

(١) النهى بالطبع ليس صادرا عن النبى (صلعم) ولكنه من صلب الدين ، وهو يشمل الثيب والبكر ، ويعاقب مرتكب الزنا عقابا زاجرا ، يعرفه كل مسلم • (المترجم) •



للفتاة في ذلك يد · كما أنها لا ترى زوجها المقبل أو يراها هو الا ليلة الزفاف · الا أن اختا لها ، مثلا ، تصفه لها بكل تفصيل ؛ كما تفعل أخت للعريس أيضا ، علاوة على أن بامكان الفتاة أن ترى عريس المستقبل عن بعد وهو يعبر الشارع ، اذا أمكن ترتيب ذلك ·

وقد عدد لي عبد الله الصفات التي يطلب توافرها في العروس المناسبة له · فقال انها ينبغي أن تكون جميلة ، وأن تتحلى بقسمات وجه بهية يمكن أن تستمر كذلك · وينبغي ألا تكون مثقفة ثقافة عالية ، بل ماهرة في الأعمال المنزلية وادارة شئون البيت ، كما يجب أن تكون من أسرة معروفة بشبابها الأقوياء ، وأن تكون رقيقة الشمائل هادئة الطبع ، ليس فيها ما يوحي بالاسترجال من قريب أو بعيد · أما خصائص الجمال المطلوبة فهي ، أولا ، وقبل كل شيء ، الا يكون فمها كبيرا بحال من الاحوال ، ويجب أن يشرق لون الصحة والعافية في وجنتيها (ربما للتأكد من أنها ليست مصابة بفقر الدم) ، كما يجب أن تكون رجلاها وفخذاها لدنتين وثدياها كبيرين ناعمين ، وعنقها طويلا ، وأن تكون دافئة ومتجاوبة مع مطارحات الدعابة والغرام التي يتقرب بها الزوج اليها — وهذا أمر يمكن أن تتعلمه بالتدريج · الا أنها يجب ألا يكون لحمها رخوا ، أو تكون من الوزن الثقيل، أو يمكن أن تصبح كذلك في المستقبل ·

لقد بدت لي هذه الأوصاف المطلوبة في الزوجة ، كأنها مواصفات سلعة تجارية يصعب الحصول عليها · الا أن عبد الله طمأنني بأن أعدادا كبيرة من الفتيات اللواتي تجتمع لهن هذه الصفات متوافرات ، لا في الكويت فحسب ، بل وفي بلدان عربية مجاورة أيضا · ولذلك فقد كان مستعدا للزواج اعتمادا على تقرير أسرته ، ووصف أخته الأثيرة الى نفسه ، من غير أن يرى عروس المستقبل · بل انه كان في الواقع قد عقد الأمر على الزواج في المستقبل القريب ، وطلب من بعض أفراد أسرته أن يشاهدوا ويصفوا له فتاة جميلة تعيش في الزبير · وعندما سألت عبد الله لماذا اختار الزبير بالذات ؟ أجاب بأنها تقع على بعد مائة ميل شمال الكويت ، وفي الطريق الى البصرة ، وهي لذلك في موقع مناسب لكليهما · فيمكن أن يبني بيتا صغيرا هناك ، ويذهب اليه كلما شاء · كما أن البلدة تقع في منطقة صحراوية ، والحياة فيها بسيطة لم تفسدها يد المدنية بعد ، مع أنها احدى مدن العراق ·

وسرعان ما تواترت التقارير ، وكانت جميعها طيبة ، وحدد يوم

للزفاف ، وكنت واحدا من المدعوين . وصلنا الزبير في المساء ، فوجدتها مدينة رومانسية ذات طابع عربي صميم ، واتجهنا الى الفناء الواسع خلف منزل العروس ، كأننا آتون لالقاء تحية المساء ، وللحديث وشرب القهوة . وكان هناك والد العروس وأحد أعمامها ، بالاضافة الى بعض أقارب عبدالله من الذكور . ولم نر أثرا لأية نسوة . جلسنا نحتسي القهوة المرة ، وشربنا الفناجين الثلاثة التي كان من اللائق أن نشربها في مثل هذه المناسبات . وبينما نحن نفعل ذلك ، وصل شيخ جليل قادما من المسجد . ولم يضع الرجل وقته سدى ، بل سرعان ما أمسك بيد عبد الله في كفه الأيمن ، وبيد والد العروس في كفه الأيسر ، وأخذ يقول بضع كلمات بصوت رخيم ، وسيماء الجد على وجهه بادية ، وانتهى الأمر . ويظهر أن هذا فقط هو الدور الذي من المفروض أن يؤديه هذا الاحتفال . ثم دارت فناجين القهوة ثانية ، بالاضافة الى شيء من الحلوى ، كما مرت علينا أواني البخور ، التي أخذنا نحرك دخانها بأيدينا لندخله داخل كوفياتنا ، بحسب الأصول . وانقضى الأمر ، فغادرنا المكان ، وأمضينا ليلتنا نائمين في فناء بيت جماعة من أقارب عبد الله .

ولم يذهب عبد الله الى عروسه الا عند الساعة الثالثة بعد مغيب شمس اليوم التالي . وعندئذ نزلنا جميعا في شارع الزبير الضيق ، ميممين وجوهنا شطر البيت الذي كانت أسرة العروس تسكنه ، ومعنا عبد الله وهو يرتدي جلاليبه وعباءاته ، وأفضل عقال لديه ، وعيناه تشعان بحرارة الشوق . وعند البوابة كانت مجموعة من نساء الزبير يقفن ، وقد تجللن بالسواد من قمة الرأس الى أخمص القدم . فتخطيناهن مسرعين ، لأن صاحبي لم يكن يرغب ، لسبب من الأسباب ، أن يشيع خبر هذا الزواج على نطاق واسع (ربما ليبقي خبره سرا بالنسبة لزوجاته الأخريات الموجودات في الكويت) . الا أن احدى النسوة بدأت تصيح قائلة : « ما هذا الزفاف ؟ أهكذا تأتون عبر الأزقة المعتمة من غير أضواء أو موسيقى ؟ وأين العريس ؟ » وهلم جرا ... الا آن بوابة الفناء انفتحت عندئذ على مصراعيها ، وسارع عبد الله بالدخول الى الداخل . وكان يهمس لي أن حفلات زفافه الأخرى كانت أفضل من هذه ، فقد كان يرافقه في مسيرته الى كل من زوجاته الأخريات أكثر من ستمائة رجل . وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي أنوب فيها عن ٥٩٩ رجلا .

وفي هذه المرة دخلنا الى المنزل نفسه، حيث كانت غرفةجديدة قد بنيت على جزء من السطح المستوي ، وزينت بالأشرطة البراقة والشموع المضيئة ،



وفرشت بالأثاث الذي كان يتألف من منضدة ، وأريكة كبيرة ، وصندوق نسائي ، وسرير مزدوج ، وكانت الأرضية مغطاة بالسجاد · وعندما دخلنا الغرفة ، واحدا بعد الآخر ، وجدنا والد العروس فيها · فالقينا التحية ، وجلسنا قليلا ، ثم شربنا الشاي الشديد الحلاوة ، والقهوة بنكهة الهال ، وتناولنا شيئا من الحلوى والكعك ، وكان عبد الله لا يكاد يستطيع صبرا ، فلم أر في حياتي عربيا تبلغ به اللهفة هذا الحد · وأخذ يهمس في أذني : « الآن ! لقد حان الوقت الذي سأراها فيه ! » ·

مكثنا هناك مدة عشر دقائق تقريبا ، ثم أخذنا نلقي تحية الوداع ، ونهنىء عبد الله ونتمنى له التوفيق ، ثم خرجنا من الغرفة بكل جد ووقار ، واحدا بعد الآخر ، ونزلنا الدرج ثانية ، ثم مررنا بسرعة مخترقين ذلك الجمهور الغفير من النساء اللواتي كن ينتظرن هناك · ولم نبعد كثيرا عن المنزل ، حتى سمعنا صيحة غريبة ، (زغرودة) أحد نصفيها بهيج ، ونصفها الآخر حزين ، تصدر عن النساء المتجمعات في الفناء · فعلق شقيق عبد الله على ذلك بقوله : « ها ، ها ! لقد دخل عبد الله بالعروس · كل شيء على ما يرام ! الله كريم ! » فهمت من هذا الكلام بأن تلك الصيحة كانت الاشارة المتعارف عليها ، الصادرة من فراش العروسين ، والتي تبشر الجميع بالأخبار الطيبة ·

لم يتح لي أن أرى الزوجة الجديدة ، أو أية زوجة أخرى · ولكني عندما قابلت عبد الله مرة ثانية ، كان يتلمظ ، ويقول أنه كان موفقا جدا في زواجه الجديد ·

بدأ الآن عدد مقاهي البحارة ، بل ومقاهي النواخذة أيضا ، يتضائل تضاؤلا ملحوظا ، وأخذت أصوات الرجال المسنين ترتفع ثانية في المساء على طول الواجهة البحرية · فقد رحل الشباب ، واستعاد هؤلاء أماكنهم ثانية ، بعد أن أقفر الميناء من المراكب الكبيرة · وكانت معظم مراكب الغوص قد عادت الى قواعدها الآن ــ فقد كان الوقت أواخر شهر سبتمبر (أيلول) ــ وتوزعت أطقمها هنا وهناك ، فعاد البدو الى رعاية قطعانهم من الغنم ، بينما التحق البحارة بمراكبهم الكبيرة ، وقد ازدادوا هزالا وارهاقا عن ذي قبل · وفي أوروبا كانت الحرب مستعرة وأثر ذلك تأثيرا سيئا جدا على سوق اللؤلؤ ، الذي اندثر تقريبا ، بعد أن كان كاسدا في السابق · لقد كانت أياما سيئة ، احتار العرب في فهمها ، وكانوا يتساءلون عن أسباب قيام تلك الحرب المخيفة ، ولكني لم أستطع اجابتهم على تساؤلاتهم ، فقد كان الأمر كله محيرا ومربكا لي ، مثلما كان مربكا لهم · كما كان علي أن أغادر الكويت حالا ·

لقد حان وقت رحيلي عن الكويت ، ومغادرتي لأصدقائي من البحارة العرب • فأخذت اودع المسئولين والوجهاء ، وبدأت بصاحب السمو شيخ البلاد • فوجدته جالسا في مجلسه الصباحي ، على الشرفة العليا لقصر مبارك ، وأخذت أنظر للمرة الأخيرة على تلك الرسوم الباهتة للسيدات الجميلات التي كانت تزين الغرف ، وكلها مرصعة باللآلىء الكبيرة ، ثم أنتقل ببصري الى الجون في الخارج ، حيث كانت بعض المراكب الكبيرة تستعد للاقلاع • لقد مضت على وفاة مبارك سنوات كثيرة ، الا أن تلك النساء الجميلات ما زلن هناك على الجدران والسقف ، يجلن بنظرهن في تلك الغرف المهجورة ، كما كان حفيد مبارك يقيم مجلسه على الشرفة المطلة على البحر • وقد قدمت لسمو الشيخ شكري الجزيل على كرم ضيافته أثناء وجودي الذي استمتعت به في الكويت ، وشربت معه القهوة ، وتحادثنا قليلا • وفي أثناء ذلك كان بدوي يحمل مدفعا رشاشا يقف خلف سموه باستمرار ، كما كان بعض البدو الآخرين يجلسون حوله ، وبنادقهم المحشوة في أيديهم الا أن هذا المظهر العسكري كان لا يعني شيئا ، مقابل الطريقة الهادئة المنظمة التي تتم فيها المراسم • وقال سموه لي أنه يأمل أن أكون قد شعرت كأني في بيتي وأنا في الكويت ، وأني سأزورها ثانية • وقد أجبته بأني شعرت بذلك فعلا • وكنت أتمنى لو أمكنني مشاركته نظرته المشرقة للمستقبل •

وبعد ذلك قمت بزيارة الشيخ علي الخليفة في حصنه • فوجدت اثنين من لصوص اللؤلؤ معلقين على صليب منصوب أمام المقر • وسألني الشيخ العجوز : « أين جملك الذي ستسافر على ظهره ؟ » فأجبت أن هناك حربا كبيرة دائرة ، وعلي أن أسارع بالعودة • ولكنه أضاف قائلا : « لا داعي للعجلة • فستصل بسرعة الى هذه الحرب على ظهر البعير • » ودعت الشيخ وغادرت المكان ، بينما كان الجنود ينزلون اللصين من فوق الصليب ، ليسوقوهما ، والخزي يجلل هامتيهما ، الى السجن عن طريق السوق الكبير• ثم ذهبت لأقدم فروض الشكر لأميرال أسطول الغوص ، الشيخ صباح • ثم فعلت مثل ذلك مع رئيس محكمة الغوص ، الشيخ عبد الله الجابر • بعد ذلك قمت بتوديع أصدقائي من النواخذة الكبار ، ومن أعيان البلدة ، ومن التجار • وقد استغرقني السلام على الجميع وقتا طويلا ، لأنه كان من السهل علي أن أكون صداقات كثيرة في الكويت • ولم استطع مغادرة البلاد قبل منتصف النهار ، عندما خرجت من البوابة الجنوبية ، في نفس الوقت الذي كان فيه فريق من البدو يخرجون ، وهم يرقصون ويهزجون ، وأيديهم متشابكة ، احتفالا بزفاف أحدهم ، بينما كانت قطعان الغنم والجمال تدخل المدينة • وكانت الحمير تجري ، وهي محملة بقرب الماء المستخرج من

الآبار الواقعة خارج المدينة ، كما كان بعض البدو ينصبون خيامهم خارج السور ٠

وهكذا غادرت الكويت ، عن طريق البر الى البصرة فأوروبا ، وكنت حزينا وأنا أترك المدينة وراء ظهري ٠ لقد كان للبلاد حظها من المشكلات ، الا أنها كانت أقل من غيرها من البلدان المشابهة لها في المساحة ، كما كان عليها أن تتغلب على كثير من المصاعب أيضا ٠ وقد تمكنت حتى الآن من حل مشاكلها ، والتغلب على صعوباتها ، وليس هناك من سبب يجعلها عاجزة عن مواصلة ذلك في المستقبل ٠ فمراكبها وبحارتها معروفون بسمعتهم الطيبة في طول البحار الشرقية وعرضها ، وبريق لؤلؤها مشهور في باريس ونيويورك ، وتجارها يلاقون كل احترام من سوريا الى سنغافورة ومن القاهرة الى كاليكوت بالهند ٠ وهي مكان لطيف جميل ، يعيش فيه المواطنون بسلام ووئام ، ويساعد فيه التجار الأغنياء الفقراء من المواطنين بحسب تعاليم الاسلام ، ويتصرف الشيخ كوالد للجميع ٠

وبينما كنت أغادر المدينة في وضح النهار ، وأرى قوافل الجمال وهي تدخل اليها محملة بالعوسج وحطب الوقود ، قادمة من الصحراء ، وفريقا من الصبية ، وهم يسوقون حميرهم بمرح الى حيث الآبار التي يملأون منها قربهم بالماء الصالح للزراعة ـ كنت أشعر بالحنين الى البقاء هناك ، حيث يمكنني أن أشتري « البغلة » التي تعجبني ، وأجالس الرجال الحكماء الأجلاء موسما آخر ، وأتعلم المزيد من فنون الملاحة في البحار الشرقية ٠ وكانت الشمس تسطع باهرة في سماء صافية ، خالية من الغيوم ، الا أن الجو لم يكن شديد الحرارة ، بل كان معتدلا ، لطيفا ، والهدوء والسكينة يلفان كل شيء ٠ وعندما كنت انظر الى علم الكويت الأحمر ، وهو يخفق على قصر الشيخ ، وعلى جميع المراكب الراسية في الميناء ، كنت أقول في نفسي ها هو علم أود لو استطعت الابحار وأنا أرفعه على مركبي ، كما أود لو استطعت أن أعيش في ظله مرة أخرى ٠ وداعا ، يا كويتي العزيزة ! حق لك أن تفخري برجالك الذين يبنون المراكب العظيمة ، وببحارتك الذين يبحرون على ظهورها الى أقاصي الأرض ٠

خَـاتـمَة

خاتمـــة

على الأمواج اللاهبة من الحر المشبع بالرطوبة ، التي كانت تخيم على نهر البصرة « شط العرب » ، كانت هياكل وصواري ما يزيد عن مائة من المراكب تنعكس بشكل غريب ، بحيث كانت المراكب القريبة تبدو كأنهـــا تتراقص وتهتز كأوراق الشجر في مهب الريح ، بينما كانت المراكب البعيدة تبدو كأنها مفصولة عن الماء التي تقف فيه ، بطبقة واضحة المعالم تماما ، ولكنها وهمية ، من الهواء • كنا في شهر اكتوبر (تشرين أول) ، الا أن ميناء « الفاو » ، الواقع على مدخل نهر البصرة ، كان لا يزال حارا لدرجة لا تطاق • وكان ذلك اليوم حارا جدا ، ساكن الريح رطبا لدرجة لا تكاد تحتمل • وكانت أشجار النخيل الخضراء تقف على الجانب العراقي مـــن النهر ، أصولها في الماء ، ورؤوسها العالية في الجحيم ، بينما تتراكم عناقيد البلح بغزارة بين سعفها • وعلى مسافة منا الى الشمال ، كان الدخان القذر الصادر من عبدان ، الميناء الايراني الغني بالنفط ، يلوث عشرة أميال من الجو الذي لم يقترف ذنباً ليلقى هذه المعاملة • وكانت مياه النهر الواسع ، الصفراء اللون ، تجري مسرعة نحو البحر ، وهي تحمل على ظهرها المراكب المسافرة ، وهي موسوقة بالتمور • وكانت مراكب تقلع مغادرة المينـــاء ، بينما مراكب غيرها تصل اليه • وكان هناك عشرات من المراكب من جميع الأصناف ترسو قبالة مدينة « الفاو » أو تسير على صفحة الماء ـ فهنـــاك المراكب العظيمة الجميلة القادمة من مدينة الكويت المجـــاورة ، وهنـــاك البغلات الجميلة والسمابك القوية القادمة من ميناء صور في عمان ، وهناك المراكب الهندية « الكوتيا » القادمة من بومباي ، وخليج كوتش ، وهناك المراكب الفارسية والعمانية والحضرمية وتلك القادمة من ساحل المهرة ومن الساحل المتصالح ، ومن الباطنة • وكان التمر هو الذي يجذب هذه المراكب جميعا ، وكانت هذه هي مقدمة أسطول موسم التمور ، الذي يقوم بتوزيع حصيلة العراق منها على البلدان الواقعة على شواطىء البحار الشرقية •

كان المنظر ممتعا ومملوء بالحياة والحركة ، بل كان يمكن أن يكون لطيفا ، لولا حرارة ذلك اليوم القاتلة ، ورطوبة « الفاو » الهائلة ، التي تكاد تكتم الأنفاس • وكانت القوارب الطويلة ذاهبة آتيـــة من المهبـــط الصغير القائم في قلب الميناء واليه ، وهي تنقل النواخذة ، والمعلميـــن وقائدي الدفة من مراكبهم الى البر • وكان منهم الايرانيـــون الوقـــورون

المهيبون بجلابيبهم البيضاء وعماماتهم الملفوفة بعناية كبيرة ، كما كان منهم العمانيون (من أهالي صور) بلحاهم المحناة وقمصانهم الداكنة ، وصدرياتهم المطرزة ، علاوة على الكويتيين الرشيقين ، بجلابيبهم وكوفياتهم البيضاء المصبوغة باللون الأزرق الخفيف ، والحضارمة بوزراتهم القصيرة ، وقطع القماش السوداء الصغيرة التي يرتدونها تحت الركبة ، والهنود وهم يرتدون طبقات من القطن الخفيف الشفاف ، والقمصان الحريرية التي يلبسونها بدلا من المعاطف ــ جميع هؤلاء كانوا يجيئون ويعودون عن طريق المهبط وهم يقومون بمهمات تتعلق بمراكبهم الراسية في الميناء • وعلى البعد السحيق ، فيما بعد الحاجز القائم عند مصب النهر ، كانت الأشرعة المثلثة ، التي كانت الحرارة تكاد تحجبها عن الأنظار ، تشير الى ثلاثة مراكب محملة بالتمور ، كانت قد أقلعت في ذلك الصباح ، ولكنها تقف الآن هناك خارج الميناء وهي تنتظر الفرج عندما تتحرك الريح • وبينما كنت أقف هناك أراقب المشهد ، وصل المركب الضخم (الداو) ببطء ووقار قادما من الكويت ، متجها الى أعالي النهر ، ليحمل شحنته من الرصيف القائم على مقربة من أحد بساتين النخيل • وكان بحارته يقفون بوزراتهم على طول سوره ، وهم يمتعون عيونهم المتعطشة الى الخضرة ، بمنظر البساتين التي كان المركب يمر بها • فقد كانت تلك الخضرة ، وهذا الماء العذب ، هي الصورة التي يحملها الكويتي عن جنة الفردوس • وكانت هذه هي جنة حمد بن سالم ــ هذه الأرض التي كانت تجري من تحتها الأنهار ، التي كان ينمو فيها كل ما تشتهيه الأنفس ، والتي لا تتطلب من العربي الطيب الا أن ينام ويستريح ، فيما ينضج التمر ، وبقية أنواع الفاكهة وحدها ، وتأتي الى مائدته ليتمتع بها هنيئا مريئا •

ولكن حمدا بن سالم وأمثاله لم يكن لهم من تلك الجنة الا أن يمتعوا أبصارهم بها فقط ، فقد كانوا جميعهم ، من حمد بن سالم الى النواخذة ، الى المعلمين الآخرين ، على وشك ركوب البحر مرة ثانية ، والابتعاد عن هذا الفردوس • وقد رأيت بين المراكب المائة ، بوم نجدى وبوم أخيه عبد الله المشترى حديثا • وكان حمد بن سالم قد أوصل « فتح الخير » بكل أمانة وكفاءة الى النهر ، وحمله بالتمور ، وها هو ذاهب على ظهر مركب عبد الله ليعمل « معلما » هناك • وكان المركبان موسوقين وجاهزين للسفر، الا أن « نجدى » لم يكن قد وصل بعد • وكنت أنا قد أتيت الى هذا المكان مع التجار الذين زودوا المراكب بالحمولة ، وكنت أرافقهم الآن الى أن يروا المراكب وقد أقلعت من الميناء بالفعل • ولم يكن يهم هؤلاء سوى أن يسرعوا بارسال المراكب التى تحمل بضاعتهم، لا سيما أن الحرب مستعرة فى أوروبا، والسفن التجارية الكبيرة معطلة عن السفر • وكانت هذه فرصة ذهبية ، لم تتح لهم منذ سنوات طويلة ، وعليهم اغتنامها بارسال شحناتهم من التمر

الجديد الى الاسواق بدون أى تأخير . فما دامت السفن البخارية لن تستطيع حمل التمور الجديدة الى سوق عدن ، فان على المراكب الشراعية اذاً أن تهرع الى ذلك السوق ، والسابق هو الذي يفوز بأفضل الاسعار ويجنى أعظم الارباح .

لذلك فقد حضر التجار بأنفسهم ليتأكدوا من أن مراكبهم قد نزلت الى البحر بأكبر سرعة ممكنة ، وقد قمت بمرافقتهم لرؤية تلك المراكب وهى تقلع . وكان من المنتظر أن يصل نجدى فى ذلك اليوم ، فقد كان قد استدعى من الكويت ، وأبلغ أن مركبه جاهز للسفر . وبينما كنا ننتظر ، شاهدت باصا عتيقا قادما على طريق « الفاو » . ثم مر بمحاذاتنا ، ورأينا نجدى ، فى داخله . وسرعان ما توقف ، ونزل منه نجدى ببطء وهو متصلب الجسم، متعب من السفر ، يتبعه اسماعيل الموسيقى ، ويوسف الشيرازى . وبادرنا بالسلام قائلا : « السلام عليكم » ، فرد التجار عليه السلام قائلين « وعليكم السلام ورحمة الله » . ثم تابعوا قولهم فى الحال : « هيا الى السفر ! أقلعالليلة بدونتأخير ! فمنالمحتمل أن تهب الريح الليلة ، ومراكبكم جاهزة للسفر . هيا ! هيا ! » الى البحر ! سارعوا الى عدن ! هيأ الله لكم الريح المؤاتية ! » وكان نجدى يقف حافى القدمين على طريق « الفاو » وقد تلطخ جلبابه بالعرق والتراب من أثر سفره الطويل ، بينما كان أحد طرفى كوفيته يغطى فمه ليحميه من لهيب الصحراء ورملها . لقد كان متعبا ، ومغبرا ، وحزينا لتركه الكويت . ولكنه لم يفعل شيئا سوى أنه مسح على شاربيه القصيرين ، وتمتم بصوت هادىء « طيب ! ان شاء الله ! » أما التجار فقد تابعوا حثه على السفر حالا وبدون تأخير ، فلم يكونوا يعرفون أو يفهمون شيئا غير هذا . « هيا الى السفر ! أقلع فى الحال ! سارع الى عدن ! » هذا هو كل ما كانوا يقولونه .

وقفت ، وأنا أسمع كلامهم هذا ، وقد عادت بى الذاكرة الى تلك الرحلة الطويلة الشاقة التى سيقوم بها ذلك الرجل ، ذو الانف الاقنى ، الواقف هناك ــ تلك الرحلة التى سيقضى فيها تسعة شهور ، ويقطع عشرة آلاف ميل ، تمتد من شط العرب ، وحول نصف الجزيرة العربية ، وعلى طول ساحل حضرموت ، وعلى امتداد الساحل الشرقى لافريقيا ، وجنوبا الى زنجبار وتنجانيقا ، لقد تذكرت كل ذلك وتصورت الرحلة الجديدة . وأفقت من حلم اليقظة على صوت التجار وهم يصيحون « هيا الى البحر ! أقلع ! أقلع ! » فقد كان هذا كل ما يعرفونه وكل ما يستطيعون قوله . ولم يزد نجدى عن التمتمة بكلمات « طيب ، ان شاء الله ! » .

ولم يكن واحد منهم يبدو أحسن حالا من أثر بقائه تلك الشهور

الاربعة على البر الا اسماعيلا، الذى أمضى تلك المدة وهو يعزف على قيثارته في سوق الكويت . الا أنه كان حزينا أيضا ، وكان ينظر الى النهر بعينين متعبتين . أما يوسف الشيرازي المسكين فقد كان يقف صامتا وقد ذبل ، وزاد الشيب في رأسه حتى أصبح يبدو، في جلبابه الابيض، كأنه الشبح. فقد كان قد عاد لتوه من موسم الغوص على اللؤلؤ ، ولم يجن منه الا دينا جديدا عليه هو ، بالاضافة الى الدين الذى ورثه عن أخيه المتوفى . مسكين يوسف ! ها هو ذاهب ثانية ليقضى تسعة أشهر من التعب والشقاء . الا أن العمل المتواصل على المركب سيبدو له ، حتى في دلتا الروفيجى الفظيعة ، كأنه اجازة مريحة اذا قورن بأعمال الغوص . وكان آخر ما رأيت من يوسف ابتسامته الباهتة ، وهو يودعنى ، ويلحق بنجدى واسماعيل وهما يدرجان على طريق « الفاو » حفاة الاقدام متجهين الى البحر .

ALAN VILLIERS

Sons of Sinbad

THE GREAT TRADITION OF
[illegible]ANSHIP IN THE INDIAN OCEAN

صورة غلاف الكتـــاب الاصلى

المـلاحق

الملحق رقم (١)

فيما يلى قائمة بالانواع المختلفة من المراكب العربية ، كما رأيتها وعرفتها ، مع المميزات الخاصة بكل منها • وتكاد الفروق بين الأنـــواع المختلفة تنحصر فى الهيكل فقط • ويستطيع العربى أن يميز بين نـــوع وآخر ، من الفروق فى شكل الهيكل ، أما بقية الأجزاء والمعدات فهى واحدة تقريبا فى جميع الانواع :

البغلة : البغلة هى مركب المياه العميقة التقليدى فى الخليج العربى وفى خليج عمان • وتمتاز هذه بمؤخرتها ذات النوافذ الخمس ، التى كثيرا ما تكون محفورة بأشكال مختلفة على نسق مركب « الكارافيل » البرتغـالى القديم • وللبغلة شرفات على الجانبين قرب المؤخرة كما يعلو مؤخرتهـا المعكوفة رأس حيوان ذو قرنين • ولا تبنى البغلات الآن الا فى ميناء «صور» فى عمان ، وقد اندثرت من الكويت تقريبا وربما لا يوجد منها أكثر من خمسين بغلة عاملة الآن (١) •

البدن : هذا هو المركب الشائع فى الموانىء الصغيرة الواقعـة على ساحل عمان وساحل المهرة ويمتاز هذا المركب بخطوط هيكله المستقيمة ، وبهيكله المسطح الذى ليس فيه انحناء الى أعلى من الطرفين وبصاريـــه القائم عموديا ، وبطريقة قيادته القديمة الغريبة بواسطة نظام معقد من الحبال والدعامات الخشبية • كما أن عمود المؤخرة يمتد ويرتفع الى علو كبير ، وعندما يرسو هذا المركب ، يفصل السكان جزئيا عنه ، ويربط بأحد جانبيه • « والبدن » عادة مركب صغير ، ليس فيه غالبا الا صار واحد ، الا أن الانواع ذات الصاريين كثيرة الانتشار بين تلك المراكب التى تتاجر مع شرقى أفريقيا •

---

(١) ملاحظة : « الكوتيا » الهندى شبيه جدا بالبغلة العربية ، وكذلك الانواع الهنديـة الاخرى التى تسمى « جونيا » و « جانيا » • والعرب نادرا ما يشترون المراكب الهندية فى هذه الايـام • فغالبـا ما يشـترى العمانيون والايرانيون مراكبهم من الكويت ، الا أن ميناء صور وغيره من الموانىء عادة تبنى مراكبها بنفسها •
وهناك فروق طفيفة بين أنواع المراكب التى تبنى فى الموانىء الصغيرة الواقعة على البحر الاحمر وعلى ساحل حضرموت ، الا أن هذه المراكب صغيرة جدا • أما مراكب المياه العميقة فهى عادة اما من أنواع البوم أو البغلة أو السمبوك ، مع عدد قليل من نـوع الجلبوت أو البدن (المؤلف) •

البلم : هذه مراكب صغيرة عادة، تتاجر بين البصرة والموانىء القريبة الواقعة على الخليج العربى • ويقوم فى الواحد منها صار واحد فى أغلب الاحيان • وهى مراكب صغيرة جميلة ، مؤخراتها تشبه مقدماتها ، ولهـا مقدمات مقوسة ، لا تشبه العمود البارز فى مقدمة البوم ، أو رأس الحيوان ذا القرنين ، الذى يميز السمبوك والبغلة • وتستعمل مراكب البلم بكثرة في أسطول الكويت للغوص على اللؤلؤ • (١)

البتيل : وهو نوع من المراكب مندثر الآن تقريبا • وقد رأيت واحدا منها فقط ، واقفا على رمل الشاطىء فى « الخبر » ، غير بعيد عن البحرين • كان هذا المركب متشابه الطرفين ، يتميز بالزخرفة الجميلة المحفورة على المقدمة والمؤخرة ، وحتى على عمودى المؤخرة والمقدمة اللذين كان كل منهما يحمل عددا من النماذج المميزة • وكانت هذه المراكب كثيرة الاستعمال فى الغوص على اللؤلؤ فى الماضى ، وكان أمراء البحر يفضلونها على غيرها • وعلى الرغم من جمال زخرفتها ، الا أن هذه الزخارف لم تكن لها أية فائدة • وقد توقف البحارة عن استعمال هذا المركب الآن •

البوم : لقد احتل البوم مكان البغلة وأصبح المركب الشائع الاستعمال فى المياه العميقة وخاصة بين عرب الخليج العربى • والبوم مركب متشابه الطرفين ، عمود مقدمته مبنى على شكل نوع من الدقل المائل ، المصنوع بالالواح ، كما يتميز بسكانه الذى يشبه النير • ويستخدم البوم دون غيره ، فى الكويت ، لتجارة البحار العميقة ، كما أن الايرانيين يفضلون هذا النوع من المراكب أيضا •

الجلبوت : يتميز هذا المركب بمقدمته الواقفـة بشـكل عمـودى ، وبمؤخرته المستوية المرتفعة • ويذكرنى هذا المركب بذلك المركب الحربى البريطانى القديم المسمى (Jolly boat) الذى ربما اشتق اسم هذا المركب من اسمه • ويستخدم على نطاق واسع فى الغوص على اللؤلؤ فى الخليج ، خصوصا بين الكويتيين والبحرانيين • كما يستخدمه أهالى صور خاصة والعمانيون اجمالا فى تجارتهم فى المياه العميقة • والجلبوت لا يصل حجمه أبدا الى حجم البوم أو البغلة ، فتتراوح حمولته فى الغالب بين ٢٠ و ٥٠ طنـــا •

---

(١) البلم : مركب بصرى صغير كان يستخدم لنقل الخضار والفاكهة وعلف الماشية من البصرة الى موانىء الخليج ، ولم يكن من مراكب الغوص ، كما يذكـر المؤلف • (المترجم عن أحمد البشر الرومى) •

ماشوة : وهو الاسم الذى يطلق عادة على القارب الطويل • ويقـاد هذا بالمجاديف ، وان كان يركب له شراع فى بعض الاحيان • ويمكن أن يكون له مقدمة ، اما مستقيمة ، أو معقوفة ، ومؤخـــرته عادة مستوية ومرتفعة •

السمبوك : ربما كان هذا أكثر المراكب العربية جميعها شيوعا بل أنه شائع لدرجة أن اسم « سمبوك » كثيرا ما يطلق على جميع المراكب ، كما يطلق الاوربيون عليها كلها كلمة « داو » • والسمبوك الاصلى له مقدمة منخفضة ، معقوفة ، ومؤخرته عالية مبنية ، تكون عادة مربعة ومزخرفـة فى الغـالب ، ولكن بدون الشرفـات على الجانبين ، أو النوافذ الخلفيـة التقليدية • وغالبا ما تكون المؤخرة مثقوبة ـ عادة فى أربـع مواضـع ـ لتهوية المساحة الكائنة تحت سطح المؤخرة • الا أن هذا المركب يخلو تماما من الزخارف الجميلة المحفورة التى تتميز بها البغلة • والسمابك شائعة فى البحر الاحمر ، وعلى السواحل الجنوبية للجزيرة العربية ، وفى صـور ، الميناء العمانى ، حيث بدأت هذه المراكب تحل محل البغلات ، وتصبح أحب الانواع الى بحـارة هذا الميـناء القديم • وتتميز خطوط هيكل السمبوك بالانسياب والجمال • كما يتميز هذا المركب بالرشاقة خلال الابحار بالشراع ، شأنه فى ذلك شأن المراكب العربية الاخرى ، كما أن للسمابك المبنية فى ميناء صـور أسطحـا كاملة ، بعكس المراكب الاصغـر حجما التى تبنى فى موانىء البحر الاحمر ، والتى ليس لها أسطح مطلقا •

الشوعي : هذا نوع من القوارب الصغيرة الشائعة فى الكويت • وهى تشبه السمابك الى حد كبير ، سوى أنها أصغر منها بكثير (فلا يزيد وزنها عن خمسة عشر طنا) ، كما أن هناك اختلافا طفيفا فى الطريقة التى تجمع فيها خشبات المقدمة بحيث تصبح عمودا يرتفع أمامها • ويستعمل الكويتيون هذا القارب كثيرا فى صيد اللؤلؤ •

الزاروك : هذا نوع من السمبوك الصغير المتشابه الطرفين ، السريع جدا ، الذى يكثر استخدامه فى الموانىء اليمنية الواقعة على البحر الاحمر• وليس لهذه المراكب أية أسطح ، وقلما يزيد وزنهـا عن خمسين طنـا • والزاروك العادى يشبه فى شكله وخطوط هيكله قارب النجـاة الانجليزى الممتاز ، الا أنه لا يعادله من حيث المتانة •

الملحق رقم (٢)

الجوانب الاقتصادية لمراكب المياه العميقة

يمكن تقدير ما يكلفه بناء مركب كبير في ميناء الكويت في الأوقات العادية ، على أساس سعر الجلة من تمر البصرة الذي يبلغ ما بين ست روبيات وسبع • (مع العلم أن أرقامي مبنية على الاسعار التي كانت سائدة ما بين عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٩ ، وعلى أن الروبية الهندية تعادل عادة شلنا انجليزيا ونصف ، أو حوالي ٣٣ سنتا أمريكيا) • فما دام وزن المركب وطاقته تحسبان دائما بما يمكنه أن يحمل من جلل تمر البصرة ، التي يزن كل منها (١٨٠) رطلا انجليزيا ، فمن المعقول جدا استعمال هذه الوحدة لتقدير التكلفة • وعلى هذا الأساس فان المركب الذي تبلغ حمولته (١٠٠٠) جلة يكلف بناؤه حوالى (٦٠٠٠) روبية • وقد كلف « فتح الخير » ، الذي يستطيع أن يحمل حوالى (٢٣٠٠) جلة ، كما علمت من صاحبه ، ما بين (١٢٫٠٠٠) و (١٣٫٠٠٠) روبية • أما سبب هذه التكلفة المنخفضة فيرجع الى أن صاحبه / ربانه كان حريصا جدا في اختيار أخشابه ومعداته ، كما أنه اكتفى بصاريين غير متقنين نسبيا • وكان من الممكن بيعه بمبلغ (١٤٫٠٠٠) روبية ، أي حوالي (١٠٥٠) جنيها استرلينيا • وبالمقارنة بالبوم العربي ، فان مركبا شراعيا نظيفا ، مثل الكتش(١) أو السكونة(٢) بنفس القياسات ، يكلف على الأقل ضعفي المبلغ ، اذا كان مبنيا من الخشب الطري في فنلندا أو أستونيا ، وضعفي الثمن ونصفه ، اذا كان مبنيا من خشب البلوط أو الدردار في الدنمرك أو جنوب السويد ، وربما ثلاثة أضعاف الثمن اذا بني من خشب تسمانيا الصلب الجيد ، في أحواض بناء السفن هناك • الا أن كل هذه المراكب تفضل المركب العربي من حيث سلوكها في عرض البحر ، كما أنها جميعا ، باستثناء المركب المبني من الخشب الطري ، تعمر أكثر بكثير من المركب الكويتي •

عندما يعقد أحد النواخذة العزم على بناء بوم جديد ، فانه غالبا ما يجلب الخشب بنفسه من ساحل مالابار ، ويختار عادة الرخيص منه • ونتيجة لذلك ، فان الخشب ، الذي ينشر وتستعمل ألواحه لتغطية المركب ، قلما

---

(١) الكتش Ketch هو نوع من المراكب الشراعية ذات الشراعين (المترجم) •

(٢) السكونة Schooner هو مركب شراعي ذو صاريين أو أكثر (المترجم) •

يكون من النوع الجيد • أما الضلوع والزوايا فتكون عادة أغصان شجر طبيعية مستوردة من ايران ، أو العراق أو الهند(١) • أما الصواري ، وهي الجزء الغالي الثمن من أجزاء المركب ، فتكون عادة من جذوع أشجار الساج الهندية (٢) أما اذا كان النوخذة على عجلة من أمره ، ولم يسعفه الوقت لاستيراد الأخشاب اللازمة ، فانه غالبا ما يحصل عليها من أكوام الخشب المتوافرة في الكويت • وبعد أن يشتري الخشب ، يتعاقد مع أحد « معلمي » بناء المراكب ليبني له مركبه • فيقوم هذا بدوره باستخدام العدد اللازم من النجارين والمساعدين والعمال • ويمكن أن يحصل النجار على روبية ونصف يوميا ، مقابل عمله من الفجر الى الغسق ، أما العمال فلا يزيد أجر الواحد منهم عن الروبية الواحدة في اليوم • ومن المحتمل أن يحصل نجار ممتاز جدا على ثلاث روبيات في اليوم ، علاوة على الطعام الذى يجب أن يزود به في أوقاته •

فاذا عدنا الى « فتح الخير » ، نجد أن ثمن الخشب المستورد من مالابار لبنائه ، قد بلغ حوالي (٦٠٠٠) روبية ، كما تم التعاقد مع أحد النجارين المختصين على بناء الهيكل العاري والسكان بمبلغ (٢٨٠٠) روبية • أما أعداد الأشرعة ، فقد قام به البحارة أنفسهم من غير مقابل ، على اعتبار انه جزء من تجهيز المركب ، وأنه يدخل ضمن الجهد الذي عليهم أن يبذلوه لكي يستحقوا حصصهم في المستقبل • فاذا كان البحارة يرغبون في العمل على ظهر المركب الجديد ، فان عليهم أن يخيطوا أشرعته • وقد دفعت لهم قروض، على الطريقة العربية التقليدية ، لكي يتمكنوا من اعالة أسرهم خلال المدة التي يجري فيها تجهيز المركب • وكانت القاعدة هي أنه اذا قبل النجار سلفة النوخذة ، فقد ربط نفسه بالعمل على ظهر مركبه •

ويقوم البحارة أيضا بتركيب حبال المركب وأجهزته الاخرى • ولذلك فان هذه العملية (التي تكلف الكثير في تسمانيا ، أو الدنمرك ، أو ساحل أمريكا الشرقي) لا تكلف شيئا في الكويت • فهم يخيطون الأشرعة ، ويركبون الحبال وملحقاتها ، ويطلون قاع المركب ، ويعومونه بعيدا عن الحوض الذي يبنى فيه • أما النجارون فهم مسئولون فقط عن بناء الهيكل وعن جلفطته • بينما يقوم البحارة بنقل وتركيب الدفة ، وعجلة القيادة ،

---

(١) اضلاع المراكب لم تكن تستورد من ايران او العراق ، بل من كاليكوت بالهند ، وهى من نوع الساج البرى غير المستقيم (المترجم) •

(٢) صارى المركب ليس من خشب الساج ، بل من خشب يسمى « الفن » وهو على نوعين « فن اصل » و « فن ابراهيم » (المترجم) •

وصندوق البوصلة ، والرحوية ، وأية تجهيزات أخرى يمكن حملها ، وتشمل هذه ، علاوة على ما ذكر ، القارب الطويل ، وقارب النوخذة (الذي يمكن أن يكون جذع شجرة محفورا) ، والموقد ، وبعض المراسي القديمة ، وزوجا من خزانات المياه الخشبية • وجميع هذه الأشياء يشتريها النوخذة بأرخص الأسعار ، كما يشتري المواد اللازمة للجلفطة ، والطلاء ، كزيت السمك ، وأدوات التثبيت ، والبكرات الصماء ، والبكرات العادية القليلة التي يجهز بها المركب • كما يشتري النوخذة أيضا المواد اللازمة للحبال • وعندما لا يكون البحارة ، الذين اتفق معهم على العمل معه ، مشغولين في خياطة الأشرعة ، أو تجهيز المركب بالمعدات ، أو بأعمال أخرى مشابهة ، فانهم يقومون بمد الكابلات والحبال اللازمة لصواريه وأشرعته ، وأية أجهزة متحركة أخرى يحتاج اليها • وهكذا فان ثمن التجهيزات المصنوعة من الحبال يقتصر على ثمن المواد التي تصنع منها الحبال ، وبما أن هذه لا تعدو أن تكون ألياف جوز الهند الرخيصة المستوردة من الهند ، فان ثمنها ضئيل جدا • كما أن ثمن الأشرعة يقتصر على ثمن القماش القطني اللازم لها ، وهذا يكون عادة قليلا ، لأنه من القماش الهندي أو الياباني الرخيص • وتصنع جميع حبال المركب من هذه الألياف ، كما أن غرز الخياطة غير متقنة ، واللفقة دائرية وبسيطة جدا • أما الطرق التي تستعمل في أماكن أخرى لتقوية الحبال ، كاضافة قليل من قطران ستوكهولم الى أليافها المغزولة ، فلم تكن معروفة أبدا • ويقتصر ثمن الصواري على ثمن الخشب الذي تصنع منه فقط • أما المراسي ، وعجلات القيادة ، والبوصلات وصناديقها فتكون عادة مستعملة وقديمة جدا ، وتكون في الأصل مشتراة من أكوام الخردة في بومباى قبل سنوات طويلة ، ومستعملة في مركبين آخرين على الأقل • وتبنى القوارب الطويلة على الشاطىء ، تحت مظلة من الحصير ، في نفس الوقت الذي يبنى فيه البوم نفسه • ويكلف بناء قارب طويل من هذا النوع مبلغا كبيرا ، يصل الى ثماني روبيات للقدم • فاذا كان طول القارب ثلاثين قدما مثلا ، فانه يكلف ما بين (٢٠٠) و (٣٠٠) روبية ، الا أن من الممكن شراؤه بسعر أرخص بكثير ؛ وهذه التكلفة تشمل الصاري ، وشراعا واحدا ، علاوة على مرساة صغيرة •

ويمكن ، اذا ، حساب تكلفة بناء وتجهيز مركب مثل « فتح الخير » بشيء من التفصيل ، على الوجه التالي :

	روبية
ثمن الخشب	٦٠٠٠
قيمة العقد مع كبير النجارين	٢٨٠٠
الأشرعة	٢٠٠٠

	روبية
الصواري	١٠٠٠
القارب الطويل	٢٠٠
الأجهزة والمعدات ، بما في ذلك الرحوية ، وصندوق البوصلة ، وخزانات الماء ، والموقد ، وأربع من المراسي ، والبكرات والمواد اللازمة للحبال	٣٤٠
مواد الجلفطة والطلاء بما في ذلك زيت السمك اللازم لطبقتي الطلاء الخارجية والداخلية	١٠٠
قارب النوخذة	٦٠
المجموع	١٢٥٠٠

ويبلغ عدد الأشرعة التي يزود بها مركب جديد ، سبعة أشرعة . ويشمل ذلك ثلاثة أشرعة رئيسية (ذات أحجام مختلفة . يبلغ حجم أكبرها الذي يسمى « العود » ، حوالى ضعفي حجم أصغرها ، الذي لا يستعمل الا عند هبوب الرياح القوية فقط) ، بالاضافة الى شراعين مزينيين ، وشراعين من النوع الذي ينشر على سارية المقدمة . ولكن كثيرا ما يقلع البوم الجديد في رحلته الأولى دون أن يكون مجهزا بجميع المعدات والتجهيزات المذكورة .

وتكلف بغلة ، من نفس الحجم ، (٢٠٠٠) روبية زيادة على ما ذكر ، بسبب كمية الخشب الاضافية اللازمة لبناء مؤخرتها المربعة العالية ، وبسبب العمالة الاضافية اللازمة . فأعمال الحفر وحدها ، اذا تمت حسب الأصول ، تكلف ما لا يقل عن (١٠٠٠) روبية . ولكن الكويتيين لم يبنوا بغلة واحدة منذ أكثر من ربع قرن ، بينما تخلو البغلات المبنية هذه الأيام في ميناء صور العماني من معظم الزخارف في الغالب .

أما مواد تثبيت الخشب فهي دائما من الحديد الرديء ، المطروق باليد في دكان حداد على الشاطيء ، ولا يعالج الحديد بأي شكل من الأشكال قبل أن يدق في المركب .

أما التمويل اللازم لبناء المركب ، فانه يأتي دائما من أحد التجار . ويكون لهذا ، عادة ، مصالح في بساتين النخيل على شط العرب ، أو مصلحة من نوع آخر في تجارة التمر في العراق ، ويرغب في استعمال المركب الجديد لنقل التمور التي يتاجر بها ، ولكنه لا يرغب في تحمل مسئولية امتلاك المركب . ولذلك فان النواخذة يمولهم التجار ، ويسمح لهم

بأن يكونوا المالكين الاسميين لمراكبهم · وهذا النوع من التمويل ضروري جدا ، لأن النوخذة لا يستطيع في أي وقت من الأوقات ، أن يمتلك المال اللازم لبناء المركب · فاذا امتلك هذا القدر من المال ، ترك البحر وأصبح تاجرا ·

وليس هناك نظام للتأمين في البلاد · وبدلا من ذلك فان طريقة التمويل المذكورة تجعل استثمارات التجار ، في الواقع ، من مسئولية النوخذة · فاذا ما فقد المركب لأي سبب من الاسباب ، ظل النوخذة مسؤولا عن الدين(1) ، كما أن نظام التنزيل من قيمة المركب مقابل الاستهلاك غير معروف أيضا خلال السنوات الخمس الاولى من عمره · وما يحصل فعلا في بعض الأحيان هو العكس تماما ، فمركب مثل « فتح الخير » مثلا مبني على يدي نجار ، من الدرجة الاولى ، بسعر منخفض جدا ، تزداد قيمته في الواقع ، زيادة كبيرة خلال السنوات الخمس الاولى عندما تنتشر سمعته الطيبة ، ويعرف الناس أنه مركب سريع ، قوي ، قادر على مصارعة الأمواج · أما بعد السنوات الخمس الاولى ، فان قيمة الاستهلاك السنوي من قيمة مركب من هذا الحجم تبلغ حوالى (١٠٠٠) روبية سنويا ، منذ السنة الخامسة حتى العاشرة · وبعد ذلك تظل قيمته ثابتة تقريبا حتى السنة الخامسة عشرة · أما بعد ذلك ، فمن الممكن أن ينحدر الثمن انحدارا سريعا ، خاصة اذا لم يحافظ على صيانة المركب ، وابقائه في حالة جيدة ·

أما المؤن فانها تشترى بأرخص الأثمان · فالكويت ميناء حر ، والمؤن والمعدات رخيصة ، وذلك يشمل المواد اللازمة للحبال ، وقماش الأشرعة ، والجير والدهن المستعملين في طلاء المركب ، والقماش اللازم للجلفطة ، والمراسي وبقية الأدوات البحرية ، والقوارب ، المصنوعة من جذوع الشجر المحفورة والمجلوبة من ساحل ملابار ، والمجاذيف المصنوعة من الأخشاب المسطحة المجلوبة من « لامو » و « روفيجي » والمركب على طرف كل منها راحة (كراحة اليد) مستديرة ـ جميع هذه الأدوات والمواد رخيصة الثمن · أما القارب الطويل فهو نفسه القارب الذي يستعمل لقطر المركب ، كما أن

---

(1) يبدو ان كلام المؤلف بعيد جدا من الحقيقة · فالتجار لا يسجلون المراكب باسماء النواخذة ، بل باسم مالكها (الذى هو التاجر) · فاذا لم يكن بمقدور مالك المركب السفر عليه ، فانه يتعاقد مع نوخذة يرتضيه ، ولا يكون هذا النوخذة مدينا بشيء لصاحب المركب · وعند حدوث حادث للمركب ينجم عنه غرقه او تحطمه ، فان النوخذة لا يتحمل اى جزء من ثمن المركب او قيمة حمولته ·

كما ان معظم مراكب السفر كانت ملكا لاصحابها ، وليس للتجار · وهم الذين يقومون بالبحث عن الحمولة والاتفاق مع التجار على الاجرة فى كل ميناء · الخ · (المترجم ، عن احمد البشر الرومى) ·

طاقم المركب يتألف من بحارته ، والعاملين على بنائه في الأصل • أما نجاره ، فهو صانعه نفسه • وأما نوخذة المركب فهو الذي يشرف على بنائه وهو الذي يصمم أشرعته ، وهو قبطانه ودليله في جميع الأحوال • ولا يستعمل من الخرائط والوسائل الأخرى المعينة على الملاحة ، الا الحد الأدنى ، ومع أن على المركب أن يحمل مصابيح على جوانبه ، اذا كان يسافر في تجارة الى الهند ، فان هذه المصابيح تجهز ، ولكنها لا تستعمل أبدا ، ولا تكلف شيئا سوى ثمنها الأصلي • ولا يوجد على المركب أية أطواق أو أحزمة للنجاة ، أو عوامات ، أو أنوار تطلق للاستغاثة ، أو صواريخ ، أو أي شيء من هذا القبيل •

أما فيما يتعلق بالأرباح التي يجنيها مركب مثل « فتح الخير » من رحلة عادية كالرحلة التي قمنا بها ، فسأحاول أن أقدم ميزانية تقريبية جدا عن ذلك • وهي كل ما أستطيع أن أفعله ، لا سيما أن تفاصيل هذه الأمور تعد من الأسرار التي لا يجوز أن يطلع عليها أحد ، وذلك لكي أعطي فكرة ما عن الطريقة التي تتم فيها رحلة تجارية عادية لمركب عربي من مراكب المياه العميقة • لننظر أولا الى الجانب التجاري للمركب « فتح الخير » خلال رحلته التي قام بها عام ١٩٣٨ ـ ١٩٣٩م • أولا ، حمل المركب التمر من شط العرب ، الى المكلا • وهناك طلب منه أن يوصل الشحنة الى بربرة ، على ساحل الصومال البريطاني • ومن بربرة الى عدن ، لم يكسب شيئا ولم يحمل شيئا • فيما عدا كيسا أو اثنين من التمور ، حملها الى عدن خدمة لأحد التجار الكويتيين • وفي عدن ، استخدم المال ، الذي حصل عليه المركب أجرا على نقل التمر ، لشراء الملح ، والأرز ، والسكر ، والحليب المجفف ، والذرة الهندية ، وبعض الأشياء المتفرقة الأخرى ، وكانت النية أن تباع هذه السلع في موانيء الصومال الايطالي ، وكينيا ، وزنجبار • وفي موانيء المكلا ، وشحر في حضرموت ، حمل المركب بعض الطباق ، والعسل الحضرمي ، (الذى يحبه العرب المقيمون على الساحل الأفريقي حبا كبيرا لأنهم يعتقدون أن له صفات منشطة للجسم) ، والسمن ، وحجارة الطبخ العربية ، كما قام المركب بتحميل (١٣٠) مسافرا • كان كل رجل منهم يدفع ثماني روبيات ، وكل امرأة تدفع اثني عشر روبية أجرا للسفر الى أفريقيا • وفي حيفون ، وجد قائد المركب ان التجارة العادية مستحيلة ، بسبب القيود التي فرضها الايطاليون على اخراج العملة من البلاد ، فاضطر أن يقنع بمبادلة بعض الأرز والسكر بالسمك المحلي المجفف ، وبمزيد من الملح • وهنا بيع قارب قديم بمبلغ (١٠٠) روبية • وفي موقاديشو كانت التجارة العادية مستحيلة أيضا ، الا أن عددا من المسافرين انضموا الى المركب للسفر الى ممباسا ، وزنجبار ، ووجدت طرق وأساليب للتخلص من

معظم السمن ، وحجارة الطبخ ، وكثير من السلع الأخرى • وفي لامو ، لم يجن المركب أي ربح ، فيما عدا بعض المسافرين الذين كانوا متجهين الى ممباسا وزنجبار • وفي ممباسا ، بيع شيء من السمن ، وقليل من الأرز ، وأخذ بعض المسافرين المتجهين هذه المرة الى زنجبار فقط • وفي زنجبار تم التخلص من كل الشحنة التي على المركب ، بالاضافة الى جميع الركاب • وقد استخدم المال الذي تم الحصول عليه بهذه الطريقة ، لارسال المركب الى دلتا الروفيجي ، حيث تم الحصول على شحنة كاملة من خشب المانجروف بالشراء وبطرق أخرى • وعند توقف المركب في زنجبار ، في طريق العودة الى الوطن ، بيع عدد قليل من الأعمدة الخشبية الخفيفة ، وأضيف الى الحمولة القرنفل وجوز الهند ، والشميرية ، ومجموعة منوعة من الصابون • وكان القصد أن تباع جميع هذه الأشياء في مسقط وموانيء الخليج العربي • ثم قفل المركب عائدا الى الجزيرة العربية •

وقد اعتبرت العوائد التي تم الحصول عليها من بيع هذه البضائع ، بالاضافة الى أجور الركاب ، ومجموع ثمن الاعمدة الخشبية ـ اعتبرت جميعها ربحا • وعلى هذا الأساس يمكن حساب الجانب التجاري من الرحلة على الشكل التالي :

البنـــد		الروبيات المقبوضة
أجرة شحن ٢٣٠٠ جلة من التمر من البصرة الى بربرة بسعر ١½ روبية للجلة الواحدة	=	٣٤٥٠ روبية
ثمن شراء الملح والأرز والسكر والحليب المجفف •• الخ من عدن	=	٣٠٠٠ روبية
الرصيد	=	٤٥٠
في المكلا وشحر : أجور سفر (١٠٣) رجال بمعدل ٨ روبيات ، و(١٥) امرأة بمعدل ١٢ روبية للشخص الواحد	=	١٠٠٠
في حيفون : ثمن مبيع قارب	=	١٠٠
أيضا ، تمت مبادلة الأرز ، الخ بالسمك المجفف والملح • الربح من هذه العملية ، بعد بيع السمك في زنجبار في وقت لاحق	=	٥٠٠

البنـــد		الروبيات المقبوضة
في موقاديشو : أجور سفر بعض الركاب الى لامو بالاضافة الى ثمن مبيع السمن ، وحجارة الطبخ الخ ·	=	٢٥٠
في لامـــو : أجور سفر بعض الركاب الى ممباسا وزنجبار	=	١٠٠
في ممباسا : أجور سفر بعض الركاب الى زنجبار	=	١٠٠
في زنجبار : الربح غير الصافي من مبيع الحمولة (لا يدخل في ذلك قيمة المبادلة التي جرت في حيفون)	=	٨٠٠
في دلتا الروفيجي : مجموعة تكلفة شحن الخشـب (بما في ذلك بعض الرسوم غير الرسمية ، ٠٠٠ الخ)	=	١٧٠٠
ثمن مبيع هذه الشحنة في البحرين	=	٦٠٠٠
رصيد الربح من الأعمدة الخشبية	=	٤٣٠٠
رحلة العـودة : الربح المحصل من بيع الصابـون والقرنفل ، والشعيرية ، وجوز الهند ٠٠ الخ ، (بالتقريب)	=	١٠٠٠
عائدات أخرى : لم يسجل مصدرهـا أو طريقـة الحصول عليهـا الا أن للبحـارة الحق في نيل حصتهم منها (بالتقريب)	=	١٠٠٠
مجموع الأرباح غير الصافية	=	٩٦٠٠

من مجموع الأرباح هذه ، التي كانت تقل بمقدار (٣٠٠٠) روبية عن رحلة العام السابق ، خصم ثمن الأكل ، عندما أجرى الحساب الختامي في الكويت ، بعد شهرين من انتهاء الرحلة ، وكان جميع البحارة يشاركون في تكلفة الطعام ، التي يجب أن تخصم من الأرباح غير الصافية بموجـب التقاليد المتعارف عليها · وقد بلغت تكلفة الطعام ، بمعدل (٣) أنات في اليوم لثلاثين رجلا ، لمدة مائتين وسبعين يوما (١٥٠٠) روبية · وعندما

تخصم هـذه مـن المبـلغ الكـامل ، يبـقى (٨١٠٠) روبية ٠ وهذا المبلـغ بموجب التقاليد المتبعة في تقسيم الأنصبة (الأسهم) ، يقسم الى نصفين : نصفه ، البالغ (٤٠٥٠) روبية يكون من نصيب المركب والـ (٤٠٥٠) الباقية تقسم على البحارة ٠ أما نصيب المركب ، فان جزءا كبيرا منه ينفق على صيانته ، وعلى تغطية النفقات الأخرى للرحلة ٠ وحسبما استطعت أن أستنتج ، يوزع النصف الباقي على أساس أسهم متساوية ، ما عدا أولئـك البحارة الذين عليهم مسئوليات وواجبات اضافية ، فقد كانوا يتقاضـون نصف سهم أو ربع سهم اضافي ٠ لقد كان توزيع الأنصبة في « فتح الخير » كما يلي :

	عدد الأسهم
النوخذة	٥
المعلم	٣
قائدو الدفة ، عدد ٣ × ١½ سهم لكل منهم	٤½
عريف البحارة	١½
مساعد عريف البحارة	١¼
الطباخ	١½
أمين المخزن ـ المضيف (يوسف الشيرازي)	١¼
البحارة ، عدد ١٨ ، سهم واحد لكل منهم	١٨
المجموع	٣٦ سهما

ومن ضمن هذه ، تحسب الأسهم الأربعة الاضافية للنوخذة ، والسهمان الاضافيان للمعلم ، من النصف المخصص للمركب ، لا من النصف المخصص للبحارة ٠ وبذلك يقسم مبلغ الـ (٤٠٥٠) روبية المخصصة للبحارة على ثلاثين سهما متساويا ، فيخص السهم الواحد (١٣٥) روبية ٠ من هـذه الأسهم ، يأخذ البحارة سهما لكل منهم ، بينما يخص الآخرين كالضبـاط الصغار ، سهم وجزء من السهم ٠ أما النجار ، فانه يتقاضى أجره مـن النوخذة مباشرة ولا يشارك في أسهم البحارة ٠ وتأتي وارداته من بيـع القوارب التي يصنعها على ظهر المركب خلال الرحلة ، سواء بيعت أم لم تبـع ٠

وبالاضافة الى الحصص الاضافية التي تكون من نصيب الضبـاط الصغار ، فان النوخذة يتولى أمر عدد من رجال المركب ، مثـل المغنـي

عبد اللطيف ، واسماعيل الموسيقي ، وذلك البحار الذي كان مسئولا عن تقديم القهوة للضباط ، وذلك بأن يمنحهم الاكرامية « البقشيش » اما من نصيبه كنوخذة ، او من النصف المخصص للمركب • أما المبدأ العام الذي يستند عليه منح الاكرامية ، فكان ارضاء كل فرد من أفراد طاقم المركب • فمن الذين يقبضون الاكرامية أيضا ، البحارة الذين يثبتون جدارة خاصة ، أو يعملون بجد واتقان واضحين ، أو يقدمون جهدا اضافيا من أي نوع ، أو يثبتون وجودهم بسرعة استجابتهم ، أو باظهار مهارات خاصة • فبالاضافة الى حصة رجل مثل يوسف الشيرازي مثلا ، فانه يقبض اكرامية ، مكافأة له على الجهد الاضافي الذي كان يبذله باهتمامه بأمور النوخذة والوقوف على خدمته طوال الرحلة •

وعلاوة على الحصص الشرعية التي يستحقها الجميع ، فان لكل فرد من أفراد طاقم المركب موارد رزقه الخاصة ، اما من عمليات التهريب البسيطة ، أو من بيع ما يحمله من السلع بالطريق القانوني • فلكل بحار الحق بأن يصطحب معه صندوقا واحدا فقط ، وتسمح له التقاليد بان يملأه بما يشاء من السلع التي يعتقد أنها تدر عليه الربح الوفير • وللنوخذة أيضا أعماله الخاصة ، التي تشمل في بعض الأحيان ، ما يملأ نصف القمرة الكبير من السجاد العجمي بالاضافة الى عدد من الصناديق القديمة المحفورة حفرا جميلا ، كما يمكن أن تشمل تلك الاعمال تحويل العملات ، ونقل الرسائل والطرود الصغيرة ، ونقل وبيع بعض الكتب الدينية ، واهداء نسخ القرآن الكريم ، وبيع الحجب والتعاويذ وما اليها ـ وكانت جميع هذه الأمور تضيف القليل الى موارد الافراد • ولكن من غير المحتمل أن يصل معدل ما يحصل عليه البحار العادي من أعماله الخاصة ، أو من سلعه طوال الرحلة ذهابا وايابا ، الى أكثر من خمس عشرة أو عشرين روبية • الا أن بامكان النوخذة أن يكسب ألف روبية ، اذا كانت الظروف مؤاتية ، وكان هو مقتصدا في لهوه وملذاته • كما يمكن ان يكسب « المعلم » عدة مئات من الروبيات • أما الموسيقي ، فانه عادة يصيب توفيقا كبيرا ، بل ربما جمع من المال ما يكفي لتسديد الديون المتراكمة عليه من عمله في الغوص، وفي بعض الأحيان يكسب كثيرا جدا من موسيقاه ، حتى أن نوخذة الغوص يفضل أن يحصل على نسبة معينة من دخله ، على أن يضطره للعمل على ظهر المركب مع احتمال فشله في الحصول على شيء من اللؤلؤ • وقد كان اسماعيل ، المغني على مركبنا ، يحصل على كثير من الاكراميات من كبار التجار ، والأعيان ، الذين كان يعزف لهم وهم يحضرون ولائمنا ، وكانت أداته الموسيقية مهداة من النوخذة الذي يمنحه اكرامية مناسبة أيضا عند انتهاء الرحلة • وكان هذا رجلا مهما بالنسبة للمركب ، فقد كان عزفه يساعد على انجاح الولائم التي كان النوخذة يقيمها ، وترفع من شأنه أمام

الآخرين ، وبالتالي ، تساعده في أعماله التجارية ٠ أما المغني ، فقد كان يقبض الاكرامية لأن غناءه كان يضفي جوا من السعادة على المركب ، ويخفف من مشقة العمل ٠ وربما حصل على خمس عشرة روبية عن الرحلة ٠

وعندما يكون بعض الصبية على ظهر المركب ، فانهم لا يحصلون على حصص كالبحارة الكبار ، بل يكسبون ، بعض الاكراميات من النوخذة والبحارة ٠

وفيما يلي قائمة بالطعام الذي استهلك خلال الشهور التسعة التي قام المركب « فتح الخير » بالرحلة خلالها ، وذلك بقدر ما استطيع حساب كمياتها ٠ وينبغي الاشارة هنا الى أن جمع الاحصائيات من العرب ليس بالأمر السهل ، ولم أستطع شخصيا الحصول على أية معلومات على الاطلاق، الا بالاصرار المتواصل بدون كلل او ملل ، وبفحصي الدقيق الشامل لكل بنود المصروفات ، في نفس الوقت الذي كان الصرف يتم فيه (بقدر ما كان ذلك ممكنا) ٠ فلم يكن يبدو أن أيا من الامور يتم بطريقة مستقيمة واضحة تماما ٠ واني أقدم الأرقام التالية ، على أن تعتبر كدليل صحيح الى حد ما ، لا كأرقام دقيقة جدا ٠

لقد كان استهلاكنا ، بقدر ما استطعت اكتشاف كمياته أو تقديرها كما يلي :

	روبية
التمر : ٤٠ جلة ، بمعدل ٣ روبيات للجلة الواحدة	١٢٠
الأرز : ٥٣ كيسا ، بمعدل ٨ ـ ١٠ روبيات للكيس الواحد	٥٠٠
الطحين : ١٢ كيسا ، بمعدل ٦ روبيات للكيس الواحد	٧٢
السكر : ٧ أكياس ، بمعدل ١٢ روبية للكيس الواحد	٨٤
السمك المجفف : (وكان يشترى فقط عندما لا يتوافر السمك الطازج ٠ السعر مختلف ولكنه ليس عاليا جدا) ٠	٤٠
الدال (الذرة الهندية) : ٦ أكياس ، بمعدل ١٥ـ١٦ روبية للكيس الواحد	٩٠
الملح : ٣ أكياس ، بمعدل ٢ روبية للكيس الواحد	٦
الشاي : (استهلكت كمية كبيرة منه ، ولكنها كانت من النوع السيء جدا) حوالى	٥٠

	روبية
القهوة : (استهلكت كمية كبيرة منها ، ولكنها كانت من النوع السيء جدا) حوالى	٣٠
السمن : (بعضه ممتاز من الكويت ، بسعر ٢٠ روبية للصفيحة وبعضه الآخر سيء	١٢٠
السليت (زيت) : المجموع =	٥٠
مواد مخللة (أشياء غامضة : للاستعمال في المرق ، وفي الولائم ، الخ ..)	٥٠
الفلفل الحار : (مرغوب جدا ، وكان دائما يشترى طازجا)	١٠
البصل : (كان يستعمل في المرق وفي الولائم)	٥٠
البطاطا : (كان استعمالها قليلا جدا)	٣٠
القرنفل : (للقهوة)	٥
الزنجبيل (للقهوة ـ عادة كريهة جدا)	٥
معجون الطماطم : (استعمل على قلة ، لتحسين نكهة مرق احشاء الماعز ، الخ ، في الولائم . وكان هذا يشترى من عدن في علب صغيرة جدا واستعملنا منه نصف صندوق خلال الرحلة بطولها)	٢٥
الحليب المجفف : (نادرا ما استعمل)	٢٠
السمسم : (الخبز الفطير : قلما استعمل . استعمل فقط في مناسبات خاصة)	٥
الفلفل الأسود : (من المآكل المفضلة جدا ، كالفلفل الحار ، وكان يشترى طازجا من الأسواق)	٥
الفجل الأبيض : (من عدن)	٥
الليمون	٥
خضر طازجة أخرى (قلما استعملت)	١٥
(١٠) نعجات حية ، اشتريت من بربرة بسعر ٤ روبيات للرأس الواحد	٤٠
(١٥) نعجة وعنزة حية استهلكت خلال بقية الرحلة واشتريت بسعر (٥) الى (٦) روبيات للرأس الواحد	٨٠
المجموع	١٥٠٢

أعتقد أن هذه التقديرات سخية بالنسبة لمركب عربي قــوي حســن الادارة · وكانت بعض فراخ الدجاج الطازج تشترى أحيانا لتقديمها فــي احدى الولائم ، الا أن النوخذة هو الذي كان يدفع ثمنها عادة · وفي الموانيء كان التجار يبعثون أحيانا ببعض الهدايا الى المركب كنمجة ، أو عنزة ، أو بضع دجاجات ، أو بعض الفاكهة · كما كان السمك يصاد بوفرة كبيــرة طوال الرحلة ·

وباجراء عملية حسابية بسيطة ، نجد أن غذاء البحار على ظهر المركب الكويتي كان يكلف حوالي ثلاث روبيات يوميا ـ أي ما يعادل أقل من ثلاث بنسات ونصف البنس ، او سبع سنتات أمريكية · ولكي أتوصل الى هذا المعدل شملت في مصروف التغذية ، ثمن الغذاء الذي كان يقدم لركـــاب الدرجة الاولى على المركب ، وكذلك ما كان يقدم للحطابين السواحليين في دلتا الروفيجي علاوة على تكلفة معظم الولائم التي كانت تقام على المركب في كل ميناء تقريبا ، فيما عدا سلالة ·

وقد وصل الى علمي ، وان كنت لا استطيع تاكيد هذا الأمــر ، أن البحار العامل على مركب عماني لا تتكلف تغذيته أكثر من آنتين اثنتيــن فقط في اليوم ، وأنه يكون سعيد الحظ اذا كسب ستين روبية من رحلته السنوية باكملها ·

الملحق رقم (٣)

وفي هذا الملحق يشرح المؤلف الكلمات العربية التي استخدمها فـي الكتاب وذلك لكي يستطيع قراء كتابه من غير العرب فهمها عندما ترد في النص • ونحن لا نجد داعيا بالطبع لأن نفعل ذلك • فقراء هذه النسـخة المترجمة سيكونون جميعا من العرب •

(المترجم)

الملحق رقم (٤)

اغاني البحر

نظرا الى أن المؤلف ذكر بعض الأغنيات التي كان يشدو بها البحارة في مناسبات مختلفة ، وتمت ترجمتها في مواضعها باللغة العربية الفصحى، ونثرا لا شعرا ، مما يفقدها الكثير من مزاياها الأصلية ، فقد رأينا أن نستأنس برأي بعض النواخذة الكويتيين من ذوي الخبرة والاهتمام بالموضوع ، وكان لذلك نتائج طيبة ، وغير متوقعة · أما أنها طيبة ، فذلك لأننا تمكنا من الوصول الى حقيقة الأمر ، وهو أن البحارة كانوا ينشدون أغاني خاصة بكل مناسبة ، وأن ذلك كان من الأمور المتعارف عليها على ظهور المراكب العربية جميعها ، سواء كانت مراكب غوص ، أو مراكب سفر بعيد · وأما أن النتائج كانت غير متوقعة ، فذلك لأنه تبين لنا أن المؤلف ، لعدم معرفته بالحقيقة المذكورة ، وقلة معرفته باللغة العربية ، كان الى حد كبير يخترع تلك الأغاني التي أتى بها في مؤلفه ·

وبما أن أبحاثا علمية معروفة قد تمت ، وأبحاثا أخرى يجري العمل فيها الآن ، وتتعلق بالأغاني الكويتية القديمة ، برية كانت أم بحرية ، فسنقتصر في هذا الملحق على ذكر تلك الأغاني التي ذكرها المؤلف في كتابه ، والتى يجد القارىء حاشية فى هامش الصفحات التى تذكر فيها ، مشيرة الى هذا الملحق · أما من كان شديد الاهتمام بهذا الموضوع فبأمكانه أن يعود الى تلك الأطروحات المتخصصة لينال قسطا أوفى من المعرفة · وما وصل الى علمنا من هذه الدراسات هي :

١) دراسة للماجستير بعنوان : « أغاني البحر في الكويت ـ النهمة ـ » قامت بها الآنسة حصة السيد زيد الرفاعي ، بقسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، عام ١٩٧١م ·

٢) دراسة للماجستير بعنوان : « الأغاني الكويتية » ، قام بها السيد يوسف الطوخي ، بقسم الموسيقى العربية ، بالمعهد العالي للتربية الموسيقية بالقاهرة ، عام ١٩٧٤م ·

وقد زودنا بالأغاني التالية ومعانيها ومناسباتها ، وطريقة أداء كل منها ، الأخ الكريم السيد أحمد البشر الرومي ، نوخذة السفر القديم ، والمهتم بهذه المواضيع اهتماما خاصا ، ونحن ندين له بالشكر الجزيل · كما أشرنا في بعض المواضع الى رسالة الماجستير رقم (١) بأعلاه ·

(المترجم)

الأغنية الأولى

● **العرضـــة :**

وهي أغنية الحرب ـ وان استعملت في الاعياد والاعراس ، وتستخدم على المراكب أثناء دخولها الموانيء . لهذا فان أشعارها حماسية في العادة ، تحث على الحرب والصبر والجلد .

والامثلة الثلاثة التالية تم الحصول عليها من المغني « النَهّام » المشهور سعود الفرير . وجميعها على نفس الايقاع .

طريقة غناء العرضة بانواعها :

يقوم أحد المغنين بانشاد بيت من الشعر ، فتردد المجموعة البيت نفسه وهلم جرا ، وافرادها يتمايلون على دقات الطبول والدفوف ، ولكن دون ضرب الارض بالاقدام .

المثــال الاول :

يا لله يا المطلوبْ عُونك لي بِلِينـا يـوم شَبّ الحرب ما فيها بقايا (١)
معْتبِين السُّـوّ لِلّي معْتبِينـا مِنْ سَعَى بالحرب ماعَدّ الرّزايا (٢)
لازِم الحَرْبي على جَمْعَه زَمِينـا والطّنايا نِلْتِقيها بالطّنـايـا (٣)
دُون عِـزّ الدارْ بِعنـا واشْتَرِينا بالصّمايِل ما يِفيدَنّ الحَكايا (٤)
شيخنا سـالم على رأيَهْ مِشينـا لو يُوِرِدْنا على حُوض المَنَايا
ونْ دَعَانا في نهـار الضّيق جينـا سَعْد عينك يوم صَوّت بالحمَايا (٥)
سَعْد عينِك بالرجال المِستحينـا كِل شُغْموم كما ذيب السرّايا (٦)

الشروح :

(١) لي بلينا : لو او اذا ابتلينا .
(٢) معتبين : قاصدين ، السو : السوء . الرزايا : المصائب .
(٣) الحربي : المحارب . على جمعه : على ربعه او جماعته . زمينا : مرافق ، ملتزم . الطنايا : القهر ، الظلم .
(٤) الصمايل : الصدق . الحكايا : الكلام ، والمعنى العام : اننا نبيع ارواحنا فداء للوطن .
(٥) سعد عينك : اي : نحن مستعدون للتجاوب . بالحمايا : لحماية الدار .
(٦) شغموم : شجاع .

وِلِمْعَادِي لَوْ يْدور الرّاي فِينـا مايجي يحْمِي عَطِيبين الهَوَايَا (١)
خَبْرَهْ عَنّا وَرَبْعَه خابْرِينــا يُوم ذِبْحَوا دُونَهامِثْل الضَّحَايا
كم صِبِي زال عُمْرَه من يِدِينـا من جموعٍ مابَقّي منها صَمَايـا (٢)

المثال الثانى :

حَـرِ يبينـا يُومَـه تعَنّـا حـقٌ على العـاني نِزورَهْ (٣)
رَدّ السّـلامْ خَشُـو مِهِنّـا لِي ضَيّـع الشّيطان شُـورَهْ (٤)
يُوم غَشّى المِطـلاع مِنّـا يُوم السّما تكَسّر طْيُورَهْ (٥)
جَـوٌ عَايِـه الطّـيرْ غَنّى عَامِينْ وهـذا اليُوم دُورَهْ (٦)
مِن ضَيّـع الهَقْـوَة تمَنّى يَامَا وَطِينـا كِل بُـورَهْ (٧)
مَهْبُـول يا باغـي وَطَنّـا دارٍ تِلاعَـجْ بَهْ قْصُـورَهْ (٨)

الشروح :

(١) عطيبين الهوايا : من يعطبون هواه او يحطمون امانيه • والمعنى العام : لو ادار العدو رايه فينا بغية غزونا ، فانه لا يرى فينا الا من يحطم امانيه •

(٢) صمايا : بقايا - المعنى العام : كم شاب منهم مات على ايدينا ، من اعداد كبيرة لم يبق منها بقية •

(٣) حريبينا : عدونا الذى يحاربنا • يومه تعنا : يوم يرغب فى محاربتنا •
المعنى العام : فى اليوم الذى يرغب احد فى محاربتنا ، لا ننتظره ، بل نخرج له نزوره - اى نغزوه او نقاتله فى عقر داره •

(٤) خشومهنا : خشومها والمقصود هنا خشوم او فوهات البنادق •
لي : اذا • شوره : رايه •
المعنى العام : اى اننا نرد السلام للعدو من فوهات البنادق ، اذا ضيع الشيطان رايه اي اغواه على محاولة مهاجمتنا •

(٥) غشي : رأى المطلاع : الرائى ، او الطليعة •
المعنى العام : ان اول رؤيتنا للعدو هو ذلك اليوم الذى تبدا فيه الطيور من النسور تحوم فوق جثث قتلاه •

(٦) المعنى العام :غزانا اعداؤنا قبل عامين ، والطيور كانت عندئذ مسرورة من قدومهم • واليوم يعودون ثانية ليلقوا المصير نفسه •

(٧) الهقوة : الرأى • وطينا : وطئنا • بوره : ارضه ، جهته •
المعنى العام : من ضيع الراى السديد ، نحن نقصده حيثما كان •

(٨) تلاعج : تضيء ، تتلالا •
المعنى العام : مجنون من يحاول الاعتداء علينا ، فنحن نعيش فى بلاد عزيزة ، تتلالا الانوار فى قصورها •

المثال الثالث :

رَاكِب اللّي تِسْبِقْ خَفّاقِ الجَنَاحْ
لي أمْرَسَتْ خَطْرٍ تِصَرّمْ قَوِيّ حَبَالْهَا (١)

إِنْدِبْ المَرْسُول يَلْفِي عَلَى شِيخ الصّبَاح
قِلْ لِبُو جَابِر بْلادَهْ يْصَفّي جَالْهَا (٢)

لِي انْتَهَضْ طِير السّعِد ثُمّ نَوَى لِلمَرَاح
لِي احْتَرِكْ سَبْع الجَزَايِر تِهِزّ جْبَالْهَا (٣)

شِيخِنا خَلّ الحَكَايَا تِطير بَهَا الرّيَاحْ
لا تْطِيعْ أشْوَارْ نَاس تْرَبّي مَالْهَا (٤)

مَايِفِكْ الدّارْ والجَارْ إلى زَلّ المِزَاح
كُودَ ضَرْبْ مْصَقّلاتٍ تِبِين أفْعَالْهَا (٥)

الشروح :

(١) امرست : انطلقت • تصرم : تقطع • اللي تسبق خفاق الجناح : الفرس أو الناقة السريعة •

المعنى العام : يا راكب الفرس او الناقة السريعة جدا ، والتى اذا انطلقت لم يعد من السهولة ايقافها ، من غير ان تقطع الحبال القوية التى تسيطر عليها كاللجام وما شابهه •

(٢) اندب المرسول : ارسل الرسول • يلفى على : يذهب الى • يصفى جالها : يصون حدودهـا •

المعنى العام : ارسل رسولا الى الشيخ وقل له أن يصون حدود بلاده ، (او ان يختار صفوة الرجال للدفاع عن حدودها) •

(٣) لي انتهض طير السعد : اذا حالفنا الحظ •
لي احترك : تتحرك • الجزاير : الجزر •
اي : اذا قرر الشيخ التحرك للحرب اهتزت الجبال فى الجزر السبع •

(٤) اي : يا شيخنا لا تهتم بالكلام ، ولا تاخذ براي اناس يتاجرون بالمال •

(٥) الى زل : حتى يزول • كود : الا • مصقلات : سيوف حادة صقيلة •
اى : لا يحمى الدار والجار الكلام والهزل ، بل تحميها السيوف الصقيلة الحادة •

الأغنية الثانية

● **الخطفة :**

وهى الاغنية التى ينشدها البحارة عند رفع الشراع الرئيسى (العود) ٠

تقول الآنسة حصة الرفاعى فى أطروحتها المشار اليها بأعلاه ص (٢٧٤) :

« الخطفة نوعان : « شيلة » وهى غناء جماعى ينشده البحارة فى حالة عدم وجود مغن (نهام) على ظهر السفينة ٠ والغناء عبارة عن دعاء وتضرع الى المولى أن يسهل عليهم مهمتهم الشاقة ٠٠٠٠٠٠٠ ولكن عندما يوجد نهام أو أكثر على ظهر السفينة فانهما يتبادلان المواويل ٠ وقبل الشروع فى الغناء ، تردد المجموعة كلاما غير ملحن هو بمثابة استهلال للخطفة مثل :

٠٠٠٠٠٠٠ صلى وسلم عليه ، يا رسول الله ، هي يا هي ، يا الله والكريم ، يارحمن يا رحيم ، خاطفين ومتوكلين على الله ٠

ثم يدخل النهام الاول منشدا (اللازمة والبيتين التاليين) ، ويرد الثانى مكملا موال زميله (بانشاد البيتين التاليين) ثم يعود الاول ، وهلم جرا ٠٠٠٠) ٠

المثال :

يا الله يا الله يا الله (اللازمة)
شِلْنا واتكلنا على الله
ربي عليك اتكالي
يا خالقي لك المُلك (أو : عزّيت يا من له المُلك)
كريم تِعلّم بحالي
علْمك بِسُود الليالي
بَلُوذْ بكْ يا محمد
بشكي لك عما جرى لي
مسكين ، أنا مْسيكين (مسيكين : تصغير مسكين)
ما ينْدَرَى إيش حالي
ما حالي الا المَودّة

الأغنية الثالثة

● **النَّوَّاري :**

وتنشد هذه الاغنية عند جر السفينة الى الشاطىء بالطريقة التى ذكرها المؤلف ، وذلك اذا كان حبل المرساة يزيد طوله عن الكيلومتر الواحد ·

طريقة الغناء :

يبدأ الغناء أقدم البحارة من المغنين « النهامين » على ظهر السفينة ، فيفتتح باللازمة ، ثم ينشد الشطرين التاليين ، ثم يردد اللازمة ثانيــة لكى ينتبه المغنى « النهام » الثانى ، ويستعد لقول الشطرين التاليين ثــم اللازمة · ويدخل المغنى الثالث ان وجد ، أو الاول ثانية ، ويتابع الغناء بنفس الطريقة ·

يصاحب هذه الاغنية التصفيق ، وأحيانا يستعمل الطبل مع التصفيق، ودق القدم على السطح بشكل ايقاعى ·

المثـال :

الزِّيــن واشْــقَاني (اللازمــة)
هَبّ الغَـــرِبِي عَدَانِي (١)
والهَـــم أزْرَى بِحَـــالِي
رَاعِي المُـــوَرَّس شَـــعَاعِي (٢)
يِزْهَى بِنَقْش الذّرَاعِي (٣)
نَقْش الوُبَـــر في كْفُوفَه
أزرق وعِيـــنِى تشُـــوفَه (٤)
لِيمَنْ قُبَلْ حَيّ شُوفَه (٥)
بقُـــولْ حَـــيّ القِبَالِي (٦)
لِيمَنْ قَبَـــعْ لي بِكُمَّه (٧)
يَجْلِي عَن القَلْب هَمّـــه
يَا سَعْد أبو مِن يِلِمـــه (٨)
فِي مَهْمَهَة يَا رِفَاقِي (٩)

الشروح :

(١) الغربي : الهواء الغربي المنعش • العدان : المنطقة الممتدة من الكويت الي القطيف •

(٢) المورس : الثوب المصبوغ بالورس وهو نبات احمر اللون •
شعاعي : مشع ، مضيء ، جميل •

(٣) النقش : الوسم بالحناء •

(٤) ازرق : اشارة الى النقش الازرق •

(٥) المعنى : انه اذا اقبل ، يؤنسني وتفرحني رؤيته •

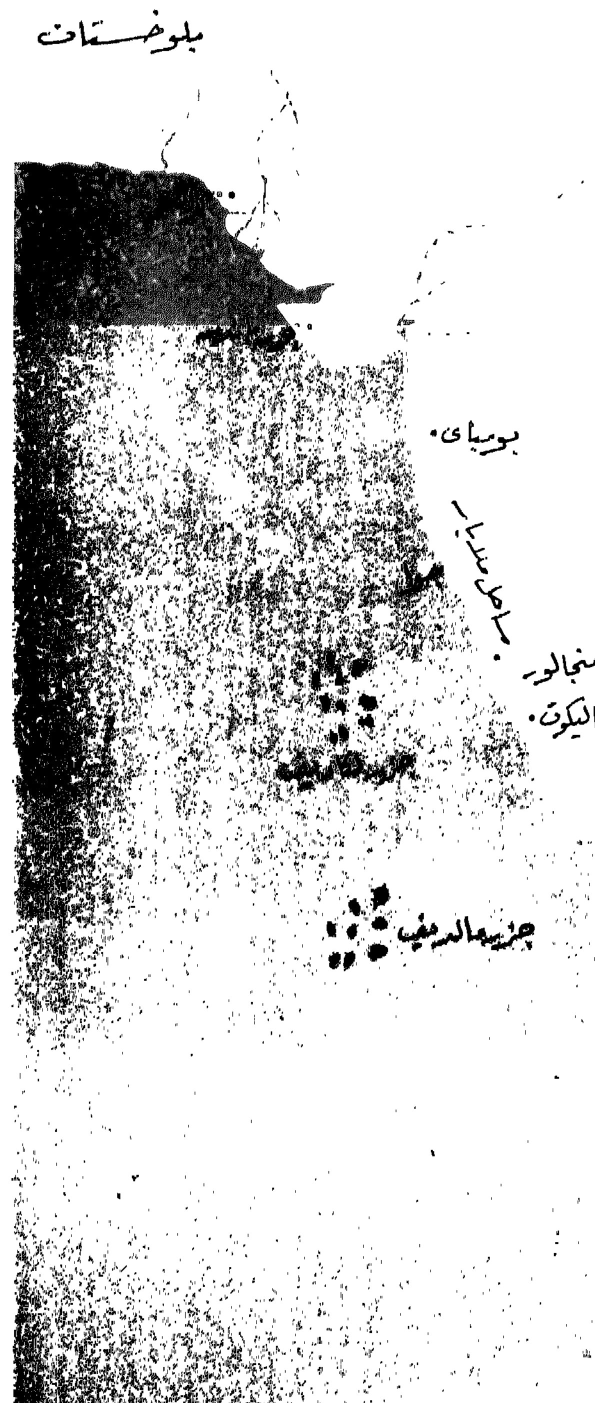
(٦) المعنى : اقول اني احيي القادم قبالتي •

(٧) اى : اذا وضع كمه على وجهه خَفَراً وحياء •

(٨) يلمه : يعانقه •

(٩) مهمهه : مكان خال •

العراق
ايران
البصرة
الكويت
المملكة
العربية
السعودية
بوشهر
الخليج العربي
مضيق هرمز
خليج عمان



« أبناء السندباد » نافذة غربية على ماضي الكويت

د· علي سعود عطية

القبس ـ العدد ٢٧٦٧ ـ الثلاثاء ١٩٨٠/١/٢٩

●● « أبناء السندباد » كتاب عربي ، وضعه الكاتب الانكليزى ألن فلييرز، ترجمه وحقق فيه الدكتور نايف خرما ، بتكليف من وزارة الاعلام الكويتية ، سيصدر قريبا ●●

ان يتصدى المرء لاثر نفيس مكتوب بلغة اجنبية ، فينقله الى العربية ، انجاز كبير · وهذا ما فعله الدكتور نايف خرما استاذ اللغة الانكليزية بكلية الاداب بجامعة الكويت · فقد اتيح لكاتب هذه السطور ان يطلع على مخطوط لترجمة محكمة لكتاب الرحالة الانجليزى فلييرز ، قام بها الدكتور خرما بتكليف من وزارة الاعلام ويستعد لنشرها فى وقت قريب · واهمية هذا الانجاز تكمن فى ناحيتين اساسيتين :

الناحية الاولى ان الدكتور خرما يملك الاداة القوية للترجمة فقد عانى اللغة الانكليزية فترة كبيرة من الزمن : طالبا ، ومدرسا ، وموجها عاما ومستشارا لها فى وزارة التربية ، الى ان تسلم منصبه الحالى استاذا لها فى جامعة الكويت · ومن هنا فقد جاءت ترجمته للكتاب ترجمة دقيقة محيطة بادق الدقائق فيه · واستطاعت معدته الفكرية القوية ، ان تهضم وتنقل لنا اثرا بمقدار ما هو فنى ، مليء ايضا بالمعانى والتجارب التى عاشها مؤلفها ـ كما سنتحدث عنه فيما سيلى ـ ومليء كذلك بالتركيبات اللغوية المركبة ، اذا لم نقل المعقدة احيانا · وحتى لا يشق المترجم على قارئه ، فقد توخى اسلوبا وسطا ·· اسلوبا يروق للمثقف ولا يشق على القارىء العادى ·· كما انه حرص الحرص كله على ان لا يفقد الكتاب شيئا من اصالته الفنية ، وجمال ديباجته · وعلى هذا فقد وفق توفيقا كبيرا · وقد وصف المترجم منهجه فى الترجمة فى مقدمة كتابه فقال :

« ··· التزمنا التزاما تاما بالنص الاصلى ··· مع حرصنا الشديد على نقل الافكار وتفاصيل الوصف للاشياء والاحداث · لم نحاول ان نستخدم لغة ادبية خاصة يعسر على القارىء العادى ان يفهمها أو يستمتع بها · بل عمدنا الى استعمال لغة عادية ، سليمة بقدر الامكان ، عربية البنية والجرس ، فى معظم الاحيان ··· حاولنا بقدر استطاعتنا الحفاظ على التغييرات فى اسلوب المؤلف ، من الاسلوب الادبى الرفيع ، الى الاسلوب الفنى الرقيق، الى اسلوب الكلام والخطاب ··· »

وحقيقة الامر ان الترجمة جاءت مشوقة ، قريبة الى النفس ·· حتى انك اذا شرعت فى قراءتها شعرت برغبة كبيرة فى الاستمرار على ذلك ، وشدك الكتاب اليه شدا قويا ، واصبحت قراءته بالنسبة لك متعة فنية فضلا عن كونها متعة فكرية ، بل سياحة فى عالم كبير من المعرفة والخبرة الشاسعة الابعاد ·

ولعل الدكتور نايف خرما قد رسم لنا طريقا في كيفية تناول الاثر الغربي ، والامانة في التعامل معه • ويظهر هذا في المقارنه بين ترجمتين للكتاب نفسه ، الذى هو محل النقد في هذه الدراسة • الترجمة الاولى ـ تصدى لها احد المترجمين قبل الدكتور خرما ـ التي طغت على الحقيقة العلمية ، واسرفت في عدم العناية والاهمال ، حتى تخلت عن كثير من الفقرات ، وكان من جراء ذلك ان تداخلت الافكار ، وغمضت المعاني ؛ وبايجاز سادت الفوضى • والترجمة الثانية التي بذل فيها المترجم جهدا كبيرا ومخلصا ، وتفرغ لها ردحا غير قليل حتى استوت على ساقها ، وجاءت اثرا تعتز به المكتبة العربية • ولا نبالغ اذا قلنا نموذجا يحتذى للاخلاص والامانة العلمية والدأب والمثابرة والمكابدة العميقة •

والناحية الثانية ، ان الكتاب نفسه باللغة الانكليزية اثر قيم ، وجهد عظيم ، وبخاصة في ادب الرحلات •• ومن هذا تأتي قيمته كمرجع كبير في فن الملاحة وركوب البحار • فكاتبه الانكليزي الن فليرز احد الرواد في ركوب البحار • ركب البحر الى استراليا منذ كان في الخامسة عشرة من عمره ، وفي عام ١٩٣٥ كان الن فليرز (او الشيخ ماجد كما كان البحارة العرب يسمونه) يقود المركب الشراعي « جوزف كونراد » الذى كان آخر مركب شراعي يدور حول راس هورن باقصى جنوب القارتين الاميركيتين • كما انه كان قبطان المركب الشراعي الذى بني على غرار مركب « ماى فلور » (الذى سافر فيه كريستوفر كولمبس الى اميركا) عندما قام برحلته الشهيرة الى اميركا عام ١٤٥٧ •

وعندما حطت به عصا الترحال في جنوب الجزيرة العربية في اواخر الثلاثينات ، انطلق من عدن برحلة عظيمة طوف فيها عالم البحر العربي من جنوب الجزيرة الى ساحل افريقيا ، (مقاديشو وممباسا وزنجبار الى دلتا نهر الروفيجي) ، عودا الى الخليج العربي ، ووصولا الى الكويت • ولقد ادرك الرحالة الانكليزي الكويت في اواخر الثلاثينات ، فوصفها لنا وصفا دقيقا •• ورآها رؤية عميقة وتوقف عندها وقفة خاصة ، واضفى عليها من اشراق بيانه وعمق تفكيره ودقة بحثه ما جعل كتابه تاريخا يضاف الى التاريخ ، فضلا عن كونه ادبا من الادب او فنا من الفن • ولعمرى فانه كان لا بد لهذه الحقبة من تاريخ الكويت ، كويت ما قبل النفط ، ان تدون ، وان تدون تدوينا واقعيا ينبع من التجربة الحارة والمعايشة الصادقة ، والمعاناة الكاملة • ولقد فعل الرحالة الاوروبي هـذا •••

كويت ما قبل النفط

تشكل فترة ما قبل النفط في تاريخ الكويت ، وتلك الايام المشحونة بالعرق والدموع والجهد الاصيل المثابر ، والجلد الصوفي العظيم في مقارعة الصحاب ، وتحدى الطبيعة القاسية ••• اقول تشكل تلك الفترة بندا مركزيا في نفس كل كويتي عاش تلك الايام في الحقيقة والواقع ، او انه عاشها بالفكر والخيال كما فعل جيل الابناء • كما انها تشكل نغما اصيلا في سيمفونية الرحلة الكويتية عبر التاريخ •• واحيانا تشكل حنينا يبلغ درجة النوستالجيا ويأخذ انماطا متعددة في الاثارة الفنية والفكرية والادبية الكويتية ، كما انها سلوى كبيرة للكثيرين ، يتذاكرونها بشغف ، ويجتمعون حولها وحول اسمارها في المجالس والدواوين ، ويتوقون اليها توقا دافقا يشعرون به شعورا اصيلا ، وبخاصة عندما يحسون بتعقيدات الحضارة الحديثة ومشقة العيش والقلق الذى جلبته الحضارة

مثلهم فى ذلك مثل شعراء الرومانسية فى اوروبا ، الذين ثاروا على تعقيدات الثورة الصناعية فعادوا الى الطبيعة بما فيها من جمال وبساطة ، واستلهموها اجمل اثارهم وابدع انتاجهم • ومثلهم فى ذلك ايضا ـ فى تراثنا العربى ـ مثل تلك البدوية التى امتلأت رومانسية ـ ايضا ـ وهامت عشقا بحياة البداوة والصحراء المعطاءة بما فيها من بساطة ويسر وعفوية •• واعنى بها ميسون الكلبية التى ردت عندما تزوجها معاوية فاسكنها ردهات القصور ، واحاطها بمظاهر النعمة من رياش واراثاث وخدم وحشم •• ردت هذه المظاهر او قل انها ثارت على هذه المظاهر ، ولم تنسها اياما مضت جميلة رقراقة كالماء العذب يسرى •• وقالت :

لبيـــت تخفــق الأريـــاح فيـــه

أحـــب الـــي مـــن قصـر منيـــف

ولبـــس عبـــاءة وتقـــر عينـــي

أحـــب الـــي من لبـــس الشـــفوف

لسان حال كل كويتى فى زمننا هذا يقول : رعى الله تلك الايام ، وسقاها من ماء المزن ! بما كانت وما حملت ! ومن هنا ، فانهم سيجدون فى الكتاب الذى ترجمه الدكتور خرما ، ولم يبخل عليه بالنفحة الادبية ـ كما ذكرنا ـ سيجدون به عزاء ، كما سيجدون به جمالا وستتداعى لديهم الذكريات ويعودون الى رومانسية الثلاثينات فى الكويت ، وكما وفق ايضا الكاتب فى وصفها ، وصفا متعاطفا • وستبقى من اجمل فصول الكتاب تلك التى تصف العواطف الجريئة التى يتبادلها الشبان والفتيات ، على استحياء ، فى مجتمع بسيط ، قبل أن يجمع بينهم على سنة الله ورسوله ! الدريشة من ورائها الفتاة ترقب العالم الخارجى بتعجب وخجل ، وحيرة • والفريج ، ودروب الكويت المتعرجة وحشود الناس تودع السفر ، والغواصين وتستقبلهم فى عيد بهيج ، وتعامل الناس ببساطة وحب • كل هذه المعانى يحمدها المرء للمؤلف ، ويشعر من قراءتها بصدق الكاتب وفهمه وتعمقه •

ووضع الكويت فى اواخر الثلاثينات ، والذى هو امتداد لمئات من السنين سبقتها كمثل مشهد او مشاهد فى تمثيلية شجية سخية ، شخوصها مختارون بعناية ، ويقومون بادوارهم بصدق واصالة ، ويؤدون واجبهم بخشوع ومحبة • وقد اتيح لاحد الاشخاص ان يسجل هذه المسرحية قبل ان يسدل عليها الستار باكتشاف النفط وتغير معالم الحياة ـ الى الابد ! وكان هذا الذى سجل هذا المشهد ، او هذه المشاهد ، قبل ان يسدل الستار ، هو الرحالة فلييرز فى كتابه ومن هنا ، فان له قيمة ترقى الى مرتبة القيمة الوثائقية •

أمر آخر بين امور جديرة بالتقدير ـ وما اكثرها ـ فى هذا الكتاب ان كاتبه يجمع بين خاصيتين اساسيتين : خاصية العالم وخاصية الاديب ، وتلتقى هاتان الخاصيتان لتمنحا كتبه قيمة على قيمة •

اما انه عالم فتكتشف هذا فى شدة عنايته بالتفاصيل • ويظهر هذا التفصيل اكثر ما يظهر فى وصف السفن الكويتية بخاصة والعربية بعامة • فعلى ما اعلم فاننى لم اقرأ اثرا استقصى فيه كاتبه نواحى متعددة فى بنيان السفينة : البوم والبغلة والسمبوك

وغيرها ، كما استقصى كاتبنا هذا • ولعل هذا ما ارهق المترجم من امره عسرا ، حتى يكاد لا يجد لهذه التفاصيل مقابلا في اللغة العربية المعروفة ، مما يضطره ان يتقعب في المراجع العربية القديمة ويبذل في ذلك جهدا غير قليل وعلى هذا فانه فضلا عن الترجمة فقد عمد الى التحقيق فكانما يجده هذا قد اضاف الى علم الكتاب علما شديد الصلة به لصيقا برسالته • ولقد امتد البحث بالمترجم فاتصل ببعض ذوى الخبرة والبصيرة من رجالات الكويت ، ومن عناصر أيام السفر والهجر ، فاستشارهم بشان هذا الكتاب • وما غمض من شان بعض التسميات الانكليزية لاصطلاحات البحر والسفر وعالم السفينة واجزائها • وكان للاستاذ احمد البشر الرومي والاستاذ محمد الرشيد ، وغيرهما من اهل الخبرة والدراية ، جهد مشكور وفضل لا ينكر •

عاشق السفن والبحر

واما انه اديب فالكاتب عاشق كبير لعالم السفن والبحر بعامة ولولا انه كذلك فانه لم يكن ليقف عند تلك الاجزاء فيوفيها حقها قبل ما وفاها • وقارىء الكتاب لا يشعر ان الكاتب يصف هذه التفاصيل وصفا عاديا ، بل انه يشعر ان حبه الكبير للسفينة يتحول في اسلوبه الى ترنيمة هادئة يلقيها في محراب حبه ، او صلاة يصليها في محرابه •

لم يصف الكاتب السفينة واجزاءها وانماطها وانما وصف كل مكان زاره ، وما اكثر المحطات التى وقف بها او استوقفته • ولا نريد ان نقول عنه كما قيل عن شعراء العرب في الجاهلية انه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ! ولكنه بذل شيئا من حشاشة ذاته • وصور ، عن وعي وانفعال صادقين كل ما كان يمر به • وصف رومانسية الموانىء المهجورة البعيدة ، كما انه وصف عوالم متعددة ليست بتلك الرومانسية وجمالها ولطفها • وانما فيها من تعقيدات الحياة ما فيها • وصف عالم ركاب البحار ، من مغامرين وافاقين ، كما انه وصف — على الجانب الآخر — عالم السفر جميعه : النواخذة والغواصين ، ومساعديهم ، والتجارة بين الموانىء المختلفة •

ولعل من اكثر ما وفق به الكاتب هو مقدرته على وصف الاشخاص ، حتى لكانك تراهـم !

وفن التشخيص لدى الكاتب — أى المقدرة على رسم الشخوص — فن قائم بذاته ، شبيه برسم لوحة ، بخطوط سريعة ويسيرة • ومع ذلك فان الشخصية تبرز امامك من عالم الخيال كانها واقع مجسد ! تتمراها يداك بلمس كما يقول الشاعر المعرى •

وان قارىء الآداب الغربية والشرقية لن ينسى نموذجا فريدا رسمه الكاتب بريشته الدقيقة المعطاء ، هى صورة النوخذة الكويتي « نجدى » • هنا تمكن الكاتب ان يرسم الملامح البدنية والملامح النفسية والخلقية ، فبرزت شخصيته بين دفتى الكتاب قوية اصيلة ذكية كريمة وسيمة •• جماع كامل لكل صفات العربى كما ترجوها وكما تحبها !

اكثر من ذلك ، ان الكاتب وفق في وصف عالم كامل ، عالم البحارة على ظهر السفينة وهم يمخرون عباب البحار برحلتهم الطويلة • قادة السفينة ومعاونوهم : الطباخ والنجار والموسيقى والمغنون ومع هؤلاء الركاب المسافرين سفرا بعيدا او قريبا ، والتجار • وكل ما يدور ويعمل في نفس كل منهم ، وما هي تجربته ، وماذا يشكو وماذا يامل •

ويرجو . حتى لكانك تعيش معهم رحلتهم مشرقا ومغربا ، يوما فيوما بل ساعة فساعة ، وتشعر وسط كل ذلك ماذا كانت تشكل كويت الامس للكويتي الراحل عنها الى حين .. الامل ، والحب ، والاسرة ، والاهل والولد ، والوطن .. الاستقرار وكل ما يمكن ان تجود به الحياة من نعمة ، ورغد وهناء ...

الرحالة الكويتى

وصف الكاتب ما للكويت في نفوس ابنائها من عشق او تعشق ! وركز على الرحالة الكويتي اكثر ما ركز . وهذا ما يجعلنا نذكر ميزة اخرى للكاتب ، وهي انه خص الكويت بكل تعاطفه . وانه اذا كان الكاتب قد جار على بعض المناطق الاخرى ، او اهلها ـ من غير الكويت ـ فان تعاطفه مع الكويت وثناءه على الكويتيين ، لما لمسه لديهم من قيم ومحافظة على روح العروبة ، واخلاقيات البحر العربية ، لم يتزحزح ولم يتغير طوال صفحات الكتاب .

كتاب ابناء السندباد فيه الكثير مما يدعو الى السرور او الدهشة .. جاء كتاء وفار لوصف مغامرات احفاد السندباد وابنائه ، ذلك الرحالة العربي الذى جوب الافاق تحمله قافلة وتحمله قافلة .. ووصل الى بلاد بعيدة بعيدة ! وعانى ما عانى واعظمها الدهشة : واكتشاف عوالم جديدة .. وشرب من التجربة حتى ثمل ! مما تمتلىء به صفحات الف ليلة وليلة وغيرها من كتب الرحلات المذهلة ، الى درجة الاسطورة . وقد جاءت اطروحة الكاتب الاساسية لتصف شيئا او اشياء من اخلاق ابناء السندباد هؤلاء : مغامراتهم ، عفويتهم الى درجة الاتكالية احيانا ، شجاعتهم القاتلة ! ومقدرتهم على التكيف وحسن التخلص والغلب على المصاعب .. وفوق كل هذا ايمانهم بالعناية الربانية ، وتسليم امرهم لله العظيم ، مدبر هذا الكون رب الارض والسماء والبحار .

تلكم هى بعض الافكار والمشاعر والخواطر عن هذا الكتاب الذى نرجو ان ينفع الله به وان يلقى من القراء ما هو به جدير . وان يكون نافذة للاجيال تطل من خلاله على ذلك العالم الغابر ، عالم ما قبل النفط ، بكل ما له وما عليه .

يقول المترجم فى مقدمة كتابه ما نصه :

« وهى (اى الترجمة) موجهة بصفة خاصة الى الجيل الجديد والاجيال المقبلة ، من ابناء النفط فى الكويت ، الذين لا يعلمون الكثير عما قاساه اباؤهم واجدادهم فى شظف العيش ومشاق الحياة سواء فى المدينة او فى مواسم الغوص ، او على متون المراكب الكبيرة ، ياخذون من ذلك عبرة ، ويستفيدون موعظة ، ويسيرون على منهاج السابقين ، فى سمو الخلق وطيب المعاملة والصبر على المصاعب والمثابرة فى الجهد لبلوغ الهدف المنشود ، والتعاون مع بعضهم بعضا ومع حكومتهم الرشيدة فى السير بسفينة البلاد الى بر الامان فى هذا البحر المتلاطم من الاوضاع العالمية المضطربة » .

ونحن اذا كنا نريد من كلمة ختامية نقولها حول الترجمة او التعريب لا بد لنا ان نقول اننا ما زلنا بحاجة الى ان نغترف الحكمة والمعرفة من مظانها اينما كانت وباى لغة كانت . واننا اذا كنا فاعلين ولا بد فاعلون حتى نلحق بركب الحضارة فلنختر آثارا من مثل هذا الاثر ـ الذى تحدثنا عنه ـ غذاء للعقل وغذاء للروح .. وبذلك نكون قد حققنا للثقافة هدفا وازددنا معرفة وعشنا تجربة رائدة رشيدة نحو عالم افضل وحضارة اغنى واخصب واكثر تقدما .

مَطبعَة حُكومَة الكوَيت